سيرة النبي صلى الله عليه وسلم

من القرآن الكريم والسنة الصحيحة

مع بيان ما فيها من الفوائد والدروس والعبر

بقلم
عبد الحميد طهماز

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

سيرة النبي صلى الله عليه وسلم

من القرآن الكريم والسنة الصحيحة

مع بيان ما فيها من الفوائد والدروس والعبر

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

حقوق الطبع محفوظة

0502019

تطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

المقـــدّمَة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد النور المبين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنّ كُتبَ السيرة النبويّة الشريفة، التي تحدثتْ عن حياة النبيِّ ﷺ، كثيرةٌ ومتنوّعةٌ، ومع ذلك أحببتُ أن يشرفني الله تعالى بالكتابة في هذا الموضوع، مستمداً منه سبحانه المعونة والمَدَد، فإنَّ حياتَه عليه الصلاة والسلام حياةٌ كاملة، فَخْمةٌ مُفَخَّمة، جامعةٌ كلَّ خير وبر، لا يمكن الإحاطة بها في كتاب واحد.

وكلُّ الذين كتبوا فيها من كتَّاب السير، لم يحيطوا بها، ولم يتمكّنوا من سَبْر جميع أغوارها، ومن الوقوف على كُلِّ حِكَمها وأسرارها، ما أحاط بها إلا الله جلَّ جلاله، الذي يعلم السر وأخفى، والذي أحاطَ بكل شيء علماً. فهو خالقُه سبحانه الذي صنعه على عينه، وأحاطه بعنايته ورعايته منذ بدء تكوينه، وفي مراحل أطواره ونشأته جميعها.

فطره الله على أعلى السجايا وأنبل الصفات، وهيّأه لأسمى الغايات وأعظم المكرمات، فهو سبحانه وحده الذي علم قَدْر نبيّه ﷺ حقَّ العلم ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤]، ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ورسالةُ الله التي كلّفه بحملها إلى الإنس والجن جميعاً هي أعظمُ الرسالات وأكملُها، وصدق والله القائلُ(١):

على قَـدْرِ أهلِ العَزْمِ تـأتي العَزَائِمُ ... وتـأتي على قَـدْرِ الكِـرامِ المكـارِمُ

---

(١) هو أبو الطيب المتنبي.

فلا حدَّ لفضلِه ﷺ، ورحمَ الله تعالى القائل[1]:

دَعْ ما ادَّعتْهُ النصارى في نبيِّهِمُ ... وانسبْ إلى ذاتِه ما شئتَ من عِظَمِ
فإنَّ فضْلَ رسولِ الله ليسَ لهُ ... حدٌّ فيعربَ عنه ناطقٌ بفَمِ

والقائل أيضاً:

وعلى تفنُّن واصفيه بوَصْفِهِ ... يَفْنَى الزمانُ وفيهِ ما لم يُوصَفِ

ولما شاع في الأوساط العلمية أنَّ كُتّابَ السِّيَر كانوا يتساهلون في نقل الأخبار وتمحيصها وتحقيقها، مما أدَّى إلى إضعافِ الثقة بها، عزمتُ على تأليف هذا الكتاب معتمداً فيه على ما جاء في (**القرآن الكريم أو في السنة النبوية** الصحيحة) فلا شكَّ أنهما أوثقُ المصادر العلمية لهذا الموضوع الخطير.

وقد ألزمتُ نفسي بهذا المبدأ، فأعرضتُ عن كلِّ خبر ورد في كتب السيرة لا شاهدَ له في القرآن الكريم أو في صحيح السنة النبوية المطهرة. وسميتُه (سيرةَ النبيِّ ﷺ من القرآن والسنة الصحيحة).

وقد استهوى الشيطانُ بعضَ عوامِّ الأمة المسلمة، وبعضَ المنتسبين إلى العلوم الشرعية، واستغلَّ شِدّةَ محبتهم للنبي ﷺ، وتعلقِهم بجنابه الشريف، فأجرى على ألسنتهم كلماتٍ غلوا فيها في شأن بشريته عليه الصلاة والسلام، فجانبوا الحقَّ الذي يجبُ الوقوفُ عنده، وغفلوا عن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

وغفلوا أيضاً عمّا أمر الله سبحانه النبيَّ ﷺ بقوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف ١٠٨].

فالدعوةُ إلى محبةِ رسولِ الله ﷺ دعوةٌ في الحقيقة إلى الله تعالى، ينبغي أن تكونَ على بصيرةٍ ودرايةٍ وعلمٍ وفهم.

---

(١) هو شرف الدين البوصيري.

وقد احتجّوا بحديث لا أصلَ له، وحتى لو كان له أصلٌ، فهو منكَرٌ لا يحتجُّ به، لِمعارضته صريحَ الآيات القرآنية الكريمة التي تقرّرُ بشريته ﷺ تقريراً واضحاً، لا لبْسَ فيه ولا خفاء.

فهو ﷺ سيّدُ ولدِ آدم، والسراجُ المنير، الذي نوَّره الله سبحانه وتعالى ونوَّر به، والذي كان يتوجَّهُ إلى الله سبحانه عندما كان يقومُ إلى صلاة الليل قائلاً: «اللهمَّ اجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، وفوقي نوراً، وتحتي نوراً، وأمامي نوراً، وخلفي نوراً»(١).

وفي (صحيح مسلم) في رواية شُعبة عن سَلَمة: «واجعل لي نوراً»، أو قال: «واجعلني نوراً»، هذه رواية غُنْدَر عن شُعبة، وفي رواية مُضر عن شُعبة: «واجعلني» ولم يشك.

وللطبراني في (الدعاء) من طريق المنهال بن عمرو عن علي بن عبد الله ابن عباس عن أبيه في آخره: «واجعل لي يومَ القيامةِ نوراً»(٢).

وقد جعلت الكتاب قسمين:

خصصت القسم الأول منه لحياته ﷺ من المولد الشريف إلى الهجرة المباركة.

وخصصتُ القسم الثاني منه لحياتِه ﷺ بعدَ هجرته إلى المدينة المنورة، ثم إلى لقاء الله تعالى، وانتقالِه عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى.

ثم أضفت إلى هذا الشرح الحديثَ عن أحواله الشريفة ﷺ بعد وفاته وعن خصائصة التي أكرمَه الله بها يوم القيامة.

وقسمتُ كلَّ قسم إلى أبوابٍ مستقلة، وجعلتُ كلَّ بابٍ فصولاً متعددة، مراعياً تجانُس الموضوعات، وتسلسلَ الأحداثِ والوقائع. ومع أنّني بذلتُ جهدي وطاقتي في استقراء أحواله الشريفة عليه الصلاة والسلام، وأعماله

(١) انظر الحديث كاملاً في صحيح البخاري في الدعوات، رقم ٦٣١٦.
(٢) فتح الباري: ١١/ ١١٧.

العظيمة من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، فإنني لا أدَّعي الإحاطةَ بها كلها، ففضائلُه ﷺ ومناقبه لا يمكِنُ الإحاطةُ بها، وما في هذا الكتاب غيْض من فَيْض مما في القرآن الكريم والسنة النبوية.

وأرجوه سبحانه وتعالى أن يعفو عن تقصيري وقصوري، كما أسأله جلَّ جلاله أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، ويتقبله مني، وينفعني به، وينفع به كلَّ من يقرؤه، ويسعى في نشره فـ(الدالُّ على الخيرِ كفاعله) كما في الحديث الشريف.

وصلِّ اللهمَّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد وآله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

مكة المكرمة في ١٩/ ٤/ ١٤٢٢هـ
الموافق ١٠/ ٧/ ٢٠٠١م

الفقير إلى الله تعالى
عبد الحميد طهماز

القِسمُ الأوّل

من المولد إلى الهجرة

الباب الأوّل: من المولد إلى البعثة

الباب الثاني: من البعثة إلى الهجرة

الباب الأول

من المولد إلى البعثة

الفصل الأول : أسماؤه الكريمة ونسبه الشريف

الفصل الثاني : معرفة أهل الكتاب له ﷺ

الفصل الثالث : مولده الشريف ونشأته

الفصل الأول

أسماؤه الكريمة ونسبه الشريف

أسماؤه الكريمة:

سمّاه الله عزَّ وجلّ في القرآن الكريم باسمين كريمين هما: (محمد) و(أحمد) قال سبحانه: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ ﴾[الفتح: ٢٩]، وقال أيضاً في صدر السورة الكريمة التي سميت باسمه ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ① وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ [محمد: ١ ـ ٢]، وقال أيضاً: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال أيضاً: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وسيأتي معنا في بُشرى عيسى عليه السلام[1] أنَّ الله تعالى سمّاه (أحمد) حكى ذلك عيسى عليه السلام عن ربِّ العزة سبحانه.

وذكر النبيُّ ﷺ في السنة الصحيحة أنَّ له أسماءً أخرى، ففي الحديث الشريف عن محمد بن جُبير بن مُطعَم عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لي خمسةُ أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفرَ، وأنا الحاشِرُ الذي يُحشَرُ الناسُ على قدمي، وأنا العاقِبُ»[2].

---

(١) ص٢٢.

(٢) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٥٣٢.

أورد ذلك الإمام البخاري في (صحيحه) في باب خاصّ، قال فيه: باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ، وقولُ الله عزَّ وجلّ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

قال ابن حجر رحمه الله كأنّه يشيرُ إلى أنَّ هذين الاسمين أشهرُ أسمائه، وأشهرُهما (محمد) وقد تكرر في القرآن، وأما (أحمد) فذُكِرَ فيه حكايةً عن قول عيسى عليه السلام.

فأما (محمد) فمن باب التفعيل للمبالغة، وأما (أحمد) فمن باب التفضيل، وقيل سُمي (أحمد) لأنّه علمٌ منقول من صفة، وهي أفعل التفضيل، ومعناه أحمدُ الحامدين، وسبب ذلك ما ثبت في (الصحيح) أنّه يفتَحُ عليه في المقام المحمود بمحامدَ لم يفتح بها على أحدٍ قبلَه.

وقيل: الأنبياءُ حمَّادون، وهو أحمدُهم، أي أكثرهم حمداً، أو أعظمُهم في صفة الحمد.

وأما (محمد) فهو منقول من صفة الحمد أيضاً، وهو بمعنى محمود، وفيه معنى المبالغة، وقد أخرجَ البخاري في (التاريخ الصغير) من طريق علي بن زيد قال: كان أبو طالب يقول:

وشَــقَّ لــه مــن اسمِــه ليُجِلَّــهُ   فـذو العـرشِ محمـودٌ وهـذا مُحَمَّـدُ

والمحمد الذي حُمِدَ مرةً بعد مرة كالمُمَدَّح، قال الأعشى:

إليـكَ ـ أبيـتَ اللعـنَ ـ كـان وجيفُهـا   إلى الماجدِ القِرْمِ الجوادِ المُحَمَّدِ

أي الذي حُمدَ مرة بعد مرة، أو الذي تكاملت فيه الخصالُ المحمودة.

قال عياض: كان رسول الله ﷺ أحمد قبل أن يكون محمداً كما وقع في (القرآن العظيم) وذلك أنه حمد ربّه قبل أن يحمدَه الناسُ، وكذلك في الآخرة يحمدُ ربَّه، فيشفّعه، فيحمدُه الناس.

وقد خُصَّ بسورة الحمد، وبلواء الحمد، وبالمقام المحمود، وشُرِعَ له الحمدُ بعدَ الأكل، وبعدَ الشرب، وبعد الدعاء، وبعد القدوم من السفر، وسُمِّيتْ

أمتُه الحمادين، فجُمِعَتْ له معاني الحمد وأنواعه[1].

ولا شكَّ أنّ كثرةَ الأسماءِ تدلُّ على شرفِ المسمى بها، فكما شـرّفَه الله تعالى بالأسماء الكريمة التي خَصّه بها، كذلك شرّفَه بما فيها من المعاني الطيبة السامية التي مرَّ معنا ذكرُ بعضِ معانيها.

وقد ورد أنّ «أحبَّ الأسماءِ إلى الله تعالى عبدُ الله وعبد الرحمن»، وإنما كانت أحبَّ الأسماء إلى الله لأنها تضمنت ما هو وصفٌ واجبٌ لله تعالى، وما هو وصفٌ للإنسان وواجب عليه. وهو العبودية، ثم أضيف العبد إلى الرب إضافةً حقيقية، فصدقت أفراد هذه الأسماء، وشرفت بهذا التركيب، فحصلت لها هذه الفضيلة، سيأتي معنا أن الله تعالى سمّى النبيَّ ﷺ بذلك، ووصفه بصفة العبودية، في عدد من الآيات القرآنية الكريمة.

كنيته عليه الصلاة والسلام:

الاسمُ والكنية واللقبُ يجمعها العلم (بفتحتين) وتتغاير بأنّ اللقب ما أشعرَ بمدحٍ أو ذمّ، والكنيةُ ما صُدّرت بأب أو أم، وما عدا ذلك فهو اسم[2].

واشتُهرت الكُنى عند العرب، حتى ربّما غلبت على الأسماء: كأبي طالب، وأبي لهب وغيرهما، وقد يكون للواحدِ كنيةٌ واحدة أو أكثر، وقد يشتهر باسمه وكنيته جميعاً.

وكان النبيُّ ﷺ يُكنى أبا القاسم بولده القاسم، وكانَ أكبرَ أولاده، واختُلِفَ: هل مات قبل البعثة أو بعدها؟ وقد ولد له إبراهيم في المدينة المنورة من السيدة مارية القبطية، كما سيأتي معنا.

وفي حديث أنس أنَّ جبريل قال للنبيِّ ﷺ: «السلامُ عليكَ يا أبا إبراهيم».

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبيُّ ﷺ في السوق، فقال رجل: يا أبا القاسم، فالتفت النبيُّ ﷺ فقال: «سمّوا باسمي، ولا تكتنوا بكنيتي».

---

(١) فتح الباري: ٦/ ٥٥٥.

(٢) المرجع السابق: ٦/ ٥٦٠.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سمّوا باسمي، ولا تكتنوا بكنيتي»[(١)].

وقد اختُلِفَ في جوازِ التكني بكنيته ﷺ فالمشهورُ عن الشافعيِّ المنعُ على ظاهر هذه الأحاديث، وقيل يختصُّ ذلك بزمانه، وقيل: بمن تسمّى باسمه.

قال النووي: اختُلِفَ في التكني بأبي القاسم على ثلاثة مذاهب:

الأول: المنع مطلقاً، سواء كان اسمه محمداً أم لا، ثبت ذلك عن الشافعي.

والثاني: الجواز مطلقاً، ويختصُّ النهيُّ بحياته ﷺ.

والثالث: لا يجوزُ لمن اسمه محمد، ويجوز لغيره. قال الرافعي: يشبِهُ أن يكونَ هذا هو الأصحُّ، لأنَّ الناس لا يزالون يفعلونه في جميع الأعصار من غير إنكار.

قال النووي: هذا مخالفٌ لظاهر الحديث، وأما إطباقُ الناس عليه ففيه تقويةٌ للمذهب الثاني، وكأن مستندهم ما وقع في حديث أنس المشار إليه قبلُ: إنّه ﷺ كان في السوق فسمع رجلاً يقول: يا أبا القاسم، فالتفت إليه، فقال: لم أعنك، فقال: «سموا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي». ففهموا من هذا النهي الاختصاصَ بحياته للسبب المذكور، وقد زال بوفاته ﷺ . . .

وحكى الطبريُّ مذهباً رابعاً وهو المنعُ من التسمية بمحمد مطلقاً، وكذا التكني بأبي القاسم مطلقاً، ثم ساقَ من طريق سالم ابن أبي الجعد، كتب عمرُ: «لاتسموا أحداً باسم نبيٍّ»، واحتج لصاحب هذا القول بما أخرجه من طريق الحكم ابن عطية عن ثابت عن أنس رفعه: «يسمونهم محمداً ثم يلعنونهم». وهو حديث أخرجه البزّار وأبو يعلى أيضاً، **وسنده ليّن**، قال عياض: والأشبه أنَّ عمر إنما فعل ذلك إعظاماً لاسمِه ﷺ لئلا يُنْتَهَكَ.

وقد كان سمع رجلاً يقول لمحمد بن زيد بن الخطاب: يا محمد فعل الله

---

(١) فتح الباري في المناقب، ص٣٥٣٧ـ٣٥٣٩.

بك وفعل، فدعاه، وقال: لا أرى رسول الله ﷺ يُسَبُّ بكَ، فغيّرَ اسمَه[١].

شرفُ نسبه ﷺ:

النبي ﷺ نخبةُ بني هاشم وخيارُهم، وسلالةُ قريش وصميمُها، وأشرفُ العرب، وأعزُّهم نفراً من قبلِ أبيه وأمّه.

قال القاضي عياض في (الشفا): وأما شرفُ نسبه وكرمُ بلدِه ومنشئه فمما لا يحتاجُ إلى إقامةِ دليلٍ عليه، ولا بيان مشكلٍ ولا خفيٍّ منه، فإنّه نخبةُ بني هاشم، وسلالةُ قريش وصميمها، وأشرفُ العربِ، وأعزُّهم نفراً من قبل أبيه وأمه ومن أهل مكة.

ومن أكرم بلادِ الله على الله وعلى عباده، ففي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بُعِثْتُ مِنْ خيرِ قرونِ بني آدم قرناً فقرناً، حتى كنتُ من القرن الذي كنتُ منه».

وعن العباس رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ الله خلقَ الخلقَ فجعلني من خيرهم مِنْ خيرِ قرنِهم، ثم تخيَّرَ القبائلَ، فجعلني من خيرِ قبيلةٍ، ثم تخيَّرَ البيوتَ، فجعلني من خيرِ بيوتِهم، فأنا خيرُهم نفساً، وخيرُهم بيتاً»[٢].

وعن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[٣].

وكان ﷺ ينتسبُ إلى جده عبد المطلب كما سيأتي معنا في الحديث عن غزوة حنين، ففي الحديث عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقولُ يوم حنين: «أنا النبيُّ لا كذب، أنا ابنُ عبد المطلب»[٤].

---

(١) فتح الباري: ١٠/ ٥٧٢.
(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة والترمذي وحسّنه.
(٣) أخرجه الترمذي وقال: حديث صحيح.
(٤) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٣١٦.

وسببُ انتسابه ﷺ إلى جدّه عبد المطلب دون أبيه عبد الله، فكأنها لشهرة عبد المطلب بين الناس لمَا رُزِقَ من نباهةِ الذكرِ، وطول العمرِ، بخلافِ عبد الله، فإنّه مات شاباً، ولهذا كان كثيرٌ من الناس يدعونه: ابن عبد المطلب، كما قال ضِمامُ بن ثعلبة لما قدم على النبيِّ ﷺ: أيكمُ ابنُ عبد المطلب؟.

وقيل: لأنّه كان اشتُهِرَ بين الناس أنه يخرج من ذرية عبد المطلب رجلٌ يدعو إلى الله، ويهدي اللهُ الخلقَ على يديه، ويكون خاتمَ الأنبياء، فانتسب إليه ليتذكّر ذلك من كان يعرفه، وقد اشتهر ذلك بينهم[(١)].

ويمتدُّ نسبُه الشريف ﷺ إلى النَّضِر بن كنانة، ففي الحديث عن **كليب بن وائل** قال: حدثتني ربيبة النبيِّ ﷺ زينب ابنة أبي سلمة قال: قلت لها: أرأيتِ النبيَّ ﷺ أكان مِنْ مضر؟ قالت: فممّن كان إلا مِنْ مضر؟ من بني النضر بن كنانة[(٢)].

ومضر: هو ابن نزار بن معد بن عدنان.

والنسب ما بين عدنان إلى إسماعيل بن إبراهيم مختلَفٌ فيه، وأما من النبيِّ ﷺ إلى عدنان فمتفقٌ عليه.

قال ابن سعد في (الطبقات): حدّثنا هشام بن محمد الكلبي قال: علّمني أبي وأنا غلامٌ نسب النبيِّ ﷺ، فقال: محمد بن عبد الله بن عبد المُطلب (وهو شيبة الحمد) ابن هاشم (واسمه عمرو) بن عبد مَناف (واسمه المُغيرة) بن قُصي (واسمه زيد) بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهر، وإليه جِماعُ قريش...

ومُضر: بضم الميم وفتح المعجمة يقال سُمِّي بذلك، لأنه كان مولَعاً بشرب اللبن الماضر، وهو الحامض، وفيه نظرٌ، لأنه يستدعي أنه كان له اسماً غيره قبل أن يتصف بهذه الصفة، نعم يمكن أن يكون هذا اشتقاقُه، ولا يلزم أن

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٣١.

(٢) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٤٩١.

يكون متصفاً به حالة التسمية[(١)] .

فإلى النضر تنتهي أنساب قريش لما مرّ معنا في حديث واثلة بن الأسقع مرفوعاً: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريشٍ بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

والدته ﷺ:

ووالدتُه ﷺ قرشيةٌ أيضاً، فهي السيدة آمنة بنت وهب الزهرية، وهي أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً من بني زهرة، خطبها عبد المطلب من أبيها وهب، فزوجها ولدَه عبد الله والدَ النبيِّ ﷺ.

وقُدر للنبيِّ ﷺ أن يعيش يتيماً، إذ مات أبوه عبد الله وهو جنين في بطن أمه، كما سيأتي معنا عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى: ٦].

كما ماتت أمه وهو في السادسة من عمره الشريف، خرجت به عليه الصلاة والسلام لزيارة قبر أبيه، الذي ماتَ في المدينة عند أخواله بني النجار، فتوفيت وهي في طريق عودتها إلى مكة المكرمة، ودُفنت في الأبواءِ.

والجدير بالذكر أنّ جمهور العلماء يرون نجاة والديّ النبيِّ ﷺ يوم القيامة.

إما **لكونهما من أهل الفترة** الذين لم تبلغهم الدعوة.

وإما **لكونهما كانا من الموحدين المتحنفين** الذين ظلوا على عقيدة التوحيد المتوارثة بينهم من زمن إسماعيل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

وإما **لأن الله سبحانه أحياهما للنبيِّ ﷺ فآمنا به. ومع أن الحديث ضعيف**، عدَّه بعضُهم من خصوصيات النبيِّ ﷺ، قال في (رد المحتار): ألا ترى أنَّ نبينا ﷺ قد أكرمه الله تعالى بحياة أبويه له حتى آمنا به، كما في حديث صححه القرطبي وابن ناصر الدين حافظ الشام وغيرهما، فانتفعا في الإيمان بعد الموت على خلافِ القاعدة إكراماً لنبيّه ﷺ، كما أحيا قتيلَ بني إسرائيل ليخبرَ بقاتله. وكان عيسى

---

(١) فتح الباري: ٦/ ٥٢٩.

عليه السلام يحيي الموتى، وكذلك نبينا ﷺ أحيا الله تعالى على يديه جماعةً من الموتى. .

وخبر مسلم في (صحيحه)[1] «أبي وأبوك في النار» كان قبل علمه.

ففي الحديث عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: زارَ النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال: «استأذنتُ ربي في أن أستغفرَ لها فلم يؤذَنْ لي، فاستأذنته في أنْ أزورَ قبرها فأذنَ لي، فزوروا القبورَ فإنّها تذكر الموت»[2].

وإذْنُ الله للنبيِّ ﷺ في زيارة قبر أمه يدل على أنها كانت موحدة، لأنه ﷺ ممنوع من زيارة قبور الكفار بصريح قوله: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨٤]. وسيأتي معنا أنه كان في قريش قبل البعثة بعض المتحنفين، منهم زيد بن عمرو بن نفيل، فلا يستغرب أن يكون والدا النبيِّ ﷺ من الموحدين.

النبي ﷺ بركة دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام:

فهو عليه الصلاة والسلام بركة دعوة النبيين الكريمين إبراهيم وإسماعيل عليهما وعليه الصلاة والسلام عندما كانا يرفعان قواعد بيت الله الحرام، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩].

وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ هو سيدنا محمد ﷺ بإجماع المفسرين، لأنَّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام إنما دعا لذريته وهو بمكة، ولم يبعث من ذريته بمكة غير محمد ﷺ.

وقد وافقت هذه الدعوةُ المستجابةُ قَدَرَ الله السابق في تعيين محمد ﷺ رسولاً في الأميين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن، كما روى

---

(١) انظر ردّ المحتار: ٣/ ٢٩٠.

(٢) صحيح مسلم في الجنائز، رقم ٩٧٦.

الإمام أحمد عن العرباض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عندَ الله لخاتم النبيين، وإنَّ آدم لمنجدلٌ في طينته، وسأنبئُكم بأول ذلك، إني دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين».

وقال أبو أمامة رضي الله عنه: قلتُ يا رسول الله! ما كان أولُ بدءِ أمرِك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى بي، ورأت أمي أنَّه خرجَ منها نورٌ أضاءت له قصورُ الشام»، والمراد أنَّ أول من نوه بذكره عليه الصلاة والسلام وشهرَه في الناس إبراهيم عليه السلام، ولم يزل ذكره في الناس مذكوراً مشهوراً سائراً حتى أفصحَ باسمه خاتم بني إسرائيل عيسى ابن مريم عليه السلام، حيث قام في بني إسرائيل خطيباً وقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف: ٦][1].

والأميون هم العرب، فقد كانوا عند بعثته عليه الصلاة والسلام ـ لا يعرفُ أكثرُهم القراءة ولا الكتابة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة: ٢]. وقال ﷺ: «إنا أميةٌ أميةٌ لا نكتبُ ولا نحسب»[2].

صلة النبيِّ بإبراهيم عليهما الصلاة والسلام:

وللنبيِّ ﷺ صلةٌ كبيرةٌ قويةٌ بإبراهيم عليه السلام الذي دعا له، وهو يرفع مع ولده إسماعيل قواعدَ بيت الله الحرام كما مرَّ معنا، أكد ذلك سبحانه وتعالى في قوله الكريم: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

وقد شرفَ الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام وزاده فضلاً وشرفاً عندما كلف النبي ﷺ باتّباعه، فقال: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]. وجعلَ سبحانه رحماتِه وبركاتِه تتوالى متتابعة من غير انقطاع من زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام حتى زمن نبينا ﷺ لتستقر في

(١) انظر تفسير ابن كثير لسورة الصف.

(٢) صحيح البخاري في الصوم، رقم ١٩١٣.

بيتِ النبوة فقال: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٣]. أي رحماته تعالى متتابعة عليكم، وخيراته النامية المتكاثرة عليكم يا أهل البيت، والمراد به بيت النبوة، البيت المفرد العلم، معدن النبوة ومحتد الرسالة، الذي تفرعت منه كلُّ النبوات والرسالات بعد ذلك، حتى ختمت بخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، إنه سبحانه المحمود الذي يستوجب الحمد، عظيم الكرم والإحسان والشرف والمجد جل وعلا.

بشرى عيسى عليه السلام:

قام عيسى عليه السلام في ملأ من بني إسرائيل يبشر بالنبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف: ٦]. وأكد ذلك سبحانه وتعالى في قوله الكريم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ورغم التغيير والتحريف اللذين لحقا بالتوراة والإنجيل، وخاصة ما يتصل بالنبي ﷺ والإسلام، بقيت فيهما بعض الكلمات التي لا تنطبق إلا على سيدنا محمد ﷺ ورسالة الإسلام منها ما رود في الإصحاح الثاني من سفر حجي: ولسوف أزلزل كل الأمم، وسوف يأتي حمداً (Himada) لكل الأمم، وسوف أملأ هذا البيت بالمجد. قال الدكتور البروفيسور داود بنيامين كلداني قسيس الكنيسة الكاثوليكية الآشورية، والذي أسلم بعد ذلك وتسمى (عبدَ الأحد داود): لقد قمتُ بترجمة هذه الفقرة من النسخة الوحيدة من الإنجيل التي كانت بحوزتي، والتي أعارتني إياها سيدة آشورية كانت ابنةَ عمٍّ لي، والنسخة هذه هي باللغة الوطنية الدارجة آنذاك، ولكن دعنا نرجع إلى الترجمة الإنكليزية للكتاب المقدس، والتي نجد أنها ترجمت الأصل العبري لكلمة حمداً إلى الأمنية، وكلمة شالوم إلى الإسلام.

ثم بعد أن استعرض معنى كلمة (حمداً) باللغة العبرية وجد أنَّ لها معنى آخر هو الحمد، فقال: وأياً من المعنيين نختار فإن الحقيقة الناصعة بأن كلمة (أحمد) هي الصيغة العربية لكلمة (حمداً)، وهذا التفسير هو تفسيرٌ قاطع لا ريبَ فيه.

ثم قال: وفي (إنجيل يوحنا) الذي كتب باليونانية استعمل الاسم (باراكليوتس) وهو صيغة وثنية لم تكن معروفة في دنيا الأدب الإغريقي لكلمة (بيركليوتس) والتي توافق وتطابق اسم أحمد في معناه ومغزاه وفي إشراقه وسموه وتمجيده، وفي مقامه المحمود الأعلى، لا بد كما نطق بها يسوع المسيح[(١)].

ميثاق النبيين:

وهو ميثاق أخذه الله سبحانه وتعالى على جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنَّ عليهم إن أدركوا زمن بعثة النبي ﷺ أن يؤمنوا به، ويصدقوا برسالته، ويكونوا من أتباعه وأمته، وقد أخبر سبحانه عن ذلك بقوله الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال علي وابن عباس رضي الله عنهما: «ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لإنْ بعثَ الله محمداً وهو حيٌّ ليؤمنَنَّ به ولينْصُرَنَّه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته، لإنْ بُعِثَ محمد وهم أحياء ليؤمنُنَّ به ولينصُرُنَّه».

وقال الحسن البصري وقتادة: أخذ الله ميثاق النبيين أنْ يصدِّقَ بعضُهم بعضاً. وهذا لا يضاد ما قاله علي وابن عباس ولا ينفيه، بل يستلزمه ويقتضيه.

وقد قال الإمام أحمد: جاء عمرُ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أمرتُ بأخٍ لي يهودي من قريظة، فكتبَ جوامعَ مِنَ التوراةِ، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغيّر وجهُ رسول الله ﷺ، قال عبد الله بن ثابت قلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ! فقال عمر: رضيتُ بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً،

---

(١) محمد في الكتاب المقدس، ص٥٠.

قال: فسُرِّيَ عن النبيِّ ﷺ وقال: «والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين»[1].

ميثاق الطور:

وهو ميثاقٌ خاصٌ ببني إسرائيل، أخذه الله تعالى عليهم، وأخبر عنه بقوله الكريم: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٥ ـ ١٥٧].

فبعد أن عبدَ بنو إسرائيل العجلَ أمر الله موسى عليه السلام أن يأتيَ إلى موضع مناجاة ربه عند جبل الطور مع سبعين من خيار بني إسرائيل والصالحين فيهم، لكي يعتذروا إليه سبحانه عن عبادة العجل، فلما أتوا إلى ذلك المكان، قالوا لموسى عليه السلام كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥ ـ ٥٦].

ووقف موسى على الجبل وحيداً بين أجساد المصروعين، واتجه إلى الله تعالى داعياً بضراعة وخشوع: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. أي إنك كنت قادراً على إهلاكنا من قبلُ عندما كنا بين أمواج

---

(١) انظر تفسير ابن كثير للآية.

البحر، فرَحمتنا ونجيتنا من ظلم فرعون ومن البحر، فكما رحمتنا في الماضي، أسالك أن ترحمنا في حاضرنا، هكذا ذكر عليه السلام رحمتَه تعالى السابقة لاستجلاب رحمته اللاحقة.

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥] من العناد، وسوء الأدب، وعبادة العجل.

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي ابتلاؤك اختبارك، فكأنّه عليه السلام يقول: إنِ الأمرُ إلا أمرك، وإنِ الحكمُ إلا لك، كما شئتَ كان ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضلّ لمن هديت، ولا معطيَ لما منعت، ولا مانعَ لما أعطيت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر.

وبعدَ هذا الثناء على الله تعالى فوّض الأمرَ إليه جلّ وعلا، فقال: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي أنت متولّي أمورنا كلها، فاغفر لنا، وارحمنا وأنت خير المتجاوزين عن الذنوب والمعاصي.

﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾[الأعراف: ١٥٦] تحسن بها أحوالنا ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي تبنا إليك، وأنبنا إليك، من هاد يهود إذا رجع.

قال الله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] هكذا قفزت الآياتُ الكريمة فوقَ أحقابٍ كثيرة من الزمان تزيدُ على ألفين من السنين، وتجاوزت أمماً كثيرةً وحضاراتٍ متعددة، لكي تبين هوية الذين يتصفون بهذه الصفات الكريمة، فكأنَّ جميعَ الأمم والشعوب الذين عاشوا في تلك الأحقاب الطويلة لاتوجد فيهم هذه الصفات، ولا يصلحون لأن يكونوا بناة الحضارة الإنسانية الحقة، حضارة الإيمانِ والحقّ والسلامِ.

إنهم ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧] الذي لم يمارس القراءة والكتابة، وهذه الصفة من صفات كماله عليه الصلاة والسلام،

لأنها من أدلة صدقه في نبوته، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] أي مكتوباً باسمه ونعوته في التوراة والإنجيل قبل نزولهما، ومرّ معنا قريباً أنه رغم التغيير والتحريف الذين لحقا بهما، وخاصة فيما يتصل بالنبي ﷺ ورسالة الإسلام بقيت فيهما بعض الكلمات التي لا تنطبق إلا عليه ﷺ.

وفي أثناء فتح الصحابة رضي الله عنهم لمصر ظفر عبد الله بن عمرو بن العاص ببعض كتب أهل الكتاب فقرأها، واشتهر بين الصحابة باطلاعه على كثير من علوم أهل الكتاب وكتبهم، ولما سأله عطاء بن يسار عن صفة رسول الله ﷺ في (التوراة) قال: أجل والله إنّه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتُك المتوكّلَ، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ، ولا سخّابٍ في الأسواق، ولا يدفعُ السيئةَ بالسيئةِ، ولكن يعفو ويغفرُ، ولن يقبضَه الله حتى يقيمَ به الملّةَ العَوْجاءَ، بأن يقولوا لا إلـه إلا الله، ويُفتَحُ به أعينٌ عميٌ، وآذانٌ صمٌ، وقلوبٌ غلفٌ»[1].

ولقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة في عدد من الآيات والسور، وذكر أيضاً أنّ الصحابة رضي الله عنهم قد ذُكرتْ بعضُ صفاتهم في التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

* * *

(١) صحيح البخاري في البيوع، رقم ٢١٢٥.

الفصل الثاني

معرفة أهل الكتاب له ﷺ

وبسبب كثرة ذكره ﷺ في الكتب الإلـهية السابقة كما مرّ معنا فإنّ علماءَ أهل الكتاب كانوا يعرفونه معرفةً تامةً، كما يعرفون أبناءهم، ويعرفون أيضاً وقتَ بعثته وهجرته والمدينةَ التي يهاجر إليها، أكّد ذلك سبحانه وتعالى بقوله الكريم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] وبقوله أيضاً: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٢٠].

فمعرفتهم بالنبيِّ ﷺ معرفة تامة كاملة كمعرفة الوالد ولده، فأيُّ والد يتعرف على ولده، ويميزه عن غيره من الأولاد المحيطين به، مهما كان عددهم.

وكذلك علماء أهل الكتاب يعرفون النبيَّ ﷺ بسبب كثرة نعوته وأوصافه وأسمائه الموجودة عندهم في التوراة والإنجيل، ومع هذه المعرفة التامة يكتمون الحق حسداً وعناداً، وهم يعلمون أنَّ كتمانَ الحق جريمةٌ كبيرة سيسألهم الله تعالى عنها، ويجازيهم عليها

ولما أخبر سبحانه وتعالى عن عِدّةِ ملائكة النار في جهنم قال يعرّض بأهل الكتاب: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

وقوله: ﴿لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي ليستيقنوا بنبوّةِ محمّد ﷺ فإنَّ هذا العددَ مكتوبٌ في التوراة والإنجيل، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي ولا يرتابون بصدق رسالة النبيِّ عليه الصلاة والسلام وصحة نبوته.

أهل الكتاب شهداء على صحة نبوته ﷺ:

ولهذا جعل الله أهلَ الكتاب بمنزلة الشهداء للنبيِّ ﷺ يشهدون على صدق رسالته، وصحة نبوته إن حفظوا الأمانة وأدوها على وجهها الصحيح، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٩].

فأداءُ هذه الشهادة من أعظم الواجبات التي كلّفهم الحق سبحانه وتعالى بها، ولهذا فإنّ المفروض بهم أن يكونوا أولَ الناس تصديقاً له ﷺ ومسارعة إلى الإيمان به، وهو ما ذكَّرهم به في قوله الكريم: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٠ ـ ٤٢]، فهم يعلمون صدقه ﷺ، ويعلمون أنَّ القرآن الكريم منزّلُ عليه من الله تعالى، أكد ذلك سبحانه بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٤].

ولهذا لمّا وفدَ على النبيِّ ﷺ وفدٌ من نصارى نجران، ودعاهم النبيُّ ﷺ إلى الإيمان به والتصديق برسالته فأبوا، دعاهم إلى المباهلة فنكصوا وأبوا، ولزمتهم الحجةُ، وأنزلَ الله في هذا قوله الكريم: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، ففي (صحيح البخاري) عن حذيفة رضي الله عنه قال: جاء العاقبُ والسيّد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فوالله لو كان نبياً فلاعنّاه لا نفلحُ نحنُ، ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنَّا نعطيكَ ما سألتنا ـ أي من الجزية ـ وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً فقال ﷺ: «لأبعثنَّ معكم رجلاً أميناً حقَّ أمين» فاستشرفَ لها أصحابُ رسول الله ﷺ فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح» فلمّا قام قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة».

استفتاحُ أهل الكتاب به:

وبلغت معرفةُ علماءِ أهل الكتاب بالنبيِّ ﷺ أنَّ يهودَ المدينة المنورة كانوا يستنزلون نصرَ الله تعالى وتأييدَه عليهم عندما يقاتلون أعداءهم، فيتوسلون بالنبيِّ ﷺ إلى الله تعالى في دعائهم، سجَّل الله تعالى عليهم ذلك، وأخبر عنه بقوله الكريم: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو القرآن الكريم ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ وهو التوراة ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي يستنصرون على الذين كفروا، والاستفتاح: الاستنصار، الذي يجدون صفته عندهم في التوراة.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي فلما جاءهم ما عرفوا من الحق كفروا به، وهوالنبيُّ ﷺ، فقد عرفه أحبارُ يهود معرفةً تامة بنعوته الموجودة في كتبهم، فكفروا برسالته ﷺ وأعرضوا عن دعوته ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

ثم بيّن سبحانه سبب تغيُّر موقفهم من النبيِّ ﷺ فقال: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ أي بئس الشيء الذي باعوا من أجله أنفسهم ومبادءهم ﴿أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي أنْ يكفروا بما أنزل الله على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ حسداً لأجل إنزال القرآن الكريم على غيرهم، والبغي: الظلم بسبب الحسد، والحاسد يطلبُ ما ليس له لنفسه، وأظهر تعالى بهذا سبب حقد اليهود على النبيِّ ﷺ وكراهتهم الشديدة للقرآن ورسالة الإسلام وكيدهم المستمر بالمسلمين كما سيأتي معنا، ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠].

الفترة ما بين عيسى والنبي عليهما الصلاة والسلام:

ومما ساعد أهلَ الكتاب على معرفة النبي ﷺ قِصَرُ الفترةِ التي توقَّف فيها الوحي، وهي ما بين زمن عيسى وزمن نبينا عليهما الصلاة والسلام، وهي التي ذكرها سبحانه وتعالى في قوله الكريم: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

وفي الحديث الشريف عن سلمان رضي الله عنه قال: «فترةٌ بين عيسى ومحمد ﷺ ستمئة سنة»[1]. قال ابن حجر رحمه الله: والمرادُ بالفترة المدةُ التي لا يبعث فيها رسول من الله، ولايمتنع أن ينبأ فيها من يدعو إلى شريعة الرسول الأخير، ونقل ابن الجوزي الاتفاقَ على ما اقتضاه حديثُ سلمان هذا[2]. وسيأتي معنا تفصيل حديث إسلام سلمان رضي الله تعالى عنه.

ومرّ معنا أنّ بعض العلماء قالوا بنجاة أهل الفترة من العذاب يوم القيامة، ومنهم والدا النبيِّ ﷺ.

إيمانُ بعض أهل الكتاب بالنبيِّ ﷺ:

وقد انقاد بعضُ أهل الكتاب للحقِّ، وأذعنوا له، فأتوا النبيَّ ﷺ، وصدقوا بصحة نبوته، وصدق رسالته، ومن أشهر من آمن به من أحبار اليهود عبد الله بن سلام رضي الله عنه، أسلمَ أول ما دخل النبيُّ ﷺ المدينة المنورة ورآه، وقد أثنى عليه النبيُّ ﷺ.

ففي الحديث الشريف عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: ما سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض: إنّه من أهل الجنة، إلا لعبد الله بن سلام. قال: وفيه نزلت هذه الآية ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ [الأحقاف: ١٠][3].

وعن قيس بن عباد قال: كنتُ جالساً في مسجد المدينة، فدخل رجلٌ على وجهه أثر الخشوع، فقالوا: هذا رجل من أهل الجنة، فصلّى ركعتين تجوّزَ فيهما، ثم خرج وتبعتُه فقلت: إنك حين دخلتَ المسجدَ قالوا: هذا رجلٌ من أهل الجنة، قال: والله ما ينبغي لأحدٍ أن يقولَ ما لا يعلمُ، وسأحدِّثك لم ذاك. رأيتُ رؤيا على عهد النبيِّ ﷺ فقصصتها عليه، رأيتُ كأني في روضة ـ ذكر من سعتها وخضرتها ـ وسطها عمودٌ من حديد، أسفله في الأرض، وأعلاه في السماء، في

---

(١) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٩٤٨.
(٢) فتح الباري: ٧/ ٢٧٧.
(٣) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٨١٢.

أعلاه عروة، فقيل لي، ارقَ. قلت: لا أستطيعُ، فأتاني منصف ـ خادم ـ فرفعَ ثيـابي من خلفي، فرقيتُ حتى كنتُ في أعـلاها، فأخذتُ في العروة، فقيل لـه استمسك. فاستيقظتُ، وإنّها لفي يدي، فقصصتُها على النبيِّ ﷺ فقال: «تلك الروضةُ الإسلامُ، وذلك العمودُ عمودُ الإسلامِ، وتلك العروةُ عروةُ الوثقى، فأنتَ على الإسلام حتى تموت» وذلك الرجل عبد الله بن سلام[1].

والجديرُ بالذكر أنَّ الله أنزل في عبد الله بن سلام قولَه الكريم: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠]، فالشـاهدُ هو عبد الله بن سـلام، فقد شهد على أنَّ القرآن حقٌ، وانَّ ما فيه من الوعيد والتوحيد يطابِقُ ما في التوراة.

كما أنزل الله تعالى فيه وفي مِن أسلم من أهل الكتاب قوله الكريم أيضاً: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣].

وكذلك أنزل الله تعالى ببعض من آمن من أهل الكتاب قوله في معرض الثناء عليهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٥].

وقد رأى بعضُ المفسّرين أنَّ هذه الآيات نزلت في وفدٍ من نصارى الحبشة قدموا على النبيِّ ﷺ في مكة المكرمة، فسمعوا القرآن منه، فاستجابوا لله وآمنوا به، فلمّا قاموا عنه اعترضهم أبو جهل ابن هشام، ونفر معه، فقال لهم: خيّبكم الله من ركبٍ، بعثكم مَنْ وراءكم من أهـل دينكم لتأتـوهم بخبرِ الرجل، فلم تطمئن مجالسُـكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه بما قال، ما نرى ركباً أحمقَ منكم. فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه.

---

(١) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٨١٢.

وقال أيضاً سبحانه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٢ ـ ٨٤].

قال ابن عباس: نزلت هذه الآيات في النجاشيِّ وأصحابه الذين حين تلا عليهم جعفرُ بن أبي طالب بالحبشة القرآن بكوا حتى أخضلوا لحاهم. **وهذا القول فيه نظرٌ، لأنَّ هذه الآية مدنية، وقصةُ جعفر مع النجاشي قبلَ الهجرة.**

وقال سعيد بن جبير والسديّ وغيرهما: نزلت في وفدٍ بعثه النجاشيُّ إلى النبيِّ ﷺ ليسمعوا كلامه، ويروا صفاته، فلمّا رأوه، وقرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا، ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه.

وقال عطاء بن أبي رباح: هم قوم من أهل الحبشة أسلموا حين قدم عليهم مهاجرة الحبشة من المسلمين.

وقال قتادة: هم قوم كانوا على دين عيسى ابن مريم، فلمّا رأوا المسلمين وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلعثموا.

واختار ابنُ جرير أنّ هذه الآيات نزلت بصفةِ أقوامٍ بهذه المثابة سواء كانوا من الحبشة أم من غيرها[1].

ومهما قيل في الآيات فإنها تثبت أنَّ بعض أهل الكتاب من النصارى آمنوا بالنبيِّ ﷺ، وصدقوا برسالته.

إسلام سلمان الفارسي:

ويؤكدُ هذا قصةُ إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه، وكان من المعمَّرين، أُخذَ من أهله في بلاد فارس وهو صغير، وبيعَ في أسواق الرقيق، وتداولته الأيدي

---

(١) انظر تفسير ابن كثير للآيات.

حتى وصل إلى المدينة المنورة. وفي الحديثِ عنه رضي الله عنه أنّه تداوله بضعة عشر من رب إلى رب، وأنه من رام هرمز[1].

وذكـر البخاري تعليقـاً أن النبيَّ ﷺ قال لسـلمان: (كاتبْ) وكان حُـراً فظلموه.

وهو طرف من حديثٍ وصله أحمد والطبراني من طريق ابن إسحاق عن عاصم بن عمر عن محمود بن لبيد عن سـلمان قال: كنتُ رجلاً فارسـياً. فذكر الحديث بطولـه، وفيه: ثم مرَّ بي نفرٌ من كلبٍ تجارٌ، فحملوني معهم حتى إذا قدموا بي وادي القُرى، ظلموني فباعوني من رجلٍ يهوديٍّ. . الحديث، وفيه: فقال رسول الله ﷺ: «كاتبْ يا سلمان» قال فكاتبتُ صاحبي على ثلاثمئة وَدْيَةٍ، أي غرسة من النخيل، وكان ذلك سببَ خلاصه من الرق رضي الله عنه وأرضاه، ولما أنزل الله قوله الكريم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجمعة: ٢ ـ ٣] قال أبو هريرة: يا رسول الله قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ﴾ مَنْ هم يا رسول الله؟ فلم يراجعه حتى سأله ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي، وضعَ رسول الله ﷺ يده على سلمان ثم قال: «لو كانَ الإيمانُ عندَ الثُّريّا لناله رجالٌ أو رجلٌ مِنْ هؤلاء»[2].

* * *

(١) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٢٩٤٦ ـ ٣٩٤٧.

(٢) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٨٩٧.

الفصل الثالث

مولده الشريف ونشأته

الإرهاصُ الكبيرُ قبلَ مولده الشريف:

الإرهاص: ما يظهرُ من الخوارق عن النبيِّ ﷺ قبلَ ظهوره كالنورِ الذي كان في جبين آباءِ نبينا ﷺ.

والإرهاصُ أيضاً: إحداث أمرٍ خارقٍ للعادة دالٍّ على بعثةِ نبيٍّ قبلَ بعثتِه.

وقالوا في الإرهاص: هو ما يصدرُ من النبيِّ ﷺ من أمرٍ خارقٍ للعادةِ، قيل: إنّها من قبيلِ الكرامات، فإنَّ الأنبياء قبلَ النبوة لا يقصرون عن درجة الأولياء[1].

وكانت حادثةُ الفيلِ الإرهاصَ الكبير لمولده الشريف ﷺ، فقد أخرجَ الترمذيُّ في (سننه) عن المطلب بن عبد الله بن قيس بنَ **مخْرمة** عن أبيه عن جَدّه قال: «ولدتُ أنا ورسولُ الله ﷺ عامَ الفيل».

وقد أنزل الله بعد ذلك في القرآن الكريم سورةَ الفيل التي قال فيها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ ففي العام الذي ولد فيه النبي ﷺ أهلك الله أصحابَ الفيل، الذين أرادوا هدمَ بيته الحرام، وأنزل قوله يخاطبُ النبيَّ ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ أي ألم تعلم وتخبرُ كيف فعل ربك بأصحاب الفيل؟ والاستفهامُ للتقرير، والخطابُ للنبيِّ ﷺ ويراد به العموم، ومعناه قد رأيتم ذلك، وعرفتم موضع منتي عليكم.

وقصةُ أصحاب الفيل كانت إرهاصاً وتوطئة لمولده ﷺ، ولما نزلت هذه

---

(١) التعريفات للجرجاني.

السـورة وتلاها عليهم النبيُّ ﷺ كان في المشركين من أهل مكة عددٌ كبير ممن أدركَ أحداثها.

فالمرادُ **تذكيرُ ما فيها من وجوه الدلالة** على كمال علم الله تعالى وقدرتـه وعزتـه، **وتعجيبٌ من كفر المشـركين** الذين شاهدوا هذه العظمة من آيات الله تعالى، كما أنَّ فيها **تثبيتاً للنبيِّ ﷺ**، وهو يواجه أذى المشركين وعنادهم، فعنايته تعالى بنبيّـه ﷺ أقوى وأتم من عنايتـه ببيته الحرام، فكأنه تعالى قال: أنا الذي فعلتُ ما فعلتُ بأصحاب الفيل تعظيماً لك، وتشريفاً لقدومك، وإذ قد نصرتُك قبلَ قدومك فكيفَ أتركُك بعد ظهورِك؟!.

ويؤيدُ الإرهاصَ قصةُ القرامطة الذين استحلوا حرمةَ البيت الحرام في موسم حج عام ٣١٧ هـ، عندما قتلوا كثيراً من الحجاج، وألقوا جثثهم في بئر زمزم، وقلعوا الحجر الأسود، وأخذوه معهم، وبقي عندهم إلى أن ردوه بأمر من الخليفة الفاطمي بمصر بعد اثنين وعشرين عاماً، ومع ذلك ما أنزل سبحانه عليهم من العذاب كما فعل بأصحاب الفيل.

وقصة أصحاب الفيل باختصار أنَّ أبرهةَ الحبشي، الذي كان يحكم اليمن في ذلك الوقت، بنى كنيسةَ بصنعاء وسماها (القُلَّيس) ليصرفَ إليها الحاج عن بيت الله الحرام، فخرجَ رجلٌ من كنانة فقعد فيها ليلاً، أي تغوط فيها، فأغضبَ أبرهةَ ذلك، وحلف ليهدمنَّ الكعبة، وخرجَ بجيش كبير، ومعه فيلٌ قوي، ولما وصل إلى أول أرض الحرم تهيَّأ للدخول، وعبَّأ جيشه، وقدّمَ الفيل، فبرك، ولم يتزحزح، ثم أرسل الله طيراً تحمِلُ حجارة من سجيل، فرمتهم بها فهلكوا جميعاً.

وفي الحديث الشريف أنَّ النبيَّ ﷺ لما كان في الحديبية بالثنية التي يهبطُ عليهم منها بركت بـه راحلتُه، فقال الناس: حل حل، فألحت فقالوا: خـلأت القصواءُ ـ أي حَرَنَتْ ـ فقال النبيُّ ﷺ: «ما خلأتِ القصواءُ، وما ذاك لها بخُلُقٍ، ولكنْ حبسها حابِسُ الفيل» ـ ثم قال ـ : «والذي نفسي بيده! لا يسألونني خِطْةً يعظِّمونَ بها حُرماتِ الله إلا أعطيتُهم إياها» ثم زجرها فوثبت[1].

---

(١) صحيح البخاري في الشروط، رقم ٢٧٣١.

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ أي ألم يجعل مكرَهم وسعيهم في تخريب الكعبة المشرفة في تضييع وإبطال، فلم يصلوا إلى ما أرادوا، بل رجع كيدُهم عليهم وهلكوا.

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ أي جماعات جماعات من ههنا وههنا.

﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ أي من طين متحجّر، فهي كالحجارة التي أنزلها الله على قوم لوط عندما أهلكهم، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ [هود: ٨٢].

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ أي جعلهم كتبنٍ أكلته الدواب ثم راثته، شبّه تعالى تقطُّعَ أجسادِهم وتفرُّقَها بتفرق أجزاء الروث.

قال ابنُ إسحاق يحدّدُ تاريخ مولده الشريف ﷺ: ولدَ رسول الله ﷺ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل(١).

وقال محققو السيرة: وذكروا أنَّ الفيلَ جاء مكة في المحرم وأنّه ﷺ وُلِدَ بعد مجيء الفيل بخمسين يوماً، وهو الأكثر والأشهر.

وأهل الحساب يقولون: وافق مولدُه من الشهور الشمسية نيسان - إبريل - فكان لعشرين مضت منه، وولد بالغفر من المنازل، وهو مولد النبيين.. وولد بالشعب، وقيل بالدار التي عند الصفا، وكانت بعدُ لمحمد بن يوسف أخِ الحجاج، ثم بنتها زبيدةُ زوجة هارون الرشيد مسجداً حين حَجَّت.

وهذا ما أكده ابن حجر رحمه الله بقوله: المشهورُ عند الجمهور أنه ولد في شهر ربيع الأول، وأنه بعث في شهر رمضان، فعلى هذا يكون له حين بعث أربعون سنة ونصف، أو تسع وثلاثون ونصف، فمن قال أربعين ألغى الكسر أو جبر، لكن قال المسعودي وابن عبد البر: إنّه بُعِثَ في شهر ربيع الأول، فعلى هذا يكون له أربعون سنة سواء(٢).

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ١٤٦.
(٢) فتح الباري: ٦/ ٥٧٠.

العلامات التي ظهرت عند مولده الشريف ﷺ:

ظهر عند مولده الشريف علامات كثيرة رويت بأسانيد **لا تخلو من مقالٍ** ذكرها ابنُ كثير رحمه الله فيما كتبه في سيرة النبيّ ﷺ في تاريخه (البداية والنهاية) وقال فيها: إنّها يقوي بعضُها بعضاً.

وذكر ابن حجر رحمه الله أيضاً قسماً منها فقال: ومن مشهور ذلك قصة بحيرا الراهب، وهي في السيرة لابن إسحاق[1].

وروى أبو نُعيم في (الدلائل) من طريق شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص عن أبيه عن جده قال: كان بِمَرِّ الظهران راهبٌ يدعى عيصا فذكر الحديث، وفيه أنّه أعلمَ عبدَ الله بن عبد المطلب ليلةَ ولد له النبيُّ ﷺ بأنّه نبيُّ هذه الأمة، وذكر له أشياء من صفته. **لكن من المعلوم أنَّ عبد الله والدَ النبي ﷺ تُوفّي قبل ولادته عليه الصلاة والسلام.**

وروى الطبرانيُّ من حديث **معاوية بن أبي سفيان** عن أبيه رضي الله عنهما أنَّ أمية بن أبي الصلت قال له: إنّي أجدُ في الكتب صفةَ نبيٍّ يُبعث من بلادنا، وكنتُ أظنُّ أنّي هو، ثم ظهرَ لي أنّه من بني عبد مناف، قال: فنظرتُ فلم أجدْ فيهم مَنْ هو متّصف بأخلاقه إلا عُتبة بن ربيعة، إلاّ أنه جاوز الأربعين، ولم يوحَ إليه، فعرفتُ أنّه غيره. قال أبو سفيان: فلمّا بُعِثَ محمّد قلت لأمية عنه، فقال: أمَا إنّه حقٌّ فاتبعه، فقلتُ له: فأنت ما يمنعك؟ قال: الحياءُ من نُسيَّاتِ ثقيف أنّي كنتُ أخبرهنّ أني هو، ثم أصيرُ تبعاً لفتًى من بني عبد مناف.

وروى ابن إسحاق من حديث **سلمة بن سلامة بن وقش**، وأخرجه أحمد، وصححه ابنُ حبان من طريقه، قال: كان لنا جارٌ من اليهود بالمدينة، فخرجَ علينا قبلَ البعثة بزمان، فذكر الحشرَ والجنة والنارَ، فقلنا له: وما آيةُ ذلك؟ قال: خروجُ نبيٍّ يُبعث من هذه البلاد ـ وأشار إلى مكة ـ فقالوا: متى يقع ذلك؟ قال فرمى بطرفه إلى السماء ـ وأنا أصغرُ القوم ـ فقال: إنْ يستنفد هذا الغلامُ عمرَه

---

(١) ص٩.

يدركه، قال فما ذهبتِ الأيامُ والليالي حتى بعثَ الله نبيّه وهو حي فآمنا به، وكفر هو بغياً وحسداً.

قال ابن حجر رحمه الله: ولهذه القصص نظائِرُ يطولُ شرحها.

ومما ظهر من علامـات نبوّته عند مولده وبعدَه ما أخرجـه الطبرانيُّ عن عثمان بن أبي العاص الثقفي عن أمه أنها حضرت آمنةَ أمَّ النبيِّ ﷺ، فلمَّا ضربها المخاضُ، قالت: فجعلتُ أنظرُ إلى النجومِ تدلَّى حتى أقولُ لتقعنَّ علي، فلمّا ولدت خرجَ منها نورٌ أضاءَ له البيتَ والدار. وشاهدُه حديثُ **العِرْباض بن سارية** ـ الذي مرَّ معنا ـ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنّي عندَ اللهِ لخاتمُ النبيين وإنَّ آدمَ لَمُنْجَدِلٌ في طينتِهِ، وسأنبئكم بأول ذلك: إنّي دعوةُ أبي إبراهيم، وبشارةُ عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأتْ، وكذلك أمهات النبيين يرينَ»، وإنَّ أم رسول الله ﷺ رأتْ حينَ وضعتْه نوراً أضاءتْ له قصور الشام. أخرجه أحمد وصححه ابن حبان والحاكم. وفي حديث أبي أمامة عند أحمد نحوه.

وأخرج ابنُ إسحاق عن ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ نحوَه، وقالت: «أضاءت له بُصرى من أرضِ الشام».

وروى ابن حِبـان والحاكم في قصة رضاعـه ﷺ من طريق ابن إسـحاق بإسنادِهِ إلى حليمة السعدية الحديثَ بطوله، وفيه من العلامات كثرةُ اللبن في ثدييها، ووجودُ اللبن في شارِفها[1] بعد الهُزال الشديد، وسـرعةُ مشـي حمارها، وكثرةُ اللبن في شياهها بعد ذلك، وخِصْبُ أرضها، وسرعةُ نباته، وشقُّ الملكين صدره. كما سيأتي معنا.

وفي حديث **مخزوم بن هانئ المخزومي** عن أبيه قال ـ وكان قد أتت عليه خمسون ومئة سنة ـ: «لما كانت الليلةُ التي وُلِدَ فيها رسول الله ﷺ انكسرَ إيوانُ كسـرى، وسقطتْ منه أربعة عشر شرافة، وخمدت نار فارس، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغاضت بحيرةُ ساوة، ورأى المُوبذان إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة، وانتشرت في بلادها، فلمّا أصبح كسرى أفزعَه ما وقع،

---

(١) ناقتها.

فسأل علماءَ أهلِ مملكته عن ذلك، فأرسلوا إلى سطيح فذكر القصة بطولها. أخرجها ابن السكن وغيره في (معرفة الصحابة)(١).

تعظيم مكة المكرمة:

اختار الله تعالى لنبيه ﷺ أفضل بقاع الأرض وأشرفها وأعظمها لتكون موضعَ ولادته وموطنَ نشأته، اختارَ له أم القرى أعظم البلاد وأفضلها، وهي سُرّة الدنيا، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢]

فهي أفضلُ البلاد وأعظمها، وفيها الكعبة المشرفة بيتُ الله الحرام، وقبلةُ المسلمين التي جعلَها الله تعالى مثابةً للناس وأمناً بقوله الكريم: ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

وهي سُرَّة الأرض ومركزها، وقد ثبت علمياً أنها تقع في وسط الأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية(٢).

وهي البلد الذي دعا إبراهيم عليه السلام له ولأهله عندما كان يرفعُ قواعد بيت الله الحرام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وهي أيضاً البلد الذي حرمه الله تعالى بصريح قوله الكريم: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].

---

(١) فتح الباري: ٦/ ٥٨٤.

(٢) نشرت مجلة البحوث الإسلامية في العدد السادس مقالةً بعنوان: الإسقاط المكي العام للدكتور حسين كمال الدين أحمد، ومما جاء فيها: وعندما تمَّ توقيع حدود القارات الأرضية السبعة على خريطة الإسقاط، وجدنا أن الحدود الخارجية لهذه القارات يجمعها محيط دائرة واحدة مركزها عند مدينة مكة المكرمة، أي أنّ مكة تعتبر مركزاً وسطاً للأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية.

فجعله حرماً آمناً حتى في أيام الجاهلية، عندما كان الناس لا يأمنون على أنفسهم وأموالهم، فقال سبحانه يذكِّر قريشاً بهذه النعمة: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

ولهذا قال تعالى يذكّر قريشاً بهذه النعمة التي خصهم بها دون بقية الناس: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ① إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ③ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ١ ـ ٤].

وزاده الله جلّ جلاله تعظيماً وتحريماً فأقسم به فقال: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ١ ـ ٣]، وهو مكة المكرمة.

وبيّن جل وعلا أنه أقسم به، لأنَّ النبيَّ ﷺ ولد في رحابه، وحلّ به، فقال: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ① وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد: ١ ـ ٢] أي وأنت يا محمد مقيمٌ به، نازلٌ فيه، فكأنه عظَّم حرمة مكة من أجل أنه ﷺ مقيم فيها، ففيه إظهارٌ لمزيدِ فضله ﷺ، وإشعارٌ بأن شرفَ المكان بشرف أهله.

تعظيم عمره الشريف ﷺ:

وكما عظَّمَ سبحانه البلد الذي ولد فيه النبيّ ﷺ، عظّم أيضاً عمره الشريف، فأقسم به في قوله الكريم: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]. قال القاضي أبو بكر ابن العربي: قال المفسرون بأجمعهم: أقسم الله تعالى ها هنا بحياة محمد ﷺ تشريفاً له.

وهكذا قال القاضي عياض: أجمع أهلُ التفسير في هذا أنه قسمٌ من الله جلَّ جلاله بمدة حياة محمد ﷺ.

وأصلُه ضم العين، من العُمر، ولكنّها فتحت لكثرة الاستعمال، ومعناه: وبقائك يا محمد ﷺ وقيل: وحياتك، وهذا نهاية التعظيم، وغاية البر والتشريف[1].

(١) تفسير القرطبي: ١٠/٣٩.

وقال ابن كثير في تفسير الآية: أقسم الله تعالى بحياة نبيّه صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريفٌ عظيم، ومقامٌ رفيع، وجاهٌ عريض.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما خلقَ الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرمَ عليه من محمد ﷺ، وما سمعتُ الله أقسمَ بحياة أحد غيره.

وقد يكون في قوله تعالى في سورة العصر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١ ـ ٢] قسمٌ بعصر معين، قالوا: هو عصر الرسول ﷺ، فهو أنضرُ العصور وأفضلُها وأشرفُها، أقسم تعالى بزمانه كما أقسم بمكانه في قوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد: ١ ـ ٢].

ويؤيد هذا المعنى ما ورد في الحديث الشريف عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بعثتُ من خيرِ قرونِ بني آدم قرناً فقرناً، حتى كنتُ من القرنِ الذي كنتُ فيه»[1].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ أمَّتِي قَرْني، ثم الذين يلونَهُم، ثم الذين يَلُونهمْ»[2].

تكريمه ﷺ بشرح صدره:

خصّص الله عزَّ وجلّ سورةً من قصار سور القرآن الكريم ليخبرَ فيها عن إكرامِه النبيَّ ﷺ بشقّ صدرِه، وتطهيره في بواكير عمره الشريف من أي أثرٍ يمكنُ للشيطان أن يكونَ له تأثير عليه من خلاله، فقال عزَّ وجلّ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الانشراح: ١ ـ ٨].

وقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أي قد شرحنا لك صدرك، فهو استفهامٌ أريدَ به التقرير، أي نوّرناه، وجعلناه فسيحاً رحيباً واسعاً بما أودعنا فيه من الحكم، وما أزلنا عنه من الضيق والحرج، حتى وسعَ مناجاة الحق، ودعوة الخلق، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ

(١) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٥٥٧.
(٢) المرجع السابق في الفضائل، رقم ٣٦٥٠.

﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، أو نورناه بالإيمان، كما في قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]، أو يسرْنا لك تلقي الوحيَ بعد أن كان يشقّ عليك، والمراد من كل ذلك الشرح المعنوي.

وثبت أيضاً الشرحُ الحسيُّ لصدره الشريف ﷺ، ففي الحديثِ عن **أنس بن مالك** رضي الله تعالى عنه أنّ رسول الله ﷺ أتاه جبريلُ وهو يلعبُ مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشقَّ عن قلبه، فاستخرجَ القلب، فاستخرجَ منه علقةً، فقال: هذا حظ الشيطان منك، فغسله في طِسْتٍ من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَهُ، ثم أعادهُ في مكانه. وجاء الغلمان يَسْعَوْن إلى أمه ـ يعني ظئره ـ فقالوا: إنّ محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنتُ أرى أثرَ ذلك المخيطِ في صَدْرِه[1].

كما ثبت أيضاً شرحُ صدره الشريف ليلةَ الإسراء والمعراج، وسيأتي معنا في حديث المعراج عن **أنس بن مالك** عن **مالك بن صعصعة** رضي الله عنه أن نبيَّ الله ﷺ حدثه عن ليلة أسري به قال: «بينما أنا في الحطيم مضطجعاً، إذ أتاني آتٍ، فقدَّ ـ فشق ـ ما بينَ هذه إلى هذه (فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته) فاستخرجَ قلبي، ثم أتيتُ بطست من ذهب مملوءة إيماناً، فغسلَ قلبيَ ثم حُشِيَ..»[2].

قال ابن حجر رحمه الله: وقد استنكر بعضهم وقوعَ شقِّ الصدر ليلةَ الإسراءِ وقال: إنّما كان ذلك وهو صغير في بني سعد، ولا إنكارَ في ذلك، فقد تواردت الرواياتُ به، وثبتَ شقُّ الصدرِ عند البعثة كما أخرجه أبو نعيم في (الدلائل) ولكلٍّ منها حكمةٌ[3].

والسيدة حليمةُ بنت أبي ذُؤيب السعدية، هي ظئرُ النبيِّ ﷺ التي شرفَتْ بإرضاعِه، فهي أمُّه عليه الصلاة والسلام رضاعاً، إذ استُرْضِعَ في بني سعد بن بكر.

---

(١) صحيح مسلم في كتاب الإيمان، رقم ١٦٢.
(٢) انظر حديث المعراج كاملاً في صحيح البخاري في المناقب رقم (٣٨٨٧).
(٣) فتح الباري: ٧/ ٢٠٤.

حفظه ﷺ من ضلالات الجاهلية ومساوئها:

نشأ ﷺ يتيماً ـ كما مرَّ معنا ـ في وسط مجتمع جاهلي وثني، ومع ذلك حفظه الله تعالى من لوث هذا المجتمع ومساوئه، حتى عُرِفَ واشتُهِرَ بين أقرانه وأترابه من شباب مكة المكرمة بالصدق والأمانة والأخلاق الكريمة، فكان يلقب بينهم بالأمين.

ولا عجبَ في ذلك، إذ تولى الله جلَّ جلاله تأديبه ورعايته، وأخبر عن ذلك بقوله الكريم: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [الضحى: ١ ـ ١١].

وقد أظهر الله تعالى في هذه السورة المكانةَ الرفيعة التي أكرمَ بها النبيَّ ﷺ، وأكد ذلك بالقسم فقال:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي إذا سكن، ففيه تسكنُ الأصواتُ، وتهدأُ الحركاتُ، أو أقبل ظلامه واشتد، أو غطى النهار مثلما يسجِّى الرجلُ بالثوب. وجوابُ القسم: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ أي ما تركك ربك وما أبغضك.

وفي قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ من اللطف والتعظيم ما لا يخفى، فإنَّ الوداع إنما يكون بين الأحباب، ومن تعزّ مفارقته، وفي حذف المفعول في قوله: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ لطفٌ أيضاً به ﷺ وشفقةٌ عليه، حتى لا يواجه ﷺ بنسبة القلى.

وورد في سبب نزولها أنّه ﷺ اشتكى فلم يقم ليلة أو ليلتين، فجاءت امرأةٌ فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكونَ شيطانُك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثة، فأنزلَ الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[1].

---

(١) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٩٥٠.

وبعد أن أخبره تعالى بأنه لا يزال يواصله ويكرمه في الدنيا بشّره بأنَّ ما سيعطيه في الآخرة أجلُّ وأعظمُ من ذلك فقال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أي ما أعدّ الله لك في الآخرة من المقام المحمود، والحوض المورود، والخير الموعود ـ كماسيأتي معنا ـ خيرٌ لك وأعظم من الذي أعطاك في الدنيا، فلا يزالُ ﷺ يترقى بفضلِ الله تعالى عليه بالرفعة والكمال في الدنيا والآخرة.

وجاء بعدَ البشارة العِدَةُ الكريمة ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ أي ولأنت سوف يعطيك ربك فترضى بما تُعطى، فالعطاءُ كائنٌ لا محالة، وإنْ تأخّرَ لحكمة، وهو شاملٌ لما أعطاه الله في الدنيا من كمال الخُلق والخَلق، وظهور الأمر، وإعلاء الدين، ولما ادخر جلَّ وعلا له عليه الصلاة والسلام في الآخرة من المواهب والمقامات الرفيعة التي لا يحيطُ بها إلا الله جلَّ جلاله.

وكان جعفر بن محمد بن علي رضي الله عنهم يقول: إنّكم يا معشر أهل العراق تقولون: أرجى آية في القرآن: ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وإنّا أهلَ البيت نقول: أرجى آية في كتاب الله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾[1].

ثم بين تعالى أنّ نعمه على النبيِّ ﷺ دائمةٌ لا تنقطع، فكما أحسنَ إليه فيما مضى يحسنُ إليه فيما يستقبل، فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ أي ألم يعلمك الله يتيماً حين مات أبوك، ولم يخلّف لك مالاً ولا مأوى، فجعل لك مأوى تأوي إليه، فآواك إلى جدك عبد المطلب، ثم إلى عمك أبي طالب، وكفاك المؤونة.

فـ ﴿يَجِدْكَ﴾ من الوجود الذي هو بمعنى العلم، وقيل هو من قولهم: درة يتيمة، والمعنى ألم يجدك واحداً في قريش عديمَ النظير فآواك إليه، وأيدك وشرفك بنبوته، واصطفاك لرسالته.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ أي ووجدك ضالاً عن معالم النبوة وأحكام الشريعة فهداك إليها، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] أو وجدك بين أهل الضلال فعصمَك من ذلك، وهداك

---

(١) تفسير الخازن: ٦/ ٥٢٧.

إلى الإيمان، وعرّفك طريق الخير والرشاد. ولا يجوزُ أن يفهم منه عدولٌ عن حقٍّ، ووقوعٌ في غيٍّ، فقد كان عليه الصلاة والسلام من أولِ حالِه إلى نزولِ الوحي عليه معصوماً من عبادة الأوثان، وقاذوراتِ أهل الفسق والعصيان.

وقد يكون المعنى وجدك غافلاً عن ما يُراد بك من النبوة فهداك، أي أرشدك، والضلال هنا بمعنى الغفلة كما في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣][١].

فشبّ رسول الله ﷺ والله تعالى يكلؤه ويحفظه، ويحوطه من أقذار الجاهلية، لما يريدُ به من كرامته ورسالته، حتى بلغَ أنْ كان رجلاً أفضلَ قومه مروءةً، وأحسنَهم خُلقاً، وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانةً، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنّس الرجال، تنزهاً وكرماً، حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة[٢].

وروى أبو نعيم في (الدلائل) أنّه ﷺ قال: «لما نشأتُ بُغِّضَتْ إلي الأوثانُ، وبُغِّضَ إلي الشعرُ، ولم أهمَّ بشيءٍ ممّا كان أهلُ الجاهلية يعملونَ به غير مرتين، فعصمني الله منهما، ثم لم أعدْ».

وعن علي كرم الله وجهه على ما رواه البزّار بسند صحيح عنه مرفوعاً بلفظ: «ما هممتُ بشيءٍ مما كان أهلُ الجاهليةِ يعملون به غير مرتين، كلُّ ذلك يحولُ الله بيني وبين ما أريدُ، ثم ما هممتُ بعدَهما بشيء حتى أكرمني الله برسالته».

ورواه الحاكم في (المستدرك) في التوبة بلفظ «ما هممتُ بقبيحٍ ممّا همَّ به أهلُ الجاهلية إلا مرتين من الدهر، كلتاهُما يعصمنُي الله منهما.

قلت ليلـةً لفتًى من قريـشٍ كانَ بأعلى مكة يرعى غنماً لأهلِه: أبصرْ غنمي حتى أسمرَ هذه الليلةَ كما يسمرُ الصبيانُ، فجئتُ أدنى دار مكة، فسمعت غناءً

(١) انظر تفسير السورة للمؤلف في موضوعات سور القرآن الكريم.
(٢) سيرة ابن هشام: ١/ ١٦٧.

وصوتَ دفوفٍ ومزاميرَ، فقلتُ: ما هذا؟ فقيل: فلانٌ تزوجَ فلانة، فلهوتُ بذلك الغنـاء، وذلك الصوت حتى غلبتني عيناي، فما أيقظني إلا مَسُّ الشمـسِ، ثم رجعتُ إلى صاحبي فقال لي: ما فعلتَ؟ فأخبرتُه.

ثم فعلتُ الليلـة الأخرى مثل ذلك، فسـمعتُ كما سمعتُ، حتى غلبتني عيناي، فما أيقظني إلا مَسُّ الشمس، ثم رجعتُ إلى صاحبي فقال لي: ما فعلت؟ فما قلت شيئاً، أي وذلك حياءً». قال رسول الله ﷺ: «واللهِ ما هممتُ غيرَهما بسوءٍ مما يعمله أهل الجاهلية حتى أكرمني الله بنبوته»[1].

وعن عمرو بن دينار قال: سمعتُ **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما قال: لمّا بُنيتِ الكعبة، ذهبَ النبيُّ ﷺ وعباس ينقلانِ الحجارة، فقال العباس للنبيِّ ﷺ اجعل إزارَكَ على رقبتك، فخَرَّ إلى الأرض، وطمحت عيناهُ إلى السماء، فقال: «أرني إزاري» فشدَّهُ عليه[2].

والجدير بالذكر أنَّ العرب بلغـوا من الضلال في الجاهليـة ما حدّثَ بـه أبو رجاء العطاردي فقال: كنا نعبدُ الحجرَ، فإذا وجدنا حجراً هو أخيرُ منه ألقيناه، وأخذنا الآخر، فإذا لم نجدْ حجراً جمعنا حثوة من تراب ـ كومة ـ ثم جئنا بالشاةِ، فحلبناها عليه، ثم طفنا به. فإذا دخلَ شهرُ رجبَ قلنا: منصل الأسنة[3] فلا ندعُ رمحاً في حديدة، ولا سهماً في حديدة إلا نزعناهُ، وألقيناه شهرَ رجبٍ[4].

رعايته ﷺ الغنم:

قُدِّرَ للنبيِّ ﷺ أن يرعى الغنم مرّتين في حياته.

الأولى منهما: عندما كان يرعاها مع إخوته من الرّضاع، وهو في بواكير طفولته، كما مرَّ معنا في حديث شق صدره ﷺ.

---

(١) انظر شرح الشفا للقاري.
(٢) صحيح البخاري في الحج، رقم ١٥٨٢.
(٣) أنهم كانوا ينزعون الحديد من السلاح في الأشهر الحرم، يقال نصلتُ الرمحَ إذا جعلت له نصلاً، وأنصلتُه إذا نزعتَ منه النصلَ.
(٤) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٣٧٦.

وأما الثانية: فكانت في بواكير شبابه، فقد أراد ﷺ بعدما توفيَ جدُّه عبد المطلب، وكفله عمه أبو طالب، الذي كان كثيرَ العيال، قليلَ المال، أراد النبي ﷺ أن يعملَ مكتسباً لنفسه، فعمل في رعاية الغنم، شأنُه ﷺ في هذا شأن من سبقه من الأنبياء، وأخبرَ عن ذلك بقوله في الحديث الشريف الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عنه ﷺ قال: «ما بعَثَ الله نبياً إلا رَعَى الغنمَ، فقال أصحابه: وأنتَ؟ قال: «نعم، كنتُ أرعاها على قراريطَ لأهلِ مَكّةَ»[1].

والقيراط هو جزءٌ من الدينار أو الدرهم، وقيل: اسمُ موضعٍ بمكة، لكنْ رُجِّح الأول، لأنّ أهل مكة لا يعرفون بها مكاناً يقال له قراريط . . .

قال العلماء: الحكمةُ في إلهام الأنبياء رعيَ الغنم قبل النبوة أن يحصلَ لهم التمرّنُ برعايتها على مايكلّفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأنَّ في مخالطتها ما يحصِّلُ لهم الحلم والشفقة، لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوِّها من سَبُع وغيرِه كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها، وشدة تفرقها مع ضعفها، واحتياجها إلى المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها، وتفاوت عقولها، فجبروا كسرها، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهُدَ لها، فيكون تحمّلهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كُلِّفوا القيامَ بذلك من أول وهلة، لما يحصلُ لهم من التدرجِ على ذلك برعي الغنم.

وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها، ولأنَّ تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر، لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع انقياداً من غيرها.

وفي ذِكْرِ النبي ﷺ لذلك بعد أن علمَ كونَه أكرم الخلق على الله، ما كان عليه من عظيم التواضع لربه، والتصريح بمنّته عليه وعلى إخوانه من الأنبياء. صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء[2].

---

(١) صحيح البخاري في الإجارة، رقم ٢٢٦٢.

(٢) فتح الباري: ٤/ ٤٤١.

بشريّته ﷺ:

النبيُّ ﷺ بشرٌ من البشر، اصطفاه الله تعالى منهم، فهو خيرته جلّ وعلا من خلقه، وقد أمره ربُّه أمراً صريحاً قاطعاً أن يقول للناس: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠]. وتكرر ذلك في موضع آخر فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ [فصلت: ٦]، وشأنه ﷺ في هذا كشأن جميع الأنبياءِ والمرسلين قبله، ولهذا قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأحقاف: ٩].

ولما اعترضَ المشركون على بشريته ﷺ وسألوه ما سألوه من المعجزات أجابهم ﷺ قائلاً: ﴿ هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٣]. حكى ذلك ربنا سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٤].

ولما قالوا في رسول الله ﷺ ماحكاه الله عنهم: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥] ردَّ سبحانه وتعالى عليهم فقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧ ـ ٨] وردَّ سبحانه أيضاً عليهم بقوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

ولما تمنّى المشركون أن يكونَ الرسول المرسَلُ إليهم ملكاً ردَّ سبحانه عليهم بقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٨ ـ ٩].

وجعل القولَ الفصلَ في هذا قوله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٥].

فالرسل عليهم الصلاة والسلام بشرٌ كسائر البشر، يجوزُ في حقهم كلُّ ما يتصف به البشر من الصفات، حتى إنهم يمشون في الأسواق، ويأكلون الطعام، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وكذلك يتزوجون ويرزقون بالأولاد والذرية: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةًۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد: ٣٨].

ولمّا أراد سبحانه أن يؤكّدَ بشرية عيسى عليه الصلاة والسلام قال عنه: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة: ٧٥].

وقد أخبر ﷺ أنّه من ذرية آدم والد جميع البشر، ففي الحديث عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيّدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامة، وأوّلُ من ينشقُّ عنه القبرُ، وأوّلُ شافعٍ، وأوّلُ مشفَّعٍ»[١].

كما قرّرَ ﷺ حقيقة بشريته في عدد من الأحاديث الشريفة الصحيحة منها ما رواه **رافعُ بن خَديج** قال: قدم نبيُّ الله ﷺ المدينة، وهم يأبِّرُوْنَ النخل[٢] فقال: «ما تصنعون» قالوا: كُنّا نصنعُه، قال: «لعلّكم لو لم تفعلوا كان خيراً» فتركوه فنفضت أو فنقصت، قالوا: فذكروا ذلك له، قال: «إنّما أنا بشرٌ إذا أمرتكم بشيءٍ من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيءٍ من رأي، فإنّما أنا بشرٌ»[٣].

---

(١) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٢٧٨.
(٢) يأبرون النخل: يلقحون النخل.
(٣) المرجع السابق في الفضائل، رقم ٢٣٦٢.

ولما قُدِّرَ له ﷺ أن ينسى في صلاتِه ويسجدَ بعد ذلك للسهو قال: «إنما أنا بشرٌ أنسى كما تَنْسونَ، فإذا نَسيَ أحدُكم فليسجدْ سجدتين، وهو جالسٌ» وفي روايةٍ «إنما أنا بشرٌ أنسى كما تنسون، فإذا نسيتُ فذكِّروني»[١].

ومما يؤكدُ بشريته أيضاً حكمُه ﷺ بالظاهر، فهو لا يعلمُ الغيبَ إلا بإعلامِ الله تعالى، وفي الحديث عن أمِّ سلمة زوج النبيِّ ﷺ أن رسول الله ﷺ سمعَ جلبةَ خصمٍ ببابِ حُجْرَتِه، فخرجَ إليهم فقال: «إنما أنا بشرٌ، وإنَّه يأتيني الخصمُ، فلعلَّ بعضَهم أن يكونَ أبلغَ من بعض، فأحسبُ أنَّه صادقٌ، فأقضي له، فمن قضيتُ له بحقِّ مسلمٍ فإنَّما هي قطعةٌ من النار، فليحمِلْها أو يَذَرْها»[٢].

وقوله: «إنما أنا بشرٌ» معناه التنبيه على حالته البشرية، وأنَّ البشر لا يعلمون من الغيب وبواطن الأمور شيئاً إلا أن يطلعهم الله تعالى على شيء من ذلك، وأنه يجوزُ عليه في أمور الأحكامِ ما يجوزُ عليهم، وأنّه إنما يحكمُ بين الناس بالظاهرِ، والله يتولى السرائر[٣].

أكد ذلك قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وفي حادثة بني الأُبيرق عندما حاول بعضُ المنافقين أنْ يصرفوا النبيَّ ﷺ عن الحقيقة، أنزلَ الله عليه قوله الكريم: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ

---

(١) المرجع السابق في الصلاة، رقم ٥٧٢.

(٢) المرجع السابق في الأقضية، رقم ١٧١٣.

(٣) شرح النووي لصحيح مسلم.

يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١١٣].

فالقولُ أنّه ﷺ من نورٍ، أو أنّه خُلِقَ من نور ربه، يصادمُ النصوصَ القطعيةَ المعروفةَ من الدين بالضرورة، فهو ﷺ بشرٌ نوّره الله جل جلاله، ونوّر به، فقال في معرضِ الثناءِ عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦]. أي وأرسلناك سراجاً منيراً تنيرُ طريقَ الحقِّ، وتبيّنُ الحججَ والبراهينَ، فقد جلا الله تعالى به ظلماتِ الشرك، واهتدى بهديه الضالون.

وقد جمع الله تعالى للنبيِّ ﷺ النورَ المعنويَّ والنور الحسيَّ، فنورُ هدايته ﷺ أضاءَ العالمين، وهو النورُ المعنويُّ، ونورُ جماله أجمعَ عليه كلُّ مَنْ رآه وتشرّفَ بالنظرِ إليه ﷺ، قال **أبو هريرة** رضي الله عنه: «ما رأيتُ أحسنَ مِنْ رسول الله ﷺ، كأنَّ الشمسَ تجري في وجْهِه»(١).

وقال **هند بن أبي هالة** رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ فخماً مُفخّماً يتلألأُ وجهُه تلألؤَ القمرِ ليلةَ البدر»(٢).

كمال عبوديته لله عزَّ وجلّ:

العبوديةُ لله من المقامات العالية الرفيعة التي يَشْرُفُ بها الإنسان عندما يسعى إلى التحققِ بها، ولقد وصف الله تعالى بها أكملَ أصفيائه وأنبيائه، فقال سبحانه في معرض ثنائه على **نوح عليه السلام**: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

وقال في معرض ثنائه على **داود عليه السلام**: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا

---

(١) رواه الترمذي في الشمائل.

(٢) المرجع السابق نفسه.

دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [سورة صٓ: ١٧].

وقال أيضاً في إبراهيم عليه السلام: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٩ ـ ١١١].

وقال أيضاً في موسى وهارون عليهما السلام: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٢٠ ـ ١٢٢].

وقد تحقق نبينا محمد ﷺ بكمال العبودية لله تعالى، ووصفه ربه سبحانه بصفة العبودية في عدد من الآيات الكريمة، وهو في أعلى المقامات، ففي مقام الإسراء والمعراج قال تعالى فيه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وفي يوم بدر أنزل الله تعالى عليه أيضاً: ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

وفي مقام تبتله وعبادته قال تعالى فيه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ [الجن: ١٩].

وعند تلقيه الوحي وهو في الأفق الأعلى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

وعند تلقيه الوحي أيضاً وهو في الأرض: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد: ٩].

فهو ﷺ المتفرّد بكمال العبودية لله تعالى، الذي اختارَ أن يكون نبياً عبداً على أن يكونَ نبياً ملكاً، ففي الحديث الشريف عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «يا عائشةُ! لو شئتُ لسارتْ معي جبالُ الذهب، جاءني مَلَكٌ

وإنَّ حُجْزَتَه لتساوي الكعبة ـ أي وسطه ـ فقال: إنّ ربَّـكَ يقرأ عليكَ السـلامَ، ويقولُ: إنْ شئتَ نبياً عبداً، وإنْ شئتَ نبيّاً ملكاً، فنظرتُ إلى جبريلَ عليه السلام فأشارَ إلي أنْ ضعَ نفسَك» وفي رواية ابن عباس رضي الله عنهما: «فالتفتَ رسولُ الله إلى جبريلَ كالمستشير له، فأشارَ له جبريلُ بيده أن تواضَعْ، فقلتُ: نبياً عبداً» فقالت عائشة رضي الله عنها: فكان رسولُ الله ﷺ بعد ذلك لا يأكلُ متكئاً، ويقول: «آكلُ كما يأكلُ العبدُ، وأجلسُ كما يجلسُ العبدُ»[١].

قال القاضي عياض بن موسى اليحصبي رحمه الله: وأما تواضعُه ﷺ على علوِّ منصبه، ورفعة تبتله، فهو أشد الناس تواضعاً، وأقلُّهم كِبْراً، وحسبُك أنّه خُيِّرَ بين أن يكون نبياً ملِكاً، أو نبياً عبداً، فاختارَ أن يكونَ نبياً عبداً، فقال له إسرافيلُ عند ذلك: فإنّ الله أعطاكَ بما تواضعتَ له أنك سيّدُ ولدِ آدم يوم القيامة، وأول شافع[٢].

ومن كمال عبوديته لله عزَّ وجلّ قيامُه في الليل وهو يناجي ربَّه، حتى تتفطَّرَ قدماه.

وكان ﷺ يوصي أصحابَه ألا يُطْرُوْهُ، ففي الحديث عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما سمعَ عمر رضي الله عنه يقولُ على المنبر: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «لا تطروني كما أطرتِ النصارى ابن مريم، فإنَّما أنا عبدُه، فقولوا: عبدُ الله ورسوله»[٣].

وسيأتي معنا أنّه ﷺ عندما أرْسَلَ رسائله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الله تعالى والتصديق برسالته، وصف نفسه في مستهل رسائله إليهم بصفة العبودية لله تعالى.

هو ﷺ أول المسلمين:

وهو ﷺ أول المستسلمين لله تعالى، المذعنين المنقادين لحكمه الشرعِّي

---

(١) رواه أحمد والبيهقي والتبريزي.
(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى.
(٣) صحيح البخاري في أحاديث الأنبياء، رقم ٣٤٤٥.

والقدريّ، أمره سبحانُه أن يصرّحَ بذلك، ويعلنه على الناس بقوله الكريم: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: ١١ ـ ١٢]. وقوله أيضاً: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

فتحقيق العبودية لله تعالى روحُ الرسالات الإلٰهية وزبدتها، كلّف بها المرسلون أولاً ليكونوا الأسوة الصالحة والقدوة الحسنة لمن أرسلوا إليهم، ولهذا أُمرَ الرسول ﷺ أن يعلنَ ذلك وهو يدعو إلى عبادته تعالى، وأُمر أيضاً أن يكونَ له السبق والتقّدم فيها فيكون أول المسلمين.

ومن مظاهرها أيضاً كمالُ التوجّهِ إلى الله تعالى في كلِّ شيءٍ بحيث يمتدُّ هذا التوجه من الحياة إلى الممات: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣]. أي أول المسلمين من أمته، أو أول المسلمين أجمعين وأفضلُهم وأعظمُهم، ففي الحديث الشريف عن **عليِّ بن أبي طالب** رضي الله عنه قال: «كان رسولُ الله ﷺ إذا استفتحَ الصلاةَ كبّرَ، ثم قال: وجّهت وجهي للذي فطر السماواتِ والأرضَ حنيفاً مسلماً، وما أنا من المشركين، إنَّ صلاتي ونُسُكي ومحيايَ ومماتي للهِ ربِّ العالمين، لا شريكَ له، وبذلك أُمِرْتُ، وأنا أوّلُ المسلمين»[1].

تقديمه ﷺ بالذكر على جميع الأنبياء والمرسلين:

ومما تفضّلَ الله تبارك وتعالى عليه في القرآن الكريم تقديمه بالذكر على جميع الأنبياء والمرسلين، فمع أنّه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ـ كما سيأتي معنا ـ قدّمه بالذكر عليهم فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]. وخصت الآيةُ هؤلاء الخمسة بالذكر، مع أنّهم من جملة النبيين والمرسلين تنويهاً بفضلهم، وبياناً لكرامتهم وشرفِهم، فهم أصحابُ الشرائع المشهورة، وأولو العزم من الرسل.

---

(١) صحيح مسلم في كتاب الصلاة، رقم ٢٠٢.

ولما كان سيدنا محمد ﷺ أفضلَهم، قُدِّمَ عليهم، ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه.

ورأى بعضُ المفسّرين أنَّ الله سبحانه قدّمه بالذكر، لأنّه أكرمَه بالنبوة في عالم الأرواح قبل الأشباح، فنبوته افتتحت النبوات في عالم الأرواح، ونبوته أيضاً ختمت في عالم الأجساد والأشباح، وقد استدلوا على ذلك بما روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: يا رسول الله: متى وجبتْ لك النبوةُ؟ قال: «وآدمُ بينَ الروح والجسدِ»(١)، وقد ذكره الشوكانيُّ في تفسير الآيةِ، وقال: وفي البابِ أحاديثُ قد صحَّ بعضُها.

قال القرطبيُّ رحمه الله: وقدم محمداً في الذكر لما روى قتادةُ عن الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ سُئِلَ عن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧] قال: «كنتُ أوّلهم في الخلقِ، وآخرهم في البعثِ» وقال مجاهد: هذا في ظهرِ آدمَ عليه السلام(٢).

وقال سبحانه أيضاً: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣ ـ ١٦٤]، وكلُّ هؤلاء قبله عليه وعليهم الصلاة والسلام، ولهذا قال الإمام القرطبيُّ رحمه الله تعالى في تفسيره: وفي هذه الآية تنبيهٌ على قدر نبينا ﷺ وشرفِه، حيث قدّمه في الذكرِ على أنبيائه.

خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ:

بعد أن أثنى الله تعالى على جميع أنبيائه ورسله بقوله الكريم: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

بيّنَ سبحانه أنَّ النبيَّ ﷺ هو خاتمهم، ختمَ الله جلَّ جلاله به الرسالاتِ

(١) قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب، ورواه أبو نعيم والبيهقي والحاكم وصححه.
(٢) تفسير القرطبي: ١٤/ ١٢٤.

الإلـهية، فلا نبيَّ بعدَه ولا رسول، فقال: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ومع أنَّ عيسى عليه السلام نبيٌّ قبله، إلا أنّه ينزلُ بعده حَكَماً مقسِطاً على شريعته ﷺ، فرسالتُه عليه السلام خاتمةُ الرسالات، أرسَلَه بها إلى كلِّ الأجيالِ والأممِ حتى قيام الساعة. قال ابنُ كثير في تفسير الآية: فهذه الآية نصٌّ أنّه لا نبيَّ بعدَه، فلا رسولَ بعدَه بالطريق الأولى والأحرى، لأنَّ مقامَ الرسالة أخصُّ من مقام النبوة، بذلك وردت الأحاديثُ المتواترةُ عن رسول الله ﷺ.

وفي الحديث عن **أبي هريرة** رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثلِ رجلٍ بنى بيتاً فأحسنَه وأجملَه، إلا موضع لبنةٍ من زاويةٍ، فجعلَ الناسُ يطوفونَ به، فيعجبون لَهُ ويقولون: هلاّ وضِعَتْ هذه اللبنةُ؟ قال: فأنا اللبنةُ، وأنا خاتم النبيين».

وعن **جبير بن مطعم** رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لي خمسةُ أسماء؛ أنا محمّدُ، وأنا أحمدُ، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفرَ، وأنا الحاشِرُ الذي يُحْشَرُ الناسُ على قدمي، وأنا العاقِبُ» وزاد في رواية مسلم في (صحيحه) «الذي ليسَ بعدَهُ نبيٌّ»[(١)].

وقوله: «أنا الحاشِرُ الذي يُحْشَرُ الناس على قدمي» يحتمل أن يكونَ المرادُ بالقدمِ الزمانَ، إشارةٌ إلى أنّه ليس بعدَه نبيٌّ ولا شريعة[(٢)].

وعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ الرسالةَ والنبوّةَ قد انقطعتْ، فلا رسولَ بعدي ولا نبيّ»[(٣)].

فكلُّ من ادعى هذا المقامَ بعدَه فهو ـ كما قال ابن كثير ـ كذّابٌ، أفّاكٌ، دجّالٌ، ضالٌّ، مُضِلٌّ.

---

(١) صحيح البخاري في أحاديث الأنبياء، رقم ٣٥٣٥ـ٣٥٢٢.

(٢) فتح الباري: ٦/ ٥٥٧.

(٣) رواه أحمد والترمذي، وقال: حسن صحيح.

وقد قامت عقيدةُ ختمِ النبوةِ بحراسةِ هذا الدين من كذِبِ الدجّالين وافتراءاتهم، وبدعهم وفِتَنِهِم، ولولا عقيدةُ ختم النبوة هذه، لفقد الإنسانُ ثقته بنفسه، وبقيَ في ريبٍ دائم، يشخص ببصره إلى السماء، ينتظرُ وحياً جديداً، وبهذا يقع فريسة المتنبئين من الدجالين، ولهذا كان أخطرُ شيء في ادعاءات (المرزا غلام أحمد القادياني) محاولةَ نقضِ عقيدة ختم النبوة وهدمها، وإشاعة الفوضى والبلبلة في الفكر الإسلامي.

وقد أكّد النبيُّ ﷺ أنّه لا نبيَّ بعده ولا نبوّة في مناسبات متعددة، فعن سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه قال: خلّفَ رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب في غزوة تبوك، فقال: يا رسول الله! تخلِّفُني في النساء والصبيان؟ فقال: «أما ترضى أن تكونَ منِّي بمنزلةِ هارون من موسى، غيرَ أنَّه لا نبيَّ بعدِي» وفي رواية «إلا أنَّه لا نبوّةَ بعدي»[1].

وقد أدرك الصحابة هذه الحقيقة، وعرفوا عمقَ المصيبة التي حلت بهم، عندما توفيَ النبيُّ ﷺ، فبوفاته انقطع الوحي، ولن ينزلَ على أحدٍ بعدَه أبداً، ففي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: قال أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر: انطلق بنا إلى أمِّ أيمنَ نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها. فلمّا انتهينا إليها بكتْ، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خيرٌ لرسولِه ﷺ. فقالت: ما أبكي أنْ لا أكونَ أعلمُ أنما عند الله خيرٌ لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أنَّ الوحي قد انقطع من السماء. فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها[2].

لقد توفي النبيُّ ﷺ، وخُتمت النبواتُ والرسالاتُ، وانقطعَ الوحيُ من السماء، فحُرِست بذلك الشريعة الإسلامية من دجل الدجالين، وعبث العابثين من أدعياء النبوة، الذين أخبرَ النبيُّ ﷺ عنهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعةُ حتى يقتتلَ فئتان، فيكونُ بينهما مقتلةٌ عظيمةٌ، دعواهما واحدةٌ، ولا تقوم الساعة حتى يُبْعَثَ دجالون كذابون قريباً من

---

(١) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٣٤٠٤.
(٢) المرجع السابق، رقم ٢٤٥٤.

ثلاثين، كلُّهم يزعمُ أنَّه رسولُ الله»[1].

كمال أخلاقه ﷺ:

مرّ معنا أنه ﷺ نشأ يتيماً، وأنَّ الله تعالى تولّى رعايته وآواه إلى كنفه، وذكّره بذلك فقال: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾ [الضحى: ٦] فحفظه ـ كما مرَّ معنا ـ من لوثِ الجاهلية وضلالاتها، وأكرمَه بأكمل الأخلاق، وأجملِ السجايا، وأرفع الصفات، حتى استحقَّ ثناءَ الحقِّ سبحانه ﷺ بقوله الكريم: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم: ٢]، ذكر ذلك سبحانه وتعالى في معرض الرد على المشركين الذين اتهموه ﷺ كذباً وزوراً بالجنون، فقال: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ أي ما أنت يا محمد برحمة ربك التي أكرمك بها، ورفعك إليها، وخصّك بها بمجنون، فقد جمعَ الله تعالى له كمالَ الخَلْق والخُلق، وبرأه من كلِّ عيب، وصانه عن كل دَنَسٍ بالقول والعمل، وشهد سبحانه له بذلك.

فأخلاقه ﷺ عظيمةٌ كاملةٌ حميدةٌ، بلغت الغاية العالية في الكمال، حتى إنَّ السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت لسعد بن هشام، عندما سألها عن خُلق رسول الله ﷺ: «ألستَ تقرأ القرآن؟» قال: بلى، قالت: «فإنَّ خُلُقَ نبيِّ الله ﷺ كانَ القرآن»[2]، زاد البيهقيُّ في روايتِه للحديث في كتاب (دلائل النبوة): «يرضى برضاه، ويسخطُ بسخطِه».

ومن المعلوم أنَّ الله جمعَ في القرآن الكريم كلَّ مكارم الأخلاق، وكلّها اجتمعت في رسول الله ﷺ، ومجيء هذه الشهادة الربانية في سياق القسم الإلهي بالقلم وما يسطرون، دلَّ على أنَّ أعظمَ المقدرات التي كتبها القلم في لوح المقادير: إنّك يا محمد لعلى خلق عظيم، لقد اجتمع فيه ﷺ ما جبله الله عليه من الخلق العظيم في أصل فطرته الكريمة، مع امتثاله لما في القرآن الكريم من الأخلاق الكريمة، والمُثل الإنسانية الرفيعة، وهذا ما جعل السيدة عائشة رضي الله عنها وهي أقرب الناس إليه تقول: «إنّ خلقَ نبيِّ الله ﷺ كان القرآن».

---

(١) صحيح البخاري، رقم ٣٦٠٩.

(٢) انظر الحديث كاملاً في صحيح مسلم كتاب الصلاة، رقم ٧٤٦.

وشهد له بذلك أيضاً خادُمه أنسُ بن مالك رضي الله عنه، الذي خدم النبيَّ ﷺ عشرَ سنين قال: «كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناس خُلقاً»[1].

وقد بعثه الله تعالى ليتمّم للبشرية مكارمَ الأخلاق، فقال عليه الصلاة والسلام: «بُعثت لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاق»[2].

قال القاضي عياض: وكان فيما ذكره المحققون مجبولاً عليها من أصل خِلْقَتِه وأول فطرته، لم تحصل باكتسابٍ ولا رياضةٍ إلا بجودٍ إلـهيٍّ، وخصوصيّةٍ ربانيةٍ[3].

وأصبحت أخلاقُه الكريمة وسجاياه الحميدة علماً على صحة نبوته، وصدقِ رسالته، حتى إنّ الله سبحانه وتعالى أنكرَ على المشركين المعرضين عن دعوة النبي ﷺ من قومه إعراضهم عن الإيمان به بقوله سبحانه: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩] أي أم لم يعرفوا رسولَهم بالصدق والأمانة والأخلاق الكريمة، فكيف ينكرونه، ويكذبون رسالته، ويعرضون عن دعوته، وقد عرفوه بما عرف به، واشتهر من الأخلاق الكريمة، حتى كانوا يلقبونه بالأمين، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم؟!!.

فإنكارُهم له ليس بسببِ جهلهم به، وإنما بسببِ بغيهم وحسدهم له عليه الصلاة والسلام.

وبيّن سبحانه أنَّ أخلاقَ النبيِّ ﷺ الكريمة كانتِ السببَ الأساس لمحبة أصحابه له ﷺ، وتعلّقهم به، فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ولهذا كلّفنا سبحانه بالتأسي به ﷺ فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

---

(١) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٣١٠.
(٢) رواه أحمد والبزار ومالك في الموطأ.
(٣) الشفا: ١/ ٥٤٥.

ومن أخلاقه الكريمة أنه ﷺ كان يحض على التحلي بالأخلاق الكريمة، ففي الحديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: لم يكن النبيُّ ﷺ فاحشاً ولا متفحِّشاً، وكان يقول: «إنّ من خياركم أحسنُكم أخلاقاً»(١).

والجدير بالذكر هنا أن الله جل جلاله جمع للنبيِّ كلَّ الكمالات الخُلقية التي أنعمَ بها على الأنبياء والمرسلين، فقد أمره سبحانه أن يقتدي بهم لتجتمعَ فيه كلُّ الفضائل التي أكرمهم الله بها، فقال عزَّ وجلّ في سياق الآيات التي ذكرهم فيها: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وهكذا رفع سبحانه هؤلاء الأنبياء والمرسلين بحكمته وعلمه درجات عالية رفيعة، ثم أمر النبيَّ ﷺ أن يقتدي بهم، ليحوز كلَّ مناقبهم وفضائلهم، وليكونَ بفضل الله سبحانه إمامهم وسيّدَهم، والقدوةَ الطيبة والأسوة الحسنة للمؤمنين.

فما أعظمَ هذه الفضائل! وما أشرف هذه الشمائل! شمائل الذين اختارهم الله سبحانه من جميع الأمم والشعوب في أزمنة وأمكنة مختلفة متباعدة، جمعها الله في زمن واحدٍ ومكانٍ واحدٍ وإنسانٍ واحدٍ، هو سيدنا رسول الله ﷺ رحمته العظمى للعالمين.

كمال خَلْقِه وحليته ﷺ:

وكما كان ﷺ أكملَ الناسِ خُلُقاً كان أيضاً أكملَ الناس خَلْقاً وحلية، جمع الله في بدنه الشريفِ كلَّ المحاسنِ البشرية، وجعلَ كمالَ تكوينِه الجسدي دليلاً على صدقه، وصحة نبوته، فقال يعرّض بالمشركين الذي ينظرون إليه، ويعرضون عن الإيمان به: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [يونس: ٤٣] وقال أيضاً: ﴿ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

قال القاضي عياض رحمه الله: أمّا الصورةُ وجمالُها وتناسبُ أعضائه في

(١) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٥٥٩.

حسنها، فقد جاءت الآثارُ الصحيحةُ والمشهورةُ الكثيرةُ بذلك من حديث **عليٍّ وأنس بن مالك وأبي هريرة والبراء بن عازب وعائشة أم المؤمنين** رضي الله عنهم[(١)]

ففي الحديث عن **البراء** رضي الله عنه قال: «كان رسولُ الله ﷺ أحسنَ الناس وجهاً، وأحسنَهم خَلقاً، ليس بالطويل البائنِ، ولا بالقصيرِ»[(٢)].

ولما سئل رضي الله عنه: أكانَ وجه النبي ﷺ مثلَ السيفِ؟ قال: «لا بل مثل القمرِ»[(٣)].

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: «ما رأيتُ أحسنَ من رسول الله ﷺ، كأنَّ الشمسَ تجري في وجهه، وما رأيتُ أحداً أسرعَ في مشيته من رسولِ الله ﷺ، لكأنّما الأرضُ تُطوى له، كُنا إذا مشينا معه نجهد أنفسنا، وإنّه لغيرُ مكترثٍ»[(٤)].

وقال **كعب بن مالك** رضي الله عنه، وهو يحدّث حين تخلّفَ عن تبوك: فلمّا سلمتُ على رسول الله ﷺ وهو يبرقُ وجهه من السرور، وكان رسولُ الله ﷺ إذا سُرَّ استنارَ وجهُه حتى كأنّه قطعةُ قمرٍ، وكنّا نعرفُ ذلك منه[(٥)].

وعن خالد بن عبد الله الجريري عن **أبي الطفيل** قال: قلتُ له: أرأيت رسول الله ﷺ؟ قال: «نعم، كان أبيضَ، مليحَ الوجه»[(٦)].

ولما سأل رجلٌ **جابرَ بن سَمُرة** رضي الله عنه عن وجه رسول الله ﷺ: بقوله له: وجهه مثل السيف؟ قال: لا بل كانَ مثل الشمس والقمر، وكان مستديراً، ورأيتُ الخاتم عند كتفِه مثل بيضةِ الحمامةِ، يشبه جسده[(٧)].

---

(١) انظر الشفا: ١/ ٣٦٠.
(٢) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٥٤٩.
(٣) المرجه السابق، رقم ٣٥٥٢.
(٤) أخرجه الترمذي في سننه.
(٥) المرجع السابق، رقم ٣٥٥٦.
(٦) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٣٤٠.
(٧) المرجع السابق في الفضائل، رقم ٢٣٤٤.

خاتم النبوة:

ودلَّ الحديث السابقُ على أنَّ خاتم النبوة كان بين كتفي النبيِّ ﷺ، وكان من علاماتِه التي كان أهلُ الكتاب يعرفونه بها، فعن **السائب بن يزيد** رضي الله عنه قال: ذهبَتْ بي خالتي إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! إنَّ ابنَ أختي وَجِعٌ، فمسح رأسي ودعا لي بالبركة، ثم توضَّأ فشربتُ من وضوئه، ثم قمتُ خلفَ ظهره فنظرتُ إلى خاتمه بين كتفيه مثل زِرِّ الحجلة[1].

والمراد بالحجلة واحدةُ الحِجال، وهي بيتٌ كالقُبّةِ لها أزرارٌ كبارٌ وعُرًى، وهذا هو الصوابُ الذي قاله الجمهور، وقال بعضهم: المراد بالحجلة الطائرُ المعروفُ، وزرها بيضُها. وأشار إليه الترمذيُّ وأنكره عليه العلماء.

وعن عاصم عن **عبد الله بن سُرْجُس** قال: رأيتُ النبيَّ ﷺ، وأكلتُ معه خبزاً ولحماً، أو قال ثريداً. قال عاصم: فقلتُ له: أستغفرَ لك النبيُّ ﷺ؟ قال نعم ولك. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، قال: ثم درت خلفَه، فنظرتُ إلى خاتم النبوة بين كتفيه، عند ناغِضِ كتفِه اليُسرى، جَمْعاً، عليه خيلانٌ كأمثال الثآليل[2].

و(الناغض): أعلى الكتف، وقيل: هو العظم الرقيق الذي على طرفه، وقيل: ما يظهر منه عند التحرك، سمي ناغِضاً لتحركه.

(جمعاً): معناه أنّه كجمع الكف، وهو صورتُه بعد أن تَجْمعَ الأصابعَ وتضمَّها.

(خيلان): جمع خال، وهو الشامةُ في الجسد.

(الثآليل): جمع ثؤلول، وهي حبيبات تعلو الجسدَ.

قال القاضي عياض: وهذه الرواياتُ متقاربةٌ، متفقة على أنها شاخص في جسده فظاهرُها المخالفة، فتؤوَّل على وفق الروايات الكثيرة، ويكونُ معناه على

---

(١) المرجع السابق، رقم ٢٣٤٥.

(٢) المرجع السابق، رقم ٢٣٤٦.

هيئة جمع الكفِّ لكنّه أصغرُ منه، في قدر بيضة الحمامة(١).

زواجه ﷺ من السيدة خديجة رضي الله عنها:

وكانت أخلاقُه الكريمة العالية التي عُرِف بها وتميّزَ بها في مجتمعه الجاهلي، سببَ زواجه من السيدة خديجة رضي الله عنها وأرضاها، فبعدَ أن عمل في رعاية الغنم، تحوّل إلى العمل بالتجارة، فعمل للسيدة خديجة في تجارتها، فأعجبتْ بأمانتِه وصدقِه، فخطبته إلى نفسها، مع أنَّها امتنعتْ قبلَ ذلك عمّن خطبها من رجالات قريش، وعزت عليهم، فهي رضي الله عنها خيرُ النساء، ففي الحديث الشريف عن **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «خيرُ نسائها مريم، وخيرُ نسائها خديجة»(٢).

وهي خديجة بنت خويلد بن عبد العزّى بن قُصي، تجتمعُ مع النبيِّ ﷺ في قصي، وهي من أقرب نسائه إليه بالنسب، ولم يتزوج من ذرية قصي غيرها إلا أم حبيبة، وتزوجها سنةَ خمس وعشرين من مولدِه في قول الجمهور، فأقامت معه ﷺ خمساً وعشرين سنة على الصحيح، ولم يتزوج النبي ﷺ في حياتها غيرَها، فروى مسلم من طريق الزهري عن عروة عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: «لم يتزوج النبيُّ ﷺ على خديجة حتى ماتت»، وهذا ما لا اختلاف فيه بين أهل العلم بالأخبار، وفيه دليلٌ على عظَمِ قدرها عنده، وعلى مزيد فضلها، لأنها أغنته عن غيرها، واختصت به بقدر ما اشترك فيه غيرها مرتين، لأنه ﷺ عاش بعد أن تزوجها ثمانية وثلاثين عاماً، انفردت خديجة منها بخمسة وعشرين عاماً(٣).

مناقب خديجة رضي الله عنها:

ومناقبها رضي الله عنها كثيرة، فقد كان ﷺ يذكرها بعد وفاتها حتى كانت **عائشة** رضي الله عنها تغارُ منها، إذ قالت: «ما غرتُ على امرأةٍ للنبيِّ ﷺ ما غرتُ على خديجةَ، هلكتْ قبل أن يتزوجني، لما كنت أسمعه يذكرها، وأمرَهُ الله أن

---

(١) انظر هامش صحيح مسلم عن شرح الإمام النووي.
(٢) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٨١٥.
(٣) انظر فتح الباري: ٧/ ١٣٧.

يبشِّرها ببيتٍ من قصب، وإنْ كان ليذبحُ الشاةَ فيهدي لخلائِلها منها ما يَسَعَهُنَّ»، وفي روايـة ثانية عنها «فتزوَّجني بعدهـا بثلاث سنين، وأمرَه ربُّه عزَّ وجل ـ أو جبريل عليه السلام ـ أن يبشّرَها ببيتٍ في الجَنَّةِ من قصب»(١).

ومن مناقبها رضي الله عنها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: «أتى جبريلُ النبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله هذه خديجةُ قد أتت معها إناءٌ فيه إدامٌ أو طعامٌ أو شرابٌ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلامَ من ربِّها ومني، وبشّرْها ببيتٍ في الجنةِ من قصب، لا صخبَ فيه ولا نصب»(٢).

وزاد الطبراني في الرواية المذكورة فقالت: «هو السلامُ ومنه السلامُ وعلى جبريل السلام».

وللنسائي من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال جبريل للنبي ﷺ: «إن الله يقرئ خديجة السلام» يعني فأخبرها فقالت: إن الله هو السلام، وعلى جبريل السلام، وعليكَ يا رسولَ الله السلامُ ورحمة الله وبركاته»(٣).

ومناقبُها وفضائلُها رضي الله عنها كثيرةٌ، أفردتُها في مؤلفٍ تحت عنوان (السيدة خديجة رضي الله عنها سباقة الخَلْقِ إلى الإسلام)(٤).

بناء الكعبة المشرّفة:

قامت قريشٌ بتجديد بناء الكعبة، وساهم النبيُّ ﷺ في ذلك، وقد مرَّ معنا في الحديث الشريف أنّه كان ينقل مع عمه العباس الحجارة، وأنَّ العباس قال للنبيِّ ﷺ: اجعل إزارَك على رقبتِك يقك من الحجارة، فخرَّ إلى الأرض، وطمحت عيناهُ إلى السماء ثم أفاق، فقال: «إزاري إزاري» فشدَّ عليه إزارَه.

ويبدو أنَّ سبب ذلك سيلٌ كبيرٌ حدثَ في ذلك العهد، فعن سعيد بن المسيب عن أبيه عن جَدّه قال: جاءَ سيلٌ في الجاهلية فكسا ما بين الجبلين. قال سفيان

---

(١) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٨١٦ـ٣٨١٧.
(٢) المرجع السابق، رقم ٣٨٢١.
(٣) فتح الباري: ٧/ ١٣٩.
(٤) نشر ضمن سلسلة (أعلام المسلمين) التي تصدرها دار القلم بدمشق، ورقمه (٣١).

أحدُ رجال السند: «إنّ هذا لحديثٌ له شأنٌ»[1].

وأراد بهذا الحديث قصة بنيان الكعبة، وقد أخرجه مفصّلاً عبدُ الرزاق في (مصنفه) من حديث أبي الطفيل ومن طريقه الحاكمُ والطبرانيُّ قال: كانت الكعبة في الجاهلية مبنيةً بالرضم، ليس فيها مدر[2]، وكانت قدر ما يقتحمها العناق[3]، وكانت ثيابُها توضَعُ عليها تسدل سدلاً، وكانت ذاتَ ركنين كهيئة هذه الحلقة: 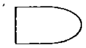

فأقبلت سفينة من الروم، حتى إذا كانوا قريباً من جدة انكسرت، فخرجت قريشٌ لتأخذَ خشبها، فوجدوا الروميَّ الذي فيها نجّاراً، فقدموا به وبالخشب ليبنوا به البيت، فكانوا كلّما أرادوا القربَ منه لهدمه بدت لهم حيةٌ فاتحةً فاهاً، فبعث الله طيراً أعظمَ من النسر، فغرزَ مخالبه فيها، فألقاها نحو أجياد، فَهَدَمَتْ قريشٌ الكعبة وبنوها بحجارةِ الوادي، رفعوها في السماء عشرين ذراعاً، فبينما النبيُّ ﷺ يحملُ الحجارة من أجياد، وعليه نمرةٌ فضاقت عليه النمرةُ، فذهب يضعها على عاتقه، فبدت عورتُه من صغرِها، فنوديَ: يا محمد خمِّرْ عورتك، فلم يُرَ عرياناً بعد ذلك.

وكان بين ذلك وبين المبعث خمسُ سنين.

قال مَعْمَر: وأمّا الزهري فقال: لما بلغَ رسولُ الله ﷺ الحُلمَ أجمرت امرأةٌ الكعبةَ فطارت شرارةٌ من مَجْمَرِها في ثيابِ الكعبة فاحترقت، فتشاورت قريشٌ في هدمها وهابوه، فقال الوليد ـ ابن المغيرة ـ إنَّ الله لا يهلك من يريدُ الإصلاح، فارتقى على ظهرِ البيتِ ومعه العباسُ وقال: اللهمَّ لا نريدُ إلا الإصلاحَ، ثم هدم، فلمّا رأوه سالماً تابعوه، قال عبد الرزاق: وأخبرنا ابنُ جريج قال: قال مجاهد: «كان ذلك قبل المبعث بخمس عشرة سنة».

وكذا رواه ابن عبد البر من طريق محمد بن جبير بن مطعم بإسنادٍ له، وبه جزم موسى بن عقبة في (مغازيه). والأول أشهر، وبه جزم ابنُ إسحاق.

---

(١) صحيح البخاري في مناقب الأنصار، رقم ٣٨٣٣.
(٢) أي من الحجارة والصخور ليس فيها ترابٌ.
(٣) أي كانت غير مرتفعة الجدران تستطيعُ أنثى صغار المعز القفز فوقها.

ويمكن الجمعُ بينهما بأن يكون الحريقُ تقدّمَ وقتُه على الشروع في البناءِ، وذكر ابن إسحاق أنَّ السيلَ كان يأتي فيصيبُ الكعبة، فيتساقطُ من بنائها، وكان رضماً فوقَ القامة، فأرداتْ قريشٌ رفعَها وتسقيفها، فذكر القصةَ مطوَّلةً في بنائهم الكعبـة، وفي اختلافهم فيمن يضعُ الحجرَ الأسود، حتى رضوا بـأول داخلٍ، فدخلَ النبيُّ ﷺ فحكّموه في ذلك، فوضعَه بيده[١].

وفي (السيرة) عن ابن إسحاق قال: ثم بنوها حتى بلغَ البنيانُ موضع الركنِ (أي الركن الذي فيه الحجر الأسود) فاختصموا فيه، كلُّ قبيلة تريدُ أن ترفعه إلى موضعه دونَ الأُخرى، حتى تحاوروا وتحالفوا، وأعدُّوا للقتال، فمكثتْ قريشٌ على ذلـك أربعَ ليالٍ، أو خمساً، ثم إنّهم اجتمعوا في المسـجد، وتشـاوروا، وتناصفوا، وأشار عليهم أبو أُمية بن المغيرة المخزومي (والد أم سلمة رضي الله عنها) أن يحكّموا أولَ مَنْ يدخلُ عليهم المسجد. فكان أولَ داخل عليهم رسولُ الله ﷺ، فلمّا رأوه قالوا: هذا الأمينُ رضينا، فلما أخبروه الخبرَ قال ﷺ: «هلمَّ إليَّ ثوباً» فوضعَ الركنَ فيه بيده، ثم قال: «لتأخذَ كلُّ قبيلةٍ بناحيةِ الثوب» فرفعوه جميعاً حتى إذا بلغوا به موضعَه، وضعه هو بيده[٢].

حلف الفضول:

وهو مِنْ مآثر قريشٍ في الجاهلية، حضره النبيُّ ﷺ، وأثنى عليه.

روى الحُمَيديُّ عن سـفيان، عن عبد الله، عن محمد وعبد الرحمن ابني أبي بكر، قالا: قال رسول الله ﷺ: «لقد شَهدْتُ في دار عبد الله بن جُدْعان حِلفاً لو دُعيتُ به في الإسلامِ لأجبْتُ، تحالفوا أن تُرَدَّ الفضولُ إلى أهلها، وألا يَعُزَّ ظالمٌ مظلوماً».

وكان بعدَ حرب الفِجَار قبلَ البعثة الشريفة بعشرين سنة، وكان أول من تكلَّمَ به ودعا إليه الزبيـرُ بن عبد المطلب.

وكانَ سببُه أنَّ رجلاً من زُبَيْد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منْه العاص بن وائل

---

(١) فتح الباري: ٣/ ٤٤٢.

(٢) السيرة: ١/ ١٨٢.

السهمي، فحبسَ عنه حقَّـه، فاستعدى عليه الزبيـديُّ الأحلافَ: عبـدَ الدار، ومخزوماً، وجُمَح، وسهماً، وعدي بن كعب، فأبوا أن يعينوه، فأوْفَى على جبل أبي قُبيس، وقريشٌ في أنديتها حولَ الكعبة، فصاح بأعلى صوته:

يـا آلَ فهـرٍ لمظلـومٌ بضـاعتُـه ... ببطـنِ مكّـة نـائـي الـدارِ والنَّفَـرِ
ومُحْـرِمٌ أشعـثٌ لـم يقـضِ عُمْـرَتَـهُ ... يـا للـرِّجـالِ وبَيْـنَ الحِجْـر والحَجَـرِ
إنَّ الحـرامَ لمـن تَمَّـتْ كـرَامَتُـهُ ... ولا حـرامٌ لثـوبِ الفـاجـرِ الغُـدَرِ

فقام في ذلك الزبيرُ بن عبد المطلب، وقال: ما لهذا مَتْرَكٌ، فاجتمعت هاشم، وزُهرة، وتَيْمُ بن مرة في دار ابن جُدعان، فصنع لهم طعاماً، فتحالفوا وتعاقدوا بالله ليكونُنَّ يداً واحدةً مع المظلوم على الظالم، حتى يُؤدَّى إليه حقُّه. فسمَّتْ قريشٌ الحلف حلف الفضولِ، ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعةَ الزُّبيديِّ، فدفعوها إليه.

وعبد الله بن جُدعان تيميٌّ، وهو ابنُ عمِّ عائشة رضي الله عنها.

ولذلك قالت كما في (صحيح مسلم): يا رسول الله! إنّ ابنَ جدعان كان يُطْعِمُ الطعام، ويَقْري الضيفَ، فهل ينفعُه ذلك يومَ القيامة؟ فقال: «لا، إنّه لم يقل يوماً: ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين».

* * *

الباب الثاني

من البعثة إلى الهجرة

الفصل الأول : الوحي وأقسامه

الفصل الثاني : نزول الوحي على النبي ﷺ

الفصل الثالث : تنزيل القرآن الكريم

الفصل الرابع : الرحمة العظمى

الفصل الخامس : النبوة والرسالة والدعوة

الفصل السادس : الهجرة إلى الحبشة

الفصل السابع : إسلام عمر رضي الله عنه والحصار الظالم وعام الحزن والهجرة إلى الطائف

الفصل الثامن : حرص النبي ﷺ على هداية المشركين ومواساته عن إعراضهم

الفصل التاسع : معجزات النبي ﷺ

الفصل العاشر : الهجرة إلى المدينة

الفصل الأول

الوحي وأقسامه

تعريف الوحي لغةً وشرعاً:

الوحيُ لغةً: هو الإعلامُ الخفيُّ السريع، فكلُّ إعلامٍ خفيٍّ سريعٍ يدخُل في معنى الوحي.

فيدخلُ فيه **الإلهام الغريزيُّ للحيوان**، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨].

ويدخُل أيضاً فيه **الإلهام** من الله تعالى كقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

ويدخل فيه أيضاً **وساوس الشيطان وتزيينُه خواطرَ الشرِّ للإنسان**، كما في قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] وقوله أيضاً: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

قال ابن حجر: والوحيُ لغةً الإعلامُ في خفاءٍ، والوحيُ أيضاً الكتابةُ، والمكتوبُ، والبعثُ، والإلهامُ، والأمرُ، والإيماءُ، والإشارةُ، والتصويتُ شيئاً بعدَ شيءٍ.

وقيل: أصله التفهيم، وكلُّ ما دللتَ به من كلام أو كتابة أو رسالة أو إشارة فهو وحي[1].

---

(١) فتح الباري: ١/ ٩.

والوحي شرعاً: الإعلامُ بالشرع، وقد يطلَقُ الوحيُ ويرادُ به اسمُ المفعولِ منه، أي الموحى به، وهو كلامُ الله المنزل على النبيِّ ﷺ[1].

وأول أبواب كتابِ الإمام البخاري في (صحيحه): كتاب بدءِ الوحي.

قال الشيخ الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المُغيرة البخاريُّ رحمه الله تعالى آمين:

١ ـ بابُ كيفَ كان بدْءُ الوحي إلى رسولِ الله ﷺ، وقولُ الله جلَّ ذكرُه: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣].

فالحقيقةُ لا تعرفُ كلها بواسطة حواس الإنسان المحدودة، ثمة مصدرٌ آخر لها وهو الوحيُ، ولهذا قال تعالى في أوّلِ تعقيبِ له على قصةِ يوسفَ عليه السلام: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]. وقال أيضاً في معرض الردِّ على أهل الكتاب الذين أنكروا صحة رسالته ﷺ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

فظاهرةُ الوحي إلى جميع الأنبياء واحدةٌ لا خلافَ فيها، تتمُّ بين ذاتين، ذاتِ علوية آمرةٍ ملقيةٍ، وذاتِ ضعيفةٍ مأمورةٍ متلقية، كما سيأتي معنا.

الملقي والمتلقي في الوحي:

فظاهرةُ الوحيِّ تقعُ بين جانبين، الجانبِ العلويِّ القويِّ الملقي، وهو الله جلّ جلاله، وبين الجانبِ الضعيفِ المتلقي، وهو جانب النبيِّ ﷺ، قرّر ذلك سبحانه بصراحة ووضوح في قوله الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦].

فالوحيُ مستقلٌّ عن النبيِّ ﷺ، ولا إرادةَ له في نزوله واستجلابه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «يا جبريلُ! ما منعَك أن

---

(١) فتح الباري: ١/ ٩.

تزورنا أكثرَ مما تزورنا؟» فأنزلَ الله تبارك وتعالى قوله الكريم: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

ولمّا فترَ عن النبي ﷺ الوحيُ حزنَ حُزناً شديداً حتى بلغَ به الأمرُ أنّه أرادَ أن يلقي بنفسه من رؤوس شواهق الجبال، ففي حديث عائشة رضي الله عنها في أول ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحي قالت: «وفتر الوحيُ فترةً، حتى حزن النبيُّ ﷺ فيما بلغنا حُزْناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبلٍ لكي يلقي منه نفسه تبدّى له جبريل، فقال: يا محمدُ إنك رسولُ الله حقاً، فيسكُنُ له جأشُه، وتقرُّ نفسُه فيرجعُ، فإذا طالت عليه فترةُ الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروةِ جبل تبدّى له جبريلُ فقال له مثلَ ذلك»(١).

فالوحيُ مستقلٌّ عن ذات النبيِّ ﷺ وعن هوى نفسه الشريفة، أكّدَ ذلك سبحانه بقوله الكريم: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النجم: ٥ ـ ٧].

وقوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ وهو جبريل عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١]. وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي ذو قوة بالعقل والرأي، فبعدَ أن وصفتْه الآياتُ بقوةِ الفعل وصفتْه بقوةِ النظر، أو ذو حكمة فإنّ كلامَ الحكماءِ متينٌ، ومن جزالة رأيه وحصافةِ عقلِه أنَّ الله ائتمنه على وحيه إلى رسله، وقد يتأخَّرُ أحياناً الوحيُ عن النبيِّ ﷺ وهو أحوجُ ما يكونُ إلى نزوله، كما سيأتي معنا في حادثة الإفك(٢)، وفي سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤].

حاله عليه الصلاة والسلام عند نزول الوحي عليه:

كان ﷺ يجدُ شدّةً ومعاناةً عند نزول الوحي عليه، وتظهر آثار هذه المعاناة

---

(١) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٧٣١.
(٢) انظر الحديث كاملاً في صحيح البخاري في التعبير، رقم ٦٩٨٢.

في وجهه الشريف، ففي الحديث عن **عائشة أم المؤمنين** رضي الله عنها أن الحارثَ ابن هشـام رضي الله عنه سألَ رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله! كيفَ يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلةِ الجرس، وهو أشـدُّه عليَّ، فيفصمُ عني وقد وعيتُ ما قال، وأحياناً يتمثَّلُ لي المَلَكُ رجلاً فيكلِّمني فأعي ما يقول».

قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيتُه ينزلُ عليه الوحيُ في اليوم الشديد البرد، فيفصمُ عنه، وإنَّ جبينَه ليتفصَّدُ عرقاً[١].

وعن سعيد بن جبير عن **ابن عباس** في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦]. قال: كان رسولُ الله ﷺ يعالِجُ من التنزيلِ شـدةً، وكـان ممّا يحـرّكُ شفتيه، فقال ابن عباس: فأنا أحرّكهما لكم كما كان رسـولُ الله ﷺ يحرّكُهما[٢].

وقولُه في حديث **عائشة** رضي الله عنهما: «وهو أشدُّه عليَّ» يُفْهَمُ منه أنَّ الوحيَ كلَّه شديدٌ، ولكنَّ هذه الصفةَ أشدُّها.

وقولها: «وإنَّ جبينَه ليتفصّدُ عرقاً» مأخوذٌ من الفصد، وهو قطعُ العِرق لإسالة الدم، شبهت جبينه بالعِرق المفصود مبالغة في كثرة التعرق.

وفي قولها: «في اليوم الشديدِ البرد» دلالة على كثرة التعرق في شدة البرد، فإنه يشعر بوجود أمر طارئ زائدٍ على الطباع البشرية.

وقولها: «عرقاً» بالنصب على التمييز. زاد ابن أبي الزناد عن هشام بهذا الإسناد عند البيهقي في (الدلائل): «وإن كان ليوحى إليه، وهو على ناقته، فيضرب حزامها من ثقل ما يوحى إليه»[٣].

وعن **عائشة** رضي الله عنها أيضاً قالت: «إنْ كان لينزلُ على رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح البخاري في بدء الوحي، رقم ٢.

(٢) انظر الحديث كاملاً في صحيح البخاري في بدء الوحي، رقم ٤.

(٣) فتح الباري: ١/ ٢١.

في الغداةِ الباردةِ، ثم تفيضُ جبهتُه عرقاً»[1].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كان نبيُّ الله ﷺ إذا أنزلَ عليه الوحيُ كربَ لذلك، وتربّدَ وجهُه[2].

وقوله: (كرب) أي أصابه الكرب فهو مكروب.

وقوله: (تربّدَ) أي تغيّرَ، وصار كلون الرماد.

وعن عمر رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا نزلَ عليه الوحيُ يُسْمَعُ عند وجهه كدويِّ النحل، فأنزل عليه يوماً فمكث ساعة، ثم سُرِّيَ عنه، فقرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى عشر آيات منها من أولها [المؤمنون: ١ ـ ١٠]، وقال: «من أقامَ هذه العشر الآيات دخل الجنة»، ثم استقبلَ القبلةَ، ورفع يديه، وقال: «اللهمَّ زِدْنا ولا تنقُصْنا، وأكرمنا ولا تُهِنّا، وأعطنا ولا تحرِمْنا، وآثرنا ولا تُؤثِرْ علينا، اللهمَّ أرْضنا وأرْضَ عنّا»[3].

وعن صفوان بن يعلى بن أمية أنَّ يعلى كان يقولُ: ليتني أرى رسولَ الله ﷺ حين ينزَّل عليه. قال: فبينما النبيُّ ﷺ بالجعرّانة[4]، وعليه ثوبٌ قد أظلَّ به، معه فيه ناسٌ من أصحابه، إذ جاءه أعرابيٌ عليه جُبَّةٌ، متضمِّخٌ بطيبٍ، فقال:

يارسول الله! كيف ترى في رجلٍ أحرَمَ بعمرةٍ في جُبَّة بعدما تضمخَ بالطيب؟ فأشار عمر إلى يعلى بيده أن تعال، فجاء يعلى، فأدخل رأسَه فإذا النبيُّ ﷺ محمَّرُ الوجه، يغطُّ كذلك ساعة، ثم سُرِّيَ عنه فقال: «أين الذي يَسْألُني عن العمرةِ آنفاً؟» فالتُمسَ الرجلُ فأُتي بـه، فقال: «أما الطِّيْبُ الذي بكَ فاغسله ثلاث مراتٍ، وأم الجُبَّـةُ فانزعها، ثم اصنعْ في عمرتك كما تصنع في حَجِّكَ»[5].

وكلُّ ذلك يؤكدُ أنَّ جانبَ النبيِّ ﷺ متميزٌ ومستقلٌّ في الوحي، وأنَه لا إرادة

---

(١) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٣٣٣.
(٢) المرجع السابق، رقم ٢٣٣٤.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه والنسائي وأحمد.
(٤) الجعرانة: أول حدود الحرم من جهة الطائف.
(٥) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٣٢٩.

له في نزوله واستجلابه ﷺ، فقد كان ﷺ يشعرُ بثِقلٍ في جسده الشريف حين نزول الوحي عليه، حتى إنَّ راحلته لَتبركُ على الأرضِ إذا نزلَ عليه الوحي وهو راكبُها، ولقد جاءَه مرّةً، وفخذُه على فخذِ زيد بن ثابت رضي الله عنه فثقلتْ حتى كادت ترضَّها[1].

أقسام الوحي:

ظهر لنا ممّا تقدم أنَّ للوحي أقساماً متعددةً، ومظاهرَ متنوعةً، ذكرها الله تبارك وتعالى بقوله الكريم: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: ٥١]. أي ما صحَّ لأحدٍ من البشر أن يكلمه الله إلا وحياً، فيلقي في قلبه ما يريدُ إعلامه به، أو يُسْمِعَه كلامه القديم من غير رؤية، كما كلَّم موسى عليه السلام، ولما سألَ موسى الرؤية مع التكليم مُنعَ منها، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. أو يرسل ملكاً فيوحي ذلك الملك إلى المرسَلِ إليه من البشر بأمره تعالى ما يشاءُ أن يوحيه، وهذا الملك هو جبريل عليه السلام كما مر معنا.

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: هذه مقاماتُ الوحي بالنسبة إلى جناب الرب جل وعلا، فتارةً يقذِفُ في روع النبيِّ ﷺ وحياً لا يتمارى فيه أنّه من الله عزّ وجلّ، كما جاء في (صحيح ابن حبان) عن رسول الله ﷺ: «إن روحَ القُدُس نفثَ في رَوْعي أنَّ نفساً لن تموتَ حتى تستكملَ رزقَها وأجلَها، فاتقوا الله، وأجْمِلوا في الطلبِ».

وبيّنَ ابنُ حجر أنَّ للوحي حالاتٍ أخرى: إمّا من صفة الوحي كمجيئه كدوي النحل، والنفخِ في الروع، والإلهامِ، والرؤيا الصالحة، والتكليم ليلة الإسراء بلا واسطة، وإما من صفة حامل الوحي كمجيئه في صورته التي خُلِقَ

---

(١) انظر زاد المعاد لابن القيم: ١/ ٢٥.

عليها، له ستمئة جناح، ورؤيتُه على كرسيٍّ بين السماء والأرض وقد سَدَّ الأفقَ[1].

وحامل الوحي هو جبريل عليه السلام، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

مجيء جبريل في هيئة إنسان إلى النبي ﷺ:

وثبتَ أنَّ جبريل عليه السلام جاء إلى النبي ﷺ على هيئة إنسان، والنبي ﷺ بين أصحابه، ورأوه كلُّهم أجمعون.

ففي الحديث الشريف عن ابن عمر قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يومٍ، إذْ طلعَ علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثياب، شديدُ سوادِ الشعر، لا يُرى عليه أثرُ السفرِ، ولا يعرفُه منا أحدٌ، حتى جلسَ إلى النبيِّ ﷺ، فأسند ركبتيهِ إلى ركبتيه، ووضعَ كفيّه على فخذيه (أي جلس على هيئة المتعلِّم) وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: «الإسلامُ أن تشهدَ أن لا إلـه إلا الله، وأنَّ محمداً رسولُ الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيتَ إنِ استطعتَ إليه سبيلاً».

قال: صدقْتَ. فعجبنا له، يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيرهِ وشرِّه».

قال: صدقْتَ. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: «أن تعبدَ الله كأنّك تراه، فإن لم كن تراه فإنه يراك». قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». قال: فأخبرني عن أماراتها؟. قال: «أن تلدَ الأَمَةُ ربَّتَها، وأن تـرى الحفاةَ العراةَ العالةَ رعاءَ الشـاءِ يتطاولون في البنيان». قال: ثم انطلق، فلبثتُ ملياً. ثم قال لي: «يا عمر! أتدري مَنِ السائلُ؟. قلت: الله ورسوله أعلم.

---

(١) فتح الباري: ١/ ١٩.

قال: «فإنّه جبريل، أتاكم يعلِّمكم دينكم»[1].

قال ابن حجر رحمه الله: قوله (الإحسان..) هذا القدْرُ من الحديث أصلٌ عظيم من أصول الدين، وقاعدةٌ مهمة من قواعد المسلمين، وهو عمدةُ الصديقين، وبُغْية السالكين، وكنزُ العارفين، ودأبُ الصالحين، وهو من جوامع الكَلِم، ليكون ذلك مانعاً من التلبُّسِ بشيء من النقائص، احتراماً لهم، واستحياءً منهم، فكيف بمن لا يزال الله مطلعاً عليه في سره وعلانيته؟[2].

وقد ذكر العلماءُ أقوالاً كثيرةً في المعنى المراد من قوله: «أنْ تلد الأمَـةُ ربتها» أورد ابن حجر رحمه الله بعضَها، ثم قال: أو المراد بالرب المربي، فيكونُ حقيقةً، وهذا أوجه الأوْجُهِ عندي لعمومه، ولأنّ المقامَ يدلُّ على أنَّ المرادَ حالة تكونُ ـ مع كونها تدل على فساد الأحوال ـ مستغربة.

ومحصله الإشارةُ إلى أنَّ الساعةَ يقربُ وقتها عند انعكاس الأمور، بحيث يصيرُ المربّى مربيّاً، والسافِلُ عالياً، وهو مناسِبٌ لقوله في العلامة الأخرى: أنْ تصيرَ الحفاةُ ملوكَ الأرضِ[3].

* * *

---

(١) صحيح مسلم في الإيمان، رقم ٨.
(٢) فتح الباري: ١/ ١٢٠.
(٣) فتح الباري: ١/ ١٢٣.

الفَصْل الثاني

نزول الوحي على النبي ﷺ

لم يكن ﷺ ينتظر نزول الوحي عليه:

دلّت الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة على أن النبي ﷺ ما كان ينتظرُ أن يُنبّأ وينزّلَ عليه الوحيُ، بل جاءه فجأة على غير انتظار.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال أيضاً: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦].

وقال أيضاً: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

وسيأتي معنا أنّ الوحي نزل عليه فجأة وهو في غار حراء، وأنّه ﷺ لم يعرفْ حقيقة الوحي في أول الأمر، بل خشي منه على نفسه، وشكا ذلك إلى السيدة خديجة رضي الله عنها، فثبتته، وهدّأت من روعه.

ففي الحديث عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: «أولُ ما بُدِئَ به رسولُ الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنّثُ فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العددِ قبل أن ينزعَ إلى أهله، ويتزوّدَ لذلك، ثم يرجعُ إلى خديجة فيتزوّدَ لمثلها، حتى فجأه الحقُّ وهو في غار حراء، فجاءه الملكُ فقال: اقرأ. قلت: «ما أنا بقارئ». قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. قال: «فأخذني فغطّني حتى بلغَ مني

الجهد، ثم أرسلني. فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾» [العلق: ١ ـ ٥].

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجفُ فؤاده، فدخلَ على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: «زملوني، زملوني» فزملوه، حتى ذهبَ عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي».

فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنّكَ لتصلُ الرحمَ، وتحملُ الكلَّ، وتكسبُ المعدومَ، وتقري الضيفَ، وتعينُ على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ـ ابن عمِّ خديجة ـ وكان امرؤ تنصّر بالجاهلية، وكان يكتبُ الكتابَ العبرانيَّ، فيكتبُ من الإنجيل بالعبرانية ما شاءَ الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِيَ، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟. فأخبره رسول الله ﷺ خبرَ ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجُك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أو مخرجيَّ هم؟»، قال: نعم، لم يأتِ رجلٌ قطّ بمثل ما جئتَ به إلا عودي، وإن يدركني يومُك أنصرْك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفترَ الوحيُ[1].

وقوله (تنصر) أي صار نصرانياً، وكان قد خرج هو وزيد بن عمرو بن نفيل لما كرها عبادةَ الأوثان إلى الشام وغيرها يسألون عن الدين.

فأما ورقة فأعجبه دينُ النصرانية فتنصر، وكان لقيَ مَنْ بقي من الرهبان على دين عيسى ولم يبدل، ولهذا أخبرَ بشأن النبي ﷺ والبشارة به، إلى غير ذلك مما أفسده أهل التبديل.

وأما زيد بن عمرو فسيأتي خبره.

---

(١) صحيح البخاري في كتاب بدء الوحي، رقم ٣.

وقوله: «فكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية» وفي رواية يونس ومَعْمَر: «فيكتب من الإنجيل بالعربية» ولمسلم: «فكان يكتب الكتاب العربي».

والجميعُ صحيحٌ، لأنَّ ورقة تعلّمَ اللسان العبراني والكتابة العبرانية، فكان يكتب الكتاب العبراني كما كان يكتبُ الكتابَ العربي، وإنما وصفته بكتابة الإنجيل دون حفظه لأنَّ حفظ التوراة والإنجيل لم يكن متيسّراً كتيسّرِ حفظِ القرآن الذي خصت به هذه الأمة، فلهذا جاء في صفتها (أناجيلها صدورها).

وقوله: (هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى) المراد بالناموس هنا جبريل عليه السلام، وقوله: (على موسى) ولم يقل على عيسى مع كونه نصرانياً، لأنَّ كتاب موسى عليه السلام مشتملٌ على أكثر الأحكام، بخلاف عيسى، وكذلك النبيُّ ﷺ، أو لأنَّ موسى بُعِثَ بالنقمة على فرعون ومن معه، بخلاف عيسى، كذلك وقعت النقمة على يد النبي ﷺ بفرعون هذه الأمة وهو أبو جهل بن هشام ومن معه ببدر[1].

حديث زيد بن عمرو بن نُفيل:

وأما زيدُ بن عمرو بن نفيل فقد كان قرشياً متحنفاً، مات قبل بعثة النبي ﷺ، عقد له البخاري رحمه الله في (صحيحه) باباً خاصاً ذكر فيه ثلاثة أحاديث هي:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لقيَ زيدَ بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح[2] قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحيُ، فَقُدِّمتْ إلى النبي ﷺ سفرةٌ، فأبى أن يأكلَ منها، ثم قال زيدٌ: إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذُكر اسم الله عليه.

وإن زيد بن عمرو كان يعيبُ على قريش ذبائحهم ويقول: الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله، إنكاراً لذلك وإعظاماً له.

---

(١) فتح الباري: ١/٢٩.

(٢) هو مكان بطريق التنعيم، ويقال: هو واد.

قال موسى ـ هو ابن عقبة ـ حدثني سالم بن عبد الله ـ ولا أعلمه إلا تحدّثَ به عن ابن عمر ـ أنَّ زيد بن عمرو بن نفيل خرجَ إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقي عالماً من اليهود، فسأله عن دينهم، فقال: إني لعلِّي أنْ أدينَ بدينكم فأخبرني، فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله، قال زيد: ما أفر إلا منْ غضبِ الله، ولا أحملُ من غضبِ الله شيئاً أبداً، وأنَّى أستطيعُ؟ فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً، قال زيد: وما الحنيفُ؟ قال: دينُ إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبدُ إلا الله.

فخرج زيدٌ فلقي عالماً من النصارى، فذكر مثله فقال: لن تكونَ على ديننا حتى تأخذ بنصيبِك من لعنة الله، قال: ما أفر إلا من لعنة الله، ولا أحمِلُ من لعنه ولا من غضبهِ شيئاً أبداً، وأنَّى أستطيع؟ فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكونَ حنيفاً، قال: وما الحنيفُ؟، قال: دين إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبدُ إلا الله. فلما رأى زيدٌ قولَهم في إبراهيم عليه السلام خرجَ، فلما برز رفعَ يديه فقال: اللهمَّ إني أُشْهِدُكَ أني على دين إبراهيم.

وقال الليث: كتب إليَّ هشام ـ ابن عروة ـ عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: رأيتُ زيد بن عمر بن نفيل قائماً مسنداً ظهرَه إلى الكعبةِ يقول: يا معشر قريش! والله ما منكم على دين إبراهيم غيري. وكان يحيي الموءودةَ، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها أنا أكفيك مَؤونتها. فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئتَ دفعتُها إليك، وإن شئتَ كفيتُك مؤونتها[١].

إرهاصات النبوة:

وهي إخبارٌ عمّا رآه ﷺ من دلائل نبوته قبل أن يوحَى إليه، وأولُها مطلقاً ما سمعه من بحيرا الراهب عندما خرجَ مع عمه أبي طالب في تجارةِ معه إلى بلاد الشام، ومرّ معنا منها أيضاً ما حدث له ﷺ عند بناء الكعبة.

ومن **إرهاصات بعثته** ﷺ حراسةُ السماءِ من استراق السمع، قال تعالى:

---

(١) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٨٢٦ـ٣٨٢٧ـ٣٨٢٨.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصافات: ٦ ـ ٩].

وقوله: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ هو معطوف على زينة باعتبار المعنى، كأنه قال: إنا خلقنا الكواكب زينةً للسماء، وحفظاً لها من كل شيطان مارد، وهو المتمرد الخارج عن الطاعة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٦ ـ ١٧]، وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

فكما جعل سبحانه الكواكبَ زينةَ السماء الدنيا، جعلها أيضاً مراكزَ لحراسة السماء، وحفظها من الشياطين، ذكر سبحانه ذلك صراحة على لسان الجنّ في قوله الكريم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨ ـ ٩].

ودلَّت هذه الآيات على أنَّ السماء ما كانت محروسةً قبل بعثة النبي ﷺ ونزول القرآن الكريم، فقد كان بعضُ الجنّ والشياطين يصعدون إلى السماء، ويسترقون السمعَ من الملائكة، ويبدو أنهم كانوا يصعدون في جوِّ السماء وجهتها، لقوله ﷺ: «إنَّ الملائكةَ تنزلُ في العنان ـ وهو السحاب ـ فتذكر الأمرَ قضي في السماء، فتسترقُ الشياطينُ السمعَ فتسمعه، فتوحيه إلى الكُهّان، فيكذبونَ مع الكلمة مئة كذبة من عند أنفسهم»[1].

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]، قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجنّ وما رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفةٍ من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حِيْلَ بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطينُ إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها،

---

(١) صحيح البخاري في بدء الخلق، رقم ٢٢١٠.

فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء؟.

فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فمرّ النفر الذين أخذوا نحو تهامة، وهو بنخل، عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاةَ الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجباً... فأنزل الله عزَّ وجلّ على نبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[1].

وقال سبحانه أيضاً: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧] أي الله عالم الغيب فلا يُطْلِعُ على غيبه أحداً من خلقه، إلا مَنْ يصطفيه لرسالته ونبوته، فيظهره على ما يشاء من الغيب، حتى يكون دليلاً على صدق رسالته، وصحة نبوته، ومعجزةً له.

ودلت الآيات على بطلان الكهانة، فقد انسد بمبعث النبي ﷺ، وكذلك التنجيم، فمن ادعى منهم اطلاعاً على غيبٍ فقد كفر بما جاء به القرآن الكريم.

ومن إرهاصات بعثته ﷺ حديث سواد بن قارب، فعن عبد الله بن عمر: ما سـمعتُ عمر لشـيء قط يقول: (إني لأظنه كذا) إلا كان كما يظنُّ، بينما عمر جالس إذ مرّ به رجل جميل، فقال عمر: لقد أخطأ ظني، أو إنَّ هذا على دينه في الجاهلية، أو لقد كان كاهنهم. عليَّ بالرجل. فدعي له، فقال له ذلك، فقال: ما رأيتُ كاليوم استقبل به رجل مسلم، قال: فإني أعزمُ عليك إلا ما أخبرتني، قال: كنتُ كاهنهم في الجاهلية، قال: فما أعجبُ ما جاءتك به جنّيتُك؟ قال: بينما أنا يوماً في السوق، جاءتني أعرفُ فيها الفزع، فقالت: ألم تر الجنَّ وإبلاسَها، ويأسها من بعد إنكاسها، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها، قال عمر: صدق، بينما أنا نائم عند آلهتهم، إذ جاء رجل بعجل فذبحه، فصرخَ به صارخٌ لم أسمع صارخاً قط أشدَّ صوتاً منه، يقول: يا جَلِيحُ، أمرُ نجيحٌ، رجل فصيحٌ، يقول: لا إلـه إلا أنت، فوثب القوم. قلت: لا أبرحُ حتى أعلمَ ما وراءَ هذا. ثم نادى: يا جَلِيح، أمر نجيح، رجل فصيح، يقول: لا إلـه إلا الله. فقمتُ، فما

---

(١) صحيح مسلم في الصلاة، رقم ٤٤٩.

نشبنا أن قيل: هذا نبيٌّ[1].

وقوله: «ألم تر الجن وإبلاسها» بالموحدة والمهملة، والمراد به اليأس ضد الرجاء.

وقوله: «ويأسها بعد إنكاسها» اليأسُ: ضد الرجاء، والإنكاس: الانقلاب، ومعناه أنها يئست من استراق السمع بعد أن كانت قد ألفته.

وقوله: «ولحوقها بالقلاص وأحلاسها» القلاص: بكسر القاف وبالمهملة، جمع قلص بضمتين، وهو جمع قلوص، وهي الفتيّةُ من النياق. والأحلاس: جمع حلس بكسر أوله وسكون ثانيه وبالمهملتين، وهو ما يوضَعُ على ظهور الإبل تحت الرحل.

وقوله: «قال عمر: صدق بينما أنا عند آلهتهم» ظاهر هذا أنَّ الذي قص القصة الثانية هو عمر، وفي رواية ابن عمر وغيره أنَّ الذي قصَّها هو سواد بن قارب.

ولفظُ ابن عمر عند البيهقي قال: لقد رأى عمر رجلاً ـ فذكر القصة ـ قال فأخبرني عن بعض ما رأيت، قال: إني ذات ليلة بواد إذ سمعت صائحاً يقول: يا جليح، خبر نجيح، رجل فصيح يقول: لا إله إلا الله. عجبتُ للجن وإبلاسها.. فذكر القصة.

قوله: «يا جليح» بالجيم والمهملة بوزن عظيم، ومعناه الوقِحُ المكافِحُ بالعداوة، قال ابنُ التين: يحتمل أن يكون نادى رجلاً بعينه، ويحتمل أن يكون أراد من كان بتلك الصفة. قلت: ووقع في معظم الروايات التي أشرت إليها «يا آل ذريح» بالذال المعجم والراء وآخره مهملة، وهم بطنٌ مشهورٌ في العرب[2].

ومن إرهاصات نبوته أيضاً تسليم الحجر عليه، ففي الحديث عن جابر بن سَمْرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرفُ حجراً بمكة، كان

---

(١) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٨٦٦.
(٢) انظر فتح الباري: ٧/ ١٨١.

يسلِّمُ عليَّ قبلَ أن أُبعَثَ، إنّي لأعرفُه الآن»[1].

وهذا يدل على وجود التميز والإحساس في الجمادات، ويؤيّدُه قوله تعالى في الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤]. وقوله أيضاً: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]. وسيأتي مزيدُ تفصيلٍ لهذا الموضوع في الحديث عن معجزاته ﷺ[2].

الأربعون سن الأشد:

ولما بلغَ ﷺ سنّ الأشدّ من عمره الشريف، أكرمه الله بالنبوة، وهو ما أشارت إليه الآيةُ الكريمة: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

وهو سنُّ الكمال بالنسبة للإنسان، قال تعالى يبين أهمية بلوغ الإنسان سن الأربعين: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

الرؤيا الصادقة والمبشرات:

مرّ معنا أنَّ أول ما بُدئَ النبيُّ ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، وهي التي تكونُ من الله جلّ جلاله، ففي الحديث الشريف عن أبي قتادة عن النبيِّ ﷺ قال: «الرؤيا الصادقةُ من الله، والحُلُمُ من الشيطان»[3].

وقع عند مسلم من هذا الوجه «الصالحة» وزاد في هذه الرواية «فإذا رأى

---

(١) صحيح مسلم في كتاب الفضائل، رقم ٢٢٧٧.

(٢) في الفصل التاسع، ص١٦٦.

(٣) صحيح البخاري في كتاب التعبير، رقم ٦٩٨٤.

أحدُكم ما يُحِبُّ فلا يخبرْ به إلا مَنْ يحب»[1].

قال ابن حجر رحمه الله: جميعُ المرائي تنحصر على قسمين: **الصادقة**، وهي رؤيا الأنبياء ومن تبعهم من الصالحين، وقد تقع لغيرهم بندورٍ، وهي التي تقعُ في اليقظة على وفق ما وقعتْ في النوم.

والأضغاث، وهي لا تنذِرُ بشيء، وهي أنواع:

الأول: تلاعب الشيطان: يُحَزِّنُ الرائي بأن يرى أنه قطع رأسه وهو يتبعه، أو يرى أنه واقع في هول، ولا يجد من ينجده ونحو ذلك.

الثاني: أن يرى أن بعض الملائكة يأمره بأن يفعل المحرمات مثلاً ونحوها من المحال عقلاً.

الثالث: أن يرى ما تتحدث به نفسه في اليقظة أو يتمناه فيراه كما هو في المنام، وكذا رؤية ما جرت به عادته في اليقظة، أو ما يغلب على مزاجه، ويقع عن المستقبل غالباً وعن الحال كثيراً، وعن الماضي قليلاً.

وقال في موضعٍ آخر: فالصالحة والصادقة هما بمعنًى واحد في حقِّ الأنبياء، وشبهها بفلق الصبح دونَ غيره، لأنَّ شمس النبوةِ كانت الرؤيا مبادئ أنوارها، فما زال ذلك النورُ يتسع حتى أشرقت الشمسُ[2].

والجدير بالذكر أنَّ الرؤيا الصالحة من المُبشرات للرجل المؤمن الصالح، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤].

وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يبقَ مِنَ النبوةِ إلا المبشرات»، قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة»[3].

---

(١) فتح الباري: ١٢/ ٣٦٩.

(٢) فتح الباري: ١٢/ ٣٥٥.

(٣) صحيح البخاري في التعبير، رقم ٦٩٩٠.

والمعنى لم يبقَ بعد النبوة المختصة بي إلا المبشرات، ثم فسرها بالرؤيا، وصرّحَ به في حديث عائشة رضي الله عنها عند أحمد بلفظ: «لم يبق بعدي».

وقد جاء في حديث ابن عباس أنه ﷺ قال ذلك في مرض موته، أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي من طريق إبراهيم بن عبد الله بن معبد عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ كشفَ الستارةَ ورأسُه معصوبٌ في مرضه الذي مات فيه، والناسُ صفوفٌ خلفَ أبي بكر، فقال: «يا أيها الناسُ! إنّه لم يبقَ منْ مُبَشراتِ النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلمُ أو تُرى له» الحديث.

وللنسائي من رواية زفر بن صعصعة عن أبي هريرة رفعه: «ليسَ يبقى بعدي من النبوّةِ إلا الرؤيا الصالحة»[١].

نوم الأنبياء:

والأنبياءُ تنامُ أعينُهم ولا تنامُ قلوبُهم، تبقى قلوبُهم مستعدةً لتلّقي الوحي كما هي في حال اليقظة، ففي الحديث عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنَّه سأل عائشة رضي الله عنها: كيف كانت صلاةُ رسول الله ﷺ في رمضان؟ قالت: ما كان يزيدُ في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة: يصلي أربعَ ركعاتٍ، فلا تسأل عن حسنهنّ وطولهنّ، ثم أربعاً فلا تسأل عن حسنهنّ وطولهنّ، ثم يصلي ثلاثاً. فقلتُ: يا رسول الله تنامُ قبلَ أن توترَ؟ قال: «تنامُ عيني ولا ينامُ قلبي».

وعن عبد الله بن أبي نمر سمعتُ أنس بن مالك رضي الله عنه يحدثنا عن ليلة أسري بالنبيِّ ﷺ من مسجد الكعبة: جاءَه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه ـ وهو نائمٌ في المسجد ـ فقال أولهم: أيُّهم هو، فقال أوسطهم: هو خيرهم. وقال آخرهُم: خذوا خيرَهم، فكانت تلك. فلم يرهم حتى جاءوا ليلة أخرى فيما يرى قلبُه، والنبيُّ ﷺ نائمةٌ عيناه، ولا ينامُ قلبُه، وكذلك الأنبياء تنامُ أعينُهم ولا تنامُ قلوبُهم. فتولاه جبريل، ثم عرجَ به إلى السماء[٢].

(١) فتح الباري: ١٢/ ٣٧٥.

(٢) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٥٦٩ ـ ٣٥٧٠.

ويؤيد ذلك قوله تعالى في رؤيا إبراهيم عليه السلام وقصتُه عندما كُلِّفَ بذبح ولده إسماعيل: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. ولاشك أنَّ التكليفَ بالذبح بواسطة الوحي في أثناء النوم أكمل في الابتلاء من التكليف به في اليقظة، أظهر الله تعالى به المزيدَ من فضل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في قصة الذبح والفداء، واستسلامهما وإذعانهما للتكليف الإلٰهي، قال البيضاوي رحمه الله في (تفسيره): ولعلَّ الأمرَ به في المنام دونَ اليقظةِ لتكونَ مبادرتُهما إلى الامتثال أدلَّ على كمال الانقياد والإخلاص[1].

وقد يعارض ذلك ما وقع للنبيّ ﷺ في سفرٍ له مع أصحابه، ففي الحديث عن عمران قال: كنا في سفر مع النبيِّ ﷺ، وإنا أسرينا حتى كنا في آخر الليل وقعنا وقعة، ولا وقعةَ أحلى عند المسافر منها، فما أيقظنا إلا حرُّ الشمسِ، وكان أولُ من استيقظ فلان ثم فلان ـ يسميهم أبو رجاء، فنسي عوف ـ ثم عمر بن الخطاب الرابع، وكان النبيُّ ﷺ إذا نام لم يوقظ حتى يكون هو يستيقظ، لأنا لا ندري ما يحدث له في نومه.

فلما استيقظ عمر، ورأى ما أصاب الناس ـ وكان رجلاً جليداً ـ فكبر ورفع صوته بالتكبير، فما زال يكبِّرُ، ويرفعُ صوتَه بالتكبير حتى استيقظَ بصوته النبيُّ ﷺ، فلمّا استيقظَ شكوا إليه الذي أصابهم قال: «لا ضيرَ ـ أو لا يضيُر ـ ارتحلوا» فارتحلَ، فسار غيرَ بعيدٍ، ثم نزل، فدعا بالوضوء فتوضأ، ونودي بالصلاة، فصلى بالناس، فلما انفتلَ من صلاتِه إذا هو برجلٍ معتزلٍ لم يصلِّ مع القوم قال: «ما منعك يا فلان أن تصلِّي مع القوم؟»، قال: أصابتني جنابةٌ ولا ماء، قال: «عليكَ بالصعيدِ فإنَّه يكفيك» الحديث[2]، وقد تكلم العلماءُ بالجمع بين حديث النوم هذا وبين قوله ﷺ: «إن عيني تنامان ولا ينام قلبي» قال النوويُّ: له جوابان:

---

(١) انظر تفسير السورة في موضوعات السور للمؤلف.

(٢) انظر الحديث كاملاً في صحيح البخاري في التيمم، رقم ٣٤٤.

أحدهما: أن القلب إما يدرك الحسيات المتعلقة به كالحدث والألم ونحوهما، ولا يدرك ما يتعلّقُ بالعين لأنها نائمةٌ، والقلبُ يقظانُ.

والثاني: أنه كان له حالان: حال كان قلبُه فيه لا ينام وهو الأغلب. وحالٌ ينامُ فيه قلبُه وهو نادرٌ.

فصادف هذا أي قصة النوم عن الصلاة. قال: والصحيحُ المعتَمدُ هو الأول، والثاني ضعيفٌ. وهو كما قال..

ويمكنُ أن تكونَ الحكمةُ في ذلك بيان التشريع بالفعل، لأنّه أوقع بالنفس كما في قضية سهوه بالصلاة.

وقريب من هذا جواب ابن المنير: إنَّ القلب قد يحصلُ له السهو باليقظة لمصلحة التشريع، فبالنوم بطريقِ الأوْلى، أو هو على سواء(١).

رؤياه دخول المسجد الحرام:

وهي رؤيا أريها النبيُّ ﷺ قبل فتح مكة، قال الله تعالى عنها: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧]. أي صدق الله رسوله في رؤياه وأراه الرؤيا الصادقة، كما مرَّ معنا أنَّ رؤيا الأنبياء وحي.

وكان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنّه دخلَ مكة، وطافَ بالبيت، فأخبرَ أصحابه بذلك، وهو بالمدينة، وسيأتي معنا في حديث صلح الحديبية أنَّ **عمر بن الخطاب** قال للنبيِّ ﷺ: أو ليس كنتَ تحَدِّثنا أنّا سنأتي البيت فنطوف به؟

قال: «بلى، فأخبرتك أنّا نأتيه العام؟»، قال: قلت: لا، قال: «فإنّك آتيه ومطوفٌ به».

فقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي صدقاً ملتبساً بالحق، كائناً لا محالة في الوقت المقدر له، وهو العام القابل.

---

(١) انظر فتح الباري: ١/ ٤٥٠.

وقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليمٌ لعباده الأدب، وتحقيق الخبر وتوكيده.

وقوله: ﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ أي لهم الأمن وهم يؤدون مناسك العمرة، حتى ينتهوا منها بحلق رؤوسهم وتقصيرها عند الإحلال، فلا يخافون من عدوهم وهم في داخل بلده.

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ أي فعلم سبحانَه أنَّ الصلاحَ كان في الصُّلح وتأخير دخول مكة.

وقوله: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧] أي فجعل من دون دخول مكة فتحاً قريباً، وهو فتح خيبر، أو صلح الحديبية، حتى يتيسرَ الموعودُ، وتتحقق رؤيا رسول الله ﷺ. وفتحت خيبر بعد ذلك، ودخل النبيُّ ﷺ مكة مع أصحابه معتمرين آمنين كما سيأتي معنا[١].

رؤيا النبي ﷺ في النوم:

رؤيا النبي ﷺ في النوم حق، لأنّ الشيطان لا يتمثَّلُ به، فمن أكرمه الله تعالى برؤيته ﷺ في النوم فسيكرمه أيضاً برؤيته في اليقظة. أخبرَ ﷺ عن ذلك في عدد من الأحاديث الشريفة الصحيحة:

منها ما رواه **أبو هريرة** رضي الله عنه قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «منْ رآني في المنام فسيراني في اليقظة، ولا يتمثلُ الشيطان بي».

ومنها أيضاً ما رواه **أبو قتادة** رضي الله عنه: قال النبي ﷺ: «من رآني فقد رأى الحقَّ».

وما رواه أيضاً **أبو سعيد الخدري** رضي الله عنه أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «من رآني فقد رأى الحق، فإنَّ الشيطان لا يتكونني»[٢].

وللعلماء أقوالٌ كثيرة في كيفية تحقق رؤيته ﷺ في اليقظة لمن أكرمَه الله تعالى برؤيته في المنام، والأولى أن نؤمن بوقوعها فعلاً كما ذكرت الأحاديثُ

---

(١) انظر تفسير سورة الفتح في موضوعات السور للمؤلف.

(٢) صحيح البخاري في كتاب التعبير، رقم ٦٩٩٣ ـ ٦٩٩٦ ـ ٦٩٩٧.

الشريفة، ونفوِّضُ معرفةَ كيفية حدوثها ووقوعِها إلى الله عزَّ وجلّ.

أو نقول: إنَّ ذلك يتحقق للرائي عند احتضاره، فهي من الساعات الحرجة الخطيرة التي يمرُّ بها الإنسان، يحتاجُ فيها المؤمن إلى رحمة الله تعالى ولطفه وتثبيته، ولقد أخبرنا الحقُّ سبحانه أنَّ ملائكةَ الرحمة تتنزل على المؤمنين الصالحين عند وفاتهم، وتأتيهم مبشرةً، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣١]. ولعل نبينا ﷺ، وهو نبيُّ الرحمة يتقدمُ ملائكةَ الرحمة في هذا الأمر فضلاً من الله تعالى ولطفاً بعباده الصالحين، والله أعلم.

* * *

الفَصْل الثالث

تنزيل القرآن الكريم

نزول جبريل بالقرآن الكريم على قلبه ﷺ:

كان نزول جبريل عليه السلام بالقرآن الكريم على قلب النبيِّ ﷺ أهمَّ ما تحقق بظاهرة الوحي التي أكرم الله تعالى بها سيدنا رسول الله ﷺ. أكّد ذلك سبحانه في عدد من الآيات الكريمة.

منها قوله: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩٧].

ومنها قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥]. فالروح الأمين هو جبريل عليه السلام، أمينُ الله تعالى على وحيه، وتنزيل القرآن على قلبه ﷺ الشريف مباشرةً يؤكدُ كمال تلقيه القرآن، وأنّه كان يثبتُ في قلبه الشريف، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل: ٦].

ولقد أكد جلَّ وعلا هذه الحقيقة بالقَسَم فقال: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ١٥ ـ ٢٧].

أكد أولاً في هذه الآيات أنَّ القرآن الكريم وحي من الله تعالى نزل به رسول ملكي كريم عنده سبحانه، هو جبريل عليه السلام.

فأثنى الله عليه بقوله: ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ [التكوير: ٢٠] أي ذو قدرة على ما كلّف به، فلا يعجزُ عنه، ولا يضعف، كما في قوله سبحانه: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم: ٥].

﴿ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١] وهو مطاع في السماوات، وتطيعُه الملائكة فهو من سادة الملائكة وأشرافهم، اصطفاه الله تعالى من بينهم لهذه الرسالة العظيمة، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥].

وهو أمين على وحي الله تعالى إلى أنبيائه، فصدقُ الوحي منوطٌ بأمانة الرسول.

وكما أثنتِ الآياتُ على أمين الوحي الملكي جبريل، أثنت أيضاً على أمين الوحي البشري سيدنا محمد ﷺ، فعطفت على جواب القسم الأول قوله تعالى: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]، وهو تكذيبٌ لافتراء المشركين، وفي التعرض لعنوان الصحبة مضافة إلى ضميرهم تكذيبٌ لهم بأبلغ وجه، فقد نشأ ﷺ بين أظهرهم، فهم أعرفُ الناس به، وأنه أتمُ الخلق عقلاً، وأرجحُهم قِيلاً، وأكملُهم وصفاً، وأصفاهم ذهناً، فلا يسندُ إليه الجنونَ إلا من هو مركب من الحمق والجنون.

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] أي وبالله لقد رأى محمدٌ ﷺ جبريلَ عليه السلام على صورته التي خلقه الله عليها بالأفق الواضح، فقد ثبت أنَّ النبي ﷺ رأى جبريل عليه السلام على صورته الملكية مرتين:

الأولى في الأرض عندما فتر عنه الوحي.

والثانية في السماء ليلة الإسراء والمعراج كما سيأتي معنا.

﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤] أي ومارسول الله ﷺ على ما يخبرُ به من الوحي ببخيل.

فالضنين من الضنِّ، بكسر الضاد وفتحها، بمعنى البخل، فما قصّرَ النبيُّ ﷺ في التبليغ، وأخبر بكل ما أوحى الله إليه.

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٥]، أي وما القرآن بقول شيطان من الشياطين المسترقة للسمع، التي ترجَمُ وتُرمَى بالشهب، كما مرَّ معنا، وهو نفي لوصفهم النبيَّ ﷺ أنه كاهن، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا

﴿تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٢]، وقوله أيضاً: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢].

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦]، أي فأين تعدلون عن القرآن وفيه الهدى والرشاد، أو أيَّ طريق تسلكون أوضحُ من هذا الطريق؟! فهو استجهالٌ لهم في إعراضهم عن دعوته ﷺ كما يقال لتارك الجادة، الضارب في الأرض على غير هدًى وبصيرة: أين تذهب؟

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧]، أي ما القرآن إلا موعظةٌ للخلقِ أجمعين، فرسالته ﷺ عامةٌ شاملةٌ تدلُّ على أنّه أكمل الناس عقلاً، وأرجحهم رأياً[١].

حرصه ﷺ على تلقي القرآن وتطمينه:

وكان ﷺ يحرص حرصاً كبيراً عند نزول القرآن الكريم عليه على كمال تلقيه، تقديراً منه للمسؤولية الكبيرة التي أُنيطت به، فأنزل الله تعالى عليه مطمئناً قوله الكريم: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٩].

ومرّ معنا أنَّ ابن عباس رضي الله عنه بين سبب النزول فقال: كان يحرك شفتيه إذا أنزل عليه، فقيل له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ يخشى أن ينفلتَ منه ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ أن نجمعه في صدرك و﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أن تقرأه و﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ فإذا قرآناه عليك ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي: نبيِّنه على لسانك[٢].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره لهذه الآيات: هذا تعليمٌ مِنَ الله عزَّ وجلّ لرسول الله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله عزَّ وجلّ أن يستمع له، وتكفل الله أن يجمعه في صدره، وأن يبينه له ويوضحه، فالحالة الأولى جمعه في صدره، والثانية تلاوته، والثالثة تفسيره وإيضاحُ معناه.

---

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم.
(٢) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٩٢٨.

تثبيتُ القرآن في قلبه ﷺ:

وكما تكفّل الله سبحانه وتعالى أن يجمعَ القرآن الكريم في صدر النبيِّ ﷺ، فلا يفوتُ النبيَّ ﷺ شيء منه أبداً، تكفَّلَ سبحانه أيضاً بتثبيتِ القرآن الكريم في قلبه الشريف، فأنزل عليه قوله: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٦ ـ ٨٧].

فالله سبحانه وتعالى قادر على محو القرآن الكريم من صدر النبيِّ ﷺ ومحوه أيضاً من السطور، وكان ﷺ يحرصُ على كتابة ما ينزل عليه من القرآن بواسطة كُتَّاب الوحي فورَ نزوله عليه.

ولن يجد ﷺ من يتوكل عليه في استرداده وإعادته إنْ محاه الله سبحانه من صدره، وهذا يدلُّ على أنَّ تثبيتَ القرآن في قلب النبيِّ ﷺ رحمةٌ عظيمةٌ من الله تعالى، وفضلٌ كبيرٌ. ولهذا قال سبحانه: ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٧].

والفضل لله تعالى أيضاً في تثبيته في قلوب حُفّاظ القرآن الكريم من أمة النبيِّ ﷺ. وقد جاء في بعض الأخبار أنَّ الله سبحانه وتعالى سيرفعُ القرآن الكريم في آخر الزمان قبل يوم القيامة عندما يُعرِضُ الناسُ عنه إعراضاً كاملاً، ففي الحديث عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُدرَسُ الإسلامُ كما يُدرَسُ وشيءُ الثوب حتى لا يُدرَى ما صيامٌ ولا صدقةٌ ولا نسكٌ، ويُسرى على كتاب الله تعالى في ليلةٍ، فلا يبقى في الأرض منه آيةٌ، ويبقى الشيخُ الكبيرُ والعجوزُ يقولون: أدركنا آباءَنا على هذه الكلمة: لا إلـه إلا الله، فنحن نقولها»(١).

تنجيم نزول القرآن الكريم:

من المعلوم أنَّ القرآن الكريم نـزل على النبيِّ ﷺ مفرَّقاً حسب الحوادث والمناسبات، على مدى ثلاثة وعشرين عاماً من عمر الدعوة في حياة النبيِّ ﷺ،

---

(١) أخرجه البيهقيُّ وابنُ ماجه والحاكم وصححه.

قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

ولما اعترضَ بعضُ المشركين على نزول القرآن الكريم مفرَّقاً ردَّ سبحانه عليهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

وقد أخبرَ سبحانه أنّه أنزل القرآن الكريم في ليلة واحدة، هي ليلة القدر في شهر رمضان جملة واحدة فقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال أيضاً: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان ١ ـ ٥] وهذه الليلة هي ليلة القدر لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

ولما سئل ابن عباس رضي الله عنه عن ذلك قال: إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر وفي ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم ترتيلاً في الشهور والأيام.

وذهب بعضُ العلماء إلى أنه ابتدئ نزوله في شهر رمضان، ويمكن الجمع بين القولين بأنه أنزل إلى السماء الدنيا من اللوح المحفوظ في ليلة القدر جملةً واحدةً، وابتدئ نزوله أيضاً على النبيِّ ﷺ في شهر رمضان. وهذا ما أشار إليه ابن حجر رحمه الله في تعليقه على قول ابن عباس رضي الله عنهما: «كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس، وكان أجودَ ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلةٍ من رمضان فيدارسُه القرآن، فلَرسولُ الله ﷺ أجودُ بالخير من الريحِ المرسلة»(١).

قال ابن حجر: وفيه إشارة إلى أنَّ ابتداءَ نزول القرآن كان في شهر رمضان،

(١) صحيح البخاري في كتاب بدء الوحي، رقم ٥.

لأن نزوله إلى السماء الدنيا جملة واحدة كان في رمضان، كما ثبت من حديث ابن عباس، وكان جبريل يتعاهده في كل سنة، فيعارضه بما نزل عليه من رمضان إلى رمضان، فلمّا كان العام الذي توفي فيه عارضَه به مرتين، كما ثبت في (الصحيح) عن فاطمة رضي الله عنها[1].

القرآن والسنة:

وكما كُلِّفَ النبيُّ ﷺ بتبليغ القرآن الكريم إلى الناس، كُلِّفَ أيضاً بتبيين ما فيه من أحكام وتشريع، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] أي أنزلنا إليك القرآن الكريم لتبيّنَ للناس ما فيه من أحكام وتشريع، كلّفهم الله تعالى بها، فالرسول ﷺ يبيّنُ لجميع الناس مرادَ الله عزَّ وجلَّ مما أجملَ في كتابه الكريم ولم يفصله، فهو الأمين المؤتمن على أسرار معاني القرآن الكريم، ولا يمكن فهم مراد ما أجمل سبحانه في كتابه من غير السنة النبوية المطهرة.

وإن الذين يُعْرِضون عن السنة المطهرة، ويزعمون أنهم يتمسكون بالقرآن الكريم فقط، هم في الحقيقة معرضون عن دين الله تعالى وشرعه، ومعرضون أيضاً عن كتاب الله تعالى الذي أمر باتباع سنته ﷺ والتمسك بها في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

فأحكام دين الله تعالى وشرعه تستمد من الكتاب والسنة، فالكتاب غالباً يشرع أصول الأحكام، والنبيُّ ﷺ يبينها ويفصلها في أقواله وأفعاله وتقريراته. ولهذا قال ﷺ لأصحابه في حجة الوداع: «لتأخذوا مناسككم، فإنّي لا أدري لعلّي لا أحجُّ بعد حجتي هذه»[2]. وقال ﷺ أيضاً: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[3].

---

(١) فتح الباري: ١/ ٣١.

(٢) صحيح مسلم في كتاب الحج، رقم ١٢٩٧؛ ورواه أيضاً أبو داود والنسائي بلفظ: «خذوا عني مناسككم».

(٣) صحيح البخاري في كتاب الأذان، رقم ٦٣١.

وللنبيِّ ﷺ أيضاً إلى جانب تبيين مُجْمَلِ القرآن الكريم، **أن يستقل بتشريع الأحكام**، لأنه ﷺ ـ كما وصفه الحق سبحانه ـ لا ينطق عن هوى نفسه أبداً، فكلُّ ما يصدر عنه تشريع ووحي من الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

وكما آتاه الله تعالى القرآن، آتاه السنة أيضاً، وأمر بطاعته في آيات كثيرة منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠]، وجعل سبحانه طاعة الرسول ﷺ، طاعةً له عزَّ وجلّ فقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

ولا وصول إلى رحمته تعالى وجنته إلا بطاعة رسوله ﷺ، ففي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «كلُّ أمتي يدخلونَ الجنةَ إلا مَنْ أبى».

قال: يا رسول الله ومن يأبى؟.

قال: «مَنْ أطاعني دخلَ الجنة، من عصاني فقد أبى»[1].

ولهذا أخبر تعالى عن أصحاب النار أنهم يعذَّبون فيها وهم يقولون: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦].

* * *

(١) صحيح البخاري في الاعتصام، رقم ٧٢٨٠.

الفصل الرابع

الرحمة العظمى

المنّة العظمى ببعثته ﷺ:

كانت بعثتُه ﷺ برسالة الإسلام ونزول القرآن منةَ الله العظمى على العالمين، فرسالتُه رحمةٌ للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال أيضاً: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال أيضاً: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٢ ـ ٤].

والأميّون هم العرب، فقد كانوا عند بعثة النبيِّ ﷺ أمةً أميةً، أكثرُهم لا يكتبون ولا يقرؤون، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «إنّا أمةٌ أميةٌ لا نكتبُ ولا نحسبُ»(١) قال ابنُ حجر رحمه الله: وقوله: (أمية) بلفظ النسب إلى الأمِّ، أرادَ أمةَ العربِ، لأنّها لا تكتبُ، أو منسوبٌ إلى الأمهات، أي أنّهم على أصلِ ولادةِ أُمّهم.

وقولـه: (لا نكتب ولا نحسب) تفسيرٌ لكونهم كذلك، وقيل للعرب: أميون، لأنَّ الكتابة كانت فيهم عزيزة(٢).

---

(١) صحيح البخاري في الصوم، رقم ١٩١٣.
(٢) فتح الباري: ٤/ ١٢٧.

وتخصيص العرب بالذكر لا ينفي غيرهم، فرسالتُه ﷺ عامةٌ شاملة، ولكنّ المنة على العرب ببعثته أبلغ وأكبر، ومسؤوليتهم عن حمل رسالته أعظم، قرر ذلك سبحانه وتعالى في قوله الكريم: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وقوله: ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أي: يقرأ عليهم ويبلّغهم ما يوحى إليه من آيات القرآن الكريم، ويطهرّهم من دنس الشرك ورذائل الجاهلية وقبائحها.

وقوله: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي: ويعلمهم أحكام القرآن الكريم وشريعته، وأحكام السنة المطهرة المبينة والشارحة للكتاب، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤]، وقد يكونُ المرادُ من الحكمة الإصابة في الأقوال والأفعال.

وقوله: ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] أي: وكانوا قبل بعثته ﷺ لفي ضلال ظاهر، لا ترى ضلالاً أعظمَ منه، فقد كانوا في أمسِّ الحاجة إلى رسالته وإرشاده وتعليمه، مع أنّه ﷺ كان أمياً، والأميةُ من صفات كماله، لأنَّها دلّت على صدقه، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

فقد نقلهم النبيُّ الأميُّ من دركات الجهل إلى درجات العلم، وهذا لا شك معجزةٌ من معجزاته الدالة على صدق رسالته، وصحةِ نبوته، ورحم الله البوصيري القائل:

كفاكَ بالعِلْمِ في الأميِّ معجزةً   في الجاهليةِ، والتأديبِ في اليُتُمِ

﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ [الجمعة: ٣] أي: ويعلم ﷺ آخرين لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون، وهم غير العرب من الأعاجم، فقد مرّ معنا في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند النبيِّ ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة.

﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ قلت: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعه حتى سأل ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي، وضع رسول الله ﷺ يده على سلمان

ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال ـ أو رجل ـ من هؤلاء»(١) فالآية تنسَحِبُ على كلِّ من دخل في الإسلام إلى يوم القيامة.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ في تمكينه رجلاً أمياً من ذلك الأمر العظيم، الحكيم في اختياره وتعليمه، فالله أعلم حيث يجعل رسالته(٢).

تمام النعمة:

جعل الله سبحانه تمام نعمته على خلقه في الدنيا ببعثة الرسول ﷺ برسالة الإسلام، فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣] كما جعل تمامَها في الآخرة بدخول الجنة، والفوز بالرضوان.

ودعا الناس جميعاً إلى التمسك بما جاءهم به رسول الله ﷺ فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧ ـ ٥٨].

وجعل سبحانه بقاءَ النبيِّ ﷺ أماناً لأصحابه، وبقاء أصحابه أماناً للأمة، ففي الحديث عن **أبي موسى الأشعري** رضي الله عنه قال: صلَّينا المغربَ مع رسول الله ﷺ ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء، قال فجلسنا، فخرج علينا، فقال: «ما زلتم ههنا؟».

قلنا: يا رسول الله! صلينا معك المغرب، ثم قلنا نجلس حتى نصلي معك العشاء.

قال: «أحسنتم أو أصبتم» قال: فرفعَ رأسَه إلى السماء، وكان كثيراً ما يرفعُ رأسَه إلى السماء فقال: «النجومُ أمنةٌ للسماءِ، فإذا ذهبتِ النجومُ أتى السماءَ ما توعد، وأنا أمنةٌ لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنةٌ لأمتي، فإذا ذهبَ أصحابي أتى أُمتي ما يوعدون»(٣).

---

(١) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٨٩٧.

(٢) انظر تفسير السورة في موضوعات سور القرآن الكريم للمؤلف.

(٣) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٥٣١.

وقوله: «أمنة للسماء» قال العلماءُ: الأمنةُ والأمنُ والأمان بمعنى واحد. ومعنى الحديث: أنّ النجوم ما دامت باقية فالسماء باقية، فإذا انكدرتِ النجومُ، وتناثرت في يوم القيامة، وهنت السماءُ، فانفطرت، وانشقت، وذهبت.

«وأنا أمنةٌ لأصحابي» أي من الفتنِ والحروب، وارتدادِ من ارتدَّ بعدَه عليه الصلاة والسلام، واختلافِ القلوب، ونحو ذلك مما أنذر به صريحاً، فقد وقع كل ذلك.

وقوله: «فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون» معناه من ظهور البدع والحوادث في الدين والفتن فيه، وما وقع بعدهم من انتهاك الحرمات، وهذه كلها من معجزاته ﷺ.

كما أن التمسُّك بسنته ﷺ أمانٌ لأمته، فكلّما ابتعدت الأمةُ عن التمسك بسنته زادتِ الفتنُ فيها، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، فهو نبيُّ الرحمةِ، الذي لم يدعُ على قومه رغمَ كلِّ الأذى الذي لقيه منهم، بل كان يدعو لهم، وإذا قيل له: ادعُ على المشركين، قال ﷺ: «إني لم أبعث لعاناً، وإنما بعثتُ رحمةً»(١).

الذكر والشكر:

كلّف الله تعالى عبادَه في مقابل هذه النعمة العظيمة الجليلة بأمرين أساسيين، هما الذكر والشكر، فقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] أي: فاذكروني بأسمائي الحسنى، التي علمتكم إياها في كتابي وسنة نبيي ﷺ، فلا يجوز ذكره تعالى بغير أسمائه الحسنى التوقيفية، التي وقفنا الوحي عليها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ويستدعي ذكرُه تعالى طاعتَه والاستسلامَ لأحكام شريعته، والحذر من معصيته.

---

(١) صحيح مسلم في البر، رقم ٢٥٩٩.

فمن شأن الذاكر أن يخشى الله تعالى، ويهتز خوفاً منه جلّ جلاله، مما يدفعه إلى التوبةِ والإقلاع عن المعاصي والآثام، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٠ ـ ٢٠١].

وما أمرنا سبحانه وتعالى بالإكثار من شيء كما أمرنا بالإكثار من ذكره، لأنّ في ذكره تعالى **عصمةً لنا من المعاصي والآثام**، وتسلُّط الشيطان، كما أنه **يؤدي إلى استنزال معونته تعالى**، وفيوضات فضله على الذاكرين، فتمتلئ قلوبُهم خشوعاً وسكينة، ويزولُ عنها ما يعتريها من حيرة واضطراب، نتيجة الانغماس في حمأة المعاصي والآثام، ولهذا قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

ولقد شرع الله تعالى الصلاة، وكلّفنا بها كلَّ يوم خمسَ مرات، لنذكره فيها ونسبحه ونمجده عزَّ وجلّ، فقال: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿ أَذْكُرْكُمْ﴾ أي: وإذا ذكرتُكم أكرمتُكم برحمتي ومعونتي وإحساني. كما قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وفي الحديث القدسي الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يقولُ الله عزَّ وجلَّ: أنا عندَ ظنِّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسِه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملأ خيرٍ منه، وإن اقتربَ إليَّ شبراً، تقرّبتُ إليه ذراعاً، وإن اقتربَ إليَّ ذراعاً، اقتربتُ إليه باعاً، وإن أتاني يمشي، أتيتُه هرولة»(١).

﴿ وَٱشْكُرُواْ لِى﴾ ما أنعمتُ به عليكم بعبادتي واتباع رسولي، والاستسلام لأحكام شريعتي.

ومن المعلوم أنَّ الشكرَ لا يكونُ إلا بالاعتراف بفضل المنعم، الذي أرسل إلينا هذا الرسولَ الكريمَ ﷺ، وبالثناء عليه، واستعمال النعمة في التقرب إليه.

---

(١) رواه البخاري، رقم (٧٤٠٥)؛ ومسلم في كتاب الذكر والدعاء، رقم ٢٦٧٥.

﴿ وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ بجحد النعمة، وإنكار فضل المنعم، كما فعل المعاندون الجاحدون.

رسالته ﷺ إلى الإنس والجن:

النبيُّ ﷺ رسولٌ إلى الإنس والجن، فمن دخل في دينه فهو من المؤمنين، ومصيره إلى الجنة، ومن كفر به فهو من الشياطين المعذبين، ومصيره إلى النار، فالجنُّ متعبَّدون بالأحكام الشرعية على النحو الذي يليق بخلقتهم وحالهم، وقد بلّغهم النبيُّ ﷺ الدعوة، واجتمع بهم، وقد مرّ معنا أنه لما حيل بينهم وبين خبر السماء استمع نفرٌ منهم إليه ﷺ وهو يتلو القرآن الكريم.

وقد صحَّ أنه ﷺ اجتمع بوفد منهم في ليلة تسمى عند الصحابة ليلة الجن، ففي الحديث عن **ابن مسعود** رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلةٍ ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: استطير أو اغتيل، فبتنا بشرٍّ ليلة بات بها قومٌ، فلمّا أصبحنا إذا هو جاء من قبل حِرَاء، فقلنا: يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشرٍّ ليلة بات بها قوم؟ فقال: «أتاني داعي الجنِّ، فذهبتُ معه، فقرأتُ عليهم القرآن» قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثارَ نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: «لكم كلُّ عظمٍ ذُكرَ اسمُ الله عليه يقعُ في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة علف لدوابكم، فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم»[(١)].

ومما يؤكّدُ تكليفَهم ومسؤوليتهم عمّا كُلّفوا به قول تعالى: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] أي: سنتجردُ لحسابكم وجزائكم يوم القيامة، و﴿ ٱلثَّقَلَانِ﴾: الإنس والجن، لما في الحديث الصحيح في عذاب القبر «فيصيحُ صيحةً يسمعه من يليه غيرَ الثقلين»[(٢)] لأنهما كالثقل على وجه الأرض، أو لأنّهما مثقلان بالتكليف والمسؤولية. ولهذا يقال لهم يوم الحساب والجزاء: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].

---

(١) صحيح مسلم في الصلاة، رقم ٤٤٩.

(٢) انظر الحديث كاملاً في صحيح البخاري كتاب الجنائز رقم، ١٣٧٤.

وهو ﷺ معصومٌ مِنْ مَرَدَةِ الجنِّ، ففي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «إنّ عفريتاً من الجنِّ تفلّتَ البارحةَ ليقطعَ عليَّ صلاتي، فأمْكنني الله مِنْهُ، فأخذتُه فأردتُ أن أربطه على ساريةٍ من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم. فذكرتُ دعوةَ أخي سليمان: ربِّ هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي. فرددتُه خاسئاً»(١).

حِفْظ القرآن الكريم عند إنزاله:

وكما أكّد سبحانه تنزيلَ القرآن الكريم على النبيِّ ﷺ بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام كما مرَّ معنا بقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥]، أكدَ سبحانه أيضاً حفظ القرآن عندَ إنزاله، ونفى نزول الشياطين به، وردَّ مزاعم مشركي قريش أنَّ لمحمد تابعاً من الجن يخبره كما تخبر الكهنة، فقال: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١١ ـ ٢١٢].

فقد بينت الآيات استحالةَ تنزُّل الشياطين بالقرآن الكريم من ثلاثةِ أوجه:

أولها: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ أي: وما يصحُّ وما يستقيمُ لهم النزول بالقرآن الكريم، لأنَّ سجاياهم الفسادُ، وإضلالُ العباد، بينما القرآن نورٌ وهدًى وبرهانٌ عظيمٌ، بينه وبين الشياطين منافاةٌ عظيمةٌ. كما قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية.

وثانيها: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: ولا يستطيعون أيضاً أن يأتوا بمثل سورة منه، لأنّه كلامُ الله المعجز، الذي عجزت الإنسُ والجن عن أن يأتوا بمثله، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

ثالثهما: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ أي: إنّ الشياطين عن استماع الوحي لمحجوبون، وممنوعون، فهم في معزلٍ عن استماعِ القرآن. وقد مرَّ معنا أنَّ السماء حُرست، ومنع الجن من استراق السمع.

---

(١) صحيح البخاري في أحاديث الأنبياء، رقم ٣٤٢٣.

إسلامُ قرينِه:

وحَفِظَ الله تعالى رسولَه ﷺ أيضاً من قرينه من الجنّ، ففي الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقَدْ وُكِّلَ به قرينُه من الجنِّ».

قالوا: وإياك يا رسول الله؟.

قال: «وإيَّايَ، إلا أنَّ الله أعانني عليه فأسلمَ، فلا يأمرني إلا بخير».

وفي رواية بلفظ: «وقد وُكِّلَ به قرينُه من الجنِّ، وقرينُه من الملائكة»[1].

وعن عروة أن عائشة زوج النبيِّ ﷺ حدثته أنَّ رسول الله ﷺ خرجَ من عندها ليلاً، قالت: فغِرْتُ عليه، فجاءَ فرأى ما أصنعُ فقال: «مالكِ يا عائشةُ أغرتِ؟».

فقلتُ: وما لي لا يغار مثلي على مثلك؟.

فقال: رسول الله ﷺ: «أقد جاء شيطانُكِ؟».

قالت: يا رسول الله ﷺ أو معي شيطان؟.

قال: «نعم».

قلتُ: ومع كل إنسانٍ؟.

فقال: «نعم».

قلت: ومعك يا رسول الله؟.

قال: «نعم ولكنَّ ربّي أعانني عليه حتى أسلم»[2].

وقوله: «فأسلم» روي برفع الميم وفتحها، فمن رفع قال: معناه أسلمُ أنا من شرِّه وفتنته. ومن فتح قال: إنَّ القرينَ أسلم، من الإسلام، وصارَ مؤمناً لا يأمرني إلا بخير، وهو الأرجحُ لقولهِ ﷺ: «فلا يأمرُني إلا بخيرٍ».

---

(١) صحيح مسلم في صفات المنافقين، رقم ٢٨١٤.

(٢) المرجع السابق، رقم ٢٨١٥.

قال القاضي: واعلم أنَّ الأمةَ مجتمعةٌ على عصمة النبيِّ ﷺ من الشيطان في جسمِه وخاطِره ولسانِه، وفي هذا الحديث إشارةٌ إلى التحذير من فتنةِ القرين، ووسوسته وإغوائه، فأعلمنا بأنّه معنا لنحترز منه بحسب الإمكان[1].

ويؤكد هذا المعنى ما ذكر عزَّ وجلّ في سورة الناس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

* * *

(١) هامش صحيح مسلم.

الفصل الخامس

النبوة والرسالة والدعوة

التكليف بقيام الليل:

دلّتْ الآياتُ الكريمة والأحاديث الشريفة أنَّ الله تعالى أكرمَ النبيَّ ﷺ أولاً بالنبوة، ثم كلَّفه بعد ذلك بحمل الرسالة، والدعوة إلى طاعته سبحانه وعبادته وحده، والقيام بأعباء تبليغها إلى جميع المكلفين من الثقلين الإنس والجن.

وأمره تعالى في أول الأمر أن يعدَّ نفسَه لحمل أعباء الرسالة، وذلك بتقوية صلتـه بالله تعالى، واستنزال مدده ومعونته عليه، بالقيام إلى الصلاة في جوف الليل، يناجي ربَّه في أثنائها، يسألُه أن ينزلَ عليه رحماته وفيوضاتِه، لتكونَ له زاداً روحياً في مواجهته كيد أعدائِه ومكرهم، فكان من بواكير ما أنزل الله عليه قوله الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ١ ـ ٥].

والقول الثقيل هو القرآن الكريم، فقد كُلِّف ﷺ بالعمل به، ودعوة الإنس والجن إليـه، والصلاةُ تعين المصلي على القيـام بأعباء التكليف، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وقال أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

فالصلاةُ تمـدُّ المصلي بقوة روحية كبيرة تقويه على مواجهة المصاعب، وتعينُه على احتمال الشدائد.

ولهذا ندب الله سبحانه السيدة مريم إلى زيادة عبادتها وصلاتها قبل أن تَحملَ المهمة الثقيلة التي اصطفاها الله لها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢ ـ ٤٣].

وفي (سنن أبي داود) من حديث حذيفة أنَّ النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر صلّى.

ومن المعلوم أنَّه ﷺ حمل أعظمَ الأعباء وأثقل التكاليف، إذ أرسله تعالى برسالة الإسلام إلى جميع العالمين فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

فحثه على صلاة التهجد في الليل ليتلقَّى في أثنائها المددَ من الله جل جلاله، فقال له: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨ ـ ٧٩].

وقوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي فريضةً زائدةً على الصلوات المفروضة خاصةً بك دون الأمة، أو تطوّعاً لا لكونها زيادةً على الفرائض، بل لكونها زيادةً له ﷺ في الدرجات، فإنّه عليه الصلاة والسلام مغفورٌ له ما تقدّمَ من ذنبه وما تأخر، فيكون تطوعُه في صلاةِ التهجّدِ زيادةً في درجاته، بخلاف مَنْ عداه من الأمة، فإنَّ تطوعهم لتكفير ذنوبهم وتداركِ الخلل الواقع في فرائضهم.

ويرجِّح المعنى الثاني قولُه تعالى في ختام الآية الكريمة: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، فإن قيامَه ﷺ من النوم لصلاة التهجد في الليل يؤدي إلى رفع درجاته يوم القيامة، حتى يصلَ بفضلِ الله تعالى إلى أعلى المقامات وأشرفها، وهو المقام المحمود، كما سيأتي معنا.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: وقولُه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أي افعل هذا الذي أمرتُك به لنقيمَك يوم القيامة مقاماً محموداً، يحمدُك فيه الخلائق كلهم وخالقُهم تبارك وتعالى.

ومما يؤكد أنَّ قيام الليل لم يكن مفروضاً على النبيِّ ﷺ ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبيُّ ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطَّر قدماه، فقلتُ له: لم تصنعُ هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[1].

الدعوة والإنذار:

ثم كلّفه تعالى بحمل الرسالة، والقيام بأعباء الدعوة، وتبليغها للناس، وإنذارهم من عذاب الله تعالى إن لم يستجيبوا لدعوته، فناداه سبحانه قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ١ ـ ٧].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ أي المتدثر، أُدغمت التاءُ بالدال، من تدثّر أي لبس الدِّثارَ، وهو ما يلبَسُ فوق القميص.

نودي ﷺ باسمِ مشتق من صفتِه التي كان عليها تأنيساً له وملاطفة، كما مر معنا في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ إذ كان ﷺ حديثَ عهدٍ بالوحي، وبيّن الحديث الشريف سببَ تدثّره، فعن **جابر بن عبد الله الأنصاري** رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال ـ وهو يحدّثُ عن فترة الوحي ـ فقال في حديثه: «بينا أنا أمشـي إذ سمعتُ صوتـاً من السماء، فرفعتُ بصري، فإذا المَلَكُ الذي جاءني بحراء، جالسٌ على كرسيٍّ بين السماء والأرض، فرعبتُ منه، فرجعتُ فقلت: زمّلوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ فحمِيَ الوحيُ وتتابع»[2].

ودل الحديث على أنَّ نزول سورة المدثر بعد فترة الوحي.

وقوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أي قم قيامَ عزمٍ وجدٍّ، واشتغل بالإنذارِ الذي كلّفك الله به، وهو تحذيـرُ الكفار من عذابِ الله تعالى إن لم يؤمنـوا، وقد يكونُ المرادُ: يا أيها المدثر بالنبوة دُثرت هذا الأمر فقم به.

وقوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي عظّم ربّك عمّا يقوله المشركون، ففي ذكر هذه الجملة بعد الأمرِ السابقِ إشارةٌ إلى مزيد الاهتمام بأمر التكبير، فالمقصودُ الأول من الأمرِ بالقيام بالإنذار أن يكبِّرَ ربَّه عزَّ وجلّ، وينزهه عن الشرك.

---

(١) متفق عليه.

(٢) صحيح البخاري في بدء الوحي، رقم ٤.

كما أنَّ فيها تشـجيعاً للنبيِّ ﷺ على الإنذار، وعدم مبالاته بما سـوى الله تعالى، فكلُّ ما سواه مقهورٌ تحت كبريائه وعظمته، فلا ينبغي أن يَرْهَبَ إلا منه، ولا يرغبَ إلا إليه جلَّ جلاله.

وقوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ بغسلها، وحفظها عن الأقذار والنجاسات، أو طهِّرْ نفسَك عن الأخلاق الذميمة، ففيها إرشادٌ كريمٌ للنبيِّ ﷺ لكي يطهِّرَ دثار النبوة عمَّا يدنسه من الحقد والضجر وقلة الصبر.

وقوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ أي اثبت على هجر الأوثـان والأصنـام، فقد كان ﷺ بريئاً منها، ولا يقربها، كما مرَّ معنا.

وفي قراءة ﴿والرِّجْزَ﴾ بالكسر، وأصلُ معنى الرجز: العذاب، قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩]. وسُمِّيتِ الأوثانُ رجزاً، لأنها تؤدي إلى العذاب.

وقوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي ولا تمنن على ربّـك بما تتحمله من أثقال النبوة وأعباء الدعوة وتراه كثيراً، إنّما عملُك من فضله تعالى عليك، أو لا تعط مستكثراً طالباً الكثير، اجعل عملك وعطاءك خالصاً لله تعالى.

وقوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أي على أذى المشركين والقيام بأعباء الدعوة، واجعل صبرك لله تعالى.

هكذا أدّبَ الله تعالى نبيّه ﷺ في بواكير النبوةِ بأعلى الآداب وأشرف الأخلاق ورفعه إلى أعلى الدرجات.

مهمة النبي ﷺ وأثرها:

ومهمتـه ﷺ الدعوة إلى عبادة الله وحده، فهو الداعي إلى الله جلَّ جلاله بإذنه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ـ٤٦].

وهذه شهادة من الله تعالى رفيعة، تدلُّ على إخلاصه ﷺ في دعوته، فهي دعوة خالصة لله تعالى، منه وإليه، وهي دعوة إلى داره وجنته ورضوانه، فلابدَّ أن تكون بإذن رب الدار.

وتدل الآية على أن الداعي إلى الله سبحانه، هو الذي يدعو إلى الله لا إلى نفسه، ويجمعُ الناس على الله تعالى لا على نفسه، فلا يتأثر بكثرة الناس حوله أو قلتهم، لأنَّ قلبَه مع الله، لا مع الناس ولا مع نفسه.

وكان لدعوة النبيِّ ﷺ أعمقَ الآثـار في حياة البشـرية الدينية والفكريـة والسياسية والاجتماعية، ولا تزال آثارها إلى اليوم واضحة المعالم في جميع هذه الجوانب، مما يدل على أنَّ أعظمَ الأحداث التي مرت في حياة البشرية وأعمقها أثراً فيها هي بعثة النبي ﷺ وتكليفه بالدعوة إلى الله تعالى، وقيامه عليه الصلاة والسلام بهذا التكليف على أكمل الوجوه.

الدعوة إلى الله سراً:

بدأ ﷺ يدعو سرّاً في أول الأمر، دل على ذلك قول تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، وفـي قصـة إسـلام الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ما يؤكد ذلك أيضاً.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما بلغَ أباذر مبعث النبيِّ ﷺ، قال لأخيـه: اركب إلى هذا الوادي، فاعلمْ لي علمَ هذا الرجل الذي يزعمُ أنه نبي، يأتيه الخبرُ من السماء، واسمع من قوله ثم ائتني.

فانطلق الأخ حتى قدمه، وسمعَ من قوله، ثم رجعَ إلى أبي ذر فقال لـه: رأيتُه يأمرُ بمكارمِ الأخلاق، وكلاماً ما هو بالشعر.

فقال: ما شفيتني مما أردت، فتزود، وحمل شَنَّةً له فيها ماء حتى قدم مكة، فأتى المسجدَ، فالتمسَ النبيَّ ﷺ ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركـه بعضُ الليل، فرآه عليٌّ فعرفَ أنه غريب، فلما رآه تبعه، فلم يسأل واحدٌ منهما صاحبـه عن شيء حتى أصبحَ، ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد، وظل ذلك اليوم ولا يراه النبيُّ ﷺ حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه، فمرَّ به علي فقال: أما نال ـ حان ـ للرجلِ أن يعلمَ منزله؟.

فأقامه فذهبَ به معه، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى إذا كان اليوم الثالث، فعاد علي على مثل ذلـك، فأقام معه ثم قال: ألا تحدثني ما الذي

أقدمك؟ قال: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدنَّني فعلت، ففعل، فأخبره، قال: فإنَّه حق، وهو رسول الله ﷺ، فإذا أصبحتَ فاتبعني، فإني إنْ رأيتُ شيئاً أخافُ عليك قمتُ كأني أريقُ الماء، فإن مضيت فاتبعني، حتى تدخلَ مدخلي.

ففعل، فانطلقَ يقفوه حتى دخل على النبيِّ ﷺ، ودخل معه، فسمع من قوله، وأسلمَ مكانه، فقال له النبيُّ ﷺ: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري».

قال: والذي نفسي بيده «لأصرخن بها بين ظهرانيهم».

فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهدُ أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله. ثم قام القوم فضربوه، وثاروا إليه، فأكبَّ العباس عليه»[(١)].

وأضاف مسلم في (صحيحه) في روايته للحديث عن أبي ذر تفاصيلَ أوفى وأكفى: «خرجنا من قومنا غفار، وكانوا يحلّون الشهرَ الحرام، فخرجتُ أنا وأخي أنُيس وأمنا، فنزلنا على خالٍ لنا، فأكرمنا خالُنا، وأحسنَ إلينا، فحسدَنا قومُه، فقالوا: إنك إذا خرجتَ عن أهلك خالفك إليهم أنيس، فجاء خالنا فنثا علينا الذي قيلَ له ـ أي أشاعَه وأفشاه ـ فقلتُ: أمَّا ما مضى من معروفِك فقد كدّرتَه، ولا جماعَ لك فيما بعدُ.

فقرّبنا صِرمتَنا ـ وهي القطعةُ من الإبل ـ فاحتملنا عليها، وتغطّى خالنا ثوبَه فجعل يبكي، فانطلقنا حتى نزلنا بحضرةِ مكة، فنافر أُنيس ـ أي راهن ـ عن صرمتنا وعن مثلها. فأتيا الكاهنَ، فخيّرَ أُنيساً ـ أي جعل له الخيار ـ فأتانا أنيسٌ بصرمتنا ومثلها معها.

قال: وقد صليت يا ابن أخي قبل أن ألقى رسولَ الله ﷺ بثلاثِ سنين.

قلت: لمن؟

قال: لله.

قلت: فأينَ توجَّه؟

---

(١) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٨٦١؛ ومسلم، رقم ٢٤٧٤.

قال: أتوجَّهُ حيث يوجهني ربي، أصلي عشاءً، حتى إن كان من آخر الليل ألقيتُ كأني خِفَاءٌ - أي كساء - حتى تعلوني الشمسُ.

فقال أُنيس: إنَّ لي حاجة بمكة فاكفني، فانطلقَ أُنيسٌ حتى أتى مكة، فراث عليَّ - أي أبطأ - ثم جاء فقلتُ: ما صنعتَ؟

قال: لقيتُ رجلاً بمكة على دينك، يزعمُ أنَّ الله أرسلَه.

قلت: فما يقول الناس؟

قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر. وكان أُنيس أحد الشعراء قال أنيس: لقد سمعتُ قول الكهنة، فما هو بقولهم، وقد وضعتُ قوله على أقراءِ الشعر - أي أنواعه وطُرُقه - فما يلتئمُ على لسانِ أحدٍ بعدي أنّه شعرٌ، واللهِ إنّه لصادقٌ وإنهم لكاذبون.

قال: قلتُ: فاكفني حتى أذهبَ فأنظر. قال: فأَتيتُ مكةَ، فتضعَّفتُ رجلاً منهم - أي نظرتُ إلى أضعفهم فسألتُه - فقلتُ: أين هذا الذي تدعونه الصابئ؟.

فأشار إليَّ فقال: الصابئ، فمالَ عليَّ أهلُ الوادي بكلِّ مَدْرَةٍ وعَظْمٍ حتى خررتُ مغشياً علي. قال: فارتفعتُ حين ارتفعتُ كأني نُصُبٌ أحمر - أي من كثرة الدماء - قال: فأتيتُ زمزمَ فغسلتُ عني الدماءَ، وشربتُ من مائها، وقد لبثتُ يا بن أخي ثلاثين بين ليلةٍ ويومٍ، ما كان لي طعامٌ إلا ماء زمزم، فسمنتُ حتى تكسرتْ عُكَنُ بطني، وما وجدتُ على كبدي سُخفةَ جوعٍ.

قال: فبينا أهل مكة في ليلة قمراء أُضحيان، إذ ضربت على أصمختهم، فما يطوفُ في البيتِ أحدٌ، وامرأتان منهم تدعوان إسافاً ونائلة. قال: فأتتا عليَّ في طوافهما فقلتُ: أنكحا أحدهما الأخرى، فما تناهتا عن قولهما، قال: فأتتا عليَّ فقلتُ: هِنٌ مثلُ الخشبةِ غير أني لا أكني[1]، فانطلقتا تولولان. وتقولان: لو كان ههنا أحدٌ من أنفارنا، قال: فاستقبلهما رسول الله ﷺ وأبو بكر وهما هابطان

---

(١) الهن: هو الفرج من الذكر، وأراد بذلك سب إساف ونائلة وغيظ الكفار بذلك، وكانا من أصنامهم.

قال: ما لكما؟ قالتا: الصابئ بين الكعبة وأستارها قال: ما قال لكما؟ قالتا: إنّه قال لنا كلمةً تملأ الفم.

فجاء رسولُ الله ﷺ حتى أستلمَ الحَجَرَ، وطافَ بالبيت هو وصاحبُه، ثم صلى، فلما قضى صلاتَـه فكنتُ أنا أول من حيّاهُ بتحية الإسلام. قال فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فقال: «وعليك ورحمة الله» ثم قال: «من أنت؟».

قلت: من غفار.

قال: فأهوى بيده فوضعَ أصابعه على جبهته. فقلتُ في نفسي: كره أن انتميتُ إلى غفار. فذهبتُ آخذ بيده فقدعني ـ أي كفني ـ صاحبُه، وكان أعلمَ به منِّي، ثم رفعَ رأسه ثم قال: «متى كنت ها هنا»؟.

قلتُ: قد كنت ها هنا منذ ثلاثين بين ليلة ويوم.

قال: «فمن كان يطعمك؟».

قلتُ: ما كـان لي طعامٌ إلا زمزم، فسـمنتُ حتى تكسّـرت عُكَنُ بطني، وما أجدُ على كبدي سخفة جوع.

قال: «إنها مباركةٌ، إنّها طعام طعمٍ»[1].

فقال أبو بكر: يا رسول الله! ائذن لي في طعامِه الليلة.

فانطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر، وانطلقتُ معهما، ففتحَ أبو بكر بابـاً، فجعل يقبِضُ لنا من زبيبِ الطائف، وكان ذلك أولَ طعامٍ أكلتُه بها.

ثم غبرتُ ما غبرتُ ـ أي بقيت ما بقيت ـ ثم أتيتُ رسول الله ﷺ فقال: «إنّه قد وُجِّهتْ لي أرضٌ ذاتُ نخلٍ، لا أراها إلا يثربَ، فهل أنتَ مبلِّغٌ عَنِّي قومَك، عسى الله أن ينفعهم بك ويأجرَك فيهم.

فأتيتُ أنيساً فقال: ما صنعتَ؟ قلت: صنعتُ أني قد أسلمتُ وصدقتُ.

قال: ما بي رغبةٌ عن دينك، فإني قد أسلمتُ وصدّقتُ. فأتينا أمَّنا فقالت:

---

(١) أي تشبع شاربها كما يشبعه الطعام.

ما بي رغبةٌ عن دينكما، فإني قد أسلمتُ وصدّقتُ.

فاحتملنا حتى أتينا قومنا غفاراً فأسلم نصفُهم، وكان يؤمُّهم إيماء بن رحضة الغفاري، وكان سيِّدهم.

وقال نصفهم: إذا قدم رسول الله ﷺ المدينةَ أسلمنا، فقدم رسول الله ﷺ المدينةَ، فأسلم نصفُهم الباقي. وجاءت أسلمُ، فقالوا: يا رسول الله ﷺ إخوتُنا، نسلمُ على الذي أسلموا عليه، فأسلموا، فقال رسول الله ﷺ: «غفارٌ غفرَ الله لها، وأسلمُ سالمها الله»[1].

السابقون إلى الإسلام:

لا شك أنّ السيدة خديجة رضي الله عنها كانت أسبق الناس إلى الإسلام كما مرّ معنا، ويأتي بالفضل بعدَها أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ففي الحديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ، إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه، حتى أبدى عن ركبته، فقال النبيُّ ﷺ: «أما صاحبكم فقد غامرَ»[2] فسلَّم وقال: يا رسول الله إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيءٌ، فأسرعتُ إليه ثم ندمتُ، فسألته أن يغفرَ لي فأبى عليَّ، فأقبلتُ إليك. فقال ﷺ: «يغفرُ الله لك يا أبابكر» ثلاثاً. ثم إن عمر ندم، فأتى منزلَ أبي بكر، فسأل: أثَمَّ أبو بكر؟ فقالوا: لا. فأتى إلى النبيِّ ﷺ، فجعلَ النبيُّ ﷺ يتمعَّرُ[3]، وفي رواية فغضبَ النبيُّ ﷺ حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقال: يا رسول الله. واللهِ أنا كنتُ أظلم - مرتين - فقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبتَ، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسِه ومالِه، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟» (مرتين) فما أوذي بعدها[4].

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنهما قال: رأيتُ رسول الله ﷺ وما معه إلا

---

(١) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٤٧٣.

(٢) والمعنى أنه دخل في غمرة الخصومة.

(٣) أي تذهب نضارته من الغضب.

(٤) صحيح البخاري في الفضائل، رقم ٣٦٦١.

خمسةُ أعبد وامرأتان وأبو بكر[1].

قال ابن حجر رحمه الله: أما الأعبدُ فهم: بلال، وزيد بن حارثة، وعامر ابن فهيرة، مولى أبي بكر، فإنه أسلم قديماً مع أبي بكر، وروى الطبري من طريق عروة أنه كان ممن يُعذَّب في الله، فاشتراه أبو بكر وأعتقه. وأبو فكيهة مولى صفوان بن أمية بن خلف، ذكر ابن إسحاق أنّه أسلم حينَ أسلمَ بلال، فعذبه أمية، فاشتراه أبو بكر فأعتقه. وأما الخامس فيحتمَلُ أن يفسّرَ بشقران، فقد ذكر ابن السكن في (كتاب الصحابة) عن **عبد الله بن داود** أن النبيَّ ﷺ ورثه من أبيه هو وأم أيمن، وذكر بعض شيوخنا بدل أبي فكيهة عمار بن ياسر، وهو محتمل، وكان ينبغي أن يكون منهم أبوه وأمه، فإنَّ الثلاثة كانوا ممن عُذِّبوا في الله، وأمُه أول من استشهدت في الإسلام، طعنها أبو جهل في قُبلها بحربة فماتت. وأما المرأتان فخديجة والأخرى أم أيمن أو سمية[2].

إعلان الدعوة ومواجهة المشركين:

بقي ﷺ يدعو إلى الله سراً حتى أمره سبحانه بإعلان الدعوة والجهر بها، وأنزلَ عليه قوله الكريم: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٩٤ـ٩٦].

وكانت هذه الآيات فاصلةً بين مرحلتين من مراحل الدعوة، إذ كان النبيُّ ﷺ قبلها مستخفياً مع أصحابه حتى نزلت، فخرج هو وأصحابه.

قال ابن إسحاق في (السيرة) ثم إنَّ الله عزَّ وجلّ أمر رسول الله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن يبادِئ الناسَ بأمره، وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين ـ فيما بلغني ـ من مبعثه، ثم قال الله تعالى: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر: ٩٤][3].

---

(١) المرجع السابق، رقم ٣٦٦٠.
(٢) فتح الباري: ٧/ ٢٤.
(٣) سيرة ابن هشام: ١/ ٢٣٧.

وبشره الله تعالى عندما أمره بإعلان الدعوة بكفايته شرَّ المستهزئين ومكرهم من رؤوس الكفر في قريش فقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥] أي: كفيناك المستهزئين من كبار المشركين، كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث وغيرهم، الذين كانوا يبالغون في أذى رسول الله ﷺ والاستهزاء به، وقد أهلكهم الله تعالى جميعاً، وكُفيَ ﷺ شرَّهم.

وأمره سبحانه أن يبدأ بدعوة عشيرته فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ جعلَ النبيُّ ﷺ ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يا بني عبد مناف، اشتروا أنفسكم من الله، يا بني عبد المطلب، اشتروا أنفسكم من الله، يا أمَّ الزبير بن العوام عمةَ رسول الله، يا فاطمة بنت محمدٍ اشتريا أنفسكما من الله، لا أملك لكما من الله شيئاً، سلاني من مالي ما شئتما»[١].

معارضة أبي لهب وامرأته النبي ﷺ:

أعلن أبو لهب عمُّ النبي ﷺ معارضةَ النبي ﷺ وخذلانه منذ إعلانه ﷺ الدعوة، ففي الحديث الشريف عن ابن عباس رضي الله عنهما: لمَّا نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: «يا صباحاه»[٢].

فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه.

فقال: «أرأيتم إن أخبرتكم أنّ خيلاً تخرجُ من سفح هذا الجبل أكنتُم مصدقيَّ؟».

قالوا: ما جربنا عليك كذباً.

---

(١) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٥٢٥-٣٥٢٧.
(٢) وهي كلمة اعتادوا قولها عند وقوع أمرٍ عظيم، ليجتمعوا ويتأهبوا له.

قال: «إني نذيرٌ لكم بَيْنَ يديْ عذابٍ شديد».

قال أبو لهب: تباً لك، ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[1].

والتباب: هو الخسار المفضي إلى الهلاك، وفي الآية إخبارٌ بعدَ دعاء، والتعبير بالماضي لتحقق وقوعه، والمرادُ من اليد صاحبها، وهو أبو لهب، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، وعدل عن الاسم إلى الكنية لما في أبي لهب من الشرك، ووافقت كنيته مآله، ومآله إلى النار. مات بعد وقعة بدرٍ بالعدسة[2]، فاجتنبه أهله مخافة العدوى، وكانت قريش تتقيها كالطاعون، فبقي ثلاثاً حتى أنتن، فحفروا له حفرة، ودفعوه بعود حتى وقعَ فيها، ثم قذفوه بالحجارة حتى واروه، فكان الأمرُ كما أخبر الله تعالى.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ أي: ما أغنى عنه مالُه وما كسبَ منه، أو وما كسب من أولادٍ، لأنَّ ولدَ الإنسانِ من كسبه.

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي: ناراً تلتهِبُ عليه، وهو وعيدٌ كائنٌ لا محالة وإن تراخى وقته.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ وهي أمُ جميل بنت حربٍ بن أمية، أخت أبي سفيان، كانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده، فلهذا تكونُ يومَ القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم، فهي تحملُ الحطبَ، فتلقيه على زوجها ليزدادَ عذاباً على ما هو فيه من العذاب، كانت في غاية العداوة لرسول الله ﷺ، تحمل الشوك والحسك فتطرحُه بالليل في طريق رسول الله ﷺ لتؤذيه بذلك، وقد أخرجَ ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم عن قتادة ومجاهد أنها كانت تمشي بالنميمة، فالحطب مستعار للنميمة، لأنَّ النميمةَ توقدُ الشرَّ بين الناس. وقد يكون المعنى أنها كالحطبِ في مصيرها إلى النار، والجزاءُ من جنس العمل.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أي: في عنقها حبل ممّا مسد وفُتِلَ من

---

(١) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٩٧١.

(٢) العدسة: بثرة تخرج بالبدن فتقتل (القاموس).

الحبال، وهذا يدل على شدته وغلظته، فالآية تبينُ حالها في نار جهنم.

وعن قتادة أنه كان في جيدها قلادة من ودع، وقال الحسن: من خرز، وقال ابن المسيّب: كانت قلادة فاخرة من جوهر، وأنها قالت: واللات والعزى لأنفقنَّها على عداوة محمد ﷺ.

ولعل المراد على هذا أن تكون في نار جهنم ذات قلادة من حديد ممسود، بدل قلادتها التي كانت لها في الدنيا، ويؤيد ذلك أنه سبحانه قال: ﴿ فِي جِيدِهَا ﴾ ولم يقل في عنقها مع أنَّ العنق يذكر مع الغل، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ [يسٓ: ٨] فالجيد يذكر مع الحلي، ففي الآية تهكم بها وتحقير لها[١].

أخرج ابن أبي حاتم عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لما نزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾ أقبلت العوراءُ أمُّ جميل بنت حرب، ولها ولولة وفي يدها فِهْرٌ - حجر - وهي تقول: مذمماً أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا. ورسول الله ﷺ ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله ﷺ قد أقبلت، وأنا أخاف عليك أن تراك، فقال رسول الله ﷺ: «إنها لن تراني» وقرأ قرآناً اعتصَمَ به كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٥] فأقبلتْ حتى وقفتْ على أبي بكر، ولم ترَ رسول الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكر إني أخبرتُ أن صاحبك هجاني، قال: لا وربِّ هذا البيت ما هجاك، فولّت وهي تقول: قد علمتْ قريشٌ أنّي ابنةُ سيدها. أورده ابن كثير في تفسير هذه السورة ثم قال: قال العلماء: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾ فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان، لم يقيّضْ لهما أن يؤمنا ولا واحداً منهما لا باطناً ولا ظاهراً، لا سرّاً ولا علناً، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة[٢].

---

(١) انظر روح المعاني: ٣٠/ ٣٢٩.

(٢) انظر تفسير السورة في موضوعات سور القرآن الكريم للمؤلف.

قيام عمه أبي طالب بحمايته:

وفي مقابل معارضة عمّه أبي لهب قام عمُّه أبو طالب بحمايته، ومنع قريشاً من الوصول إليه، واسمُه عند الجميع عبدُ مناف ـ وشذَّ من قال: عمران، بل هو قولٌ باطل نقله ابن تيمية في كتاب الرد على الرافضي (ابن المطهر الحلي)[1] أنَّ بعض الروافض زعم أن قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣] أنَّ آل عمران هم آل أبي طالب، وأن اسم أبي طالب عمران، واشتهر بكنيته. وكان شقيق عبد الله والد رسول الله ﷺ، ولذلك أوصى به عبد المطلب عند موته إليه ـ فكفله إلى أن كبر، واستمر على نصره بعد أن بُعِثَ إلى أن مات أبو طالب، وذكرنا أنه قد مات بعد خروجهم من الشعب، وذلك في آخر السنة العاشرة من المبعث، وكان يذبُّ عن النبي ﷺ، ويرد عنه كل من يؤذيه، وهو مقيمٌ مع ذلك على دين قومه، وأخبارُه في حياطته والذب عنه معروفة مشهورة، ومما اشتهر من شعره في ذلك قوله[2]:

والله لن يَصِلُوا إليكَ بجمعِهم حتى أوسّدَ في الترابِ دفينا

ومما يؤكد أنّه مات كافراً ولم يسلم ما ورد في عدد من الأحاديث النبوية الصحيحة، منهاما رواه الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبيه أنَّ أبا طالبٍ لمّا حضرته الوفاة، دخل عليه النبي ﷺ ـ وعنده أبو جهل ـ فقال: «أي عم! قل: لا إله إلا الله كلمة أحاجُ لك بها عند الله».

فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب ترغبُ عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيءٍ كلّمهم به: على ملةِ عبد المطلب.

فقال النبي ﷺ: «لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عنه» فنزلت: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣]، ونزلت: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص ٥٦].

---

(١) واسم كتاب ابن تيمية (منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية).
(٢) فتح الباري: ٧/ ١٩٤.

وعن أبي **سعيد الخدري** رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ ـ وذُكِرَ عنده عَمُّه ـ فقال: «لعله تنفعُه شفاعتي يومَ القيامة فيُجعلَ في ضَحْضَاحٍ من نارٍ يبلغُ كعبيه يغلي منه دماغه».

وعن **العباس بن عبد المطلب** رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: ما أغنيتَ عن عمِّك، فإنّه كان يحوطُك، ويغضبُ لك؟ قال: «هو في ضحْضاحٍ من نار، ولولا أنا لكانَ في الدَّرْكِ الأسفل من النار»[1].

وقوله: «كان يحُوطك» بضم الحاء المهملة من الحياطة وهي المراعاة.

ثم إنَّ خديجة وأبا طالب هلكا في عام واحد قبل الهجرة بثلاث سنين، وكانت خديجة له وزيرةَ صدق على الإسلام يسكن إليها، وكان أبو طالب عضداً وناصراً على قومه.

ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيهٌ من سفهاءِ قريشٍ فنثرَ على رأسه تراباً، فحدّثني هشام بن عروة عن أبيه قال: فدخل رسول الله ﷺ يقول: «ما نالت مني قريشٌ شيئاً أكرهُه حتى ماتَ أبو طالب».

وقوله: «هو في ضحضاح» هو استعارة، فإنَّ الضحضاح منَ الماءِ ما يبلغُ الكعبَ، ويقال له أيضاً فيما قرب من الماء، وهو ضد الغمرة، والمعنى أنه خفف عنه العذاب. كما ذكر في حديث أبي سعيد الخدري أنه: «يُجْعَلُ في ضحضاح يبلغُ كعبيه، يغلي منه دماغُه» ووقع في حديث ابن عباس عند مسلم: «إنَّ أهونَ أهلِ النار عذاباً أبو طالب، له نعلان يغلي منهما دماغه»[2].

وفي سؤال العباس عن حال أبي طالب ما يدل على ضعف ما أخرجه ابن إسحاق من حديث ابن عباس ـ **بسند فيه من لم يُسَمّ** ـ أن أبا طالب لما تقاربَ منه الموتُ بعد أن عرضَ عليه النبي ﷺ أن يقول: لا إلـه إلا الله فأبى، قال: فنظر العباس إليه وهو يحرك شفتيه فأصغى إليه فقال: يا ابن أخي! والله لقد قال أخي

---

(١) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٨٨٤ ـ ٣٨٨٥ ـ ٣٨٨٣.
(٢) فتح الباري: ٧/ ١٩٤.

الكلمة التي أمرتَه أن يقولها.

وهذا الحديثُ لو كان طريقه صحيحاً لعارضه هذا الحديث الذي هو أصحُّ منه، فضلاً عن أنه لا يصح.

وروى أبو داود والنسائي وابن خزيمة وابن الجارود من حديث عليٍّ: قال: «لما مات أبو طالب قلتُ: يا رسول الله! إنَّ عمَّك الشيخَ الضالَّ قد مات.

قال: «اذهب فواره».

قلت: إنه مات مشركاً.

فقال: «اذهب فواره».. الحديث.

ووقفتُ على جزءٍ جمعَه بعضُ أهل الرفض أكثروا فيه من الأحاديث الواهية الدالة على إسلام أبي طالب ولا يثبت من ذلك شيء[1].

ومن عجائب الاتفاق أنَّ الذين أدركهم الإسلام من أعمام النبي ﷺ أربعة: لم يسلم منهم اثنان، وأسلم اثنان، وكان اسمُ من لم يسلم ينافي أسامي المسلمين، وهما أبو طالب واسمه عبد مناف، وأبو لهب واسمه عبد العزى، بخلاف من أسلم وهما حمزة والعباس[2].

معارضة أبي جهل:

كان أبو جهل - عمرو بن هشام المخزومي - من أغنياء قريش ووجهائها، من رؤوس المستهزئين، ومن أشدّ الناس عداوةً للنبي ﷺ، أنزل الله تعالى فيه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۝١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ۝١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡۤ وَٱقۡتَرِب ۩﴾ [العلق: ٦ - ١٩].

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو جهل: لئن رأيتُ

---

(١) المرجع السابق: ٧/ ١٩٥.
(٢) المرجع السابق نفسه.

محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغَ النبيَّ ﷺ فقال: «لو فعله لأخذتْه الملائكةُ»[1].

وأخرج النسائيُّ من طريق أبي حازم عن أبي هريرة نحو حديث ابن عباس وزاد في آخره: فلم يفجأهم منه إلا وهو ـ أي أبو جهل ـ ينكصُ على عقبيه، ويتقي بيديه.

وقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [٩ ـ ١٤]، أي فما ظنُّك إن كان هذا الذي تنهاه على الهدى والحق، ودعا إلى تقوى الله، وأنت تزجُرُه، وتتوعّدُه على صلاته.

أرأيتَ إنْ كان ذلك الناهي مكذباً بالحق ومعرضاً عنه.

وتقديرُ نظم الآيات: أرأيتَ الذي ينهى عبداً إذا صلى وهو على الهدى، آمراً بالتقوى، بينما الناهي مكذِّبٌ معرِضٌ عن الإيمان، فما أعجب هذا؟!.

وقد يكونُ المعنى أيضاً: أخبرني عمّن ينهى بعضَ عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على هدًى فيما ينهى عنه، أو آمراً بالتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان، أو إنه كان على التكذيب للحق والتولي عن الصواب؟.

ألم يعلم بأنَّ الله يرى ذلك الفعلَ ويجازيه عليه.

ثم أضافت الآياتُ تزجرُه زجراً شديداً، وتتوعده وعيداً بليغاً مما يدل على علوِّ مكانة النبي ﷺ عند ربه: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [١٥ ـ ١٨].

و(كلا) ردعٌ له عن نهيه عن عبادة الله وأمره بعبادة الأصنام، (لئن لم ينته) عمّا هو فيه لنأخذن بناصيته، فنطويها مع قدميه، ونطرحه في النار.

و(السفعُ) هو القبضُ الشديدُ والجذبُ.

---

(١) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٩٥٨.

و(الناصية) مقدم الرأس: وخَصَّها بالذكر على عادة العرب فيمن أرادوا إذلاله وإهانته أخذوا بناصيته، وهي ناصيةٌ كاذبةٌ في قولها، خاطئةٌ في فعلها، والمرادُ أنَّ صاحبها كاذبٌ خاطئ.

وذهب بعض الدارسين المعاصرين إلى أن المراد الناصية نفسها، وهي أعلى الجبهة حيث يستتر الفصُّ الجبهيُّ الأماميُّ من المخ، المسؤول عن شخصية الفرد، والمتحكم في تصرفاته وأفعاله، فالقشرةُ الأمامية الجبهية هي الموجهة لبعض تصرفات الإنسان، التي تدلُّ على شخصيته، مثل الصدق والكذب، والصواب والخطأ، وتحثُّ الإنسان على فعل الخير أو الشر. وفي الآية إعجازٌ علميٌّ.

وقوله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ [١٧]، أي: فليستنصر بأهل مجلسِه وعشيرتِه، سندعو ملائكةَ العذاب الغلاظِ الشدادِ، الذين قال تعالى فيهم: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

ثم ختم الله الآيات بردعٍ آخرَ للناهي، وأمرَ النبيَّ ﷺ بألاّ يطيعَه في ترك الصلاة، وألاّ يبالي بتهديده ووعيده، فقال: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [١٩] أي: لا تطعه في ترك الصلاة، واسجد لله تعالى، وتقرّبْ إليه، كما في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ، فأكثروا من الدعاء»[١].

وينبغي التنبيه إلى أنَّ هذه الآية من آيات سجود التلاوة لما في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سجدَ رسولُ الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾[٢]. ولا شك أنَّ في السجودِ غايةَ العبوديةِ لله، والتذللَ لله جلَّ جلاله.

---

(١) صحيح مسلم في الصلاة، رقم ٤٨٢.

(٢) صحيح مسلم في المساجد، رقم ٥٧٨.

المعاند المكذب الوليد بن المغيرة المخزومي:

وهو من المستهزئين أيضاً، كان رأساً من رؤوس الشرك والكفر في مكة المكرمة، وقد أنعمَ الله عليه بنعمٍ كثيرة، فكفرَ بأنعمه سبحانه، وقابلها بالجحود والافتراء، والإعراض عن دعوةِ النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى به قوله الكريم: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّآ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١١ ـ ٢٩].

واتفق المفسرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزومي، قال ابن عباس رضي الله عنهما: جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنَّه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إنَّ قومَك يريدونَ أن يجمعوا لك مالاً، فإنّك أتيتَ محمداً تتعرّض لما قِبلَه.

فقال: قد علمتْ قريشٌ أنّي من أكثرها مالاً.

قال: فقل فيه قولاً يبلغُ قومكَ أنّك منكرٌ له.

قال: وماذا أقول؟ فوالله! ما فيكم رجلٌ أعلمُ بالأشعار مني، فوالله! ما يشبهُها الذي يقولُ، والله! إنَّ لقوله حلاوةً، وإنَّ عليه طلاوةً، وإنّه لمثمِرٌ أعلاه، مغدِقٌ أسفلُه، وإنّه ليعلو ولا يُعلى.

قال: لا يرضى عنك قومُك حتى تقول فيه.

قال فدعني حتى أفكرَ فيه. فقال: هذا سِحرٌ يؤثر. يأثُره عن غيرِه. فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّآ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَآ أَدْرَاكَ مَا

سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ [١١ ـ ٢٩][1].

وقوله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ له، وقطع لرجائه، فلم يجمع له سبحانه بعد ذلك اليوم بين الكفر والمزيد من النعم، وما زال بعد نزول هذه الآية في نقصانٍ حتى أهلكَه الله.

وبينتِ الآياتُ أنّه الجاني على نفسه، بسبب الإعراضِ عن دعوة النبي ﷺ. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ [١٦]، أي: معانِداً جاحداً، فكفرُه كفرُ عنادٍ، فقد عرفَ الحقَّ بقلبه، وجحدَه بلسانِه، وهو أقبحُ أنواع الكفرِ وأفحشُه.

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [١٧]، أي: سأكلِّفه عذاباً شاقاً لا راحة فيه، والصعودُ: العَقَبَةُ الشاقّة، وهي جبل من نار، يكلَّف أن يصعدَه.

ثم قال تعالى معلِّلاً هذا الوعيد الشديد: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [١٨]، أي: فكر في الأمر الذي يريدُه، وقدّر في نفسِه ما يقولُ فيه.

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [١٩] أي: عُذّب أو لُعِنَ كيف قدر هذا التقدير؟! وهو تعجيبٌ معه توبيخٌ وإنكار.

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [٢٠]، أي: ثُمَّ لعنَ كيف قدر؟! كرّره للتأكيد، و﴿ثُمَّ﴾ للإشعار بأنَّ الدعاءَ الثاني أبلغُ من الأول.

ووصفت الآيات أحوالَه، وهو يكدّ ذهنَه، ويعصر فكرَه، بحثاً عن شبهةٍ يحتجُّ بها، ستراً لجحوده وعنادِه.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [٢١]، أي: في أمر القرآن الكريم مرةً بعد أخرى.

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ [٢٢]، أي: كلحَ وقطّبَ وجهَه كالمهتمِّ المتفكر في شيءٍ يدبّره.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ [٢٣]، أي: أدبرَ عن الحق، واستكبرَ عن الإذعانِ له واتّباعه.

---

(١) رواه بهذا السياق الواحديُّ في أسباب النزول، وسنده صحيح؛ ورواه أيضاً الطبراني والحاكم، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري.

﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [٢٤] أي: ما هذا الذي يقوله محمد ﷺ إلا سحرٌ يروى ويحكى عن السحرة.

﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ [٢٥]، وهو تأكيدُ للجملة الأولى، ولهذا لم يعطف عليه.

وردَّ الله على جحوده وعناده ردّاً عنيفاً شديداً، يدلُّ على مكانة النبيِّ ﷺ العالية عند ربه فقال: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [٢٦] أي: سأدخله سقر، وهو اسم من أسماء جهنم.

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴾ [٢٧]، وهو تفخيمٌ لشأنها وتهويلٌ لعذابها.

﴿ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴾ [٢٨]، أي: لا تبقي لحماً، ولا تذر عظماً.

﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ [٢٩] أي: هي لواحة للبشر، مسوِّدةٌ للجلود، ومحرِقةٌ لها[1].

ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من أذى المشركين:

لقي النبيُّ ﷺ وأصحابُه من وجوه الأذى وأنواعه شيئاً كثيراً، ففي الحديث الشريف عن خبّاب رضي الله عنه قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو متوسدٌ بردةً، وهو في ظلِّ الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدةً، فقلتُ: يا رسول الله! ألا تدعو الله لنا؟

فقعدَ وهو محمرٌ وجهُه، فقال: «لقد كان مَنْ قبلكم ليمشَّطُ بمشاطِ الحديدِ ما دونَ عظامِهِ من لحمٍ أو عَصَبٍ، ما يصرفُه ذلك عن دينِه، ويوضَعُ المنشارُ على مفرقِ رأسِه فيُشَقُّ باثنين، ما يصرفُه ذلك عن دينِه، وليُتمَّنَّ الله هذا الأمرَ حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرموت ما يخافُ إلا الله» وزاد في رواية «والذئبَ على غنمه»[2].

وروى ابنُ إسحاق من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وذكر الصحابةَ، فقال: «واللهِ إن كانوا ليضربونَ أحدَهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدرُ أن

---

(١) انظر تفسير الآيات في موضوعات السور.

(٢) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٨٥٢.

يستوي جالساً من شدّةِ الضرّ، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلـهك من دون الله، فيقول: نعم».

وروى ابن ماجه وابن حِبّان من طريق زرّ عن ابن مسعود قال: أول من أظهرَ إسلامَه سبعةٌ: رسولُ الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سُميّة، وصُهيب، وبلال، والمقداد. فأما رسولُ الله ﷺ فمنعه الله بعمّه، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائِرُهم فأخذهم المشركونَ، فألبسوهم أدراعَ الحديدِ، وأوقفوهم بالشمس[1].

ولما توفي أبو طالب ازداد أذاهم للنبيِّ ﷺ، وامتدت أيديهم إليه بالأذى، ففي الحديث عن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه قال: بينا النبيُّ ﷺ ساجدٌ، وحوله ناس من قريش، جاء عُقبة بن أبي مُعَيْط بسلى[2] جزورٍ فقذفَه على ظهر النبيِّ ﷺ، فلم يرفعْ رأسَه، فجاءت فاطمةُ عليها السلام فأخذته من ظهره، ودعت على مَنْ صنعَ، فقال النبيُّ ﷺ: «اللهمَّ عليك الملأَ من قريش: أبا جهل بن هشام، وعتبةَ بن ربيعة، وشيبةَ بن ربيعة، وأُمية بن خليف ـ أو ابن خلف» شعبة الشاك ـ فرأيتُهم قُتِلوا يوم بدر، فألقوا في بئر، غير أمية بن خلف أو أبي تقطعّت أوصالُه فلم يلقَ في البئر[3].

وعن **أنس** قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد أوذيتُ في اللهِ وما يؤذى أحدٌ، وأُخِفْتُ في الله وما يخافُ أحد»[4].

وعن عروة بن الزبير قال: سألتُ **ابن عمرو بن العاص**: أخبرني بأشدّ شيءٍ صنعه المشركون بالنبي ﷺ. قال: بينا النبيُّ ﷺ يصلي في حجْرِ الكعبة، إذ أقبل عُقبة بن أبي مُعيط، فوضعَ ثوبه في عنقه، فخنقَه خنقاً شديداً، فأقبلَ أبو بكر، حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨][5].

---

(١) فتح الباري: ٧/ ١٦٦.

(٢) أي جاء بكرش الجمل وأمعائه، فوضعها على ظهر النبي ﷺ.

(٣) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٨٥٤.

(٤) رواه أحمد والترمذي وابن حبان.

(٥) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٨٥٦.

وذكر البخاري تعليقاً بعده قال: قال محمد بن عمرو عن أبي سلمة: حدّثني **عمرو بن العاص**. قال ابن حجر رحمه الله: وصله البخاريُّ في (خلق أفعال العباد) من طريقه، وأخرجه أبو يعلى وابن حِبّان عنه من وجهٍ آخر، عن محمد بن عمرو ولفظه: ما رأيت قريشاً أرادوا قتلَ رسول الله ﷺ إلا يوماً أغروا به وهم في ظلِّ الكعبة جلوس، وهو يصلي عندَ المقام، فقام إليه عُقبة فجعلَ رداءَه في عنقِه، ثم جذبَه، حتى وجبَ لركبتيه، وتصايحَ الناسُ، وأقبلَ أبو بكر يشتدُّ حتى أخذَ بضبع رسول الله ﷺ مِنْ ورائه، وهو يقول: أتقتلونَ رجلاً أن يقولَ ربيَّ الله؟ ثم انصرفوا عنه، فلما قضى صلاتَه مرَّ بهم فقال: «والذي نفسي بيده ما أُرسلتُ إليكم إلا بالذّبحِ».

فقال له أبو جهل: يا محمد ما كنتَ جهولاً.

فقال: «أنت منهم».

ويدل على التعدَد أيضاً ما أخرجه البيهقي في (الدلائل) من حديث ابن عباس عن فاطمة عليها السلام قالت: اجتمع المشركون في الحجْر، فقالوا: إذا مرَّ محمدٌ ضربَه كلُّ رجلٍ منهم ضربةً، فسمعتُ ذلك فأخبرته فقال: «اسكتي يا بُنيّة»، ثم خرج فدخلَ عليهم، فرفعوا رؤوسهم ثم نكسوا، قالت: فأخذَ قبضةً من ترابٍ، فرمى بها نحوَهم، ثم قال: «شاهتِ الوجوه» فما أصابَ رجلاً منهم إلا قُتِلَ يومَ بدرٍ كافراً.

وقد أخرج أبو يعلى والبزّار بإسنادٍ صحيح عن أنس قال: لقد ضربوا رسول الله ﷺ مرةً حتى غُشيَ عليه، فقام أبو بكر، فجعل ينادي: ويلكم أتقتلونَ رجلاً أن يقول ربيَّ الله؟ فتركوه وأقبلوا على أبي بكر.

وهذا من مراسيل الصحابة.

وقد أخرجه أبو يعلى بإسنادٍ حسنٍ مطولاً من حديث أسماء بنت أبي بكر أنهم قالوا لها: ما أشدُّ ما رأيتِ المشركين بلغوا من رسول الله ﷺ؟ فذكر نحوَ سياق ابن إسحاق المتقدّم قريباً، وفيه: فأتى الصريخُ إلى أبي بكر فقالوا: أدرك صاحبَك، قال: فخرجَ من عندنا، وله غدائرُ أربع، وهو يقول: ويلكم أتقتلون

رجلاً أن يقول ربي الله؟ فلهوا عنه، وأقبلوا إلى أبي بكر، فرجعَ إلينا أبو بكر، فجعلَ لا يمسُّ شيئاً من غدائره إلا رجعَ معه.

ولقصة أبي بكر هذه شاهدٌ من حديث عليٍّ أخرجه البزار من رواية محمد بن علي عن أبيه أنّه خطبَ فقال: مَنْ أشجعُ الناسِ؟

فقالوا: أنت.

قال: أما إنّي ما بارزني أحدٌ إلا أُنصفتُ منه، ولكنّه أبو بكر، لقد رأيتُ رسول الله ﷺ أخذته قريشٌ، فهذا يجؤه، وهذا يتلقّاه، ويقولون له: أنت تجعلُ الآلهة واحداً، فوالله ما دنا منا أحدٌ إلا أبو بكر يضربُ هذا، ويدفعُ هذا، ويقول: ويلكم أتقتلونَ رجلاً أن يقولَ ربِّيَ الله. ثم بكى عليٌّ، ثم قال: أنشدكمُ اللهَ أمؤمنُ آل فرعون أفضلُ أم أبو بكر؟ فسكتُ القومُ، فقال علي: والله لساعةٌ من أبي بكر خيرٌ منه، ذاك رجلٌ يكتمُ إيمانَه، وهذا يعلِنُ بإيمانه[1].

عقبةُ وأُبَيّ:

هما عُقبة بن أبي مُعيط وأُبيُّ بن خلف، كانا من كبار المستهزئين بالنبيِّ ﷺ والمعارضين لدعوته. وكانا صديقين، أنزل سبحانه بهما قولَه الكريم: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩].

قال الإمام الطبريُّ رحمه الله: عَنى بالظالم عُقبةَ بن أبي مُعيط، لأنّه ارتد بعدَ إسلامه، طلباً لرضى أُبيّ بن خلف.

ثم روى بسنده أنَّ عُقبة بن أبي معيط وأبي بن خلف كانا خليلين، فقال أحدُهما لصاحبه: بلغني أنّك أتيتَ محمداً فاستمعت منه، والله لا أرضى عنك حتى تَتْفُلَ في وجهه وتكذبَه، فلم يسلطه الله على ذلك، فقُتِلَ عُقبة يوم بدرٍ صبراً ـ أي وهو ينتظرُ القتلَ بعدَ أنْ أسر ـ وأما أبي بن خلف فقتله النبي ﷺ بيدِه يوم أحدٍ

---

(١) فتح الباري: ٧/ ١٧٠.

في القتال[١].

وكانَ عُقبةُ قد جلس إلى رسول الله ﷺ، وسمعَ منه، فبلغَ ذلك أُبيّاً، فقال له: ألم يبلغني أنك جالستَ محمداً وسمعتَ منه، وجهي من وجهك حرامٌ إنْ أنتَ جلستَ إليه، أو سمعتَ منه، أولم تأْته فتتفلَ في وجهه، ففعلَ ذلك عدوُّ الله عقبة، فأنزل الله فيهما: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾[٢].

وأبي بن خلف هو الذي أتى إلى النبيِّ ﷺ بعظمٍ قد رَمَّ وبليَ، ففتَّه بيده، وقال: أترى يحيي الله هذا بعدما رمَّ؟.

فقال النبي ﷺ: «نعم ويدخلُك النار» فأنزل الله الآيات: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٧٨ ـ ٨٠].

الإكراه على الكفر:

وبلغ تعذيبُ المؤمنين المستضعفين إلى حدِّ إكراههم على الكفر، وفيهم أنزلَ الله تبارك وتعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٦ ـ ١٠٧].

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ هذه الآيات نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفرَ بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء معتذِراً إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية[٣].

ورُوي أنَّ قريشاً أكرهوا عماراً وأباه ياسراً وسُميّةَ على الارتداد، فأباه أبواه، فربطوا سُميةَ بين بعيرين، ووجئت بحربة في قُبُلِها، وقالوا: إنما أسلمت

---

(١) انظر تفسير سورة الفرقان للمؤلف.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٠.

(٣) انظر تفسير ابن كثير.

من أجل الرجالِ، فقتلوها، وقتلوا ياسراً، وهما أولُ قتيلين في الإسلام.

وأما عمار فأعطاهم بلسانِه ما أكرهوه عليه، فقيل: يا رسول الله! إن عماراً كفر.

فقال رسول الله ﷺ: مُلِئ عمّارُ إيماناً إلى مِشَاشه»[1] وفي رواية: وأتى عمّارُ رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل رسولُ الله ﷺ يمسحُ عينيه، وقال: «مالك؟ إنْ عادوا لك، فعد لهم بما قلتَ».

وهو دليلٌ على جوازِ التكلّم بكلمةِ الكفر عند الإكراهِ الملجِئ، وإن كان الأفضلُ أن يتجنّب عنه إعزازاً للدين، كما فعله أبواه.

وقد أجمعَ أهلُ العلم على أنَّ مَنْ أُكره على الكفرِ حتى خشي على نفسه القتلَ، أنّه لا إثمَ عليه إنْ تلفّظ بكلمة كفر، وقلبُه مطمِئنٌّ بالإيمان، ولا تبينُ عنه زوجتُه، ولا يحكَمُ عليه بحكمِ الكُفْرِ.

بذلُ أبي بكر مالَه لتخليص المستضعفين:

أنفقَ أبو بكر الصديق رضي الله عنه كلَّ ماله لتخليص المستضعفين، فقد أعتق قبل أن يهاجِرَ إلى المدينة المنوّرة ستَ رقاب، بلالٌ سابعُهم، وهم: عامر ابن فُهيرة، والنهديّة وابنتُها، وجاريةُ بني مؤمّل، وأُم عُبَيس، وزنِّيرة. حتى قال له أبوه: يا بنيَّ إنِّي أراكَ تعتقُ رقاباً ضعافاً، فلو أنك إذا ما فعلتَ أعتقتَ رجالاً جلداً - أقوياء - يمنعونك، ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبتِ إنّي إنّما أريدُ الله عزّ وجلّ. فأنزل الله هذه الآيات: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل: ١٧ - ٢١].

قال ابنُ كثير رحمه الله في ختام تفسيره للسورة: أي ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات، وقد ذكر غيرُ واحد من المفسرين أنَّ هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إنّ بعضَهم حكى الإجماعَ من المفسرين على ذلك.

---

(١) أخرجه النسائي في سننه. والمشاش: هي رؤوس العظام اللينة.

ولا شك أنّه داخل فيها، وأولى الأمةِ بعمومها، فإنَّ لفظها لفظ العموم، ولكنّه مقدَّمَ الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، فإنّـه كان صِدّيقاً، تقياً، كريماً، جواداً، بذّالاً لأمواله في طاعة مولاه ونصرة رسول الله ﷺ، فكم مِنْ دراهم ودنانير بذلها ابتغاءَ وجه ربه الكريم.

ولم يكن لأحدٍ من الناسِ عنده مِنّة يحتاجُ إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضلُه وإحسانُه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود، وهو سيّدُ ثقيف يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يدٌ لك عندي لم أجزك بها لأجبتك. وكـان الصديق قد أغلظ له في المقالةِ[1]، فإذا كان هذا حالُـه مع ساداتِ العرب ورؤساءِ القبائل، فكيف بمن عداهم؟! ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴾ رضي الله عنـه وأرضاه.

ثباتُ النبيِّ ﷺ ورفضُه ما عرضَ عليه رؤساءُ قريشٍ ليتركَ الدعوة:

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ عُتبةَ وشَيبة ابني ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، ورجلاً من بني عبد الدار، وأبا البختري أخا بني الأسد، والأسـود بن عبد المطلب بن أسـد، وزمْعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، ونبيهاً ومُنبّهاً ابني الحجاج السـهميين. اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه، وخاصموه حتى تعذروا فيه.

فبعثوا إليه أنَّ أشرافَ قومكَ قد اجتمعوا لك ليكلموك، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً، وهو يظنُّ أنّه قد بدا لهم في أمرِه بداءً ـ أي رأي جديد ـ وكان عليهم حريصاً، يحبُّ رشدَهم، ويعزّ عليه عنتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنُعْذَرَ فيك، وإنّا والله ما نعلمُ رجلاً من العربِ أدخلَ على قومه

---

(١) سيأتي تفصيل هذا الخبر عند الحديث عن صلح الحديبية، إن شاء الله تعالى.

ما أدخلتَ على قومكَ، لقد شتمتَ الآباءَ، وعبْتَ الدينَ، وسفَّهتَ الأحلام، وشتمتَ الآلهةَ، وفرّقتَ الجماعةَ، فما بقيَ من قبيحٍ إلا وقد جئتَه فيما بيننا وبينك.

فإن كنتَ إنما جئتَ بهذا الحديثِ تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكونَ أكثرنا مالاً، وإن كنتَ إنّما تطلبُ الشرفَ فينا سوّدناك علينا، وإن كنتَ تريدُ مُلْكاً ملّكناك علينا، وإن كانَ هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئياً تراهُ قد غلبَ عليك[1]، فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلبِ الطبِّ حتى نبرِئَكَ منه، أو نُعْذَرَ فيك.

فقال رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئتُكم بما جئتُكم به أطلبُ أموالكم، ولا الشرفَ فيكم، ولا المُلْكَ عليكم، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلّغتُكم رسالاتِ ربِّي، ونصحتُ لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتُكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبرُ لأمرِ الله حتى يحكمَ الله بيني وبينكم» أو كما قال رسول الله ﷺ.

فقالوا: يا محمد! فإن كنتَ غيرَ قابلٍ منّا ما عرضنا عليك، فقد علمتَ أنّه ليس أحدٌ من الناس أضيق بلاداً، ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسيّر عنا هذه الجبال، التي قد ضيقت علينا، وليبسطْ لنا بلادَنا، وليفجّر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعثْ لنا مَنْ مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعثُ لنا منهم قصي بن كلاب، فإنّه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقولُ أحقٌّ هو أم باطلٌ؟ فإن صنعتَ ما سألناك وصدّقوك صدّقناك، وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولاً كريماً، كما تقول.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بهذا بعثتُ، إنّما جئتكم من عند الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلتُ به إليكم، فإنْ تقبلوه فهو حظُّكُمْ في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبرُ لأمرِ الله حتى يحكمَ الله بيني وبينكم».

قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، فسل ربَّك أنْ يبعثَ مَلَكاً يصدِّقُك بما تقولُ، ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعلَ لك جناتٍ وكنوزاً وقصوراً من ذهبٍ

---

(١) كانوا يسمون التابع من الجن الرئي.

وفضةٍ، ويغنيك بها عمّا نراك تبتغي، فإنك تقومُ بالأسواق، وتلتمسُ المعاشَ كما نلتمسُه، حتى نعرفَ فضلَ منزلتك من ربك إن كنتَ رسولاً كما تزعمُ.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا بفاعلٍ، ما أنا الذي يسألُ ربَّه هذا، وما بُعِثتُ إليكم بهذا، ولكنَّ الله بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبرُ لأمرِ الله، حتى يحكمَ الله بيني وبينكم».

قالوا: فأسقطِ السماءَ كما زعمتَ أنَّ ربك إن شاء فعلَ ذلك، فإنّا لنْ نؤمنَ لك إلا أن تفعل.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك».

فقالوا: يا محمد أما عَلِمَ ربُّكَ أنا سنجلسُ معك، ونسألكَ عمّا سألناك عنه، ونطلبُ منك ما نطلبُ؟ فيقدّم إليك ويعلمك ما تراجعنا به، ويخبرُك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل ما جئتنا به، فقد بلغنا أنّه يعلّمك هذا رجلٌ في اليمامة يقال له (الرحمن) وإنا لا نؤمنُ بالرحمن أبداً، فقد أُعذرنا إليك يا محمد، أما والله ما نتركك وما فعلتَ بنا حتى نهلك أو تهلكنا، وقال قائلهم: نحن نعبدُ الملائكة وهي بناتُ الله، وقال قائلهم: لن نؤمنَ لك حتى تأتيَ بالله والملائكةِ قبيلاً.

فلما قالوا ذلك قام رسولُ الله ﷺ، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، وهو ابنُ عمّتِه عاتكة ابنةِ عبد المطلب، فقال له: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تجعلَ لهم ما تخوّفهم به من العذاب، فوالله لا أؤمنُ بك أبداً، حتى تتخذَ إلى السماء سلّماً، ثم ترقى به، وأنا أنظرُ حتى تأتيها، وتأتي معك بصحيفةٍ منشورة، ومعك أربعةٌ من الملائكةِ يشهدون لك أنّك تقولُ كما تقول. وأيمُ الله لو فعلتَ ذلك لظننتُ أني لا أصدقك. ثم انصرف عن رسول الله ﷺ وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً أسفاً لما فاته مما كان طمعَ فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه[1].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٦٢؛ والبداية والنهاية: ٥/ ٥٠.

وأكّد سبحانه وتعالى حدوث ذلك بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ۝٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٌ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبًا نَّقۡرَؤُهُۥ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

سؤال المشركين اليهود عنه ﷺ:

لم يألُ المشركون جهداً في معارضة النبي ﷺ، حتى إنّهم استعانوا بيهود المدينة المنورة، وأرسلوا إليهم يسألونهم عنه ﷺ، أرسلوا عُقبة بن أبي مُعيط، والنضر بن الحارث وقالوا لهما: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهلُ الكتاب الأول، وعندهم علمٌ ليس عندنا من علم الأنبياء.

فقال لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاثٍ نأمركم بهنَّ - فإنْ أخبركم بهنَّ فهو نبيٌّ مرسل، وإلاّ فرجلٌ متقوِّل، فتروا فيه رأيكم: سلوه عن فتيةٍ ذهبوا في الدهر الأول ما كانَ من أمرهم؟. وسلوه عن رجلٍ طوّافٍ بلغَ مشارقَ الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟. وسلوه عن الروح وما هو؟. فإن أخبركم بذلك فهو نبيٌّ فاتبعوه، وإن لم يخبركم، فإنه رجلٌ متقوّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فلمّا سألوه قال لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم غداً عمّا سألتم عنه» ولم يستثنِ - أي لم يقل: إن شاء الله، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمسَ عشرةَ ليلةً لا يُحْدِثُ الله له في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريلُ عليه السلام، حتى أرجفَ أهلُ مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها، لا يخبرُنا بشيءٍ عمّا سألناه عنه، وحتى أحزنَ رسول الله ﷺ مكثُ الوحي عنه، وشقّ عليه ما يتكلّم به أهل مكة.

ثم جاءه جبريل عليه السلام من الله عزّ وجلّ بسورة أهل الكهف، وفيها خبر ما سألوه عنه من خبر الفتية والرجل الطوّاف، وقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وبين له سبحانه سببَ تأخر الوحي عنه بقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤].

حرص المشركين على أذى النبي ﷺ ولو بأبصارهم:

كانت عداوة المشركين للنبي ﷺ شديدةً، وكانوا حريصين على أن يؤذوا النبي ﷺ بأيِّ وسيلةٍ، ولو بالنظر إليه شزراً بأبصارهم، قال تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [القلم: ٥١ ـ ٥٢]. أي إنهم لشدة عداوتهم ينظرون إليك شزراً بحيث يكادون أن يزيلوك عن مكانتك، أو يهلكوك، من قولهم: نظر إلي نظراً يكاد يصرعني، أو يكادون يصيبونك بالعين لولا وقايتُه تعالى لك، وحمايتُه إياك منهم.

ففي الآية دليل على أنَّ إصابةَ العين وتأثيرَها حقٌّ بمشيئته تعالى وقدره، ففي الحديث الشريف عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «العين حق، ولو كان شيءٌ سابقَ القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا»(١).

وقوله «وإذا استغسلتم فاغسلوا» يوضحه ما أخرجه أبو داود في مداواة الإصابة بالعين من رواية الأسود عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يأمرُ العائنَ أن يتوضأ، ثم يغتسل منه المعين.

كما أنَّ النبي ﷺ كان يأمرُ بالاسترقاءِ من العين، ففي الحديث عن أمِّ سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ رأى في بيتها جارية في وجهها سفعة ـ سوادٌ مع حمرة ـ فقال: «استرقوا لها فإنَّ بها النظرة»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ كان يأمرُها أنْ تسترقيَ من العين(٣).

---

(١) صحيح مسلم في السلام، رقم ٢١٨٨.
(٢) صحيح البخاري في الطب، رقم ٥٧٣٩.
(٣) صحيح مسلم في السلام، رقم ٢١٩٥.

وقوله: ﴿لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾، أي: وقت سماع المشركين القرآن الكريم، وهذا يدل على اشتداد بغضهم للنبي ﷺ وحسدهم له عند سماع تلاوته القرآن الكريم.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: وينسبون النبي ﷺ إلى الجنون.

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: وما محمد ﷺ إلا شرف للعالمين، فكيف ينسب إلى الجنون، أو وما القرآن إلا ذكر عام للعالمين لا يدركه ولا يتعاطاه إلا من كان أكمل الناس عقلاً، وأرجحهم رأياً، فكيف ينسَبُ إلى الجنون؟![١].

* * *

(١) من موضوعات سور القرآن الكريم.

الفصل السادس

الهجرة إلى الحبشة

الهجرة الأولى إلى الحبشة:

نصح النبيُّ ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم من أذى المشركين، فهاجروا الهجرة الأولى بعد خمس سنين من البعثة الشريفة في شهر رجب.

قال ابن حجر: كان وقوعُ ذلك مرتين، فذكر أهل السير أنَّ الأولى كانت في شهر رجب من سنة خمس من المبعث، وأنَّ أوّلَ من هاجر منهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، وقيل: امرأتان، وقيل كانوا اثني عشر رجلاً، وقيل: عشرة. وأنهم خرجوا مشاةً إلى البحر فاستأجروا سفينةً بنصف دينار.

وذكر ابن إسحاق أنَّ السبب في ذلك أنَّ النبي ﷺ قال لأصحابه لما رأى المشركين يؤذونهم، ولا يستطيعُ أن يكفَّهم عنهم: «إنَّ بالحبشة مَلِكاً لا يُظْلَمُ عندَه أحدٌ، فلو خرجتم إليه حتى يجعلَ الله لكم فرجاً»

فكان أول من خرج منهم عثمان بن عفان رضي الله عنه وزوجتُه رقية بنت رسول الله ﷺ.

وأخرج يعقوب بن سفيان بسندٍ موصول إلى أنس رضي الله عنه قال: أبطأ على رسول الله ﷺ خبرُهما، فقدمت امرأة فقالت له: لقد رأيتُهما وقد حمل عثمان امرأته على حمارٍ، فقال ﷺ: «صَحِبَهُما الله، إنَّ عثمانَ لأولُ مَنْ هاجر بأهله بعدَ لوطٍ».

قلت: ـ أي ابن حجر ـ وبهذا تظهرُ النكتةُ في تصدير البخاري البابِ بحديث عثمان.

وقد سردَ ابن إسحاق أسماءهم، فأما الرجال فهم عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وأبو حذيفة بن عتبة، ومصعب بن

عمير، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة، وسهيل العامري. قال: فهؤلاء العشرة أولُ من خرج من المسلمين إلى الحبشة.

قال ابن هشام: وبلغني أنّه كان عليهم عثمان بن عفان.

وأما النسوة فهنَّ رقية بنت النبي ﷺ، وسهلة بنت سهل امرأةُ أبي حُذيفة، وأمُّ سلمة بنت أبي أمية امرأة أبي سلمة، وليلى بنت أبي حثمة امرأة عامر بن ربيعة... واختلف في الحادي عشر أو العاشر هل هو أبو سبرة أو حاطب.

وأما ابن مسعود فجزم ابنُ إسحاق بأنه كان في الهجرة الثانية، ويؤيده ما روى أحمدُ بإسنادٍ حسن عن ابن مسعود قال: بعثنا النبي ﷺ إلى النجاشيِّ ونحن نحواً من ثمانين رجلاً، فيهم عبد الله بن مسعود، وجعفر بن أبي طالب، وعبدالله ابن عرفطة، وعثمان بن مظعون، وأبو موسى الأشعري. فذكر الحديث(١).

والحديث الذي صدّرَ به البخاري بابَ الهجرة إلى الحبشة ذكره البخاري بسنده إلى عروة بن الزبير أنَّ عبيد الله بن الخيار أخبره أن المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث قالا له: مايمنعك أن تكلم خالك عثمان في أخيه الوليد بن عقبة، وكان أكثرَ الناس فيما يفعل به. قال عبيد الله: فانتصبتُ لعثمان حين خرجَ إلى الصلاة فقلت له: إنَّ لي إليك حاجةً وهي نصيحة. فقال: أيها المرءُ أعوذ بالله منك. فانصرفتُ، فلما قضيتُ الصلاةَ جلستُ إلى المسور وإلى ابن عبد يغوث فحدثتُهما بما قلتُ لعثمان، فقالا: قد قضيتَ الذي قد كان عليك.

فبينما أنا جالس معهما إذ جاءني رسولُ عثمان، فقالا لي: قد ابتلاك الله. فانطلقتُ حتى دخلتُ عليه فقال: ما نصيحتك التي ذكرت آنفاً. قال: فتشهدتُ، ثم قلت: إنَّ الله بعث محمداً ﷺ وأنزلَ عليه الكتاب، وكنتَ ممّن استجابَ لله ورسولِه ﷺ، وآمنتَ به، وهاجرتَ الهجرتين الأُوليين، وصحبت رسول الله ﷺ، ورأيتَ هديَه. وقد أكثر الناس في شأن الوليد بن عقبة، فحقٌّ عليك أن تقيمَ عليه الحَدَّ.

---

(١) فتح الباري: ٧/ ١٨٩.

فقال لي : يا ابن أخي! أدركتَ رسول الله ﷺ؟ .

قال: قلت: لا ، ولكن خلصَ إلي مِنْ علمِه ما خلص إلى العذراء في سترها .

قال : فتشهَّدَ عثمانُ فقال : إنَّ الله قد بعث محمداً ﷺ بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، وكنتُ ممن استجابَ لله ورسولِه ، وآمنتُ بما بُعِثَ به محمد ﷺ ، وهاجرتُ الهجرتين الأُوليين كما قلتَ ، وصحبتُ رسول الله ﷺ وبايعتُه ، فوالله ما عصيتُه ولا غششتُه ، ثم استُخْلِفَ أبو بكر ، فواللهِ ما عصيتُه ولا غششتُه ، ثم استخلف عمر ، فوالله ما عصيتُه ولا غششتُه ، ثم استخلفت ، أفليس لي عليكم مثل الذي كان لهم عليَّ؟ .

قال : قلت : بلى .

قال : فما هذه الأحاديثُ التي تبلغني عنكم؟ فأما ما ذكرت من شأن الوليد ابن عقبة فسنأخذُ به إن شاء الله بالحقِّ . قال : فجلدَ الوليدَ أربعين جلدةً ، وأمر علياً أن يجلده ، وكان هو يجلده[1] .

سبب عودة المهاجرين من الحبشة:

لما أُنزلت على النبي ﷺ سورة النجم ، وتلاها عليهم ، يبدو أنَّ المشركين أُخذوا بجلال التنزيل ، وقوة الإنكار ، فمرت بهم فترة خشوع وخضوع فسجدوا لله عندما أُمروا بذلك في آخرها ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سجد النبيُّ ﷺ بالنجم ، فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس .

وعن **عبد الله** رضي الله عنه قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة هي (والنجم) فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيتُه أخذ كفاً من تراب ، فسجد عليه ، فرأيتُه بعد ذلك قتل كافراً ، هو أمية بن خلف[2] .

ووصل خبر هذا السجود إلى المهاجرين في الحبشة فظنوا أنَّ المشركين من

---

(١) صحيح البخاري في المناقب ، رقم ٣٧٨٢ .
(٢) صحيح البخاري في التفسير ، رقم ٤٣٦٣ .

قريش قد أسلموا، فرجع أكثرُهم إلى مكة المكرمة، وكان فيهم عثمان بن مظعون رضي الله عنه أحدُ السابقين إلى الإسلام، فلما دنوا منها تبيَّنَ لهم أن ما بلغهم من إسلام أهل مكة كان باطلاً، فلم يدخل منهم أحدٌ إلا بجوار أو مستخفياً، فدخل عثمان بجوار الوليد بن المغيرة، ولما رأى رضي الله عنه ما في أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء، وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة، قال: والله إنَّ غدوي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهلُ ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني، لنقصٌ كبيرٌ في نفسي. فمشى إلى الوليد بن المغيرة، فقال له: يا أبا عبد شمس وفت ذمَّتُك، قد رددتُ إليـك جوارك.

فقال له: يا ابن أخي لعلّه آذاك أحدٌ من قومي؟.

قال: لا، ولكني أرضى بجوارِ الله، ولا أريد أن أستجير بغيره.

قال: فانطلقْ إلى المسجد فارددْ إليَّ جواري علانيةً كما أجرتُك علانيةً. فانطلقا، فخرجا حتى أتيا المسجد، فقال الوليد: هذا عثمانُ قد جاء يردُّ علي جواري.

قال: صدق وجدتُه وفيّاً كريمَ الجوار، ولكنِّي قد أحببتُ أن لا أستجيرَ بغير الله، فقد رددتُ عليه جوارَه.

ثم انصرف عثمان إلى مجلس من مجالسِ قريش فيهم الشاعر لبيد بن ربيعة ينشدُهم، فجلس معهم عثمان، فقال لبيد: وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائِلُ.

قال عثمان: كذبتَ، نعيمُ الجنّةِ لا يزولُ.

قال لبيد بن ربيعة: يا معشر قريش! والله ما كان يؤذى جليسُكم، فمتى حدث ذلك فيكم؟.

فقال رجل من القوم: إنَّ هذا سفيه من سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدنَّ في نفسِك من قوله.

ثم قام إلى عثمان فلطم عينه فخضّرها، والوليدُ بن المغيرة قريبٌ يرى ما قد بلغَ من عثمان. فقال: أما واللهِ يا ابن أخي كانت عينُك عمَّا أصابها لغنيةٌ، قال: لقد كنتَ في ذمّةٍ منيعةٍ.

فقال عثمان: بلى والله إنَّ عيني الصحيحة لفقيرةٌ إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوارِ مَنْ هو أعزُّ منك وأقدر(١).

والجديرُ بالذكر أنَّ عثمان بن مظعون رضي الله عنه هاجر بعد ذلك إلى المدينة المنورة، وتوفي فيها، ففي الحديث عن أم العلاء الأنصارية، وهي امرأة من نساء الأنصار بايعت رسولَ الله ﷺ، قالت: طار لنا عثمان بن مظعون في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين، فاشتكى، فمرَّضناه حتى توفي، ثم جعلناه في أثوابه، فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلتُ: رحمةُ الله عليك أبا السائبِ، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. قال: «وما يدريك؟». قلت: لا أدري والله. قال: «أما هو فقد جاءه اليقين، إنّي لأرجو له الخير من الله، والله ما أدري وأنا رسولُ الله، ما يفْعَلُ بي ولا بكم». وفي روايةٍ ثانيةٍ بلفظ: «ما يُفْعَل به ولا بكم». قالت أم العلاء: فوالله لا أزكي أحداً بعده.

قالت: ورأيت لعثمان في النوم عيناً تجري، فجئتُ رسول الله ﷺ فذكرتُ ذلك له، فقال: «ذاك عملُه يجري له»(٢).

الهجرة الثانية إلى الحبشة:

سرد ابن إسحاق أسماء أهل الهجرة الثانية وهم زيادةٌ على ثمانين رجلاً. وقال ابن جرير الطبري: كانوا اثنين وثمانين رجلاً سوى نسائهم وأبنائهم، وشكّ في عمار بن ياسر، هل كان فيهم، وبه تتكمل العدة ثلاثة وثمانين.

وقيل: إنَّ عدة نسائهم كانت ثماني عشرة امرأة، وكانت أمُّ سلمة وأمُّ حبيبة رضي الله تعالى عنهما في المهاجرين إلى الحبشة، فقد هاجرت أم سلمة في الهجرة الأولى إلى الحبشة مع زوجها أبي سلمة بن عبد الأسد كما تقدم بيانُه، وهاجرت أم حبيبة وهي بنت أبي سفيان في الهجرة الثانية مع زوجها عبيد الله بن جحش فمات هناك، ويقال: إنَّه قد تنصر، وتزوجَها النبيُّ ﷺ بعده.

وممن هاجر أيضاً إلى الحبشة الهجرة الثانية جعفر بن أبي طالب مع زوجته

(١) انظر سيرة ابن هشام: ٢/ ١٤.
(٢) صحيح البخاري في التعبير، رقم ٧٠١٨.

أسماء بنت عميس، ففي الحديث الشريف عن أبي موسى الأشعري قال: بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحنُ باليمن، فخرجنا مهاجرينَ إليه، أنا وأخوان لي، أنا أصغرُهما، أحدهما أبو بردة والآخر أبو رهم، إما قال: بضعاً وإما قال ثلاثة وخمسين، أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، قال: فركبنا سفينة، فألقتنا سفينتا إلى النجاشيِّ في الحبشة. فوافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده. فقال جعفر: إنَّ رسول الله ﷺ بعثنا ها هنا، وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا. فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً، فوافقنا رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر، فأسهم لنا، أو قال: فأعطانا منها، وما قسم لأحدٍ غاب عن فتح خيبر منها شيئاً إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه، قسم لهم معهم.

قال: فكان ناسٌ من الناس يقولون لنا ـ يعني لأهل السفينة ـ نحن سبقناكم بالهجرة. قال: فدخلت أسماء بنت عميس ـ وهي ممَّنْ قدمَ معنا ـ على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشيِّ فيمن هاجر إليه، فدخل عمر على حفصة، وأسماء عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس. قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟. فقالت أسماء: نعم. فقال عمر: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم.

فغضبت وقلت كلمة: كذبت يا عمر، كلا والله، كنتم مع رسول الله ﷺ يطعِمُ جائعَكم، ويعظُ جاهِلَكم، وكنا في دار، أو في أرض البعداء البغضاء في الحبشة. فذلك في الله وفي رسوله، وأيم الله! لا أطعمُ طعاماً ولا أشربُ شراباً حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك لرسول الله ﷺ، ووالله لا أكذبُ ولا أزيغُ، ولا أزيدُ على ذلك.

قال: فلمّا جاء النبي ﷺ قالت: يا نبي الله! إنَّ عمر قال كذا وكذا. فقال رسول الله ﷺ: «ليس بأحقَّ بي منكم، وله ولأصحابه هجرةٌ واحدة، ولكم أنتم أهلَ السفينة هجرتان».

قالت: فلقد رأيتُ أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوني أرسالاً ـ أفواجاً ـ يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيءٌ هم به أفرحُ ولا أعظمُ مما قال لهم رسول الله ﷺ.

قال أبو بردة: فقالت أسماء: فلقد رأيت أبا موسى، وإنّه ليستعيدُ هذا الحديث مني[1].

والجدير بالذكر أنَّ النجاشيَّ ملك الحبشة أسلَم بدعوة المهاجرين من أصحاب النبيِّ ﷺ، ولما توفي نعاه ﷺ، وصلّى عليه صلاة الغائب، ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ نعى النجاشيَّ في اليوم الذي مات فيه، خرج إلى المصلى فصفَّ بهم، وكبر أربعاً[2].

محاولة قريش ردَّ المهاجرين إليها وفشلها في مسعاها:

أزعج قريشاً رحيلُ المسلمين إلى الحبشة، فقرّروا أن يرسلوا إلى النجاشي وفداً يطلب منه ردَّ المسلمين إلى بلدهم.

وكانت أم سلمة رضي الله عنها مع المهاجرين، تحدَّثت عن ذلك فقالت: لما نزلنا أرضَ الحبشة جاورنا بها خيرَ جارٍ النجاشيَّ، أمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم، وأن يهدوا له هدايا مما يُستظرف من متاع مكة.

فخرجا حتى قدما على النجاشي، ونحن عنده بخيرِ دارٍ عند خيرِ جارٍ، فلم يبق من بطارقته بطريقٌ إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلِّما النجاشي، ثم إنهما قدَّما للنجاشي هداياهما، فقبلها منهما، ثم كلَّماه فقالا له: أيها الملك! إنّه قد ضوى إلى بلدك غلمانٌ سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدينٍ ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنتَ، وقد بعثنا إليك فيهم أشرافُ قومهم لتردهم إليهم، فهم أعلم بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

قالت: فقالت بطارقته حوله: صدقا أيها الملك! قومُهم أعلم بهم عيناً. فأسلمهم إليهما، فليردوهم إلى بلدهم وقومهم.

---

(١) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٥٠٢ ـ ٢٥٠٣.

(٢) صحيح البخاري في الجنائز، رقم ١٢٤٥.

فغضب النجاشي وقال: لا هاالله، إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يُكادُ قومٌ جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم، وأسألهم عما يقول هذان في أمرهم.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسولُه اجتمعوا، وقال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا محمد ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن.

فلما جاؤوا، وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم، سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه دين قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحدٍ من هذه الملل؟.

فكلمة جعفر بن أبي طالب فقال له: أيها الملك! كنا قوماً أهلَ جاهلية، نعبدُ الأصنام، ونأكلُ الميتةَ، ونأتي الفواحشَ، ونقطعُ الأرحامَ، ونسيءُ الجوارَ، ويأكل القويُّ الضعيفَ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرفُ نسبَهُ وصِدْقَه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّدَه ونعبدَه، ونخلع ما كنا نعبدُ من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة.. (فعدد عليه أمورَ الإسلام) فصدقناه وآمنا به، فعدا علينا قومُنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، فلما قهرونا، وظلمونا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك عمّن سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلَمَ عندك.

فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قال: نعم، فقرأ عليه صدراً من سورة مريم، فبكى والله النجاشيُّ حتى اخضلّت لحيتُه، وبكت أساقفتُه حتى أخضلوا مصاحفهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرجُ من مشكاةٍ واحدةٍ، انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون[1].

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام باختصار، وأخرجه أحمد في (المسند) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

الفصل السابع

إسلام عمر رضي الله عنه وحصار الظالم
وعام الحزن والهجرة إلى الطائف

إسلام عمر رضي الله عنه:

كـان عمر بن الخطاب رضي الله عنه شـديداً على المسـلمين، يؤذيهم، ويعذّبهم، ففي الحديث عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وهو ابنُ عمٍّ عمر ابن الخطاب، وزوج أخته، وكان من السابقين إلى الإسلام، قال: والله لقد رأيتُني وإنَّ عمر لموثقي على الإسلام قبل أن يسلمَ عمر، ولو أنَّ أحداً أرفضَ للذي صنعتم بعثمان لكان محقوقاً أن يرفض(1).

وقوله: «وإن عمر لموثقي على الإسلام» أي ربطه بسبب إسلامه إهانةً له، وإلزامـاً للرجوع عن الإسلام، وكأنّ السبب في ذلك أنّه كان زوجَ فاطمـة بنت الخطاب أخت عمر رضي الله عنهما، ولهذا ذكر في آخر باب إسلام عمر في رواية ثانية: رأيتُني موثَقي عمرُ على الإسلام أنا وأخته.

وكان إسلام عمر متأخّراً عن إسلام أخته وزوجها، لأنَّ أول الباعث له على دخوله إلى الإسلام ما سمعه في بيتها من القرآن في قصة طويلة، ذكرها الدارقطنيّ وغيره(2).

ويبدو أنَّ سعيد بن زيد رضي الله عنه قال ذلك بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنـه، ولهذا قال منكِراً لما فعلوه بعثمان «ولو أنَّ أحـداً أرفضَ للذي صنعتم بعثمان لكان محقوقاً أن يرفضَ» أي زال من مكانه.

---

(1) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٨٦٢.

(2) انظر فتح الباري: ٧/ ١٧٦.

وأحدثَ إسلامُ عمرَ رضي الله تعالى عنه تغييراً في المسلمين، عبَّرَ عنه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فقد جاء في الحديث أنّه قال: مازلنا أعزّة منذ أسلم عمر[1].

وتعرَّضَ عمر رضي الله عنه عندما أسلم للأذى من مشركي قريش مع ما كان عليه من المهابة والشجاعة، فعن **عبد الله بن عمر** قال: بينما هو في الدار خائفاً، إذا جاءه العاص بن وائل السهمي أبو عمرو، عليه حلة حِبَرَةٌ، وقميص مكفوف بحرير، وهو من بني سهم، وهم حلفاؤنا في الجاهلية، فقال: مابالك؟ قال عمر: زعم قومك أنهم سيقتلونني أن أسلمتُ. قال: لاسبيلَ إليك. بعد أن قالها أمنت. فخرج العاص، فلقي الناسَ قد سالَ بهم الوادي، فقال: أين تذهبون؟ فقالوا: نريد هذا ابن الخطاب الذي صبأ. قال: لاسبيل إليه. فكرّ الناس.

وفي رواية عن **عبد الله بن عمر** رضي الله عنهما: لما أسلم عمر اجتمع الناس عند داره وقالوا: قد صبأ عمر، وأنا غلامٌ فوق ظهر بيتي، فجاء رجلٌ عليه قباء من ديباج، فقال: قد صبأ عمر فماذاك؟ فأنا له جار. قال: فرأيتُ الناس تصدّعوا عنه. فقلتُ من هذا؟ قالوا: العاص بن وائل[2].

والقصة التي أشار إليها ابن حجر رواها الدارقطنيُّ وهي: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خرج عمر متقلّداً السيفَ، فقيل له: إنَّ ختنَكَ وأختَكَ قد صبوا، فأتاهما عمر وعندهما رجلٌ من المهاجرين يقال له خبّاب، وكانوا يقرؤون طه، فقال: أعطوني الكتاب الذي عندكم أقرأه، وكان عمر يقرأُ الكتاب.

فقالت له أخته: إنَّكَ رِجْسٌ، ولا يمسّه إلا المطهرون، فقم فاغتسل أو توضّأ، فقام عمر فتوضّأ، ثم أخذَ الكتابَ فقرأ طه[3].

وأظهر إسلامُ عمر رضي الله عنه أنّه أحبُّ الرجلين إلى الله تعالى، فقد

---

(١) صحيح البخاري في الفضائل، رقم ٣٨٦٣.
(٢) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٨٦٤ ـ ٣٨٦٥.
(٣) وأخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده مطولاً، قال المؤلف: تفرَّدَ به القاسم بن عثمان وليس بالقوي، وقال البخاريُّ: له أحاديث لا يتابع عليها. كما في التعليق المغني على سنن الدارقطني: ١/ ١٢٣.

أخرج الترمذيُّ في (سننه) أنَّه ﷺ دعا الله تعالى قائلاً: «اللهمَّ أعزَّ الإسلامَ بأحبِّ العمرين إليك، عمر بن الخطاب أو أبي جهل بن هشام».

الحصار الظالم والصحيفة الجائرة:

ولما رأى المشركون أنَّ الصحابة رضي الله عنهم نزلوا أرض الحبشة، وأصابوا فيها أماناً، وأنَّ عمرَ أسلمَ، اتفقوا على مقاطعة النبيِّ ﷺ والمسلمين، وكتبوا صحيفةً في ذلك.

قال ابن حجر رحمه الله: كان ذلك أول يومٍ من المحرم سنة سبع من البعثة.

قال ابن إسحاق وموسى بن عقبة وغيرهما من أصحاب المغازي: لما رأت قريش أنَّ الصحابة قد نزلوا أرضاً أصابوا بها أماناً، وأنَّ عمر أسلم، وأنَّ الإسلام فشا في القبائل، أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله ﷺ، فبلغَ ذلك أبا طالب فجمعَ بني هاشم وبني المطلب، فأدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم، ومنعوه ممن أرادَ قتله، فأجابوه إلى ذلك، حتى كفارهم فعلوا ذلك حميةً على عادة الجاهلية.

فلما رأت قريشٌ ذلك، أجمعوا أن يكتبوا بينهم وبين بني هاشم والمطلب كتاباً أن لا يعاملوهم ولا يناكحوهم حتى يسلموا إليهم رسولَ الله ﷺ، ففعلوا ذلك، وعلَّقوا الصحيفةَ في جوف الكعبة، وكان كاتبُها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد الدار بن قصي، فشُلَّت أصابعُه، ويقال: إنَّ الذي كتبها النضر بن الحارث، وقيل: طلحة بن أبي طلحة العبدري.

قال ابن إسحاق: فانحازت بنوهاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، فكانوا معه كلهم إلا أبا لهب، فكان مع قريش.

وقيل: كان ابتداء حصارهم في المحرم سنة سبع من البعثة، قال ابن إسحاق: فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً، وجزم موسى بن عقبة بأنها كانت ثلاث سنين، حتى جهدوا، ولم يكن يأتيهم شيءٌ من الأقوات إلا خفية، حتى كانوا يؤذون من اطلّعوا على أنه أرسلَ إليهم شيئاً من الصلات، إلى أن قام في نقض الصحيفة نفرٌ، من أشدِّهم في ذلك صنيعاً هشام بن عمرو بن الحارث العامري، وكانت أمُّ أبيه تحت هاشم بن عبد مناف قبل أن يتزوجها جدُّه، فكان

يصلهم وهم في الشعب، ثم مشى إلى زهير بن أبي أمية، وكانت أمُّه عاتكة بنت عبد المطلب، فكلَّمه في ذلك فوافقه، ومشيا جميعاً إلى المطعم بن عدي، وإلى زمعة بن الأسود، فاجتمعوا على ذلك، فلما جلسوا بالحِجْر تكلموا في ذلك، وأنكروه، وتواطؤوا عليه. فقال أبو جهل: هذا أمرٌ قُضيَ بليل، وفي آخر الأمر أخرجوا الصحيفة فمزقوها، وأبطلوا حكمها.

وذكر ابن هشام أنهم وجدوا الأرَضةَ قد أكلت جميعَ ما فيها إلا اسم الله تعالى، وأما ابن إسحاق وموسى بن عقبة وعروة فذكروا عكسَ ذلك أنَّ الأرضة لم تدع اسماً لله تعالى إلا أكلته، وبقي ما فيها من الظلم والقطيعة، والله أعلم.

وذكر الواقديُّ أنَّ خروجهم من الشعب كان في سنة عشر من المبعث، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين.

عام الحزن:

ومات أبو طالب وخديجة رضي الله عنها بعد أن خرجوا من الشِّعب بقليل.

وقال ابن إسحاق: ومات هو وخديجة في عام واحد، فنالت قريش من رسول الله ﷺ ما لم تكن تنله في حياة أبي طالب.

الهجرة إلى الطائف:

خرج النبيُّ ﷺ إلى الطائف يدعو أهلها إلى الإسلام، فردوا عليه رداً قبيحاً، وأغروا به سفهاءهم وغلمانهم، يرمونه ﷺ بكلِّ ما تصل إليه أيديهم.

ففي الحديث عن **عائشة** زوج النبي ﷺ أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أُحد؟ فقال: «لقد لقيتُ من قومك، وكان أشدُّ ما لقيتُ منهم يومَ العقبة، إذ عرضتُ على ابن عبد ياليل بن عبد كلال (وهو من زعماء ثقيف في الطائف) فلم يجبني إلى ما أردتُ، فانطلقتُ، وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب[1] فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني. فنظرتُ فإذا فيها جبريل. فناداني فقال: إنَّ الله عزَّ وجلّ قد سمع قول

---

(١) هو قرن المنازل، وهو ميقات أهل نجد، على طريق الطائف، على مرحلتين من مكة.

قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال، لتأمرَه بما شئتَ فيهم.

قال: فناداني ملك الجبال، وسلَّم علي، ثم قال: يا محمد إنَّ الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربُّك إليك، لتأمرني بأمرك فما شئت؟ إن شئت أن أطبقَ عليهم الأخشبين»[1].

فقال له رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يخرِجَ الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»[2].

ولما أراد النبيُّ ﷺ الرجوع إلى مكة المكرمة منعتْه قريش من دخول مكة، فاضطر إلى البقاء بنخلة على الطريق بين الطائف ومكة، ومرَّ معنا أنه لما كان يصلي فيها في الليل صرف الله إليه نفراً من الجن، فاستمعوا قراءته.

وظلَّ في نخلةٍ حتى قام أحدُ رؤوس المشركين ـ وهو المطعم بن عدي ـ فأدخل النبيَّ ﷺ في جواره، وحفظ النبيُّ ﷺ للمطعم بن عدي هذه اليد، وأراد أن يكافئه عليها، ولكنَّه مات كافراً، ففي الحديث الشريف عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أنَّ النبيَّ ﷺ قال في أسارى بدر: «لو كان المطعم بن عدي حيّاً، ثم كلّمني في هؤلاء النتنى لتركتُهم له»[3].

والمطعم هو والد جبير المذكور، والمراد بالنتنى: جمع نتن، وهو بالنون والمثناة، أسارى بدر من المشركين.

وقوله: «لتركتهم له» أي بغير فداء، وبين ابن شاهين من وجهٍ آخرَ السببَ في ذلك بأنَّ المرادَ باليدِ المذكورة ما وقعَ منه حين رجع النبيُّ ﷺ من الطائف، ودخل في جوار المطعم بن عدي[4].

* * *

---

(١) هما جبلا مكة أبو قبيس والجبل الذي يقابله.

(٢) صحيح مسلم في الجهاد والسير، رقم ١٧٩٥.

(٣) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٠٢٤.

(٤) فتح الباري: ٧/ ٣٢٤.

الفصل الثامن

حرص النبي ﷺ على هداية المشركين

ومواساته عن إعراضهم

حرص النبيّ ﷺ على هداية المشركين:

كان النبيُّ ﷺ شديدَ الحرص على هداية المشركين، وكلّما أعرضوا عن دعوته، وأمعنوا في إيذائه، اشتدّ حزنُه، وزادت شفقته عليهم، وكأنّه ﷺ كان يعاني من إعراضهم عن دعوته أكثر مما يعاني من أذاهم حتى خاطبه ربُّه بأسلوب المعاتب، فقال: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦].

وقال أيضاً مخاطباً له بأسلوب الناهي: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر: ٨].

وبيّن له سبحانه الحد الذي ينبغي أن يقف عنده في دعوتهم فقال: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩].

وقال له أيضاً: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٢].

فالهداية منوطةٌ بمشيته تعالى لا بمشيئة النبيِّ ﷺ، فعليه تبليغهم لا هدايتهم ولهذا قال له سبحانه: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [النحل: ٣٧]. ومرَّ معنا قوله تعالى عندما حزن النبيُّ ﷺ على موت أبي طالب كافراً: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦].

كثرة مواساته دليل على علو منزلته ﷺ:

ويـلاحِظُ كلُّ من يتلـو القرآن كثرةَ الآيات القرآنيـة التي أنـزلها الله تعالى لمواساة النبيِّ ﷺ، وهي تدلُّ على شِدَّةِ ما لقيَ ﷺ من الأذى، وتدلُّ أيضاً على علوِّ منزلته عند ربه حتى قال له سبحانه مواسياً ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، أي إنهم في الحقيقة لا يكذّبونك، إذ كنتَ ولا تزالُ فيهم الصادقَ الأمين، فما أصابك منهم إلا من أجلنا وبسببنا.

فما أعظم مكانته ﷺ عند ربه جلَّ جلاله! فقد جعل سبحانه ما فعله المشركون به من التكذيب راجعاً إليه تعالى.

فبلغ عليه الصلاة والسلام في هذه الغاية في جلالة القدر، ورفعة المحل، والزلفى من الله عزَّ وجلّ إلى حيث لا غاية وراءه، حيث لم يقتصر على جعل تكذيبه عليه الصلاة والسلام تكذيباً لآياته سبحانه على طريقة قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، بل نفى تكذيبهم له ﷺ، وأثبته لآياته تعالى على طريقة قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، فكأنه سبحانه وتعالى يقول له: فهم في الحقيقة لا يكذبوك أنت، ولكنهم يكذّبون بآيات الله تعالى، ولهذا قال له سبحانه بعدها مواسياً أيضاً: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وهذه أيضاً ـ كما قال ابن كثير في تفسيره ـ تسليةٌ للنبيِّ ﷺ، وتعزيةٌ له فيمن كذّبه من قومه، وأمرٌ له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعد له بالنصر كما نصروا، وبالظفر، حتى كانت لهم العاقبةُ بعدما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ.

ولقد رفعه الله تبارك وتعالى إلى أعلى منزلة، وهو يصبّره ويواسيه، فقال له: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨]، أي: واصبر لحكم ربك بإمهالهم إلى اليوم الموعود والأجل المسمى، فإنك في حفظنا وحراستنا.

وفـائدةُ الجمع الدلالـةُ على المبالغـة في الحفظ، كأن معه من الله تعالى حُفّاظاً يكلؤونه بأعينهم، **وهي من آيات الصفات، التي نؤمنُ بها كما جاءت، مفوّضين معناها إلى الله تعالى.**

والجدير بالذكر أنه تعالى قال لنبيه موسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طـه: ٣٩]، ومن نظر بعين بصيرته علمَ من الآيتين الفرقَ بين الحبيب والكليم عليهما أفضل الصلاة وأكمل التسليم.

ويا له من تقدير وتكريم، إنّها مرتبةٌ عاليةٌ عزيزة، خَصَّ الله بها نبينـا ﷺ، ورفعه إليها، والله يؤتي الفضل من يشاء، فيها إعزازٌ خاصٌّ، وأُنسٌ خاصٌّ، ومع هذا الإعزاز والأُنس والتكريم بيانُ الصلةِ الدائمة بالله جلَّ جلاله، ولهذا قال له سبحانه بعدها: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨ ـ ٤٩].

كما دلَّت كثرة الآيات التي أُنزلت لمواساته عليه الصلاة والسلام على رقة مشاعره، وما انطوى عليه قلبُه الشريف من رحمتِه وشفقتِه على خلق الله تعالى، ورغبتـه في هدايتهم. وإنقاذهم من عـذاب الله، رغم ما كان يلقى مـن أذاهم وعنادهم، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٨ ـ ٤٩].

وقال أيضاً: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف ٤٠ ـ ٤٣]

ويلاحظ أنَّ الآيات الكريمة لم تقتصر على مواساته ﷺ، وإنما استهدفت أيضاً تثبيتَه على طريق الدعوة في مواجهة المشركين، كقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠]، وقوله أيضاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]. وقوله أيضاً: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طـه: ١٣٠]، وقوله أيضاً: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقوله

أيضاً: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٣ ـ ٢٤] والآيات في هذا كثيرة.

ولقد قصَّ تعالى في القرآن الكريم على النبيِّ ﷺ ما قصَّ من أخبار الأنبياء السابقين تثبيتاً له أيضاً، فقال: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠].

وبعد أن قصَّ الله سبحانه قصةَ نوح مع قومه، قال له معقّباً: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩].

نفي الحرج عن قلبه وشرح صدره ﷺ:

كذلك أنزل الله القرآن الكريم على النبي ﷺ لنفي الحرج به عن قلبه الشريف، فقال: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٢]، وليسعد به ويشرفُ لا ليشقى، كما قال تعالى: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: ١ ـ ٣].

ومرَّ معنا أنَّه سبحانه شرح صدره بالوحي الذي أنزله عليه، كما رفع سبحانه وتعالى ذكره، فقال له: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح: ٤]، أي بالنبوة والقرآن وغيرهما، مثل قرن اسمه عليه الصلاة والسلام باسمه عزَّ وجلَّ في كلمتي الشهادة. فقد أشار حسانُ بن ثابت إلى عظيم قدره ﷺ بهذا فقال:

أغرُّ، عليهِ للنبوّةِ خاتمٌ ... من اللهِ مشهودٌ يلوحُ ويشهَدُ
وضَمَّ الإلهُ اسمَ النبيِّ إلى اسمهِ ... إذا قالَ في الخمسِ المؤذِّنُ أَشْهَدُ

وجعل سبحانه القرآن الكريم حجة النبيِّ ﷺ البالغة، ومعجزته الكبرى، كما سيأتي معنا، ولهذا أمره أن يجاهد أعداءه به، فقال له مخاطباً: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢].

ولقد أزال الله تعالى من طريق النبيِّ ﷺ ـ وهو يجاهدهم بالقرآن الكريم ـ

كلَّ العقبات والمعوقات التي وضعها الشيطانُ في طريقه، وأخبره سبحانه عن ذلك فقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج: ٥٢].

تكليفه ﷺ بالاستغفار والتسبيح:

وفي معرض تثبيته ﷺ كلَّفه سبحانه بالاستغفار، فأنزل عليه قولَه الكريم: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ [غافر: ٥٥].

وقوله: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ أي: لذنبك الذي تراه ذنباً، وكان ﷺ يرى نفسه مقصّراً في حق شكر ما أنعم الله عليه.

ولهذا كان ﷺ ـ كما مر معنا ـ يقوم في الليل حتى تتورّمَ قدماه، ويقول لمن يسأله عن سبب ذلك: «أفلا أكونُ عبداً شكوراً».

وتكليفُه ﷺ بالاستغفار تهييج للأمة أيضاً على التوبة والاستغفار اقتداءً به، فقد أخرجَ النسائي عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ جمعَ الناسَ، فقال: «أيها الناس! توبوا إلى الله، فإني أتوبُ إليه في اليوم مئة مرة».

وأخرجه البخاري بلفظ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «واللهِ إني لأستغفرُ الله وأتوبُ إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

ومن حديث الأغرّ المزني عند مسلم في (صحيحه) بلفظ: «إنّه ليُغان على قلبي، وإني لأستغفرُ اللهَ كلَّ يومٍ مئة مرة».

قال القاضي عياض رحمه الله: المرادُ بالغين فتورٌ عن الذكر الذي شأنه أن يداوِمَ عليه، فإذا فتر عنه لأمرٍ ما، عدَّ ذلك ذنباً فاستغفر عنه.

وقيل: هو السكينةُ التي تغشى قلبه، والاستغفار لإظهارِ العبودية لله والشكر لما أَوْلاه.

وقيل: هي حالةُ خشيةٍ وإعظامٍ، والاستغفار شكرُها، ومن ثَمَّ قال

المحاسبيُّ: خوفُ المقرّبين خوفُ إجلالٍ وإعظام[1].

وأمره سبحانه مع الاستغفار بكثرة التسبيح الملتبس بحمده تعالى فقال في ختام الآية: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥]، أي: وداوم على التسبيح متلبساً بحمده تعالى، وقيل: صلِّ لله تعالى في آخر النهار وأوله، وهي الصلاة التي شُرعت في أول الأمر قبل أن تُفرضَ الصلوات الخمس[2].

ومن المعلوم أنَّ الله تعالى أكرم النبيَّ ﷺ بمغفرة ما تقدَّم من ذنبه وما تأخّر، وأخبره بذلك، فقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١ ـ ٢].

وسيأتي معنا قول ابنِ كثير رحمه الله: هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيرُه، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو في جميع أموره على الطاعة والبرّ والاستقامة، التي لم ينلْهَا بشرٌ سِوَاه لا مِنَ الأولين ولا مِنَ الآخرين.

أمره بالتقوى والتوكل واتباع الوحي:

وأمره جلَّ جلاله أيضاً بالتقوى والتوكل واتباع الوحي، فقال له مخاطباً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ١ ـ ٣].

ولا شكَّ أنّه عليه الصلاة والسلام أتقى الناس، وأعظمهم توكلاً على الله تعالى، وأكثرُهم اتّباعاً لما أَنزلَ الله عليه، فما وَجْهُ أمرِه بالتقوى واتّباعِ الوحيِ والتوكل، والأمر بالشيء لا يكون إلا عند عدم الاشتغال به، فلا يقال للساكت: اسكت، ولا للجالس: اجلس؟!

أجاب أكثرُ علماء التفسير عن هذا بأن المراد بالتقوى والتوكل على الله

---

(١) فتح الباري: ١١/١٠١.
(٢) انظر تفسير سورة غافر للمؤلف.

واتّباع الوحي: الثبات عليها، والازدياد منها، لأنَّ لهذه المأمورات باباً واسعاً لا يُنال مداه.

ذكر الفخر الرازي هذا في (التفسير الكبير)، وزاد عليه معنى آخر لطيفاً فقال: الملك يُتقى من عباده على ثلاثة أوجه: **بعضهم يخاف من عقابه، وبعضهم يخاف من قطع ثوابه. وثالث يخاف من احتجابه.** والنبيُّ ﷺ لم يؤمر بالتقوى بالمعنى الأول ولا بالمعنى الثاني.

فالأمر بالتقوى يوجب استدامة الحضورِ مع الله سبحانه، والنبيُّ ﷺ في كل لحظة يزدادُ علمُه ومرتبتُه، حتى كان حالُه فيما مضى بالنسبة لما هو فيه تركاً للأفضل، فكان له في كلِّ ساعةٍ تقوى متجددة.

ويمكن أن نقولَ أيضاً: إنَّ المرادَ من أمر النبيِّ ﷺ باتّباع الوحي والتوكل أمر أمته عليه الصلاة والسلام، فالخطاب له، والمراد أمته.

ويؤكد ذلك قوله سبحانه في ختام الآية الثانية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ فصدر الآية خطابٌ للنبيِّ ﷺ، وآخرُها خطاب لأمته عليه الصلاة والسلام. وفي ذلك فوائد كثيرة، منها تشريف النبيِّ ﷺ، وتعريفُ الناس بأهمية التكليف، فإذا كان النبيُّ ﷺ مأموراً بالتقوى واتّباع الوحي والتوكل، فالأمر في حق غيره آكد وأعظم[1].

* * *

(١) انظر تفسير السورة للمؤلف.

الفصل التاسع

معجزات النبي ﷺ

المعجزة القرآنية:

أيّدَ اللهُ النبيَّ ﷺ بمعجزاتٍ كثيرة، وجعل القرآنَ الكريمَ أعظمَ المعجزاتِ التي أيّده الحقُّ بها، فهو معجزة كبرى، يغني عن غيرِه من المعجزات، ولهذا قال تعالى يردُّ على المشركين الذين كانوا يسترون عنادهم وجحودهم بطلب المزيد من المعجزات: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٠ ـ ٥١].

ولقد كانت المعجزة القرآنية من خصائصه ﷺ، إذ هي باقيةٌ بعدَه، تدلُّ الأجيال المتوالية على صحة نبوته، وصدق رسالته.

ولهذا قال ﷺ يتحدّث بالميزة الكبرى التي ميّزه الله سبحانه بها على سائر الأنبياء والمرسلين، ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «ما مِنْ الأنبياءِ نبيٌّ إلاّ أُعطيَ من الآياتِ ما مثلُه آمنَ عليه البشرُ، وإنَّما كان الذي أوتيتُه وحياً أوحاهُ الله إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهم تابعاً يوم القيامة»[1].

وقد تحقق هذه الرجاء لنبينا ﷺ، فهو أكثرُ الأنبياءِ تبعاً، وأمته أعظم الأمم كما سيأتي معنا.

والقرآن الكريم هو الكتاب المعجزُ الدالُّ على صدق النبيِّ ﷺ إذ من المعلوم أنَّ العجزَ ضدَّ القدرةِ، والإعجازُ يثبِتُ قدرةَ المعجِزِ، والمراد من الإعجاز في

---

(١) صحيح البخاري في فضائل القرآن، رقم ٤٩٨١.

القرآن الكريم إثباتُ عجزِ الخلقِ عن معارضتِه، وإظهار قدرةِ المعجزِ وهو الله سبحانه وتعالى، الذي أنـزل القرآن على النبـيِّ ﷺ، وبهذا تقـومُ الحجَّـةُ على المعارضين لدعوته عليه الصلاة والسلام، ويكون القرآن الكريم معجزةَ النبيِّ ﷺ الخالدة، التي تدلُّ على صحةِ نبوّته، وصدق رسالته.

وقد تحدَّى القرآن الكريم الإنس والجن تحدّياً أظهرَ عجزهم عن معارضته مجتمعين، فما بالك إذا كانوا متفرقين، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وليس صحيحاً قولُ من قال: إنَّ التحدي إنما وقع على الإنس دون الجن، لأنَّ الجن ليسوا من أهل اللسان العربي الذي جاء القرآن على أساليبه، وإنما ذكروا في آية التحدي تعظيماً لإعجاز القرآن، والمعنى: أنه لو فُرِضَ اجتماع الإنس والجنّ لعجزوا عن المعارضة.

ولعلَّ صاحب هذا القول قد نسي أنَّ في الجن من يتكلّم العربية، وينطقُ بها، ويعرف أساليبها كالإنس، والدليلُ على ذلك ما مرَّ معنا أنَّ فريقاً من الجن لما سمعوا القرآن الكريم أنصتوا له، وأُعجبوا به، وتأثروا عند سماعه، وقالوا: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ ـ ٢].

فالتحدي في القرآن الكريم موجَّهٌ للإنسِ والجن عموماً، وإذا أظهر التحدي عجزَ العرب عن معارضته، وهم أهل اللسان والفصاحة والبيان، وفيهم فرسانُ الفصاحة من شعراء وخطباء وحكماء، فغيرُهم من الأمم الأعجمية أعجز.

بعض وجوه الإعجاز في القرآن الكريم:

ووجوه الإعجاز القرآنيِّ ليست قاصرةً على إعجازه البياني في بلاغته وفصاحته، ونظمه البديع، وجرسه، وسلطانه على القلوب والنفوس، إنما للإعجاز القرآني وجوه كثيرة، هي دائماً في ازديادٍ واضطرادٍ مع توالي العصور وكرّ الدهور، ففي كل عصر ينكشفُ وجهٌ جديدٌ لإعجاز القرآن، ويظهر للناس

علمٌ جديد من أعلام صدق المعجزة القرآنية، وهذا يؤكِّدُ خلودَها وبقاءَها تتحدى الإنس والجن في كل عصر ومصر، كما قال تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧]، وقال أيضاً: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣].

ولقد **أصحبت الحقائق العلمية** التي أثبتها التقدّمُ العلميُّ في العصر الحاضر ـ والتي أشار إليها القرآن الكريم ـ **مَعْلَماً من معالم الإعجاز العلمي** في القرآن الكريم، ودليلاً شاهداً على أنه كلام الله تبارك وتعالى، تحقيقاً لقوله سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

والقرآن الكريم **معجزٌ أيضاً في معانيه** التي لا تنتهي، فلم يشبع منه العلماء حتى الآن، بل هو دائماً يانعٌ طيّب، لا يخلقُ على كثرة الردّ، ولا تُحَدُّ معانيه بحدٍّ.

وهو معجزٌ أيضاً **في إخباره عن المغيبات الماضية والمستقبلة**، وما أكثرها فيها.

وهو **معجزٌ في سموّ تشريعه وقوة حججه وبراهينه**.

وإنّه معجزٌ في تكامل موضوعاته وتناسقها، رغم كثرتها وكثرة فروعها، فلا ترى أيَّ تعارض بين آياته وسوره وموضوعاته ومعانيها، والله سبحانه وتعالى دعا الخلق أن يتدبّروا معانيَ القرآن الكريم ويتفحّصوها، ويتأمّلوا فيها، كأنّه سبحانه يتحدّاهم أن يجدوا فيها أدنى تعارض، أو يلمسوا في مبانيه وتراكيبه أيَّ انحطاطٍ عن مرتبته العالية في البلاغة والفصاحة فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقال أيضاً: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فهو كما وصفه الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وقوله أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢].

وإنه **لمعجزٌ أيضاً في نزوله على النبيِّ ﷺ منجّماً ومقسَّماً بحسب وقائع النزول وأسبابها ومناسباتها**، كما مرّ معنا، ثم في تآلف آياته وسوره بعد ذلك وانسجامها واحتباكها فيما بينها.

كما أنه **معجزٌ في تناسق وتلاؤم مبانيه وتراكيبه مع معانيه**، بحيث يُدْهِشُ قارئه، ويجذِبُ سامعَه، ويبهِرُ متدبّرَ آياته ومتفحّصَ كلماته.

رد القرآن الكريم ما اتُّهم به ﷺ:

ولقد ردّ الله تعالى في القرآن الكريم عن النبيِّ ﷺ كلَّ ما اتّهمه به المشركون من التهم الباطلة، فما كان ﷺ كاهناً، ولا شاعراً، ولا ساحراً، ولا مجنوناً، قال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الحاقة ٣٨ ـ ٤٣]

وقال أيضاً: ﴿ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [يس: ٦٩ ـ ٧٠].

وقال أيضاً: ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥ ـ ٧].

وقال أيضاً: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴾ [الحجر: ٦ ـ ٨].

ولقد حرَّمَ النبيُّ ﷺ إتيان الكهان، ففي الحديث عن معاوية بن الحكم السلمي أنه قال: قلتُ يارسول الله أموراً كنا نصنعها في الجاهلية، كنا نأتي الكهان. قال: «فلا تأتوا الكهان». قلت: كُنّا نتطيّر ـ أي نتشاءم ـ قال: «ذاك شيءٌ يجدُه أحدُكم في نفسِه، فلا يصدنّكم»(١).

---

(١) صحيح مسلم في كتاب السلام، رقم ٢٢٢٨.

وعن نافع عن صفية عن بعض أزواج النبيِّ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَنْ أتى عرَّافاً فسألهُ عن شيءٍ لم تُقْبَلْ له صلاةٌ أربعينَ ليلة»(١).

شهادة الله وملائكته في القرآن على صدقه ﷺ:

شهد الله جلَّ جلالـه على صدق النبيِّ ﷺ في عدد من الآيـات القرآنيـة الكريمة، منها قوله سبحانه: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

ومنها أيضاً: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

ومنها أيضاً: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣].

ومنها أيضاً: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٦].

ومنها أيضاً: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

ومنها أيضاً: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].

تنزهه ﷺ عن المنافع الدنيوية:

وشهد له القرآن الكريم أيضاً بتنزّهه عن المنافع الدنيوية، فدعوةُ النبيِّ ﷺ لله تعالى وحده، ومن الله تعالى، وإلى الله تعالى.

وتنزهه عن المنافع الدنيوية لم يكن لنفسه فقط، وإنما لأهل بيته رضي الله

(١) صحيح مسلم في كتاب السلام، رقم ٢٢٣٠.

عنهم أيضاً، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ: ٤٧].

وقال أيضاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٦ ـ ٥٧].

وقال أيضاً: ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣].

وقوله: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: لا أسألكم على هذا البلاغ مالاً، وإنما أطلب أن تذروني أبلّغُ رسالة ربي، فلا تؤذوني، لما بيني وبينكم من القرابة، أو لا أسألكم عليه أجراً قط، ولكن أسألكم أن تودُّوني بسبب قرابتي فيكم.

ويؤيّد هذا المعنى أنّ ابنَ عباس رضي الله عنه عندما سئل عن قوله: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد ﷺ. فقال ابن عباس: عجلتَ، إنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن بطنٌ من قريشٍ إلا كان له فيهم قرابةٌ، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة[1].

قال ابن حجر رحمه الله: **والمعنى أن تودّوني لقرابتي فتحفظوني، والخطاب لقريش خاصة، والقربى: قرابة العصوبة والرحم، فكأنّه قال: احفظوني بالقرابة إن لم تتبعوني.**

فسعيد بن جبير ومن وافقه كعلي بن الحسين والسدي وعمرو بن شعيب، فيما أخرجه الطبري عنهم، حملوا الآية على أمر المخاطبين بأن يوادوا أقاربَ النبيِّ ﷺ.

وابنُ عباس حملها على أن يوادُّوا النبيَّ ﷺ من أجل القرابة التي بينه وبينهم[2].

---

(١) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٨١٨.

(٢) فتح الباري: ٨/ ٥٦٤.

قال ابن كثير في تفسير الآية: والحق تفسيرُ هذه الآية بما فسّرها به حَبْرُ الأمة وترجمانُ القرآن عبدُ اللهِ بن عباس رضي الله عنهما، كما رواه عنه البخاريُّ، ولا ننكرُ الوصية بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذريةٍ طاهرةٍ، من أشرفِ بيتٍ وُجِدَ على وجه الأرض فخراً وحسباً ونسباً.

معجزات النبي ﷺ الحسية:

وليس القرآن الكريم هو وحده المعجزة التي أيد الله سبحانه بها النبيَّ ﷺ، فلقد أجرى الله سبحانه على يد النبيِّ ﷺ معجزاتٍ حسيةً كثيرةً أكثرَ مما أعطى غيرَه من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، ذكر بعضها الله سبحانه في القرآن الكريم.

وذكر النووي في مقدمة (شرح مسلم) أنَّ معجزات النبيِّ ﷺ تزيد على ألف ومئتين[1].

١ ـ معجزة انشقاق القمر:

منها **معجزة انشقاق القمر**، التي قال فيها سبحانه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]. ووقع انشقاقُ القمر في زمن رسول الله ﷺ، وَرَدَ ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة، قال ابن كثير رحمه الله: وهذا أمرٌ متفقٌ عليه بين العلماء أنّ انشقاق القمر قد وقع في زمن النبيّ ﷺ، وأنّه كان إحدى المعجزات الباهرات.

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه أنَّ أهل مكة سألوا النبيَّ ﷺ أن يريَهم آيةً، فأراهم انشقاقَ القمر شقين، حتى رأوا حراء بينهما.

وقد أثبتَ روّادُ الفضاء الذين نزلوا على القمر وجودَ صدعٍ في وسطِه يدلُّ على حدوث انشقاق القمر وانكسارٍ فيه في الماضي، أخبرَ عن ذلك العالم المصري المعروف (زغلول نجار) في حديث له في قناة عربية فضائية.

---

(١) جمعها بعضهم في كتاب مستقل تحت عنوان: (حقُّ اليقين في معجزات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ)، إعداد إبراهيم بن عايش الحمد، وذكر أنّها بلغت ألفَ معجزةٍ.

٢ ـ نبع الماء من بين أصابعه ﷺ:

وخَصَّصَ الإمام البخاري في (صحيحه) في كتاب المناقب باباً خاصّاً قال فيه: باب علامات النبوة في الإسلام. ذكر حديثَ **عمران بن حصين** ـ الذي مرّ معنا ـ بعضُه، وفيه قال: «فبينما نحن نسير، إذا نحنُ بامرأةٍ سادلةٍ رجلين بين مزادتين، فقلنا لها: أينَ الماء؟ فقالت: إنه لا ماء. فقلنا: كم بين أهلِكِ وبينَ الماء؟ قالت: يومٌ وليلة. فقلنا: انطلقي إلى رسول الله ﷺ. قالت: وما رسولُ الله؟ فلم نملكها حتى استقبلنا بها النبيّ ﷺ، فحدّثته بمثلِ الذي حدّثنا، غير أنها حدثته أنها مؤتمة، فأمرَ بمزادتيها فمسح في العزلاوين، فشربنا عطاشاً أربعون رجلاً حتى رُوينا، فملأنا كلَّ قربةٍ معنا وإداوةٍ غيرَ أنَّه لم نسقِ بعيراً، وهي تكادُ تنض من المل ـ أي من قلة الماء ـ ثم قال: «هاتوا ما عندكم» فجمع لها من الكسر والتمر حتى أتت أهلها، قالت: لقيتُ أسحرَ الناس أو هو نبيٌّ كما زعموا. فهدى الله ذلك الصرم ـ أي جزء من القبيلة ـ بتلك المرأة فأسلمت وأسلموا»[١].

وعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه أنه قال: «رأيتُ رسولَ الله ﷺ وحانت صلاةُ العصرِ، فالتمسَ الوضوءَ، فلم يجدوا، فأُتي رسولُ الله ﷺ بوضوء، فوضَعَ رسولُ الله ﷺ يدَه في ذلك الإناء، فأمر الناسَ أن يتوضؤوا منه، رأيتُ الماءَ ينبعُ من تحتِ أصابعِه، فتوضّأَ الناسُ حتى توضؤوا من عند آخرهم».

وفي رواية ثانية بلفظ: «أُتِيَ النبيُّ ﷺ بإناء، وهو بالزوراء ـ اسم موضع في المدينة ـ فوضع يده في الإناء، فجعل الماء ينبعُ من بين أصابعه، فتوضّأ القوم».

قال قتادة: قلت لأنس: كم كنتم؟ قال: ثلاثمئة، أو زهاء الثلاثمئة.

وعن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما قال: «عطش الناس يوم الحديبية، والنبيُّ ﷺ بين يديه ركوةٌ، فتوضّأ، فجهشَ الناسُ نحوه ـ أي أسرعوا ـ فقال: «مالكم»؟ قالوا: ليس عندنا ماءٌ نتوضّأُ ولا نشربُ إلا ما بينَ يديك. فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا. قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مئة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مئة[٢].

---

(١) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٥٧١.

(٢) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٥٧١ـ٣٥٧٢ـ٣٥٧٣ـ٣٥٧٦.

وعن **عبد الله بن مسعود** قال: كنّا نعدّ الآيات بركةً، وأنتم تعدّونها تخويفاً، كنا مع رسول الله ﷺ في سفرٍ، فقلَّ الماءُ، فقال: «اطلبوا فضلةً من ماءٍ»، فجاؤوا بإناء فيه ماءٌ قليل، فأدخلَ يده في الإناء، ثم قال: «حي على الطهور المبارك والبركة من الله»، فلقد رأيتُ الماءَ ينبعُ من بين أصابع رسول الله ﷺ، وقد كنا نسمعُ تسبيحَ الطعام وهو يؤكَل[1].

قال القرطبي: قضيةُ نبعِ الماء من بين أصابعه ﷺ تكرّرت منه في عدّةِ مواطن في مشاهد عظيمة، ووردت من طرق كثيرة، يفيدُ مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي.. ولم يسمع بمثل هذه المعجزة من غير نبينا ﷺ حيث نبعَ الماءُ من بين عظمه وعصبه ولحمه ودمه.

ونقل ابن عبد البر عن **المُزني** أنّه قال: نبع الماء من بين أصابعه ﷺ أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر، حيث ضربَه موسى عليه السلام بالعصا، فتفجّرت منه المياه، لأن خروج الماء من الحجارة معهود، بخلاف خروج الماء من بين اللحم الدم[2].

٣ـ تكثير الطعام القليل وزيادته:

ومن معجزاته أيضاً ﷺ **تكثير القليل وزيادته** حتى كفى العددَ الكبيرَ، ففي الحديث عن **أنس بن مالك** قال: قال أبو طلحة لأمِّ سليم: لقد سمعتُ صوتَ رسول الله ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوع، فهل عندكم من شيء؟ قالت: نعم. فأخرجتْ أقراصاً من شعير، ثم أخرجت خماراً لها فلفت الخبزَ ببعضِه، ثم دسته تحت يدي، ولاثتني ببعضه - أي لفتني ببعضه - ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ.

قال: فذهبتُ به، فوجدتُ رسولَ الله ﷺ في المسجد ومعه الناس، فقمتُ عليهم، فقال لي رسول الله ﷺ: «آرسلك أبو طلحة؟» فقلت: نعم. قال: «بطعام؟» قلت: نعم. فقال رسول الله ﷺ لمن معه: «قوموا». فانطلق وانطلقتُ بين أيديهم، حتى جئتُ أبا طلحة فأخبرتُه، فقال أبو طلحة: يا أمَّ سليم قد جاء

---

(١) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٥٧٨ـ٣٥٩٧.

(٢) فتح الباري: ٦/ ٥٨٥.

رسـول الله ﷺ بالناس، وليس عندنـا ما نطعمهم. فقالت: الله ورسـوله أعلم. فانطلق أبـو طلحة حتى لقي رسولَ الله ﷺ، فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة، وقال رسـول الله ﷺ: «هَلُمِّي يا أم سُـليم ما عندك؟». فأتت بذلـك الخبز، فأمر بـه رسول الله ﷺ ففت، وعَصَرَتْ أمُّ سليم عُكةً، فأدمته ـ أي جعلته أدماً له ـ ثم قال رسول الله ﷺ فيه ما شاء الله أن يقولَ، ثم قال: «ائذن لعشرة»، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا. ثم قال: «ائذن لعشرة»، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجـوا. ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا، والقوم سبعونَ أو ثمانون رجلاً.

٤ ـ حنين الجذع:

ومن معجزاته ﷺ حنين الجذع إليه، فعن ابن عمر رضي الله عنهما: كان النبيُّ ﷺ يخطِبُ إلى جذعٍ، فلمَّا اتَّخذَ المنبرَ، تحوّل إليه، فحنَّ الجذعُ، فأتاه فمسحَ يده عليه.

وعن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار، أو رجل: يارسول الله ألا نجعلُ لك منبراً؟ قال: «إن شئتم». فجعلوا له منبراً. فلمَّا كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر، فصاحتِ النخلةُ صياحَ الصبيِّ، ثم نزلَ النبيُّ ﷺ فضمَّهُ إليه يئنُّ أنينَ الصبيِّ الذي يسكن، قال: «كانت تبكي على ما كانت تسمعُ من الذكر عندها».

وفي رواية ثانية عن **جابر** قال: كان المسجد مسقوفاً على جذوع من نخل، فكان النبيُّ ﷺ إذا خطبَ يقوم إلى جذعٍ منها، فلما صُنِعَ له المنبرُ فكان عليه، فَسُمِعَ لذلك الجذع صوتٌ كصوتِ العِشَار، حتى جاءَ النبيُّ ﷺ فوضع يده عليها فسكنَتْ»[(١)].

وقوله: (فأتاه فمسح يده عليه) في رواية الإسماعيلي من طريق يحيى بن السكن عن معاذ: (فأتاه فاحتضنه فسكن، فقال: لو لم أفعل لما سكن) ونحوه في حديث **ابن عباس** عند الدارمي بلفظ: «لو لم أحتضنه لحنَّ إلى يوم القيامة».

---

(١) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٥٨٣ـ٣٥٨٥.

ولأبي عوانة وابن خزيمة وأبي نعيم في حديث أنس: «والذي نفسي بيده لو لم ألتزمْهُ لما زال هكذا إلى يوم القيامة حزناً على رسول الله ﷺ، ثم أمر به فدفن». وأصله في الترمذي دون الزيادة.

ووقع في حديث الحسن عن أنس: كان الحسنُ إذا حدَّث بهذا الحديث يقول: يا معشر المسلمين الخشبة تحنُّ إلى رسول الله ﷺ شوقاً إلى لقائه، فأنتم أحقُّ أن تشتاقوا إليه[1].

قتال الروم والفرس:

ومن الأخبار المغيبة التي أخبر الله عنها النبيَّ ﷺ في القرآن الكريم المعاركَ التي جرتْ قربَ أرض العرب بين دولتي الفرس والروم، قال تعالى: ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٢ ـ ٦].

أخبر الله تعالى في هذه الآيات أنَّ الدولة الفارسية غلبت الرومَ في أقربِ أرض لشبه الجزيرة العربية، وهي أطرافُ الشام الجنوبية، المتصلة بأرض العرب، وأرض الشام أقربُ أرضٍ إلى شبه الجزيرة العربية، وهي امتدادٌ لها من الشمال، بينما هي معزولةٌ عما حولها من الأرض اليابسة بالبحار من بقية الجهات.

حدث هذا الصراع المسلح بين أكبر دولتين في الأرض في ذلك الوقت، والنبيُّ ﷺ في مكة المكرمة قبلَ الهجرة، ولمّا وصلتْ أخبارُ انتصارِ الفرس على الرومِ إلى مكة، فرحَ المشركون به، لأنَّ الرومَ أهلُ كتاب، بينما الفرس أهل أوثان وعبدة نيران، لكنّ الله أخبرَ في هذه الآيات التي أنزلها بهذه المناسبة أنَّ هذا النصرَ لن يدومَ للفرس، فقال: ﴿ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ أي والروم من بعد

(١) فتح الباري: ٦/ ٦٠٢.

تغلُّب الفرس عليهم سيغلِبون الفرسَ في بضع سنين، والبضع ما بين الثلاث إلى التسع.

ولما أنزل الله هذه الآيات خرجَ أبو بكر إلى المشركين، يقول لهم: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا، فلا تفرحوا، ولا يقرّنّ الله عينكم، فوالله تعالى ليظهرَنَّ الرومُ على فارس، أخبرنا بذلك نبيُّنا ﷺ.

وفي خلال هذه السنوات تولّى هِرَقْلُ الحكمَ في الدولة الرومية، وأعاد تنظيم جيوشها، وهاجم الفرس في جنوب الشام، فانتصر عليهم، في السنة السادسة من الهجرة، في اليوم الذي وقَّعَ فيه النبيُّ ﷺ صُلْحَ الحديبية، وقيل في السنة الثانية من الهجرة، في يوم بدر، ففي (سنن الترمذي) عن أبي سعيد قال: لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس. والقول الأول أصح، ففي (صحيح البخاري) عن ابن عباس أنَّ أبا سفيان أخبره أنّ هرقل أرسل إليه في ركبٍ من قريش، وكانوا تجاراً في الشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ ماذَّ - أي صالح - فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوهم وهم بإيلياء - بيت المقدس[1].

وما أكثر المغيبات المستقبلة التي أطلع الله النبيَّ ﷺ عليها! وقد أخبر عنها ﷺ ووقع الكثير من منها كما أخبر عليه الصلاة والسلام، وإن اجتماع اليهود في فلسطين، وقتالنا لهم، كما أخبر ﷺ لأظهر المعجزات في هذا المجال.

معجزةُ الإسراء والمعراج:

وهي من أعظم المعجزات الحسية التي أيّد الله بها النبيَّ ﷺ وأكرمَه بها، وأخبرَ عنها بقولـه الكريم: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ أي أسرى به ليلاً، والإسراءُ: السيرُ بالليل. ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾: هو النبيُّ ﷺ، والعبوديةُ للهِ تعالى أشرفُ الأوصافِ،

---

(١) انظر الحديث كاملاً في صحيح البخاري، وسيأتي معنا تفصيلُ ذلك عند الحديث عن رسائل النبي ﷺ التي أرسلها إلى الملوك والأمراء.

وأعلى المراتب، كما مرّ معنا.

وقوله: ﴿لَيْلًا﴾ ظرفُ لأسرى، وهي تحمِلُ معنى زمانِها، فلا يحتاجُ إلى ذكرِه، ولكنّه سبحانه ذكره ﴿لَيْلًا﴾ ليبين أنَّ الإسراء كان في بعض أجزاء الليل، فلا يتوهمُ أحدٌ أنَّه كان في ليالٍ.

وكان من المسجد الحرام في مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، الذي بناه نبيُّ الله يعقوب بعد أن رفع إبراهيمُ وإسماعيلُ قواعدَ بيت الله الحرام بأربعين سنة كما سيأتي معنا.

ويستفاد من الأحاديث الشريفة الكثيرة التي وردت في الإسراء والمعراج أنَّ النبيَّ ﷺ **أُسري به من مكة إلى بيت المقدس** مرةً واحدةً يقظةً لا مناماً، يؤكد هذا قوله تعالى: ﴿أسرى بعبده﴾ ويؤكده أيضاً تكذيبُ قريشٍ النبيَّ ﷺ عندما حدّثهم عن الإسراء، فلو كان مناماً لما ردوه عليه، وما كذّبوه، وأنه ﷺ **عُرج به من بيت المقدس إلى السماء الدنيا**، ثم إلى بقية السماوات، وسلّم على الأنبياء الذين رآهم في السماوات، ثم ارتفع فوق ذلك إلى مستوًى سمعَ فيه صريفَ أقلام القدر بما هو كائنٌ، ورأى سِدرةَ المنتهى، ورأى جبريلَ بصورته الملكية، وله ستمئة جناح، وفرض اللهُ عليه هنالك الصلوات، خمسين صلاة، ثم خفّفها سبحانه إلى خمس صلوات رحمةً منه ولطفاً بعباده، كما سيأتي معنا.

واجتمع النبيُّ عليه الصلاة والسلام بالأنبياء، وصلّى بهم إماماً في رحاب المسجد الأقصى، وأظهرَ الله تعالى بذلك شرفه وفضله على سائر الأنبياء بإمامته لهم، ثم عاد ﷺ إلى مكة المكرمة بغلسٍ قبل انتهاء الليل.

وقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ يدلُّ على المعراج، لأنّ معناها: لنرفعَه إلى السماء حتى يرى ما يرى من العجائب العظيمة.

ودلّت الآيةُ على أنَّ النبيَّ ﷺ هو المقصودُ بمعجزة الإسراء والمعراج، ففوائد هذه المعجزة الكبيرة مختصة به عليه الصلاة والسلام، وعائدةٌ إليه.

وقوله سبحانه في ختام الآية: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فيه إيماءٌ إلى أنّ الإسراء والمعراج ليس إلا لتكريمه عليه الصلاة والسلام، ورفع منزلتِه، لأنّه المحيطُ بأقوال نبيّه ﷺ وأفعالِه، فهو سبحانه سميعٌ بصير.

ويبدو أن رحلة الإسراء والمعراج حدثت بعد خروج النبيِّ ﷺ إلى الطائف، وما لقيَ منهم من الأذى، فكانت بمثابة مواساة ربانية من الله جلّ جلاله لنبيّه ﷺ عمّا لقيه ويلقاه من أذى المشركين وعنادهم.

المعجزة الأرضية والمعجزة السماوية:

جمع الله سبحانه للنبيِّ ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج بين معجزتين كبيرتين هما: (**الإسراء**) وهو المعجزة الأرضية، و(**المعراج**) وهو المعجزة السماوية.

ودلّت الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ على معجزةِ المعراجِ، لأنّ معناها: لنرفعه إلى السماء حتى يرى ما يرى من العجائب العظيمة. واكتفتِ الآية بالإشارة إلى المعراج بقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ ولم تصرّحْ به كما صرّحت بالإسراء، لأنّ المعراج معجزةٌ سماوية لا يستطيعُ النبيُّ ﷺ أن يقدّم للمنكرين لها الأدلةَ الماديّةَ المحسوسةَ كما فعل في المعجزة الأرضية، وهو الإسراء.

فقد أخبرَهم ﷺ في موضوع الإسراء بأدلة قطعية محسوسة تلزِمُهم بتصديقه، وتدلُّ على صدقه عليه الصلاة والسلام[(١)].

ففي الحديث الشريف عن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لمّا كذّبتني قريشٌ، قُمْتُ في الحِجْرِ، فجلّى اللهُ لي بيتَ المقدسِ، فطفِقْتُ أخبرُهم عن آياتِه، وأنا أنظرُ إليه»[(٢)].

وقوله: «لما كذّبتني قريش» وقع بيانُ ذلك في طرقٍ أُخرى: فروى أحمد

---

(١) عن الزهري عن أبي سلمة قال: «افتتنَ ناسٌ كثيرٌ ـ يعني عَقبَ الإسراء ـ فجاءَ ناسٌ إلى أبي بكر، فذكروا له، فقال: أشهدُ أنّه صادقٌ. فقالوا: فتصدّقُه بأنّه أتى الشام في ليلةٍ واحدةٍ، ثم رجعَ إلى مكة؟ قال: نعم إنّي أصدّقه بأبعد من ذلك، أصدقُه بخبرِ السماء، قال فسُمّيَ بذلك الصديق. رواه البيهقي في الدلائل.

(٢) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٨٨٦.

والبزار بإسناد حسن من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لمّا كانَ ليلةَ أُسريَ بي، وأصبحتُ بمكة، مرَّ بي عدوُّ الله أبو جهل، فقال: هل كانَ من شيء؟ قال رسول الله ﷺ: «إنّي أُسْرِيَ بي الليلةَ إلى بيت المقدس». قال: ثم أصبحتَ بين أظهرنا. قال: «نعم». قال: فإنْ دعوتُ قومَكَ أتحدِّثُهم بذلك؟ قال: «نعم». قال: يا معشر بني كعب بن لؤي! قال: فانفضت إليه المجالسُ، حتى جاؤوا إليهما، فقال: حدِّثْ قومَك بما حدّثتني. فحدثتُهم، قال: فمن بين مصفِّق، ومن بين واضعٍ يدَه على رأسِه متعجّباً، قالوا: وتستطيعُ أن تنعت لنا المسجد».

وقولُه: «فجلّى الله لي بيتَ المقدس» قيل: معناه كَشْفُ الحُجبِ بيني وبينه حتى رأيتُه، ووقع في روايةِ عبد الله بن الفضل عن أم سلمة عند مسلم: «قال: فسألوني عن أشياءَ لم أثبتها، فكربتُ كرباً لم أكربْ مثلَه قط، فرفعَ اللهُ لي بيتَ المقدسِ أنظرُ إليه، ما يسألوني عن شيءٍ إلا نبّأتُهم به».

قال الشيخ أبو محمد بن أبي جَمْرة: الحكمةُ في الإسراء إلى بيت المقدس ـ قبلَ العروج إلى السماء ـ إرادةُ إظهارِ الحقّ لمعاندةِ من يريدُ إخمادَه، لأنّه لو عرجَ به من مكة إلى السماء لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلاً إلى البيان والإيضاح، فلما ذكر أنه أُسري به إلى بيت المقدس، سألوه عن تعريفات جزئيات من بيت المقدس كانوا رأوها، وعلموا أنّه لم يكن رآها قبلَ ذلك، فلمّا أخبرَهم بها، حصل التحقيق بصدقه فيما ذكر من الإسراء إلى بيت المقدس في ليلة.

وإذا صحَّ خبرُه في ذلك لزم تصديقه في بقية ما ذكره، فكان ذلك زيادةً في إيمانِ المؤمنِ، وزيادة في شقاء الجاحدِ والمعاند(١).

وهكذا قدّم النبيُّ ﷺ الأدلّة المادية الدالّة على صدقه وصحة إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

وأمّا معراجه ﷺ إلى السماوات وما رأى فيها من الآيات الكبرى، فلا سبيل إلى إثباتها بالأدلة المحسوسة المادية، لأنّها معجزة سماوية، لا سبيل إلى

---

(١) انظر فتح الباري في المناقب: ٧/ ٢٠٠.

التصديق بها إلا بالخبر الصادق، وقد اقتضت حكمته سبحانه ومشيئته أن يشيرَ إليها في القرآن الكريم إشارةً لا تصريحاً في قوله عزَّ وجلّ: ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ [الإسراء: ١]، وفي قوله أيضاً: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ٥ ـ ١٨].

وقوله: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ هو جبريل عليه السلام كما مرّ معنا في قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير ١٩ ـ ٢١].

﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ أي ذو قوة في العقل والرأي، فبعد أن وصفته الآياتُ بقوة الفعل، وصفته بقوة النظر، أو ذو حكمة، فإنَّ كلامَ الحكماءِ متينٌ.

ومن جزالة رأيه وحصافة عقله أنّ الله ائتمنه على وحيه إلى رسله.

﴿ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ أي فاستوى جبريلُ وهو بالأفقِ الأعلى، فقام في صورته التي خلقه الله بها، لمّا سألهُ النبيُّ ﷺ أن يريه نفسه على صورته، فأراه نفسَه مرتين: مرة في الأرض، ومرة في السماء، فأما التي في الأرض ففي الأفق المبين قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [التكوير: ٢٣]، وهي المرة التي رآه بها في أثناء فترة الوحي كما مرّ معنا، وأما التي في السماء فعند سدرة المنتهى.

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ أي ثم دنا جبريلُ بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض، فنزل على النبيِّ ﷺ بالوحي.

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ أي فكان بين جبريل وبين محمد لما هبط على الأرض قدرَ قوسين إذ مُدّا أو أدنى، وهذه الصيغةُ تستعمل في اللغات لإثبات المخبر عنه، ونفي ما زادَ عنه، كما في قوله تعالى: ﴿ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله أيضاً: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٧].

فالقريبُ الداني هو جبريل عليه السلام، وهو قولُ السيدة عائشة وابن مسعود وأبي ذر رضي الله عنهم كما ذكر ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية.

وأما ما وردَ في حديث الإسراء من طريق شريك بن عبد الله قال: سمعتُ **أنس بن مالك يقول**: ليلةَ أُسريَ برسول الله ﷺ: «حتى إذا جاءَ سِدرةَ المنتهى، ودنا الجبارُ ربُّ العزّة، فتدلّى حتى كان منه قابَ قوسين أو أدنى، فأوحى الله فيما أوحى إليه خمسينَ صلاةً على أمتك كل يوم وليلة»(١).

قال ابن حجر رحمه الله: وقد أزال العلماءُ إشكاله، فقال القاضي عياض في (الشفا): إضافةُ الدنوِّ والقربِ إلى الله تعالى أو من الله ليس دنوَّ مكان ولا قرب زمان، وإنما هو بالنسبةِ إلى النبيِّ ﷺ إبانة لعظيم منزلته، وشريف رتبته، وبالنسبة لله عزَّ وجلّ تأنيسٌ لنبيه، وإكرامٌ له، ويتأول فيه ما قالوه في حديث: «ينزلُ ربُّنا إلى السماء» وكذا في حديث: «مَنْ تقرَّبَ مِنِّي شِبْراً تقرّبْتُ منه ذراعاً».

وقال غيرُه: (الدنوُّ) مجازٌ عن القرب المعنوي لإظهار عظيم منزلته عند ربه تعالى، و(التدلي): طلب زيادة القرب، و(قاب قوسين): بالنسبة إلى النبيِّ ﷺ عبارة عن لطف المحل، وإيضاح المعرفة، وبالنسبة إلى الله إجابة سؤاله ورفع درجته(٢).

﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ أي فأوحى جبريلُ إلى عبد الله محمد ﷺ ما أوحى، أو فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل. وإبهام الموحى به لتفخيمه، فهو نظيرُ قوله تعالى: ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه: ٧٨].

﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ أي ما كذب فؤاد محمّد عليه الصلاة والسلام ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام، فقد عرفه بقلبه كما رآه ببصره. وفي قراءة ﴿ مَا كَذَّبَ ﴾ أي صدقه، ولم يشك أنّه جبريل بصورته.

فالآيات تؤكّدُ تحقيقَ أمر الوحي، ولهذا استنكرت موقف المنكرين له بقوله تعالى: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ أي: أتكذّبونه فتجادلونه على ما يراه معاينة، من المراء وهو المجادلة. والمراد بما يرى، ما رآه عليه الصلاة والسلام من صورة جبريل عليه السلام، وجيءَ بصيغةِ المضارع مع أنَّ الرؤية قد مضت إشارة إلى ما

---

(١) انظر الحديث كاملاً في صحيح البخاري في التوحيد، رقم ٧٥١٧.
(٢) فتح الباري: ١٣/ ٤٨٤.

يمكن حدوثه بعد ذلك، فقد نزل جبريل بالقرآن على النبيِّ ﷺ منجّماً كما مرّ معنا.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ أي ولقد رأى النبيُّ ﷺ جبريلَ في صورته التي خلقه الله عليها مرة أخرى، والمراد من الجملة القَسَمية نفي الريبة والشك عن المرة الثانية، التي كانت ليلة الإسراء والمعراج.

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ وهي شجرة في السماء السابعة أو في السماء السادسة، إليها ينتهي علمُ كل عالمٍ من المخلوقـات، وما وراءها لا يعلمه إلا الله تعالى، ويمكن أن يكونَ أصلُها في السماء السادسة، وأعلاها في السماء السابعة.

ووقع بيانُ سبب تسميتها سدرة المنتهى في حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند مسلم، ولفظه، لما أُسريَ برسول الله ﷺ قال: «انتهى بي إلى سِدْرَةِ المُنتهى، وهي في السماءِ السادسةِ، وإليها ينتهي ما يعرجُ مِنَ الأرضِ، فيقبض منها».

وقال النووي: سُمّيت سدرة المنتهى لأنَّ علمَ الملائكة ينتهي إليها، ولم يجاوزها أحدٌ إلا رسول الله ﷺ[1].

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ أي: عند السدرة جنة المأوى التي يأوي إليها المتقون يوم القيامة، أو الجنة التي تأوي إليها أرواحُ الشهداء في الدنيا.

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ أي: إذ يزيد الله في حُسـنها وزينتها وأنوارهـا تكريماً لرسول الله ﷺ حينَ عُرِجَ به إليها. والغشيان: معناه التغطيةُ والسّترُ، وفي إبهام ﴿مَا يَغْشَىٰ﴾ من التفخيمِ ما لا يخفى.

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ أي: ما مال بصرُ رسولِ الله ﷺ، وما عدل عن رؤية العجائب التي أُمرَ برؤيتها، وما جاوزَها إلى غيرها، فهو ثناءٌ عظيمٌ مِنَ اللهِ جلَّ جلاله على نبيّه الكريم، لأنّه ما جاوزَ ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطي، فقد كان عليه الصلاة والسلام في غايةِ التمكّنِ والأدب، وما أحسنَ قول القائل:

رَأَىٰ جَنّـةَ المَـأْوَىٰ ومَـا فَـوْقَهـا وَلَـوْ رَأَىٰ غيـرُه مـا قَـدْ رَآهُ لتَـاهَـا

(١) فتح الباري: ٧/ ٢١٢.

أكده تعالى فقال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ أي الآيات الدالة على قدرته تعالى وعظمه.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «رأى رفرفاً أخضرَ قد سدّ الأفقَ»[1].

ويوضّحُ المرادَ ما أخرجه النَّسائيُّ والحاكمُ عن ابن مسعود قال: أبصرَ نبيُّ اللهِ جبريلَ عليه السلام على رفرفٍ قد ملأ ما بينَ السماءِ والأرض. و(الرفرف): كُلُّ ما فضلَ من شيءٍ فعطفَ وثني، ويقال: رفرف الطائر بجناحيه، إذا بسطهما. ويحتمل أن يكون جبريلُ بسطَ أجنحتَه، فصارت تشبه الرفرف[2].

وقد أظهر الله تعالى في قوله وهو يثني على النبيِّ ﷺ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ الأدبَ الذي تميّزَ به عليه الصلاة والسلام على موسى عليه السلام، عندما أكرمه الله تبارك وتعالى بتكليمه، فطمحتْ نفسُه إلى رؤية الحق سبحانه فسأله الرؤيا، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

معجزة المعراج:

وأمّا التصريحُ بالمعجزة السماوية، وهي المعراجُ فقد جاء في الأحاديث النبوية الصحيحة الكثيرةِ المنتشرةِ التي كادت أن تكون متواترةً، كما قال العلامة نور الدين القاري في كتابه (شرح الشفا) وأكتفي بذكر واحدٍ منها.

ففي الحديث: عن قتادة عن أنس بن مالك عن **مالك بن صعصعة** رضي الله عنه أنَّ نبيَّ الله ﷺ حدَّثهم عن ليلة أُسريَ به قال: «بينما أنا في الحطيم ـ وربما قال في الحِجْرِ ـ مضطجعاً، إذ أتاني آتٍ فقدَّ ـ فشقَّ ـ ما بينَ هذه إلى هذِهِ. فقلتُ ـ أي

(١) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٨٥٨.
(٢) فتح الباري: ٨/ ٦١١.

قتادة ـ للجارود، وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته ـ وسمعته يقول: من قصّه إلى شعرته ـ[1] فاستخرجَ قلبي، ثم أُتيتُ بطستٍ من ذهبٍ مملوءَةٍ إيماناً، فغُسِلَ قلبي، ثم حُشيَ ثمَّ أُعيد.

ثم أُتيتُ بدابة دون البغلِ وفوقَ الحمارِ أبيضَ. فقال له الجارود: هو البُراقُ يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم. يضعُ خَطْوَهُ عند أقصى طَرْفِهِ، فحُمِلْتُ عليه.

فانطلق بي جبريلُ حتى أتى **السماء الدنيا** فاستفتحَ، فقيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن معك؟ قال: محمّد. قيل: وقد أُرسِلَ إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، فنعم المجيءُ جاء، فَفُتِحَ، فلما خلصتُ، فإذا فيها آدمُ، فقال: هذا أبوك آدمُ، فسلِّمْ عليه. فسلّمْتُ عليه فردَّ السلامَ، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبيِّ الصالح.

ثم صَعِدَ بي حتى أتى **السماء الثانية** فاستفتحَ. قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل، وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً بهِ، فنعمَ المجيءُ جاء، ففتح، فلما خلصتُ إذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة. قال: هذا يحيى وعيسى فسلِّمْ عليهما، فسلَّمتُ فردّا، ثم قالا: مرحباً بالأخِ الصالحِ والنبيِّ الصالحِ.

ثم صَعِدَ بي إلى **السماء الثالثة** فاستفتحَ، قيل: من هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومن معك؟ قال: محمّدٌ. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعمَ المجيءُ جاءَ، ففتح، فلمّا خلصتُ إذا يوسف، قال: هذا يوسفُ فسلِّمْ عليه، فسلَّمتُ عليه، فردَّ، ثم قال: مرحباً بالأخِ الصالحِ والنبيِّ الصالح.

ثم صَعِدَ بي إلى **السماء الرابعة** فاستفتحَ، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومن معك؟ قال: محمّدٌ. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعمَ المجيءُ جاءَ، ففتح، فلمّا خلصتُ فإذا إدريسُ، قال: هذا إدريسُ فسلِّم عليه، فسلَّمتُ عليه، فردَّ، ثم قال: مرحباً بالأخِ الصالحِ والنبيِّ الصالح.

---

(١) أي إلى شعر العانة، وفي رواية مسلم «إلى أسفل بطنه» والقَصة بفتح القاف أي رأس صدره.

ثم صَعِدَ بي إلى **السماء الخامسة** فاستفتحَ، قيل: من هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومن معك؟ قال: محمّدٌ. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعمَ المجيءُ جاءَ، ففتح، فلمّا خلصتُ فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلِّمْ عليه، فسلَّمتُ عليه، فردَّ، ثم قال: مرحباً بالأخِ الصالحِ والنبيِّ الصالح.

ثم صَعِدَ بي إلى **السماء السادسة** فاستفتحَ، قيل: من هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومن معك؟ قال: محمّدٌ. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعمَ المجيءُ جاءَ، ففتح، فلمّا خلصتُ فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلِّمْ عليه، فسلَّمتُ عليه، فردَّ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح، فلما تجاوزتُ بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأنّ غلاماً بُعِثَ بعدي يدخلُ الجنةَ من أمته أكثرُ ممن يدخلُها من أمتي.

ثم صَعِدَ بي إلى **السماء السابعة** فاستفتحَ جبريلُ، قيل: من هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومن معك؟ قال: محمّدٌ. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعمَ المجيءُ جاءَ، فلمّا خلصتُ فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوكَ فسلِّمْ عليه، فسلَّمتُ عليه، فردَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالابنِ الصالحِ والنبيِّ الصالح.

ثم رُفعَتْ لي سِدْرَةُ المنتهى، فإذا نَبَقُها ـ ثمرها ـ مثل قِلالِ هَجَر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرةُ المنتهى، وإذا أربعةُ أنهارٍ: نهرانِ باطنان ونهرانِ ظاهران. فقلتُ: ما هذان يا جبريل؟ قال: أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران فالنيلُ والفراتُ.

ثم رفع لي **البيت المعمور**.

ثم أُتيتُ بإناءٍ من خمرٍ، وإناءٍ من لبنٍ، وإناءٍ من عسل، فأخذتُ اللبنَ، فقال: هي الفطرةُ التي أنتَ عليها وأمّتك.

ثم فُرِضَتْ عليَّ الصلاة خمسينَ صلاةً كلَّ يوم، فرجعتُ فمررتُ على موسى، فقال بمَ أُمرت؟ قال: أمرتُ بخمسين صلاةً كلّ يوم. قال: إنَّ أمتك لا تستطيعُ خمسينَ صلاةً كلَّ يومٍ، وإنّي واللهِ قد جربتُ الناسَ قبلك، وعالجتُ بني إسرائيل أشدّ المعالجةِ، فارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف لأمتك؟ فرجعتُ،

فوضعَ عني عشراً. فرجعتُ إلى موسى فقال مثله، فرجعتُ، فوضعَ عني عشراً، فرجعتُ إلى موسى، فقال مثله. فرجعتُ فوضع عني عشراً، فرجعتُ إلى موسى، فقال مثله. فرجعتُ فأمرت بعشرِ صلواتٍ كلَّ يوم، فرجعتُ فقال مثله، فرجعتُ فأُمرتُ بخمس صلوات كلّ يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرتَ؟ قلتُ بخمس صلواتٍ كلّ يوم، قال: إنّ أمتك لا تستطيعُ خمسَ صلواتٍ كلّ يوم، إني جرّبتُ الناس قبلك، وعالجتُ بني إسرائيل أشدّ المعالجة، فارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف لأمتك. قال: سألتُ ربّي حتى استحييتُ، ولكن أَرْضَى وأُسَلِّم. قال: فلمّا جاوزتُ نادى منادٍ: أمضيتُ فريضتي وخفَّفْتُ عن عبادي»(١).

ودلَّ حديثُ المعراج الذي سبق ذكرُه على أنّ الصلوات الخمس فُرِضَتْ في ليلة الإسراء والمعراج، وأيّدَ ذلك البخاريُّ في (صحيحه) فعقد باباً خاصاً قال فيه: باب كيفَ فرضتْ الصلواتُ في الإسراءِ.

قال ابن حجر: قوله (في الإسراء) أي ليلة الإسراء، وهذا مصير من المصنف ـ البخاري ـ إلى أنّ المعراجَ كان في ليلة الإسراء، وقد وقعَ في ذلك خلافٌ، فقيل: كانا في ليلة واحدة في يقظته ﷺ، **وهذا المشهور عند الجمهور**.

وقيل: كانا جميعاً في ليلة واحدة في منامه.

وقيل: وقعا جميعاً مرتين في ليلتين مختلفتين: إحداهما يقظة، والأخرى مناماً.

وقيل: كان الإسراءُ إلى بيت المقدس خاصة في اليقظة، وكان المعراجُ مناماً، إما في تلك الليلة، أو في غيرها.

والذي ينبغي أن لا يجري فيه الخلاف أنَّ الإسراءَ إلى بيت المقدس كان في اليقظة لظاهر القرآن، ولكون قريش كذّبته في ذلك، ولو كان مناماً لم تكذّبه، ولا في أبعد منه(٢).

---

(١) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٨٨٧.
(٢) فتح الباري: ١/ ٤٦٠.

ومما يؤكّدُ رأيَ الإمام البخاري والجمهور أنّ الإسراء والمعراج كانا في ليلةٍ واحدةٍ رواية (صحيح مسلم) للحديث وهي :

عن أنس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ قال : «أُتيتُ بالبراقِ ، وهو دابة أبيض طويل ، فوق الحمار ، ودون البغل ، يضعُ حافره عند منتهى طرفه ، قال ، فركبتُه حتى أتيتُ بيتَ المقدس ، قال فربطتُه بالحلقةِ التي يربط بها الأنبياءُ . قال : ثم دخلتُ المسجدَ ، فصليتُ فيه ركعتين .

ثم خرجتُ فجاءني جبريل عليه السلام بإناءٍ من خمرٍ وإناءٍ من لبن ، فاخترتُ اللبنَ ، فقال جبريلُ ﷺ : اخترتَ الفطرة .

ثم عرج بنا إلى السماء ، فاستفتحَ جبريلُ ، فقيلَ : مَنْ أنت؟ قال : جبريلُ . قيل : ومَن معك؟ قال : محمّدٌ . قيل : وقد بعث إليه؟ قال : قد بعث إليه . . . » الحديث(١) .

والبُراق : بضم الموحدة وتخفيف الراء ، مشتق من البريق ، فقد جاء في لونه أنه أبيض ، أو من البرق ، لأنّه وصفَه بسرعة السير . . .

وقد جاء في رواية معمر عن قتادة عن أنس «أنّ رسول الله ﷺ ليلةَ أُسريَ به أُتِيَ بالبراقِ مسرجاً ملجماً ، فاستعصبَ عليه ، فقال له جبريل : ما حملكَ على هذا ، فواللهِ ما ركبكَ أحدٌ قطُّ أكرمُ على اللهِ مِنْهُ ، قال : فارفضَّ عرقاً»(٢) .

قال ابن المنيِّر : إنما استعصبَ البراقُ تيهاً وزهواً بركوبِ النبيِّ ﷺ عليه ، وأراد جبريلُ استنطاقه ، فلذلك خَجِلَ وارفضَّ عرقاً من ذلك .

وقريب من ذلك رجفة الجبل به حتى قال له ﷺ : «اثبتْ فإنّما عليكَ نبيٌّ وصدّيقٌ وشهيد» فإنّها هزةُ الطربِ لا هزّة الغضب(٣) .

وقوله : «فاستفتحَ فقيل : من هذا؟ قال : جبريل . . قيل . . وقد أرسل إليه؟

---

(١) انظر الحديث كاملاً في صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، رقم ١٦٢ .
(٢) أخرجه الترمذي وقال : حسن غريب ، وصححه ابن حبان .
(٣) فتح الباري : ٧/ ٢٠٧ .

قال: نعم» أي أرسل إليه للعروج، وليس المراد أصلَ البعثِ، لأنّ ذلك كان قد اشتهر في الملكوت الأعلى.

وقيل: سألوا تعجباً من نعمة الله عليه بذلك، فهو استبشار به، وقد علموا أنَّ بشراً لا يترقى هذا الترقي إلا بإذن الله، وأنَّ جبريل لا يصعدُ بمن لم يرسَل إليه.

وقوله: «من معك» يشعِرُ بأنهم أحسوا معه برفيقٍ، وإلا لكان السؤال بلفظ «أمعك أحد»، وذلك الإحساسُ إما بمشاهدةٍ لكون السماء شفافة، وإما بأمر معنوي كزيادة أنوارٍ أو نحوِها يشعرُ بتجدُّدِ أمرٍ يحصل معه السؤال بهذه الصيغة، وفي قول: «محمد» دليلٌ على أنَّ الاسمَ أولى في التعريف من الكنية.

وقيل: الحكمةُ في سؤال الملائكة، «أوقد بعث إليه؟» أنَّ الله أرادَ إطلاع نبيه على أنه معروف عند الملأ الأعلى، لأنهم قالوا: «وقد بعث إليه» فدلّ على أنهم كانوا يعرفون أنّ ذلك سيقعُ له، وإلا لكانوا يقولون: من محمد؟ مثلاً[(١)].

وعن عبد الله بن مسعود قال: «لما أسري برسول الله ﷺ انتهي به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبطُ من فوقها، فيقبض منها، قال: ﴿ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ قال: فَراش من ذهب، قال: فأعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطي الصلوات الخمس، وأُعطيَ خواتيم سورةِ البقرة، وغُفِرَ لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المقحماتُ»[(٢)].

فرض الصلوات الخمس في السماء ليلة الإسراء والمعراج:

ودلت أحاديث الإسراء والمعراج على أنَّ الصلوات الخمس فُرِضَتْ ليلة الإسراء والمعراج، عندما كان النبيُّ ﷺ فوقَ السماوات السبع، وقد أنزل الله تعالى في سورة الإسراء بيانَ أوقاتِ هذه الصلوات المفروضة إجمالاً فقال: ﴿ أَقِمِ

---

(١) المرجع السابق: ٧/ ٢٠٩.

(٢) صحيح مسلم في الإيمان، رقم ١٧٣. والمقحمات معناه الذنوب العظام الكبائر، التي تهلك أصحابها، وتوردهم النار، وتقحمهم إياها، والتقحُّم: الوقوع في المهالك. ومعنى الكلام: من مات من هذا الأمة غير مشرك بالله غفر له المقحمات.

﴿ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]. ونزل جبريلُ عليه السلام ظهرَ نهارِ ليلة الإسراء والمعراج، فصلّى بالنبيِّ ﷺ مبيناً له بالتفصيل أوقات الصلوات الخمس المفروضة.

وفي الحديث أنَّ عمرَ بن عبد العزيز أخّرَ الصلاةَ يوماً، فدخل عليه عروةُ بن الزبير، فأخبره أنَّ المغيرةَ بن شُعبة أخّر الصلاة يوماً وهو بالعراق، فدخل عليه أبو مسعود الأنصاري فقال: ما هذا يا مغيرة؟ أليس قد علمتَ أنَّ جبريلَ نزل فصلّى فصلّى رسولُ الله ﷺ، ثم صلّى فصلّى رسول الله ﷺ، ثم صلّى فصلّى رسول الله ﷺ، ثم صلّى فصلى رسول الله ﷺ، ثم صلّى فصلّى رسول الله ﷺ. ثم قال: «بهذا أمرت»؟ فقال عمر لعروة: اعلم ما تحدث به، أو إن جبريل هو أقام لرسول الله ﷺ وقتَ الصلاة؟ قال عروة: كذلك بشيرُ بنُ أبي مسعود يحدِّث عن أبيه(١).

وقوله: «أن جبريل نزل» بيّن ابنُ إسحاق في (المغازي) أنَّ ذلك كان صبيحةَ الليلة التي فرضت فيها الصلاة، وهي ليلة الإسراء، قال ابن إسحاق: حدّثني عتبة بن مسلم عن نافع بن جبير، وقال عبد الرزاق: عن ابن جريج قال: قال نافع بن جبير وغيره: «لما أصبحَ النبيُّ ﷺ ليلةَ أُسريَ به لم يرعْهُ إلا جبريل نزل حين زاغت الشمسُ، ولذلك سميت [الأولى] أي صلاة الظهر، فأمر فَصِيحَ بأصحابه: الصلاة جامعة، فاجتمعوا، فصلّى به جبريلُ، وصلّى النبيُّ ﷺ بالناس» فذكر الحديث، وفيه ردٌّ على من زعمَ أنَّ بيان الأوقاتِ إنما وقع بعد الهجرة، والحقّ أنّ ذلك وقعَ قبلَها ببيانِ جبريل، وبعدها ببيان النبيِّ ﷺ(٢).

هل رأى النبيُّ ﷺ ربَّه؟:

اختلفَ السلفُ في رؤية النبيّ ﷺ ربّه، فذهبت السيدةُ عائشة وابنُ مسعود رضي الله عنهما إلى إنكارها، واختلف الجوابُ عن أبي ذر، وذهب جماعةٌ إلى إثباتها، ففي الحديث عن أبي هريرة: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ قال: رأى جبريل، وعن عطاء عن ابن عباس قال: رآه بقلبه.

---

(١) صحيح البخاري في مواقيت الصلاة، رقم ٥٢١.
(٢) فتح الباري: ٢/ ٤.

وعن أبي العالية عن ابن عباس قال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ قال: رآه بفؤادِه مرتين.

وعن الشعبي عن مسروق قال: كنتُ متكئاً عند عائشة فقالت: يا أبا عائشة، ثلاثٌ من تكلّم بواحدةٍ منهنّ فقد أعظمَ على اللهِ الفريةَ (الكذب) قلتُ: ما هنّ؟ قالت: من زعمَ أنّ محمداً ﷺ رأى ربّه، فقد أعظمَ على اللهِ الفريةَ، قال: وكنتُ متكئاً فجلستُ.

فقلتُ: يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني، ألم يقل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾؟

قالت: أنا أولُ هذه الأمة سألَ عن ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: «إنما هو جبريلُ، لم أره على صورتِه التي خُلِقَ عليها غير هاتين المرتين، رأيتُه منهبطاً من السماء، سادّاً عظمُ خلقه ما بين السماء إلى الأرض». فقالت: أولم تسمع أنّ الله يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، أولم تسمع أنّ اللهَ يقول: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١]؟

قالت: ومن زعمَ أنّ رسولَ الله ﷺ كتمَ شيئاً من كتابِ الله، فقد أعظمَ على اللهِ الفريةَ، واللهُ يقول: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

قالت: ومن زعم أنّه يخبرُ بما يكون في غدٍ فقد أعظمَ على اللهِ الفريةَ، والله يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥][1].

وحكى عبد الرزاق عن معمر عن الحسن أنّه حلف أنّ محمداً رأى ربّه.

وأخرجَ ابنُ خزيمة عن عروة بن الزبير إثباتها، وكان يشتدُّ عليه إذا ذكر له إنكار عائشة، وبه قال سائرُ أصحاب ابن عباس، وجزم به كعبُ الأحبار والزهريُّ

---

(١) انظر هذه الأحاديث في صحيح مسلم، كتاب الإيمان، رقم ١٧٥ ـ ١٧٧.

وصاحبُه معمر وآخرون، وهو قول الأشعري وغالب أتباعه.

ثم اختلفوا هل رآه بعينه أم بقلبه؟ جاءت عن ابن عباس أخبارٌ مطلقةٌ، وأخرى مقيّدة، فيجب حمل مطلقها على مقيدها، من هذه الأخبار ما أخرجه مسلم من طريق أبي العالية عن ابن عباس. . كما سبق معنا قريباً.

وأصرحُ من ذلك ما أخرجه ابن مردويه من طريق عطاء أيضاً عن ابن عباس قال: لم يره رسول الله ﷺ بعينه إنما رآه بقلبه.

وعلى هذا فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة بأن يحمل نفيُها على رؤية البصر، وإثباته على رؤية القلب.

ثم المرادُ برؤية الفؤاد رؤية القلب، لا مجرّد حصول العلم، لأنّه ﷺ كان عالماً بالله على الدوام، بل مراد من أثبتَ له أنه رآه بقلبه أنَّ الرؤية التي حصلت له خُلِقَتْ في قلبه، كما تخلق الرؤية بالعين لغيره.

والرؤية لا يشترَطُ لها شيء مخصوص عقلاً، ولو جرت العادةُ بخلقها في العين.

وروى ابن خزيمة بإسناد قوي عن أنس قال: رأى محمد ربّه.

وعند مسلم من حديث أبي ذر أنه سأل النبيَّ ﷺ عن ذلك فقال: «نورٌ أنّى أراهُ» وبهذا يتبين مراد أبي ذر من ذكره النور، أي النور حالَ بين رؤيتِه له ببصره[1].

وفي الحديث عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا ينامُ، ولا ينبغي له أن ينام، يخفِضُ القسطَ ويرفعُه، يُرْفَعُ إليهِ عملُ الليلِ قبلَ عملِ النهار، وعملُ النهارِ قبلَ عملِ الليل، حجابُه النورُ، لو كشفَه لأحرقتْ سُبُحاتُ وجهِه ما انتهى إليه بصرُه من خلقِه»[2].

وقوله: «لا ينامُ ولا ينبغي له أن ينام» معناه أنَّه سبحانه وتعالى لا ينام، وأنه

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٦٠٨.
(٢) صحيح مسلم في الإيمان، رقم ١٧٩.

يستحيل في حقّه النوم، والله تعالى منزه عن ذلك، وهو مستحيل في حقه جلّ وعلا، وهو القائل: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: «يخفض القسط ويرفعه» القسطُ الميزانُ، وسمي قسطاً لأنّ القسطَ العدلُ وبالميزان يقع العدل، والمراد أنَّ الله تعالى يخفض الميزان ويرفعه بما يوزَنُ من أعمال العباد المرتفعة، ويوزن من أرزاقهم النازلة.

وقوله: «حجابُه النورُ، لو كشفَه لأحرقتْ سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصرُه من خلقه» معنى سبحات وجهه: نوره وجلاله وبهاؤه.

أما الحجاب فأصله في اللغة المنع والستر، وحقيقة الحجاب إنّما تكون للأجسام المحدودة، والله تعالى منزَّه عن الجسم والحد، والمراد هنا المانع من رؤيته، وسمي ذلك المانع نوراً ـ أو ناراً كما ورد في رواية ـ لأنهما يمنعان من الإدراك في العادة لشعاعهما، وهذا المانع قائم في المخلوق، ويوم القيامة يزيل الله تبارك وتعالى هذا المانع عن عباده المؤمنين في الجنة، ويكرمهم برؤيته جلَّ وعلا، كما أخبر في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣].

والمراد بالوجه الذات، والمراد بما انتهى إليه بصره من خلقه، جميعُ المخلوقات، لأنَّ بصرَه سبحانه وتعالى محيطٌ بجميع الكائنات، ولفظة «من» لبيان الجنس لا للتبعيض، والتقدير: لو أزال المانعَ من رؤيته، وهو الحجاب المسمَّى نوراً أو ناراً، وتجلّى لخلقه لأحرقَ جلالُ ذاتِه جميعَ مخلوقاتِه[1].

فضل المسجد الأقصى:

ودلَّ إسراءُ النبيِّ ﷺ إلى المسجد الأقصى على فضلِه، فهو ثاني مسجدٍ بُني في الأرض بعد المسجدِ الحرام، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]. وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسولَ الله أي مسجدٍ وضع أولاً؟

قال: «المسجدُ الحرام». قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى». قلتُ:

---

(١) انظر هامش صحيح مسلم المقتبس من شرح الإمام النووي: ١/ ١٦٢.

كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة». قلت ثم أي؟ قال: «ثم حيثُ أدركتْكَ الصلاةُ فصلِّ فكلُّها مسجدٌ»[١].

بناه نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وجدَّدَ بناءه نبيُّ الله سليمان عليه السلام.

وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ يدلُّ على فضل هذا المسجد، وفضل الأرض المباركة حوله، فقد عبدَ اللهَ تعالى في المسجد الأقصى كثيرٌ من الأنبياء عليهم السلام، وكان قبلةً لهم.

وقد استقبله نبيّنا ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم في الصلاة بعد الهجرة ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، كما سيأتي معنا عند الحديث عن تحويل القبلة. فهو أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وهو أحد المساجد الثلاثة التي شرع السفر من أجل العبادة فيها، ففي الحديث الشريف عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلاَّ إلى ثلاثةِ مساجدَ، المسجدِ الحرامِ، ومسجِدي هذا، والمسجدِ الأقصى»[٢].

وقد ثبتَ عن النبيِّ ﷺ أنَّ ثواب الصلاة فيه يضاعف إلى خمسمئة ضعف.

ولعلَّ من حكمة الله تعالى في الإسراء برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم العروج به من المسجد الأقصى إلى السماوات، إظهارَ شرفِ هذا المسجد، وبيانَ فضلِه، فالسفرُ إليه بقصد العبادة قربةٌ من القربِ التي يتقرَّبُ بها إلى الله تعالى، فعله النبيُّ ﷺ فعلاً في الإسراء، كما مرَّ معنا، وحثَّ عليه في حديث شد الرحال السابق ذكره.

وعن ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قلتُ: يا رسول الله أفتنا في بيت المقدس.

فقال: «ائتوه فصلّوا فيه، فإن لم تأتوه وتصلّوا فيه، فابعثوا بزيتٍ يُسْرَجُ في قنادِيله»[٣].

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه أبو داود في سننه.

فلبلاد الشام رَحِمٌ وثيقٌ وقوي بمهبط الوحي بمكة المكرمة والمدينة المنورة، تمتد جذورُه في أعماق التاريخ إلى عهد إبراهيم عليه السلام عندما نزل بأرض الشام، وأنزل ولدَه إسماعيل وأمّه هاجر بأمر الله تعالى في أرض مكة، وكان كثيراً ما يتردّد مسافراً بين بلاد الشام ومكة المكرمة، متفقِداً ولده إسماعيل، حتى أمره الله تعالى برفع قواعد البيت الحرام ليكون مثابة للناس وأمناً، فقام مع ولده إسماعيل عليهما السلام برفع قواعده، ورفعا معها دعاءَهما: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]. كما مرَّ معنا.

وشدَّ على أواصر هذه الرحم وقواها الإسراءُ بنبيّنا ﷺ من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى، وخلّدها التنزيلُ الحكيم في القرآن الكريم.

فبلادُ الشامِ عموماً، وأرضُ فلسطينَ خصوصاً أرضٌ إسلاميةٌ، هي للإسلام والمسلمين ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، ومهما حاولوا أن ينزعوا عنها هويتها الإسلامية هذه فلن يتمكنوا، إذ قدر الله تعالى أن تكون للإسلام والمسلمين، قد يستطيعون احتلالها والإقامة فيها لفترة محدودة من الزمن، لا تعد شيئاً بالنسبة لعمرها المديد الطويل، كما حدث في أثناء الحروب الصليبية، فقد استمرَّ سلطانهم على بيت المقدس ثمانية وثمانين عاماً، ثم عادت بعد ذلك بفضل الله تعالى إلى أصحابها المسلمين. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. وإذا كان هذا ما كتبه الله تعالى في الأرض عموماً، فما بالك بالأرض التي بارك الله تعالى فيها وحولها، مهاجر إبراهيم عليه السلام، ومسرى رسولِه الكريم ﷺ؟!

* * *

الفصل العاشر

الهجرة إلى المدينة

عرض الدعوة على القبائل في المواسم:

بعد أن لجَّ مشركو قريش في عنادِهم وجحودِهم وإعراضِهم عن دعوة النبي ﷺ، شرعَ النبيُّ ﷺ يعرِضُ الدعوة على قبائل العرب في المواسم.

وكان للعرب مواسم تجتمع فيها، وأكثر هذه المواسم في مكة المكرمة وما يجاورها، وكان ﷺ يخرجُ إليها داعياً إلى الله تعالى، باحثاً عمّن يؤيده وينصره من قبائل العرب حتى يبلّغَ دعوة ربّه سبحانه، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: انطلق رسولُ الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين سوق عُكاظ، وقد حيل بين الشياطين وخبر السماء.. الحديث(١).

وقوله: «بطائفة من أصحابه» كان في ذي القعدة سنة عشر من المبعث، لمّا خرج النبيُّ ﷺ إلى الطائف، ثم رجع منها، ويؤيده قوله في هذا الحديث: «إن الجنَّ رأوه يصلي بأصحابه صلاةَ الفجرِ» فالصلاةُ المفروضة إنما شُرِعَت ليلة الإسراء ـ كما مرّ معنا ـ والإسراءُ كان على الراجح قبل الهجرة بسنتين أو ثلاثة، فتكون القصة بعد الإسراء.

لكنّه مشكِلٌ من جهة أخرى، لأنَّ محصل ما في (الصحيح) ـ كما تقدّم في بدء الخلق ـ وما ذكره ابن إسحاق أنه ﷺ لما خرج إلى الطائف لم يكن معه من

---

(١) انظر الحديث كاملاً في صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٩٢١.

أصحابه إلا زيد بن حارثة، وهنا قال: إنه انطلق في طائفةٍ من أصحابه، فلعلّها كانت وجهة أخرى.

ويمكن الجمع بأنه لما رجع لاقاه بعض أصحابه في أثناء الطريق فرافقوه.

قوله: «إلى سوق عكاظ» وهو موسمٌ معروف للعرب، بل كان من أعظمِ مواسمهم، وهو نخل في وادٍ بين مكة والطائف، وهو إلى الطائفِ أقرب، بينهما عشرة أميال، وهو وراءَ قرن المنازل بمرحلةٍ من طريق صنعاء اليمن(١).

وذكر ابن إسحاق وغيره أنَّ النبيَّ ﷺ كان بعدَ موت أبي طالب قد خرجَ إلى ثقيفٍ بالطائف يدعوهم إلى نصره، فلما امتنعوا منه، رجعَ إلى مكة، فكان يعرضُ نفسَه على قبائل العرب في مواسم الحج، فأتى كندة، وبني كعب، وبني حذيفة، وبني عامر بن صعصعة، وغيرهم، فلم يجبه أحدٌ منهم إلى ما سأل.

وقال موسى بن عقبة عن الزهري: فكان في تلك السنين ـ أي التي قبل الهجرة ـ يعرِضُ نفسَه على القبائل، ويكلِّمُ شريفَ كل قوم، لا يسألهم إلا أن يؤووه ويمنعوه، ويقول: «لا أُكرِهُ أحداً منكم على شيءٍ، بل أريدُ أن تمنعوا مَنْ يؤذيني حتى أبلِّغَ رسالةَ ربّي» فلا يقبله أحدٌ، بل يقولون: قومُ الرجلِ أعلمُ به.

وأخرج البيهقي، وأصلُه عند أحمد، وصححه ابنُ حِبان من حديث ربيعة ابن عِباد ـ بكسر المهملة وتخفيف الموحدة ـ قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ بسوق ذي المجاز يتبع الناس في منازلهم، يدعوهم إلى الله عزَّ وجلّ.

وروى أحمد وأصحاب السنن وصححه الحاكم من حديث جابر: كان رسول الله ﷺ يعرضُ نفسَه على الناس بالموسم، فيقول: «هلْ مِنْ رجلٍ يحمِلُني إلى قومِه؟ فإنَّ قريشاً منعوني أن أبلِّغَ كلامَ ربِّي» فأتاه رجلٌ من همدان فأجابه، ثم خشي أن لا يتبعه قومه، فجاء إليه فقال: آتي قومي أخبرُهم ثم آتيك من العام المقبل. قال: «نعم» فانطلق الرجل، وجاء وفد الأنصار في رجب(٢).

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٦٧١.

(٢) المرجع السابق: ٧/ ٢٢٠.

عرضه ﷺ الدعوة على بني عامر وبني محارب:

أخرج أبو نعيم في (دلائل النبوة) عن عبد الله بن كعب بن مالك رضي الله عنهما قال: أقام رسول الله ﷺ ثلاث سنين من نبوته مستخفياً، ثم أعلن في الرابعة، فدعا عشرَ سنين يوافي الموسمَ يتبع الحاجَّ في منازلهم: بعكاظ، ومجنة، وذي المجاز، يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلّغَ رسالةَ ربّه عزَّ وجلّ، ولهم الجنة، فلا يجدُ أحداً ينصره، حتى إنّه يسأل عن القبائل ومنازلهم قبيلة قبيلة، حتى انتهى إلى بني عامر بن صعصعة، فلم يلقَ من أحدٍ من الأذى قطّ ما لقيَ منهم، حتى خرجَ من عندهم، وإنّهم ليرمونه من ورائه، حتى انتهى إلى بني محارب بن خصفة، فوجد فيهم شيخاً ابنَ مئة سنة وعشرين سنة، فكلّمه رسول الله ﷺ ودعاه إلى الإسلام، وأن يمنعه حتى يبلّغ رسالة ربه، فقال الشيخ: أيها الرجل قومُك أعلمُ بنبئك، والله لا يؤوب بك رجلٌ إلى أهله إلا آبَ بشرٍّ ما يؤوبُ به أهلُ الموسم، فأغنِ عنّا نفسك. وإنّ أبا لهبٍ لقائمٌ يسمعُ كلام المحاربيّ، ثم وقف أبو لهب على المحاربيّ فقال: لو كان أهلُ الموسمِ كلُّهم مثلُك لتركَ هذا الدينَ الذي هو عليه، إنّه صابئ كذّابٌ. قال المحاربي: أنتَ واللهِ أعرفُ به، هو ابنُ أخيك ولحمتك، ثم قال المحاربي: لعلّ به يا أبا عتبة لمماً ـ جنون ـ فإنّ معنا رجلاً من الحيِّ يهتدي لعلاجه، فلم يرجع أبو لهب بشيء، غير أنّه إذا رآهُ وقفَ على حيّ من أحياء العرب صاح به أبو لهب إنّه صابئ كذّاب، وفي إسناده الواقدي[1].

عرضه ﷺ الدعوة على بني عبس:

وأخرج أبو نعيم أيضاً من طريق الواقديّ عن عبد الله بن وابصة العبسي عن أبيه عن جدّه قال: جاءنا رسول الله ﷺ في منازلنا بمنى، ونحن نازلون بالجمرة الأولى، التي تلي مسجد الخيف، وهو على راحلتِه، مردفاً خلفَه زيدَ بن حارثة، فدعانا، فوالله ما استجبنا له، ولا خيرَ لنا، قال: وقد كُنّا سمعنا به وبدعائه في الموسم، ووقفَ علينا يدعونا فلم نستجبْ له. وكان معنا ميسرة بن مسروق العبسي، فقال: أحلفُ بالله لو صدقنا هذا الرجل وحملناه حتى نحل به وسط

---

(١) حياة الصحابة: ١/ ٩٢.

رحالنا لكان الرأي، فأحلفُ بالله ليظهرنَّ أمرُه حتى يبلغَ كلَّ مبلغ. فقال له القوم: دعنا عنك، لا تعرّضنا لما لا قِبَلَ لنا به.

فطمع رسول الله ﷺ في ميسرة فكلّمه. فقال ميسرةُ: ما أحسنَ كلامك وأنورَه، ولكنّ قومي يخالفونني، وإنّما الرجلُ بقومه، فإن لم يعضدوه فالعداء أبعد[1].

فانصرف رسول الله ﷺ وخرج القوم صادرين إلى أهليهم. فقال لهم ميسرة: ميلوا بنا إلى فدك، فإنّ بها يهود نسائلُهم عن هذا الرجل. فمالوا إلى يهود، فأخرجوا سِفراً لهم فوضعوه، ثم درسوا ذِكْرَ رسول الله ﷺ «النبيِّ الأميِّ العربيّ، يركبُ الجملَ، ويجتزِىءُ بالكسرة[2]، وليس بالطويل ولا بالقصير، ولا بالجعد ولا بالسبط، في عينه حمرة، مشربُ اللون». فإن كان هذا هو الذي دعاكم فأجيبوه، وادخلوا في دينه، فإنّا نحسده فلا نتّبعه، ولنا منه في مواطن بلاء عظيم، ولا يبقى أحد من العرب إلاّ اتّبعه أو قاتله، فكونوا ممن يتّبعه.

وقال ميسرة: يا قوم إنّ هذا الأمرَ بيّنٌ، قال القوم: نرجع إلى الموسم فنلقاه. فرجعوا إلى بلادهم، وأبى ذلك عليهم رجالهم، فلم يتّبعه أحدٌ منهم.

فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وحجَّ حجة الوداع، لقيه ميسرةُ فعرفه. فقال يا رسول الله: واللهِ ما زلتُ حريصاً على اتّباعك من يوم أنختَ بنا، حتى كان ما كان، وأبى اللهُ إلا ما ترى من تأخير إسلامي، وقد مات عامةُ النفرِ الذين كانوا معي، فأينَ مدخلهم يا نبيَّ الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «كلُّ مَنْ ماتَ على غيرِ دينِ الإسلامِ فهو في النار». فقال: الحمدُ للهِ الذي أنقذني، فأسلمَ فحَسُنَ إسلامُه، وكان له عند أبي بكر رضي الله عنه مكان[3]

عرضُه ﷺ الدعوة على كندة:

وأخرج أبو نعيم في (الدلائل) أيضاً من طريق الواقدي: حدّثني محمد بن

---

(١) أي فإن لم ينصره قومه فالأعداء أبعد أن ينصروه.

(٢) أي يكتفي بكسرة الخبز.

(٣) حياة الصحابة: ١/ ٩٤.

عبد الله بن كثير بن الصامت عن ابن رومان وعبد الله بن أبي بكر وغيرهما رضي الله عنهم قالوا: جاء رسولُ الله ﷺ كندةَ في منازلهم بعُكاظ، فلم يأتِ حيّاً من العرب كان ألين منهم، فلمّا رأى لينَهم وقوّة جبههم له ـ أي قوة منطقهم ـ جعلَ يكلِّمهم ويقول: «أدعوكم إلى اللهِ وحدَه لا شريكَ له، وأن تمنعوني ممن تمنعونَ منه أنفسَكم، فإن أظهر فأنتم بالخيار».

فقال عامتهم: ما أحسن هذا القول! ولكنّا نعبدُ ما كان يعبدُ آباؤنا.

قال أصغر القوم: يا قوم! اسبقوا إلى هذا الرجل قبلَ أن تُسبقوا إليه، فواللهِ إنَّ أهلَ الكتاب ليحدّثون أنَّ نبياً يخرجُ من الحرم، قد أظلَّ زمانُه.

وكان في القوم إنسانٌ أعور، فقال: أمسكوا علي ـ أي اسكتوا حتى أتكلّم ـ أخرجته عشيرتُه وتؤونه؟! أنتم تحمِلون حربَ العربِ قاطبةً، لا ثم لا.

فانصرف عنهم رسولُ الله ﷺ حزيناً، فانصرفَ القومُ إلى قومهم فأخبروهم. فقال رجلٌ من اليهود: واللهِ إنّكم مخطئون بخطئكم[1]، لو سبقتم إلى هذا الرجل لسدتم العربَ، ونحنُ نجدُ صفته بكتابنا. فوصفه للقوم الذين رأوه، كلُّ ذلك يصدّقونه بما يصفُ من صفته. ثم قال: نجدُ مخرجَه بمكة، ودارَ هجرتِه يثرب. فأجمع القوم ليوافوه في الموسم القادم، فحبسهم سيّدٌ لهم عن حجِّ تلك السنة، فلم يوافِ أحدٌ منهم. فماتَ اليهوديُّ، فسُمِعَ عند موته يصدِّقُ بمحمد ﷺ ويؤمنُ به[2].

عرضه ﷺ الدعوة على بني عامر بن صعصعة:

وأخرج أبو نعيم في (دلائل النبوة) عن عبد الرحمن العامري عن أشياخ من قومه قالوا: أتانا رسول الله ﷺ ونحن بسوق عكاظ، فقال: «ممن القوم؟» قلنا: من بني عامر بن صعصعة. قال: «من أي بني عامر؟» قلنا: بنو كعب بن ربيعة. قال: «كيف المنعة فيكم؟» قلنا: لا يرامُ ما قبلنا، ولا يُصْلَى بنارنا. قال: فقال لهم: «إنّي رسولُ الله، فإنْ أتيتُكم تمنعوني حتى أبلّغَ رسالةَ ربّي؟ ولن أُكرِهَ أحداً

(١) كذا في الأصل ولعل الصواب: إنكم مخطئون بحظكم، أي فاتكم الحظ. أو بخطبكم: أي بأمركم وحالكم.
(٢) حياة الصحابة: ١/ ٩٥.

منكم على شيء؟». قالوا: ومن أيِّ قريش أنت؟ قال: «من بني عبد المطلب». قالوا: فأين أنتَ من بني عبد مناف؟ قال: «هم أوّلُ من كذّبني وطردني». قالوا: ولكنّا لا نطردُكَ ولا نؤمنُ بك، ونمنعُكَ حتى تبلّغ رسالةَ ربّك.

قال: فنزل إليهم والقوم يتسوقون، إذ أتاهم بجرة بن قيس القشيريُّ فقال: من هذا الذي أراهُ عندَكم؟ أنكره. قالوا: محمد بن عبد الله القرشي.
قال: ما لكم وله؟ قالوا: زعمَ لنا أنَّه رسولُ الله، يطلبُ إلينا أن نمنعَه حتى يبلِّغَ رسالةَ ربّه. قال: فماذا رددتم عليه؟ قالوا: قلنا في الرحب والسعة، نخرجُكَ إلى بلادِنا، ونمنعُكَ مما نمنعُ به أنفسنا. قال بجرة: ما أعلمُ أحداً من أهل هذا السوقِ يرجعُ بشيءٍ أشرَّ بشيءٍ ترجعونَ به، بدأتم بتنابذ الناس، وترميكم العربُ عن قوسٍ واحدة، قومُه أعلمُ به، لو آنسوا منه خيراً لكانوا أسعدَ الناس به، تعمدونَ إلى زهيق قوم ـ سفيه قوم ـ قد طرده قومُه، وكذّبوه، فتؤونه، وتنصرونه، فبئسَ الرأيُ رأيتم!

ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: قم فالحق بقومِك، فواللهِ لولا أنّكَ عند قومي لضربتُ عنقَك. قال: فقام رسول الله ﷺ إلى ناقتِه فركبها، فغمزَ الخبيثُ بجرةُ شاكِلَتها ـ خاصرتها ـ فقَمَصَتْ ـ وثبت ـ برسولِ الله ﷺ فألقتْهُ، وعند بني عامر يومئذٍ ضباعة بنت عامر بن قرط، كانت من النسوةِ اللاتي أسلمنَ مع رسول الله ﷺ بمكة، جاءت زائرة إلى بني عمها، فقالت: يا آل عامر، ولا عامر لي، أَيُصْنَعُ هذا برسولِ الله ﷺ بينَ أظهرِكم لا يمنعُه أحدٌ منكم؟ فقام ثلاثة نفر من بني عمها إلى بجرة، واثنين أعاناه، فأخذَ كلُّ رجلٍ منهم رجلاً، فجلَد به الأرض، ثم جلسَ على صدرِه، ثم علوا وجوههم لطماً، فقال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ بارك على هؤلاء، والعن هؤلاء» قال: فأسلمَ الثلاثةُ الذين نصروه، فقُتلوا شهداء، وهلكَ الآخرون لعناً. واسم الاثنين اللذين نصرا بجرة بن فراس: حزن بن عبد الله، ومعاوية بن عبادة. وأما الثلاثة الذين نصروا رسول الله ﷺ: فغطريف وغطفان ابنا سهل، وعروة بن عبد الله. وأخرجه الحافظ سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي في مغازيه عن أبيه به[1].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير: ٣/ ١٤١.

وعند ابن إسحاق عن الزهري أنّه أتى بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسَه، فقال له رجلٌ منهم يقال له بحيرة بن فراس: واللهِ لو أنّي أخذتُ هذا الفتى من قريش لأكلتُ به العربَ. ثم قال له: أرأيتَ إنْ نحنُ تابعناك على أمرِكَ، ثم أظهركَ اللهُ على مَنْ يخالفك، أيكونُ لنا الأمرُ من بعدِك؟ قال ﷺ: «الأمرُ لله يضعُه حيثُ يشاءُ». قال: أفنهدِفُ نحورَنا للعرب دونَك، فإذا أظهرَكَ اللهُ كان الأمرُ لغيرنا؟! لا حاجةَ لنا بأمرِك. فأبوا عليه.

فلما صدر الناسُ رجعت بنو عامر إلى شيخٍ لهم قد أدركه السن، حتى لا يقدر أن يوافي معهم المواسم، فكان إذا رجعوا إليه حدّثوه بما يكونُ في ذلك الموسم. فلمّا قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم، فقالوا: جاءنا فتًى من قريش، ثم أحد بني عبد المطلب، يزعم أنّه نبي، يدعونا إلى أن نمنعَه ونقومَ معه، ونخرجَ به إلى بلادِنا.

قال: فوضعَ الشيخُ يدَه على رأسِه، ثم قال: يا بني عامر! هل لها من تلاف؟ هل لذناباها من مطلب؟[1] والذي نفسُ فلانٍ بيدِه ما تقوّلها إسماعيليٌّ قطّ[2]، وإنَّها لحقٌّ، فأينَ رأيُكم كان عنكم؟[3].

عرضه ﷺ الدعوة على بني شيبان:

وأخرج أبو نعيم في (الدلائل) عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما أمرَ اللهُ عزَّ وجلّ نبيّه ﷺ أن يعرضَ نفسَه على قبائل العرب، خرجَ وأنا معه وأبو بكر إلى مِنى، حتى دفعنا ـ انتهينا ـ إلى مجلس من مجالس العرب. فتقدّم أبو بكر فسلّم، وكان أبو بكر مقدّماً في كلِّ خير. وكان رجلاً نسابةً. فقال: ممّن القوم؟ قالوا: من ربيعة. قال: وأيُّ ربيعةٍ أنتم؟ ـ فذكرَ الحديثَ بطوله ـ وفيه قال:

ثم انتهينا إلى مجلسٍ عليهم السكينةُ والوقارُ، وإذا مشايخ لهم أقدارٌ

---

(١) هذا مثل يُضرَب لما فات، وأصله من [ذنابا الطائر] إذا أفلت من الحبالة فطلبت الأخذ به.
(٢) أي ما ادّعى النبوة كاذباً أحد من بني إسماعيل عليه السلام.
(٣) حياة الصحابة: ١/ ٩٧ نقلاً عن البداية لابن كثير: ٣/ ١٤٠.

وهيئات، فتقدّم أبو بكر، فسلّم، وقال: ممن القوم؟ قالوا: نحن بنو شيبان بن ثعلبة. فالتفتَ إلى رسولِ الله ﷺ فقال: بأبي أنتَ وأمي ليس بعدَ هؤلاء مِنْ عِزٍّ في قومهم.

وكان في القومِ: مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك. وكان أقربَ القوم إلى أبي بكر مفروقُ بن عمرو، وكان مفروق قد غلبَ عليهم بياناً ولساناً، وكانت له غديرتان تسقطان على صدره، وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر. فقال له أبو بكر: كيف العددُ فيكم؟ فقال له: إنّا لنزيدُ على الألف، ولن يُغْلَبَ ألفٌ من قلّة. قال: فكيف المنعةُ فيكم؟ قال: علينا الجهدُ، ولكلِّ قومٍ جَدٌّ (أي حظ). قال أبو بكر: فكيف الحربُ بينكم وبين عدوّكم؟ قال مفروقٌ: إنَّا أشدُّ ما نكون غضباً حين نلقى. وإنّا أشدُّ ما نكون لقاءً إذا غضبنا، وإنا لنؤثِرُ الجيادَ على الأولاد، والسلاحَ على اللّقاح[1]، والنصرُ من عندِ الله، يديلُنا مرة، ويديلُ علينا مرة، لعله أخو قريش؟ قال أبو بكر: إن كان بلغكم أنَّه رسولُ الله ﷺ فها هو ذا. فقال مفروق: قد بغلنا أنه يذكر ذلك.

ثم التفتَ إلى رسول الله ﷺ فقال: إلامَ تدعو ياأخا قريش؟

فتقدّم رسولُ الله ﷺ فجلسَ، وقام أبو بكر يظلُّه بثوبه، فقال رسول الله ﷺ: «أدعوكم إلى شهادةِ أن لا إلـه إلا الله وحدَه، وأنّي رسولُ الله، وأن تؤوني، وتمنعوني، وتنصروني، حتى أؤدي عن الله تعالى ما أمرني به، فإنَّ قريشاً قد تظاهرت على أمرِ الله[2]، وكذّبت رسولَه، واستغنت بالباطلِ عن الحقّ، واللهُ هو الغنيُّ الحميد».

قال له: وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش؟

فتلا رسول الله ﷺ: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا

---

(١) اللقاح: جمع لقحة بكسر اللام وفتحها الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.

(٢) أي تعاونت على حرب دين الله.

بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣].

فقال له مفروق: وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فواللهِ ما هذا من كلامِ أهلِ الأرضِ، ولو كانَ من كلامهم لعرفناه.

فتلا رسول الله ﷺ: ﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

فقال له مفروق: دعوتَ واللهِ يا قرشيّ إلى مكارمِ الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفِكَ قومٌ كذّبوكَ وظاهروا عليك.

وكأنّه أحبَّ أن يشركه في الكلام هانىءُ بن قبيصة، فقال: وهذا هانئ بن قبيصة شيخُنا وصاحبُ ديننا.

فقال له هانئ: قد سمعتُ مقالتك يا أخا قريش، وصدقتُ قولك، وإنّي أرى أنَّ تركَنا ديننا واتّباعنا إياك على دينك بمجلس جلستَه إلينا ليس له أول ولا آخر، ولم نتفكر في أمرك، وننظر في عاقبة ما تدعونا إليه، زلة في الرأي، وطيشة في العقل، وقلة نظر في العاقبة، وإنّما تكونُ الزلة مع العجلة، وإنّ من ورائنا قوماً نكرَهُ أن نعقدَ عليهم عقداً، ولكن ترجع ونرجع، وتنظر وننظر.

وكأنّه أحبَّ أن يشركه في الكلام المثنى بن حارثة فقال: وهذا المثنى شيخُنا وصاحبُ حربنا، فقال المثنى: قد سمعتُ مقالتك، واستحسنتُ قولك يا أخا قريش، وأعجبني ما تكلّمتَ به، والجوابُ هو جاوبُ هانئ بن قبيصة، إنما نزلنا بين صيرين[1]: أحدهما اليمامة، والآخر السماوة.

---

(١) الصير: الماء الذي يحضره الناس.

فقال له رسول الله ﷺ: وما هذان الصيران؟

فقال له: أما أحدُهما فطفوفُ[1] البر، وأرض العرب، وأما الآخر فأرض فارس، وأنهار كسرى، وإنما نزلنا على عهدٍ أخذَه علينا كسرى ألا نحدث حدثاً، ولا نؤوي محدثاً، ولعلّ هذا الأمر الذي تدعونا إليه مما تكرهه الملوك، فأمّا ما كان مما يلي بلاد العرب فذنبُ صاحبه مغفورٌ، وعذرُه مقبولٌ، وأما ما كان مما يلي بلادَ فارس فذنبُ صاحبِه غيرُ مغفور، وعذرُه غيرُ مقبولٍ، فإن أردتَ أن ننصركَ مما يلي العربَ فعلنا.

فقال رسول الله ﷺ: «ما أسأتم الردَّ إذ أفصحتم بالصدقِ، إنَّه لا يقومُ بدينِ اللهِ إلاّ مَنْ حاطَه مِنْ جميع جوانبه».

ثم نهض رسولُ اللهِ ﷺ قابضاً على يد أبي بكر، ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج، فما نهضنا حتى بايعوا رسول الله ﷺ. قال علي رضي الله عنه: وكانوا صدقاً صُبراً، رضوان الله عليهم أجمعين.

كذا في (دلائل النبوة) لأبي نُعيم. وقال في (البداية): رواه أبو نُعيم والحاكم والبيهقي. ولفظ أبي نُعيم: فذكرَ الحديث، وفيه بعد قوله: «إنّه لا يقومُ بدينِ الله إلا مَنْ حاطه من جميعِ جوانبِه» ثم قال رسول الله ﷺ: «أرأيتُم إنْ لم تلبثوا إلا يسيراً حتى يمنحكم الله بلادَهم وأموالَهم ويفرِشَكم بناتهم، أتسبّحونَ الله وتقدّسونه؟».

فقال له النعمان بن شريك: اللهمَّ وإن ذلك لك يا أخا قريش.

فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦].

ثم نهض رسولُ الله ﷺ قابضاً على يدي أبي بكر رضي الله عنه. قال علي رضي الله عنه: ثم التفت إلينا رسولُ الله ﷺ، فقال: «يا علي، أيةُ أخلاقٍ للعربِ كانتْ في الجاهلية، ما أشرفَها؟! بها يتحاجزون في الحياة الدنيا».

قال: ثمّ دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج فما نهضنا حتى بايعوا النبيَّ ﷺ.

---

(١) الطفوف: جمع طف، وهو ما أشرف من الأرض.

قال علي: وكانوا صدقاء صبراء. فَسُرَّ رسولُ الله ﷺ من معرفةِ أبي بكر بأنسابهم.

قال: فلم يلبث رسولُ الله ﷺ إلا يسيراً حتى خرجَ إلى أصحابه، فقال لهم: «احمدوا الله كثيراً، فقد ظفرتْ اليومَ ربيعةُ بأهل فارس[1] قتلوا ملوكَهم، واستباحوا عسكرَهم، وبي نصروا».

وقد ورد هذا من طريق أخرى، وفيه أنهم لما تحاربوا هم وفارس والتقوا معهم بقراقر - مكان قريب من الفرات - جعلوا شعارَهم اسم محمد ﷺ فنصروا على فارس بذلك[2]. وقد دخلوا بعد ذلك في الإسلام.

وقال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري): أخرج الحاكم وأبو نُعيم والبيهقي في (الدلائل) بإسنادٍ حسنٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما: حدّثني علي بن أبي طالب رضي الله عنه. فذكر شيئاً من هذا الحديث[3].

وأخرجَ أحمد عن ربيعة بن عبّاد من بني الدّيل - وكان جاهلياً فأسلم - قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ في الجاهليةِ في سوقِ ذي المجاز وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا: لا إلـه إلا الله تُفلحوا» والناسُ مجتمعون عليه، ووراءه رجلٌ وضيءُ الوجه أحول، ذو غديرتين يقول: إنّه صابىءٌ كاذبٌ. يتبعه حيث ذهبَ، فسألتُ عنه فقالوا: هذا عَمُّه أبو لهب.

وأخرجه البيهقي بنحوه كما في (البداية) وقال الهيثمي: رواه أحمد وابنه، والطبراني في (الكبير) بنحوه، وعزاه الحافظ في (الفتح) إلى البيهقي وأحمد، وقال: صححه ابن حبان. قال الهيثمي: وفي رواية: ورسولُ الله ﷺ يفرُّ منه وهو يتبعه. وفي رواية: والناسُ منقصفون عليه - أي متزاحمون، فما رأيتُ أحداً يقول شيئاً وهو لا يسكت.

وأخرج الطبرانيُّ عن **طارق بن عبد الله** قال: إني بسوق ذي المجاز إذ مرَّ رجلٌ شابٌّ عليه حلّة من برد أحمر، وهو يقول: «يا أيّها الناسُ قولوا لا إلـه إلا الله

---

(١) أبناء ربيعة هم القبيلة التي منها بنو شيبان.
(٢) وهذه الواقعة هي واقعة ذي قار المشهورة في التاريخ.
(٣) حياة الصحابة: ١/ ١٠٣.

تفلحوا» ورجلٌ خلفه قد أدمى عرقوبيه وساقيه، يقول: يا أيها الناس إنّه كذّاب، فلا تطيعوه. فقلت: من هذا؟ قال: غلام بني هاشم الذي يزعم أنه رسول الله، وهذا عَمُّه عبد العزّى. فذكر الحديث[1].

عرضه ﷺ الدعوة على الأوس والخزرج:

هكذا كانت دعوة النبيِّ ﷺ على قبائل العرب في الأسواق والمواسم، وظلَّ ﷺ على ذلك الحق حتى قُدّرَ له لقاء بعض الأوس والخزرج، فدعاهم إلى الإسلام فاستجابوا لدعوته، وآمنوا به، وهم الذين سَمّاهم رسولُ الله ﷺ الأنصار، لكونهم أجابوه إلى إيوائه ونصره، وكانوا ستة نفر، وهم: أبو أمامة أسعد بن زُرارة النّجاري، ورافع بن مالك بن العجلان العجلاني، وقُطبة بن عامر بن حديدة، وجابر بن عبد الله بن رئاب، وعُقبة بن عامر ـ وهؤلاء الثلاثة من بني سلمة ـ وعوف بن الحارث بن رفاعة من بني مالك بن النجار.

وقال موسى بن عقبة عن الزهري وأبو الأسود عن عروة: هم أسعد بن زُرارة، ورافع بن مالك، ومُعاذ بن عفراء، ويزيد بن ثعلبة، وأبو الهيثم بن التيهان، وعويم بن ساعدة. ويقال: كان فيهم عبادة بن الصامت وذكوان.

قال ابن إسحاق: حدّثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قال: لمّا رآهم النبيُّ ﷺ قال: من أنتم؟ قالوا: من الخزرج. قال: أفلا تجلسون أكلّمكم؟ قالوا: نعم. فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

وكان مما صنع الله لهم أنَّ اليهودَ كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب، وكان الأوسُ والخزرجُ أكثرَ منهم، فكانوا إذا كان بينهم شيءٌ قالوا: إنَّ نبيّاً سيُبعَثُ الآن قد أظلَّ زمانُه نتّبعه، فنقتلكم معه[2]. فلمّا كلّمهم النبيُّ ﷺ عرفوا النعتَ، فقال بعضهم لبعض: لا تسبِقُنا إليه يهودُ، فآمنوا وصدّقوا، وانصرفوا إلى بلادهم ليدعوا قومهم، فلمّا أخبروهم، لم يبقَ دور من قومهم إلا

---

(١) حياة الصحابة: ١/ ١٠٧.
(٢) سبق معنا أنهم كانوا يستفتحون برسول الله ﷺ ويستنصرون به على أعدائهم.

وفيها ذكر رسول الله ﷺ، حتى إذا كان الموسم وافاه منهم اثنا عشر رجلاً[(١)].

وقد أضافت السيدةُ عائشةُ رضي الله عنها سبباً آخر إلى مبادرة الأنصار بقبول دعوة النبي ﷺ فقالت: كان يومُ بعاثٍ قدّمه الله لرسوله ﷺ، فقَدِمَ رسولُ الله ﷺ وقد افترقَ ملؤهم، وقتلت سرواتهم، وجرحوا، قدَّمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام[(٢)]. ويوم بُعاث يومٌ حدث فيه قتالٌ شديد بين الأوس الخزرج.

وأخرج أبو نعيم في (الدلائل) من طريق الواقدي عن إسحاق بن حباب عن يحيى بن يعلى قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوماً، وهو يذكر الأنصار وفضلَهم، وسابقتَهم، ثم قال: إنّه ليس بمؤمنٍ من لم يحبّ الأنصار، ويعرف لهم حقوقهم، هم والله! ربّوا الإسلام كما يربَىٰ الفلو ـ المهر الصغير ـ في غنائهم بأسيافهم، وطول أسنَّتهم، وسخاء أنفسهم.

لقد كان رسول الله ﷺ يخرجُ في المواسم، فيدعو القبائل، ما أحدٌ من الناسِ يستجيبُ له، ويقبلُ منه دعاءَه، فقد كان يأتي القبائلَ بمجنة وعُكاظ وبمنى، حتى يستقبل القبائل يعود إليهم سنة بعد سنة، حتى إنّ القبائلَ منهم من قال: ما آن لك أن تيأس مِنّا؟ من طول ما يعرِضُ نفسَه عليهم، حتى أراد الله عزّ وجلّ ما أرادَ بهذا الحيِّ من الأنصار، فعرضَ عليهم الإسلام، فاستجابوا وأسرعوا، وأووا ونصروا، وواسوا، فجزاهم الله خيراً.

قدمنا عليهم، فنزلنا معهم في منازلهم، ولقد تشاحّوا فينا[(٣)]، حتى إن كانوا ليقترعون علينا، ثم كنا في أموالهم أحقَّ بها منهم، طيِّبةً بذلك أنفسهم، ثم بذلوا مُهَجَ أنفسهم دونَ نبيّهم صلى الله عليه وعليهم أجمعين.

وأخرج أبو نُعيم أيضاً في (الدلائل) عن أم سعد بنت سعد بن ربيعة رضي الله عنهما قالت: أقام رسـولُ الله ﷺ بمكة يدعو القبائل إلى الله عـزَّ وجلّ فيُؤذَى ويُشتَم، حتى أرادَ الله عزَّ وجلّ بهذا الحي من الأنصار ما أراد من الكرامة، فانتهى

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٢٢٠.

(٢) صحيح البخاري في مناقب الأنصار: ٦/ ٣٨٤.

(٣) أي أراد كل منهم أن يستأثر بنا.

رسول الله ﷺ إلى نفرٍ منهم عند العقبة، وهم يحلقون رؤوسهم. قلت: من هم يا أُمّه؟ قالت: ستة نفر أو سبعة، منهم من بني النجار ثلاثة: أسعد بن زُرارة، وابنا عفراء. ولم تسمِّ لي مَنْ بقي. قالت: فجلسَ رسول الله ﷺ إليهم، فدعاهم إلى اللهِ عزَّ وجلّ، فقرأ عليهم القرآنَ، فاستجابوا لله ولرسوله. فوافوا قابلة[1]، وهي العقبة الأولى، ثم كانت العقبة الآخرة[2].

بيعة العقبة الثانية:

وهي البيعة التي حضرها كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه، وتحدّث عنها في حديث توبته عندما تخلّف عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك ـ كما سيأتي معنا ـ حضر رضي الله عنه بيعةَ العقبةِ الثانية، وقال: «ولقد شهدتُ مع النبيِّ ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها»[3].

وقوله: «وما أحبُّ أنّ لي بها مشهدَ بدر» لأنَّ مَنْ شهدَ بدراً، وإن كان فاضلاً بسبب أنها أول غزوة نصر فيها الإسلام، لكنَّ بيعة العقبة كانت سبباً في فشو الإسلام، ومنها نشأ مشهد بدر.

قال ابن إسحاق: حدّثني معبد بن كعب بن مالك أنَّ أخاه عبد الله ـ وكان من أعلم الأنصار ـ حدّثه أنّ أباه كعباً حدّثه، وكان ممن شهد العقبة وبايعَ بها، وقال: خرجنا حجاجاً مع مشركي قومنا، وقد صلّينا وفقهنا، ومعنا البَراء بن معرور سيدنا وكبيرنا، فلمّا وصلنا إلى مكة، ولم نكن رأينا رسولَ الله ﷺ قبلَ ذلك، فسألنا عنه فقيل: هو مع العباس في المسجد، فدخلنا فجلسنا إليه، فسأله البراء عن القبلة، ثم خرجنا إلى الحج، وواعدناه العقبة، ومعنا عبد الله بن عمرو والد جابر، ولم يكن أسلم قبلُ، فعرّفناه أمرَ الإسلام فأسلم حينئذٍ، وصار من النقباء.

قال: فاجتمعنا عند العقبة ثلاثة وسبعين رجلاً، ومعنا امرأتان: أم عمارة

---

(١) أي جاؤوا السنة المقبلة التالية.

(٢) حياة الصحابة: ١/ ١٠٤.

(٣) صحيح البخاري، في مناقب الأنصار، رقم ٣٨٨٩.

بنت كعب إحدى نساء بني مازن، وأسماء بنت عمرو بن عدي إحدى نساء بني سلمة.

قال: فجاء ومعه العباس فتكلّم فقال: إنَّ محمداً منا من حيثُ علمتم، وقد منعناه، وهو في عـزٍّ، فإن كنتم تريدونَ أنكم وافـون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وذاك، وإلاّ فَمِنَ الآن.

فقلنا: تكلّم يا رسول الله، فخذ لنفسِكَ ما أحببتَ. فتكلَّم فدعا إلى الله، وقرأ القرآن، ورغَّب في الإسلام، ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءَكم». فأخذ البراءُ بن معرور بيدِه فقال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «أسالِمُ من سالمتم، وأحارِبُ من حاربتم»، ثم قال: «أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيباً».

وذكر ابن إسحاق النقباء، وهم: أسعد بن زُرارة، ورافع بن مالك، والبراء ابن مَعْرور، وعُبادة بن الصامت، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وسعد بن الربيع، وعبدُ الله بن رواحة، وسعد بن عُبادة، والمنذر بن عمرو بن حُبيش، وأُسيد بن حُضير، وسعد بن خيثمة، وأبو الهيثم بن التيهان.

وفي (المستدرك) عن ابن عباس: كان البراء بن معرور أوّل من بايع النبيّ ﷺ ليلة العقبة. قال ابن إسحاق: حدّثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم أنَّ رسول الله ﷺ قال للنقباء: «أنتم كفلاء على قومِكم ككفالةِ الحواريين لعيسى ابن مريم».

قالوا: نعم[١].

وممَّن حضرَ بيعة العقبة الثانية جابرُ بن عبد الله مع أبيه رضي الله عنهما، ففي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «شهد بي خالايَ العقبة». قال ابن عُيينة: أحدهما البراء بن معرور.

وعن جابر أيضاً قال: أنا وأبي وخالاي من أصحاب العقبة[٢].

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٢٢١.
(٢) صحيح البخاري في الإيمان رقم (١٨).

وتحدّث **عبادة بن الصامت** رضي الله عنه عن بيعةِ العقبة ومضمونها فقال كما في الحديث عن عائذ الله بن عبد الله أنَّ عبادة بن الصامت من الذين شهدوا بدراً مع رسول الله ﷺ، ومن أصحابه ليلة العقبة، أخبره أنَّ رسولَ الله ﷺ قال وحوله عصابةٌ من أصحابه: «تعالَوا بايعوني على أنْ لا تشرِكُوا باللهِ شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادَكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلِكُم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفّى منكم فأجرُه على الله، ومن أصابَ من ذلك شيئاً فعُوقِبَ به في الدنيا، فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله، فأمرُه إلى الله: إنْ شاء عاقبه، وإن شاءَ عفا عنه» قال: فبايعناه على ذلك.

وفي رواية أخرى عنه أنّه قال: إنِّي مِنَ النقباءِ الذين بايعوا رسولَ الله ﷺ، بايعناهُ على أن لا نشركَ باللهِ شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل النفسَ التي حرَّمَ الله إلا بالحق، ولا ننتهب، ولا نعصي[1]: بالجنة إنْ فعلنا ذلك، فإن غشينا من ذلك شيئاً كان قضاءُ ذلك إلى الله.

وروى البيهقي من طريق عبد الله بن عثمان بن خثيم عن إسماعيل بن عبد الله ابن رفاعة عن أبيه قال: قال **عُبادة بن الصامت**: بايعنا رسولَ الله ﷺ على السمع والطاعةِ في النشاطِ والكسلِ. فذكر الحديث، وفيه: وعلى أنْ ننصرَ رسولَ الله ﷺ إذا قدمَ يثربَ بما نمنعُ به أنفسَنا وأزواجَنا وأولادنا، ولنا الجنة. فهذه بيعةُ رسولِ الله ﷺ التي بايعناه عليها.

وعند أحمد بإسنادٍ حسن، وصحّحه الحاكم وابن حِبّان عن **جابرٍ** مثله، وأوّله: مكثَ رسولُ الله ﷺ عشرَ سنين يتبعُ الناسَ في منازلهم في المواسم بمنى

---

(١) ووقع عند البخاري في باب وفود الأنصار عن قتيبة عن الليث (ولا نقضي) بقاف وضاد معجمة، والحافظ في الفتح (١/ ٩٤ ـ ٩٥): وهو تصحيف، ويكفي في ثبوت دعوى التصحيف فيه رواية مسلم عن قتيبة بالعين والصاد المهملتين، وكذا الإسماعيلي عن الحسن بن سفيان، ولأبي نعيم من طريق موسى بن هارون كلاهما عن قتيبة.
وكذا هو عند البخاري في الحديث في الديات عن عبد الله بن يوسف عن الليث في معظم الروايات، لكن عن الكُشمَيهني بالقاف والضاد أيضاً، وهو تصحيف.

وغيرها يقول: مَنْ يؤويني، مَنْ ينصُرُني حتى أبلِّغَ رسالةَ ربّي وله الجنة؟ حتى بعثنا اللهُ من يثربَ فصدقناه. فذكر الحديث حتى قال: فرحلَ إليه منا سبعون رجلاً، فواعدناه بيعةَ العقبةِ، فقلنا: علام نبايعك؟ فقال: «على السمع والطاعةِ في النشاطِ والكسلِ، وعلى النفقةِ في العُسْرِ واليُسرِ، وعلى الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر، وعلى أن تنصروني إذا قدمتُ عليكم يثربَ، فتمنعوني مما تمنعونَ منه أنفسكم وأزواجَكم وأبناءَكم، ولكم الجنة» الحديث.

ولأحمد من وجهٍ آخر عن **جابر** قال: كان العباسُ آخذاً بيد رسول الله ﷺ، فلمّا فرغنا، قال رسول الله ﷺ: «أخذت وأعطيت».

وللبزار من وجهٍ آخر عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ للنقباء من الأنصار: «تؤوني وتمنعوني؟» قالوا: نعم. قالوا: فما لنا؟ قال: «الجنة».

وروى البيهقي بإسنادٍ قوي عن الشعبي، ووصلَه الطبرانيُّ من حديث أبي موسى الأنصاري قال: انطلق رسولُ الله ﷺ معه العباس عمه إلى السبعين من الأنصار عند العقبة، فقال له أبو أمامة ـ يعني أسعد بن زُرارة ـ سل يا محمّدُ لربّك ولنفسِكَ ما شئتَ، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب؟ قال: «أسألُكم لربّي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأسألُكم لنفسي ولأصحابي أن تؤونا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعونَ منه أنفسكم». قالوا: فما لنا؟ قال: «الجنة». قالوا: ذلك لك.

وذكر ابن إسحاق أنّ النبيَّ ﷺ بعثَ مع الاثني عشر رجلاً ـ وهم أصحاب بيعة العقبة الأولى ـ مُصعَبَ بنَ عُمير العبدري، وقيل: بعثه إليهم بعدَ ذلك بطلبهم ليفقّههم ويقرئهم، فنزل على أسعد بن زُرارة.

فروى أبو داود من طريق **عبد الرحمن بن كعب بن مالك** قال: كان أبي إذا سمعَ الأذانَ للجُمعة استغفرَ لأسعدِ بن زُرارة، فسألتُه فقال: كان أولَ من جمع بنا بالمدينة[1].

وللدارقطني من حديث **ابن عباس** أنَّ النبيَّ ﷺ كتب إلى مصعب بن عمير أن اجمع بهم. فأسلمَ خلقٌ كثيرٌ من الأنصار على يد مصعب بن عمير بمعاونة

(١) أي صلى بنا صلاة الجمعة.

أسعد بن زُرارة حتى فشا الإسلامُ بالمدينة، فكان ذلك سببَ رحلتهم في السنة المقبلة حتى وافى منهم العقبةَ سبعون مسلماً وزيادة، فبايعوا كما تقدم[1].

الهجرة خروج لا إخراج:

كان مصعبُ بن عمير رضي الله عنه أول المهاجرين إلى المدينة المنورة وتتابعت بعده هجرةُ المهاجرين رضي الله عنهم، وكان النبيُّ ﷺ يحثّهم عليها، وبقي ﷺ في مكـة المكرّمة بعد أن هاجرَ أكثـرُ أصحابه منتظراً أمرَ الله تعالى له بـالهجرة، وبقي معه أبو بكر الصديق رضي الله عنه أيضاً، وكلّما أتاه أبو بكـر يستأذنه بالهجرةِ استمهله ﷺ لكي يكونَ صاحبَه فيها.

ولمّا أمرَه الله تعالى بالهجرة خرجَ عليه الصلاة والسلام مهاجراً، تنفيذاً لأمره سبحانه، فهجرتُه ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة لم تكن إخراجاً بسبب ما تعرَّض له من أذى المشركين ومكرهم، بل كانت خروجاً لتنفيذ أمر الله تعالى، ليتخذَ من دار الهجرة في المدينة المنورة قاعدةً ينطلق منها لتبليغ دعوة الله تعالى في مشارق الأرض ومغاربها، وليبني فيها نواةَ المجتمع المسلم والدولةَ المسلمة التي تطبّقُ شريعةَ الله تعالى، وتسعى لنشرها بين الناس جميعاً.

ولو أنّه ﷺ خرجَ من مكة بإخراج المشركين، لأنزلَ الله تعالى عليهم عذاباً يُهلكهم ويستأصلهم، كما فعل بالأمم المكذبة قبلَهم، لكنّه ﷺ نبيُّ الرحمة، ولا ينزل بسببه عذابُ استئصالٍ يهلك اللهُ به قومَه، بيّن سبحانه وتعالى ذلك بقوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦] أي كاد المشركون ليزعجونك بعدوانهم وبغيهم وأذاهم من أرض مكة، وإذاً لا يلبثون بعدك إلا زمناً قليلاً، أي لو أخرجوك لاستؤصلوا عن بكرة أبيهم، لكن لم يقع الإخراجُ، بل خرجَ رسول الله ﷺ مهاجراً بأمر ربّه عزّ وجلّ. قال مجاهد: أرادت قريشُ ذلك ولم تفعل، لأنَّه سبحانه أراد استبقاءها وعدمَ استئصالها، ليسلم منها ومن أعقابها من يسلم[2].

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٢٢٣.

(٢) روح المعاني: ١٥/ ١٣٠.

وهذا لا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣] إذا حملنا الإخراج في هذه الآية على التسبب في الخروج، فقد خرجَ النبيُّ ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة المنورة، لأنَّه لم يتمكن من نشر دين الله تعالى بين الناس بسبب معاندة المشركين في مكة وأذاهم. وهذا المعنى يتفقُ مع قولِه تعالى هنا في الآية الكريمة ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ فإنَّ كلمة «كاد» تدل على مقاربةِ وقوع الشيء، لا على وقوعه وحدوثه.

فسنَّة الله تعالى أنَّه سبحانه يهلك كلَّ أمة أخرجت رسولَها من بين أظهرهم، وقد أضافها سبحانه إلى الرسل، لأنَّها من أجلهم، فقال: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧].

حديث الهجرة:

شهدتْ السيدةُ عائشة رضي الله عنها هجرةَ النبيِّ ﷺ إلى المدينة المنورة، وتحدّثت عنها فقالت: لم أعقل أبويَّ قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمرّ علينا يومٌ إلا يأتينا فيه رسولُ الله ﷺ طرفي النهار: بكرةً وعشية. فلمّا ابتليَ المسلمون خرجَ أبو بكر مهاجراً نحو أرضِ الحبشة، حتى بلغَ برك الغماد[1]، لقيه ابنُ الدغنة، وهو سيد القارة[2]، فقال: أين تريدُ يا أبا بكر؟

فقال أبو بكر: أخرجني قومي، وأريدُ أن أسيحَ في الأرض وأعبدَ ربّي.

قال ابن الدغنة: فإنَّ مثلك يا أبا بكر لا يَخرج ولا يُخرج، إنك تكسِبُ المعدوم، وتصلُ الرحمَ، وتحمِلُ الكَلَّ، وتقري الضيفَ، وتعينُ على نوائبِ الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربّك ببلدك.

فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عشيةً في أشراف قريش، فقال لهم: إنَّ أبا بكر لا يَخرجُ مثله ولا يُخرج، أتُخرِجون رجلاً يكسِبُ المعدوم،

---

(١) برك الغماد: هو موضع على خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن.
(٢) القارة: هي قبيلة مشهورة من بني الهون، كانوا حلفاء بني زهرة من قريش، وكانوا يُضرب بهم المثل في قوة الرمي.

ويصلُ الرحمَ، ويحملُ الكلَّ، ويقري الضيفَ، ويعينُ على نوائب الحق؟

فلم تكذّب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا لابن الدغنة: مُرْ أبا بكر فليعبدْ ربَّه في داره، فليصلِّ فيها، وليقرأ ما شاءَ، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإنَّا نخشى أن يفتنَ نساءَنا وأبناءَنا.

فقال ذلك ابنُ الدغنة لأبي بكر، فلبثَ أبو بكر يعبدُ ربَّه في دارِه، ولا يستعلنُ بصلاته ولا يقرأُ في غيرِ داره.

ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلّي فيه، ويقرأ القرآن، فيتقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، وهم يعجبون منه وينظرون إليه.

وكان أبو بكر رجلاً بكاءً لا يملِكُ عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزعَ ذلك أشرافَ قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم، فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبدَ ربَّه في دارِه، فقد جاوزَ ذلك، فابتنى مسجداً بفناءِ داره، فأعلنَ بالصلاةِ والقراءةِ فيه، وإنَّا قد خشينا أن يفتنَ نساءَنا وأبناءَنا، فانهه، فإن أحبَّ أن يقتصرَ على أن يعبدَ ربّه في دارِه فعل، وإن أبى إلا أن يعلنَ بذلك فسله أن يردَّ إليك ذمّتك، فإنّا كرهنا أن نخفرك، ولسنا بمقرين لأبي بكر الاستعلان.

قالت عائشة: فأتى ابنُ الدغنة لأبي بكر فقال: قد علمتَ الذي عاقدتُ لك عليه، فإمَّا أن تقتصرَ على ذلك، وإمَّا أن ترجعَ إليَّ ذمتي، فإنّي لا أحبُّ أن تسمعَ العربُ إني أخفرتُ في رجل عقدت له.

فقال أبو بكر: فإنّي أردُّ إليك جوارَك، وأرضى بجوار الله عزَّ وجلّ. والنبيُّ ﷺ يومئذٍ بمكة. فقال النبيُّ ﷺ للمسلمين: «إني أُريتُ دارَ هجرتِكُم ذاتَ نخلٍ بين لابتين» وهما الحرّتان. فهاجر مَنْ هاجرَ قِبَلَ المدينة، ورجعَ عامةُ مَنْ كان هاجر لأرضِ الحبشة إلى المدينة، وتجهّز أبو بكر قِبَل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «على رِسْلِك فإنِّي أرجو أن يؤذَن لي». فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «نعم». فحبس أبو بكر نفسَه على رسولِ الله ﷺ ليصحبَه، وعلفَ راحلتين كانتا عندَه ورق السمر ـ وهو الخبط ـ أربعةَ أشهر.

قال ابن شهاب: قال عروة: قالت عائشة: فبينما نحنُ يوماً جلوسٌ في بيتِ

أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسولُ اللهِ ﷺ متقنّعاً ـ أي مغطّياً وجهه ـ في ساعةٍ لم يكن يأتينا فيها. فقال أبو بكر: فداءٌ له أبي وأمي، واللهِ ما جاء به في هذه الساعة إلا أمرٌ. قالت: فجاءَ رسولُ الله ﷺ فاستأذنَ، فأذِنَ له، فدخل. فقال النبيُّ ﷺ لأبي بكر: «أخْرِجْ مَنْ عندك». فقال أبو بكر: إنّما هم أهلك[1] بأبي أنت يا رسول الله. قال: «فإنّي قد أُذِنَ لي بالخروج». فقال أبو بكر: الصحابةَ بأبي أنتَ يارسول الله. قال رسولُ الله ﷺ: «نعم»[2]. قال أبو بكر: فخذ بأبي أنتَ يا رسول الله إحدى راحلتيَّ هاتين. قال رسول الله ﷺ: «بالثمن».

قالت عائشةُ: فجهزناهما أحثَّ الجهاز ـ أي أسرعَ الجهاز ـ وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماءُ بنت أبي بكر قطعةً من نطاقها، فربطت به على فمِ الجِراب، فبذلك سُمّيت ذات النطاق.

قالت: ثم لحقَ رسولُ الله ﷺ وأبو بكر بغارٍ في جبل ثور، فَكَمِنا فيه ثلاثَ ليالٍ، يبيتُ عندهما عبد الله بن أبي بكر، وهو غلامٌ شابٌّ ثَقِفٌ (حاذق) لقن (سريع الفهم)، فيدلجُ من عندهما بسحر، أي يخرج وقت السحرِ إلى مكة، فيصبِحُ مع قريش بمكة كبائتٍ، فلا يسمعُ أمراً يُكادان به إلا وعاهُ حتى يأتيهما بخبرِ ذلك حين يختلطُ الظلامُ، ويرعى عليهما عامرُ بن فُهيرة مولى أبي بكر منحةً ـ قطيعاً من غنم ـ فيُريحها عليهما حين تذهبُ ساعةً من العشاء، فيبيتان في رسل ـ اللبن الطري ـ وهو لبن منحتهما ورضيفهما[3] حتى ينعقَ بها عامرُ بن فُهيرة بِغَلَسٍ[4]، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث.

واستأجرَ رسولُ الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل، وهو من بني عبد بن عدي هادياً خرّيتاً ـ والخريت الماهر بالهداية ـ قد غمس حلفاً في آل العاص بن

---

(١) أشار بذلك إلى عائشة رضي الله عنها وأسماء.
(٢) زاد ابن إسحاق في روايته: قالت عائشة: فرأيت أبا بكر يبكي، وما كنتُ أحسبُ أن أحداً يبكي من الفرح.
(٣) رضيف: أي اللبن المرضوف التي وضعت فيه الحجارة المحماة بالشمس أو النار لينعقد وتزول رخاوته.
(٤) والنعيق صوت الراعي إذا زجر الغنم، وكان عامر أميناً مؤتمناً حسن الإسلام.

وائل السهمي[1]، وهو على دين كفار قريش، فأمناه، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليالٍ براحلتيهما صبحَ ثلاثٍ، وانطلقَ معهما عامرُ بن فهيرة والدليلُ، فأخذَ بهم طريقَ السواحل[2].

زاد مسلم بن عقبة عن ابن شهاب: حتى إذا هدأتْ عنهم الأصواتُ جاء صاحبهما ببعيريهما، فانطلقا معهما بعامر بن فُهيرة يخدمهما ويعينهما، يردفُه أبو بكر ويعقبه ليس معهما غيره. وقوله: فأخذ بهم طريق الساحل. في رواية موسى بن عقبة: فأجازَ بهما أسفل مكة، ثم مضى بهما حتى جاءَ بهما الساحلَ أسفلَ من عُسفان، ثم أجاز بهما حتى عارض الطريق.

قوله: «ذات النطاق» وفي رواية النطاقين، بالتثنية، والنطاقُ ما يُشَدُّ به الوسط، وقيل هو إزارٌ فيه تكة، وقيل: هو ثوبٌ تلبسُه المرأةُ، ثم تشد وسطَها بحبل، ثم ترسل الأعلى إلى الأسفل. وسميت ذات النطاقين لأنها كانت تجعل نطاقاً على نطاق، وقيل كان لها نطاقان تلبس أحدهما، وتجعل في الآخر الزاد.

والمحفوظ كما سيأتي بعد هذا الحديث أنَّها شقّت نطاقها نصفين، فشدّت بأحدهما الزاد، واقتصرت على الآخر، فمن ثَمَّ قيل لها: ذات النطاقين وذات النطاق، فالتثنيةُ والإفرادُ بهذين الاعتبارين.

وعند ابن سعد من حديث الباب: شقت نطاقها، فأوكت بقطعة منه الجراب، وشدت فمَ القربة بالباقي، فسُمّيت ذاتَ النطاقين.

وفي الحديث عن أسماء رضي الله عنها قالت: صنعتُ سفرةً للنبيّ ﷺ وأبي بكر حين أراد المدينة، فقلتُ لأبي: ما أجدُ شيئاً أربطُه إلا نطاقي، قال: فشقيه، ففعلتُ، فسُمّيت ذات النطاقين.

وقال ابن عباس: أسماء ذات النطاق[3].

---

(١) أي كان حليفاً، وكانوا إذا تحالفوا غمسوا أيمانهم في دم أو خلوق أو في شيء يكون فيه تلويثٌ فيكون ذلك تأكيداً للحلف.

(٢) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٩٠٥.

(٣) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٩٠٧.

قوله: «قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور» ذكر الواقديُّ أنهما خرجا من خوخة في ظهرِ بيتِ أبي بكر، وقال الحاكم: تواترت الأخبارُ أنَّ خروجَه كان يوم الإثنين، ودخولَه المدينةَ كان يوم الإثنين، إلا أنَّ محمد بن موسى الخوارزمي قال: إنَّه خرج من مكة يوم الخميس.

قلت: يجمع بينهما أن خروجه من مكة كان يوم الخميس، وخروجه من الغار كان ليلة الإثنين، لأنه قام فيه ثلاث ليال، فهي ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد، وخرج في أثناء ليلة الإثنين.

ووقع في رواية هشام بن عروة عند ابن حبان: فركبا حتى أتيا الغار، وهو ثور، فتواريا فيه.

وذكر موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال: فرقد عليٌّ على فراشِ رسول الله ﷺ يورِّي عنه، وباتت قريش تختلف وتأتمر، أيهم يهجم على صاحب الفراشِ فيوثقه، حتى أصبحوا، فإذا هم بعلي، فسألوه فقال: لا علم لي، فعلموا أنَّه فرَّ منهم.

وذكر ابن إسحاق نحوه وزاد: «إنَّ جبريلَ أمرَه لا يبيت على فراشه، فدعا علياً، فأمرَه أن يبيتَ على فراشه، ويسجى ببرده الأخضر ففعل، ثم خرج النبي ﷺ على القوم، ومعه حفنة من تراب، فجعل ينثرها على رؤوسهم وهو يقرأ ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يٓس: ١ ـ ٩].

وذكر أحمد من حديث ابن عباس بإسنادٍ حسن في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال: ٣٠]، قال: «تشاورت قريش ليلةً بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق (يريدون النبي ﷺ)، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه. فأطلَعَ اللهُ نبيّه على ذلك، فبات عليٌّ على فراش النبيِّ ﷺ تلك الليلة، وخرجَ النبيُّ ﷺ حتى لحقَ بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً

يحسبونه النبيَّ ﷺ، يعني ينتظرونه حتى يقوم، فيفعلون ما اتفقوا عليه، فلمّا أصبحوا ورأوا علياً ردَّ الله مكرَهم، فقالوا: أين صاحبُك هذا؟ قال: لا أدري، فاقتصّوا أثره، فلما بلغوا الجبلَ اختلطَ عليهم، فصعدوا الجبل، فمرّوا بالغار فرأوا على بابه نسجَ العنكبوت، فقالوا: لو دخل ههنا لم يكن نسجُ العنكبوت على بابه، فمكثَ فيه ثلاث ليال. .

وذكر الواقديُّ أنَّ قريشاً بعثوا في أثرهما قائفين[1]، أحدُهما كرز بن علقمة، فرأى كِرْزُ بن علقمة على الغارِ نسجَ العنكبوت فقال: ههنا انقطع الأثر[2].

في غار ثور:

وصل النبيُّ ﷺ إلى الغار، وما كان معه أحدٌ سوى صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أكّدَ ذلك قولُه سبحانه: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠].

وثور هو جبل قرب مكة المكرمة، على بعد عِدَّةِ أميال إلى جهة الجنوب منها، مكث النبيُّ ﷺ في غاره مع صاحبه أبي بكر بعد أن خرج مهاجراً ثلاثةَ أيام حتى هدأ بحثُ المشركين عنه، وطلبهم له، كما مرّ معنا في حديث عائشة رضي الله عنها.

ولما اقتربَ طلب المشركين من الغار، وأحاطوا به من كلِّ جانب، وصعدوا فوقه، خاف أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ، ففي الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: حدّثني أبو بكر رضي الله عنه قال: كنتُ مع النبيِّ ﷺ في الغار، فرأيتُ آثار المشركين، قلت: يارسولَ الله لو أنَّ أحدَهم رفع قدمه رآنا. قال: «ما ظنّك باثنين الله ثالثُهما».

---

(١) القائف هو الذي يتتبع الأثر.

(٢) فتح الباري: ٧/ ٢٣٧.

وفي رواية ثانيةٍ بلفظ: لو أنَّ أحدَهم نظرَ تحتَ قدميه لأبصرنا. فقال: «ما ظنُّك يا أبا بكر باثنين اللهُ ثالثُهما»[1].

وقولُه سبحانه: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي بالنصر والمعونة والحفظ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

فأبو بكر صاحبُ رسول الله ﷺ، ومن أنكر صحبتَه كفر، لإنكاره نصَّ القرآن الكريم[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي مع رسول الله ﷺ ومع أبي بكر رضي الله عنه، ففي الآية فضيلةٌ كبيرةٌ لأبي بكر.

وقوله تعالى: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ يدلُّ على أنَّ أبا بكر أحقُّ الناس بخلافة النبيِّ ﷺ، وسيأتي معنا دليل آخر لذلك، **وهو استخلاف النبيِّ ﷺ له على حج العام التاسع من الهجرة**، وصحَّ أيضاً أنّه عليه الصلاة والسلام استخلفَه ليؤمَّ الناسَ في الصلاةِ عندما مَرِضَ ﷺ قُبيل وفاته.

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ أي أنزل رحمته التي تسكن بها القلوب على أبي بكر رضي الله عنه أو على النبيِّ ﷺ، والأظهر الأول، لأنه عليه الصلاة والسلام لم ينزعج حتى يسكن، فالسكينةُ لم تفارِقْه عليه الصلاة والسلام، كما قال ابن عباس رضي الله عنه[3]، ورواه الحاكم في (المستدرك).

﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ من الملائكة ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ أي جعل كلمة المشركين فاشلةً خاسرةً، وهي التي اتفقوا عليها عندما اجتمعوا بدار الندوة، واتفقوا على قتل النبيِّ ﷺ، فنجّاه الله تعالى من كيدهم ومكرهم.

﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ أي وكلمتُه سبحانه هي الكلمة العليا دائماً

---

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاري.
(٢) تفسير الخازن: ٣/ ١٢٤.
(٣) روح المعاني: ١٠/ ٩٩.

وأبداً، لأنَّ إرادته سبحانه هي التامة النافذة، ومشيئتُه هي الغالبة ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يغلب ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره وأمره جلَّ جلاله.

وفي الحديث عن أبي بكر رضي الله عنه قال: كنتُ مع النبيِّ ﷺ في الغار، فرفعتُ رأسي فإذا أنا بأقدام القوم، فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ لو أنَّ بعضَهم طأطأ بصرَه رآنا، قال: «اسكت يا أبا بكر، اثنان اللهُ ثالثُهما»(١)

في طريق الهجرة:

وخرجَ رسولُ الله ﷺ ومعه صاحبُه أبو بكر من الغار بعد ثلاثة أيام، واتجها إلى المدينة المنورة، ورغم ما اتخذاه من أسباب الحيطة والحذر تعرّضا لبعضِ المخاطر في الطريق.

قال ابنُ شهاب: وأخبرني عبد الرحمن بن مالك المُدْلجي، وهو ابنُ أخ سراقة بن مالك بن جعشم، أنَّ أباه أخبره أنه سمع سراقة بن جعشم يقول: جاءنا رسلُ كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كلِّ واحد منهما لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالسٌ في مجلسٍ من مجالس قومي بني مدلج إذ أقبل رجلٌ منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: ياسراقة إني قد رأيتُ آنفاً أَسْوِدَةً بالساحلِ أراها محمّداً وأصحابه.

قال سراقة: فعرفت أنّهم هم فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا، يبتغون ضالة لهم. ثم لبثتُ في المجلس ساعةً، ثم قمتُ فدخلتُ فأمرتُ جاريتي أن تخرجَ بفرسي - وهي من وراء أكمة - فتحبِسُها عليَّ، وأخذتُ رمحي، فخرجتُ به من ظهر البيت، فخططت بزجّه الأرض(٢)، وخفضت عاليه حتى أتيتُ فرسي فركبتُها، فرفعتها تقرِّبُ بي، حتى دنوتُ منهم، فعثرتْ بي فرسي، فخررتُ عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت

---

(١) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٩٢٢.

(٢) الزج الحديدة التي في أسفل الرمح، ويبدو أنّه خطَّ به الأرضَ لئلا يظهر بريقه لمن بعد منه، ولأنه كره أن يتبعه منهم أحد فيشركوه في الجعالة، ووقع في رواية الحسن عن سراقة عند ابن أبي شيبة «وجعلت أجُرُ الرمحَ مخافة أن يشركني أهل الماء فيها».

منها الأزلام، فاستقسمت بها أضرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره ـ أي لا تضرهم.

فركبتُ فرسي ـ وعصيت الأزلام ـ تقرب بي، حتى إذا سمعتُ قراءةَ رسول الله ﷺ وهو لا يلتفتُ، وأبو بكر يكثِرُ الالتفاتَ، ساختْ يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررتُ عنها، ثم زجرتُها فنهضتْ، فلم تكد تخرِجُ يديها، فلمّا استوت قائمةً إذا لأثر يديها عثان ـ أي دخان ـ ساطعٌ في السماء مثل الدخان، فاستقسمتُ بالأزلام، فخرجَ الذي أكره، فناديتُهم بالأمان فوقفوا، فركبتُ فرسي حتى جئتهم. ووقع في نفسي حين لقيتُ ما لقيتُ من الحبس عنهم أن سيظهرُ أمر رسول الله ﷺ، فقلتُ له: إنَّ قومَك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتُهم أخبارَ ما يريدُ الناس بهم، وعرضتُ عليهم الزادَ والمتاع، فلم يرزءاني ـ أي لم ينقصاني مما معي شيئاً ـ ولم يسألاني إلا أن قال: اخفِ عنّا. فسألتُه أن يكتبَ لي كتابَ أمنٍ، فأمرَ عامرَ بن فُهيرة فكتبَ في رقعةٍ من أدمٍ، ثم مضى رسول الله ﷺ[1].

قوله: «وعرضتُ عليهم الزادَ والمتاع» في مُرْسل عُمير بن إسحاق عن ابن أبي شيبة: «فكفَّ ثم قال: هلما إلى الزاد والحملان، فقالا: لا حاجة لنا في ذلك» وفي حديث ابن عباس أنَّ سراقة قال لهم: «وإن إبلي على طريقكم فاحتلبوا من اللبن، وأخذوا سهماً من كنانتي أمارة إلى الراعي»، وفي رواية أبي خليفة «وهذه كنانتي فخذ سهماً منها فإنك تمرُّ على إبلي وغنمي بمكان كذا وكذا فخذ منها حاجتك، فقال لي: لا حاجةَ لنا في إبلك، ودعا له» ووقع في رواية البراء «فدعا له فنجا، فجعل لا يلقى أحداً إلا قال له: قد كُفيتم ما ههنا، فلا يلقى أحداً إلا رده» وفي حديث أنس فقال: يا نبيَّ الله مُرْني بما شئتَ قال: «قف مكانك لا تتركنَّ أحداً يلحق بنا». قال: فكان أول النهار جاهداً على رسول الله ﷺ، وكان آخر النهار مسلحة له (أي حارساً بسلاحه).

وقوله: «فأمر عامرَ بن فُهيرة فكتب في رقعة من أدم» وفي رواية ابن إسحاق «فكتبَ لي كتاباً في عظم ـ أو ورقة أو خرقة ـ ثم ألقاه إلي، فأخذتُه في كنانتي ثم رجعتُ» وفي رواية موسى بن عقبة نحوه، عندهما: «فرجعتُ فسئلتُ فلم أذكرْ شيئاً مما كان، حتى إذا فرغَ من حُنين بعدَ فتحِ مكة خرجتُ لألقاه، ومعي الكتاب،

---

(١) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٩٠٦.

فلقيته بالجعرّانة حتى دنوتُ منه، فرفعتُ يدي بالكتاب فقلت: يا رسول الله! هذا كتابك فقال: «يومُ وفاءٍ وبرٍّ، أدنُ» فأسلمتُ، وفي رواية صالح بن كيسان نحوه، وفي رواية الحسن عن سراقة قال: فبلغني أنَّه يريدُ أن يبعثَ خالد بن الوليد إلى قومي، فأتيتُه فقلتُ: أُحبُّ أن توادعَ قومي، فإنْ أسلمَ قومُك أسلموا، وإلا أمنت منهم. ففعل ذلك قال: ففيهم نزلت ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ [النساء: ٩٠]. قال ابنُ إسحاق: قال أبو جهل لما بلغه ما لقيَ سراقةُ لامه في تركهم فأنشده:

أبا حكمٍ واللاتِ لو كنتَ شاهداً ... لأمرِ جوادي إذا تسيخُ قوائمُه
عجبتَ، ولم تَشْكُكْ بأنَّ محمّداً ... نبيٌّ، وبرهانٌ، فمَنْ ذا يكاتِمُه[1]

وعن البراء قال: اشترى أبو بكر رضي الله عنه من عازب رحلاً بثلاثة عشر درهماً، فقال أبو بكر لعازب: مُرِ البراءَ فليحمِلْ إليَّ رحلي.

فقال عازبُ: لا حتى تحدّثنا كيفَ صنعت أنتَ ورسولُ الله ﷺ حين خرجتُما من مكة والمشركون يطلبونَكُم.

قال: ارتحلنا من مكة فأحيينا ـ أو سرينا ـ ليلتنا ويومنا حتى أظهَرْنا، وقام قائِمُ الظهيرة، فرميتُ ببصري هل أرى من ظل فآوي أليه، فإذا صخرة أتيتُها، فنظرتُ بقيّةَ ظلٍّ لها فسويتُه، ثم فرشتُ للنبيِّ ﷺ فيه، ثم قلت له: اضطجع يا نبيَّ الله، فاضطجعَ النبيُّ ﷺ، ثم انطلقتُ أنظر ما حولي هل أرى من الطلب أحداً؟ فإذا أنا براعي غنم يسوقُ غنمَه إلى الصخرةِ، يريد منها الذي أردنا، فسألتُه فقلت له: لمن أنتَ يا غلام؟ فقال: لرجل من قريش سماه فعرفته، فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم. قلت: فهل أنت حالِبٌ لنا. قال: نعم. فأمرتُه فاعتقل شاةً من غنمه، ثم أمرتُه أن ينفضَ ضرعَها من الغبار، ثم أمرتُه أن ينفضَ كفيه، فقال: هكذا ضربَ إحدى كفيه بالأخرى، فحلب لي كثبة من لبن، وقد جعلتُ لرسول الله ﷺ إداوة على فمها خرقة، فصببت على اللبن حتى برد أسفله، فانطلقتُ به إلى النبيِّ ﷺ فوافقتُه قد استيقظ، فقلت: اشرب يارسول الله، فشربَ

(١) فتح الباري: ٧/ ٢٤٢.

حتى رضيتُ، ثم قلت: قد آن الرحيلُ يارسول الله، قال: بلى. فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحدٌ منهم غير سراقة بن مالك بن جعشم على فرسٍ له، فقلت: هذا الطلبُ قد لحقنا يارسول الله، قال: «لا تحزنْ إن الله معنا»[١].

وعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال: أقبل نبيُّ الله ﷺ إلى المدينة وهو مردِفٌ أبا بكر، وأبو بكر شيخ يعرف، ونبيُّ الله ﷺ شاب لا يعرف، قال: فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل؟ قال: فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير. فالتفت أبو بكر فإذا هو بفارس قد لحقهم، فقال: يارسول الله هذا فارس قد لحق بنا، فالتفت نبيُّ الله ﷺ فقال: «اللهمَّ اصرعه» فصرعه الفرس، ثم قامت تحمحم، فقال: يانبيَّ الله مرني بما شئتَ. قال: «فقف مكانك لا تتركنَّ أحداً يلحقُ بنا» قال: فكان أولَ النهارِ جاهداً على نبيِّ الله ﷺ، وكانَ آخر النهار مسلحة له[٢].

وصولُ النبيِّ ﷺ إلى قباء:

قال ابن شهاب: فأخبرني **عروة بن الزبير** أنَّ رسولَ الله ﷺ لقي الزبيرَ في ركبٍ من المسلمين كانوا تجاراً قافلينَ من الشام، فكسا الزبيرُ رسول الله ﷺ وأبا بكر ثيابَ بياضٍ. وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كلَّ غداةٍ إلى الحرّة فينتظرونه، حتى يردَّهم حَرُّ الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم ـ أي حصن من حصونهم ـ لأمر ينظر إليه، فبصرَ برسولِ الله ﷺ وأصحابه مبيضين، يـزولُ بهم السرابُ[٣]، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوتـه: يا معاشر العرب! هذا جَدُّكم[٤] الذي تنتظرون. فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقّوا رسولَ الله ﷺ بظهر الحَرّة، فعدلَ بهم ذاتَ اليمين حتى نزل بهم في بني

---

(١) صحيح البخاري في الفضائل، رقم ٣٦٥٢.

(٢) انظر الحديث كاملاً في صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٩١١.

(٣) أي يزول السراب عن النظر بسبب عروضهم له.

(٤) أي هذا حظكم وصاحب دولتكم الذي تتوقعونه، وفي رواية معمر (هذا صاحبكم).

عمرو بن عوف[1]، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول[2]، فقام أبو بكر للناس، وجلس رسولُ الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم يرَ رسولَ الله ﷺ يحيي أبا بكر، حتى أصابت الشمسُ رسولَ الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرفَ الناسُ رسولَ الله ﷺ عند ذلك.

فلبثَ رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسس المسجد الذي أُسس على التقوى، وصلى فيه رسول الله ﷺ.

ثم ركب راحلته، فسار يمشي معه الناسُ حتى بركتْ عند مسجدِ الرسول ﷺ بالمدينة، وهو يصلّي فيه يومئذٍ رجال من المسلمين، وكان مِرْبداً للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حِجْر سعد بن زُرارة.

فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: «هذا إنْ شاءَ اللهُ المنزل» ثم دعا رسولُ الله ﷺ الغلامين، فساومهما بالمربد ليتخذَه مسجداً.

فقالا: لا بل نهبه لك يارسول الله، فأبى رسولُ الله ﷺ منهما هبةً حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجداً، وطفِقَ رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول وهو ينقل اللبن:

هـــذا الحمـــالُ لا حمـــالُ خيبـــرْ   هـــذا أبـــرّ ربنـــا وأطهـــرْ

ويقول:

اللهـــمَّ إنَّ الأجـــرَ أجـــرُ الآخـــره   فـــارحـــمِ الأنصـــارَ والمهـــاجِـــرَه

فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسمَّ لي.

قال ابن شهاب: ولم يبلغنا في الأحاديث أنَّ رسولَ الله ﷺ تمثّل ببيت شعر

---

(١) وهو ابن مالك بن الأوس بن حارثة، ومنازلهم بقباء، وهي على فرسخ من المسجد النبوي بالمدينة.

(٢) وهذا هو المعتمد، وشذَّ من قال يوم الجمعة. وفي رواية جرير بن حازم ابن إسحاق: قدما لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول، ونحوه عند أبي معشر، لكن قال ليلة الإثنين، ومثله عن ابن عبد البر، وثبت كذلك في أواخر صحيح مسلم. فتح الباري: ٧/ ٢٤٤.

تام غير هذه الأبيات[1].

وقوله: «هذا الحمال» أي هذا المحمول من اللبن أبرَّ عند الله، أي أبقى ذخراً، وأكثر ثواباً، وأدومَ منفعةً، وأشدَّ طهارة من حمال خيبر، التي يحمل منها التمر والزبيب ونحو ذلك.

المسجد الذي أُسس على التقوى:

وهو المسجدُ الذي أنزل الله فيه قولَه الكريم: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]. أسَّسه النبيُّ ﷺ يومَ وصلَ إلى قباء، وهو في طريقه مهاجراً إلى المدينة المنورة.

وقوله: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ أي أن تصليَ فيه، وهذا يدلُّ على فضل الصلاة في مسجد قباء، ولهذا كان رسول الله ﷺ يزورُ مسجد قباء كل سبت راكباً وماشياً، ويصلي فيه ركعتين[2]. ويحضّ أيضاً على الصلاة فيه، فعن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَطَهَّرَ في بيتِه، ثم أتى مسجدَ قباء، فصلّى فيه صلاةً، كان له كأجرِ عمرةٍ»[3].

وهذا لا يتعارضُ مع ما جاء في الحديث النبويّ الصحيح أنَّ مسجدَ رسول الله ﷺ في المدينة المنورة هو المسجد الذي أسس على التقوى. قال ابن كثير في تفسير الآية: إذا كان مسجدُ قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجدُ رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى، ولهذا روى الإمامُ أحمد بن حنبل في (مسنده) عن سهل بن سعد الساعدي قال: اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ بالمسجد الذي أُسس على التقوى، قال أحدهما: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال الآخر: هو مسجد قباء، فأتيا النبيَّ ﷺ فسألاه فقال: «هو مسجدي هذا».

---

(١) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٩٠٦، وهو تتمة الحديث الذي سبق في وصف ما حدث مع سراقة في طريق الهجرة.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه.

وبعد أن أثنى سبحانه على المكان أثنى أيضاً على الرجال الذين يعمرونه بطاعته سبحانه فقال: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ أي يتطهروا من المعاصي والآثام ومن الأقذار والنجاسات، فهم يحبّون الطهارة المعنوية والحسية.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ أي الحريصين على طهارة نفوسهم وأجسامهم.

وفي الحديث الشريف عن **عُويمر بن ساعدة** قال: قال رسول الله ﷺ لأهل قباء: «إنّي أسمعُ الله عزَّ وجلَّ قد أحسنَ عليكم الثناء في الطهور، فما هذا الطهور؟» قالوا: يا رسول الله ما نفعلُ شيئاً إلاّ أنَّ جيراناً لنا منَ اليهودِ رأيناهُم يغسِلُونَ أدبارَهم من الغائِطِ فغسلنا كما غسلوا»[1].

مقدم النبيِّ ﷺ المدينةَ المنورة:

وصف **أنس بن مالك** رضي الله عنه وصول النبي ﷺ إلى المدينة المنورة فقال: ثم بعثَ إلى الأنصار فجاؤوا إلى نبيِّ الله ﷺ وأبي بكر فسلَّموا عليهما، وقالوا: اركبا آمنين مطاعين، فركب نبيُّ الله ﷺ وأبو بكر، وحفوا دونهما بالسلاح، فقيل في المدينة: جاء نبيُّ اللهِ، جاءَ نبيُّ اللهِ ﷺ، فأشرفوا ينظرون ويقولون: جاء نبيُّ الله. فأقبلَ يسيرُ حتى نزلَ جانبَ دار أبي أيوب[2].

وأضاف في حديث آخر قوله: لما قدم رسول الله ﷺ المدينةَ نزلَ في علوِّ المدينة، في حيٍّ يقال له بنو عمرو بن عوف، قال: فأقام فيهم أربعَ عشرةَ ليلةً، ثم أرسلَ إلى ملأ بني النجار، قال: فجاؤوا متقلدي سيوفهم. قال: وكأنّي أنظرُ إلى رسول الله ﷺ على راحلتِه وأبو بكر ردفه، وملأ بني النجار حوله، حتى ألقى بفناء أبي أيوب، قال: فكان يصلّي حيث أدركتْهُ الصلاة، ويصلي في مرابضِ الغنم.

قال: ثم أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى ملأ بني النجار فجاؤوا، فقال: «يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا» فقالوا: لا والله لا نطلبُ ثمنه، إلا إلى الله.

---

(١) رواه الإمام أحمد والطبراني.

(٢) انظر الحديث كاملاً في صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٩١١.

قال: فكان فيه ما أقولُ لكم، كانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خرب، وكان فيه نخل. فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنُبِشَتْ، وبالخرب فسوِّيَتْ، وبالنخل فقطع، قال: فصفوا النخل قبلة المسجد، قال: وجعلوا عضادتيه حجارة[1]، قال وجعلوا ينقلون ذاك الصخر وهم يرتجزون، ورسول الله ﷺ معهم يقولون:

اللهمَّ إنَّه لا خيرَ إلا خيرُ الآخرة فانصرِ الأنصارَ والمهاجرة[2]

وكان الأنصارُ كلّما مرَّ بجماعة منهم يتزاحمون على زمام ناقة رسول الله ﷺ فيقول لهم: «خلّوا سبيلها فإنَّها مأمورة» لناقته، فخلوا سبيلها.

فانطلقت حتى إذا وازت دار بني بياضة، تلقاه زياد بن لبيب وفروة بن عمرو في رجال من بني **بياضة** فقالوا: يارسول الله هلمَّ إلينا، إلى العدد والعدة والمنعة، قال: «خلوا سبيلها فإنَّها مأمورة» فخلوا سبيلها.

فانطلقت حتى إذا مرَّت بدار **بني ساعدة** اعترضه سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو في رجالٍ من بني ساعدة فقالوا: يارسول الله هلمَّ إلينا إلى العدد والعدة والمنعة، قال: «خلوا سبيلَها فإنّها مأمورة». فخلوا سبيلها.

فانطلقت حتى إذا وازت دار **بني الحارث** بن **الخزرج** اعترضه سعد بن الربيع وخارجة بن زيد وعبد الله بن رواحة في رجال من بني الحارث بن الخزرج، فقالوا يارسول الله هلمَّ إلينا إلى العدد والعدة والمنعة، قال: «خلوا سبيلَها فإنّها مأمورة». فخلوا سبيلها.

فانطلقت حتى إذا مرَّت بدار **بني عدي بن النجار**، وهم أخواله، لأنَّ أُمَّ عبد المطلب سلمى بنت عمرو إحدى نسائهم، اعترضه سليط بن قيس وأبو سليط في رجال من بني عدي بن النجار فقالوا: يا رسول الله هلمَّ إلى أخوالك إلى العدد والعدة والمنعة. قال: «خلّوا سبيلَها إنّها مأمورة» فخلّوا سبيلَها.

---

(١) وهما الخشبتان اللتان على كتفي الباب ولكل باب عضادتان.

(٢) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٩٣٢.

فانطلقت حتى إذا أتت دار **مالك بن النجار**، بركت على باب مسجده ﷺ، فلمّا بركت ورسولُ الله ﷺ عليها لم ينزل، وثبت فسارت غير بعيد، ورسول الله ﷺ واضعٌ لها زمامها لا يثنيها به، ثم التفتت إلى خلفها، فرجعت إلى مبركها أوّل مرّة، فبركت فيه، ثم تحلحلت ورزمت وألقت بجرانها[1]، فنزل عنها رسول الله ﷺ، فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله فوضعه في بيته[2].

وخرج النساء والصبيان من أهل المدينة يتلقّون النبيَّ ﷺ، ففي الحديث عن السائب بن يزيد قال: أذكر أنّي خرجتُ مع الغلمان إلى ثنية الوداع نتلقّى رسولَ الله ﷺ[3].

وفي روايةٍ ثانيةٍ عنه زاد فقال: «مقدمه من غزوة تبوك» وأنكر الداودي هذه الزيادة، وتبعه ابن القيم وقال: ثنية الوداع من جهة مكة لا من جهة تبوك، بل هي مقابلها كالمشرق والمغرب.. وقد روينا بسند منقطع في (الحلبيات) قولَ النسوة لما قدم النبيّ ﷺ المدينة: طلع البدر علينا من ثنيات الوداع.

فقيل: كان ذلك عند قومه في الهجرة، وقيل عند قدومه من غزوة تبوك[4].

النزول في بيت أبي أيوب الأنصاري:

نزلَ النبيُّ ﷺ كما مرَّ معنا في بيت أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وقد تشرَّف رضي الله عنه هو وأهلُه بخدمة النبيِّ ﷺ حتى بنى المسجدَ والحجرات.

وفي الحديث الشريف عن **أبي أيوب الأنصاري** رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أُتي بطعام أكلَ منه، وبعث بفضلِه إليّ، وإنّه بعثَ إليّ يوماً بفضلة، لم يأكل منها، لأنَّ فيها ثوماً، فسألته: أحرام هو؟ قال: «لا، ولكنّي أكرهه من أجل ريحه» قال: فإنّي أكرهُ ما كرهت[5].

---

(١) قوله: تحلحلت ورزمت وألقت بجرانها: أي بعنقها ولزمت مكانها.
(٢) انظر سيرة ابن هشام: ٢/ ١٠١.
(٣) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٤٢٦.
(٤) فتح الباري: ٨/ ١٢٩.
(٥) صحيح مسلم في الأشربة، رقم ٢٠٥٣.

وعن أبي أيوب رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ نزل عليه، فنزل النبيُّ ﷺ في السفل، وأبو أيوب في العلو، قال: فانتبه أبو أيوب ليلةً فقال: نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ! فتنحوا باتوا في جانب. ثم قال للنبيِّ ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ: «السَّفلُ أرفقُ» فقال: لا أعلو سقيفةً أنتَ تحتها، فتحوَّلَ النبيُّ ﷺ في العلو، وأبو أيوب في السفل، فكان يصنعُ للنبيِّ ﷺ طعاماً، فإذا جِيءَ به إليه سأل عن موضع أصابعه فيتتبَّعُ موضعَ أصابعه - أي موضع أصابع النبيِّ ﷺ - فصنع له طعاماً فيه ثوم، فلما ردَّ إليه سأل عن موضع أصابع النبيِّ ﷺ فقيل له: لم يأكل. ففزعَ وصعدَ إليه، فقال: أحرامٌ هو؟ فقال النبيُّ ﷺ: «لا ولكنّي أكرهه». قال: فإنّي أكره ما تكره، أو ما كرهتَ. قال: وكان النبيُّ ﷺ يؤتى[(١)].

وقوله (يؤتى) معناه تأتيه الملائكة بالوحي كما جاء في الحديث الآخر: «إنّي أناجي من لا تناجي، وإن الملائكة تتأذّى مما يتأذّى منه بنو آدم».

دور أبي بكر رضي الله عنه في الهجرة وثناء الله عليه:

كان لأبي بكر الصديق ولأهله رضي الله عنهم دور كبير في الهجرة - كما مرّ معنا - ولهذا أثنى الله عليه بقوله الكريم: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] أي أن الله مع رسوله ﷺ ومع أبي بكر رضي الله عنه، ففي الآية فضيلة كبيرة لأبي بكر، وتظهر هذه الفضيلة إذا تذكرنا قول موسى عليه الصلاة والسلام عندما لحقه فرعون بجنوده، وخشي بنو إسرائيل أن يدركهم فرعون بجنوده، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١ - ٦٢]، فلم يقل عليه السلام: إنَّ معنا ربي، بينما قال الله تعالى يحكي كلام النبيِّ ﷺ لأبي بكر: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أكرم الله سبحانه بمعيته أبا بكر رضي الله عنه كما أكرمَ بها رسوله ﷺ.

ومرَّ معنا أن الله تعالى أنزل فيه قوله الكريم: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧ - ٢١].

---

(١) صحيح مسلم في الأشربة، رقم ٢٠٥٣.

ويبدو أنَّ آل أبي بكر تعرَّضوا للأذى بعد هجرة النبيِّ ﷺ، قال ابن إسحاق: فحدثت عن **أسماء بنت أبي بكر** أنها قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه، أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجتُ إليهم، فقالوا: أين أبوك يابنت أبي بكر، قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي؟ قالت: فرفع أبو جهل يده وكان فاحشاً خبيثاً، فلطمَ خدي لطمةً طرحَ منها قرطي.

وقال ابن إسحاق أيضاً: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير أنَّ أباه عَبَّاداً حدّثه عن جدته **أسماء بنت أبي بكر**، قالت: لما خرج رسولُ الله ﷺ، وخرجَ أبو بكر معه، احتمل أبو بكر ماله كله، ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف، فانطلق بها معه. قالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة، وقد ذهبَ بصرُه، فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه. قالت: قلت: كلا ياأبتِ إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً، قالت: فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعتُ عليها ثوباً، ثم أخذتُ بيده فقلت: ياأبتِ ضعْ يدَك على هذا المال. قالت: فوضعَ يدَه عليه، فقال: لابأس إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسنَ، وفي هذا بلاغ لكم. ولا والله ما ترك لنا شيئاً، ولكنّي أردتُ أن أسكنَ الشيخ بذلك[1]. ولهذا أثنى النبيُّ ﷺ على أبي بكر ثناءً ما أثنى بمثله على غيرِه فقال: «ما لأحدٍ عندنا يد إلا كافأناه بها ما خلا أبا بكر فإنَّ له عندنا يداً يكافئه الله تعالى بها يوم القيامة، وما نفعني مالُ أحدٍ قط ما نفعني مال أبي بكر، وما عرضتُ الإسلامَ على أحدٍ إلا كانت له كبوةٌ إلا أبا بكر، فإنَّه لم يتلعثم، ولو كنتُ متّخِذاً خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً. وإنَّ صاحبَكم خليلُ اللهِ تعالى»[2].

أول أيام التاريخ الإسلامي:

جعلَ الصحابةُ رضي الله عنهم يومَ وصولِ النبيِّ ﷺ إلى المدينة المنورة أول أيـام التاريخ الإسـلامي، فقد بوّبَ الإمامُ البخاريُّ رحمـه الله باباً قال فيه: باب التاريخ، من أين أرّخوا التاريخ؟

---

(١) السيرة لابن هشام: ٢/ ٩٦.

(٢) أخرجه الترمذي في (سننه).

ثم روى بسنده عن **سهل بن سعد** قال: ما عَدّوا من مبعث النبي ﷺ ولا من وفاته، ما عدّوا إلاّ مِنْ مقدمه المدينة[1].

وكان ذلك في خلافة عمر، وأفادَ السهيليّ أنَّ الصحابة أخذوا التاريخَ بالهجرة من قوله تعالى: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ [التوبة: ١٠٨] لأنّه من المعلوم أنه ليس أول الأيام مطلقاً، فتعيَّنَ أنه أضيفَ إلى شيءٍ مضمَر، وهو أول الزمن الذي عزَّ فيه الإسلام، وعَبَدَ فيه النبيُّ ﷺ ربَّه آمناً، وابتدأ بناء المسجد، فوافق رأي الصحابة ابتداء التاريخ الإسلامي..

وقد أبدى بعضُهم للبداءة بالهجرة مناسبة فقال: كانت القضايا التي اتفقت له، ويمكن أن يؤرخ بها أربعة: مولده، ومبعثه، وهجرته، ووفاته. فرجح عندهم جعلها من الهجرة، لأنَّ المولد والمبعث لا يخلو واحد منهما من النزاع في تعيين السنة، وأما وقت الوفاة فأعرضوا عنه لما توقع بذكره من الأسف عليه، فانحصر في الهجرة.

وإنَّما أخروه من ربيع الأول إلى المحرم لأن ابتداء العزم على الهجرة كان في المحرم، إذ البيعة وقعت في أثناء ذي الحجة وهي مقدمة الهجرة، فكان أول هلال استهلّ بعد البيعة والعزم على الهجرة هلال المحرم فناسب أن يجعل مبتدءاً. وهذا أقوى ما وقفتُ عليه من مناسبة الابتداء بالمحرم.

وذكروا في سبب عمل عمر التاريخ أشياء: منها ما أخرجه أبو نعيم الفضل بن دُكين في (تاريخه) ومن طريقه الحاكم من طريق الشعبيّ: **أنَّ أبا موسى كتبَ إلى عمر**: إنَّه يأتينا منك كتبُ ليس لها تاريخ، فجمع عمر الناس، فقال بعضهم: أرِّخ بالمبعث، وبعضُهم: أرِّخْ بالهجرة، فقال عمر: الهجرةُ فرّقت بين الحق والباطل، فأرّخوا بها[2].

أول المهاجرين إلى المدينة:

كان أول المهاجرين إلى المدينة المنورة مصعب بن عمير رضي الله عنه،

---

(١) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٩٣٤.
(٢) فتح الباري: ٧/ ٢٦٨.

فقد أرسله النبيُّ ﷺ بعد بيعة العقبة الأولى إلى المدينة المنورة، ليعلمهم الإسلامَ، ويقرأ عليهم القرآن، ففي الحديث الشريف عن البراء رضي الله عنه قال: «أول من قدم علينا مصعب بن عمير، وابنُ أم مكتوم، وكانوا يقرئون الناس، فقدم بلال، وسعد، وعمار بن ياسر، ثم قدم عمرُ بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبيِّ ﷺ، ثم قدِمَ النبيُّ ﷺ، فما رأيتُ أهلَ المدينةِ فَرِحوا بشيءٍ فرحهم برسول الله ﷺ، حتى جعل الإماء يقلنَ: قدم رسولُ الله ﷺ، فما قدمَ حتى قرأتُ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ في سور من المفصل»(١).

ومصعب بن عمير هو أخو عبد الدار بن قصي، والده عمير، وهو ابن هاشم ابن عبد مناف بن عبد الدار، ولمّا قَدِمَ قلنا له: ما فعلَ رسولُ الله ﷺ؟ فقال: هو على أثري. ثم هاجر بعده عمّار بن ربيعة ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثمة، وهي أول مهاجرة.

وفي الحديث عن **خبّاب** رضي الله عنه قال: «هاجرنا مع رسول الله ﷺ نبتغي وجه الله، ووجب أجرنا على الله، فمنا من مضى لم يأكل من أجره شيئاً، منهم مصعب بن عمير، قُتِلَ يوم أحد، فلم نجد شيئاً نكفّنه فيه إلا نمرة، كنا إذا غطّينا بها رأسه خرجت رجلاه، فإذا غطّينا رجليه خرجَ رأسُه، فأمرنا رسولُ الله ﷺ أن نغطّي رأسه بها، ونجعل على رجليه من إذخر. ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها»(٢) أي يجتنيها.

وعن **عبد الرحمن بن عوف** رضي الله عنه أنَّه أُتي بطعام، وكان صائماً، فقال: قُتِلَ مُصعب بن عمير، وهو خيرٌ مني، كُفِّنَ في بردةٍ إن غُطي رأسُه بدت رجلاه، وإن غُطيت رجلاه بدا رأسه، وأراه قال: وقتل حمزة وهو خير مني، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، أو قال أعطينا من الدنيا ما أعطينا، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام(٣).

---

(١) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٩٢٥.
(٢) المرجع السابق، رقم ٣٩١٤.
(٣) صحيح البخاري في الجنائز، رقم ٢٢٧٥.

الحنين إلى مكة:

ورغم الاستقبال العظيم الذي لقيه النبيُّ ﷺ في المدينة المنورة ورغم الحفاوة الكبيرة التي وجدها المهاجرون عند إخوانهم الأنصار وإيثارهم لهم على أنفسهم ـ كما سيأتي معنا ـ فإن النبي ﷺ وأصحابه من المهاجرين كانوا يحنّون إلى مكة المكرمة، ويستشعرون في قلوبهم شوقاً عظيماً إليها.

فقد ذكر بعضُ المفسّرين أنَّ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [القصص: ٨٥]، وذكروا أنَّ هذه الآية نزلت على النبيِّ ﷺ بعد خروجه من مكة مهاجراً إلى المدينة.

روى ابن كثير عن **الضحاك** قال: لمَّا خرجَ النبيُّ ﷺ من مكة فبلغَ الجُحْفَةَ، اشتاقَ إلى مكة، فأنزل الله عليه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾.

وفي (الصحيح) أنَّ **ابن عباس** قال: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ إلى مكة[(١)].

فمكة المكرمة هي المعاد التي اعتادها النبيُّ ﷺ، وألفها، واشتاق العودة إليها، ولا شكّ أنّ هذه البشارة تخفف من معاناته عليه الصلاة والسلام، وهو في طريق هجرته، وتواسيه على فراقه لوطنه وبلده، وتقوّي عزمه وتصميمه على متابعة الدعوة.

وكان المهاجرون من أصحابه أيضاً يحنّون إلى مكة المكرمة ويشتاقون إليها، ففي الحديث عن **عائشة رضي الله عنها** قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينةَ وعك أبو بكر ـ مرض أبو بكر ـ وبلال، قالت: فدخلتُ عليهما فقلتُ: يا أبتِ كيف تجدُك؟ ويابلالُ كيف تجدُكَ؟ قالت: فكان أبو بكر إذا أخذته الحُمَّى يقول:

كلُّ امرىءٍ مصبحٌ في أهلهِ ... والموتُ أدنى من شِراكِ نَعْلِهِ

---

(١) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٧٧٣.

وكان بلالُ إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقوله:

ألا ليتَ شِعري هل أبيتنَّ ليلةً ... بوادٍ وحولي إذخرٌ وجليلُ
وهل أَرِدَنْ يوماً مياهَ مَجِنّةٍ ... وهل يبدونْ لي شامةٌ وطَفِيْلُ

قالت عائشة: فجئتُ رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «اللهمَّ حَبِّبْ إلينا المدينةَ كحبنا مكة أو أشد، وصَحِّحْها، وبارك لنا في صاعها ومدّها، وانقل حماها فاجعلها في الجحفة»(١).

قوله: «بواد» أي بوادي مكة.

قوله: «وجليل» بالجيم نبت ضعيف يحشى بها خصاص البيوت وغيرها. أي شقوق البيوت.

قوله: «مياه مجنة» بالجيم، موضع على أميال من مكة وكان به سوق.

وقوله: «يبدون» أي يظهر، و«شامة وطفيل» جبلان بقرب مكة.

وزاد البخاري آخر كتاب الحج من طريق أبي أسامة عن هشام به «ثم يقول بلال: اللهمَّ العن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف، كما أخرجونا إلى أرض الوباء». ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ حبّب إلينا المدينة» الحديث. وقوله: «كما أخرجونا» أي أخرجهم من رحمتك كما أخرجونا من وطننا(٢).

وروى مسلم في (صحيحه) الحديثَ عن عائشة بلفظ: قالت قدمنا المدينة وهي وَبِيْئَةٌ ـ ذات وباء ـ فاشتكى أبو بكر واشتكى بلال، فلمَّا رأى رسولُ الله ﷺ شكوى أصحابه قال: «اللهمَّ حبِّبْ إلينا المدينةَ كما حَبَّبْتَ مكة، أو أشدَّ وصححها، وبارك لنا في صاعِها ومُدِّها، وحَوِّلْ حُمَّاها إلى الجحفة»(٣).

قال الخطابي وغيره: كان ساكنو الجحفةِ في ذلك الوقت يهوداً. قال الإمام النووي في شرحه على (صحيح مسلم): وفي هذا الحديث علم من أعلام نبوة

---

(١) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٩٢٦.
(٢) فتح الباري: ٧/ ٢٦٣.
(٣) صحيح مسلم في الحج، رقم ١٣٧٦.

نبينا ﷺ، فإن الجحفة من يومئذٍ مجتنبة، ولا يشرب أحدٌ من مائها إلا حُمَّ. فطيب الله تبارك وتعالى المدينة ببركة دعوة رسوله ﷺ ونزوله فيها حتى أصبحت من أطيب بلاد الله، وأحبها إلى رسوله ﷺ وعباده المؤمنين، وقد سمّاها رسول الله ﷺ: طابة.

وكان إذا رجع إليها من سفر وبدت له من بعيد مشارفُها أسرع إليها حبّاً لها، ففي الحديث عن **أبي حميد الساعدي** قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ـ وساق الحديث ـ وفيه: ثم أقبلنا حتى قدمنا وادي القُرى فقال رسول الله ﷺ: «إني مسرِعٌ، فمن شاء منكم فليسرعْ معي، ومن شاء فليمكث» فخرجنا حتى أشرفنا على المدينة، فقال: «هذه طابة، وهذا أُحدٌ، وهو جبل يحبنا ونحبّه»[(١)].

مخاطر ومصاعب في طريق الهجرة:

تعرَّض المهاجرون رضي الله عنهم إلى مخاطرَ كبيرةٍ، ومصاعبَ كثيرةٍ، وهم في طريق الهجرة، ومن المعلوم أنَّ النبيَّ ﷺ هاجر إلى المدينة المنورة لما أمرَه الله تبارك وتعالى بالهجرة إليها، وتخلّفت السيدة عائشة مع من تخلّف من آل النبيِّ ﷺ وآل أبي بكر، ولما استقرَّ عليه الصلاة والسلام بالمدينة أرسل من يأتي بأهله وبناته وأهل أبي بكر وأفراد أسرته رضي الله عنهم.

ووصفت السيدةُ عائشة طريق الهجرة وما صادفهم فيها من المصاعب والمشقات فقالت: لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة خلّفنا وخلّف بناته، فلما قدم المدينة بعث إلينا زيد بن حارثة وأبا رافع، وأعطاهما بعيرين وخمسمئة درهم أخذها من أبي بكر، يشتريان بها ما يحتاج إليه من الظهر.

وبعث أبو بكر معهما عبد الله بن أريقط الليثي ببعيرين أو ثلاثة، وكتب إلى ابنه عبد الله يأمره أن يحمل أهله، أم رومان، وأنا وأختي أسماء. فخرجوا، فلما انتهوا إلى قُديد، اشترى زيد بتلك الدراهم ثلاثة أبعرة، ثم دخلوا مكة، وصادفوا طلحة يريدُ الهجرة بآل أبي بكر، فخرجنا جميعاً، وخرج زيد وأبو رافع بفاطمة وأم كلثوم وسودة وأم أيمن وأسامة، فاصطحبنا جميعاً حتى إذا كان بالبيض ـ

---

(١) صحيح مسلم في الحج، رقم ١٣٩٢.

اسم مكان ـ فقد بعيري، وقدامي محفة فيها أمي، فجعلت أمي تقول: وابنتاه واعروستاه، حتى أدرك بعيرنا، فقدمنا والمسجد يُبنى[(١)].

ويبدو أنَّ السيدة عائشة رضي الله عنها تعرَّضت في طريق الهجرة لخطرٍ كبيرٍ أنقذتها منه عنايةٌ ربّانيةٌ، فصَّلت رضي الله عنها ذلك في رواية ثانية فقالت: قدمنا مهاجرين، فسلكنا في ثنية ضعينة ـ اسم مكان ـ فنفر جملٌ كنتُ عليه نفوراً منكراً، فواللهِ ما أنسى قول أمي: يا عريسة، فركب بي رأسه، فسمعتُ قائلاً يقول: ألقي خطامه، فألقيتُه، فقام يستدير كأنما إنسان قائم تحته[(٢)].

كما تعرَّضت السيدة زينب رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ لأذى قريش وعدوانهم، وهي في طريق الهجرة، ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في بعث فقال: «إنْ وجدتُم فلاناً وفلاناً فأحرقوهما في النار» ثم قال رسول الله ﷺ حين أردنا الخروج: «إنّي أمرتُكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً، وإنَّ النارَ لا يعذِّب بها إلا الله، فإن وجدتموهما فاقتلوهما»[(٣)].

قوله: «إن وجدتم فلاناً وفلاناً» زاد الترمذي عن قتيبة بهذا الإسناد «رجلين من قريش».. ووقع في رواية ابن إسحاق: «إن وجدتم هَبَّار بن الأسود، والرجل الذي سبق منه إلى زينب ما سبق، فحرّقوهما في النار» يعني زينب بنت رسول الله ﷺ، وكان زوجُها أبو العاص بن الربيع لمَّا أسرَه الصحابة، ثم أطلقه النبيّ ﷺ من المدينة، شرطَ عليه أن يجهِّزَ له ابنتَه زينب، فجهّزها، فتبعها هَبَّار بن الأسود ورفيقه، فنخسا بعيرَها، فأسقطت ومرضت من ذلك، والقصة مشهورةٌ عند ابن إسحاق وغيره، وقال في روايته: وكانا نخسا بزينب بنت رسول الله ﷺ حين خرجت من مكة.

وقد أخرجه سعيد بن منصور عن ابن عُيينة عن ابن أبي نجيح أنَّ هبّار بن

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء.

(٢) أخرجه الطبراني، وقال في مجمع الزوائد: إسناده حسن كذا في كتاب السيدة عائشة أم المؤمنين وعالمة نساء الإسلام للمؤلف ضمن سلسلة أعلام المسلمين.

(٣) صحيح البخاري في الجهاد، رقم ٣٠١٦.

الأسود أصاب زينب بنت رسول الله ﷺ بشيءٍ وهي في خِدْرِها فأُسقِطَتْ، فبعث رسول الله ﷺ سريةً فقال: «إنْ وجدتموه فاجعلوه بين حزمتي حطب ثم أشعلوا فيه النار» ثم قال: «إنّي لأستحيي من الله، لا ينبغي لأحدٍ أن يعذّب بعذاب الله» فكان إفراد هبار بالذكر لكونه كان الأصل في ذلك، والآخر كان تبعاً له(١).

وقد ذكروا في بعض الروايات أنَّ هَبَّاراً هذا قد أسلم، ففي رواية ابن أبي نجيح «فلم تُصِبْه السرية، وأصابه الإسلامُ فهاجر» فذكر قصة إسلامه، وله حديث عند الطبراني وآخر عند ابن مندة، وذكر البخاريُّ في تاريخه لسليمان بن يسار عنه رواية في قصة جرت له مع عمر في الحج.

وعاش هبار هذا إلى خلافة معاوية(٢).

ومن الذين تحمّلوا مشقّات الهجرة أيضاً، وبذلوا مالهم في سبيل تحقيقها صهيب الرومي رضي الله عنه. فقد ذكروا أنَّ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] نزلت في صهيب الرومي رضي الله عنه، فقد أخرج الجماعة أنَّ صهيباً أقبلَ مهاجِراً نحو النبيِّ ﷺ فاتبعه نفرٌ من المشركين، فنزل عن راحلته، ونثر ما في كنانتِه، وأخذ قوسَه، ثم قال: يامعشر قريش لقد علمتم أنِّي من أرماكم رجلاً، وايم الله لا تصلون إليّ حتى أرمي بما في كنانتي، ثم أضربُ بسيفي ما بقيَ في يدي منه شيءٌ، ثم افعلوا ما شئتم. فقالوا: دلّنا على بيتك ومالك بمكة ونخلي عنك. ففعل، فلما قدم على النبيّ ﷺ قال: «أبا يحيى ربح البيع، ربح البيع» وتلا له الآية(٣).

دموع في الأبطح:

وكان أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي وزوجه أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية من المهاجرين الذين تعرضوا إلى مصاعب كبيرة ومشقات جسيمة في طريق الهجرة إلى المدينة المنورة، هاجرا أولاً إلى الحبشة،

---

(١) فتح الباري: ٦/ ١٥٠.
(٢) المرجع السابق نفسه.
(٣) انظر تفسير سورة البقرة في موضوعات سور القرآن للمؤلف.

ورجعا مع من رجع إلى مكة، عندما سمعا بإسلام قريش، ودخل أبو سلمة بجوار خاله أبي طالب، وبعد بيعة العقبة الثانية بادر أبو سلمة مع زوجه إلى الهجرة إلى المدينة المنورة، فرحَّل بعيره، وحمل زوجَه وولده سلمة عليه، وانطلق يقود بهما البعير، ومرَّ في طريقه على رجال من بني المغيرة أهل أم سلمة، فقاموا إليه، واعترضوا طريقه قائلين: هذه نفسُك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه علام نتركك تسير بها في البلاد؟ ووقف أبو سلمة مدهوشاً حائراً لا يدري ما يصنع بعد أن نزعوا من يده خطام البعير، بينما أخذت أم سلمة تناشدهم وتستعطفهم ليتركوها تسافر مع زوجها، ولكنهم لم يستجيبوا لها، ولم يأبهوا لدموعها ومناشدتها.

ولما يئس أبو سلمة منهم ترك زوجته وولده معهم، وانطلق مهاجراً وحدَه، وهو يسأل الله أن يجمعه بزوجه وولده.

ولمّا رأى بنو عبد الأسد ما فعل بنو المغيرة غضبوا وقالوا: والله لا نترك ابننا عندها بعد إذ نزعتموها من صاحبنا، وأخذوا يتجاذبون سلمة وهو يبكي بينهم حتى خلعوا يده. وفرّقوا بينه وبين أمّه أيضاً. وبقيت رضي الله عنها سنة تقريباً، تخرجُ كلَّ يومٍ إلى الأبطح في مكة المكرمة تبكي، حتى مرَّ بها رجلٌ من بني عمها، فرأى ما بها فرحمها، وقال لبني المغيرة: ألا ترحمون هذه المسكينة، فرّقتم بينها وبين زوجها وولدِها، عند ذلك قالوا لها: إلحقي بزوجك إن شئتِ، وردَّ بنو عبد الأسد إليها عند ذلك ولدَها.

وتحدَّثت رضي الله عنها عن هجرتها إلى المدينة المنورة فقالت: ثم خرجتُ أريدُ المدينة، وما معي أحدٌ مِنْ خلقِ اللهِ حتى إذا كنتُ بالتنعيم لقيتُ عثمان بن طلحة أخا بني عبد الدار، فقال لي: إلى أينَ يا بنت أبي أمية، فقلت: أريد زوجي بالمدينة، فقال: أو ما معك أحد؟ فقلت: لا والله إلا الله وبُنيَّ هذا، قال: واللهِ مالكِ من مَتْرَكٍ، ثم أخذ بخطام البعير، وانطلق معي، فواللهِ ما صحِبتُ رجلاً من العرب قط أكرم منه، كان إذا بلغ المنزلَ، أناخَ بي، ثم استأخرَ عنّي، حتى إذا نزلتُ، استأخر ببعيري فحطَّ عنه، ثم قيّده بالشجرة، ثم تنحّى عني إلى

شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا بنا الرواح، قام إلى بعيري فقدّمه، ثم استأخر عني، وقال: اركبي، فإذا ركبتُ أتى فأخذَ بخطامه، فقاده حتى أقدمني المدينة، فلمّا نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجُكِ في هذه القرية، فادخليها على بركةِ الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة، واللهِ ما أعلمُ أهلَ بيتٍ في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيتُ صاحباً أكرم من عثمان بن طلحة[1].

* * *

(١) انظر سيرة ابن هشام، وقد أسلم عثمان بن طلحة بعد ذلك، وقُتل شهيداً في وقعة أجنادين في أول خلافة عمر.

القِسمُ الثّاني

من الهجرة إلى لقاء الله تعالى

الباب الأوّل: رسول الله ﷺ في المدينة

الباب الثاني: الجهاد والمغازي

الباب الثالث: من وفود الناس إلى الإسلام

إلى

وُفُودِ النّبي ﷺ إلى الرّحمنِ في دارِ الرِّضوانِ

الباب الأوّل

رسول الله ﷺ في المدينة

الفصل الأول : أعماله ﷺ بعد الهجرة

الفصل الثاني : النبي ﷺ وأهل المدينة المنوّرة

الفصل الثالث : النبي ﷺ واليهود

الفصل الرابع : النبي ﷺ والمنافقون

الفصل الأول

أعماله ﷺ بعد الهجرة

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

جعلَ النبيُّ ﷺ أخوَّة الإسلام أساسَ المجتمع الإسلامي الجديد الوليد، الذي بدأ يشيدُه ويبنيه في المدينة المنورة تحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وبوَّبَ الإمامُ البخاريُّ في مناقب الأنصار باباً قال فيه: باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار.

ثم روى بسنده عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن جده قال: لمّا قدموا المدينةَ آخى رسولُ الله ﷺ بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع، فقال: يا عبد الرحمن! إنِّي أكثرُ الأنصارِ مالاً، فأقسمُ مالي نصفين، ولي امرأتانِ فانظرْ أعجَبَهما إليك، فسَمِّها لي أطلِّقُها، فإذا انقضتْ عِدَّتُها فتزوَّجْها.

قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلّوه على سوق بني قَيْنُقاع، فما انقلبَ إلا ومعه فضلٌ من أقطٍ ـ اللبن المجفف ـ وسمنٍ، ثم تابع الغدوَّ.

ثم جاء يوماً وبه أثر صُفرةٍ، فقال النبيُّ ﷺ: «مَهيم؟» قال: تزوّجتُ، قال: «كم سُقْتَ إليها» قال: نواة من ذهب، أو وزن نواة من ذهب. فقال: «أَوْلِم ولو بشاةٍ»(١).

قال ابن عبد البر: كانت المؤاخاةُ مرّتين: مرة بين المهاجرين خاصة وذلك بمكة، ومرة بين المهاجرين والأنصار، فهي المقصودة هنا.

---

(١) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٧٨٠.

وذكر ابن سعد بأسانيد الواقديِّ إلى جماعةٍ من التابعين قالوا: لما قدم النبيُّ ﷺ المدينة آخى بين المهاجرين، وآخى بين المهاجرين والأنصار على المواساة، وكانوا يتوارثون، وكانوا تسعين نفساً بعضُهم من المهاجرين وبعضُهم من الأنصار، وقيل: كانوا مئة.

فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [الأنفال: ٧٥] بطلت المواريثُ بينهم بتلك المؤاخاة.

وفي كتاب الفرائض من **حديث ابن عباس**: لما قدموا المدينةَ كان يرثُ المهاجريُّ الأنصاريَّ دون ذوي رحِمِه، بالأخوَّةِ التي آخى رسولُ الله ﷺ بينهم، فنزلت.

وعند أحمد من رواية **عمرو بن شُعيب عن أبيه عن جدّه** نحوه.

قال السُّهيلي: آخى بين أصحابه ليُذْهِبَ عنهم وحشةَ الغربة، ويستأنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشدّ بعضُهم أزرَ بعض، فلمَّا عزَّ الإسلامُ واجتمعَ الشَّمْلُ، وذهبت الوحشةُ، أبطلَ المواريثَ، وجعل المؤمنين كلَّهم إخوة، وأنزل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] يعني في التوادد وشمول الدعوة.

والجدير بالذكرِ أنَّ الأنصارَ تنافسوا على سُكنى المهاجرين واستضافتهم في بيوتهم حتى اقترعوا على ذلك، كما مرَّ معنا في حديث أم العلاء الأنصارية، عندما نزل عندهم عثمان بن مظعون رضي الله عنه، إذ قالت: طار لهم في السكنى حيت اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين.

ولهذا أثنى اللهُ تعالى على الأنصار بقوله الكريم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: ويؤثر الأنصارُ

المهاجرين بـأموالهم ومنازلهم على أنفسـهم، ولو كان بهم فاقة وحاجة إلى ما يؤثرون به.

والإيثار: هو تقديمُ الغيرِ على النفسِ وحظوظِها الدنيوية رغبةً في الحظوظ الدينية، وذلك ينشأ عن قوّةِ اليقين، وتوكيد المحبة والصبر على المشقة.

وفي الحديث عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: أتى رجلٌ رسولَ الله ﷺ فقال: يارسولَ الله أصابني الجهد، فأرسلَ إلى نسائه فلم يجد عندهنَّ شيئاً، فقال رسولُ الله ﷺ: «ألا رجلٌ يضيفُه الليلةَ يرحمُه الله؟» فقام رجلٌ من الأنصار فقال: أنا يارسـول الله.

فذهب إلى أهلِـه، فقال لامرأتِه: ضيفُ رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئاً. فقالت: واللهِ ما عندي إلا قوتُ الصبيةِ. قال: فإذا أراد الصبيةُ العَشاءَ فنوّميهم، وتعالي فأطفئي السراج، ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت.

ثم غدا الرجلُ على رسولِ الله ﷺ فقال ﷺ: «لقد عجبَ اللهُ عزَّ وجلّ ـ أو ضَحِكَ ـ من فلانٍ وفلانةٍ» فأنزل اللهُ عزَّ وجلّ: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩](١).

بناء المسجد النبويّ:

ومرَّ معنا أنَّه ﷺ عندما وصل إلى المدينة المنورة نزل في بيت أبي أيوب الأنصاري، وأنَّه ﷺ كان يصلّي حيث أدركته الصلاة قبل بناء المسجد، ثم بنى مسجدَه في المدينة، وشارك ﷺ أصحابه في بنائه، وعمل معهم.

ففي الحديث عن **عكرمـة** قال لي ابن عباس ولابنه علي: انطلقا إلى أبي سعيد ـ الخدري ـ فاسمعا من حديثه، فانطلقنا، فإذا هو في حائطٍ ـ بستان ـ يصلحُه، فأخذَ رداءه، فاحتبى، ثم أنشأ يحدّثنا، حتى أتى على ذكر بناء المسجد، فقال: كنا نحمل لبنة لبنة، وعمّار لبنتين لبنتين، فرآه النبيُّ ﷺ، فينفض الترابَ عنه، ويقول: «ويحَ عمار تقتله الفئةُ الباغية، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونَه إلى النار»

---

(١) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٨٨٩.

قال يقول عمار: أعوذُ باللهِ من الفتن[1].

ووصفَ ابن عمر رضي الله عنه كيفَ كان بناءُ المسجد على عهد رسول الله ﷺ فقال: كان على عهدِ رسولِ الله ﷺ مبنياً باللبن والجريد، وسقفه الجريد، وعمدُه خشبُ النخل، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً، وزاد فيه عمر، وبناه على بنيانه في عهد رسول الله ﷺ باللبن والجريد، وأعاد عمده خشباً.

ثم غيَّرَه عثمان، فزاد فيه زيادةً كثيرةً، وبنى جدارَه بالحجارة المنقوشة والقَصَّة[2] وجعل عمده من حجارة منقوشة، وسقَّفه بالساج[3]»[4].

وأراد بعضُ الأنصار أن يتحوّلوا إلى جوار المسجد، فكره ﷺ أن يُعْروا المدينة المنورة، وقال لهم: «إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد» قالوا: نعم قد أردنا ذلك. فقال: «يابني سلمة ديارُكم تكتب آثاركم» ومعناه الزموا دياركم فإن آثاركم وخطاكم الكثيرة إلى المسجد تكتب لكم.

تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام:

القبلةُ هي الجهةُ التي يستقبلُها المصلّي في صلاته، وسمّيت قِبْلَةً، لأنَّ المصلّي يقابِلُها وتقابِلُه.

وكان رسولُ الله ﷺ يصلّي مستقبلاً بيت المقدس عندما كان في مكة المكرمة، وكان بعدَ الهجرةِ يرغبُ أن يحوّله الله تعالى إلى قبلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فكان كثيرَ النظرِ إلى جهة السماءِ، ينتظرُ نزولَ الوحي عليه بذلك، فلم يتحوّل ﷺ إلى استقبال بيتِ الله الحرام من عِنْدِ نفسِه، واستمرَّ يصلّي مستقبلاً بيت المقدس، مستسلماً لأمره تعالى بضعة عشر شهراً، حتى أنزل الله قوله الكريم: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ

(١) صحيح البخاري في الصلاة، رقم ٤٤٧.
(٢) القصة، الجص بلغة أهل الحجاز.
(٣) نوع من الخشب معروف يؤتى به من الهند.
(٤) صحيح البخاري في الصلاة، رقم ٤٤٦.

﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وفي الحديث عن البراء أنَّ النبيّ ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده ـ أو قال أخواله ـ من الأنصار، وأنّه صلّى قِبَلَ بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبُه أن تكونَ قبلتُه قِبَلَ البيت، وأنّه صلّى أول صلاةٍ صلاّها صلاة العصر، وصلّى معه قوم، فخرجَ رجلٌ ممن صلّى معه، فمرَّ على أهلِ مسجدٍ وهم راكعون فقال: أشهدُ باللهِ لقد صليتُ مع رسولِ الله ﷺ قِبَلَ مكة، فداروا كما هم قِبَلَ البيت.

وكان اليهودُ قد أعجبهم إذ كان يصلّي قِبَلَ بيت المقدس وأهل الكتاب، فلمّا ولّى وجهه قِبَلَ البيتِ أنكروا ذلك.

قال زهير حدّثنا أبو إسحاق عن البراء في حديثه هذا، أنَّه مات على القبلة قبل أن تحوّل رجالٌ وقُتِلوا، فلم ندر ما نقولُ فيهم، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣](١).

وقوله: «ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً» كذا وقع الشك في رواية زهير هذه هنا، وفي الصلاة أيضاً عن أبي نُعيم عنه، وكذا في روايةِ الثوري عنده. ووقع في رواية إسرائيل في رواية ثانية عند البخاري وعند الترمذي من غير شك (ستة عشر). وكذا لمسلم في رواية أبي الأحوص... والجمع بين الروايتين سهل بأن يكونَ من جزمَ بستة عشر لفّق من شهر القدوم وشهر التحويل شهراً، وألغى الزائد، ومن جزم بسبعة عشر عدّهما معاً، ومن شك تردّد في ذلك، وذلك أن القدوم كان في شهر ربيع الأول بلا خلاف، وكان التحويلُ في نصفِ شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح، وبه جزم الجمهور..

وفي هذا الحديث من الفوائد الرد على المرجئة في إنكارهم تسمية أعمال الدين إيماناً، وفيه أنَّ تمني تغيير بعض الأحكام جائزٌ إذا ظهرت المصلحةُ في

---

(١) صحيح البخاري في الإيمان، رقم ٤٠.

ذلك. وفيه بيان شرفِ المصطفى ﷺ وكرامتِه على ربّه لإعطائه له ما أحبَّ من غير تصريحٍ بالسؤال[١].

تشريع الأذان:

وشُـرِعَ الأذانُ بعد الهجرةِ، ففي الحديثِ عن ابن عمر كان يقول: كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحيّنون الصلاة، ليس يُنادى لها، فتكلّموا يوماً في ذلك، فقال بعضُهم: اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى.

وقال بعضُهم: بل بُوقاً مثل قرن اليهود.

فقال عمر: أو لا تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ: «يابلال، قم فنادِ بالصلاة»[٢].

واختُلِفَ في السنة التي شرع فيها، فالراجِحُ أنَّ ذلك كان في السنةِ الأولى، وقيل: بل كان في السنةِ الثانية، وقد جزمَ ابنُ المنذر بأنَّه ﷺ كان يصلي بغير أذان منذ فُرِضَت الصلاة بمكة إلى أن هاجر إلى المدينة، وإلى أن وقع التشاور في ذلك على ما في حديث عبد الله بن عمر، ثم حديث **عبد الله بن زيد**، فعنه رضي الله عنه قال: رأيتُ رجلاً عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً فقلتُ له: ياعبد الله تبيع الناقوس؟ قال: وما تصنعُ به؟ قلت: أنادي به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلّكَ على خيرٍ من ذلك؟ قلت: ما هو؟ قال: تقول:

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر

أشهد أن لا إلـه إلا الله، أشهد أن لا إلـه إلا الله

أشهدُ أنَّ محمداً رسولُ الله، أشهدُ أنَّ محمداً رسولُ الله

حيَّ على الصلاة، حيَّ على الصلاة

حيَّ على الفلاح، حيَّ على الفلاح

الله أكبر الله أكبر، لا إلـه إلا الله.

---

(١) فتح الباري: ١/ ٩٨.

(٢) صحيح البخاري في الأذان، رقم ٦٠٤.

فخرجَ عبدُ الله بن زيد حتى أتى رسولَ الله ﷺ فأخبره بما رأى، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ صاحبكم قد رأى رؤيا، فاخرج مع بلالٍ إلى المسجد، فألقها عليه، وليناد بلالٌ، فإنَّه أندى منك صوتاً»

قال: فخرجتُ مع بلال إلى المسجد، فجعلتُ ألقيها عليه، وهو ينادي بها، فسمع عمرُ بن الخطاب فخرجَ، فقال: يارسولَ الله! والله لقد رأيتُ مثل الذي رأى[1].

والحكمة في تشريع الأذان على غير لسانه ﷺ التنويه بقدره، والرفع لذكره بلسان غيره، ليكونَ أقوى لأمره، وأفخم لشأنه، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، فقد رفع جلَّ جلاله ذكر النبيّ ﷺ بالنبوّة والأذان وغيرهما، فقرنَ اسمَه عليهِ الصلاة والسلام باسمِه عزَّ وجلّ في كلمتَي الشهادة، وجعل طاعته طاعته، وصلى عليه في الملأ الأعلى، وأمر المؤمنين بالصلاة والسلام عليه، وذكرَه في كتب الأولين، وأخذ على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يؤمنوا به إنْ أدركوا زمانه، كما مرَّ معنا.

وقد أشارَ حسّان بن ثابت رضي الله عنه[2] إلى عظيم قدره بقوله:

أَغَرُّ عليه للنبوّةِ خاتمٌ ... مِنَ اللهِ مشهودٌ يلوحُ ويشهدُ
وضمَّ الإلهُ اسمَ النبيِّ إلى اسمِهِ ... إذا قال في الخمسِ المؤذِّنُ: أشْهَدُ

* * *

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه.

(٢) انظر تفسير السورة للمؤلف في موضوعات السور.

الفصل الثاني

النبي ﷺ وأهل المدينة المنورة

النبي ﷺ والمسلمون:

كان أهل المدينة قبل الهجرة ينقسمون إلى قسمين: **العرب**: وهم الأوس والخزرج، **وأهل الكتاب**: وهم اليهود: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، وازدادَ أهلُ المدينة بعد الهجرة بانضمام المهاجرين إليهم، فأصبحوا ثلاثة، ثم ظهرت أيضاً شريحة رابعة هي شريحة المنافقين. وكان لكلِّ شريحة من هذه الشرائح من النبيِّ ﷺ شأن وموقف.

مكانة النبي ﷺ عند المؤمنين:

بيّن الله تعالى مكانة نبيّه ﷺ أبلغ بيان وأوضحه بقوله الكريم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦]. بهذا التقرير الجازم الحازم رَفعت هذه الآيةُ الكريمةُ النبيَّ ﷺ إلى أرفع منزلةٍ، وأعلى مكانةٍ عند المؤمنين، فجعلته بهذه المنزلة أولى بالمؤمنين من أنفسهم في جميع الأمور الدينية والدنيوية، لأنّها جاءت مطلقة غير مقيدة.

وقد بيّن ابنُ كثير رحمه الله في تفسير الآية سببَ هذه المنزلة الرفيعة التي أنزل الله بها نبيّه ﷺ فقال: علمَ اللهُ تعالى شفقةَ رسوله ﷺ على أمته، ونصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، قال تعالى يبيّن شدة شفقة الرسول ﷺ على أمته، وعظيم نصحه لهم: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وشفقته عليه الصلاة والسلام على أمته ورأفته بهم وحرصه على سلامتهم

وسعادتهم ليس قاصراً على الحياة الدنيا، بل يمتدّ إلى ما بعد الموت إلى يوم القيامة ـ كما سيأتي معنا في أحاديث الشفاعة ـ قال عليه الصلاة والسلام: «ما مِنْ مؤمنٍ إلاّ وأنا أولىٰ الناسِ بهِ في الدّنيا والآخرة، واقرؤوا إن شئتم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فأيّما مؤمن تركَ مالاً فليرثه عصبتُه مَنْ كانوا، وإن تركَ دَيْناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه»[1].

فالنبيُّ ﷺ في الدنيا يقضي دَيْنَ من يموت من أصحابه، ويتولّى رعاية أولادهم بعدهم، فما أعظم رحمته بالمؤمنين! وما أشد شفقته عليهم!

وينشغل يوم القيامة كل إنسان بنفسه عن جميع الناس حتى عن أحبِّ الناس إليه، وأقربهم منه، كما في قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧].

بل يتمنّى الإنسانُ المعذَّبُ أن يدفع عن نفسه العذاب بأحبِّ الناس إليه، كما في قوله سبحانه: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١١ ـ ١٤].

وكلُّ إنسانٍ ينشغلُ يوم القيامةِ بنفسه، إلا النبيّ ﷺ، فإنه يأتي إلى مقام مناجاته لربّه عزَّ وجلّ ـ كما سيأتي معنا ـ فيخرُّ أمامَ العرش ساجداً لله تعالى، ويفتح الله عليه بأنواع المحامد ما يفتح، ثم يناديه ربُّ العزَّة: «يا محمّدُ ارفع رأسَك، وقل تُسْمَعْ، واشفع تُشفَّعْ. فيقول: يا رب أمتي» فلا أحدَ أرحمُ بالمؤمنين وأشفقُ عليهم بعدَ اللهِ سبحانه من رسول الله ﷺ، فهو أرحمُ بالمؤمنِ من نفسِه التي بين جنبيه، وأشفقُ على نفس المؤمن من نفسه.

فالنبيُّ ﷺ يشفع للمؤمنين، ويسعى لإنقاذهم من غضب الجبار وعذابه وانتقامه، بينما أجزاءُ الإنسان وأبعاضُه تشهد عليه بما فعل في الدنيا من المعاصي والآثام، قال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يٰس: ٦٥].

وعندما تشهد على الإنسان أعضاؤه وأجزاؤه يتّجه إليها صاحبها باللومِ

---

(١) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٧٨١.

والعتاب، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ١٩ ـ ٢٣].

فهل رأيتَ أعجبَ من هذا الحوار؟! يتحاور الإنسان مع أبعاضه وأعضائه معاتباً وموبّخاً، وهو يذوبُ حسرةً وكمداً، بينما رسول الله ﷺ يشفع للمؤمنين، ويسأل الله سبحانه لهم مغفرة ذنوبهم وستر عيوبهم.

وما أجمل المثلَ الذي ضربه النبيُّ ﷺ لنا وله عندما قال: «إنّما مَثَلي ومَثَلُكم كمَثَلِ رجلٍ استوقدَ ناراً، فلمّا أضاءت ما حولَه جعلَ الفراشُ وهذه الدوابُّ التي تقعُ في النارِ تقعُ فيها، فجعلَ يَزَعهُنَّ، ويغلبْنَهُ، فيقتحمنَ فيها، فأنا آخذٌ بحجزِكم عن النارِ وأنتم تقتحمونَ فيها»[1].

عموم ولاية النبيّ ﷺ وشمولها:

وولايةُ النبيِّ ﷺ على المؤمن عامةٌ وشاملةٌ، فهي أكمل وأعلى من ولاية الوالد على ولده، والسيد على عبده، فالوالدُ لا يستطيعُ شرعاً أن يزوِّجَ ابنته البالغة دون رضاها، لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا تُنْكَحُ الأيِّمُ حتى تُسْتَأْمَرَ، ولا البِكرُ حتى تُستأذَنَ» فقالوا: فكيف إذنها؟ قال: «أن تسكتَ»[2].

وقد ردّ رسولُ الله ﷺ زواجَ فتاةٍ زوّجها أبوها دون رضاها، ففي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ جاريةً بكراً أتت النبيَّ ﷺ فذكرت أنَّ أباها زوّجها وهي كارهةٌ، فخيَّرها النبيُّ ﷺ[3].

وهذا يدلُّ على أن ولاية الوالد على ولده قاصرة غير كاملة، بينما ولاية

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة، والأيم: التي لا زوج لها.

(٣) رواه أبو داود وابن ماجه.

النبيِّ ﷺ شاملة كاملة، فله أن يزوِّجَ أي فتاة مسلمة ممَّن يريد عليه الصلاة والسلام، وليس لأحدٍ مهما كان أن يعترضَ على أمره ﷺ، حتى الفتاة نفسها لا تملكُ إلا التسليمَ لأمره عليه الصلاة والسلام.

وسيأتي معنا أنّه لما خطبَ ﷺ السيدة زينب بنت جحش ابنة عمته لمولاه زيد بن حارثة، كرهت زينبُ هذا الزواج، لأنَّ زيداً كان عبداً، ثم أعتقه النبيُّ ﷺ، فأنزل الله سبحانه قوله الكريم: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وهل أتاك خبرُ زواج جُليبيب الصحابيِّ الشهيد رضي الله عنه! كان قصيراً دميماً، فخطبَ النبيُّ ﷺ له امرأةً من الأنصار، فقال أبوها: حتى أستأمِرَ أُمَّها، فانطلقَ الرجل إلى امرأته، فذكر لها، فقالت: لاها الله، إذاً ما وجدَ رسول الله ﷺ إلا جُليبيباً، وقد منعناها من فلان وفلان! وكانت الجاريةُ في سترها تسمع، فقالت: أتريدونَ أن تردّوا على رسول الله ﷺ أمرَه؟ إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه. فقالا: صدقتِ. فذهبَ أبوها إلى النبيِّ ﷺ فقال: إن كنتَ قد رضيْتَه فقد رضيناه. قال: «إنّي قد رضيتُه» فزوَّجها. ثم فزع أهل المدينة. فركبَ جليبيبُ فوجدوه قد قُتِلَ وحوله ناسٌ من المشركين قد قتلهم. قال أنس راوي الحديث: فلقد رأيتُها وإنّها لمن أنفقِ بيتٍ في المدينة(١). وكلّ ذلك يؤكد لنا عمومَ وشمولَ ولاية النبيِّ ﷺ على المؤمنين، وأنها أعلى وأعظم من ولاية الأبوّة.

وثمّةَ فارقٌ كبيرٌ بين ولاية النبوة وولاية الأبوة، ويلاحظ أنه لما أكرم الله سبحانه أزواج النبيِّ ﷺ بمقام الأمومة على المؤمنين بما مرَّ معنا من قوله الكريم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ لم تذكر الآيةُ مقام الأبوّة للنبيّ ﷺ، لأنها كرّمته عليه الصلاة والسلام بولاية أعظم وأشرف، وتلك هي ولاية النبوّة على جميع المؤمنين والمؤمنات. ولهذا قال العلاّمة الصاوي في حاشيته على (تفسير الجلالين): وإذا كان أولى بهم من أنفسهم، فهو أولى بمالهم وأولادهم وأزواجهم من أنفسهم بالأولى، فحقه ﷺ أعظم من حق السيد على عبده.

---

(١) رواه أحمد في مسنده، وهو في صحيح مسلم مختصراً.

وجوب طاعته ﷺ:

وأدت هذه المكانة الرفيعة التي جعلها الله له عند المسلمين إلى وجوب طاعته عليهم، فقد فرض الله على المسلمين طاعة النبيِّ ﷺ في جميع شؤون حياتهم في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠]، فقد أمر الله تعالى بالطاعة العامة الشاملة له جلَّ جلاله ولرسوله ﷺ، وحذّر بعدها من الإعراض عن طاعته فقال: ﴿ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ أي لا تعرضوا عن طاعة الرسول ﴿ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ ما دعاكم إليه بعد أن بلغكم رسالة الله تعالى.

فكلُّ من بلغته رسالة الإسلام، أو سمع شيئاً من القرآن، وفَهِمَ معانيه، قامت عليه الحجةُ، ولزمتْهُ الإجابة، وعليه طاعة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام.

ويجب على الأمة المسلمة أفراداً وجماعاتٍ التي تسمعُ كلام الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار أن تلتزمَ بطاعةِ الله تعالى وطاعةِ رسوله ﷺ، وذلك باتباع أحكام القرآن الكريم، والتمسُّكِ بسنّته عليه الصلاة والسلام، كما يجب عليها أن تُعرِضَ عن جميع الشرائع الوضعية المخالفة للشريعة الإسلامية.

فسماع القرآن الكريم يُلزم السامع بطاعته سبحانه وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا﴾ بآذاننا ﴿ وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]، أي لا يسمعون بقلوبهم وجوارحهم وسلوكهم، ويعرضون عن طاعة الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام.

وكان هذا حالُ المنافقين ـ كما سيأتي معنا ـ الذين كانوا يتظاهرون بالسمع والطاعة، وهم يضمرون العصيان والمخالفة، حتى قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

وكذلك كان حال اليهود في المدينة المنورة، إذا سمعوا النبيَّ ﷺ قالوا: سمعنا وعصينا، ذكر ذلك سبحانه في قوله عنهم: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي

﴿ٱلدِّينِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦].

وهذا مع الأسف حال كثير من المسلمين في العصر الحاضر، يسمعون كلام الله تعالى ويتظاهرون بالتأثّر بمواعظه وزواجره، وفي الوقت نفسه يصرّون على المعاصي والآثام. قال القرطبي رحمه الله: دلَّت الآية على أنَّ قول المؤمن: سمعتُ وأطعتُ، لا فائدةَ فيه ما لم يظهر أثرُ ذلك عليه بامتثال فعله، فإذا قصّر في الأوامر فلم يأتها، واعتمد النواهي واقتحمها، فأيُّ سمعٍ عندَه وأيُّ طاعةٍ[1]؟

ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء المعرضين عن طاعة الرسول ﷺ هم شرُّ الخلقِ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ﴾ أي عن سماع الحق سماعَ إجابةٍ وخضوع وانقيادٍ ﴿ٱلْبُكْمُ﴾ عن الإقرار بالحق وإعلان الانقياد له والرضى به ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢] أي الذين لا يستعملون عقولهم فيما خُلِقَتْ من أجله، وهو التمييز بين الحق والباطل، فهؤلاء شر الدواب، لأنّ كل دابة مما سواهم مطيعة لله تعالى فيما خُلقت لـه، وهؤلاء خلقوا لطاعته تعالى وعبادته فكفروا وأعرضوا.

ثم بيّن تعالى أنّه لا خير في هؤلاء، وأنَّ نفوسَهم قد غلب عليها الخبثُ والشرُّ فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي لأسمعهم سماعَ الإجابة والخضوع والانقياد ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ سماعَ الانتفاع بعد أن علم أنه لا خيرَ فيهم ﴿لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، أي لأعرضوا عن الحقِّ، ولم ينقادوا لطاعة الرسول ﷺ رغم معرفتهم أنها حق.

فطاعتُه عليه الصلاة والسلام طاعةٌ لله تعالى، أكّدَ ذلك قولُه سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]، فهو ﷺ المبلّغُ عن الله تعالى، فطاعتُه لازمةٌ كطاعةِ الله تعالى.

ولا يصحُّ إيمانُ مسلم إلا إذا انقاد انقياداً تاماً لأمر النبيِّ ﷺ وأطاعه طاعةً كاملةً، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

---

(١) تفسير القرطبي: ٧/ ٤٨٨.

فلا يصحُّ إيمانُ أحدٍ بالله تعالى إلا إذا آمن بالنبيِّ ﷺ، وانقادَ لحكمه انقياداً كاملاً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية أنَّ رجلاً من الأنصار خاصمَ الزُّبيرَ عند النبيِّ ﷺ في شِراجِ الحَرّة[1]، التي يسقون بها النخل، فقال الأنصاريُّ: سرّحِ الماءَ يمرُّ، فأبى عليه، فاختصما عندَ النبيِّ ﷺ، فقال رسول الله ﷺ للزبير: «اسقِ يازبيرُ، ثم أرسلِ الماءَ إلى جارِكَ» فغضبَ الأنصاريُّ فقال: أنْ كان ابنَ عمَّتِكَ، فتلوَّنَ وجهُ رسولِ الله ﷺ ثم قال: «اسقِ يازُبَيْرُ، ثم احبسِ الماءَ حتَّى يَرْجِعَ إلى الجَدْرِ[2]» فقال الزُّبيرُ: واللهِ إنِّي لأحسبُ هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[3].

ومن المعلوم أنَّ خصوصَ السبب لا يمنعُ عموم الحكم، وحكم هذه الآية باقٍ إلى يوم القيامة، وليس مخصوصاً بالذين كانوا في عصر النبيِّ ﷺ، فإنَّ قضاءَ شريعتِه عليه الصلاة والسلام قضاؤه[4].

طاعته ﷺ مفتاح الوصول:

وطاعتُه عليه الصلاة والسلام مفتاحُ الوصول إلى المقاماتِ العالية الرفيعة، مقامات النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وكفاه عليه الصلاة والسلام بذلك شرفاً وتكريماً، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[النساء ٦٩]

وقال أيضاً: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وعن **ربيعة بن كعب الأسلمي** قال: كنتُ أبيتُ مع رسول الله ﷺ فأتيته

---

(١) هي أماكن مسيل الماء في الحرة.

(٢) هي الحواجز التي تحبس الماء.

(٣) صحيح البخاري في كتاب المساقاة، رقم ٢٣٥٩.

(٤) انظر تفسير المؤلف للسورة في موضوعات سور القرآن الكريم.

بوضوئه وحاجته، فقال لي: «سل» فقلتُ: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: «أو غيرَ ذلك؟» قلت: هو ذاك. قال: «فأعنّي على نفسك بكثرةِ السجود»[١].

وكما أنَّ طاعته عليه الصلاة والسلام مفتاح الوصول، فشفاعته أيضاً واستغفاره للمؤمنين تجعل استغفار المؤمنين مقبولاً عند الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ٦٤]، أي لعلموا أنَّ الله يقبل توبتهم ويرحمهم.

وجوب محبّته ﷺ:

وتستدعي أيضاً مكانتُه التي جعلها الله له في قلوب المؤمنين وجوبَ محبتِه عليه الصلاة والسلام، فقد فرض الله تعالى على المؤمنين محبة النبيِّ ﷺ أكثر من حبهم أنفسهم فقال: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] أي فإذا كانت هذه الأشياء المحبوبة طبعاً وفطرةً للإنسان ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ فانتظروا حتى ينزل بكم العذابُ.

ولما قال **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه: واللهِ يا رسولَ اللهِ لأنتَ أحبُّ إليَّ من كلِّ شيءٍ إلا مِنْ نفسي، قال رسول الله ﷺ: «لا يُؤمِنُ أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من نفسِه» فقال عمر: فأنتَ الآن واللهِ أحبُّ إليَّ من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: «الآنَ يا عمر»[٢].

وقال ﷺ أيضاً: «لا يؤمنُ أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والدِه وولدِه والناسِ أجمعين»[٣].

---

(١) صحيح مسلم في الصلاة، رقم ٤٨٩.
(٢) صحيح البخاري في الأيمان والنذور.
(٣) صحيح مسلم في الإيمان، رقم ٤٤.

وليس المرادُ من الآية الحب الطبيعي التابع لهوى النفس، فهذا الحبُّ ليس داخلاً تحتَ اختيار الشخص، بل هو خارجٌ عن حدِّ الاستطاعة، فلا مؤاخذةَ به لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، بل المرادُ الحبُّ العقلي الاختياري، الذي هو إيثار ما يقتضي العقل رجحانه، وإن كان على خلافِ الطبع، ألا ترى أنَّ المريضَ يكرَهُ بطبعه الدواءَ المرَّ، ومع ذلك يميلُ إليه باختياره، ويهوى تناوله بمقتضى عقله، لِمَا علمَ أو ظنَّ أن صلاحَه فيه. ولهذا قيد أكثرُ المفسّرين الحبَّ المطلوبَ في الآية بالحبِّ الاختياري الطبيعي[١].

وكما أوجب الله محبّته عليه الصلاة والسلام، أوجبَ أيضاً محبة أصحابه وآل بيته، فعن عبد الله بن مغفل المزني رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «اللهَ اللهَ في أصحابي، لا تتخذوهم غرَضاً بعدي، فمن أحبَّهم فبِحُبِّي أحبَّهم، ومن أبغضَهم فبِبُغْضي أبغضَهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله تبارك وتعالى، ومَن آذى الله يوشِكُ أن يأخذَه»[٢].

وكما أوجبَ محبتهم، وجعلها من محبته عليه الصلاة والسلام، حرّم أيضاً سبّهم وانتقاصهم، ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبُّوا أصحابي، لا تسبُّوا أصحابي، فوالذي نفسِي بيدِه لو أنَّ أحدَكم أنفقَ مِثْلَ أُحدٍ ذهباً ما أدركَ مُدَّ أحدِهم ولا نَصيفَه»[٣].

وجوب تعظيمه وتوقيره والتأدّب معه ﷺ:

أوجب الله تعالى على المسلمين معرفةَ قدرِ رسول الله ﷺ ومكانته الرفيعة، فأمرهم بتعظيمه وتوقيره من خلال بيان بعض صفاته العالية الكريمة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦]، وقال أيضاً: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٨ ـ ٩]، أي أرسلناك شاهداً على أمتك يوم القيامة، ومبشّراً المؤمنينَ

---

(١) انظر البلاغ الأخير في سورة التوبة.
(٢) أخرجه أحمد في المسند.
(٣) صحيح مسلم في فضائل الصحابة، رقم ٢٥٤٠.

بفضلِ الله ورحمته، ومنذراً الكافرين بعذابه وسخطه.

وقوله: ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ فيه بيان أنَّ من أهداف بعثته ورسالتِه ﷺ الإيمان بالله ورسوله، وتعظيمه بنصره وتقويته، ومنعه من أعدائه، واحترامه، ومعرفة فضله ومكانته. فالضمير في ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ للنبيِّ ﷺ، وههنا وقفٌ تام، ويمكن أن يكون الضمير فيهما لله تعالى، فلا وقف ولا تشتيت للضمائر، ويكون المعنى: وتعزروه سبحانه بنصر دينه ورسوله، وتوقروه بتعظيمه جلَّ جلاله.

وقوله: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ﴾ أي وأرسلناك داعياً إلى الإيمان بوجود الله تعالى ووحدانيته، وإلى عبادته وطاعته، بتيسيره سبحانه، وتوفيقه أو بأمره. وهذه شهادةٌ من الله تعالى رفيعة، تدلُّ على إخلاصِه عليه الصلاة والسلام في دعوته، فدعوتُه خالصةٌ لله تعالى، وهي منه وإليه، كما أنّها دعوة إلى داره سبحانه وجنته ورضوانه، فلابدَّ أن تكونَ بإذنِ رب الدار.

وتدلُّ الآية على أنَّ الداعي إلى الله سبحانه هو الذي يدعو إلى الله لا إلى نفسه، ويجمع الناس على الله سبحانه، لا على نفسه، فلا يتأثر بكثرة الناس حوله أو قِلّتهم، لأنَّ قلبه مع الله تعالى لا مع الناس ولا مع نفسه.

وقوله: ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ أي وأرسلناك سراجاً منيراً، تنيرُ طريقَ الحق، وتبيّنُ الحجَج والبراهين، وقد جلا الله تعالى به ظلمات الشرك، واهتدى بهديه كثيرٌ من الضالين.

وقد جمع الله تعالى للنبيِّ ﷺ النور المعنوي والنور الحسي، فنور هدايته عليه الصلاة والسلام أضاءَ العالمين، وهو النور المعنوي. ونور جماله أجمع عليه كلُّ مَنْ رآه، وتشرَّفَ بالنظرِ إليه عليه الصلاة والسلام، ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما رأيتُ أحسنَ من رسول الله ﷺ كأنّ الشمس تجري في وجهه(١).

وجاء في وصف ربيب النبيِّ ﷺ هند بن أبي هالة رضي الله عنه قوله: كان

---

(١) رواه الترمذي في الشمائل.

رسولُ اللهِ ﷺ فخماً مُفخَّماً، يتلألأُ وجهُهُ تلألُؤَ القمرِ ليلةَ البدر.

ولما وصف **أنس بن مالك** مَقْدَمَ النبيِّ ﷺ المدينة المنوّرة قال: لما كان اليومُ الذي دخلَ فيه رسولُ الله ﷺ المدينةَ، أضاءَ منها كلُّ شيءٍ، فلمّا كان اليوم الذي ماتَ فيه أظلمَ فيها كلُّ شيءٍ[1].

إنَّ النبيَّ ﷺ بشرٌ كسائر البشر، إلا أنَّ الله سبحانه وتعالى اصطفاه ونوّره خَلقاً وخُلقاً، ونوَّرَ به عليه الصلاة والسلام العالمين.

والقول بأنه عليه الصلاة والسلام خُلِقَ من نورٍ، غيرُ صحيحٍ، ويتنافى مع النصوص القطعية في القرآن الكريم والسنّة الشريفة، كما مرّ معناً عند الحديث عن بشريته عليه الصلاة والسلام.

وقد أنزل الله تعالى عدداً من الآيات الكريمة علّم فيها الصحابة رضي الله عنهم أدبَ التعامل معه عندما يكونون في مجلسه، منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ١ ـ ٣].

ذكر الله هذه الآيات الكريمة في صدر سورة الحجرات، فاستهلّها بنداءٍ وجّهه للمؤمنين، أدبهم فيه بآداب كريمة، وأوجبَ عليهم أن يتحلّوا بهذه الآداب في معاملة رسول الله ﷺ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ﴾ أي: لا تسرعوا بقول أو فعل قبل أن يقوله رسول الله ﷺ وقبل أن يفعله، ففيه إشارةٌ إلى وجوبِ احترام رسول الله ﷺ، والانقياد لأوامره ونواهيه، وذكر اسم الله تعظيماً له، وإشعاراً بأنّه من الله بمكانٍ يوجب إجلاله.

وكان في العرب جفاءٌ وسوءُ أدبٍ في خطاب النبيِّ ﷺ ـ كما قال القرطبي ـ فأنزل الله السورةَ ليعلّمهم فيها مكارمَ الأخلاق، ورعايةَ الآداب.

وقال ابن كثير: هذه آياتٌ أدَّبَ اللهُ بها عبادَه المؤمنين فيما يعاملون بها

---

(١) رواه أحمد والترمذي في الشمائل.

الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واتقوا الله في كلِّ ما أمركم به، إنه سميع لأقوالكم، عليم بأحوالكم.

ثم حذّرهم عزَّ وجلّ ونهاهم عن رفع الأصوات بحضرته عليه الصلاة والسلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]، أي: لا تجعلوا كلامكم مرتفعاً على كلام النبيِّ ﷺ، لأنَّ رفعَ الصوت دليلٌ على قلّة الاحتشام، وترك الاحترام.

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: ولا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم، أو لا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضاً، وخاطبوه بالنبيِّ أو الرسول كما خاطبه ربُّ العزّة والجلال. قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

ويلاحَظ أنَّهم لم ينهوا عن الجهرِ مطلقاً حتى لا يسوغ لهم إلا أنْ يكلّموه بالمخافتة، وإنّما نهوا عن جهرٍ مخصوصٍ، أعني الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه فيما بينهم، وهو الخالي عن مراعاة أُبهةِ النبوّة وجلالةِ قدرها.

﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: لئلا تحبط أعمالكم، أو مخافة أن تحبط أعمالكم، وأنتم لا تشعرون بذلك.

قال ابن كثير: أي إنّما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشيةَ أن يغضبَ من ذلك، فيغضبُ اللهُ تعالى لغضبِه، فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري.

وقال القرطبي في تفسيره للآية: وقد كره بعضُ العلماء رفعَ الصوتِ عند قبره عليه السلام، وكرهَ بعضُ العلماء رفعَ الصوتِ في مجالس العلماء تشريفاً لهم، إذ هم ورثة الأنبياء.

قال القاضي أبو بكر ابن العربي: **حرمةُ النبيِّ ﷺ ميتاً كحرمته حيّاً، وكلامُه المأثورُ بعدَ موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئَ كلامُه وجبَ على كلِّ حاضر ألا يرفعَ صوتَه عليه، ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفّظه به.**

وفي الوعيد بحبوط العمل، ولو بغير قصد المخالفة دليلٌ على خطورة ما نهوا عنه، ولهذا خاف الصحابةُ رضي الله عنهم خوفاً شديداً بعد نزول هذه الآيات، حتى إنَّ بعضهم اعتزلَ مجلسَه عليه الصلاة والسلام، وبعضُهم كان يكلّمه سرّاً. ففي الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ افتقدَ ثابتَ بن قيس، فقال رجلٌ: يارسولَ الله أنا أعلمُ لك علمه، فأتاه فوجدَه جالساً في بيته، منكِّساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يرفعُ صوتَه فوقَ صوتِ النبي ﷺ فقد حَبِطَ عملُه، وهو من أهلِ النار، فأتى الرجلُ النبيَّ ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، فقال: «اذهبْ إليهِ، فقلْ له: إنّكَ لستَ من أهلِ النارِ، ولكنّك من أهلِ الجنّة»[1].

وعن أبي مليكة قال: كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبيِّ ﷺ حين قدم عليه ركبُ بني تميم، فأشار أحدُهما بالأقرع ابن حابس أخي بني مُجاشع، وأشار الآخرُ برجلٍ آخر، فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خلافي، قال: ما أردتُ خلافَك، فارتفعت أصواتُهما في ذلك، فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾ الآية قال ابن الزبير: فما كان عمرُ يسمعُ رسولَ الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه[2].

ثم أثنت الآيات على الذين يتخلّقون بهذه الأخلاق: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: أولئك الذين طهّرَ اللهُ قلوبَهم من كلّ قبيح، وشرحها للتقوى، فأخلصها لها فلهم مغفرة وأجر عظيم[3].

وكذلك علّمَ اللهُ سبحانه الصحابةَ آداب دخولهم بيوتَه عليه الصلاة والسلام، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ

(١) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٨٤٦.
(٢) المرجع السابق، رقم ٤٨٤٥.
(٣) انظر تفسير السورة في موضوعات السور.

كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

كما نهاهم سبحانه عن كثرة السؤال والاستفسار عمّا سكت النبيُّ ﷺ عن بيانه، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: ١٠١]. وحذّرهم أن يكونوا مثل بني إسرائيل فقال: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

التحذيرُ من إيذاءِ النبيِّ ﷺ:

وكما أدّبهم سبحانه وأمرَهم أن يتخلّقوا بأحسنِ الأخلاقِ مع النبيِّ ﷺ، حذّرهم أيضاً من إيذاءِ النبيِّ ﷺ، وعظَّمَ ذلك، فقرنه بإيذاء الله جلَّ جلاله، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧] أي: إنَّ الذين يؤذون رسول الله ﷺ، وذكر اسمَ الله للتشريف، فكأنَّ أذى رسول الله ﷺ أذى لله تعالى. فهو كقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]، وقوله أيضاً: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢].

وقوله: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ دليلٌ على قبح ما أقدموا عليه، وشناعة ما ارتكبوه، فاللهُ طردَهم من ساحاتِ رحمتِه وفضله في الدارين، وأعدَّ لهم في الآخرة عذاباً أليماً، فيه ذلّة ومهانة.

تشريع الصلاة والسلام عليه ﷺ:

شرع الله جلَّ جلاله الصلاةَ والسلامَ على النبيِّ ﷺ، وكلّف المسلمين بذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ

﴿وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وفي هذا دليلٌ على علوِّ مكانته عليه الصلاة والسلام عند ربّه عزَّ وجلّ وعند ملائكته في الملأ الأعلى.

فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ إخبارٌ بأنَّ الله يصلّي على النبيِّ، وأنَّ ملائكته يصلّون عليه أيضاً. وقد جاءت ﴿إِنَّ﴾ في صدر الجملة الاسمية، لتدلّ على التأكيد، وجاءت كلمة ﴿يُصَلُّونَ﴾ بصيغة المضارع، لتدلَّ على الدوام والاستمرار.

ومن المعلوم أنَّ صلاةَ الله على نبيِّه عليه الصلاة والسلام رحمته وثناؤه عليه، وأنّها من الملائكة دعاءٌ وثناء، وهذا يدلُّ على أنَّ رحمات المولى الكريم تتوالى على النبيّ ﷺ دون فتور وانقطاع، في حياته وبعد موته، فتكريمُ الله تعالى له ورفعه لدرجاته مستمرٌّ لا يتوقّف ولا ينقطع.

وصلاة الله على نبيّه رحمتُه المقرونة بالتعظيم، فهي مِنَ الله على غيرِ النبيِّ مطلَقُ الرحمة لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] فتأمل الفرقَ بين الصلاتين، والفضلَ بين المقامين.

وبعدَ أن أخبرَ أنّه صلّى عليه وأنّ ملائكته يصلّون عليه أمرَ المؤمنين أمراً لازماً جازماً بالصلاة والسلام عليه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ أي: يا أيها الذين آمنوا عظّموا شأنَ النبيِّ ﷺ، فأنتم أولى بذلك، وقولوا: اللهمّ صلِّ وسلِّم عليه.

وهذا اللفظُ يدلُّ على طلب التعظيم لشأنه عليه الصلاة والسلام من الله عزَّ وجلّ، لقصور وسع المؤمنين عن أداء حقه عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ أي: وسلموا عليه تسليماً مع الصلاة عليه، أو انقادوا لحكمه، وتمسكوا بسنّته، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

قال ابن حجر رحمه الله: وقد سُئلتُ عن إضافةِ الصلاةِ إلى الله دون السلام

مع أمر المؤمنين بها وبالسلام.

فقلتُ: يحتمَلُ أن يكونَ السلامُ له معنيان: التحية والانقياد، فأمر به المؤمنون لصحتهما منهم، والله وملائكته لا يجوز منهم الانقياد، فلم يضف إليهم دفعاً للإيهام، والعلم عند الله[1].

فكلُّ المؤمنين مكلّفون بالصلاة والسلام عليه، سواء كان النبيُّ ﷺ حاضراً أو غائباً، حيّاً أو ميتاً، لأنَّ الأمرَ الإلـٰهيَّ بذلك أتى مطلقاً عن أي قيد من القيود.

وقد يقول قائل: إذا كان الله سبحانه يصلّي على نبيّه عليه الصلاة والسلام، فأي حاجة إلى صلاة الملائكة والمؤمنين عليه؟

والجواب: أنَّ اللهَ سبحانه شرعَ الصلاة على النبيِّ ﷺ إظهاراً لتعظيم الملائكة والمؤمنين له، ولم يشرعْهُ لحاجةِ النبيِّ ﷺ إليه مع صلاة الله عليه، فهو عليه الصلاة والسلام معظَّمٌ ومحترَمٌ ومكرَّمٌ في الملأ الأعلى بصلاةِ الملائكةِ عليه، ومعظَّمٌ أيضاً ومحترَمٌ ومكرَّمٌ في الملأ الأدنى بصلاة المؤمنين عليه.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره للآية: المقصودُ بالآيةِ أنَّ الله سبحانه وتعالى أخبرَ عبادَه بمنزلةِ نبيّه وعبدِه عنده في الملأ الأعلى، بأنّه يثني عليه عند الملائكة المقرّبين، وأن الملائكة تصلي عليه.

ومن المعلوم أن ثواب صلاتنا عليه يعودُ علينا، فضلاً منه تعالى، وتكريماً لنبيّه عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ صلّى عليَّ واحدةً صلّى اللهُ عليه بها عشراً»[2].

وعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ صلَّى عليَّ صلاةً واحدةً صلَّى اللهُ عليه عشرَ صلواتٍ، وحطَّ عنه بها عشرَ سيئاتٍ، ورفعَهُ بها عشرَ درجاتٍ»[3].

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٥٣٣.
(٢) صحيح مسلم، رقم ٤٠٨.
(٣) رواه أحمد والنسائي واللفظ له، والحاكم.

إنَّ صلاتنا على النبيّ ﷺ تشريفٌ لنا وتكريمٌ، لأننا نقتدي بربّنا عزَّ وجلّ في الصلاة عليه وتعظيمه.

وفيها أيضاً مكافأة النبيِّ ﷺ على بعض ما له من حقوق علينا، ولا بدَّ لنا عندما نصلّي عليه أن نتذكّرَ بعض شمائله الكريمة، ومحاسنه الخُلقية والخَلقية، التي سبقَ الحديثُ عنها، فنحيا ولو لفترة من الزمان بقلوبنا وأفكارنا معه عليه الصلاة والسلام.

إنَّ الصلاة على النبيِّ ﷺ حبلٌ من نورٍ، يَصِلُنا بمهبط الرحمات الإلـٰهية، ومركز الإفاضات الربّانية، مهما بعد بنا الزمان والمكان.

ومن السنّة عندَ الدعاءِ أنْ نصلّي معه على النبيِّ ﷺ، لأنها دعاءٌ مقبول قطعاً، والله سبحانه أكرمُ من أن يقبلَ بعضَ الدعاء ويردّ بعضَه، قال عليّ رضي الله عنه: كلُّ دعاءٍ محجوبٌ حتى يصلّىٰ على مُحمّدٍ ﷺ[١].

وروي مثله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وعلينا أن نصلّيَ عليه كلّما ذُكِر، فإننا إذا لم نصلِّ عليه نبخلُ على أنفسنا بالرحمات والبركات والحسنات، التي يتفضّل الله بها علينا، وقد روي من طرق كثيرة أنّه عليه الصلاة والسلام قال: «البخيلُ مَنْ إذا ذُكِرْتُ عنْدَهُ ولمْ يصلِّ عليَّ»[٢].

وعلينا أيضاً أن نصلّي عليه كلّما ذُكر، سواء ذُكر نطقاً أو كتابةً، فلا تكفي إشارة (ص) في الكتابة، لأنَّ الرمزَ لا يدلُّ على أنك صلّيت عليه فعلاً.

ومن أرادَ أن يكفيه الله همومَ الدنيا والآخرة، ويغفرَ له ذنوبه، ويسترَ عيوبه، فعليه أن يجعلَ ثوابَ صلاته عليه له عليها لصلاة والسلام، ففي الحديث عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: قلتُ: يارسولَ الله إنِّي أكثرُ الصلاةَ عليكَ، فكم أجعلُ لك من صلاتي؟

فقال: «ما شئتَ». قلت: الربع؟ قال: «ما شئتَ، فإنْ زدتَ فهو خيرٌ لك».

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط موقوفاً، ورفعه بعضهم.

(٢) رواه أحمد وابن حبان وغيرهم.

قلت: النصفُ؟ قال: «ما شئتَ فإن زدتَ فهو خيرٌ لك». قلت: فالثلثين؟ قال: «ما شئتَ فإن زدتَ فهو خيرٌ لك»، قلتُ: أجعل لك صلاتي كلّها، قال: «إذاً تُكفى همَّك، ويُغفَرُ لكَ ذنبُك»(١).

تواضعه ﷺ للمؤمنين:

كان ﷺ سيّد المتواضعين، ومع ذلك أمره ربُّه عزَّ وجلَّ أن يتواضعَ للمؤمنين على وجه الخصوص، فقال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، وفي هذا ما فيه من تكريمٍ للمؤمنين مهما كانوا، ولهذا جاء بعضُ المشركين إلى رسول الله ﷺ وطلبوا أن يجعلَ لهم مجلساً خاصّاً بهم، لا يشاركهم فيه أحد من ضعفاء المسلمين وفقرائهم، كبلال وعمار وابن مسعود وصهيب رضي الله تعالى عنهم، وأن يطردَهم من مجلسِه عندما يأتي إليه المشركون، فأنزل الله تعالى ردّاً على طلبهم هذا قولَه الكريم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وحاشاه ﷺ أن يكون من الظالمين، أو أن يفعل شيئاً يجعله منهم، وإنّما نزلت هذه الآية بهذا النهي الصريح الجازمِ ردّاً على اقتراحِ المشركين الفاسد، والاتهام الظالم لضعفاء المؤمنين، فقد تولّى سبحانه بنفسه الدفاع عنهم إظهاراً لشرفهم، وكرامتهم عنده سبحانه.

كما أنزل أيضاً قوله الكريم: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، فبعد أن أمرت الآيةُ النبيَّ ﷺ أن يحبسَ نفسَه ويثبتها مع فقراءِ أصحابه، نهته أن يصرفَ نظرَه عنهم إلى غيرِهم، بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي لا تصرفْ عيناكَ النظرَ عنهم إلى غيرهم، فالمرادُ نهيُ رسولِ الله ﷺ أن يزدري فقراء المؤمنين، وتعلو عينُه عن رثاثة زيهم طموحاً إلى طراوة زي الأغنياء، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا

(١) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

﴿مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طـه : ١٣١]. وقوله عزّ وجلّ أيضاً: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر : ٨٨].

ولهذا كان ﷺ شـديد التواضع لفقراء أصحابه وضعفائهم، ويحذّر من ذلك، ففي الحديث عن عائذ بن عمرو أنَّ أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر، فقالوا: والله ما أخذت سيوفُ اللهِ من عنقِ عدوِّ الله مأخذها. قال: فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبيَّ ﷺ فأخبره فقال: «يا أبا بكر لعلّك أغضبتهم، لئن كنتَ أغضبتَهم لقد أغضبتَ ربّك» فأتاهم أبو بكر فقال: ياإخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أُخي[(١)].

عتاب وتكريم:

ولمّا أتى إلى النبيّ ﷺ ابنُ أمِّ مكتوم، وهو يدعو أشرافَ قريش إلى الإسلام، وقال: يارسول الله! علّمني مما علّمك الله، وكرّر ذلك، وهو لا يعلم، تشاغل النبيُّ ﷺ بالقوم، فكره ﷺ قطعَه لكلامِه، وعبس وأعرضَ عنه، فأنزل الله سبحانه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾ [عبس: ١ ـ ١١].

وكان رسولُ الله ﷺ يكرمه بعدَها، ويقول إذا رآه: «مرحباً بِمَنْ عاتبني فيه ربِّي» واستخلفه على المدينة مرّتين. وكان يؤذّنُ لرسول الله ﷺ.

وروى أبو يعلى في (مسنده) وابنُ جرير وابن أبي حاتم أنّه ﷺ كان بعدَ ذلك يكرِمُ ابنَ أمِّ مكتوم ويسأله: «ما حاجتُكَ، هل تريدُ من شيء».

قال القرطبيُّ رحمه الله: قال علماؤنا: ما فعله ابنُ أمِّ مكتوم كان من سوءِ الأدبِ لو كان عالماً بأنَّ النبيَّ ﷺ مشغولاً بغيره، وأنّه يرجو إسلامَهم، ولكنَّ الله تبارك وتعالى عاتبه حتى لا تَنْكَسِرَ قلوبُ الفقراءِ من أصحابه، أو ليعلمَ أنَّ المؤمنَ

---

(١) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٥٠٤.

الفقيرَ خيرٌ من الغني الكافر . . وقيل : إنما قصدُ النبيِّ ﷺ تأليفُ الرجلِ ثقةً بما كان في قلب ابنِ أمِّ مكتوم من الإيمان، كما في قوله ﷺ : «إنّي لأصلُ الرجلَ وغيرُه أحبُّ إليَّ منه، مخافةَ أن يكبَّه الله في النارِ على وجهه» وهذا الحديث في (الصحيح) ولفظه : قال : أعطى رسولُ الله ﷺ قوماً، ومنعَ آخرين، فكأنّهم عتبوا عليه، فقال : «إنّي أُعطي قوماً أخافُ ظلعَهم وجزعَهم، وأَكِلُ أقواماً إلى ما جعلَ اللهُ في قلوبِهم من الخيرِ والغنى، منهم عمرو بن تغلب»[١] .

وفي وصف ابنِ أمِّ مكتوم بالأعمى، إشعارٌ بعذره في الإقدام على قطعِ كلامِ النبيِّ ﷺ، ودلالة على أنّه أحقُّ بالرأفةِ والرفق .

وفي التعبير عنه ﷺ بضمير الغيبة، إجلالاً له، لإيهامِ أنَّ من صدر عنه ذلك غيرُه، لأنّه لا يصدرُ عنه ﷺ مثله .

ويلاحَظُ أنَّ الآيات بدأت بأسلوب الغيبةِ، ثم التفت إلى أسلوب الخطاب، فدلّت على أنّ فيها إيناساً بعد إيحاش، وإقبالاً بعد إعراض وعتاب، فهو أسلوبٌ فريدٌ متميز، دلّ على أنه سبحانه كره أن يواجه نبيَّه وحبيبه المصطفى ﷺ بهذا العتاب، ولكنّه تعالى أراد أن يظهِرَ حقيقةَ الدعوة وكرامتها وعظمتها ورفعة مبادئها، وأنها وحيٌ من الله تعالى ليس للنبيِّ ﷺ فيها شيءٌ، إلا التلقّي والتبليغ، كما مرَّ معنا، ودلَّت أيضاً على أمانته عليه الصلاة والسلام، وأنّه بلَّغَ كلَّ ما أوحى الله إليه فما كتم منه شيئاً[٢] .

وفي غزوة تبوك لما إذِنَ ﷺ للمنافقين بالتخلّف عنه أنزل الله عليه معاتباً في ذلك، وقدّمَ الإخبار بعفوه عنه على عتابه، فقال : ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة : ٤٣] .

* * *

(١) صحيح البخاري في الخمس، رقم ٣١٤٥ . والظَّلَع : الميل والاعوجاج .
(٢) انظر تفسير السورة في موضوعات السور .

الفصل الثالث

النبي ﷺ واليهود

موادعته ﷺ يهودَ المدينة:

وادعَ النبيُّ ﷺ يهودَ المدينةِ لَمّا قدمها، واستقرّ فيها، فدعاهم إلى الإيمان به، فامتنعَ أكثرهم، فتركهم وما يدينون، وعقدَ معهم كتابَ مصالحةٍ وحسن جوار على أن يسالموه، ولا يعينوا عليه عدوّاً، وعلى أن يقفوا بجانبه في وجه من يعاديه، ويهدد أمنَ المدينة المنورة، وكانوا ـ كما مرَّ معنا ـ ثلاث قبائل، فنقضت القبائل الثلاث العهدَ، فمَنَّ ﷺ على بني قينقاع، وأجلى بني النضير، واستأصلَ بني قريظةَ كما سيأتي معنا مفصّلاً.

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه أنَّ عبد الله بن سَلام ـ وكان من أحبار اليهود ـ بلغه مقدمَ النبيّ ﷺ المدينةَ، فأتاه يسأله عن أشياء، فقال: إنّي سائِلُكَ عن ثلاثٍ لا يعلمُهنَّ إلاّ نبيّ: ما أولُ أشراط الساعة، وما أولُ طعامٍ يأكلُه أهل الجنّة، وما بالُ الولدِ ينزعُ إلى أبيه أو إلى أمّه؟

قال: «أخبرني به جبريل آنفاً».

قال ابن سلام: ذاك عدوُّ اليهودِ من الملائكة.

قال: «أمّا أولُ أشراطِ الساعةِ فنارٌ تحشرُهم من المشرقِ إلى المغرب، وأمّا أولُ طعامٍ يأكلُه أهلُ الجنَّةِ فزيادةُ كبدِ الحوتِ، وأمّا الولدُ فإذا سبقَ ماءُ الرجلِ ماءَ المرأةِ نزعَ الولدُ ـ وفي رواية كان الشَّبَهُ له ـ وإذا سبقَ ماءُ المرأةِ ماءَ الرجلِ نزعتِ الولدَ».

قال: أشهدُ أن لا إلـه إلا الله، وأنّكَ رسولُ الله. قال: يا رسول الله! إنَّ اليهود قومٌ بهتٌ ـ أي يفترون الكذب ـ فاسألهم عنّي قبل أن يعلموا بإسلامي.

فجاءت اليهودُ فقال النبي ﷺ: «أيُّ رجلٍ عبدُ اللهِ بن سلام فيكم؟». قالوا: خيرُنا وابنُ خيرِنا، وأفضلُنا وابنُ أفضلِنا. فقال النبيُّ ﷺ: «أرأيتم إن أسلمَ عبدُ الله بن سلام؟». قالوا: أعاذه الله من ذلك. فأعاد عليهم، فقالوا مثل ذلك. فخرجَ إليهم عبدُ الله فقال: أشهدُ أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله. قالوا: شرُّنا وابنُ شرِّنا، وتنقّصوه. قال: هذا ما كنتُ أخافُ يا رسولَ الله(١).

ووقع عند أحمد والترمذي وصححه هو والحاكم من طريق **زُرارة بن أوفى**: عن **عبد الله بن سلام** قال: لما قدمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ، انجفلَ الناسُ إليه، فجئتُ في النـاسِ لأنظرَ إليه، فلمّا استبنتُ وجهَه عرفتُ أنَّ وجهَه ليس بوجـهِ كذّاب.. الحديث.

ومرّ معنا أنّه ﷺ مذكورٌ عندهم في كتبهم بأسمائه ونعوته، وأنّهم عرفوه، ولكنهم جحدوا رسالته، وعاندوا دعوته، كما فعلوا مع الأنبياء السابقين. قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ١٥٣ ـ ١٥٤].

وقوله: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ أي: يسألك يا محمد أهل الكتاب، وهم أحبارُ اليهود، جاؤوا إلى الرسول ﷺ، وطلبوا منه أن ينزل الله عليه كتاباً مكتوباً من السماء كما نزل التوراة على موسى، فردّ تعالى عليهم مبيناً أنَّ سؤالهم هذا سؤالُ تعنّتٍ وجحودٍ وعنادٍ، لا سؤال إيمانٍ وتصديق، فقال: ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي عياناً ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ﴾ أي بسبب ظلمهم، وهو تعنّتهم وسؤالهم أمراً في غير موضعه، فقد اختارهم موسى ليذهبوا معه إلى موضع مناجاته ربه، لكي يستغفروا الله عن عبادة العجل، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً

---

(١) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٩٣٨.

﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥ ـ ٥٦].

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ أي: عبدوا العجل الذهبيَّ بعد المعجزات الكثيرة التي أجراها الله تعالى لهم على يد موسى عليه السلام، فتجاوزنا عن كلٍّ ذلك تفضُّلاً منّا وإحساناً

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي حجةً ظاهرةً على مَنْ خالفه.

ثم ذكرت الآيات بعضَ مواقف جحودهم وعنادهم، ونقضهم الميثاق الغليظ الذي أخذه سبحانه عليهم، وكلُّ ذلك لإظهارِ جحودهم وعنادهم.

كراهيتهم النبيَّ ﷺ ومكرُهم به:

ذكر الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم في مواضع متعددة آياتٍ كثيرةً تدلُّ على شدة كراهيتهم النبيَّ ﷺ، وشدةَ مكرهم به، منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۝ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ۝ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٤ ـ ٤٦].

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي: ويقولون للرسول ﷺ: سمعنا كلامك، ولا نطيعك فيه، وقد بلغوا في هذا غايةَ الكفرِ والعنادِ وسوءَ الأدب.

﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ وهو قولٌ ذو وجهين، يحتمل الذم، أي: اسمع منا مدعوّاً عليك بلا سمعت، فلو أجيبت دعوتهم لم يسمع ﷺ شيئاً. ويحتمل المدحَ، أي: اسمع غير مسمع مكروهاً. وهم لا يريدون بها المدح، إنما يقولونها نفاقاً، ويضمرون الذم.

﴿وَرَٰعِنَا﴾ أي: أرعنا سمعك، وهم يريدون نسبته عليه الصلاة والسلام إلى الرعونة.

﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ أي: يقولون ذلك صَرْفاً للكلام إلى مايضمرون

من السب والتحقير، واتهاماً للنبيِّ ﷺ، وطعناً في صحّة نبوّته، إذ كانوا يقولون فيما بينهم: لو كان نبياً حقاً لعرف ذلك وأظهره الله عليه.

ويدلُّ قولُهم هذا على شدّةِ غبائهم، فقد كان النبيُّ ﷺ يعرفُ ما يريدون من كلامهم، وما يضمرون في نفوسهم، ولكنّه عليه الصلاة والسلام ما كان يواجههم بما يكرهون بسبب أخلاقه العالية الكريمة.

وفي الحديث الشريف عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رهطٌ من اليهود على رسولِ اللهِ ﷺ فقالوا: السام عليكم، قالت عائشة: ففهمتُها فقلتُ: وعليكم السام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشةُ! إنَّ اللهَ يُحبُّ الرفقَ في الأمرِ كلِّه»، فقلت: يا رسولَ الله! أولمْ تسمعْ ما قالوا؟، قال رسول الله ﷺ: «لقد قلتُ: وعليكم»[1].

ويبدو أنَّ مواقفهم هذه قد تكرّرتْ، وأنّه سبحانه أنزل فيهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨].

وقد أنزل الله فيهم أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٤١ ـ ٤٣].

---

(١) صحيح البخاري في الأدب، رقم ٦٠٢٤.

قال ابن كثير: قيل: نزلت في قومٍ من اليهود قتلوا قتيلاً، وقالوا: تعالوا نتحاكم إلى محمد، فإنْ حكمَ بالديةِ فاقبلوه، وإن حكمَ بالقصاصِ فلا تسمعوا منه.

والصحيحُ أنّها نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، وكانوا قد بدّلوا كتابَ الله الذي بأيديهم، من الأمرِ برجم من أحصن منهم، فحرّفوه، واصطلحوا فيما بينهم على الجلدِ مئة جلدة، والتحميم[1]، والإركاب على حمار مقلوبين، فلمّا وقعت تلك الكائنة بعدَ الهجرة قالوا فيما بينهم: تعالوا نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم، فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكونُ نبيٌّ من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكمَ بالرجمِ فلا تتبعوه في ذلك.

وقد وردت الأحاديثُ بذلك، فقال مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إنَّ اليهودَ جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أنَّ رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدونَ في التوراةِ في شأنِ الرَّجمِ؟» فقالوا: نفضحُهم ويُجْلَدون.

قال عبد الله بن سلام: كذبتم، إنّ فيها الرجم، فأَتوا بالتوراةِ فنشروها، فوضع أحدُهم يدَه على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدَها.

فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يدَه، فإذا آيةُ الرجمِ، فقالوا: صدقَ يا محمّد، فيها آيةُ الرجم، فأمر بهما رسولُ الله ﷺ فرُجِما، فرأيتُ الرجلَ يحني على المرأة يقيها الحجارة. أخرجاه في (الصحيحين) وهذا لفظ البخاري.

وعند مسلم أنَّ رسول الله ﷺ أتي بيهودي ويهودية قد زنيا، فانطلق رسولُ الله ﷺ حتى جاءَ يهودُ فقال: «ما تجدون في التوراة على مَنْ زنى؟» قالوا: نسوّدُ وجوههما ونحمِّمُهُمَا ونحملهما، ونخالِفُ بين وجوههما، ويطاف بهما، قال: «فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» قال: فجاؤوا بها فقرؤوها، حتى إذا مرَّ بآية الرجم وضعَ الفتى الذي يقرأُ يدَه على آيةِ الرجم، وقرأ ما بينَ يديها وما وراءها.

---

(١) التحميم: صبغ الوجه بالسواد.

فقال له عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله ﷺ: مُرْهُ فليرفعْ يدَه، فرفعَ يدَه، فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما.

قال عبد الله بن عمر: كنت فيمن رجمهما، فلقد رأيتُه يقيها من الحجارة بنفسه.

عن البراء بن عازب قال: مرّ على رسول الله ﷺ يهوديٌّ محمَّمٌ مجلودٌ، فدعاهم، فقال: «أهكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟» فقالوا: نعم. فدعا رجلاً من علمائهم، فقال: «أنشِدُكَ بالذي أنزلَ التوراة على موسى! أهكذا تجدونَ حَدَّ الزاني في كتابِكُم؟»

فقال: لا والله، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرْك، نجدُ حدَّ الزاني في كتابنا: الرجمَ، ولكنّه كثرُ في أشرافِنا، فكنّا إذا أخذنا الشريفَ تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيمُه على الشريف والوضيع، فاجتمعنا على التحميم والجلد. فقال النبيُّ ﷺ: «اللهمَّ إني أولُ من أحيا أمرَكَ إذا أماتوه». قال: فأنزل الله عزَّ وجلّ: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ﴾ أي يقولون: ائتوا محمّداً، فإن أفتاكم بالتحميم والجلدِ فخذوه، وإن أفتاكم بالرجمِ فاحذروه إلى قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، فقال في اليهود، إلى قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، قال في اليهود: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] قال: في الكفار كلها، انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري[1].

سحرهم النبيَّ ﷺ:

ثبت في الأحاديث الصحيحة أنَّ النبيَّ ﷺ قد تعرَّضَ لمثل هذا الأذى من قِبَلِ اليهود، ففي الحديث الشريف عن عائشة رضي الله عنها قالت: سَحَرَ رسولَ الله ﷺ

---

(١) صحيح مسلم في الحدود رقم ١٦٩٩ ـ ١٧٠٠. انظر تفسير ابن كثير للآيات من سورة المائدة

رجلٌ من بني زُرَيق، يقال له لبيدُ بنُ الأعصم، حتى كان رسولُ الله ﷺ يخيَّلُ إليه أنَّه كان يفعلُ الشيءَ وما فعله، حتى إذا كنتُ يوماً أو ذاتَ ليلة، وهو عندي دعا ودعا، ثم قال: «يا عائشةُ أشعرتِ أنَّ الله أفتاني فيما استفتيتُه فيه؟ أتاني رجلانِ فقعدَ أحدُهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجعُ الرجل؟ فقال: مطبوبٌ، قال: من طبَّه؟ قال: لبيدُ بن الأعصم، قال: في أيِّ شيءٍ؟ قال: في مُشطٍ ومُشاطةٍ وجفّ طلعِ نخلةٍ ذكرٍ، قال: وأينَ هو؟ قال: في بئرِ ذروان».

فأتاها رسول الله ﷺ في ناسٍ من أصحابه فجاءَ، فقال: «ياعائشةُ كأنَّ ماءَها نقاعةُ الحناءِ، وكأنَّ رؤوسَ نخلِها رؤوسَ الشياطين»

قلت: يا رسول الله! أفلا استخرجتَهُ؟ قال: «قد عافاني اللهُ فكرهتُ أن أثيرَ على الناسِ فيه شرّاً» فأمرَ بها فدُفِنَت[1].

السحر الذي أصابه عليه الصلاة والسلام كان مرضاً من الأمراض عارضاً، شفاه الله منه، ولا نقصَ في ذلك ولا عيبَ بوجهٍ ما، فإنَّ المرضَ يجوزُ على الأنبياء، وهذا من البلاءِ الذي زاده الله به رِفعةً في درجاتِه، ونيلِ كرامته، وأشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ، فليس ببدعٍ أن يُبتلى النبيُّ ﷺ من بعض أعدائه بنوعٍ من السحرِ.

وقد ثبت في (الصحيح) عن **أبي سعيد الخدريِّ** أنَّ جبريل أتى النبيَّ ﷺ قال: يا محمد أشتكيتَ؟ قال: «نعم». قال: «بسم اللهِ أرقيكَ مِنْ كُلِّ شيءٍ يؤذيك، مِنْ شرِّ كلِّ نفسٍ أو عينِ حاسدٍ، اللهُ يشفيك، بسمِ اللهِ أرقيك»[2].

ووقع في رواية عبد الله بن نمير عن هشام بن عروة عند مسلم «سحرَ النبيَّ ﷺ يهوديٌّ من بني زريق» ووقع في رواية ابن عُيينة التي ذكرها البخاريُّ قريباً «رجلٌ من بني زُريق حليفُ اليهود وكان منافِقاً» ويجمع بينهما بأنَّ مَنْ أطلقَ أنّه يهوديٌّ نظر إلى ما في نفس الأمر، ومن أطلقَ عليه منافقاً نظرَ إلى ظاهرِ أمره.

وقال ابن الجوزي: هذا يدلُّ على أنّه كان أسلمَ نفاقاً، وهو واضحٌ.

---

(١) صحيح البخاري في الطب، رقم ٥٧٦٣.

(٢) صحيح مسلم في السلام، رقم ٢١٨٦.

وقد حكى عياض في (الشفا) أنَّه كان أسلم. ويحتمل أنّه كان أسلمَ نفاقاً، وهو يهودي، لكونِه كان من حلفائهم، لا أنّه كان على دينهم.

وبنو زُريق بطنٌ من الأنصار مشهورٌ من الخزرج، وكان بينَ كثيرٍ من الأنصارِ وبين كثيرٍ من اليهود قبلَ الإسلام حلفٌ وإخاءٌ وودٌّ، فلما جاء الإسلامُ، ودخل الأنصارُ فيه تبرّؤوا منهم.

وقد بيّن الواقدي السنةَ التي وقعَ فيها السحرُ، أخرجهُ عنه ابنُ سعد بسندٍ له إلى **عمر بن الحكم** مرسلاً قال: لما رجعَ رسولُ الله ﷺ من الحديبية في ذي الحجة، ودخل المحرّم من سنة سبعٍ، جاءت رؤساء اليهود إلى لبيد بن الأعصم، وكان حليفاً في بني زريق وكان ساحراً، فقالوا له: ياأبا الأعصم أنت أسحرُنا، وقد سحرنا محمّداً فلم نصنع شيئاً، ونحنُ نجعلُ لك جعلاً أن تسحرَه لنا سحراً ينكؤه، فجعلوا له ثلاثة دنانير.

وقوله: «حتى كان رسول الله ﷺ يخيَّلُ إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله» قال المازريُّ: أنكرَ بعضُ المبتدعة هذا الحديث، وزعموا أنّه يحطّ من منصب النبوة، ويشكك فيها، قالوا: وكلُّ ما أدى إلى ذلك فهو باطلٌ، وزعموا أنَّ تجويز هذا يعدِمُ الثقةَ بما شرعه من الشرائع، إذ يحتمل على هذا أن يخيَّل إليه أنه يرى جبريل، وليس هو ثمة، وأنه يوحى إليه بشيءٍ، ولم يوحَ إليه بشيء.

قال المازري: وهذا كلّه مردود، لأنَّ الدليلَ قد قامَ على صدقِ النبيِّ ﷺ فيما يبلِّغُه عن الله تعالى، وعلى عصمته في التبليغ، والمعجزات شاهدةٌ بتصديقه، فتجويزُ ما قامَ الدليلُ على خلافِه باطلٌ.

وأمَّا ما يتعلَّق ببعض أمور الدنيا، التي لم يبعث لأجلها، ولا كانتِ الرسالةُ من أجلها، فهو في ذلك عرضةٌ لما يعترِضُ البشرَ كالأمراض، فغيرُ بعيدٍ أن يخيّلَ إليه في أمرٍ من أمور الدنيا ما لا حقيقة له مع عصمته عن مثل ذلك في أمور الدين.

قال: وقد قال بعض الناس: إنَّ المرادَ بالحديث أنَّه كانَ ﷺ يخيل إليه أنه وطئ زوجاته، ولم يكن وطئهن، وهذا كثيراً ما يقع تخيّله للإنسان في المنام، فلا يبعد أن يخيّل إليه في اليقظة.

قال ابن حجر: وهذا قد ورد صريحاً في رواية ابن عُيينة في الباب الذي يلي هذا، ولفظه «حتى كان يرى أنّه يأتي النساءَ ولا يأتيهن»[1].

وقوله: «في مشطٍ ومشاطة» المراد منه بقية من آثار شعرِ رأسِه الشريف العالقة في المشط، الذي كان يستعمله ﷺ.

وقولـه: «وجف طلع نخلـة ذكر» وهو الغشاءُ الذي يكونُ على الطلعِ، ويطلَقُ على الذكر والأنثى.

قوله: «فكرهتُ أن أثيرَ على الناس شرّاً» وقع في حديث عمرة عن عائشة: فقيل: يارسول الله لو قتلتَه، قال: «ما وراءَه من عذابِ اللهِ أشدّ» وفي رواية عمرة: «فأخذه النبيُّ ﷺ فاعترفَ، فعفا عنه»، وفي حديث زيد بن أرقم: «فما ذكرَ رسولُ الله ﷺ لذلك اليهوديِّ شيئاً مما صنعَ به، ولا رآه في وجهه».

في كتاب الجزية من (فتح الباري) قولُ ابن شهاب أنَّ النبيَّ ﷺ لم يقتله، ونقل عن الواقدي أنَّ ذلك أصحُّ من رواية من قال: إنه قتله. ومن ثم حكى عياض في (الشفا) قولين: هل قتل، أم لم يقتل؟ وقال القرطبيُّ: لا حجةَ على مالكٍ من هذه القصة، لأنَّ ترك لبيد بن الأعصم كان لخشيةِ أن يثيرَ بسبب قتله فتنةً، أو لئلا ينفرَ الناسُ عن الدخول في الإسلام، وهو من جنس ما رآه النبيُّ ﷺ من منع قتل المنافقين، حيث قال: «لا يتحدَّثُ الناسُ أنَّ محمداً يقتلُ أصحابه»[2].

محاولة قتله بالسم:

وكما سحروا النبيَّ ﷺ، حاولوا قتله بالسم، ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه قال: لما فُتِحَت خيبرُ أُهديَتْ لرسولِ الله ﷺ شاةٌ فيها سم، فقال رسـول الله ﷺ: «اجمعـوا لي مَنْ كان ههنا من اليهود» فجمعوا له، فقـال لهم رسـول الله ﷺ: «إنّي سـائلُكم عن شيءٍ، فهل أنتم صادقوني عنه؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَنْ أبوكم؟» قالوا: أبونا فلان، فقال رسول الله ﷺ: «كذبتُم بل أبوكم فلان»، فقالوا: صدقت وبررت، فقال: «هل

---

(١) فتح الباري: ١٠/ ٢٢٧.

(٢) المرجع السابق: ١٠/ ٢٣١.

أنتم صادقوني عن شيءٍ إن سألتُكم عنه؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبتنا كما عرفته في أبينا، قال لهم رسول الله ﷺ: «مَنْ أهلُ النار؟» فقالوا: نكونُ فيها يسيراً، ثم تخلفوننا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخسؤوا فيها واللهِ لا نخلفُكم فيها أبداً»، ثم قال: «هل أنتم صادقوني عن شيءٍ إن سألتُكم عنه؟» فقالوا: نعم. قال: «هل جعلتم في هذه الشاة سُماً؟»، فقالوا: نعم، فقال: «ما حملكم على ذلك؟»، فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك[1].

قال الحافظ في (الفتح): وتقدّم في الهبة من رواية هشام بن زيد عن أنس أنَّ يهودية أتت النبيَّ ﷺ بشاةٍ مسمومة، فأكلَ منها فجيءَ بها. . الحديث، فعرف أنَّ التي أهدت الشاةَ المذكورة امرأةٌ، وقدمتُ في المغازي أنّها زينب بنت الحارث، امرأة سلام بن مشكم. . ووقع في مرسل الزهري أنّها أكثرت السمَّ في الكتف والذراع، لأنَّه بلغَها أن ذلك كان أحبَّ أعضاءِ الشاةِ إليه، وفيه «تناول رسول الله ﷺ الكتفَ فنهشَ منها» وفيه «فلما ازدردَ لقمتَه قال: إنَّ الشاةَ تخبرُني» يعني أنها مسمومة.

ووقع في حديث **أنس** المشار إليه: فقيل: ألا تقتلها؟ قال: «لا» قال: فما زلتُ أعرفُها في لهواتِ رسولِ الله ﷺ.

وقولهم: «نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها» أي تدخلونَ فتقيمونَ في المكان الذي كنا فيه، فأشار رسول الله ﷺ بيده على رؤوسهم «بل أنتم خالدون مخلدون، لا يخلفكم فيها أحد» فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

ومن طريق ابن إسحاق عن سيف بن سليم عن مجاهد عن **ابن عباس** أنَّ اليهود كانوا يقولون: هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنّما نعذب بكلِّ ألف سنة يوماً في النار، وإنّما هي سبعةُ أيام فنزلت. وهذا **سند حسن**[2].

---

(١) صحيح البخاري في الطب، رقم ٥٧٧٧.
(٢) انظر فتح الباري: ١٠/ ٢٤٦.

عصمة الله تعالى نبيّه ﷺ من الناس:

وقد عصم الله نبيّه ﷺ من مكر اليهود وكيدهم، ومكر جميع أعدائه، فأنزل عليه قوله الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧].

وفي (سنن الترمذي) عن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ كان يُحْرَسُ حتى نزلت هذه الآية ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾ فأخرجَ رسولُ الله ﷺ رأسه من القبّة فقال: «يا أيها الناس! انصرفوا فقد عصمني الله».

وعنها أيضاً قالت: سهر رسول الله ﷺ مقدمة المدينة ليلة فقال: «ليتَ رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة»، قالت: فبينا نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاحٍ. فقال: «من هذا؟» قال: سعد بن أبي وقاص، فقال له رسول الله ﷺ: «ما جاء بك؟»، قال: وقعَ في نفسي خوفٌ على رسولِ الله ﷺ فجئتُ أحرسُه، فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام[1].

وقد وقع ذلك فعلاً، وعصمه الله تعالى من عدوّه، ففي الحديث عن جابر ابن عبد الله قال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوةً قِبَلَ نجد. فأدركنا رسول الله ﷺ في وادٍ كثير العضاهِ ـ الشوك ـ فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرةٍ، فعلَّقَ سيفَه بغصنٍ من أغصانها، قال: وتفرَّق الناسُ في الوادي يستظلّون بالشجرِ قال: فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ رجلاً أتاني وأنا نائم، فأخذَ السيفَ فاستيقظتُ، وهو قائمٌ على رأسي، فلم أشعر إلا والسيفُ صلتاً ـ مسلولاً ـ في يدِه، فقال لي: من يمنعكَ مني؟ قال: قلت: الله. ثم قال في الثانية: من يمنعُك مني؟ قال: قلتُ: الله. قال فشام السيفَ (ردَّه في غِمْدِه) فها هو ذا جالسٌ» ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ[2].

تحذير المؤمنين من كيد اليهود ومكرهم:

حذّر الله تعالى عباده المؤمنين من كيد اليهود ومكرهم فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٤١٠.
(٢) المرجع السابق في الفضائل، رقم ١٨٤٣.

ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٠ ـ ١٠٣].

وذكر محمد بن إسحاق بن يسار وغيرُه أنَّ هذه الآيات نزلت في شأن الأوس والخزرج، وذلك أنَّ رجلاً من اليهود مرَّ بملأ من الأوس والخزرج، فساءَه ما هم عليه من الاتفاق والأُلفة، فبعث رجلاً معه، وأمره أن يجلسَ بينهم، ويذكّرهم ما كان من حروبهم يوم بُعاث وتلك الحروب، ففعل، فلم يزل ذلك دأبُه حتى حميتْ نفوسُ القومِ، وغضبَ بعضُهم على بعض، وتثاوروا، ونادوا بشعارهم، وطلبوا أسلحتهم، وتواعدوا إلى الحرّة، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ، فأتاهم، فجعل يسكّنهم ويقول: «أبدعوى الجاهليةِ وأنا بَيْنَ أَظْهُرِكُم؟» وتلا عليهم هذه الآية، فندموا على ما كان منهم، واصطلحوا، وتعانقوا، وألقوا السلاح، رضي الله عنهم[(١)].

اجتهاد النبي ﷺ وعصمة النبوة:

للنبيّ ﷺ أن يجتهدَ فيما لم ينـزل عليه وحي، ويمكن بحكم بشريته أن يخطئ، **ولكنّه لا يُقرُّ على خطأ**، فهو بهذا المعنى محفوظٌ من الخطأ، والدليل على ذلك ما حدث له ﷺ في حادثة بني أُبَيْرق.

وملخَّصُ الحادثـة أنَّ أهل بيتٍ من بني ظفر من بيوت الأنصار، يقال لهم بنو أبيرق، ثلاثة إخوة، بشر وبشير ومُبَشر، نقبوا مشربةً لرفاعة بن زيد في الليل، وسرقوا منها أدراعاً له وطعاماً، وقيل: إنَّ السارق بشيرٌ وحدَه، وكان منافقاً، وقيل: إنَّ اسمه طُعمة بن أبيرق. فشكاهم ابنُ أخي رُفاعة، قتادةُ بن النعمان، إلى رسول الله ﷺ، فجاء ابنُ عمٍّ لهم يدعى أسير بن عروة مع رجال من بني ظفر إلى

(١) تفسير ابن كثير.

رسول الله ﷺ يدافعون عن بني أُبيرق، فقال أسير: يارسول الله إنَّ هؤلاء عمدوا إلى أهل بيت، هم أهلُ صلاحٍ ودينٍ، فاتهموهم بالسرقة، ورموهم بها من غير بينة. وجعل يجادلُ عنهم، ويتهم بالسرقة لبيد بن سهل، وقيل: زيد بن السَّمين، يهودِيَّيْن، وقيل: رجلاً من الأنصار، حتى قال النبيُّ ﷺ لقتادة: «عمدتَ إلى أهلِ بيتٍ ذُكِرَ فيهم إسلامٌ وصلاحٌ ترميهم بالسرقة على غير ثَبْت ولا بيّنة» فرجع قتادة فأخبره بما قال رسول الله ﷺ، فقال: اللهُ المستعانُ. فأنزل الله الآيات التالية:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١١٣].

هكذا كشفت الآياتُ الكريمةُ الحقيقةَ للنبيِّ ﷺ، فلم تقرّه على الخطأ الذي صدر عنه بحكم بشريّته عليه الصلاة والسلام، وأظهرتْ له براءةَ البريءِ، وأشارت إلى المجرم الحقيقي، ووبّخت المدافعين عنه، ثم دعتهم إلى التوبة والاستغفار، وشجّعتهم عليه بأسلوب الخبر وتقرير الحكم العام، الذي ينسحِبُ عليهم وعلى غيرهم(١).

إخراج بني قينقاع:

كان أوّل من نقض العهد مع النبيِّ ﷺ من اليهود بنو قَيْنُقاع، فحاربهم رسول الله ﷺ في شوال بعدَ وقعةِ بدر، فنزلوا على حكمه، وأراد قتلهم،

(١) انظر حقوق الإنسان في سورة النساء، للمؤلف.

فاستوهبه منهم عبد الله بن أُبي زعيمُ المنافقين، وكانوا حلفاءَه فوهبهم له، وأخرجهم من المدينة إلى (أذرعات)[1] وكانوا أوّل من أُخرِجَ من المدينة.

وروى ابن إسحاق في (المغازي) عن أبيه عن عبادة بن الوليد عن **عبادة بن الصامت** قال: لمَّا حاربت بنو قينقاع قام بأمرهم عبد الله بن أُبيّ، فمشى عبادةُ بن الصامت، وكان له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أُبيّ، فتبرّأ عبادةُ منهم، قال: فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١ ـ ٥٢].

وكان عبد الله بن أُبيّ لما سأل النبيَّ ﷺ أن يمنَّ عليهم قال: يامحمد! إنَّهم منعوني من الأسود والأحمر، وإنّي امرؤ أخشى الدوائر. فوهبهم له.

وذكر الواقدي أنَّ إجلاءهم كان في شوال سنة اثنتين، يعني بعد بدر بشهر، ويؤيده ما روى ابن إسحاق بإسناد حسن عن **ابن عباس** قال: «لمّا أصاب رسولُ الله ﷺ قريشاً يوم بدر، جمعَ يهودَ في سوق بني قَيْنُقاع فقال: «يايهود! أسلموا قبلَ أن يصيبكم ما أصابَ قريشاً يومَ بدرٍ» فقالوا: إنّهم كانوا لا يعرفون القتال، ولو قاتلتنا لعرفت أنَّا الرجال. فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٢ ـ ١٣][2].

وقد وقعت الإشارةُ إلى إخراج بني قينقاع في الآية الكريمة التي تتحدّثُ عن إخراج بني النضير: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الحشر: ١٥].

وبيّن ابنُ هشام في (السيرة) السببَ المباشر لما حدث لبني قينقاع فقال:

---

(١) مدينة في حوران تدعى اليوم درعا.

(٢) فتح الباري: ٧/ ٣٣٢.

كان من أمرِ بني قينقاع أنَّ امرأة من العرب قدمتْ بجلبٍ لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونَها على كشفِ وجهها فأبت، فعمدَ الصائغُ إلى طرفِ ثوبها، فعقدَه إلى ظهرِها، فلمَّا قامت انكشفتْ سوءتُها، فضحكوا منها، فصاحت، فوثب رجلٌ من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدّتِ اليهودُ على المسلم فقتلوه، فاستصرخَ أهلُ المسلم المسلمين على اليهود، فغضبَ المسلمون، فوقع الشرُّ بينهم وبين بني قينقاع[1].

إخراجُ بني النَّضير في الحَشْرِ الأوَّل:

أخبر الله تبارك وتعالى عن إخراجهم فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٢ ـ ٤]، وقد جاءت هذه الآياتُ في صدر سورة الحشر، ولهذا كان ابنُ عباس يسمّيها سورة بني النضير. ففي (صحيح البخاري) عن سعيد ابن جبير قال: قلتُ لابن عباس: سورة الحشر، قال: قل سورة بني النضير.

وبوَّبَ البخاريُّ في (صحيحه) في المغازي فقال: بابُ حديثِ بني النَّضير، ومخرج رسول الله ﷺ في ديَةِ الرَّجلين، وما أرادوا من الغَدْرِ برسول الله ﷺ. قال الزهري عن عروة: كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر قبلَ وقعةِ أُحد، وقول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ﴾ وجعله ابنُ إسحاق بعد بئر معونة.

وحديثُ عروة وصله عبد الرزاق في (مصنفه) عن الزهري عن عروة: ثم كانت غزوةُ بني النضير، وهم طائفةٌ من اليهود، على رأس ستة أشهر من غزوة بدر، وكانت منازلُهم ونخلُهم في ناحيةِ المدينة، فحاصرهم رسولُ الله ﷺ حتى

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٥.

نزلوا على الجلاء، وعلى أنَّ لهم ما أقلّت الإبلُ من الأمتعة إلا الحلقة. يعني السلاح[1].

وقوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ أي: في أول حشرهم إلى بلاد الشام، فاللام للتوقيت كالتي في قولهم: كتبت لعشر خلون. ونبّه بالأوّلية على أنّهم أول محشورين من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى بلاد الشام، فهذا أول حشرهم، وآخر حشرهم إجلاء عمر إيّاهم ـ كما سيأتي معنا ـ أو أول حشرهم أنّهم أُخرجوا إلى خيبر، وآخره إخراجُهم من خيبر.

ولعلَّ في الآية إشارة إلى حشرهم واجتماعهم في أرض فلسطين في العصر الحاضر، وقتال المسلمين لهم كما جاء في الخبر عن رسول الله ﷺ قال: «لا تقومُ الساعةُ حتى تُقاتِلوا اليهودَ، حتى يقولَ الحجرُ وراءَه اليهوديُّ: يا مسلمُ هذا يهوديٌّ ورائي فاقتله»[2].

وقد ذكر ابنُ إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم وغيره من أهل العلم أنَّ عامر بن الطفيل أعتق عمرو بن أمية لمّا قتل أهل بئر معونة عن رقبة كانت على أمِّه، فخرجَ عمرو إلى المدينة، فصادف رجلين من بني عامر معهما عقد وعهد من رسولِ الله ﷺ لم يشعر به عمرو، فقال لهما عمرو: ممن أنتما؟ فذكرا أنَّهما من بني عامر، فتركهما حتى ناما، فقتلهما عمرو، وظنَّ أنَّه ظفرَ ببعضِ ثأر أصحابه، فأخبرَ رسولَ الله ﷺ بذلك فقال: «لقد قتلت قتيلين لأودينَّهما» أي سأدفع ديتهما إلى أولياء أمورهما.

قال ابن إسحاق: فخرجَ رسولُ الله ﷺ إلى بني النضير يستعينُهم في ديّتهما، فيما حدّثني يزيدُ بن رومان، وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف، فلما أتاهم يستعينُهم في ديتهما، قالوا: نعم، ثم خلا بعضُهم ببعض فقالوا: إنّكم لن تجدوه على مثل هذه الحال. قال: وكان جالساً إلى جانبِ جدارٍ لهم، فقالوا: مَنْ رجل يعلو على هذا البيت، فيلقي هذه الصخرةَ عليه فيقتله ويريحنا منه؟ فانتدبَ

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٣٩٩.

(٢) صحيح البخاري في الجهاد، رقم ٢٩٢٦.

لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، فأتاه الخبرُ من السماء، فقام مظهِراً أنَّه يقضي حاجة، وقال لأصحابه: «لا تبرحوا» ورجع مسرعاً إلى المدينة، واستبطأه أصحابُه، فأُخبِروا أنَّه توجّه إلى المدينة، فلحقوا به، فأمر بحربهم والمسير إليهم، فأمر بقطعِ النخلِ والتحريق.

وذكر ابنُ إسحاق أنَّه حاصرهم ست ليال، وكان ناسٌ من المنافقين بعثوا إليهم أن اثبتوا وتمنّعوا، فإن قوتلتم قاتلنا معكم، فتربّصوا، فقذفَ الله في قلوبهم الرعبَ، فلم ينصروهم، فسألوا أن يجلوا عن أرضهم على أنَّ لهم ما حملت الإبلُ، فصولحوا على ذلك[1]. وأنزل الله في سورة الحشر ما يؤيّد ذلك، فقال في تحريق نخلهم: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥].

ثم قال في أموالهم: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٦ ـ ٧].

وقال في المنافقين وخُذلانهم لبني النضير: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحشر: ١١ ـ ١٢].

قتل كعب بن الأشرف:

كان كعب يهودياً شاعراً، هجا النبيَّ ﷺ والمسلمين بعد وقعة بدر كما تغزّلَ بنساء المسلمين حتى آذاهم.

وروى أبو داود والترمذي من طريق الزهري عن **عبد الرحمن بن عبد الله**

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٣٣١.

ابن كعب بن مالك عن أبيه أنَّ كعب بن الأشرف كان شاعراً، وكان يهجو رسولَ الله ﷺ، ويحرّضُ عليه كفّار قريش، وكان النبيُّ ﷺ قدمَ المدينة وأهلُها أخلاطٌ، فأراد رسول الله ﷺ استصلاحهم، وكان اليهود والمشركون يؤذون المسلمين أشدّ الأذى، فأمر اللهُ رسولَه والمسلمين بالصبر، فلمّا أبى كعبٌ أن ينزعَ عن أذاه، أمر رسول الله ﷺ سعدَ بن معاذ أن يبعثَ رهطاً ليقتلوه. وذكر ابنُ سعد أنّ قتله كان في ربيع الأول من السنة الثالثة[1].

وفي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لكعبِ بن الأشرفِ فإنَّه قد آذى الله ورسولَه؟» فقام محمد بن مَسْلَمة فقال: يارسولَ الله أتحبُّ أن أقتله؟ قال: «نعم» قال: فائذن لي أن أقولَ شيئاً، قال: «قل».

فأتاه محمد بن مسلمة فقال: إنّ هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنّه قد عنّانا - أي أتعبنا - وإنّي قد أتيتُكَ أستسلِفُك، قال: وأيضاً واللهِ لتملنّه، قال: إنّا قد اتبعناه، فلا نحبُّ أن ندعه حتى ننظرَ إلى أي شيءٍ يصيرُ شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين، فقال: نعم ارهنوني، قالوا: أيُّ شيءٍ تريد؟ قال: ارهنوني نساءَكم، قالوا: كيف نرهنك نساءَنا وأنتَ أجملُ العرب؟ قال: فارهنوني أبناءَكم، قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فيُسَبُّ أحدُهم فيقال: رُهِنَ بوسق أو وسقين، هذا عارٌ علينا. ولكنا نرهنكم اللأْمَةَ. يعني السلاح.

فواعده أن يأتيه، فجاءَه ليلاً ومعه أبو نائلة، وهو أخو كعب من الرضاعة، فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم، فقالت له امرأتُه: أينَ تخرجُ هذه الساعة؟ فقال: إنَّما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة. قالت: أسمعُ صوتاً كأنه يقطرُ منه الدمُ. قال: إنَّما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة، إنَّ الكريمَ لو دُعيَ إلى طعنةٍ بليلٍ لأجابَ، قال: ويُدخل محمد بن مسلمة معه رجلين: أبو عبس بن جبر والحارث بن أوس، وزاد بعضُهم: عبّاد بن بشر. فقال: إذا ما جاء فإني قائلٌ بشعرِه فأشمّه، فإذا رأيتموني استمكنتُ من رأسه فدونكم فاضربوه.

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٣٣٧.

فنزل إليهم متوشحاً، وهو ينفح منه ريحُ الطيب، فقال: ما رأيتُ اليومَ ريحاً ـ أي أطيب ـ، قال: عندي أعطرُ نساء العرب وأجملُ العرب، فقال: أتأذن لي أن أشمَّ رأسك، قال: نعم فشمه ثم أشم أصحابه، ثم قال: أتأذن لي؟ قال: نعم.

فلما استمكنَ منه قال: دونكم. فقتلوه. ثم أتوا النبيَّ ﷺ فأخبروه[1].

وقوله: «إنّي قائل بشعرِه فأشمَّه» هو من إطلاق القول على الفعل.

قوله: «دونكم فقتلوه، ثم أتوا النبيَّ ﷺ فأخبروه» في رواية عروة: وضربه محمد بن مَسْلَمة فقتله، وأصابَ ذُبابُ السيفِ الحارث بن أوس، وأقبلوا حتى إذا كان بجرف بعاث ـ اسم موضع ـ تخلّف الحارث ونزفَ، فلما افتقده أصحابُه رجعوا فاحتملوه، ثم أقبلوا سراعاً حتى دخلوا المدينة.

وفي رواية الواقدي: أنَّ النبيَّ ﷺ تفلَ على جُرحِ الحارث بن أوس فلم يؤذه.

واجتمعت اليهودُ فأخذوا على غير طريق أصحابِ رسولِ الله ﷺ ففاتوهم، فأخبروا النبيَّ ﷺ فحمد الله تعالى.

وفي رواية ابن سعد: فلمَّا بلغوا بقيع الغرقد كبّروا. وقد قام رسولُ الله ﷺ تلك الليلة يصلِّي، فلمَّا سمع تكبيرهم كبّر، وعرف أنْ قد قتلوه، ثم انتهوا إليه، فقال: «أفلحتِ الوجوهُ» فقالوا: ووجهك يارسولَ الله، ورموا رأسَه بين يديه، فحمد الله على قتله.

وفي مرسل عكرمة: فأصبحتْ يهودُ مذعورين، فأتوا النبيَّ ﷺ فقالوا: قُتِلَ سيِّدُنا غيلةً، فذكَّرهم النبيُّ ﷺ صنيعَه، وما كان يحرِّضُ عليه، ويؤذي المسلمين. وزاد ابن سعد: فخافوا فلم ينطقوا.

قال السهيلي: في قصة كعب بن الأشرف جوازُ قتلِ المعاهَدِ إذا سبَّ الشارع.. وفيه جوازُ قتل المشركِ بغير دعوى إذا كانت الدعوة العامة قد بلغته،

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٠٧٣.

وفيه جواز الكلامِ الذي يحتاجُ إليه في الحربِ، ولو لم يقصد قائلُه إلى حقيقته[١].

قتل أبي رافع عبد الله بن أبي الحقيق:

ويقال سلام بن أبي الحقيق، وهو من يهود خيبر، ويقال: كان له حصنٌ له بأرض الحجاز، وكان يؤذي رسولَ الله ﷺ، وكان قتلُه بعدَ كعب بن الأشرف.

وفي الحديث عن البراءِ بن عازب رضي الله عنه قال: بعثَ رسولُ الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجالاً من الأنصار، فأمَّرَ عليهم عبدَ الله بن عتيك.

وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ ويُعِينُ عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز، فلمَّا دنوا منه، وقد غربت الشمسُ، وراحَ الناسُ بسرحِهم، قال عبدُ الله لأصحابه: اجلسوا مكانَكم، فإنِّي منطلقٌ ومتلطِّفٌ للبوّابِ لعلِّي أنْ أدخلَ.

فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنَّعَ بثوبه كأنه يقضي حاجة، وقد دخل الناسُ، فهتف به البوّاب: ياعبدَ الله إن كنتَ تريدُ أن تدخلَ فادخل، فإنِّي أريد أن أغلقَ الباب. قال: فدخلتُ فكمنْتُ.

فلمّا دخلَ الناسُ أُغلِقَ البابُ، ثم علّقَ الأغاليقَ على وتد. قال: فقمتُ إلى الأقاليد ـ المفاتيح ـ فأخذتُها، ففتحتُ الباب، وكان أبو رافع يسمرُ عنده، وكان في علالي له، فلمّا ذهبَ عنه أهلُ سمره، صعدتُ إليه فجعلتُ كلَّ ما فتحتُ باباً أغلقت عليَّ من داخل. قلتُ: إن القوم نذروا بي ـ أي انتبهوا إليّ ـ لم يخلصوا إليَّ حتى أقتله. فانتهيتُ إليه، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، لا أدري أينَ هو من البيت. فقلت: أبا رافع.

قال: من هذا؟ فأهويتُ نحو الصوت، فأضربُه ضربةً بالسيف وأنا دَهِشٌ، فما أغنيتُ شيئاً، وصاح، فخرجتُ من البيتِ فأمكثُ غيرَ بعيد، ثم دخلتُ إليه فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال: لأُمِّكَ الويلُ إنَّ رجلاً في البيتِ ضربني قبلُ بالسيف. قال: فأضربُه ضربةً أثخنته ولم أقتله. ثم وضعتُ ضبيبَ السيف ـ حد السيف ـ في بطنِه حتى أخذَ في ظهرِه، فعرفتُ أنِّي قتلته، فجعلتُ أفتحُ الأبوابَ

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٣٤٠.

باباً باباً حتى انتهيتُ إلى درجةٍ له، فوضعتُ رجلي وأنا أرى أنّي قد انتهيتُ إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة، فانكسرتْ ساقي، فعصبتُها بعمامةٍ، ثم انطلقتُ حتى جلستُ على الباب، فقلتُ: لا أخرجُ الليلة حتى أعلم أقتلتُه؟

فلما صاح الديك قام الناعي على السور فقال: أنعى أبا رافع تاجرَ أهلِ الحجاز. فانطلقتُ إلى أصحابي، فقلتُ: النجاءَ فقد قتلَ اللهُ أبا رافع، فانتهيتُ إلى النبيِّ ﷺ فحدّثتُه فقال لي: «ابسط رجلك» فبسطتُ رجلي فمسحَها، فكأنّها لم أشتكها قطّ.

وفي رواية ثانية عن البراء رضي الله عنه قال: بعثَ رسولُ الله ﷺ إلى أبي رافع عبدَ الله بن عتيك وعبدَ الله بن عُتبة في ناسٍ معهم، فانطلقوا حتى دنوا من الحصن، فقال لهم عبد الله بن عتيك: امكثوا أنتم حتى أنطلق أنا فأنظر. قال: فتلطفتُ أن أدخلَ الحصنَ. ففقدوا حماراً لهم، فخرجوا بقبس يطلبونَه، قال: فخشيتُ أن أُعْرَفَ، فغطيتُ رأسي كأنّي أقضي حاجة. ثم نادى صاحبُ الباب: مَنْ أراد أن يدخلَ فليدخلْ قبل أن أغلقه، فدخلتُ، ثم اختبأتُ في مربطِ حمارٍ عند بابِ الحصن، فتعشوا عند أبي رافع، وتحدّثوا حتى ذهبت ساعة من الليل، ثم رجعوا إلى بيوتهم.

فلما هدأت الأصوات، ولا أسمعُ حركةً، خرجتُ، ورأيتُ صاحبَ الباب حيث وضعَ مفتاح الحصنِ في كوّة، فأخذتُه ففتحتُ باب الحصن، قلت: إن نذر بي القومُ انطلقت على مهل، ثم عمدتُ إلى أبواب بيوتهم فغلّقتها عليهم من ظاهر، ثم صعدتُ إلى أبي رافع في سُلّم، فإذا البيتُ مظلم قد طُفِئ سراجُه، فلم أدرِ أينَ الرجل. فقلت: يا أبا رافع. قال: مَن هذا؟ قال: فعمدتُ نحو الصوت فأضربه وصاح، فلم تغنِ شيئاً. ثم جئتُ كأنّي أغيثُه، فقلت: ما لك يا أبا رافع؟ وغيّرتُ صوتي قال: ألا أعجبك لأمك الويل دخل عليَّ رجلٌ فضربني بالسيف، قال: فعمدتُ له أيضاً فأضربه أخرى، فلم تغنِ شيئاً، فصاح، فقام أهلُه، ثم جئتُ وغيرتُ صوتي كهيئة المغيث، فإذا هو مستلقٍ على ظهره، فأضع السيف في بطنه، ثم أنكفئ عليه، حتى سمعتُ صوتَ العظم، ثم خرجتُ دهشاً، حتى أتيتُ السلّمَ أريدُ أن أنزلَ فأسقطُ منه، فانخلعتْ رجلي فعصبتُها، ثم أتيتُ أصحابي

أَحْجِلُ، فقلتُ: انطلقوا فبشّروا رسول الله ﷺ، فإنّي لا أبرحُ حتى أسمعَ الناعية.

فلما كان في وجه الصبح صعد الناعيةُ فقال: أنعى أبا رافع. قال: فقمتُ أمشي ما بي قلبة - أي علة أنقلب بها - فأدركتُ أصحابي قبل أن يأتوا النبيَّ ﷺ فبشّرتُه[1].

وفي هذا الحديث من الفوائد جواز اغتيال المشركِ الذي بلغته الدعوة وأصرَّ، وجواز قتل من أعان على رسول الله ﷺ بيده أو ماله أو لسانه، وجوازُ التجسس على أهل الحرب، وتطلّب غرتهم، والأخذ بالشدة في محاربة المشركين، وجواز إبهام القول للمصلحة، وجواز تعرّض القليل من المسلمين للكثير من المشركين، وجواز الحكم بالدليل والعلامة لاستدلال ابنِ عتيك على أبي رافع بصوته، واعتماده على صوت الناعي بموته[2].

فتح خيبر:

كانت مدينة خيبر مركزاً من مراكز اليهود ومؤامراتهم في بلاد الحجاز، تقعُ إلى الشمال من المدينة المنورة على بعد مئة وستين كيلومتراً تقريباً.

ولمَّا فرغ النبيُّ ﷺ من قتال قريش في العام السادس بعد صلح الحديبية، - كما سيأتي معنا - خرجَ مع أصحابه إليهم.

وفي الحديث عن **سلمة بن الأكوع** رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبيِّ ﷺ إلى خيبر، فسرنا ليلاً، فقال رجلٌ من القوم لعامر: ياعامر ألا تسمعنا من هنيهاتك؟ وكان عامرُ رجلاً شاعراً، فنزلَ يحدو بالقوم يقول:

اللهمَّ لولا أنتَ ما اهتدينا ... ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا
فاغفرْ فداءً لكَ ما اتّقينا ... وثبِّتِ الأقدامَ إنْ لاقينا
وألقينْ سكينةً علينا ... إنَّا إذا صِيْحَ بنا أَبَيْنا
وبالصياحِ عَوَّلوا علينا

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٠٣٩ - ٤٠٤٠.
(٢) فتح الباري: ٧/ ٣٤٥.

فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ هذا السائق؟» قالوا: عامر بن الأكوع، قال: «يرحمُه الله» قال رجل من القوم: وجبت يا نبيَّ الله لولا أمتعتنا به.

فأتينا خيبر فحاصرناهم، حتى أصابتنا مخمصةٌ شديدةٌ، ثم إنَّ الله تعالى فتحها عليهم، فلمَّا أمسى الناسُ مساءَ اليوم الذي فتحت عليهم أوقدوا نيراناً كثيرة، فقال النبيُّ ﷺ: «ما هذه النيران؟ على أي شيء توقدون؟»، قالوا: على لحم، قال: «على أيّ لحم؟»، قالوا: لحم الحمر الإنسية، قال النبيُّ ﷺ: «اهرقوها واكسروها»، فقال رجلٌ: يارسولَ الله: أونهرقها ونكسرها، قال: «أوذاك».

فلمَّا تصاف القوم كان سيفُ عامرٍ قصيراً، فتناول به ساق يهودي ليضربه، ويرجع ذباب سيفه فأصاب عين ركبةِ عامر فمات منه.

قال: فلمَّا قفلوا قال سلمة: رآني رسول الله ﷺ وهو آخذ بيدي قال: «ما لك؟»، قلتُ له: فداك أبي وأمي زعموا أنَّ عامراً حبط عملُه، قال النبيُّ ﷺ: «كذب مَنْ قاله، إنَّ له لأجرين - وجمع بين أصبعيه - إنّه لجاهد مجاهد، قلَّ عربي مشى بها مثله» وفي رواية قال: «نشأ بها»[1].

وصف **أنس بن مالك** رضي الله عنه فتحها، وما حدث قبل الفتح، فقال: صلَّى النبيُّ ﷺ الصبحَ قريباً من خيبر بغلَسٍ، ثم قال: «اللهُ أكبرُ خربتْ خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». فخرجوا يسعون في السكك، فقتل النبيُّ ﷺ المقاتلة، وسبى الذرية. وكان في السبي صفيةُ، فصارت إلى دِحْيَةَ الكلبي، ثم صارت إلى النبيِّ ﷺ، فجعلَ عتقها صداقها، فقال عبد العزيز بن صُهيب لثابتٍ راوي الحديث عن أنس: ياأبا محمد أنت قلت لأنس: ما أصدقها؟ فحرّك ثابتٌ رأسه تصديقاً له.

وفي روايةٍ ثانية عن **أنس** قال: سبى النبيُّ ﷺ صفية، فأعتقها وتزوّجها. فقال ثابت لأنس: ما أصدقها؟ قال: أصدقها نفسَها فأعتقتها[2].

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤١٩٦.
(٢) المرجع السابق، رقم ٤٢٠٠ - ٤٢٠١.

وفي (صحيح مسلم) عنه أيضاً أضاف قائلاً: فأجرى نبيُّ الله ﷺ في زقاق خيبر، وإن ركبتي لتمسَّ فخذ النبيِّ ﷺ، وانحسر الإزارُ عن فخذ النبيِّ ﷺ[1] . . فلمَّا دخل القرية قال: «اللهُ أكبرُ خربتْ خيبرُ، إنَّا إذا نزلنا بساحةِ قومٍ فساءَ صباحُ المنذَرِين».

وخيبر مدينةٌ كبيرةٌ ذات حصون ومزارع، على ثمانية بُرد من المدينة إلى جهة الشام، قال ابنُ إسحاق: خرجَ النبيُّ ﷺ في بقيّةِ محرم سنة سبع، فأقام يحاصِرُها بضعَ عشرة ليلة، إلى أن فتحها في صفر.

وروى يونس بن بُكير في (المغازي) عن ابن إسحاق في حديث **المسور ومروان** قالا: فانصرفَ رسولُ الله ﷺ من الحُديبية، فنزلت عليه سورةُ الفتح فيما بين مكة والمدينة، فأعطاهُ الله فيها خيبرَ بقوله: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ يعني خيبر، فقدم المدينة في ذي الحجة، فأقام بها حتى سار إلى خيبر في المحرم.

وقوله: «فاغفر فداء لك ما اتقينا» وقد استُشكل هذا الكلام، لأنَّه لا يقال في حق الله، إذ معنى «فداء لك» نفديك بأنفسنا، وحذف متعلق الفداء للشهرة، وإنما يتصور الفداء لمن يجوزُ عليه الفناء.

وأجيبَ عن ذلك بأنّها كلمة لا يُرادُ بها ظاهرُها، بل المرادُ بها المحبة والتعظيم، مع قطع النظر عن ظاهر اللفظ. وقيل: المخاطب بهذا الشعر النبيُّ ﷺ، والمعنى لا تؤاخذنا بتقصيرنا في حقك ونصرك.

وقوله: «قال يرحمه الله» في رواية **إياس بن سلمة** قال: «غفر لك ربك» قال: وما استغفر رسول الله ﷺ لإنسان يخصُّه إلا استُشْهِدَ. وبهذه الزيادة يظهر السر في قول الرجل: «لولا أمتعتنا به» واسم هذا الرجل عمر، سماه مسلم في رواية **إياس بن سلمة** ولفظه: «فنادى عمر بن الخطاب وهو على جمل له: يا نبيَّ الله لولا أمتعتنا به» أي هلا، وأمتعتنا أي متعتنا وأبقيته لنا لنتمتع بشجاعته، والتمتع الترفه إلى مدة، ومنه: أمتعني الله ببقائك.

---

(١) أي لمدة وجيزة لضرورة الإغارة والإجراء.

وقوله: «وكان سيفُ عامر قصيراً فتناول به ساق يهودي ليضربه» في رواية إياس بن سلمة: فلما قدمنا خيبر خرج ملكهم مَرْحب يخطر بسيفه يقول:

قد علمتْ خيبرُ أنّي مَرْحَبُ شاكي السلاح بطلٌ مجربُ
إذا الحروبُ أقبلتْ تلهَّبُ

قال: فبرزَ إليه عامرُ فقال:

قد علمت خيبرُ أنِّي عامرُ شاكي السلاح بطلٌ مغامرُ

فاختلفا ضربتين، فوقع سيفُ مرحب في ترس عامر، فصار عامر يسفل له أي يضربه من أسفل فرجع سيف عامر على نفسه فأصاب طرف ركبته الأعلى فمات منه(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: شهدنا خيبر فقال رسول الله ﷺ لرجل ممّن معه يدّعي الإسلام: «هذا مِنْ أهلِ النار» فلمّا حضرَ القتالُ قاتلَ الرجلُ أشدَّ القتالِ حتى كثرتْ به الجراحةُ، فكاد بعضُ الناس يرتاب، فوجد الرجل ألم الجراحة، فأهوى بيده إلى كنانته، فاستخرجَ منها أسهُماً فنحرَ بها نفسَه، فاشتدَّ رجالٌ من المسلمين فقالوا: يارسول الله صدَّق اللهُ حديثك، انتحر فلان فقتل نفسه. فقال: «قم يافلان فأذِّنْ أنَّه لا يدخلُ الجنةَ إلا مؤمنٌ، إنَّ اللهَ يؤيِّدُ الدينَ بالرَّجُلِ الفاجر»(٢).

وأظهرَ الله في فتح خيبر منقبةً عظيمةً من مناقب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ففي الحديث عن سهيل بن سعد أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ يوم خيبر: «لأعطينَّ هذه الرايةَ رجلاً يفتح اللهُ على يديه، يحبُّ اللهَ ورسولَه، ويحبُّه اللهُ ورسولُه» قال: فبات الناسُ يَدوكون (يتحدّثون في ذلك) ليلتهم أيُّهم يُعطاها. قال: فلمَّا أصبحَ الناسُ غَدَوا على رسولِ الله ﷺ، كلهم يرجوا أن يُعطاها، فقال: «أين عليّ بن أبي طالب؟» فقالوا: هو يارسول الله يشتكي عينيه، قال: «فأرسلوا إليه» فأُتي به،

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٤٦٦.
(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٢٠٣.

فبصقَ رسولُ الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأنْ لم يكن به وجعٌ. فأعطاه الراية.

فقال عليٌّ: يارسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا.

فقال: «انفُذ على رِسلك حتى تنزلَ بساحتهم، ثم ادعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجبُ عليهم من حقِّ الله فيه، فواللهِ لأن يهدي اللهُ بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكونَ لك حُمْرُ النَّعم» وهي الإبل الحمر، وهي أنفس أموال العرب[1].

وفي رواية عن سلمة بن الأكوع: ففتح الله عليه[2].

إخراج اليهود من شبه الجزيرة العربية:

الظاهر أنَّهم بقايا من اليهود تأخروا بالمدينة بعد إجلاءِ بني قينقاع والنضير وقريظة والفراغ من أمرهم، وقد أقرَّ النبيُّ ﷺ يهودَ خيبرَ على أن يعملوا في الأرض كما تقدّم، واستمروا إلى أن أجلاهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه.

وقد صرَّحَ النبيُّ ﷺ في حياته برغبته في إجلائهم، ففي الحديث عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: بينما نحن في المجلس خرجَ النبيُّ ﷺ فقال: «انطلقوا إلى يهود» فخرجنا حتى جئنا بيت المدراس، فقال: «أسلموا تسلموا، واعلموا أنَّ الأرضَ للهِ ورسولِه، وإنِّي أريدُ أن أجليكم من هذه الأرض، فمن يجد منكم بما له شيئاً فليبعه، وإلا فاعلموا أنَّ الأرض لله ورسوله»[3].

وقوله: «فمن يجد منكم بما له» من الوجدان، أي يجد مشترياً، أو من الوجد، أي المحبة، أي يحبه، والغرض أنَّ منهم من يشقُّ عليه فراقُ شيءٍ من ماله مما يعسر تحويلُه، فقد أذن له في بيعه.

وقد أوصى ﷺ في مرض موته بإخراجهم، ففي حديث **ابن عباس** رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ أمرهم في مرض موته بثلاث قال: «أخرجوا المشركينَ من جزيرةِ العرب، وأجيزوا الوفدَ بنحو ما كنتُ أُجيزُهم، والثالثة إما أن سكت عنها،

---

(١) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٤٠٦.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) صحيح البخاري في الجزية، رقم ٣١٦٧.

وإما أن قالها فنسيتُها» قال سفيان: هذا من قول سليمان ـ أحد رجال السند[1].

ووقع في رواية الجرجاني «أخرجوا اليهود» والأول أثبت[2].

ويبدو أنَّ عمرَ بن الخطاب هو الذي قُدِّرَ له أن ينفِّذَ وصيةَ رسول الله ﷺ، ففي الحديث عن جابر بن عبد الله قال: أخبرني عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لأخرجنَّ اليهودَ والنصارى من جزيرةِ العربِ، حتى لا أدعَ إلا مسلماً»[3].

* * *

(١) انظر الحديث كاملاً في صحيح البخاري، كتاب الجزية، رقم ٣١٦٨.

(٢) فتح الباري: ٦/ ٢٧١.

(٣) صحيح مسلم في الجهاد، رقم ١٧٦٧.

الفصل الرابع

النبي ﷺ والمنافقون[1]

تعريف المنافقين:

المنافقون: هم الذين يبطِنونَ الكفرَ، ويظهِرونَ الإسلام، وقد أنزل الله في وصفهم آيات كثيرة، وفي عددٍ من السور الكريمة، منها قوله تعالى في صدر سورة البقرة: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ٨ـ١٠].

كانوا ثلثَ أهلِ المدينة تقريباً، زعيمُهم عبدُ الله بن أُبيّ بن سلول، وقفوا من النبيِّ ﷺ مواقفَ كثيرة مُخزية ـ كما سيأتي معنا ـ فصبرَ عليهم ﷺ، وقبلَ علانيتهم، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى، مع أنّه كان يعلمُ حقيقتَهم، إذ دلَّ قولُه تعالى على ذلك: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ۝٢٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد: ٢٩ـ٣٠].

وقوله: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾ أي أحسب المنافقون أنَّ الله لن يفضحَهم، ويظهرَ ما في قلوبهم من حِقْدٍ وعداوةٍ لرسول الله ﷺ والمسلمين، فأمرهم هذا أمر خطير لا ينبغي السكوت عليه.

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ أي والله قادر على كشفهم وإظهار حقيقتهم لرسوله عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال سبحانه له: ولو نشاءُ يا محمَّدُ لأريناكَ أشخاصَهم، فعرفتَهم بعلامتهم التي تعرفهم بها، ففيه إشارةٌ إلى قوّةِ ذلك التعريف الذي لا يقع معه اشتباه.

﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ أي ولتعرفنهم من فحوى كلامهم ومقصده،

وهذا يدلُّ على أنهم ما كانوا يقدرون على كتمان ما في أنفسهم، وهو جوابُ قسمٍ محذوف، فلم يتكلّم بعد نزول هذه الآية منافقٌ عند النبيِّ ﷺ إلا عرفه[1].

ومن أبرز مواقفهم ما ذكره سبحانه في سورة المنافقين في قوله الكريم: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٧ ـ ٨].

وبيَّنَ **جابرُ بن عبد الله** رضي الله عنهما سببَ نزول هذه الآيات فقال: كنَّا في غزاة فكسعَ رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاريُّ: يا للأنصار، وقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين. فسمعَ ذلك رسولُ الله ﷺ فقال: «ما بالُ دعوى الجاهلية؟».

قالوا: يا رسول الله كسعَ رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: «دعوها فإنَّها منتنةٌ».

فسمعَ بذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها؟ أما واللهِ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ.

فبلغ النبيَّ ﷺ، فقامَ عمرُ فقال: يارسول! دعني أضربُ عنقَ هذا المنافق.

فقال النبيُّ ﷺ: «دعه لا يتحدَّثُ الناسُ أنَّ محمَّداً يقتلُ أصحابَه»[2].

وعن **زيد بن أرقم** رضي الله عنه قال: كنتُ مع عمي، فسمعتُ عبدَ الله بن أبيّ بن سلول يقول: لا تنفقوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضُّوا، وقال أيضاً: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. فذكرتُ ذلك لعمّي، فذكره عمي لرسول الله ﷺ، فأرسل رسولُ الله ﷺ إلى عبد الله بن أبيّ وأصحابه فحلفوا ما قالوا، فصدَّقهم رسول الله ﷺ وكذّبني، فأصابني همٌّ لم يصبني مثلُه، فجلستُ

---

(١) تفسير سورة محمد من التفسير الموضوعي لسور القرآن.

(٢) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٩٠٥.

في بيتي فأنزل الله عزَّ وجلّ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ فأرسلَ إليَّ رسولُ اللهِ ﷺ فقرأها عليّ، ثم قال: «إنَّ اللهَ قد صدّقك»[1].

وقوله: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ أي لئن رجعنا من غزوةِ بني المصطلق إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ، يعنون رأس المنافقين عبدَ الله بن أبي، الأذلَّ يعنون رسولَ الله ﷺ.

وأسندت الآيةُ قولَ ابن أُبي إلى المنافقين لرضاهم به، وردَّ سبحانه عليه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولله العزَّةُ ولمن أعزَّه الله وأيّده من رسله ومن المؤمنين لا لغيرهم.

وجاء من عِدَّةِ طرق أنَّ عبدَ الله بن عبد الله بن أبي، وكان من خِيار الصحابة، سَلَّ سيفه على أبيه عندما أشرفوا على المدينة فقال: واللهِ عليَّ أنْ لا أغمدَه حتى تقولَ: محمَّدٌ الأعزُّ وأنا الأذلُّ، فلم يبرحْ حتى قالَ ذلك[2].

صبره عليه الصلاة والسلام على أذاهم:

وأفاد ما سبق ذكره أنّه عليه الصلاة والسلام صبرَ على أذى المنافقين، مع تكرّر أذاهم له ﷺ، ففي الحديث عن **أسامة بن زيد** أنَّ النبيَّ ﷺ ركب حماراً عليه إكافٌ تحته قطيفة فدكية[3]، وأردفَ وراءَه أسامة، وهو يعودُ سعدَ بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج، وذلك قبل وقعةِ بدر، حتى مرَّ بمجلسٍ فيه أخلاطٌ من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، فيهم عبد الله بن أبيّ، وفي المجلس عبدُ الله بن رواحة، فلما غشيت المجلسَ عجاجةُ الدابة[4] خمَّرَ عبدُ الله بن أبيّ أنفه بردائه، ثم قال: لا تغبِّروا علينا. فسلَّمَ عليهم النبيُّ ﷺ، ثم وقف فنزلَ

---

(١) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٩٠١.
(٢) انظر تفسير السورة في التفسير الموضوعي.
(٣) الإكاف: هو للحمار بمنزلة السرج للفرس، فدكية: منسوبة إلى فدك، وهي بلدة معروفة على مرحلتين أو ثلاث من المدينة المنورة.
(٤) عجاجة الدابة: هو ما ارتفع من غبار حوافرها.

فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبدُ الله بن أُبيّ: أيها المرء! لا أحسن من هذا، إن كان ما تقول حقاً فلا تؤذنا في مجالسنا، وارجع إلى رحلك، فمن جاءك مِنّا فاقصص عليه، فقال عبدُ الله بن رواحة: اغشنا في مجالسنا فإنّا نحبُّ ذلك.

قال: فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى هموا أن يتواثبوا، فلم يزل النبيُّ ﷺ يخفضهم ـ أي يسكنهم ـ ثم ركبَ دابته، حتى دخل على سعد بن عبادة فقال: «أيْ سعد، ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب؟» يريدُ عبدَ الله بن أبي، قال: «كذا وكذا». قال: اعفُ عنه يارسول الله واصفح، فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك، وقد اصطلحَ أهلُ هذه البحيرة ـ المدينة المنورة ـ أن يتوّجوه فيعصبوه بالعصابة[1]، فلمّا ردَّ اللهُ ذلك بالحق الذي أعطاكه شَرِقَ بذلك[2]. فذلك فعلَ به ما رأيت. فعفا عنه النبيّ ﷺ.

وفي رواية ثانية عن **أنس بن مالك** قال: قيل للنبيِّ ﷺ: لو أتيتَ عبدَ الله بن أُبي؟ قال: فانطلق إليه وركبَ حماراً، وانطلق المسلمون وهي أرض سبخة ـ أي مالحة. فلما أتاه النبيُّ ﷺ قال: إليك عني، فوالله لقد آذاني نتنُ حمارك. قال: فقال رجلٌ من الأنصار: واللهِ لحمارُ رسولِ الله ﷺ أطيبُ ريحاً منك. قال: فغضبَ لعبدِ الله رجلٌ من قومه. قال: فغضب لكلّ واحد منهما أصحابه. قال: فكان بينهم ضرب بالجريد وبالأيدي وبالنعال. قال: فبلغنا أنها نزلت فيهم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩][3].

ولقد استمرَّ ﷺ يعامِلُ زعيمَ المنافقين هذه المعاملة الكريمة الطيبة حتى إنَّه لما ماتَ كفّنه عليه الصلاة والسلام في قميصه، ففي الحديث الشريف عن **ابن عمر** رضي الله عنهما أنَّ عبدَ الله بنَ أبيّ لما توفي جاء ابنُه إلى النبيِّ ﷺ فقال: يارسول الله أعطني قميصك أكفنه فيه، وصلِّ عليه، واستغفر له، فأعطاه النبي ﷺ قميصه

---

(١) فيعصبوه بالعصابة: معناه اتفقوا على أن يعيّنوه ملكهم، وكان من عادتهم إذا ملكوا إنساناً أن يتوجوه ويعصبوه.

(٢) شرق بذلك أي غص، ومعناه حسد النبي ﷺ.

(٣) صحيح مسلم في الجهاد، رقم ١٧٩٨ ـ ١٧٩٩.

فقال: «آذني أصلي عليه» فآذنه، فلمّا أراد أن يصلي عليه جذبه عمر رضي الله عنه فقال: أليس الله قد نهاك أن تصلّي على المنافقين، فقال: «أنا بين خيرتين» قال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، فصلى عليه فنزلت: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤][1].

ولعلَّ النبيَّ ﷺ ألبسَ عبد الله بن أبي قميصَه سواء كان يكف عنه العذاب أو لا يكف استصلاحاً للقلوب.

وجواب الإشكال الواقع في قول عمر: أليس الله قد نهاك أن تصلّي على المنافقين؟ مع أنَّ نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ كان بعد ذلك، ومحصل الجواب أنَّ عمرَ فهم من قوله: ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ منع الصلاة عليهم، فأخبره النبيُّ ﷺ أنه لا منع وأن الرجاء لم ينقطع بعد[2].

وعن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أتى النبيُّ ﷺ عبد الله بن أبيّ بعدما دفن، فأخرجه فنفث فيه من ريقه، وألبسَه قميصَه[3].

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: وكان أهل عبد الله بن أبيّ خشوا على النبيِّ ﷺ في حضوره، فبادروا إلى تجهيزه قبل وصول النبيِّ ﷺ، فلما وصل وجدهم قد دلوه في حفرته، فأمر بإخراجِه إنجازاً لوعده في تكفينه في القميص والصلاة عليه، والله أعلم[4].

حديث الإفك:

وابنُ سلولٍ هذا هو الذي تولّى إشاعةَ حديثِ الإفكِ عن أمِّ **المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها**، وهو أخطر مشكلة اجتماعية واجهت النبيَّ ﷺ في المدينة المنورة، والتي كادت آثارها السلبية الخطيرة أن تزعزعَ وحدة المجتمع المسلم

---

(١) صحيح البخاري في الجنائز، رقم ١٢٦٩.
(٢) فتح الباري: ٣/ ١٣٩.
(٣) صحيح البخاري في الجنائز، رقم ١٢٧٠.
(٤) فتح الباري: ٣/ ١٣٩.

الوليد، الذي حرصَ النبيُّ ﷺ على تقوية بنائه، ورصِّ صفوف أبنائه، فأنزل الله تبارك وتعالى الآياتِ الكريمة في سورة النور، أظهرَ بها الحقيقة، وبدّدَ الشكوك، وأعـاد للمجتمع المسـلم في المدينة المنورة وحدته وصفاءه، بعد أن فضحت المنافقين، وكشفت كيدَهم ومكرَهم بالنبيِّ ﷺ وأهله على وجه الخصوص، كما أظهرت في الوقت نفسه خطورة القذفِ بالزنى، وخطورةَ ما يؤدي إليه من شقاق ونزاع وإشاعة للفاحشة بين أبناء المجتمع.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ [النـور: ١١] أي إن الذين جـاؤوا بأبلغ ما يكـون من الكذب والافتراء جماعـة منكم، والعصبة من ثلاثة إلى عشـرة، والمشـهور في الروايـات الصحيحة أنّهم عبدُ الله بن أبيّ، ومسطح بن أثاثـة، وحمنة بنت جحش، وحسان بن ثابت.

وأصلُ الإفكِ من الأفـك، وهو القلب والصرف، فهو قـولٌ مأفـوكٌ عن وجهه، والمراد به ما أُفِكَت به السيدة عائشة رضي الله عنها، وفي لفظ ﴿ جَآءُو ﴾ إشارة إلى أنهم أظهروه من عندِ أنفسِهم من غير أن يكونَ له أصلٌ.

وسـبب نزول هذه الآيات تبرئـةُ السيدة عائشة رضي الله عنها من حديث الإفك.

فعن **عائشة رضي الله عنها** قالت: كان رسولُ الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرعَ بين أزواجه، فأيتهنَّ خرجَ سهمُها خرجَ بها رسول الله ﷺ معه.

قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج سهمي، فخرجتُ مع رسول الله ﷺ بعدما نزل الحجابُ، فأنا أُحمل في هودجي وأنزل فيه، فسرنا، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقفل، ودنونا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل، فقمتُ حين آذنوا في الرحيل، فمشيتُ حتى جاوزتُ الجيشَ، فلمّا قضيتُ شأني، أقبلتُ إلى رحلي، فإذا عِقْدٌ لي من جَـزْع ظفار قد انقطع[1]، فالتمستُ عقدي وحبسني ابتغاؤه.

وأقبل الـرهط الذين كانوا يرحلونني، فاحتملوا هودجي، فرحّلـوه على

---

(١) جزع ظفار: أي خرز تصنع في ظفار موضع في اليمن.

بعيري الذي كنتُ ركبتُ، وهم يحسبون أنّي فيه. وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهنّ اللحمُ، وإنما يأكلنَ العلقةَ من الطعام ـ أي القليل ـ فلم يستنكر القومُ خِفَّةَ الهودجِ حين رفعوه، وكنتُ جاريةً حديثةَ السنّ، فبعثوا الجملَ وساروا.

فوجدتُ عقدي بعدما استمرّ الجيش، فجئتُ منازِلهم، وليس بها داعٍ ولا مجيب، فأممتُ منزلي الذي كنتُ به، وظننتُ أنَّهم سيفقدونني، فيرجعون إليَّ.

فبينا أنا جالسةٌ في منزلي غلبتني عيني فنمتُ، وكان صفوانُ بن المعطِّلِ السُّلمي ثم الذكوانيّ من وراء الجيش، فأدلجَ، فأصبحَ عند منزلي، فرأى سوادَ إنسانٍ نائمٍ، فأتاني، فعرفني حين رآني، وكان يراني قبلَ الحجاب، فاستيقظتُ باسترجاعِه حين عرفني، فخمّرتُ وجهي بجلبابي، واللهِ ما كلَّمني كلمةً، ولا سمعتُ منه كلمةً غير استرجاعه، حتى أناخَ راحلتَه، فوطئ على يديها فركبتُها، فانطلقَ يقودُ بي الراحلة حتى أتينا الجيشَ بعد أن نزلوا موغرين في نحر الظهيرة. فهلك من هلك، وكان الذي تولَّى الإفكَ عبدَ اللهِ بن أبيّ بن سلول.

فقدمنا المدينة، فاشتكيتُ حين قدمتُ شهراً، والناس يفيضون في قولِ أصحابِ الإفك، ولا أشعرُ بشيءٍ من ذلك، وهو يريبني في وجعي أنّي لا أعرفُ من رسول الله ﷺ اللطفَ الذي كنتُ أرى منه حين أشتكي، إنَّما يدخلُ عليَّ رسولُ الله ﷺ فيسلّمُ ثم يقول: «كيف تيكم؟» ثم ينصرفُ، فذاك الذي يريبني، ولا أشعرُ بالشرِّ، حتى خرجتُ بعدما نقهتُ، فخرجتْ معي أمُّ مِسْطَح قِبَلَ المناصع، وهو متبرَّزُنا، وكنا لا نخرجُ إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن تتخذ الكنُفَ[1] قريباً من بيوتنا.

فانطلقتُ أنا وأم مسطح، وهي ابنةُ أبي رهم بن عبد مناف، وأمُّها بنت صخر ابن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنُها مِسْطَح بن أُثاثة. فأقبلتُ أنا وأمُّ مسطح قبل بيتي، وقد فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مِرطها فقالت: تعسَ مِسْطَح.

فقلتُ لها: بئسَ ما قلتِ، أتسبين رجلاً شهد بدراً؟

قالت: أي هنتاه أولم تسمعي ما قال؟

---

(١) الكنف: المراحيض.

قالت: قلتُ: وما قال؟

فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددتُ مرضاً على مرضي، فلمَّا رجعتُ إلى بيتي، ودخلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ، تعني سلّم، ثم قال: «كيف تيكم؟» فقلتُ: أتأذنُ لي أن آتي أبويَّ؟ قالت: وأنا حينئذٍ أريدُ أن أستيقنَ الخبرَ من قِبَلِهما.

قالت: فأذنَ لي رسول الله ﷺ، فجئتُ أبويَّ، فقلت لأمي: يا أمتاه ما يتحدّثُ الناس؟

قالت: يا بنية هوّني عليك، فوالله لقلّما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبُّها، ولها ضرائرُ، إلا أكثرنَ عليها.

قالت: فقلت: سبحان الله أو قد تحدّث الناسُ بهذا؟ قالت: فبكيتُ تلك الليلة حتى أصبحتُ لا يرقأُ لي دمعٌ، ولا أكتحلُ بنومٍ، حتى أصبحتُ أبكي.

فدعا رسولُ الله عليَّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبث الوحيُ ـ أي تأخر ـ يستأمرهما في فراق أهلِه.

قالت: فأمَّا أسامةُ بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلمُ من براءة أهله، وبالذي يعلمُ لهم في نفسِه من الودِّ، فقال: يارسول الله هم أهلك، وما نعلمُ إلا خيراً.

وأما عليُّ بن أبي طالب فقال: يارسول الله لم يضيِّق اللهُ عليك، والنساءُ سواها كثيرٌ، وإن تسأل الجاريةَ تصدقْك.

قالت: فدعا رسولُ الله ﷺ بريرة فقال: «أي بريرة هل رأيتِ من شيءٍ يريبك؟»

قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيتُ عليها أمراً أغمصه عليها أكثر من أنَّها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجنُ فتأكله.

فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذٍ من عبد الله بن أبيّ بن سلول، فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يامعشر المسلمين! مَنْ يعذرُني من رجلٍ قد بلغني أذاهُ في أهل بيتي؟ فواللهِ ما علمتُ على أهلي إلاَّ خيراً، ولقد ذكروا رجلاً

ما علمتُ عليه إلا خيراً، وما كان يدخلُ على أهلي إلا معي»

فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يارسول الله أنا أعذرُك منه، إنْ كان من الأوسِ ضربتُ عنقَه، وإن كان من إخواننا من الخزرجِ أمرتنا ففعلنا أمرَك.

قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيّد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحميّة، فقال لسعد: كذبتَ لعمرُ الله لا تقتله ولا تقدرُ على قتله. فقام أُسيدُ بن حُضير، وهو ابنُ عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبتَ لعمرُ الله لنقتلنّه، فإنك منافق تجادِلُ عن المنافقين. فتساور الحيان الأوس والخزرج، حتى هَمُّوا أن يقتتلوا، ورسولُ الله ﷺ قائمٌ على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا فسكت.

قالت: فمكثتُ يومي ذلك لا يرقأُ لي دمعٌ، ولا أكتحلُ بنوم، قالت: فأصبحَ أبواي عندي، وقد بكيتُ ليلتين ويوماً، لا أكتحل بنومٍ ولا يرقأُ لي دمعٌ، يظنان أنَّ البكاءَ فالقٌ كبدي.

قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنتْ عليَّ امرأةٌ من الأنصار، فأذنتُ لها فجلست تبكي معي، قالت: فبينا نحن على ذلك، دخل علينا رسول الله ﷺ، فسلَّم ثم جلس، قال: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يُوحَىٰ إليه في شأني، قالت: فتشهَّدَ رسولُ الله ﷺ حين جلس، ثم قالك «أما بعد ياعائشةُ، فإنَّه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنتِ بريئةً فيسبرئُك الله، وإن كنت ألممتِ بذنبٍ فاستغفري الله وتوبي إليه، فإنَّ العبدَ إذا اعترفَ بذنبه، ثم تاب إلى الله تابَ اللهُ عليه».

قالت: فلمَّا قضى رسول الله ﷺ مقالته قلصَ دمعي، حتى ما أُحِسُّ منه قطرةً. فقلتُ لأبي: أجبْ رسولَ ﷺ فيما قال.

قال: واللهِ ما أدري ما أقولُ لرسول الله ﷺ؟.

فقلتُ لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ.

قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ؟.

قالت: فقلتُ وأنا جاريةٌ حديثةُ السنِّ لا أقرأُ كثيراً من القرآن: إنِّي والله لقد

علمتُ أنكم سمعتم هذا الحديث، حتى استقرَّ في أنفسكم وصدّقتم به. فلئن قلتُ لكم إنِّي بريئة، واللهُ يعلمُ أنّي بريئةٌ، لا تصدّقوني بذلك. ولئن اعترفتُ لكم بأمر، والله يعلم أني منه بريئة، لتصدّقُنّي، واللهِ ما أجدُ لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨]، قالت: ثم تحوّلتُ فاضطجعتُ على فراشي.

قالت: وأنا حينئذٍ أعلمُ أني بريئة، وأنَّ الله مبرّئي ببراءتي، ولكن واللهِ ما كنتُ أظنُّ أن الله منزلٌ في شأني وحياً يُتلى، ولشأني في نفسي كانَ أحقرَ أن يتكلَّمَ اللهُ فيَّ بأمر يُتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها. قالت: فواللهِ مارامَ رسول الله ﷺ ولا خرجَ أحدٌ من أهل البيت حتى أُنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدَّرُ منه مثل الجمان من العرق، وهو في يومٍ شاتٍ، من ثقل القول الذي ينزلُ عليه، قالت: فلمَّا سُرِّيَ عن رسول الله ﷺ، سُرِّيَ عنه وهو يضحكُ، فكانت أوّلُ كلمةٍ تكلّمَ بها: ياعائشةُ أمَّا اللهُ عزَّ وجلّ فقد برّأكِ، فقالت أمِّي: قومي إليه، قالت فقلت: واللهِ لا أقومُ إليه ولا أحمدُ إلا اللهَ عزَّ وجلّ. وأنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١١] الآيات العشر كلها.

فلمَّا أنزل الله في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكان ينفقُ على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره، واللهِ لا أنفقُ على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢].

قال أبو بكر: بلى والله إني أحبُّ أن يغفرَ اللهُ لي، فرجعَ إلى النفقةِ التي كان ينفقُ عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسألُ زينبَ بنت جحش عن أمري فقال: «يازينبُ ماذا علمتِ أو رأيتِ؟».

فقالت: يارسول الله أحمي سمعي وبصري ما علمتُ إلا خيراً.

قالت: وهي كانت تساميني - أي تنافسني - من أزواج رسول الله ﷺ فعصمها اللهُ بالورعِ، وطفقت أختُها حمنةُ تحارِبُ لها، فهلكتْ فيمن هلكَ من أصحابِ الإفك[1].

هكذا خرجت السيدة من محنتها بشهادةٍ ربّانية عالية ببراءتها وطُهرها وطِيبها، شهادة لا تمحوها الأيام، ولا تُخْلِقُها الأعوام، ممّا زاد في مكانتها في قلب رسول الله ﷺ، وأعلى من مقامها في نفسِه وفي نفوس المؤمنين إلى يوم الدين.

وكما عفا أبو بكر رضي الله عنه عن مِسْطح بن أثاثة، وتجاوز عن ما قال، تجاوزت السيدةُ أيضاً عن حسان بن ثابت رضي الله عنه، وعفت عن ما قاله فيها، لأنه كان ينافح ويدافع بشعره عن رسولِ الله ﷺ.

ففي الحديث عن هشام عن أبيه أنَّ حسّان بن ثابت كان ممن كثر على عائشة، فَسَبَبْتُه، فقالت: يا ابن أختي دعه، فإنَّه كان ينافحُ عن رسولِ الله ﷺ[2].

وعن مسروق قال: دخلتُ على عائشةَ وعندها حسّان بن ثابت ينشدُها شعراً يشبب - يتغزل - بأبياتٍ له فقال:

حصانٌ رزانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ وتصبِحُ غَرْثَىٰ مِنْ لحوم الغَوَافِلِ[3]

فقالت له عائشة: لكنك لست كذلك. قال مسروق: فقلتُ لها: لم تأذنينَ له يدخل عليك؟ وقد قال الله: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١] فقالت: فأيُّ عذابٍ أشدُّ من العمى؟ إنَّه كان ينافِحُ أو يهاجي عن رسول الله ﷺ[4].

المتقاعسون عن القتال:

ويتَّصفُ المنافقون بصفة الجبن والخوف من القتال، ولهذا قال تعالى

---

(١) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٧٥٠.
(٢) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٤٨٧.
(٣) (حصان) أي محصنة عفيفة، (رزان) أي كاملة العقل، (ما تزن): أي ما تتهم، (غرثى) أي جائعة، ومعناه لا تغتاب الناس، لأنها لو اغتابتهم شبعت من لحومهم.
(٤) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٤٨٨.

فيهم: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠]، فالمؤمنون حريصون على الجهاد، ولهذا فهم يقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي لو لا أنزلت سورة يؤمرون فيها بالقتال.

وأما المنافقون فشأنُهم مختلفٌ ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: رأيت المنافقين تشخصُ أبصارُهم جُبناً وهلعاً، كمن أصابته غشية الموت.

ومما يدلُّ على شدة جبنهم، وإصرارهم على التخلف عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، أنَّهم كلَّما أنزل الله سورةً بالجهاد تقاعسوا وتخلَّفوا، كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٨٦]، أي استأذنك أصحابُ القوة والغنى من المنافقين، وقالوا: دعنا نبقى مع القاعدين عن القتال من الضعفاء والعاجزين.

والمنافقون لا يتقاعسون عن القتال فقط، بل يعوّقون غيرَهم عنه، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨]، أي الله يعلم المثبطين من المنافقين عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، والقائلين لإخوانهم في النسب من المجاهدين: تعالوا إلينا واتركوا القتال، فإنا نخافُ عليكم، وهم لا يحضرون القتال إلا زمناً قليلاً للرياء والسمعة، ثم يبادرون إلى الفرار، معتذرين بأنَّ بيوتهم عورة، وقد كذّبهم الله تعالى فقال: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣].

وكان هذا حالهم في أثناء معركة الخندق، ولما انهزم الأحزابُ، ورجعوا إلى بلادهم خائبين، ووصلت أخبارُ هزيمتهم إلى المدينة المنورة، لم يصدِّق المنافقون هذه الأخبار من شدّة خوفهم وجبنهم، كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٠] أي وإن يأتِ الأحزاب يتمنَّى المنافقون أن يكونوا في البادية مع الأعراب، بعيدين عن المدينة، حتى في مثل هذه الأحوال لو كانوا معكم ما قاتلوا إلا قتالاً قليلاً للسمعة والرياء.

مسجد الضرار:

وهو مسجدٌ بناه المنافقون قريباً من مسجد قباء، لأجل تقوية الكفر والنفاق، ولأجل تفريق المؤمنين الذين كانوا يصلّون مجتمعين في مسجد قباء، أنزل الله في مسجدهم هذا قوله الكريم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٧ ـ ١١٠].

فالمسجدُ أسَّسه المنافقون لأجلِ الضرر، لهذا سُمِّيَ مسجدَ الضرار، فقد قصدوا الإضرارَ بالمسلمين من أهل مسجد قباء، ولأجل تقوية الكفر والنفاق وتفريق كلمة المؤمنين، الذين كانوا يصلّون مجتمعين في مسجد قباء، فبنوا مسجد الضرار قريباً منه، لكي يصلّي فيه بعضهم، وهذا يؤدي إلى الاختلاف وتفرّق الكلمة.

وبنوه أيضاً ترقباً وانتظاراً لمن عادى الله تعالى ورسولَه عليه الصلاة والسلام، وهو أبو عامر الراهب، والدُ حنظلة رضي الله عنه، الذي استشهد في أُحد، وغسّلته الملائكة. فأبو عامر هذا هو الذي أراده الله بقوله: ﴿وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾.

وكان أبو عامر قد تنصَّرَ في الجاهلية، وقرأ علمَ أهلِ الكتاب، وكانت له مكانةٌ كبيرةٌ بين قومه الخزرج.

ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأصبحت كلمةُ الإسلام عاليةً فيها، وأعزَّ الله المسلمين في غزوة بدر، فاضَ الحقدُ والحسدُ في قلب أبي عامر، فخرجَ إلى المشركين في مكة ممالئاً لهم على حرب رسول الله ﷺ، وقدمَ معهم إلى أُحد، وحفرَ في أرض المعركة حفراً وقعَ في إحداها رسول الله ﷺ. وحاول قبل القتال أن يحمل قومه الأنصار على خُذلان رسول الله ﷺ، فردوا عليه رداً قبيحاً، ونالوا منه وسبّوه.

ودعا عليه رسولُ الله ﷺ قبل أن يخرج من المدينة إلى المشركين أن يموتَ بعيداً طريداً، فأصابته دعوتُه عليه الصلاة والسلام.

فخرجَ أبو عامر بعد أُحدٍ من أرض العرب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبيِّ ﷺ، فوعده هرقل ومنَّاه، فكتب أبو عامر إلى جماعة من المنافقين يخبرُهم أنَّه سيقدِمُ بجيشٍ كبيرٍ يغلبُ به رسولَ الله ﷺ، وأمرهم أن يتخذوا له معقِلاً يستقبلون فيه من يأتيهم من عنده برسائله، ويكون له مرصاداً إذا قدمَ عليهم بنفسه، فبنوا مسجد الضرار إلى جوار مسجد قباء، وفرغوا منه قبل خروج النبيِّ ﷺ إلى غزوة تبوك، وجاؤوا إلى النبيِّ عليه الصلاة والسلام، وسألوه أن يأتيَ إليهم، فيصلي في مسجدهم، لكي يستروا أمرَهم، ويحتجّوا بصلاته عليه الصلاة والسلام، وذكروا أنّهم بنوه للضعفاء، فعصمه الله من الصلاة فيه وقال: «إنَّا على سفرٍ، ولكن إذا رجعنا إن شاءَ الله».

ولما رجع عليه الصلاة والسلام من تبوك، وقبلَ أن يصلَ المدينةَ بيومٍ أنزل الله تعالى عليه جبريل بخبر مسجد الضرار، فبعثَ ﷺ إلى ذلك المسجد مَنْ حرَّقه وهدمَه قبل وصولِه إلى المدينة.

وأغاظَ هدمُ مسجد الضرار وتحريقه المنافقين، وملأَ قلوبَهم حسرةً وألماً، وأخبر سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي سيبقى البناءُ الذي بنوه سببَ غضبٍ وحسرةٍ في قلوبهم بسبب هدمه وتحريقه، وسيظل ملازماً لهم، ينغّصُ عيشهم، ويكدر حياتهم حتى الموت، فلا يرتاحون من حسراتهم وآلام نفوسهم وقلوبهم إلا بالموت، وبعد الموت ينتظرهم ما هو أشد وأعظم.

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ في أمره بهدم بنائهم، فما يبنى باسم الإسلام، ويرادُ به الكيد بالإسلام وأهله، تجبُ إزالتُه كلياً، كما فعل ﷺ بمسجد الضرار، والسعيُ في إزالة الضرر، واستئصال مسبباته قاعدةٌ من قواعد الشريعة الإسلامية، ولهذا قال الفقهاءُ: (الضررُ يزال). أي تجب إزالتُه، ولا يجوزُ إقرارُه والسكوتُ عنه[1].

---

(١) انظر البلاغ الأخير في سورة التوبة في التفسير الموضوعي.

تشكيك وخذلان:

ومن شأنِ المنافقين إشاعة الأخبار الكاذبة والأراجيف في الأوقات العصيبة بقصد تفريق صفّ المؤمنين، وإدخال الخلاف والفرقةِ بينهم، وهذا ما فعلوه في أثناء الأيام العصيبة التي مرّت على المسلمين في أثناء حصار الأحزاب لهم في المدينة المنورة، قال تعالى في ذلك: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢] أي ما وعدنا إلا وعداً باطلاً، وهذا تشكيك للمؤمنين بصدق وعد الله تعالى ووعد رسوله عليه الصلاة والسلام، الذي كان يشد من عزائمهم، ويبشّرهم بالنصر القريب وهم يحفرون الخندق، كما سيأتي معنا.

ولم يكتفِ المنافقون بهذا، بل كانوا يدعون المؤمنين إلى الاستسلام والتخاذل وترك القتال ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب: ١٣] أي يا أهل المدينة لا مقامَ لكم هنا، ولا ثباتَ لكم في وجه جيوش الأحزاب، فارجعوا إلى بيوتكم، وما أرادوا بذلك إلا إشاعة الفوضى في صفوف المؤمنين، وإحداث الفتنة بينهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٤] أي: لو دخلت جيوشُ الأحزاب من نواحي المدينة وجوانبها، وطلبوا من المنافقين إعلانَ كفرهم وردتهم، لبادروا إلى إجابتهم دون توقف، وما تأخروا إلا زمناً يسيراً، ريثما يتمُّ السؤال والجواب، وهذا يدلُّ على شدة ميلهم للكفار، وحبهم للكفر، ورغبتهم في انتصار المشركين على النبيِّ ﷺ والمسلمين.

اللمّازون:

ومع اجتماع كلّ هذه العيوب والقبائح في المنافقين، فقد كانت ألسنتُهم طويلةً وحادّةً على المؤمنين، حتى لم يسلمْ أحدٌ من عيبهم وطعنهم، فعندما رغَّبَ النبيُّ ﷺ المسلمين في الإنفاق في سبيل الله لتجهيز جيش تبوك ـ كما سيأتي معنا ـ استجاب المؤمنون لأمر رسول الله ﷺ، فأنفق الأغنياءُ أموالاً كثيرة، وقدَّم الفقراءُ ما يستطيعون، حتى إنَّ بعضهم آجر نفسَه في أعمال شاقة لكي يتصدّق بأجرته، ويكون له سهمٌ في نفقةِ جيش تبوك، فطعن المنافقون على الأغنياء والفقراء، ولم يسلم أحدٌ منهم.

وفي الحديث الشريف عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: لمَّا أُمرنا بالصدقةِ كُنَّا نتحامل ـ وفي رواية: نحامل، أي نؤاجِرُ أنفسَنا في الحمل ـ فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسانٌ بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صَدَقَةِ هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رياءً، فنزلت ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ أي يعيبون المطوعين في الصدقات ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ أي ويعيبون أيضاً المقلّين الفقراء الذين لا يجدون شيئاً ينفقونه إلا ما حصّلوه بمشقة وعناء، والله سبحانه يقبلُ القليلَ والكثيرَ ما دام صاحبُه يبتغي به وجه الله تعالى، ورُبَّ درهمٍ واحدٍ سبقَ ألفَ درهمٍ بسبب إخلاص صاحبه. ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾ أي ومع ذلك، فإنَّ المنافقين يسخرون منهم، ويستهزئون بهم. ﴿ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ أي جازاهم سبحانه على سخريتهم، والجزاء من جنس العمل، أو هو دعاءٌ عليهم. ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] [التوبة: ٧٩] أي عذاب أليم مقدَّرٌ ومقرَّرٌ لا يدفعه عنهم استغفارُ أحدٍ أبداً.

إسقاط وحرمان:

حرم اللهُ المنافقين المتخلفين عن رسول الله ﷺ من شرف الجهاد معه، وأسقطهم من مقام صُحبته عليه الصلاة والسلام سقوطاً قطعياً مؤبّداً. وسبب هذا الحرمان القطعي والإسقاط المؤبّد بيّنه سبحانه بقوله الكريم وهو يخاطبُ النبيَّ ﷺ: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾ [التوبة: ٨٣] أي اقعدوا مع المتخلّفين من أصحاب الأعذار كالمرضى والنساء والصبيان، فلا تصلحون للجهاد، ولا خيرَ يُرجى منكم.

وكما حرمهم سبحانه في الدنيا من شرف الجهاد مع رسول الله ﷺ حرمهم أيضاً من استحقاق التكريم بعد الموت، فأنزل الله على النبيِّ ﷺ كما مرَّ معنا عند الحديث عن زعيم المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨٤].

* * *

---

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

الباب الثاني

الجهاد والمغازي

الفصل الأول : تشريع الجهاد والتكليف بالقتال

الفصل الثاني : غزوة بدر الكبرى

الفصل الثالث : غزوة أحد

الفصل الرابع : غزوة الخندق أو الأحزاب

الفصل الخامس : غزوة بني قريظة

الفصل السادس : الغزوات بين الخندق والحديبية

الفصل السابع : الفتح المبين أو صلح الحديبية

الفصل الثامن : تبليغ الدّعوة إلى الملوك والأمراء

الفصل التاسع : بين الحديبية والفتح

الفصل العاشر : فتح مكة المكرمة

الفصل الحادي عشر : غزوة حنين

الفصل الثاني عشر : غزوة تبوك

الفصل الأول

تشريع الجهاد والتكليف بالقتال

لم يُشرَع الجهاد في أوّل أمر الدعوة عندما كان النبيُّ ﷺ في مكة المكرمة، فقد كان مأموراً بتبليغ الدعوة، والصبر على أذى المشركين، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، وقوله أيضاً: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وشُرِعَ الجهادُ بعدَ الهجرة إلى المدينة المنورة، حيث أصبحت مقرّاً للنبيِّ ﷺ، ومنطلقاً لدعوته، ومأوى له ولأصحابه. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦] أي آواكم في المدينة المنورة، وجعلها لكم قاعدةَ انطلاقٍ وارتكازٍ في جهادكم، وهذا يدلُّ على أهمية الأرض التي تكونُ للمجاهدين بمثابة قاعدة انطلاق لهم في جهادهم، كما تكون حِصناً لهم يتحصّنون به، ويأوون إليه وقت الشدائد.

وبعد الهجرة أذنَ الله تعالى للنبيِّ ﷺ ولأصحابه بالقتال لدفع العدو، وردّ عدوانه، فأنزل قوله الكريم: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩ـ٤٠].

ثم أمرَ ﷺ بالقتال إنْ قاتلهم أعداءُ الإسلام، وأنزل الله عليه قوله الكريم: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وكلّف رسول الله ﷺ بالقتال ولو كان وحده، فقال تعالى: ﴿فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤].

استمرار التكليف بالجهاد:

ولم يقتصر التكليفُ بالجهادِ على ذلك، بل أمرت الآياتُ المسلمينَ بالاستمرار في جهاد الكافرين وقتالهم مادامت شوكة الكفر في الأرض قويةً حادّةً تمكّنُ الكافرين من فتنة المؤمنين، وصدّهم عن دينهم. قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣] أي قاتلوا الكفار حتى لا تبقى لهم قوة يستطيعون بها أن يفتنوا المسلمين عن دينهم، وحتى يكون الخضوعُ والاستسلامُ لدين الله تعالى وحده ولأحكام شريعته، وذلك إما في الدخول بالإسلام، أو الرضا بحكمه، والعيش مع المسلمين في ظلّ سماحته وعدله، فالجهادُ لم يشرع لإكراه الناس على الإسلام.

ويمكن أن يكون المعنى: حتى يكون دينُ الله هو الظاهرُ العالي على سائر الأديان.

وإلى المعنى الأول ذهب عبد الله بن عمر رضي الله عنه، فإنَّه عندما حدث الخلاف بين الصحابة بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه، اعتزلَ عبدُ الله بن عمر، فجاءه رجل فقال: ياأبا عبد الرحمن ما حملك على أن تحجَّ عاماً وتعتمرَ عاماً، وتتركَ الجهاد في سبيل الله عزَّ وجلّ، وقد علمتَ ما رغَّبَ الله فيه؟ قال: يا ابن أخي بُنِيَ الإسلامُ على خمسٍ: إيمانٍ بالله ورسولِه، والصلواتِ الخمسِ، وصيامِ رمضان، وأداءِ الزكاة، وحجِّ البيتِ، قال: ألا تسمعُ ما ذكرَ الله في كتابه: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾، قال: فعلنا على عهد رسول الله ﷺ وكان الإسلام قليلاً، فكان الرجلُ يُفتَنُ في دينه، إما قتلوه وإما يعذبونه، حتى كثر الإسلامُ فلم تكن فتنة[1].

والتكليف بالجهادِ باقٍ ومستمرٌّ، ولا يجوزُ تعطيلُه والتوقّفُ عنه مادام للكفر شوكة وقوة، وقد بوّبَ الإمامُ البخاريُّ في (صحيحه) باباً قال فيه: الجهادُ ماضٍ مع البَرِّ والفاجر لقول النبي ﷺ: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة» ثم روى بسنده عن عروة البارقيِّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «الخيلُ معقودٌ في

---

(١) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٥١٤.

نواصيها الخيرُ إلى يومِ القيامةِ: الأجرُ والمغنمُ» ولم يقيّدْ ذلك بما إذا كان الإمام عادلاً أو جائراً، فدلَّ على أنَّه لا فرقَ في حصول هذا الفضل بين أن يكون الغزوُ مع الإمامِ العادلِ أو الجائرِ(١).

الاستعداد للمعركة والأخذ بأسباب النصر:

أمرَ اللهُ المسلمينَ قبل مباشرةِ القتال بتهيئة أسباب النصر المادية، بإعداد القوّة، وحشدِ الطاقات، وإقامةِ التحصينات، فقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فالواجبُ على المسلمين قبل مباشرة القتال تهيئة جميع أسباب النصر المادية، وخاصة في عصرنا الحاضر، فإنَّ إعداد القوة يحتاجُ إلى كفاءة علمية عالية، ودراية علمية كبيرة في صنع الأسلحة والذخائر، والتدرّب على استعمالها، فمن المعلوم أنَّ قوةَ الجيش بقوة نيرانه وكثافتها التي يوجّه بها أقصى الضربات للعدو، وتنزل به أفدحَ الخسائر.

ففي (صحيح مسلم) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ألا إنَّ القوةَ الرميُ، ألا إنَّ القوةَ الرميُ، ألا إنَّ القوةَ الرميُ» وهذا الحديث من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام، فلقد أصبحت قوةُ الجيش في العصر الحاضر في قوة رماياته التي يرمي بها العدو، في قوة نيرانه وقذائفه وصواريخه، في قوة الطاقة المدمّرة التي تدمّرُ العدو.

وقوة الرمي وحدها لا تكفي لإحراز النصر، فلابدَّ بعد رمي العدو وتدميره من استثمار ذلك، بالمبادرة إلى احتلال مواقعه، واستئصالِ ما تبقّى من قوته، والقضاء على مقاومته، وذلك بشنّ الهجوم، وهذا يتطلّبُ إعدادَ القوّةِ المهاجمةِ التي تنقضّ على العدو باحتلال مواقعه وأرضه.

---

(١) انظر الفقه الحنفي في ثوبه الجديد: ٣/ ٢٨ ـ ٣٣.

ولما كانت الخيل أسرعَ وسائل الهجوم والكرّ والفرّ في ميادين القتال، خَصَّها سبحانه بالذكر في إعدادِ القوة، فقال: ﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ أي وأعدّوا ما تستطيعون من الخيل المربوطة المجهَّزة للهجوم والانقضاض على العدو بعد إثخانه وتدميره بقوة الرمي، فكأنَّ الآيةَ ترسُم مبدأً عسكرياً هاماً مقرّراً عند كبار القادة العسكريين، وهو إضعافُ العدو بقوةِ الرمي أولاً، ثم المبادرة إلى الهجوم ثانياً للقضاء عليه.

الفروسية والرمي:

ولهذا حثَّ النبيُّ ﷺ على إعداد الخيل والفروسية للجهاد عليها في سبيل الله في أحاديث كثيرة، منها ما رواه **أبو هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامةِ، الخيلُ ثلاثةٌ: فهي لرجلٍ أجرٌ، ولرجلٍ سترٌ، ولرجلٍ وِزْرٌ.

فأما التي هي **أجرٌ**، فالرَّجلُ يتخذُها في سبيلِ اللهِ ويعدُّها له، فلا تغيبُ شيئاً في بطونها إلا كتب الله له أجراً، ولو رعاها في مَرْجٍ، ما أكلتْ مِنْ شيءٍ إلاّ كتبَ اللهُ له بها أجراً، ولو سقاها من نهرٍ كان له بكلِّ قطرةٍ تغيِّبُها في بطونها أجراً، ولو استنّت شرفاً أو شرفين[1] كتبَ له بكل خطوة تخطوها أجراً.

وأما التي هي **سترٌ**، فالرجلُ يتَّخِذُها تكرّماً وتجمُّلاً، ولا ينسى حقَّ ظهورها وبطونها في عُسْرِها ويُسْرِها، وأما الذي عليه **الوزر**، فالذي يتخذُها أشراً وبطراً وبذخاً ورياءَ الناس، كذلك عليه وزرٌ»[2].

كما كان ﷺ يحثُّ أصحابَه على إتقان الرماية والفروسية والتدرّب عليهما، ويشاركهم أحياناً في ذلك، فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: خرجَ رسولُ الله ﷺ على نفرٍ من أسلمَ ينتضلون في السوق[3] فقال: «ارموا بني إسماعيلَ، فإنَّ أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بني فلانٍ» فأمسكَ أحدُ الفريقين بأيديهم فقال:

---

(١) أي قطعت مرتفعاً أو مرتفعين من الأرض.

(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٣) أي يتدرّبون على إصابة الهدف.

«ما لكم لا ترمون؟»، فقالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟، فقال: «ارموا وأنا معكم كلكم»[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أجرى رسولُ الله ﷺ ما ضُمِّرَ من الخيلِ من الحفياء إلى ثنية الوداع، وما لم يضمَّر من الثنيةِ إلى مسجدِ بني زريق[2].

وقد عوّدنا سبحانه وتعالى في كتابه أن يخاطبَ الناسَ بما يعقلون في عصر التنزيل، ولهذا لم يذكر سبحانه وسائل القتال والهجوم الحديثة التي اهتدى الإنسان إليها، كالدبابات والطائرات والمدمرات وغيرها، فقد ذكر الخيل كمثال لإعداد كل ما يمكن أن يكون سبب قوة ووسيلة نصر.

كما أنَّ على المسلمين إذا كانوا في حال الدفاع أن يعدّوا التحصينات القوية الواقية من ضربات العدو وقذائفه ونيرانه، ولهم في رسولِ الله ﷺ الأسوة الحسنى الطيبة، فسيأتي معنا أنه ﷺ حصَّن المدينةَ المنورة في غزوة الأحزاب، وحفر الخندق مع أصحابه، وشارك بنفسه في الحفر.

مراقبة العدو، ورصد تحرّكاته:

وينبغي على وليِّ أمرِ المسلمين أن يراقبَ ويرصدَ تحرّكات العدو، وأن يتعرَّف على أحواله، كما كان رسولُ الله ﷺ يفعل، وسيأتي معنا في غزوة الأحزاب أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ألا رجلٌ يأتيني بخبرِ القومِ جعله اللهُ معي يومَ القيامةِ».

وقد بوَّبَ البخاري في (صحيحه) في كتاب الجهاد باباً خاصاً قال فيه: فضل الطليعة، وروى فيه بسنده عن جابر رضي الله عنه قال: قال النبيّ ﷺ: «مَنْ يأتيني بخبرِ القومِ يومَ الأحزاب؟»، فقال الزبير: أنا، ثم قال: «مَنْ يأتيني بخبر القوم؟»، قال الزبير: أنا، فقال النبيّ ﷺ: «إنَّ لكلِّ نبيٍّ حوارياً وحواري الزبيرُ»[3].

---

(١) صحيح البخاري في الجهاد، رقم ٢٨٩٩.

(٢) المرجع السابق، رقم ٢٨٦٨.

(٣) صحيح البخاري في الجهاد، رقم ٢٨٤٦.

والطليعةُ من يرسَلُ إلى العدوِّ ليتطلَّعَ على أحوالِهم، وهو اسمُ جنسٍ يشملُ الواحد فما فوقه، وهو دليلٌ على جوازِ استعمال التجسس في الجهاد.

وإذا كان المسلمون في حال الهجوم فعليهم أن يباغتوا العدوَّ في الهجوم عليه فجأةً إذا بلغته دعوة الإسلام، فإنَّ عنصر المفاجأة من أهم أسباب النصر المادية، وقد كان ﷺ يفعل ذلك، فقد أغار على بني المصطلق وهم غارون ـ غافلون ـ وأنعامهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم، وسبى سبيهم، وأصاب يومئذٍ جويرية بنت الحارث رضي الله عنها(١).

وكان من شأنه ﷺ إذا خرجَ للقتالِ إخفاءُ الجهةِ التي يقصدها ليفاجئ العدو، ففي الحديث عن **كعب بن مالك** رضي الله عنه قال: لم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها(٢).

وقوله (ورَّى): أي ستر وأظهر شيئاً مع إرادة غيره.

كما شرع ﷺ جوازَ مخادعة العدو، فعن جابر رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «الحرب خَدعة»(٣). ولذلك أجازَ العلماء الكذبَ لخداع العدو.

الحرب الإعلامية:

وهذا يبيِّنُ لنا جوازَ بثِّ ونشرِ الإشاعاتِ الكاذبةِ في صفوف العدو بواسطة وسائل الإعلام المختلفة، فللإشاعات الكاذبة دورٌ كبيرٌ في بثّ روح التخاذل والهزيمة في نفوس المقاتلين، وما أكثر ما أدّت إلى تحويل الانتصارات إلى هزائم، ولهذا تحرص الدول قديماً وحديثاً على إذاعة الإشاعات الكاذبة في المجتمعات المعادية لها، وتسخِّر لبثّها مختلف وسائل الإعلام، وتحشد لأجل ذلك كل ما لديها من إمكانات، وترسم من أجلها الخطط والبرامج، حتى أطلقوا عليها في العصور المتأخرة: الحرب الباردة أو حرب الدعايات.

---

(١) صحيح مسلم في الجهاد، رقم ١٧٣٠.
(٢) صحيح البخاري في الجهاد، رقم ٢٩٤٧.
(٣) المرجع السابق، رقم ٣٠٣٠.

وأكثر الإشاعات خطورةً الإشاعاتُ الصادرةُ من داخل المجتمع من أولئك الذين يخفون في نفوسهم ولاءهم للعدو، وهم المنافقون ـ الذين يسمّون في العصر الحاضر: (الطابور الخامس) ـ وقد حذّر سبحانه من مكرهم وكيدهم وافتراءاتهم وأكاذيبهم في آيات كثيرة، ففي غزوة الأحزاب لعبوا دوراً كبيراً في نشرِ الشائعاتِ الكاذبة في صفوف المسلمين لتوهين عزائمهم وإضعافِ معنوياتهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢].

وبيّن سبحانه كيف نواجه إشاعات المنافقين وافتراءاتهم، فأمرنا بكتمانها، وعدم إشاعتها بين الناس، ثم القيام بتبليغها إلى أولياء أمور المسلمين، لكي يبيّنوا حقيقتَها، ويكشفوا للناس زيفَها وخداعها، فقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٨٣].

لقد استأجرَ أبو سفيان ـ كما سيأتي معنا ـ عندما كان زعيماً للمشركين بعد غزوة أحد، بعض الرجال لكي يندسوا في صفوف المسلمين في المدينة المنورة، وينشروا فيهم الإشاعات الكاذبة، ففشلوا، ولم يتأثر الصحابةُ رضي الله عنهم بافتراءاتهم بسبب قوة إيمانهم، وتوكّلهم على ربّهم، وأنزل الله تعالى يثني عليهم قوله الكريم: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤].

وقد كان ﷺ يأمر الشعراء من أصحابه بهجاء المشركين لإضعاف معنوياتهم، فعن عائشة رضي الله عنها أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «اهجوا قريشاً فإنّه أشدُّ عليها من رشقِ النبل» فأرسل إلى عبد الله بن رواحة فقال: «اهجهم» فهجاهم فلم يرضَ، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسلَ إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه، ثم أدلع لسانه ـ أي أخرجه ـ فجعل يحرّكه فقال: والذي بعثكَ بالحق لأفرينّهم بلساني

فريَ الأديم. فقال رسول الله ﷺ: «لا تعجلْ فإنَّ أبا بكر أعلمُ قريش بأنسابها، وإنَّ لي فيهم نسباً حتى يلخصَ لك نسبي»، فأتاه حسان، ثم رجع فقال: يارسول الله لقد لخص لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأسلنَّكَ منهم كما تُسلُّ الشعرة من العجين. قالت عائشة: فسمعتُ رسولُ الله ﷺ يقول لحسان: «إنَّ روحَ القدسِ لا يزالُ يؤيّدكَ ما نافحتَ عن اللهِ ورسوله».

وقالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «هجاهم حسان فشفا واشتفى»(١).

ولما دخل ﷺ مكةَ في عُمرةِ القضاء، كان عبدُ الله بن رواحة يمشي بين يديه وهو يقول:

خلّوا بني الكفّارِ عن سبيلِه ... اليومَ نضربُكُمْ على تنزيلِه
ضرباً يُزيلُ الهامَ عن مقيلِه ... ويُذهِلُ الخليلَ عن خليلِه

فقال له عمر: يا ابنَ رواحة بين يدي رسول الله ﷺ تقولُ الشعرَ؟

فقال له النبيُّ ﷺ: «خَلِّ عنه ياعمر، فلهوَ أسرعُ فيهم من نضحِ النبلِ»(٢).

الصبر والثبات عند الضربة الأولى:

الصبر والثبات عند الضربة الأولى من أهمِّ أسباب النصر، وهو ما أمرَ الله تعالى به في قوله الكريم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥] أي فلا تولّوهم ظهوركم منهزمين منهم، ولو كانوا أكثرَ عدداً وعُدَّة منكم، وقال أيضاً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥ ـ ٤٦].

ولهذا يعمد القادة المحنّكون إلى توجيهِ أقصى قوتهم إلى عدوّهم في الضربةِ الأولى، لكي ينشروا الذعرَ والخوفَ في قلوب جنود العدو، ويحدثوا

---

(١) صحيح مسلم في فضائل الصحابة، رقم ٢٤٩٠.
(٢) أخرجه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

الخلل والاضطراب في صفوفه، والثبات في وجه الضربةِ الأولى يقرِّرُ غالباً نتيجة المعركة بتقدير الله تعالى.

ولهذا توعّدت الآياتُ الكريمة الذين لا يثبتون في وجه العدو بأشد أنواع الوعيد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٥ ـ ١٦]، فلا يحلُّ الفرار من وجه العدوّ في أي حال من الأحوال إلا إذا كان يريدُ أن يتظاهرَ بالفرار أمامَ العدو لكي يخدعه ويستدرجه، ويتمكّن من ضربه، فمخادعة العدو في الحرب أمرٌ جائزٌ ومشروعٌ كما مرَّ معنا، أو يترك القتال لكي ينحاز إلى جماعةٍ مسلمة من جنود المسلمين محتاجين إلى معونته ومساعدته في ميدان آخر، كما فعل خالد بن الوليد رضي الله عنه عندما ترك قتالَ الفرسِ بالعراق، وانحازَ مع بعض جنودِه إلى جندِ المسلمين في بلاد الشام تنفيذاً لأمرِ أبي بكر رضي الله عنه(١).

الكفُّ عن الإغارة إذا سمع الأذان:

كان النبيُّ ﷺ كما ذكرنا يسعى إلى مفاجأة العدوّ، وأخذه على حين غِرة، فيغيرُ إذا طلعَ الفجر، ويمسِـكُ عن الإغارةِ إذا سمعَ الأذان، ففي الحديث عن **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ يغير إذا طلع الفجر، وكان يستمعُ الأذان، فإنْ سمعَ أذاناً أمسكَ، وإلاّ أغار. فسمعَ رجلاً يقول: الله أكبر، الله أكبر. فقال رسول الله ﷺ: «على الفطرة» ثم قال: أشهد أن لا إلـه إلاّ الله، أشهدُ أن لا إلـه إلا الله، فقال رسولُ الله ﷺ: «خرجتَ من النارِ» فنظروا فإذا هو راعي معزى(٢).

فضل المجاهدين معه ﷺ:

أثنى اللهُ تعالى ثناءً كبيراً على المجاهدين مع النبيّ ﷺ من الصحابةِ رضي الله عنهم، فقال: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ

---

(١) انظر الفقه الحنفي في ثوبه الجديد: ٣/ ٤٦.

(٢) صحيح مسلم في الصلاة، رقم ٢٨٣.

وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٨٨ ـ ٨٩].

فكلُّ جهدٍ بذلوه مع النبيِّ ﷺ مهما كان قَبِلَه تعالى منهم، وأثابهم عليه ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠ ـ ١٢١].

ويكرمهم الله تعالى يوم القيامة فيتفضَّل عليهم برفع درجاتهم في الجنة، بيَّن ذلك سبحانه بقوله: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةًۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥ ـ ٩٦].

جريمةُ المتخلّفين عن الجهاد معه ﷺ:

وبالمقابل ذمَّ سبحانه وتعالى المتخلّفين عن الخروج إلى الجهاد مع النبيِّ ﷺ فقال: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًاۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الفتح: ١١].

وتوعّدهم سبحانه أشدَّ الوعيد، فقال: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ [التوبة: ٨١ ـ ٨٣].

أحكام في القتال والأسر:

شرع الله سبحانه أحكاماً هامة في القتال والأسر، بقوله الكريم: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٤]، أي إذا لقيتم الذين كفروا في ميادين القتال فاضربوا رقابهم ضرباً.

وخصَّ الرقاب بالذكر لأن القتل أكثر ما يكون بها، والمراد اقتلوهم. وفي ضرب الرقاب إشارة إلى الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التحريم: ٩]، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ ﴾ أي: حتى إذا أكثرتم فيهم القتل وقهرتموهم وأضعفتموهم فأسرتموهم، فالإثخان مأخوذ من الثخين، وهو الغليظ، والمراد شدّة التقتيل حتى تتحطم قوة العدو، فلا يقدر على هجوم أو دفاع.

فمادام العدو قوياً فعلى المجاهدين أن يجعلوا تحطيم قوته ودفع خطره هدفهم الأول، وألا ينشغلوا بأسر جنوده، فإنَّ ذلك يؤدي إلى صرف جزء من قوتهم إلى جمع الأسرى وحراستهم في وقت يحتاجون فيه إلى صرف كلِّ قوتهم وحشد طاقاتهم لإضعاف العدو، وإنزال أكبر الخسائر في صفوفه، ولهذا قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وهذا مبدأ عسكري هام شرعه الله تعالى، وهو لا يمنع من المبادرة إلى أسر عدد قليل من جنود العدو إذا احتاج المسلمون إليهم، ليعرفوا منهم قوة عدوهم، ونقاط الضعف في صفوفه، فللضرورة في الشريعة أحكامُها، وتقدَّرُ بقدرها. واستجوابُ الأسيرِ للاستعلام منه عن أحوال العدو أمرٌ جائزٌ ومشروعٌ، فعله الصحابة يوم بدر قبل بدء القتال. كما سيأتي معنا.

الأمر بالتثبُّت في أثناء الجهاد:

لم يشرع الجهاد في الإسلام للقتل وسفك الدماء. ولهذا أمر الله تعالى

المسلمين بالتثبُّت في أثناء خروجهم إلى الجهاد، لكي لا يقتلوا نفساً معصومةً لا يجوز قتلُها، قال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ أي فتثبتوا وتحققوا، حتى تميزوا بين العدو المحارب المستحق للقتل وبين غيره.

وقد نزلت هذه الآيةُ عندما كانت الأسلحة بسيطةً فرديةً، لا تزيد عن سيف ورمح، وأما في العصر الحاضر، بعد أن صنع الإنسان أسلحة الفتك والتدمير الجماعي الشامل، فيتأكد الأمر بالتثبت أكثر من قبل.

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي لا تقولوا لمن حيّاكم بتحية الإسلام، وفي قراءة (السَّلَم) أي ألقى إليكم الاستسلام والانقياد، لا تقولوا له: لستَ من أهل الإيمان، وإنما قلتَ ذلك متعوِّذاً من القتل، تطلبون غنيمةَ ماله الذي هو حطامٌ سريع من حطام الدنيا الفانية.

وفي الحديث الشريف عن **أسامة بن زيد** قال: بعثَنا رسولُ الله ﷺ إلى الحُرقَة من جهينة، فصبَّحنا القوم فهزمناهم. قال: ولحقتُ أنا ورجلٌ من الأنصار رجلاً منهم فلمَّا غشيناه قال: لا إلـه إلا الله، فكفَّ عنه الأنصاريُّ، فطعنتُه برمحي حتى قتلتُه، فلمَّا قدمنا بلغ ذلك النبيَّ ﷺ، فقال لي: «ياأسامةُ أقتلته بعدما قال: لا إلـه إلا الله؟» قلت: يارسولَ الله إنَّما كان متعوِّذاً. قال: «قتلته بعدما قال: لا إلـه إلا الله؟» فمازال يكرِّرُها عليَّ حتى تمنَّيتُ أني لم أكن أسلمتُ قبلَ اليوم[1]، لأنَّ الإسلام يجبُّ ويمحو ما كان قبله.

﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ أي: عند الله غنائم كثيرة تغنيكم عن قتل أمثاله.

﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي كذلك كنتم عندما دخلتم في الإسلام، ونطقتم بلفظ الشهادة، فحصَّنتم بها أنفسكم وأموالكم قبل التأكد من صدق إيمانكم، فمنَّ الله عليكم بالهدايةِ وصدق الإيمان والثباتِ على الإسلام، فكأنَّ الآية تقول لهم: عاملوا من ينطق بكلمة الإسلام كما عوملتم.

---

(١) صحيح البخاري في الديات، رقم ٦٨٧٢.

﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤] أي: فلا تسرعوا إلى القتل وسفك الدماء، وكرَّرَ الأمرَ تأكيداً لتعظيمه وبياناً لخطورته، فإنَّه تعالى مطَّلعٌ على أعمالكم، وخفايا قلوبكم[١].

* * *

(١) انظر تفسير سورة النساء للمؤلف في موضوعات السور.

الفصل الثاني

غزوة بدر الكبرى

أهميتها:

هي أول الغزوات الكبرى وأهمُّها، حضرها النبيُّ ﷺ بنفسه، وأنزل الله فيها سورةً كاملة، هي سورة الأنفال.

خرج النبيُّ ﷺ من بيته في المدينة المنورة مع من خرج معه من أصحابه لكي يعترضَ قافلـةً لقريشٍ مقبلـةً من بلاد الشـام، وكان خروجُه عليه الصلاة والسلام بأمر الله تعالى ومشيئته، فهو خروجٌ مشروعٌ ملتبس بالحق، بيّنه سبحانه بقوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾ [الأنفال: ٥].

ودلَّ قوله تعالى هذا على أنَّ اعتراضَ القافلة للاستيلاء على ما تحمِلُ من أموال المشركين أمرٌ مشروع، فقد كانوا أعداءً للنبيِّ ﷺ، آذوه وعذبوا أصحابه، حتى اضطروهم إلى الهجرة إلى الحبشة أولاً، ثم إلى المدينة المنورة، واستولوا على بيوتهم وأموالهم، فمن حقِّ المسلمين أن ينتصروا لأنفسهم، وأن يستردوا بما يأخذون من القافلة بعضَ أموالهم وحقوقهم.

ومن حقهم أيضاً أن يعملوا على إضعاف عدوهم، وكسر شوكته بالاستيلاء على أموالهم، التي هي مصدر كبير من مصادر قوتهم وجبروتهم.

فالله سبحانه هو الذي أخرجَ النبيَّ ﷺ بما أوحى إليه، وندب ﷺ أصحابه إلى الخروج معه.

قال ابن إسحاق: لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندبَ المسلمين إليهم، وقال: «هذه عِيْرُ قريشٍ فيها أموالُهم، فاخرجوا إليها لعلّ الله يُنْفِلُكُمُوْهَا».

فانتدب الناس، فخفَّ بعضهم، وثقلَ بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أنَّ رسول الله ﷺ يلقى حرباً.

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسَّسُ الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان تخوّفاً من المسلمين، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أنَّ النبيَّ ﷺ قد استنفرَ أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، وبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى حماية أموالهم، ويخبرَهم أنَّ محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة(١).

ولم يكتفِ أبو سفيان بذلك، فقد أخذ بأسباب الحيطة، وغيّرَ الطريق التي كان يسلكها، فسلك طريقاً آخرَ قريباً من ساحل البحر، وتمكّنَ بذلك من النجاة. وأرسل إلى قريش الذين خرجوا مع أبي جهل يخبرهم بنجاة أموالهم، ويطلب منهم أن يرجعوا إلى مكة بعد أن سلمت أموالهم، ولكنّ أبا جهلٍ أصرَّ على المضي إلى بدر، وقال: والله لا نرجعُ حتى نردَ بدراً، فنقيمَ عليها ثلاثاً، فننحرَ الجزر ـ صغار الإبل ـ ونطعمَ الطعام، ونسقى الخمر، وتعزفَ علينا القيانُ ـ المغنيات ـ وتسمعْ بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها(٢).

العير أو النفير:

علم النبيُّ ﷺ بعد أن خرج من المدينة المنورة بما حدث، فأخبر أصحابه بأنَّ الله سبحانه وعده إحدى الطائفتين، إمّا الاستيلاء على القافلة وهي العير، أو الانتصار على النفير، وهو جيش المشركين، وأنزل سبحانه بذلك قوله الكريم: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧].

وفي الحديث عن عبد الله بن كعب قال: سمعتُ كعب بن مالك رضي الله عنه يقول: لم أتخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير

---

(١) انظر سيرة ابن هشام: ٢/ ١٨٢.
(٢) المصدر السابق نفسه.

أنّي تخلفتُ عن غزوة بدر، ولم يعاتَبْ أحدٌ تخلف عنها، إنّما خرجَ رسول الله ﷺ يريدُ عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد[1] وكان فريق من الصحابة كرهوا لقاء النفير، وتمنَّوْا الاستيلاءَ على العير، وجادلوا النبيَّ ﷺ في ذلك، وهم الذين قال تعالى فيهم: ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٦]، أي بعد أن أعلمهم الرسول ﷺ أنَّ الله وعدَهم إحدى الطائفتين العير أو النفير، وقد فاتتهم العير، فلا بد أن يظفروا بالنفير، وهكذا جمع الله تعالى بينهم وبين عدوهم في بدر على غير ميعاد، كما قال سبحانه: ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤٢]

الوصول إلى بدر:

وعندما وصل ﷺ إلى بدر قبل المشركين، نزل على أولِ ماءٍ فيه، فقال له الحبابُ بن المنذر رضي الله عنه: يا رسول الله! أرأيتَ هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدَّمَ ولا نتأخَّرَ عنه، أم هو الرأيُ والحربُ والمكيدةُ؟، قال: «بل هو الرأيُ والحربُ والمكيدةُ»، فقال: يا رسول الله هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماءٍ من القومِ فننزله، ثم نغوِّرُ ما وراءَه من القُلُبِ ـ الآبار ـ ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماءً، ثم نقاتِلُ القومَ، فنشربُ ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرتَ بالرأي».

فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم فنزل عليه، ثم أمر بالقلُبِ فغوِّرَتْ[2]، وهكذا تمكّنوا من الماءِ وسيطروا عليه.

ومن حكمته تعالى ولطفه بالمؤمنين أنه جعلهم ينامون مطمئنين ليلةَ المعركة، كأنّهم في بيوتهم وعلى فرُشهم لا في ميدان القتال قربَ عدوِّهم، إذ من

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٣٩٥١.
(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٩٢.

المعلوم أنَّ الخائف القلقَ لا يستطيعُ النوم، فلا يغمضُ له جفنٌ، ولا يهدأُ له قلبٌ، ولكنّ الصحابة رضي الله عنهم ناموا في ميدان القتال متوسّدين رمالَ بدر، مطمئنين آمنين، فكان نومُهم من نعم الله تعالى عليهم؛ ذكرهم به في قوله الكريم: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: ١١]، أي اذكروا فضله سبحانه عليكم عندما جعل النعاس يغلب عليكم، فنمتم آمنين مطمئنين بأمان الله تعالى وحفظه ورعايته.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما كان فينا فارسٌ يومَ بدرٍ غير المقداد، ولقد رأيتُنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ يصلِّي تحت شجرة، ويبكي حتى أصبحَ[1].

وأنزل الله عليهم المطرَ في تلك الليلة، فكان فيه عدد من الفوائد بيّنها سبحانه بقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١] أي ليطهركم به من الحدث الذي أصابهم في نومهم، ويبعد عنهم وساوسَ الشيطان ونزغاته، فكانت الأرضُ التي نزلوا بها أرضاً رملية غير متماسكة، تغوصُ فيها الأقدام، وقد استغلَّ الشيطانُ ذلك، وألقى في نفوسهمُ الوساوسَ، خوّفهم بها من عواقب النزول في هذه الأرض، فردَّ الله كيدَه بالمطر الذي أنزله عليهم، فثبت به رمال الأرض فتلبّدت، كما ثبت الله به قلوبهم فقوّاها.

الاستشارة والدعاء والإمداد بالملائكة:

استشار النبيُّ ﷺ أصحابه وهو في طريقه إلى بدر بعد أن علمَ بنجاة عير قريش، وخروجهم من مكة متوجهين إلى بدر.

ففي الحديث عن **عبد الله بن مسعود** قال: شهدتُ من المقداد بن الأسود مشهداً لئن أكون صاحبَه أحبَّ إلي مما عدل به: أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قومُ موسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا» ولكنّا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك. فرأيتُ النبيَّ ﷺ أشرقَ وجهُه

---

(١) تفسير ابن كثير.

وسَرَّه. يعني قوله[١].

وقوله «وهو يدعو على المشركين» زاد النسائي في روايته: جاء المقداد على فرس يوم بدر فقال: والذي بعثك بالحق لو سلكتَ بنا برك الغماد لجاهدنا معك من دونه.

ثم قال ﷺ: «أشيروا علي» فعرفوا أنّه يريد الأنصار، وكان يتخوَّفُ أن لا يوافقوه، لأنهم لم يبايعوه إلاّ على نصرته ممن يقصده، لا أن يسير بهم إلى العدو. فقال له سعد بن معاذ: امضِ يا رسولَ الله لما أُمرتَ به، فنحنُ معك. فسرّه قولُه ونشَّطَه.

وعند ابن أبي شيبة من مرسل علقمة بن وقاص في نحو قصة المقداد. فقال سعد بن معاذ: لئن سرتَ حتى تأتي برك الغماد من ذي يمنٍ لنسيرنَّ معك، ولا نكونُ كالذين قالوا لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إن ههنا قاعدون» ولعلّك خرجتَ لأمرٍ فأحدثَ الله غيره، فامض لما شئتَ، وصل حبال من شئتَ، واقطع حبالَ من شئتَ، وسالمْ من شئتَ، وعادِ من شئتَ، وخذْ من أموالنا ما شئتَ[٢].

وعن أنس أنَّ رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبالُ أبي سفيان، قال: فتكلّمَ أبو بكر فأعرضَ عنه، ثم تكلَّمَ عمرُ فأعرضَ عنه، فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريدُ يا رسول الله؟ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا[٣].

قال: فندب رسولُ الله ﷺ الناس فانطلقوا حتى نزلوا بدراً، ووردت عليهم روايا قريش، وفيهم غلامٌ أسود لبني الحَجَّاج، فأخذوه، فكان أصحابُ رسول الله ﷺ يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه؟ فيقولُ: ما لي علمٌ بأبي سفيان، ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف. فإذا قال ذلك ضربوه، فقال: نعم أنا أخبرُكم هذا أبو سفيان، فإذا تركوه فسألوه فقال: ما لي بأبي سفيان علمٌ،

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٣٩٥٢.
(٢) فتح الباري: ٧/ ٢٨٨.
(٣) وهو موضع من وراء مكة لخمس ليال بناحية الساحل، وقيل هو موضع بأقاصي هجر.

ولكنْ هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف في الناس. فإذا قال هذا أيضاً ضربوه، ورسول الله ﷺ قائم يصلي. فلمّا رأى ذلك انصرف وقال: «والذي نفسي بيده لتضربوه إذا صدقَكم، وتتركوه إذا كذبكم». قال: فقال رسول الله ﷺ «هذا مصرعُ فلانٍ» قال: ويضعُ يدَه على الأرض هاهنا وهاهنا، قال: فما ماطَ أحدُهم - أي تباعد - عن موضعِ يدِ رسول الله ﷺ[1].

وعن **عبد الله بن عباس**: حدّثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يومُ بدر نظر رسولُ الله ﷺ إلى المشركين وهم ألفٌ، وأصحابُه ثلاثمئة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبلَ نبيُّ الله ﷺ القبلةَ، ثم مدَّ يده، فجعل يهتفُ بربه: «اللهمَّ أنجزْ لي ما وعدتني، اللهمَّ آتني ما وعدتني، اللهمَّ إن تهلكْ هذه العصابةُ من أهلِ الإسلامِ لا تعبدُ في الأرض» فما زال يهتفُ بربه مادّاً يديه، مستقبلَ القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه. فأتاه أبو بكر، فأخذَ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبيَّ الله كفاك مناشدتك ربك، فإنَّه سينجزُ لك ما وعدك. فأنزل الله عزَّ وجلّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، فأمده الله بالملائكة[2].

ويبوّبَ البخاري في (صحيحه) باباً قال فيه: بابُ شهودِ الملائكة بدراً. ثم روى بسندِه عن رُفاعة بن رافع الزُّرقي عن أبيه، وكان أبوه من أهل بدر، قال: جاء جبريل إلى النبيِّ ﷺ فقال: ما تعدون أهلَ بدر فيكم؟، قالوا: مِنْ أفضلِ المسلمين (أو كلمة نحوها)؟، قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة.

وعن **ابن عباس** رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريلُ آخذٌ برأسِ فرسِه عليه أداةُ الحربِ»[3].

المعركة:

وفي صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان المبارك من السنة

(١) صحيح مسلم في الجهاد، رقم ١٧٧٩.
(٢) انظر الحديث كاملاً في صحيح مسلم، رقم ١٧٦٣.
(٣) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٣٩٩٢-٢٩٩٥.

الثانية للهجرة حدثت المعركة، وبدأ القتال بالمبارزة، وخرجَ من صفوف المشركين (الأسود بن عبد الأسد المخزومي) وقصد إلى حوض المسلمين ليشربَ منه ويهدمَه، فتصدّى له حمزةُ رضي الله عنه فقتله داخل الحوض.

ثم خرج من المشركين (عتبة بن ربيعة) بين أخيه (شيبة) وابنه (الوليد) فدعوا إلى المبارزة، فخرجَ لهم ثلاثة من الأنصار، فأنفوا عن مبارزتهم، ونادى مناديهم: يا محمد! أَخرجْ لنا أكفاءَنا من قومنا.

فأخرج لهم رسول الله ﷺ ثلاثةً من بني هاشم: (عبيدة بن الحارث بن المطلب) و(حمزة) و(علي) رضي الله عنهم، فقُتل المشركون الثلاثة، وجُرحَ عُبيدة، وحمل إلى رسول الله ﷺ وماتَ رضي الله عنه بعد ذلك بجوار النبي ﷺ.

وبدأ القتال بهجوم شنّه المشركون، وأمر النبيُّ ﷺ أصحابه أن يثبتوا لهجوم المشركين، وأن يردوهم بالنبال، وقال: «إن اكتنفكم القومُ فانضحوهم بالنبل».

ثم خرجَ عليه الصلاة والسلام إلى الميدان بنفسِه، فأخذَ حفنةً من تراب الأرض، ورماها في وجوه المشركين وقال: «شاهتِ الوجوهُ»[1] أكد ذلك قولُه تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٧ ـ ١٨].

وفي الحديث الشريف عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة.

وقال قيس بن عباد وفيهم أنزلت: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ﴾ [الحج: ١٩]، قال: هم الذين تبارزوا يومَ بدرٍ: حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة[2].

---

(١) رواه الطبراني وإسناده حسن كما في مجمع الزوائد.

(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٣٩٦٥.

وأخرج أبو داود من طريق حارثة بن مضرب عن علي قال: تقدّم عتبةُ وتبعه ابنه وأخوه، فانتدبَ له شباب من الأنصار، فقال: لا حاجةَ لنا فيكم، إنما أردنا بني عمنا.

فقال رسول الله ﷺ: «قم يا حمزة، قم يا علي، قم يا عبيدة» فأقبل حمزةُ إلى عتبة، وأقبلتُ إلى شيبة، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان، فأثخنَ كلُّ واحدٍ منهما صاحبه، ثم ملنا على الوليد فقتلناه، واحتملنا عبيدة. وهذا أصح الروايات(١).

وبدأ القتال بهجوم المشركين، وأمرَهم النبيُّ عليه الصلاة والسلام أن يصدّوهم بالنبل، ففي الحديث عن أبي أسيد رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم بدر «إذا أكثبوهم ـ أي قربوا منكم ـ فارموهم، واستبقوا نبلكم»(٢) ثم أمر ﷺ أصحابه أن يشدوا على المشركين، ويهجموا عليهم، وقال مُحَرِّضاً لهم: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليومَ رجلٌ فيُقتَلُ صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة».

وقال عمير بن الحمام من فتيان الأنصار، وفي يده تمراتٌ يأكلهنَّ: بخٍ بخٍ أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟! ثم قذفَ التمراتِ من يدِه، وأخذ سيفاً، وقاتل القومَ حتى قُتِلَ(٣).

وفي (صحيح مسلم) أنه ﷺ قال: «قوموا إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض» فسمعه عمير بن الحمام... الحديث.

ونجح هجوم الفئة القليلة الصابرة، وفرّ المشركون، وقد ملأ الرعبُ قلوبَهم بعد أن خلّفوا وراءَهم سبعين قتيلاً وسبعين أسيراً، وأنزل الله في ذلك قوله الكريم: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣].

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٢٩٨.
(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٣٩٨٤.
(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٩٦.

وقد يتساءلُ بعضُهم ـ كما ذكر ابن كثير في تفسيره للآية ـ ما الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى في قصة بدر: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الأنفال: ٤٤].

فالجواب: أنّ هذا كان في حالة، والآخر كان في حالة أخرى، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ﴾ [آل عمران: ١٣]، قال: هذا يوم بدر، وقد نظرنا إلى المشركين، فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً.

وقد أكد البراء بن عازب رضي الله عنه مقتل سبعين من المشركين وأسر سبعين، فقال في حديثه في غزوة أحد: جعل النبيُّ ﷺ على الرماة يوم أُحدٍ عبد الله بن جبير، فأصابوا منا سبعين، وكان النبيُّ ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدرٍ أربعين ومئة: سبعين أسيراً، وسبعين قتيلاً. قال أبو سفيان: يومٌ بيومِ بدرٍ، والحربُ سجالٌ[1].

فضل من شهد بدراً:

أثبتت الأحاديث النبوية الصحيحة منقبةً عظيمةً لمن شهد غزوةَ بدرٍ مع النبيِّ ﷺ من المسلمين، ففي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: أُصيبَ حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أُمه إلى النبيِّ ﷺ فقالت: يا رسول الله قد عرفتَ منزلةَ حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى تر ما أصنع. فقال: «ويحك ـ أو هبلت ـ أو جنة واحدة هي؟ إنَّها جنانٌ كثيرة، وإنَّه في جنة الفردوس».

وعن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثد والزبير، وكلُّنا فارس، قال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[2] فإنَّ بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين». فأدركناها تسيرُ على بعيرٍ لها حيث

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٣٩٨٦.

(٢) اسم موضع قريب من المدينة على الطريق إلى مكة.

قال رسول الله ﷺ، فقلنا: الكتاب، فقالت: ما معنا كتاب، فأنخناها، فالتمسنا فلم نرَ كتاباً، فقلنا: ما كذبَ رسولُ الله ﷺ، لتخرجِنَّ الكتابَ أو لنجردنَّكِ. فلما رأتِ الجدَّ، أهوت إلى حجزتها، وهي محتجزةٌ بكساء، فأخرجتْه.

فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ فقال عمر: يا رسول الله قد خانَ الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه، فقال النبيُّ ﷺ: «ما حملك على ما صنعتَ؟»

قال حاطب: والله ما بي أنْ لا أكونَ مؤمناً بالله ورسوله ﷺ، أردتُ أن تكونَ لي عند القوم يدٌ يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحدٌ من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفعُ الله به عن أهله وماله، فقال النبيُّ ﷺ: «صدق ولا تقولوا له إلا خيراً»، فقال عمر: إنّه قد خان الله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه، فقال: «أليسَ من أهل بدر؟» فقال: «لعلَّ اللهَ اطلعَ على أهلِ بدرٍ فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبتْ لكمُ الجنةَ»، أو «فقد عفوتُ» أو «فقد غفرتُ لكم» فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم(١).

قال ابن حجر رحمه الله: وهي بشارةٌ عظيمة لم تقع لغيرهم.. وإنّهم خصوا بذلك لما حصل لهم من الحال العظيمة التي اقتضت محو ذنوبهم السابقة، وتأهلوا لأن يغفر الله لهم الذنوب اللاحقة إن وقعت، أي كل ما عملتموه بعد هذه الواقعة من أي عمل كان فهو مغفور لكم، وقيل: إنّ المراد ذنوبهم تقع إذا وقعت مغفورة، وقيل: هي بشارة بعدم وقوع الذنوب منهم.

واتفقوا على أنَّ البشارة المذكورة فيما يتعلّق بأحكام الآخرة لا بأحكام الدنيا من إقامة الحدود وغيرها. والله أعلم(٢).

قتلُ أبي جهل:

وأقرَّ اللهُ عينَ النبيِّ ﷺ والمسلمين بقتل أبي جهل ببدر، وهو من رؤوس المشركين المستهزئين كما مرّ معنا، قتله فَتَيان من الأنصار، ففي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ: «مَنْ ينظر ما صنع أبو جهل؟».

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٣٩٨٢-٣٩٨٣.
(٢) انظر فتح الباري: ٧/ ٣٠٦.

فانطلق ابن مسعود، فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد، قال: أأنت أبو جهل؟ قال: فأخذ بلحيته فقال: وهل فوقَ رجلٍ قتله قومه أو قال: قتلتموه[١].

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: إنِّي لفي الصف يوم بدر إذ التفتُّ، فإذا عن يميني وعن يساري فتَيان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدُهما سِرّاً من صاحبه: يا عم! أرني أبا جهل.

فقلت: يا ابن أخي وما تصنعُ به؟.

قال: عاهدتُ الله إن رأيتُه أن أقتلَه، أو أموتَ دونه.

فقال لي الآخر سِرّاً من صاحبه مثله.

قال: فما سَرَّني أني بين رجلين مكانهما، فأشرتُ لهما إليه، فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه، وهما ابنا عفراء[٢].

قتل أمية بن خلف:

وهو أيضاً من رؤوس المشركين المستهزئين، وكان بلالُ رضي الله عنه عبداً مملوكاً لأمية، فلمّا أسلمَ بلالٌ عذّبه أميةُ عذاباً شديداً، فصبر رضي الله عنه حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه.

وفي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان عمر يقول: أبو بكر سيدُنا وأعتق سيدَنا يعني بلالاً.

ولما أراد أبو بكر في خلافته استبقاء بلال في المدينة قال له بلال: إن كنتَ إنما اشتريتني لنفسك فأمسكني، وإن كنتَ إنّما اشتريتني لله، فدعني وعمل الله، وتوجه إلى الشام، ومات بها مجاهداً في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة[٣].

ويبدو أنَّ أمية ما كان يريد الخروج إلى بدر، ففي الحديث عن سعد بن

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٣٩٦٢.
(٢) المصدر السابق، رقم ٣٩٨٨.
(٣) صحيح البخاري في فضائل الصحابة، ٣٧٥٤ـ٣٧٥٥.

معاذ أنه كان صديقاً لأمية بن خلف، وكان أمية إذا مرَّ بالمدينة نزل على سعد، وكان سعدٌ إذا مرَّ بمكة نزل على أمية، فلمّا قدم رسول الله ﷺ المدينةَ انطلق سعدٌ معتمراً، فنزل على أمية بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوةٍ لعلّي أن أطوفَ بالبيت، فخرجَ به قريباً من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد آويتم الصبأة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعتَ إلى أهلك سالماً. فقال له سعد، ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنّك ما هو أشد عليك منه طريقك على المدينة، فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم سيد أهل الوادي، فقال سعد: دعنا عنك يا أمية، فوالله لقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: إنّهم قاتلوك. قال: بمكة، قال: لا أدري.

ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً، فلما رجع أميةُ إلى أهله قال: يا أُمَّ صفوان ألم تري ما قال لي سعد؟، قالت: وما قال لك؟، قال: زعم أنَّ محمّداً أخبرهم أنهم قاتلي، فقالت له: بمكة؟، قال: لا أدري، فقال أمية: والله لا أخرجُ من مكة.

فلما كان يوم بدر استنفر أبو جهل الناس قال: أدركوا عيركم، فكره أميةُ أن يخرجَ، فأتاه أبو جهل فقال: يا أبا صفوان إنك متى ما يراك الناس قد تخلّفتَ وأنتَ سيّدُ أهل الوادي تخلّفوا معك. فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذ غلبتني فوالله لأشترينَّ أجودَ بعيرٍ بمكة.

ثم قال أميةُ: يا أم صفوان جهزيني، فقالت له: يا أبا صفوان وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟، قال: لا ما أريد أن أجوزَ معهم إلا قريباً.

فلما خرجَ أمية أخذ لا يترك منزلاً إلا عقل بعيره، فلم يزل بذلك حتى قتله الله عزّ وجلّ ببدر(١).

ويبدو أنَّ أمية بن خلف وقع في الأسر، وأنَّ بلالاً رضي الله عنه حرّضَ

---

(١) صحيح البخاري، رقم ٣٩٥٠.

المسلمين على قتله، ثم قتله بنفسه، فعن عبد الرحمن بن عوف قال: كاتبتُ أمية بن خلف، فلما كان يوم بدر، فذكر قتله وقتل ابنه، فقال بلالُ: لا نجوتُ إن نجا أمية[1]، وأدى قتله إلى حرمان عبد الرحمن بن عوف من فديته المالية التي وعده بها أميةُ بن خلف إن أطلق عبدُ الرحمن سراحه، وهو ما كاتبه عليه.

وأقام ﷺ في بدر بعد المعركة ثلاثة أيامٍ، ثم رجع إلى المدينة المنورة، وقبل أن يتركها توجّه ﷺ إلى البئر الذي ألقيت فيه جثث كبار المشركين من قتلى بدر، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم مذكِّراً إياهم بما أنعمَ الله عليه، ففي الحديث الشريف عن **أنس بن مالك** أنَّ نبيَّ الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقذفوا في طوي من أطواء بدر خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاثة ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته يشد عليها رحلها، ثم مشى واتبعه أصحابه وقالوا: ما نراه انطلق إلا لبعض حاجته، حتى أقام على شفة الركي ـ البئر ـ فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان أيسرُّكم أنكم أطعتم الله ورسوله فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟، قال: فقال عمر: يا رسول الله ما تكلِّمُ من أجسادٍ لا أرواحَ لها؟، فقال رسـول الله ﷺ: «والذي نفسُ محمّدٍ بيدِهِ ما أنتمْ بأسمع لما أقولُ منهم».

قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ونقمةً وحسرةً وندماً[2].

ولا يتعارض قولُه عليه الصلاة والسلام هذا مع قول الله تعالى في الآية الكريمة: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]، إذ المرادُ: أن الله يسمِعُ دعوتك مَنْ يشاء سماعَ إجابةٍ، فينتفع بما يسمع ويستجيب لها، وما أنت بمسمع سماع إجابة الأمواتَ في القبور، كما في قوله تعالى أيضاً: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [الروم: ٥٢].

---

(١) صحيح البخاري، رقم ٣٧٥٤ـ٣٧٥٥.
(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٣٩٧٦.

وقد حملت السيدة عائشة الآية الكريمة ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]، على حال دخولهم النار، فقد روي عنها: أنّ رسول الله ﷺ قام على القليب وفيه قتلى بدر من المشركين، فقال لهم، ما قال: إنهم ليسمعون ما أقولُ، إنما قال: إنهم الآن يعلمون أنَّ ما كنتُ أقول لهم حق. ثم قرأت: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠]، تقول: حين تبوءوا مقاعدهم من النار[1].

إحلال الغنائم:

أحلَّ الله تعالى الغنائم للنبيِّ ﷺ والمسلمين، فقال: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٩].

وقال أيضاً: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠].

وإحلالُ الغنائم من الخصائص التي خَصَّ الله بها النبيَّ ﷺ ففي الحديث الشريف عن **جابر بن عبد الله الأنصاري** قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيتُ خمساً لم يعطهنَّ أحدٌ قبلي: كان كلُّ نبيٍّ يُبْعَثُ إلى قومه خاصةً، وبعثتُ إلى كلِّ أحمرَ وأسودَ، وأُحِلَّتْ ليَ الغنائمُ ولم تحل لأحدٍ قبلي، وجُعِلَت الأرضُ طيبةً طهوراً ومسجداً، فأيّما رجلٍ أدركته الصلاةُ صلّى حيثُ كان، ونُصِرْتُ بالرعبِ بين يدي مسيرة شهر، وأعطيتُ الشفاعةَ»[2].

وكان أتباع الأنبياء السابقين إذا غنموا الغنائمَ جمعوها، فتأتي نارٌ فتأكلها، ففي الحديث عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «غزا نبيٌّ من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجلٌ ملك بضعَ امرأةٍ وهو يريدُ أن يبنيَ بها ولما يبنِ بها، ولا أحدٌ بنى بيوتاً ولم يرفع سقوفها، ولا آخرُ اشترى غنماً أو خَلِفَاتٍ وهو ينتظر ولادها، فغزا، فدنا من القرية صلاةَ العصر أو قريباً من ذلك، فقال للشمسِ:

---

(١) صحيح البخاري، رقم ٣٩٧٩.

(٢) صحيح مسلم في المساجد، رقم ٥٢١.

إنَّك مأمورةٌ وأنا مأمور، اللهمَّ احبسها علينا، فحُبِسَتْ حتى فتحَ الله عليهم، فجمع الغنائم فجاءت ـ يعني النار ـ لتأكلها فلم تطعمها، فقال: إنَّ فيكم غلولاً، فليبايعني مِنْ كل قبيلة رجل، فلزقت يدُ رجلٍ بيده، فقال: فيكم الغلول، فلتبايعني قبيلتك، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده، فقال: فيك الغلول، فجاؤوا برأس بقرة من الذهب فوضعوها، فجاءت النار فأكلتها. ثم أحلَّ الله لنا الغنائم، رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا»[1].

قسمة الغنيمة والفيء:

أنزل الله بعد غزوة بدر بيانَ كيفيّة قسمة الغنيمة، فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

فالغنيمةُ تخمَّسُ وتوزَّعُ، أربعةُ أخماسٍ منها على المجاهدين الغانمين، ويوزَّعُ الخمسُ الباقي على المصارف الخمسة المذكورة في هذه الآية.

وذِكْرُ الله تعالى في أول المصارف الخمسة للتعظيم، **فسهمٌ للرسول ﷺ في حياته**، ويصرف بعدَه في مصارف المسلمين، أو يرد على المصارف الأربعة لما سيأتي معنا من قوله عليه الصلاة والسلام: «لا نُوْرَثُ ما تركناه صدقة».

وسـهمٌ لذي القربى، وهم قرابتُه ﷺ من بني هاشم وبني المطلب بسبب نُصرتهم النبيَّ ﷺ.

والأسهمُ الثلاثةُ الباقيةُ تعطى لليتامى والمساكين وأبناء السبيل المنقطعين في الطريق، أي تعطى للضعفاء في المجتمع، إقامةً للتكافل والتعاون بين أبناء المجتمع المسلم، وقد يكون النصرُ الذي تحقق ببركة دعائهم، قال ﷺ: «أبغوني الضعفاءَ فإنَّما ترزقون وتُنْصَرونَ بضعفائكم»[2]، وفي (صحيح البخاري): «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم».

---

(١) صحيح البخاري في كتاب الخمس، رقم ٣١٢٤.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي.

وأما الفيء: وهو ما يسرَّ الله للمسلمين من أموال الكافرين من غير قتالٍ وقَهرٍ، كأموال بني النضير التي نزلوا عنها بسبب الخوف والرعب الذي ألقاه الله تعالى في قلوبهم، فقد بين الله قسمته في قوله: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الحشر: ٦ ـ ٧].

فداء ووفاء:

استشار النبيُّ ﷺ أصحابه في شأن الأسرى فقال: «ما ترون في هؤلاء الأسرى؟».

فقال أبو بكر: يا نبيَّ اللهِ هم بنو العمّ والعشيرة، أرى أن تأخذَ منهم فديةً فتكون لنا قوةً على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابنَ الخطاب؟».

قال: لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكنّي أرى أن تمكننا فنضربَ أعناقهم، فتمكنَ علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان ـ نسيباً لعمر ـ فأضربَ عنقه، فإنَّ هؤلاء أئمة الكفر وصناديدُها.

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قال عمر.

قال عمر: فلما كان من الغد جئتُ فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، فقلت: يا رسول الله أخبرني من أيِّ شيءٍ تبكي أنتَ وصاحبُك؟ فإن وجدتُ بكاءً بكيتُ، وإن لم أجد بكاءً تباكيتُ لبكائما.

فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرضَ علي أصحابُك من أخذهمُ الفداءَ، لقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة» وأنزل الله عزَّ وجلّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الأنفال: ٦٧]، أي حتى يبالِغَ في قتل العدو، فيؤدي ذلك إلى ضعف قوة الكفر، ورجحان قوة الإسلام في الأرض.

ولهذا لما قوي المسلمون، واشتدَّ سلطانهم، أنزل الله عليهم قوله الكريم: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

وبأسلوب رفيع يظهرُ سموَّ الدعوة الإسلامية وأخلاقها الكريمة وإنسانيتها الرفيعة، توجهت الآيات تخاطب النبيَّ ﷺ تأمرُه أن يدعوَ الأسرى إلى الإيمان بالله تعالى، والدخول بالإسلام، فالدعوة إلى الله تعالى لا ينبغي أن تتوقف في جميع الأحوال ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ أي: نية طيبة صالحة وعزماً على الإيمان ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من المال الذي فدوا به أنفسهم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠].

وبعد أن استشار النبيُّ ﷺ أصحابه في شأن الأسرى، قال لهم: «أنتم عالةٌ فلا ينفكنَّ أحدٌ إلا بفداءٍ أو ضربةِ عُنُق»[(١)].

وأصرَّ عليه الصلاة والسلام أن يأخذ الفدية من جميع الأسرى، حتى من عَمِّه العباس ومن أبي العاص بن الربيع زوجِ ابنته السيدة زينب رضي الله عنهم أجمعين.

ففي (صحيح البخاري) عن أنس بن مالك أنَّ رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه، فقال: «لا تدعون منه درهماً».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما بعثَ أهلُ مكة في فداءِ أسراهم بعثت زينبُ في فداءِ زوجها أبي العاص بن الربيع بمالٍ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة رضي الله عنها، أدخلتها بها على أبي العاص، فلمّا رآها رسولُ الله ﷺ رقَّ لها رِقّة شديدة، ثم قال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا لها الذي عليها» فقالوا: نعم، وكان ﷺ أخذ عليه أو وعده أن يخلّي سبيلَ زينب إليه[(٢)].

وأقامت زينبُ عند رسول الله ﷺ بالمدينة بعد أن فرّقَ الإسلام بينها وبين

---

(١) رواه أحمد والترمذي والحاكم.
(٢) رواه أبو داود.

زوجها، وقُبيلَ الفتح خرجَ أبو العاص تاجراً إلى الشام بأموالٍ لرجال من قريش، فلمّا أقبلَ قافلاً لقيته سرية لرسول الله ﷺ، فأصابوا ما معه، وأعجزهم هارباً حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ، فاستجارَ بها فأجارته، وصرخت من صُفّةِ النساء: أيها الناس إنّي قد أجرتُ أبا العاص بن الربيع. فلمّا سلّمَ رسولُ الله ﷺ من الصلاةِ قال: «أيها الناس هل سمعتم ما سمعتُ، والذي نفسُ محمّدٍ بيده ما علمتُ بشيءٍ من ذلك حتى سمعتُ ما سمعتُ، إنّه يجيرُ على المسلمين أدناهم».

ثم دخل على ابنته فقال: «أي بنية أكرمي مثواه، ولا يخلصنَّ إليك، فإنّك لا تحلينَ له».

وأرسل ﷺ إلى السرية الذين أصابوا مال أبي العاص فقال لهم: «إنَّ هذا الرجل منا حيثُ قد علمتم، أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا فتردوا عليه الذي له فإنا نحبُّ ذلك، وإن أبيتم فهو فيءُ اللهِ الذي أفاء عليكم فأنتم أحق به» فردوه عليه، فاحتمله إلى مكة، فأدّاه إلى أصحابه ثم قال: يا معشر قريش هل بقيَ لأحدٍ منكم عندي مال؟ قالوا: لا فجزاك الله خيراً، قال: فأنا أشهدُ أن لا إلـه إلا الله وأنَّ محمّداً عبدُه ورسولُه، ثم خرج إلى المدينة مهاجراً، فردَّ عليه رسول الله ﷺ زينب على النكاح الأول[1].

وكان رسول الله ﷺ يثني على أبي العاص بن الربيع، ففي الحديث عن علي بن الحسين عن مسور: سمعتُ النبيَّ ﷺ وذكر صهراً له من بني عبد شمس فأثنى عليه في مصاهرته فأحسن، قال: «حدثني وصدقني، ووعدني فوفى لي»[2].

الزواج الميمون:

كان يوم بدر من أيام الإسلام الكبرى، إذ مكّنَ الله النبيَّ ﷺ من رؤوس المشركين من قريش فقتل من قتل منهم، وأسر من أسر، وفرح النبيُّ ﷺ بهذا النصر المؤزر، وعمّتِ الفرحة والحبور جميع المسلمين، فكانت الأيام التي أعقبت يوم

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢١٩.

(٢) انظر الحديث كاملاً في صحيح البخاري في الفضائل، رقم ٣٧٢٩.

بدر أيام الفرح والسرور، ووجد ﷺ في تلك الأيام وقتاً مناسباً للبناء بأحبِّ أزواجه السيدة عائشة رضي الله عنها، فبنى بها في شهر شوال بعد رمضان من السنة الثانية، وانتقلتِ السيدةُ عائشة رضي الله عنها إلى بيت النبوة ومهبط الوحي.

وكان هذا الانتقال أعظم الأحداث في حياة السيدة رضي الله عنها، ومن أجله أحبت السيدة شهرَ شوال، ففيه أغلى الذكريات وأعزها على قلبها، وكانت تذكرُها وتقول: تزوّجني رسول الله ﷺ في شوال، وبنى بي في شوال، فأيُّ نساءِ رسول الله ﷺ كانت أحظى عنده مني.

وكانت **عائشة** ـ كما في (صحيح مسلم) ـ تستحب أن تدخل نساءها في شوال.

وظلَّ يومُ زفافها في قلبها لا يبرح عنه أبداً، إذ هو أسعدُ أيام حياتها، فلم تنسَ رضي الله عنها منه شيئاً، حتى أنفاسها المتلاحقة، وهي على باب الحجرة الشريفة ظلّت تذكرُها وتقول: تزوّجني رسول الله ﷺ لست سنين، وبنى بي وأنا بنتُ تسع سنين، فقدمنا المدينةَ فوُعِكْتُ شهراً، فوفى شعري جميمة، فأتتني أم رومان وأنا على أرجوحة، ومعي صواحبي، فصرخت بي فأتيتُها، وما أدري ما تريدُ، فأخذت بيدي، فأوقفتني على الباب، فقلت: هه هه حتى ذهبَ نفسي، فأدخلتني بيتاً فإذا نسوةٌ من الأنصار، فقلنَ: على الخيرِ والبركةِ وعلى خيرِ طائرٍ. فأسلمتني إليهنَّ، فغلسنَ رأسي وأصلحنني، فلم يرعني إلا رسولُ الله ﷺ ضحًى فأَسْلَمْنَنِي إليه(١).

وقولها: (فوفى شعري جميمة) أي: قلّ شعرها وتساقط بسبب المرض.

ووصفتْ رضي الله عنها وليمةَ عُرْسِها فقالت: لا والله ما نحرتْ عليَّ من جزورٍ ولا ذبحتْ من شاةٍ، ولكنْ جفنة كان يبعثُ بها سعد بن عبادة إلى رسول الله ﷺ يجعلها إذ ذاك بين نسائه، فقد علمتُ أنّه بعث بها، وقدّم النبيُّ ﷺ إلى ضيوفه اللبنَ مع الطعام.

---

(١) رواه ابن ماجه.

قالت أسماءُ بنت يزيد الأنصارية: كُنّا فيمن جهزَ عائشة وزفَّها، قالت: عرض علينا النبيُّ ﷺ لبناً، فقلنا: لا نريدُه، فقال النبيُّ ﷺ: «لا تجمعنَ جوعاً وكذباً».

وزادت في حديث آخر: إنِّي قينت ـ أي زيّـنْتُ ـ عائشةَ لرسول الله ﷺ، ثم جئتُ فدعوتُه لجلوتها، فجاء فجلس إلى جنبها، فأتى بعس لبن فشرب، ثم ناولها النبيُّ ﷺ، فخفضت رأسَها واستحيتْ، قالت أسماء: فانتهرتُها، وقلتُ لها: خذي من يدِ النبيِّ ﷺ، قالت: فأخذتْ فشربتْ شيئاً، ثم قال لها النبي ﷺ: «أعطي تربَكِ»[1]، أي: صديقاتك.

والمهر حقٌّ شرعيٌّ في الإسلام للمرأة، ألزم الله سبحانه الزوج أن يقدمه لزوجته تعبيراً عن تقديره لها في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤]، وقد قدَّم النبيُّ ﷺ للسيدة مهراً مقداره خمسمئة درهم، صرّحت بذلك السيدة نفسها عندما سألها أبو سلمة بن عبد الرحمن: كم كان صداقُ رسول الله ﷺ؟، قالت: كان صداقُه لأزواجه ثنتي عشرة أوقية ونشاً، قالت: أتدري ما النش؟، قال: قلت: لا، قالت: نصف أوقية، فتلك خمسمئة درهم، فهذا صداقُ رسول الله ﷺ لأزواجه[2].

* * *

---

(١) رواه أحمد في المسند.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، انظر كتاب السيدة عائشة أم المؤمنين وعالمة نساء الإسلام للمؤلف، طبع دار القلم في سلسلتها (أعلام المسلمين)، رقم ١٢، ص(٣١).

الفَصل الثالث

غزوة أحد

أسبابها:

أرادت قريشٌ أن تثأر لمصابها في بدر، فحشدت جيشاً كبيراً، ورصدت له كل أموالِ القافلة التي كانت مع أبي سفيان، والتي خرجَ النبيُّ ﷺ من المدينة لمصادرتها كما مرَّ معنا، فخرجت في جيشٍ عدده ثلاثة آلاف، يقودهم أبو سفيان ابن حرب، ومعهم مئة فارس يقودهم خالد بن الوليد، ونزلوا في بطن الوادي قربَ جبل أُحد.

ولمّا سمعَ النبيُّ ﷺ بخروجهم استشارَ أصحابه، فأشار أكثرُهم بالخروج إليهم، فلمّا صلى الجمعة، ولبس لباس الحرب، وأذَّنَ في الناس للخروج، خرجَ بهم وهم ألف رجل.

وفي الطريق رجع رأسُ المنافقين عبد الله بن أُبي في ثلاثمئة، وبقي ﷺ في سبعمئة من أصحابه.

ففي الحديث عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: لمّا خرجَ النبيُّ ﷺ إلى غزوة أحد: رجع ناسٌ ممّن خرجَ معه، وكان أصحابُ النبيِّ ﷺ فرقتين: فرقة تقولُ نقاتلهم، وفرقة تقول لا نقاتلهم، فنزلت: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨]، وقال ﷺ: «إنّها طيبة تنفي الذنوبَ كما تنفي النارُ خبثَ الفضة»(١).

وقوله: «رجع ناس ممن خرج معه» يعني عبد الله بن أُبيٍّ وأصحابه، وقد

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٠٥٠.

ورد ذلك صريحاً في رواية موسى بن عقبة في (المغازي) وأنَّ عبد الله بن أبي كان وافق رأيُه رأيَ النبيِّ ﷺ على الإقامة بالمدينة، فلمّا أشار غيرُه في الخروج وأجابهم النبيُّ ﷺ فخرج، قال عبد الله بن أبي لأصحابه: أطاعهم وعصاني، علامَ نقتلُ أنفسنا، فرجعَ بثلث الناس. قال ابن إسحاق في روايته: فاتبعهم عبد الله بن عمرو ابن حرام، وهو والدُ جابر، وكان خزرجياً كعبد الله بن أُبي، فناشدهم أن يرجعوا فأبوا فقال: أبعدكم الله[1].

الطريق إلى أُحد:

كانت تصرّفات النبيِّ ﷺ في أحد أفضلَ ما ينبغي أن تكون عليه تصرّفات القائد العسكري، ولهذا لم تتوجه الآيات بأيِّ عتابٍ للنبيِّ ﷺ عن المصاب في أُحـد، فلم تحمِّله أيَّ مسـؤولية عما حصل، بل أبرزت مواقفه ﷺ في أُحد في الوقت الذي وجهت اللوم والعتاب إلى أصحابه.

وشرعت الآيات في مستهل حديثها عن غزوة أُحد تبيّنُ ما فعله ﷺ قبل بدءِ المعركة، فقد قام بتنظيم جنوده، وتوزيعهم في المواقع التي تتناسب مع طبيعة ميدان المعركة، وطبيعة القتال والأسلحة في ذلك الوقت، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٢١]، أي اذكـر إذا خرجتَ غـدوةً من أهلك من المدينة المنورة (كان ﷺ في حجرة السيدة عائشة رضي الله عنها) إلى أُحد وأنتَ تنزل المؤمنين في أماكن القتال، وتعيِّنُ لكلٍّ منهم مكانَه في الميدان، فجعل ﷺ ظهر جيشه إلى جبل أُحد، وتعبّأَ ﷺ، ومشى على رجليه في أرض المعركة، وجعل يصفُّ أصحابَه، وأَمَّرَ على الرماة عبدَ الله بنَ جُبير وقال: «انضح الخيلَ عنّا، لا يأتونَ من خلفنا، إنْ كان علينا أو لنا، فاثبت مكانَك، لا نُؤْتيَنَّ من قِبَلِكَ».

ثم وصفت الآيات ما حدث في الطريق إلى أحد بقوله تعالى: ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، وهما بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحي جيش المسلمين.

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٣٥٦.

ومعنى ﴿أَن تَفْشَلَا﴾ أي: تضعفا وترجعا إلى المدينة، فذلك أنَّ رسول الله ﷺ كما ذكرنا خرج إلى أُحد في ألف رجل، فلمّا بلغَ الشوط ـ مكان في الطريق ـ انخذل عبدُ الله بن أُبي زعيم المنافقين بثلث الجيش ورجع إلى المدينة، واحتجَّ أنَّ النبيَّ ﷺ أطاعَ الولدان وخالفه.

ولمّا انصرف ابنُ أُبي همّتْ طائفتان من المؤمنين بالانصراف معه، فعصمهم الله، وثبتوا. قال ابن عباس رضي الله عنه: اضمروا أن يرجعوا، فعزم الله لهم على الرشد، فثبتوا، فذكّرهم الله عظيمَ نعمته عليهم، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي والله متولي أمرهما بالتوفيق والتثبيت.

وكان **جابر بن عبد الله** رضي الله عنه يقول: نزلت هذه الآية فينا: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ بني سلمة وبني حارثة، وما أحبُّ أنّها لم تنزل، والله يقول: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾[1].

شؤمُ المعصية:

وصف **البراء بن عازب** رضي الله عنه ما حدث في معركة أُحد فقال: جعل النبيُّ ﷺ على الرجالة يوم أُحد ـ وكانوا خمسين رجلاً ـ عبدَ الله بن جُبير، فقال: «إن رأيتمونا تخطفنا الطيرُ فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسلَ إليكم، وإن رأيتمونا هَزَمْنا القومَ وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتى أُرسلَ إليكم»، فهزموهم، قال: فأنا والله رأيت النساء يشددن ـ أي يركضن ـ وقد بدت خلاخلهن وأسوُقهن، رافعات ثيابهن، فقال أصحاب ابن جبير: الغنيمة أي قوم الغنيمة، ظفر أصحابُكم فما تنتظرون؟، فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسولُ الله ﷺ؟، قالوا: واللهِ لنأتينَّ الناسَ فلنصِيبَنَّ من الغنيمة.

فلما أتوهم صرفت وجوههم، فأقبلوا منهزمين، فذاك إذ يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبقَ مع النبيِّ ﷺ غير اثني عشر رجلاً، فأصابوا منا سبعين، وكان النبيُّ ﷺ وأصحابُه أصابَ من المشركين يومَ بدرٍ أربعين ومئة: سبعينَ أسيراً وسبعينَ قتيلاً.

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٠٥١.

فقال أبو سفيان: أفي القوم محمد؟ ثلاث مرات، فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابنُ أبي قحافة؟ ثلاث مرات، ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاث مرات، ثم رجع إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا.

فما ملك عمر نفسه فقال: كذبتَ واللهِ يا عدوَّ الله، إنَّ الذين عددتَ لأحياء كلهم، وقد بقيَ لك ما يسوءك.

قال: يوم بيوم بدر، والحربُ سجال، إنكم ستجدون في القوم مُثْلةً لم آمر بها، ولم تسؤني، ثم أخذ يرتجزُ: أعل هبل، أعل هبل، قال النبيُّ ﷺ: «ألا تجيبونه»، قالوا: يا رسول الله ما نقول؟، قال: «قولوا: الله أعلى وأجل»، قال: إنّ لنا العزُى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: «ألا تجيبونه»، قالوا: يا رسول الله ما نقول؟، قال: «الله مولانا ولا مولى لكم»(١).

فشؤم معصيةِ الرماةِ انعكسَ على المعركة، فبعدَ أن كانت في صالح المؤمنين تحوّلت وأصبحت في صالح المشركين، وقد بيّنَ الله تعالى هذا بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

قال ابن حجر رحمه الله: هذا ملخص ما ذكره موسى بن عقبة في سياق القصة كلها، قال لما رجعت قريش ـ من بدر ـ استجلبوا من استطاعوا من العرب، وسار بهم أبو سفيان حتى نزلوا ببطن الوادي من قِبلِ أُحد، وكان رجال من المسلمين أسفوا على ما فاتهم من مشهد بدر، وتمنوا لقاء العدو، ورأى رسول الله ﷺ ليلة الجمعة رؤيا، فلمّا أصبح قال: «رأيتُ البارحةَ في منامي بقراً تُذبح، والله خيرٌ وأبقى، ورأيتُ سيفي ذو الفقار انقسمَ من عندِ ظَبَّتِه، أو قال به فلولٌ فكرهتُه، وهما مصيبتان، ورأيتُ أنّي في درعٍ حصينةٍ وأنيِّ مردفٌ كَبْشاً»، قالوا: وما أولتها؟، قال: «أولتُ البقرَ بقراً يكون فينا، وأولتُ الكبش كبش الكتيبة،

---

(١) صحيح البخاري في الجهاد، رقم ٣٠٣٩.

وأولتُ الدرعَ الحصينة المدينة، فامكثوا، فإنْ دخلَ القومُ الأزقةَ قاتلناهم، ورُمُوْا من فوق البيوت».

فقال أولئك القوم: يا نبيَّ الله كنّا نتمنى هذا اليوم، وأبى كثير من الناس إلا الخروجَ. فلمّا صلى الجمعة وانصرف دعا باللأمة ـ السلاح ـ فلبسها، ثم أذن في الناس بالخروج، فندم ذوو الرأي منهم، فقالوا: يا رسول الله! امكث كما أمرتنا، فقال: «ما ينبغي لنبيٍّ إذا أخذَ لأمةَ الحربِ أن يرجعَ حتى يقاتِلَ».

فخرج بهم وهم ألف رجل، وكان المشركون ثلاثة آلاف حتى نزل بأحد، ورجع عنه عبد الله بن أُبي بن سَلول في ثلاثمئة، فبقي في سبعمئة، فلما رجع عبد الله سقط في أيدي طائفتين من المؤمنين: وهما بنو حارثة وبنو سلمة. وصُفَّ المسلمون بأصل أحد، وصُفَّ المشركون بالسبخة، وتعبَّوْا للقتال، وعلى خيل المشركين ـ وهي مئة فرس ـ خالد بن الوليد، وليس مع المسلمين فرس، وصاحب لواء المشركين طلحة بن عثمان. وأمَّر رسول الله ﷺ عبد الله بن جُبير على الرماة، وهم خمسون رجلاً، وعهد إليهم أن لا يتركوا منازلهم، وكان صاحبُ لواءِ المسلمين مصعبَ بن عمير، فبارز طلحةَ بن عثمان فقتله، وحمل المسلمون على المشركين، حتى أجهضوهم عن أثقالهم، وحملت خيلُ المشركين فنضحتهم الرماة بالنبل ثلاث مرات، فدخل المسلمونَ عسكرَ المشركين فانتهبوهم، فرأى ذلك الرماةُ، فتركوا مكانهم، ودخل العسكرُ، فأبصرَ ذلك خالد بن الوليد ومن معه، فحملوا على المسلمين في الخيل فمزّقوهم، وصرخ صارخ: قتل محمد أُخْرَاكم، فعطف المسلمون يقتلُ بعضهم بعضاً، وهم لا يشعرون، وانهزمت طائفةٌ منهم إلى جهة المدينة، وتفرّقَ سائرُهم، ووقعَ فيهم القتلُ[(١)].

ثبات النبي ﷺ في أحد:

وثبت نبيُّ الله ﷺ في أرض أُحد حينَ انكشف عنه أكثرُ أصحابه، وأخذ يدعوهم في أُخراهم حتى رجع إليه بعضُهم، قال تعالى يبيِّنُ ثباتَ النبيِّ ﷺ:

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٣٤٦.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

وثبت معه ﷺ عددٌ قليل من أصحابه، منهم أنس بن النضر عمُّ أنس بن مالك، ففي الحديث عن أنس رضي الله عنه أنَّ عمَّه غابَ عن بدر فقال: غبتُ عن أول قتال النبيِّ ﷺ، لئن أشهدني الله مع النبيِّ ﷺ ليرينَّ الله ما أجدُ، فلقي يومَ أُحد، فهزم الناسُ فقال: اللهمّ إني أعتذرُ إليك مما صنعَ هؤلاء، يعني المسلمين، وأبرأُ إليك مما جاءَ به المشركون، فتقدّمَ بسيفه، فلقي سعدَ بن معاذ فقال: أين يا سعد؟ إنِّي أجدُ ريحَ الجنةِ دونَ أحدٍ. فمضى فقتل، فما عُرِفَ حتى عرفتْه أختُهُ بشامةٍ أو ببنانه، وبه بضع وثمانون مِنْ طعنةٍ وضربةٍ ورميةٍ بسهمٍ[١].

وفي رواية عنه قال أنس: ووجدناه قد مَثَّلَ به المشركون، كنّا نرى أنَّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ومنهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ففي الحديث عنه قال: جمع لي رسولُ الله ﷺ يومَ أحد أبويه كليهما، حين قال: «فداك أبي وأمي» وهو يقاتلُ. وفي رواية قال: «يا سعدُ ارمِ فداكَ أبي وأُمي» وفي رواية قال: نثل لي رسولُ الله ﷺ كنانتَه يومَ أُحدٍ، فقال: «ارمِ فداكَ أبي وأمي»[٢].

والجديرُ بالذكر أنَّ سعداً رضي الله عنه هو الذي قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ يوم أُحد ومعه رجلان يقاتلانِ عنه، عليهما ثيابٌ بيضٌ كأشدِّ القتالِ، ما رأيتُهما قبلُ ولا بعدُ[٣].

ومنهم طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، ففي الحديث عن إسماعيل عن قيس قال: رأيتُ يدَ طلحة شلاءَ، وقى بها النبيَّ ﷺ يومَ أُحدٍ[٤].

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٠٤٨.
(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٠٥٥ـ٤٠٥٧ـ٤٠٥٨.
(٣) المصدر السابق، رقم ٤٠٥٤.
(٤) المصدر السابق، رقم ٤٠٦٣.

قال ابن حجر رحمه الله: وقع بيانُ ذلك عند الحاكم في (الإكليل) من طريق موسى بن طلحة: جرح يوم أحد: تسعاً وثلاثين أو خمساً وثلاثين، وشُلّتْ أصبعه، أي السبابة والتي تليها.

وللطيالسي من طريق عيسى بن طلحة عن **عائشة** قالت: كان أبو بكر إذا ذكر يوم أُحدٍ قال: كان ذلك اليومُ كلُّه لطلحة. قال: كنتُ أول من فاء فرأيتُ رجلاً يقاتلُ عن رسول الله ﷺ فقلتُ: كن طلحة، قلت: حيث فاتني يكون رجلاً من قومي، وبيني وبينه رجلٌ من المشركين، فإذا هو أبو عبيدة، فانتهينا إلى رسول الله ﷺ فقال: «دونكما صاحبكما» يريدُ طلحة، فإذا هو قد قطعت أصبعه.

وفي حديث **جابر** عند النسائي قال: فأدرك المشركون رسولَ الله ﷺ فقال: مَنْ للقوم؟ فقال طلحةُ: أنا، فذكر قتل الذين كانوا معهما من الأنصار، وقال: ثم قاتل طلحة قتالَ الأحد عشر حتى ضُرِبَتْ يدُه، فقطعتْ أصابعه، فقال: حسن. فقال النبي ﷺ: «لو قلتَ بسم الله لرفعتك الملائكةُ والناسُ ينظرون» قال: ثم ردَّ الله المشركين[1].

ومنهم **أبو طلحة الأنصاري** رضي الله عنه ففي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: لما كان يوم أُحد انهزمَ الناسُ عن النبيِّ ﷺ، وأبو طلحة بين يدي النبيِّ ﷺ مجوب عليه بحجفة له، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديدَ النزع، كسر يومئذٍ قوسين أو ثلاثاً، وكان الرجلُ يمرُّ معه بجعبة من النبل، فيقول: أنثرها لأبي طلحة. قال: فيشرِفُ النبيُّ ﷺ ينظرُ إلى القوم، فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي لا تشرفْ يصبك سهمٌ من سهام القوم، نحري دون نحرك. ولقد رأيتُ عائشةَ بنت أبي بكر وأُمَّ سليم وإنَّهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما تنقزان ـ تحملان ـ القربَ على متونهما تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم، وقد وقع السيفُ من يدي أبي طلحة إما مرّتين وإما ثلاثاً[2].

وعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد بسبعة من

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٣٦١.
(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٠٦٤.

الأنصار ورجلين من قريش، فلمّا رهقوه ـ أي اقتربوا منه ـ قال: «من يردُّهم عنا وله الجنة، أو هو رفيقي في الجنة؟» فتقدَّم رجلٌ من الأنصار فقاتل حتى قتل.

ثم رهقوه أيضاً فقال: «من يردهم عنا وله الجنة، أو هو رفيقي في الجنة؟» فتقدم رجلٌ من الأنصار فقاتل حتى قتل، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه ـ أي القرشيين ـ: «ما أنصفنا أصحابنا»[1].

وقول الله تعالى في وصف المنهزمين من الصحابة: ﴿۞إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣]، شهادة من الله تبارك وتعالى بشجاعة النبيِّ ﷺ وثباته في معركة أُحد، وأنه بقي في موقفه من أرض المعركة ثابتاً لم يتزعزع، ولم يتزحزح، وكان يدعو أصحابه ليرجعوا إلى القتال، قال ابن عباس وغيره: كان مِنْ دعاءِ النبيِّ ﷺ: «أي عباد الله ارجعوا».

والقول بأنّه عليه الصلاة والسلام هُزِمَ في أُحد، كما زعم بعض الكتاب المعاصرين في السيرة، قولٌ مجانبٌ للصوابَ، وفيه سوءُ أدبٍ مع الرسول ﷺ الذي ما تراجع أمام عدو، ولا هزم في معركة.

ما أصاب النبي ﷺ في أحد:

ونتيجة لثباته عليه الصلاة والسلام وشجاعته أصيبَ في أحد ونزفَ منه دمٌ كثير، ففي الحديث عن **سهل بن سعد**، وهو يُسأل عن جرح رسول الله ﷺ فقال: أما والله إنّي لأعرف مَنْ كان يغسِلُ جرحَ رسول الله ﷺ، ومن كان يسكبُ الماءَ، وبما دووي. قال: كانت فاطمةُ عليها السلام بنت رسول الله ﷺ تغسله، وعليٌّ يسكبُ الماء بالمجنّ، فلمّا رأت فاطمةُ أنَّ الماء لا يزيدُ الدم إلا كثرةً، أخذت قطعةً من حصيرٍ فأحرقتها، وألصقتها فاستمسكَ الدمُ، وكُسِرَتْ رُباعيتُه يومئذٍ وجُرِحَ وجهه، وكسرت البيضة على رأسه[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتدَّ غضبُ اللهِ على

---

(١) صحيح مسلم في الجهاد، رقم ١٧٨٩.
(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٠٧٥. و(البيضة): الخوذة.

قومٍ فعلوا بنبيِّهم ـ يشيرُ إلى رباعيته ـ اشتدَّ غضبُ اللهِ على رجلٍ يقتلُه رسولُ الله ﷺ في سبيلِ الله».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: اشتدَّ غضبُ الله على مَنْ قتله النبيُّ ﷺ في سبيلِ اللهِ، اشتدّ غضبُ اللهِ على قومٍ دمّوا وجه نبيِّ الله ﷺ[1].

ولقد أنزل الله عليه يواسيه عما أصابه في أُحد قولَه الكريم: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

قال ابن حجر رحمه الله: ومجموعُ ما ذكر في الأخبار أنَّه شُجَّ وجهُه، وكُسِرَتْ رباعيتُه، وجُرِحَتْ وجنتُه وشفتُه السفلى من باطنها، ووهى منكبُه من ضربةِ ابن قمئة، وجحشت ركبته[2] (أي أصيبت ركبته).

وقولـه: «فلما رأت فاطمة» هي بنت رسول الله ﷺ، وأوضح سعيد بن عبد الرحمن عن أبي حازم فيما أخرجه الطبراني من طريقه سبب مجيء فاطمة إلى أُحد، ولفظه: «لما كان يوم أُحد وانصرفَ المشركون، خرج النساء إلى الصحابة يعينونهم، فكانت فاطمة فيمن خرجَ، فلما رأت النبيَّ ﷺ اعتنقته، وجعلت تغسلُ جراحاتِـه بالماءِ، فيزدادُ الدمُ، فلمّا رأت ذلك أخذت شيئاً من حصير فأحرقته بالنار، وكمدته به حتى لصقَ بالجرح فاستمسك الدم.

وله من طريق زهير بن محمد عن أبي حازم: فأحرقت حصيراً حتى صار رماداً، فأخذت من ذلك الرماد، فوضعته فيه حتى رقأ الدم وقال في آخر الحديث: ثم قال ﷺ يومئذ: «اشتدَّ غضبُ الله على قوم دمُّوا وجه رسولِه» ثم مكث ساعة ثم قال: «اللهمَّ اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون».

وقال ابن عائذ: أخبرنا الوليد بن مسلم حدّثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر أنّ الذي رمى رسول الله ﷺ في أُحد فجرحه في وجهه قال: خذها مني وأنا ابن قمئة فقال: «أقمأك الله» قال: فانصرفَ إلى أهله، فخرجَ إلى غنمه، فوافاها

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٠٧٣ ـ ٤٠٧٤.

(٢) وابن قمئة أحد رجال المشركين.

على ذروة جبل، فدخل فيها فشد عليه تيسُها فنطحه نطحةً أرداه من شاهق الجبل فتقطّعَ.

وفي الحديث جواز التداوي، وأنَّ الأنبياء قد يُصابون ببعض العوارض الدنيوية من الجراحات والآلام والأسقام ليعظم لهم بذلك الأجر، وتزداد درجاتهم رفعة، وليتأسّى بهم أتباعهم بالصبر على المكاره. والعاقبة للمتقين[1].

وفي الحديث عن أنس أنَّ رسول الله ﷺ كُسِرَت رباعيتُه يوم أحد، وشُجَّ في رأسه، فجعل يسلتُ الدمَ - أي يمسحه - عنه، ويقول: «كيف يفلحُ قومٌ شجّوا نبيَّهم، وكسروا رباعيتَه، وهو يدعوهم إلى اللهِ؟» فأنزل الله عزَّ وجلّ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وعن عبد الله بن مسعود قال: كأنِّي أنظرُ إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومُه، وهو يمسحُ الدمَ عن وجهه، ويقول: «ربِّ اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون»[2].

نعاسٌ وأمنٌ في الميدان:

ومن لطفه سبحانه بأصحاب النبي ﷺ وفضله عليهم، بعد أن أصيبوا في أُحد، ما أخبر عنه بقوله الكريم: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فنام أكثرُهم، وشعروا بهذا بالأمن، فسكنت قلوبهم، واطمأنت نفوسهم، فإنّما ينعس من يأمنِ، وأما الخائف فلا ينام، ومرّ معنا أنه قد حدث مثل هذا في بدر، إلا أنّه كان قبلَ القتال، قال تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

قال أبو طلحة الأنصاري: كنتُ فيمن تغشّاه النعاسُ يوم أُحد، حتى سقط سيفي من يدي مراراً.

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٣٧٣.
(٢) صحيح مسلم في الجهاد، رقم ١٧٩١ ـ ١٧٩٢.

وقوله: ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ وهم المؤمنون المخلصون ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ لم يغشهم النعاس بسبب خوفهم على أنفسهم، فلا هَمَّ لهم إلا أنفسهم، وهم المنافقون الذين كان لهم وجود كبير في مجتمع المدينة المنورة، وقد أظهرَ كثيرٌ منهم نفاقهم بعد غزوة أحد.

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ أي يسيئون الظن بالله تعالى، وهو أنه سبحانه لا ينصر نبيه ﷺ وأصحابه كظن أهل الجاهلية.

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ وهو استفهام إنكار ونفي، أي ما لنا من أمر يطاع، يعرّضون بالنبيِّ ﷺ عندما استشار أصحابه قبل الخروج من المدينة ـ كما مرّ معنا ـ فأشار عليه زعيمُ المنافقين ابن أُبي بالبقاء فيها، والتحصن في بيوتها، لكنّه عليه الصلاة والسلام أخذ برأي شباب الصحابة، وخرجَ إلى أُحد. وأمر الله النبيَّ ﷺ أن يردَّ عليهم في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾، أي أنّ البقاءَ أو الخروجَ، والنصرَ أو الهزيمة، والحياة أو الموت كلها بيده سبحانه، وبمشيئته وقدرته جلَّ وعلا.

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، أي يقولون لبعضهم بعضاً: لو أنَّ محمّداً ﷺ أطاعنا، ولم يخرج من المدينة ما قتل من قتل منا ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ فقدرُ الله تعالى واقعٌ لا محالةَ، والموتُ الذي قدره سبحانه لا بدَّ منه، فلو لم يخرج النبيُّ ﷺ إلى أحد لخرج الذين قدر الله تعالى موتهم إلى مصارعهم ليموتوا فيها، فلا رادَّ لقضائه جلّ وعلا، ولا معقّبَ لحكمه، وما حدث في أُحدٍ قضاء الله تعالى وقدره ابتلاءً وتمحيصاً.

﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾، من إخلاص أو نفاق ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي ليكشف ما فيها، فالتمحيص هنا الكشف والتمييز.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فهو سبحانه لا يحتاجُ إلى الابتلاء، ولكنه قدّره بحكمته إظهاراً لحال المنافقين، وتمييزاً لهم عن المؤمنين، ورفعاً لدرجاتهم.

شهداءُ أُحد:

بلغ عدد الشهداء في غزوة أحد سبعين شهيداً، دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[آل عمران: ١٦٥]، ومرَّ معنا أنَّ النبيَّ ﷺ وأصحابه قتلوا في بدر سبعين من المشركين وأسروا سبعين. ودفن الصحابة رضي الله عنهم شهداءَهم في أُحدٍ بعد انتهاء المعركة، فكانوا يدفنون الرجلين والثلاثة في قبرٍ واحدٍ.

ففي الحديث عن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد[(١)].

وقد وقع في رواية عبد الرزاق بلفظ: وكان يدفنُ الرجلين والثلاثة في القبر الواحد، وورد ذكر الثلاثة في هذه القصة عن أنس أيضاً عند الترمذي وغيره.

وروى أصحابُ السنن عن **هشام بن عامر الأنصاري** قال: جاءت الأنصارُ إلى رسول الله ﷺ يوم أُحد، فقالوا: أصابنا قرحٌ وجهدٌ، قال: «احفروا وأوسعوا، واجعلوا الرجلين والثلاثة في القبر» صححه الترمذي[(٢)].

وكان أكثرُ الشهداءِ من الأنصار فعن قتادة قال: «ما نعلمُ حيّاً من أحياء العرب أكثرَ شهيداً أغر يوم القيامة من الأنصار».

قال قتادة: وحدثنا أنس بن مالك أنه قتل منهم يوم أحد سبعون، ويوم بئر معونة سبعون، ويوم اليمامةِ سبعون.

قال: وكان بئر معونة على عهد رسول الله ﷺ، ويوم اليمامة على عهد أبي بكر يوم مسيلمة الكذاب[(٣)].

ففي الحديث عن **جابر** رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ كان يجمعُ بين الرجلين من قتلى أُحد في ثوب واحد، ثم يقول: «أيهم أكثرُ أخذاً للقرآن؟» فإذا

---

(١) صحيح البخاري في الجنائز، ص١٣٤٥.
(٢) فتح الباري: ١/ ٢١١.
(٣) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٠٧٨.

أشير له إلى أحدٍ قدّمه في اللحد، وقال: «أنا شهيدٌ على هؤلاءِ يومَ القيامةِ»، وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يصلِّ عليهم، ولم يغسلوا[1].

وكان في الشهداء والدُ جابر عبد الله رضي الله عنهما، أخبر عن ذلك جابر فقال: لمّا قُتِلَ أبي جعلتُ أبكي وأكشفُ الثوبَ عن وجهه، فجعل أصحابُ النبيِّ ﷺ ينهونني، والنبي ﷺ لم ينه، وقال النبيُّ ﷺ «لا تبكه ما زالتِ الملائكةُ تظلُّه بأجنحتِها حتى رُفِعَ»[2].

ومن الشهداء **مصعب بن عمير** رضي الله عنه أول المهاجرين إلى المدينة المنورة ففي الحديث عن **خبّاب** رضي الله عنه قال: هاجرنا مع النبيِّ ﷺ ونحن نبتغي وجهَ الله، ووجبَ أجرُنا على اللهِ، فمِنّا من مضى ـ أو ذهب ـ لم يأكل من أجره شيئاً، كان منهم مصعب بن عمير، قتل يوم أُحدٍ، فلم يترك إلا نمرةً، كنّا إذا غطينا بها رأسَه خرجت رجلاه، وإذا غُطِّي بها رجلاه خرجَ رأسه، فقال لنا النبيُّ ﷺ: «غَطّوا بها رأسَه، واجعلوا على رجليه الإذخر». أو قال: «ألقوا على رجليه من الإذخر» ومنا من أينعت له ثمرتُه فهو يهدبها[3].

استشهاد حمزة رضي الله عنه:

وممن استشهد في أحد حمزةُ بن عبد المطلب رضي الله عنه عَمُّ النبيِّ ﷺ، قتله وحشيٌّ بحربته، وهو مشغولٌ بمقاتلة المشركين.

ففي الحديث عن **عمرو بن أمية الضمري** قال: خرجت مع عُبيد الله بن عدي بن الخيار، فلمّا قدمنا حمص قال لي عُبيد الله بن عدي: هل لك في وحشيٍّ نسأله عن قتل حمزة؟، قلت: نعم ـ وكان وحشي يسكن حمص ـ فسألنا عنه، فقيل لنا: هو ذاك في ظل قصره كأنـه حنيت[4].

---

(١) المصدر السابق، رقم ٤٠٧٩.

(٢) المصدر السابق، رقم ٤٠٨٠.

(٣) المصدر السابق، رقم ٤٠٨٢. قوله: (يهدبها): يجتنيها.

(٤) أي زق كبير، وأكثر ما يقال ذلك إذا كان مملوءاً، وفي رواية فوجدناه رجلاً سميناً محمرة عيناه.

قال: فجئنا حتى وقفنا عليه بيسير، فسلمنا فردَّ السلام. قال: وعبيد الله معتجر بعمامته ما يرى وحشيٌّ إلا عينيه ورجليه، فقال عُبيد الله: يا وحشيٌّ! أتعرفني؟.

قال: فنظر إليه ثم قال: لا والله إلا أني أعلم أنَّ عديَّ بن الخيار تزوّجَ امرأةً يقال لها أم قتال بنت أبي العيص، فولدت له غلاماً بمكة، فكنتُ استرضعُ له، فحملتُ ذلك الغلام مع أمه فناولتها إياه، فلكأني نظرت إلى قدميك.

قال: فكشف عبيد الله عن وجهه ثم قال: ألا تخبرنا بقتل حمزة؟

قال: نعم، إن حمزة قتل طُعيمةَ بن عدي بن الخيار ببدر، فقال لي مولاي جبيرُ بن مطعم: إن قتلتَ حمزةَ بعمي فأنت حُرٌّ. قال: فلمَّا أنْ خرجَ الناسُ عام عَينين، وعَينين جبل بحيال أُحد، بينه وبينه واد، خرجتُ مع الناسِ إلى القتال، فلمّا اصطفوا للقتالِ خرج سِباع فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فقال: يا سباع يا ابن أم أنمار مقطِّعة البظور[1] أتحاد الله ورسوله ﷺ؟ قال: ثم شد عليه فكان كأمسِ الذاهبِ. قال: وكمنتُ لحمزةَ تحتَ صخرةٍ، فلمّا دنا مني رميتُه بحربتي، فأضعها في ثُنَّتِه ـ خاصرته ـ حتى خرجت من بين وركيه، قال: فكان ذاك العهد به. فلمّا رجعَ الناسُ رجعتُ معهم، فأقمتُ بمكة، حتى فشا فيها الإسلام، ثم خرجت إلى الطائف، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ رُسلاً، فقيل لي: إنّه لا يهيجُ الرسل، قال: فخرجتُ معهم حتى قدمتُ على رسول الله ﷺ، فلمّا رآني قال: «آنت وحشي؟»، قلت: نعم، قال: «أنت قتلتَ حمزة؟»، قلت: قد كان مِنَ الأمرِ ما بلغك، قال: «فهل تستطيعُ أن تغيِّبَ وجهك عني؟». قال: فخرجتُ، فلمّا قبضَ رسول الله ﷺ فخرجَ مسيلمةُ الكذّاب قلتُ: لأخرجنَّ إلى مسيلمةَ لعلِّي أقتله فأكافئ به حمزة.

قال: فخرجتُ مع الناس فكان مِنْ أمره ما كان، قال: فإذا رجلٌ قـائِمٌ في ثلمة جدارٍ، كأنّـه جملٌ أورق، ثائـر الرأس، قال: فرميتُه بحربتي، فأضعها بين

---

(١) جمع بظر وهي اللحمة التي تقطع من فرج المرأة عند الختان، قال ابن إسحاق: كانت أمه ختانة بمكة تختن النساء.

ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه. قال ووثبَ رجلٌ من الأنصارِ فضربه بالسيف على هامته.

قال عبد الله قال: قال عبد الله بن الفضل: فأخبرني سليمان بن يسار أنه سمع عبد الله بن عمر يقول: فقالت جارية على ظهر بيت: وا أمير المؤمنين قتله العبد الأسود[(١)].

وحزن ﷺ على من قُتِلَ من أصحابه في أُحد، وعلى قتل عمه حمزة رضي الله عنه سيد الشهداء، حتى إنّه عليه الصلاة والسلام أذن للنساء في البكاء على شهداء أُحد، ولم ينكر عليهنَّ عندما سمع بكاءَهن، ولكنه تأثر عليه الصلاة والسلام عندما لم يسمع باكيةً تبكي على عَمِّه حمزة رضي الله عنه.

فعن ابن عمر وأنس رضي الله عنهم قالا: لما رجع رسول الله ﷺ من أُحد، سمعَ نساءَ الأنصار يبكين فقال: «لكنَّ حمزةَ لا بواكي له» فبلغ ذلك نساءَ الأنصار، فبكينَ حمزة، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهن يبكين، فقال: «يا ويحهنَّ ما زلنَ يبكينَ منذ اليوم فليبكين، ولا يبكينَّ على هالك بعد اليوم»[(٢)].

ووصفه النبيُّ ﷺ بصفة سيد الشهداء، ففي الحديث الشريف «سيدُ الشهداءِ حمزةُ بن عبد المطلب، ورجلٌ قامَ إلى إمامٍ جائرٍ فأمرَه ونهاه فقتلَه»[(٣)].

تمثيل المشركين بجثث الشهداء:

مرَّ معنا قولُ أبو سفيان بعد المعركة وهو على ظهر الجبل: وتجدونَ مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسؤني (أي لم أكرهها)، وإن كان وقوعها بغيرِ أمري.

ولمَّا انتهت المعركة توجّه النبيُّ ﷺ إلى ميدانها يلتمسُ أصحابه، فرأى منظراً أثّرَ به عليه الصلاة والسلام، فقد قام المشركون بالتمثيل في شهداء أُحد،

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٠٧٢.

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده بسندين، رجال أحدهما رجال الصحيح.

(٣) رواه الترمذي والحاكم وقال صحيح الإسناد، كما في الترغيب والترهيب: ٣/ ٢٣٥.

قطعوا آذانهم وأنوفَهم وفروجَهم، وبقروا بطونَهم، ويبدو أنَّ الذين فعلوا ذلك كانوا من النساء المشركاتِ، لأجل الحفيظة والانتقام ممّا أصابَ رجالهنَّ في بدرٍ.

وقد سمّى ابنُ إسحاق النساءَ المذكورات وهن: هندُ بنت عتبة، خرجت مع أبي سفيان، وأُمُّ حكيم بنت الحارث بن هشام، مع زوجها عِكْرِمةُ بن أبي جهل، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة مع زوجها الحارث بن هشام، وبرزة بنت مسعود الثقفية مع زوجها صفوان بن أمية، وريطة بنت شيبة السهمية مع زوجها عمرو بن العاص، وزلافة بنت سعد مع زوجها طلحة بن أبي طلحة الحجبي، وخناس بنت مالك والدة مصعب بن عمير، وعمرة بنت علقمة بن كنانة[1].

ولما رأى النبيُّ ﷺ جثث أصحابه من الشهداء منتثرة في الميدان، وقد مثل المشركون بها؛ قطعوا الآذان، وجدعوا الأنوف، وبقروا البطون، وخاصة جثة عمه حمزة رضي الله عنه، فقد أخرجت زوجةُ أبي سفيان كبدَه، فلاكتها، ثم لفظتها، غضبَ ﷺ ثم قال: «لولا أن تحزنَ صفيةُ ـ عمته عليه الصلاة والسلام ـ ويكون سنة من بعدي، لتركتُه حتى يكونَ في بطون السباع وحواصلِ الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطنٍ من المواطنِ، لأمثلنَّ بثلاثينَ رجلاً منهم» فأنزل الله عليه في ذلك: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[النحل: ١٢٦ ـ ١٢٨] فعفا رسول الله ﷺ وصبر، ونهى عن المُثلة وقال ـ كما في (صحيح مسلم): «إنَّ الله كتبَ الإحسانَ على كلِّ شيءٍ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبْحَ، وليحدَّ أحدُكم شفرته وليُرِحْ ذبيحتَه».

وذكر البخاري تعليقاً عن قتادة: بلغنا أنَّ النبيَّ ﷺ كان يحثُّ على الصدقة وينهى عن المُثْلَةِ[2].

---

(١) انظر فتح الباري: ٧/ ٣٥٠.

(٢) أخرجه أبو داود من طريق معاذ بن هشام عن أبيه عن قتادة بهذا الإسناد، وأخرجه أحمد عن قتادة بهذا الإسناد إلى عمران بن الحصين ولفظه: «كان يحث في خطبته على =

العفو عن الصحابة الذين انهزموا في أحد:

عفا الله تعالى عنهم، وأخبر عن ذلك بقوله الكريم: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

ثم أكده سبحانه مرة ثانية فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وفي الحديث عن عثمان بن موهب قال: جاء رجلٌ حجَّ البيت، فرأى قوماً جلوساً، فقال: مَنْ هؤلاء القعود؟ قالوا: هؤلاء قريش. قال: مَنِ الشيخ؟ قالوا: ابنُ عمر. فأتاه، فقال: إنِّي سائلك عن شيء أتحدثني؟ قال: أنشدك بحرمة هذا البيت أتعلمُ أنَّ عثمان بن عفان فرَّ يومَ أُحد؟، قال: نعم، قال: فتعلمه تغيّبَ عن بدر فلم يشهدها؟، قال: نعم، قال فتعلم أنَّه تخلّفَ عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟، قال: نعم، قال فكبر.

قال ابن عمر: تعال لأخبرك، ولأبيّنَ لك عَمّا سألتني عنه: أمّا فرارُه يوم أُحدٍ فأشهدُ أنَّ الله عفا عنه، وأمّا تغيبُه عن بدرٍ، فإنَّه كان تحته بنتُ رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فقال له النبيُّ ﷺ: «إنَّ لك أجرَ رجلٍ ممّن شهدَ بدراً وسهمُه» وأما تغيُّبه عن بيعةِ الرضوان، فإنَّه لو كان أحدٌ أعزَّ ببطنِ مكةَ من عثمان بن عفان لبعثه مكانه، فبعثَ عثمان، وكانت بيعةُ الرضوان بعدما ذهب عثمانُ إلى مكة، فقال النبيُّ ﷺ بيدِه اليمنى: «هذه يدُ عثمان» فضربَ بها على يدِه فقال: «هذه لعثمان» إذهب بهذا الآنَ معك[1].

ولم يعفُ الله سبحانه عنهم فحسب، بل أنزل آياتٍ تواسيهم عن مصابهم في

= الصدقة وينهى عن المثلة» كما في فتح الباري: ٧/ ٤٥٩.

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٠٦٦.

أحد مما يدل على كرامتهم ومكانتهم عنده سبحانه، فقال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠ ـ ١٤١].

كما أنزل سبحانه آيات أثنى فيها أعظم ثناء على الشهداء فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١].

الخروج في أثر العدو إلى حمراء الأسد:

كانت أُحدٌ يومَ السبت في النصف من شوال، فلما كان الغد يوم الأحد السادس عشر من شوال أذّن مؤذّن رسولِ الله ﷺ في الناس للخروج بطلب العدو، وألا يخرج معنا إلا من حضر بالأمس، فاستأذنه جابر بن عبد الله في الخروج معه فأذن له، وإنما خرج رسول الله ﷺ مرعباً للعدو، وليظنوا أنَّ الذي أصابهم لم يوهنهم عن طلب عدوهم، فلمّا بلغ حمراء الأسد، لقيهم معبد بن أبي معبد الخزاعي، فعزّاه بمصاب أصحابه، وأعلمه أنّه لقي أبا سفيان ومن معه وهم بالرّوحاء، وقد تلوّموا في أنفسهم، وقالوا: أصبنا جُلَّ أصحاب محمد وأشرافهم وانصرفنا قبل أن نستأصلهم، وهموا بالعودة إلى المدينة، فأخبرهم معبد أنَّ محمّداً قد خرجَ في طلبكم في جمع لم أرَ مثله ممّن تخلّفَ عنه بالمدينة. قال فثناهم ذلك عن رأيهم، فرجعوا إلى مكة(١).

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢]، قالت لعروة: يا ابن أختي كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا،

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٣٧٤.

قال: «من يذهب في إثرهم» فانتدب منهم سبعون رجلاً قال: كان فيهم أبو بكر والزبير[1].

بدر الثانية:

مرّ معنا أنّه عندما وقف أبو سفيان بعد معركة أُحد على الجبل يصيح: أعلُ هبل، قال للنبيِّ ﷺ وأصحابه: موعدُكم العامَ المقبل ببدر، وكان لبدر موسم سنوي، يجتمع الناسُ فيه للبيع والشراء، فلمّا اقتربَ الموعدُ خرج أبو سفيان مع المشركين من قريش، فألقى اللهُ الرعبَ في قلوبهم فرجعوا، واستأجر أبو سفيان بعض التجار المسافرين إلى المدينة المنورة لكي يثبّطوا المسلمين عن الخروج، ويشيعوا بينهم أن قريشاً خرجت بجمع كبير لا طاقةَ للمسلمين به، ولم تؤثّر هذه الشائعات في معنويات المسلمين، بل زادتهم إيماناً بالله تعالى وثقةً بتأييده ونصره، فخرجوا مع النبيِّ ﷺ متوكلين على الله تعالى وحده، فأثنى الله عليهم في قوله الكريم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، أي الله هو الذي يكفينا أمرهم، ونعم الكافي هو جل جلاله. وهي الكلمة التي قالها إبراهيم عليه الصلاة والسلام عندما ألقي في النار.

وفي الحديث عن ابن عباس: «حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]»[2].

وهذا يدلنا على أن الصحابة رضي الله عنهم استفادوا من دروس أُحد، وعرفوا أنَّ النصر من الله تعالى بطاعته وتقواه، وأنَّ الخُذلان يكون من المعاصي والمخالفة.

كانت نتيجة خروجهم متوكلين على الله تعالى، مستجيبين لأمر النبيِّ ﷺ، أنهم حضروا موسم بدر، بينما تخلف أبو سفيان والمشركون، فتناقل الناس

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٠٧٧.
(٢) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٥٦٣.

ذلك، فازداد احترامهم وتقديرهم للنبيِّ ﷺ وأصحابه، وانفردوا في سوق بدر، فباعوا واشتروا وربحوا، ثم رجعوا إلى المدينة المنورة بالسمعة الطيبة والربح الوفير، ونالوا فوق ذلك رضوان الله تعالى، وثناءه الخالد عليهم، بقوله الكريم ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

ثم بيّنَ سبحانه مصدر هذه الشائعات وحقيقتها فقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي إن ذلك المخوّف والمثبّط عن الخروج هو الشيطان يخوّف بوسوسته أولياءه الذين يوالونه ويتأثرون بوسوسته ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، أي فلا تخافوا من أولياء الشيطان، ولا تقعدوا عن قتالهم، وخافوني إن كنتم مؤمنين حقاً بي، وذلك بطاعتي واتِّباع سنَّة النبي عليه الصلاة والسلام.

خلُق النبيِّ ﷺ:

وبعد بيان كلِّ هذه الفوائد والعبر والدروس، التفتت الآياتُ إلى النبيِّ ﷺ تبيِّنُ له كيف يعامِلُ أصحابه بعد غزوة أحد، وتذكّره بفضلِ الله تعالى عليه لمَّا جعل في قلبه الشريف من شفقةٍ على عباد الله تعالى ورأفة بهم ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾، فقد جبله الله تعالى على الرحمة والسماحة واللطف، هذه حقيقتُه عليه الصلاة والسلام، وحقيقةُ جوهره الشريف، ومعدنه الكريم، فأخلاقُه الكريمة لا تكلُّفَ فيها ولا تصنُّعَ، بل هي فطرةٌ فطره الله تعالى عليها، وجبلّةٌ جُبِل عليها، وهي من الله جلّ جلاله، لا من غيره.

قال الحسن البصري رحمه الله: هذا خلقُ محمد ﷺ بعثه الله به[1].

وهذا الخلقُ الكريم هو السبب الرئيس لتعلّق الصحابة به عليه الصلاة والسلام، وشدة محبتهم له، رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

وكانت أخلاقُه الكريمة سبباً لهداية الكثير منهم للإسلام، وصدق الله تعالى

---

(١) انظر تفسير ابن كثير للآيات.

في قوله الكريم: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾، أي لابتعدوا عنك، وأعرضوا عن دعوتك، وما تعلّقوا هذا التعلق الشديد بك.

فقد كانوا رضي الله عنهم شديدي المحبة له عليه الصلاة والسلام، والتعلّق به، بلغوا الغاية في هذ الأمر، حتى قال **عروةُ بن مسعود الثقفيّ** عندما أرسلته قريش ليكلِّم النبيَّ ﷺ وهو في الحديبية، كما سيأتي معنا: واللهِ لقد وفدتُ على الملوك، ووفدتُ على كسرى وقيصر والنجاشيّ، والله إنْ رأيتُ ملكاً قطّ يعظّمُه أصحابُه ما يعظّمُ أصحابُ محمد محمّداً ﷺ، والله إنْ يتنخمُ نخامةً إلا وقعتْ في كفِّ رجلٍ منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمرَه، وإذا توضَّأَ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلّمَ خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدُّون إليه النظرَ تعظيماً له[(١)].

ثم بيّن سبحانه كيف يتعامل ﷺ مع أصحابه بقوله سبحانه: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ أي عن ما صدر منهم في حقك يوم أُحد عندما فرّوا عنك، وتركوك تواجِهُ خطر المشركين. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي وادعُ الله تعالى ليغفرَ لهم، فدعاؤك مستجابٌ لا يردّ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ تطيباً لنفوسهم، وتشريعاً لمبدأ الشورى في الأمة ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي إذا عزمتَ على أمرٍ بعد الشورى فامضِ فيه دون تردد، متوكلاً عليه سبحانه في إمضاء أمرك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فيوفقهم ويسددهم.

الدعوة المستجابة:

أصيب أبو سلمة رضي الله عنه في أُحد ببعض الجروح، وبقي بعدها قُرابة شهرٍ يُعالَج من جراحه، ولما شعر ببعض القوّة تحامل على نفسِه، ونزل من بيته في قباء إلى المدينة المنورة، ليرى رسولَ الله ﷺ ويسمعَ حديثه، فأرسله النبيُّ ﷺ على رأس سرية فيها مئة وخمسون رجلاً من الأنصار والمهاجرين، وقال له: «سِرْ حتى تنزلَ أرض بني أسد، فأغر عليهم قبل أن تلاقى عليك جموعُهم».

ووصل رضي الله عنه إلى جبل قَطَنْ، فأغار على سَرْحِ القومِ فأصاب ما فيها

---

(١) انظر الحديث كاملاً في صحيح البخاري في المغازي.

من إبلٍ وشاةٍ وخيلٍ، وعاد بعد تسع وعشرين ليلة مع رجال سريته إلى المدينة المنورة غانمين سالمين، وانتقض بعدَ ذلك جرحُه، فتوفي متأثراً به.

وفي الحديث عن أمِّ سلمة قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما مِنْ مسلمٍ تُصيبُه مصيبةٌ فيقول ما أمره الله: إنّا للهِ وإنّا إليه راجعون، اللهمَّ أُجُرني في مصيبتي، واخلُف لي خيراً منها - إلا أخلفَ اللهُ له خيراً منها».

قالت: فلما ماتَ أبو سلمة قلتُ: أي المسلمين خيرٌ من أبي سلمة، أول من هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتُها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ، قالت: أرسل إليَّ رسولُ الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني فقلتُ: إنّ لي بنتاً وأنا غيور، فقال: «أما بنتُها فندعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة».

وفي رواية: فلمّا توفي أبو سلمة قلتُ: من خيرٌ من أبي سلمة صاحب رسول الله ﷺ ثم عزم الله لي فقلتُها، قالت: فتزوّجتُ رسول الله ﷺ[1].

شهداء الرجيع:

لم تكن قافلة شهداء أُحد آخرَ قوافل الشهداء التي قدَّمها الصحابة رضي الله عنهم في سبيل الله، إذ استمرّت الدعوةُ واستمرّ معها الصحابة يقدمون الشهداء في سبيلها.

ففي الرجيع - وهو اسمٌ مكان في هُذَيل - قدم الصحابة رضي الله عنهم قافلة من الشهداء. ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث النبيُّ ﷺ سريةً عيناً، وأمّرَ عليهم عاصم بن ثابت، وهو جدّ عاصم بن عمر بن الخطاب، فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عُسفان ومكة، ذُكروا لحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مئة رامٍ، فاقتصوا آثارهم، حتى أتوا منزلاً نزلوه، ووجدوا فيه نوى تمر تزوّدوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فتبعوا آثارهم، حتى لحقوهم.

---

(١) صحيح مسلم في الجنائز، رقم ٩١٨.

فلما انتهى عاصمُ وأصحابُه لجؤوا إلى فدفد ـ الرابية المشرفة ـ وجاءَ القومُ فأحاطوا بهم، فقالوا: لكم العهدُ والميثاقُ ألا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزلُ في ذِمّة كافر، اللهمَّ أخبر عنّا نبيك.

فقاتلوهم حتى قتلوا عاصماً في سبعةِ نفرٍ بالنبل، وبقي خُبيبٌ وزيدٌ ورجلٌ آخر، فأعطوهم العهد والميثاق، فلمّا أعطوهم العهدَ والميثاق نزلوا إليهم، فلمّا استمكنوا منهم حلوا أوتار قِسيّهم، فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم، فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل، فقتلوه.

وانطلقوا بخبيبٍ وزيد حتى باعوهما في مكة، فاشترى خُبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيراً، حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحدّ بها، فأعارته، قالت: فغفلتُ عن صبيٍّ لي فدرجَ إليه، حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلمّا رأيتُه فزعتُ فزعةً عرفَ ذاك مني، وفي يده الموسى، فقال: أتخشينَ أن أقتله؟ ما كنتُ لأفعلَ ذاك إن شاء الله.

وكانت تقول: ما رأيتُ أسيراً قط خيراً من خُبيب، لقد رأيتُه يأكلُ من قِطْفِ عنبٍ، وما بمكة يومئذ ثمرةٌ، وإنّه لموثقٌ في الحديدِ، وما كان إلا رزقٌ رزقه الله.

فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصلي ركعتين، ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أنَّ ما بي جزعٌ من الموتِ لزدتُ، فكان أوّلَ من سنَّ الركعتين عند القتل هو. ثم قال: اللهمَّ أحصهم عدداً، ثم قال:

ما إن أبالي حينَ أُقْتَلُ مسلماً ... على أيِّ شِقٍّ كان للهِ مَصْرَعِي
وذلك في ذاتِ الإلهِ وإنْ يشَأْ ... يبارِكْ على أوصالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

ثم قام إليه عقبةُ بن الحارث فقتله.

وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيءٍ من جسدِه يعرفونه، وكان عاصمُ قتلَ عظيماً من عظمائهم يومَ بدر، فبعث الله عليه مثل الظلة من الدَّبر ـ الزنابير ـ فحمته

من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء[1].

قال ابن حجر: وفيه الوفاءُ للمشركين بالعهد، والتورّع عن قتل أولادِهم، والتلطف بمن أريدَ قتله، وإثبات كرامة الأولياء، والدعاء على المشركين بالتعميم، والصلاة عندَ القتل، وفيه إنشاءُ الشعر وإنشادُه عند القتل، ودلالة على قوّةِ يقينِ خبيب وشدته في دينه، وفيه أنَّ الله يبتلي عبدَه المسلم بما شاءَ، كما سبق في علمه ليثيبه، ولو شاء ربك ما فعلوه، وفيه استجابةُ دعاءِ المسلم وإكرامه حياً وميتاً. وغير ذلك من الفوائد مما يظهر بالتأمل.

وإنّما استجاب الله في حماية لحمه من المشركين ولم يمنعهم من قتله لما أراد من إكرامه بالشهادة، ومن كرامته حمايته من هتك حرمته بقطع لحمه، وفيه ما كان عليه مشركو قريش من تعظيم الحرم والأشهر الحرم[2].

القرّاء الشهداء:

وعن أنس رضي الله عنه قال: بعث النبيُّ ﷺ سبعين رجلاً بحاجة يقال لهم القرّاء، فعرض لهم حيان من بني سليم: رعل وذكوان عند بئر يقال لهم بئر معونة، فقال القومُ: والله ما إياكم أردنا، إنّما نحنُ مجتازون في حاجة للنبيِّ ﷺ، فقتلوهم، فدعا النبيُّ ﷺ عليهم شهراً في صلاة الغداة، وذلك بدء القنوت، وما كنا نقنت.

قال عبد العزيز راوي الحديث عن أنس: وسأل رجلٌ أنساً عن القنوت: أبعدَ الركوعِ أو عند الفراغِ من القراءة؟ قال: لا بل عند الفراغ من القراءة.

وفي رواية عنه قال: قنت رسول الله ﷺ شهراً بعد الركوع ليدعو على أحياءٍ من العرب.

وكان عددهم سبعين، وكان فيهم خالُ أنس بن مالك حرام بن ملحان، ففي الحديث عن أنس أيضاً أنَّ النبيَّ ﷺ بعث خاله ـ أخ لأم سليم ـ في سبعين

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٠٨٦.
(٢) فتح الباري: ٧/ ٣٨٥.

راكباً، وكان رئيسَ المشركين عامرُ بن الطفيل خيّر بين ثلاث خصال ـ أي خيّر النبيَّ ﷺ بين ثلاث خصال ـ فقال: يكونُ لك أهل السهل ولي أهل المدر، أو أكون خليفتك، أو أغزوك بأهل غطفان بألف وألف. فطعن[1] عامرُ في بيت أم فلان فقال: غُدّةٌ كَغُدَّةِ البكر، وفي بيتِ امرأةٍ من آل بني فلان. ائتوني بفرسي، فمات على ظهر فرسه.

فانطلق حرام أخو أم سليم، وهو رجل أعرج، ورجل من بني فلان، قال: كونا قريباً حتى آتيهم، فإن آمنوني كنتم، وإن قتلوني أتيتم أصحابكم. فقال: أتؤمنوني أبلغ رسالة رسول الله ﷺ؟ فجعل يحدِّثهم، وأومئوا إلى رجل فأتاه من خلفه فطعنه، حتى أنفذه بالرمح، قال: اللهُ أكبرُ فزتُ وربِّ الكعبةِ، فلُحِقَ الرجل فقتلوا كلهم غيرَ الأعرج، كان في رأسِ جبلٍ، فأنزل الله علينا، ثم كان من المنسوخ «إنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا» فدعا النبيُّ ﷺ عليهم ثلاثين صباحاً، على رعل وذكوان وبني لحيان وعُصية الذين عصوا الله ورسوله ﷺ[2].

وكان من الذين قتلوا يوم بئر معونة عامر بن فُهيرة، الذي كان له دورٌ في أثناء هجرة النبيِّ ﷺ ـ كما مرَّ معنا في حديث الهجرة ـ ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: فقتل عامرُ بن فُهيرة يوم بئر معونة.

وعن أبي أسامة قال: قال هشام بن عروة: فأخبرني أبي قال: لما قتل الذين ببئر معونة وأسر عمرو بن أمية الضمري، قال له عامر بن الطفيل: مَنْ هذا؟ فأشار إلى قتيل، فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فُهيرة. فقال: لقد رأيتُه بعدما قتل رفع إلى السماء، حتى إنّي لأنظرُ إلى السماء بينه وبين الأرض، ثم وضع، فأتى النبيَّ ﷺ خبرُهم، فنعاهم فقال: «إنَّ أصحابكم قد أصيبوا، وإنهم قد سألوا ربهم فقالوا: ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا، فأخبرهم عنهم»، وأصيبَ فيهم يومئذ: عروة بن أسماء بن السلط، فسمى عروة به، ومنذر بن عمرو، وسمى به منذراً[3].

---

(١) طُعن: أي أصيب بالطاعون.

(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٠٨٨ ـ ٤٠٨٩ ـ ٤٠٩١.

(٣) المصدر السابق، رقم ٤٠٩٣.

وقد حزن عليهم النبيُّ ﷺ حزناً شديداً حتى قال أنس رضي الله عنه: قنت رسولُ الله ﷺ شهراً حين قتل القرّاء، فما رأيتُ رسول الله ﷺ حزن حزناً قط أشدَّ منه[1].

* * *

(١) المصدر السابق في الجنائز، رقم ١٣٠٠.

الفصل الرابع

غزوة الخندق أو الأحزاب

وقعت هذه الغزوة في السنة الخامسة من الهجرة على القول المعتمد.

وسمِّيت **غزوة الخندق** لأن النبيَّ ﷺ وأصحابه حصّنوا المدينة المنورة بحفر الخندق. والذي أشار بذلك سلمان الفارسي رضي الله عنه فيما ذكر أصحابُ المغازي، قال سلمان للنبيِّ ﷺ: إنّا كنا بفارس إذا حُوصرنا خندقنا علينا.

وسميت **غزوة الأحزاب** لاجتماع طوائف من المشركين على حرب المسلمين، وهم قريش، وغطفان، وسُليم، واليهود ومن تبعهم، جاؤوا بقيادة أبي سفيان بن حرب، بتحريضٍ من يهود بني النضير، الذين أخرجهم النبيُّ ﷺ من حصونهم في المدينة المنورة ـ كما مرَّ معنا ـ فكان مجموعهم عشرة آلاف على القول المشهور، وفي قول آخر خمسة عشر ألفاً.

ونزلت أكثر آيات سورة الأحزاب في هذه الغزوة، وبرز فيها كثير من الشمائل الرفيعة والأخلاق الكريمة للنبيِّ ﷺ، وكانت من أحرج الأوقات التي مرّتْ على النبيِّ ﷺ في حياته، والشدائدُ والمحن تظهِرُ حقيقة الرجال وصفاء معدنهم، ولقد كشفت أحداث هذه الغزوة عن المعدن الثمين الكريم للنبي ﷺ.

وبادرت الآيات في مستهل حديثها عنها إلى وصف أهوالها وأخطارها بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

حفر الخندق:

وأخذ النبيُّ ﷺ مع أصحابه في حفر الخندق، وشارك بنفسه في العمل، وتحمّل مع الصحابة رضي الله عنهم مشقة العمل.

ففي الحديث عن **سهل بن سعد** رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في الخندق وهم يحفرون، ونحن ننقلُ الترابَ على أكتافنا، فقال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ لا عيشَ إلا عيش الآخرة، فاغفر للمهاجرين والأنصار».

وعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداةٍ باردةٍ، فلم يكن لهم عبيدٌ يعملون ذلك لهم، فلما رآى ما بهم من النصب والجوع قال:

اللهــمَّ إنّ العيــشَ عيــشُ الآخــره ... فــاغفــر لــلأنصــار والمهــاجــره

فقالوا مجيبين له:

نحــن الــذيــن بــايعــوا محمّــدا ... علــى الجهــاد مــا بقينــا أبــدا

وعن **أنس** رضي الله عنه أيضاً قال: جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة، وينقلون التراب على متونهم - ظهورهم - وهم يقولون:

نحــنُ الــذيــن بــايعــوا محمّــدا ... علــى الإســلام مــا بقينــا أبــدا

قال: يقول النبي ﷺ وهو يجيبهم:

اللهــمَّ إنّــه لا خيــر إلا الآخــره ... فبــارك فــي الأنصــار والمهــاجــره

قال: يؤتون بملء كف من الشعير، فيصنع لهم بإهالة سنخة[1] توضع بين يدي القوم، والقوم جياع، وهي بشعة في الحلق، ولها ريح منتن[2].

وعن **البراء** رضي الله عنه قال: لمّا كان يوم الأحزاب، وخندق رسول الله ﷺ، رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الترابُ جلدةَ بطنِه، وكان كثيرَ الشعرِ، فسمعتُه يرتجز بكلمات ابنِ رواحة[3].

---

(١) أي بدهن متغير الطعم.

(٢) صحيح البخاري في المغازي الأحاديث، رقم ٤٠٩٨ - ٤١٠٠.

(٣) هو عبد الله بن رواحة من شعراء الأنصار رضي الله عنهم استشهد في غزوة مؤتة.

اللهمّ لـولا أنـتَ مـا اهتـدينـا ولا تصـدّقنـا ولا صلّينـا
فـأنـزلـنْ سكينـةً علينـا وثبّـتِ الأقـدامَ إنْ لاقينـا
إنَّ الأُلـى قـد بغـوا علينـا وإنْ أرادوا فتنـةً أبينـا

قـال: ثم يمد صوته بآخرها، وفي رواية ثانية ويرفع بها صوتـه: أبينـا، أبينا[1].

ولقد تمكن الصحابة رضي الله عنهم مع رسول الله ﷺ من حفر الخندق في وقت قصير، قبل وصول جيش الأحزاب، رغم المصاعب الهائلة التي واجهتهم، ومن أشدِّها عليهم البرد والجوع، ومن المعروف أنَّ البردَ والجوعَ من أكبر المعوقات التي تؤخر إنجازَ العمل، فلا يستطيعُ أي عامل يعاني من البرد والجوع الشديدين أن يعمل أبسطَ الأعمال، فما بالك بأشقِّ الأعمال، من حفر للأرض، وتكسير للصخر، ونقل للتراب والأحجار. ولكنّه رسول الله ﷺ، النبيُّ القائد، الذي زرع في قلوبهم شعلة الإيمان، وبث في سواعدهم عزم اليقين، فشقوا الأرض وقطعوا الصخر رغم ما بهم من تعب ونصب وبرد وجوع.

الأسوة الحسنة:

وكيف لا يعملون ورسولُ الله ﷺ أسوتهم وقدوتهم، يعمل معهم، ويتحمل شدة البرد وقسوة الجوع أكثر منهم، ففي (سنن الترمذي) عن أبي طلحة رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع، ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين. وصدق الله تعالى في قوله الكريم: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وفي معنى قوله سبحانه: ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ وجهان:

أحدهما: **أنه في نفسه أسوة حسنة**، أي قدوة، وهو المؤتسى به، أي المقتدى به.

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤١٠٦.

وثـانيهما: **أن فيه خصلـة من حقها أن يؤتسى بها وتتبع**، وهي المواساة بنفسه، وما أكثر ما واسى رسول الله ﷺ بنفسه المؤمنين في غزوة الأحزاب.

قال ابن كثير: هذه الآية أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقوالـه وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبيِّ ﷺ في صبـره ومصابرته، ومرابطته ومجاهدته، فقال للذين تضجَّروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]

ولم يؤثر ﷺ نفسَه بشيءٍ دون أي فرد من أفراد أمته، ولا حتى بلقمة طعام يسد بها جوعه، فكان لا يأكلُ حتى يطعمَ أصحابه، فلا يبقى فيهم جائع.

فعن جابر رضي الله عنه قال: إنا كنّا يوم الخندق نحفر، فعرضت كديـةٌ شديدةٌ فجاؤوا إلى النبيِّ ﷺ فقالوا: هذه كديةٌ (صخرة) عرضتْ في الخندق، فقال: «أنا نازل» ثم قام وبطنُه معصوبٌ بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبيُّ ﷺ المِعْوَلَ، فضرب فعاد كثيباً أهيل ـ رملاً لا يتماسك ـ فقلت: يارسول الله ائذن لي إلى البيت، فقلتُ لامرأتي رأيتُ بالنبيِّ ﷺ خمصاً شديداً ـ جوعاً ـ فعندك شيء؟، فقالت: عندي شعير وعناق (أنثى المعز)، فذبحت العناق، وطحنتُ الشعير، حتى جعلنا اللحم في البُرمة ـ القدر ـ ثم جئت النبيَّ ﷺ فقلت: طعيم لي، فقم أنت يارسول الله ورجل أو رجلان.

قال: «كم هو؟»، فذكرت له، فقال: «كثير طيب، قل لها: لا تنزعي البرمة ولا الخبزَ من التنّور حتى آتي» فقال: «يا أهل الخندق إنّ جابراً قد صنع لكم سؤراً ـ أي شيئاً من الطعام ـ فحيهلا بكم» فقام المهاجرون والأنصار، فدخلتُ عليها فقلتُ: ويحكِ قد جاء النبيُّ ﷺ والمهاجرون والأنصار ومن معهم، قلت: هل سألك؟، قلت: نعم، قال ﷺ: «ادخلوا ولا تضاغطوا ـ أي لا تـزاحموا» فجعل يكسـرُ الخبزَ، ويجعلُ عليه اللحم، ويخمّرُ البرمةَ والتنورَ إذا أخذَ منه، ويقرِّبُ إلى أصحابـه، فلم يزل يكسِـرُ ويغرفُ حتى شـبعوا، وبقي منه فقال: «كلي هذا، وأهدي، فإنَّ الناسَ أصابتهم مجاعةٌ»(١).

---

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري في المغازي، رقم ٤١٠١.

التبشير بالنصر:

وكان ﷺ يبشرهم بالنصر، وهو في قلب الخندق يضربُ الصخر بمعوله، يشد من عزائمهم، ويقوي هممهم، لا النصر في معركة الأحزاب فقط، إنّما النصرُ على أعظم دول الأرض، على دولتي الفرس والروم، ويخبرهم بأنَّ الإسلام سينتشر، ويمتد رواقه إلى مشارق الأرض ومغاربها.

قال ابن إسحاق في (السيرة): وحُدّثتُ عن **سلمان الفارسي** أنه قال: ضربتُ في ناحية الخندق، فغلظتْ عليَّ صخرةٌ، ورسولُ الله ﷺ قريبٌ مني، فلمّا رآني أضربُ، ورأى شدةَ المكانِ عليَّ نزل، فأخذَ المعولَ من يدي، فضربَ به ضربةً لمعت تحت المعول برقةٌ، ثم ضربَ به ضربةً أخرى، فلمعت تحته برقةٌ أخرى، ثم ضربَ الثالثة فلمعت تحته برقةٌ أخرى. قلت: بأبي أنتَ وأُمي يارسول الله، ما هذا الذي رأيتُ لمعَ تحت المعول، وأنتَ تضربُ؟، قال: «أو قد رأيتَ ذلك يا سلمان؟»، قلت: نعم، قال: «أما الأولى فإنَّ الله فتحَ عليَّ بها اليمن، وأمّا الثانيةُ فإنَّ الله فتحَ عليَّ بها الشام والمغرب، وأمّا الثالثة فإنّ الله فتحَ عليَّ بها المشرق».

وروي عن **البراء** رضي الله عنه قال: لما كان حين أمرنا رسولُ الله ﷺ بحفر الخندق، عرضت لنا في بعض الخندق صخرةٌ لا تأخذُ فيها المعاول، فاشتكينا ذلك للنبيِّ ﷺ، فجاءَ فأخذَ المعول، فقال: «بسم الله» ثم ضربه فنشر ثلثَها، وقال: «اللهُ أكبرُ أُعطيتُ مفاتيحَ الشام، واللهِ إنِّي لأبصرُ قصورها الحمرَ الساعةَ» ثم ضربَ الثانية فقطع ثلثاً آخر فقال: «اللهُ أكبرُ أُعطيتُ مفاتيحَ فارسَ، واللهِ إنِّي لأبصرُ قصرَ المدائنِ الأبيضِ الآن» ثم ضربَ الثالثةَ فقطعَ بقيّةَ الحجرِ، فقال: «الله أكبرُ أُعطيتُ مفاتيح اليمن، واللهِ إنّي لأبصرُ أبوابَ صنعاء من مكاني الساعة»[1].

وكان **أبو هريرة** رضي الله عنه يقول في زمن عثمان رضي الله عنه: افتتحوا ما بدا لكم، فوالذي نفسُ أبي هريرة بيده ما افتتحتم من مدينة ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة، إلا وقد أعطى الله محمّداً ﷺ مفاتيحها قبل ذلك[2].

---

(١) رواه أحمد في المسند والنسائي في السنن.

(٢) إنارة الدجى في مغازي خير الورى.

ويؤيّدُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧].

فكلُّ فتحٍ في الإسلام حدث بعد النبيِّ ﷺ أُعطي عليه الصلاة والسلام مفاتيحه من قبلُ، حين كان يحفر الأرض، ويضرب بالمعول في قلب الخندق، وقد بشر به أصحابه، وكان علماً من أعلامِ صدق نبوته، وصحّة رسالته عليه الصلاة والسلام.

الحصار:

وعندما وصلت جيوش الأحزاب، خرج رسولُ الله ﷺ والمسلمون، حتى جعلوا ظهورهم إلى جبل سلع، في ثلاثة آلاف، فضربَ هناك عسكره، وجعل الخندقَ بينه وبين جيوش الأحزاب، واستعمل على المدينة المنورة ابنَ أُمِّ مكتوم، وأمر بالذراري والنساء فجُعلوا في الآطام، وهي حصونٌ منيعة كانت داخل المدينة.

ولمّا سمع ﷺ بنقض بني قريظة عهدهم وغدرهم ردَّ ثلثَ الجيش إلى داخل المدينة لحماية النساء والأطفال من غدر بني قُريظة، وهذا يدلُّ على حرصه ﷺ على حماية الضعفاء من الأمة، فسلامتهم مقدمة على سلامة المجاهدين أنفسهم، وعلى المجاهدين أن يكونوا حرماً وحرساً للنساء والأطفال والضعفاء، ولا يجوزُ لهم أن يتخذوا من النساء والأطفال حِرزاً يختبئون وراءه، وحصناً يتحصّنون به، فيعرضونهم بهذا العمل لضرب العدو لهم، وفتكه بهم، وانتقامه منهم.

ومع عظيم توكله عليه الصلاة والسلام، وثقته بربه سبحانه وتعالى، فقد قام ﷺ بأعلى أعمال الحيطة العسكرية التي يقوم بها كلُّ قائدٍ عسكري بعيدِ النظر.

نظّمَ ﷺ أصحابه، فجعل لواءَ المهاجرين بيد زيد بن حارثة، ولواءَ الأنصار بيد سعد بن عبادة، وعلى الحرس عَبّاد بن بشر، وجعل كلمة التعارف بين المسلمين في ليالي الخندق: «حم لا ينصرون».

ونشر جنوده حول الخندق من الداخل لحراسته، ومنع جنود الأحزاب من اجتيازه. وكان ﷺ يشارِكُ أصحابه في الحراسة ليلاً، ويقفُ بنفسه في أخطر المواقع، كما كان يتفقّدُ الحرسَ في الليل بنفسه عليه الصلاة والسلام.

ولما اشتدّ الحصارُ في بعض الأيام أخَّر عليه الصلاة والسلام الصلاة عن وقتها، ففي الحديث عن علي رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال يوم الخندق: «ملأ اللهُ عليهم بيوتَهم وقبورَهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابتِ الشمسُ».

وعن جابر بن عبد الله أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاءَ يوم الخندق بعدما غربتِ الشمسُ، جعل يسبُّ كفارَ قريشٍ، وقال: يارسول الله! ما كدتُ أن أصلي حتى كادتِ الشمسُ أن تغربَ. قال النبيُّ ﷺ: «واللهِ ما صليتُها». فنزلنا مع النبي ﷺ بطحان، فتوضأنا لها، فصلى العصرَ بعدما غربتِ الشمسُ، ثم صلّى بعدها المغربَ(١).

والجدير بالذكر أنه ورد في فضل الحراسة عدة أحاديث ليست على شرط البخاري.

منها حديث **عثمان** مرفوعاً: «حرسُ ليلةٍ في سبيل الله خيرٌ من ألف ليلة يُقام ليلُها ويُصام نهارُها» أخرجه ابن ماجه والحاكم.

وحديث **سهل بن معاذ** عن أبيه مرفوعاً: «مَنْ حرسَ وراءَ المسلمينَ متطوِّعاً لم يرَ النارَ بعينهِ إلا تَحِلَّةَ القسم» أخرجه أحمد.

وحديث **أبي ريحانة** مرفوعاً: «حُرِّمَتِ النارُ على عينٍ سهرتْ في سبيلِ اللهِ» أخرجه النسائي، ونحوه للترمذي عن ابن عباس، وللطبراني من حديث معاوية بن حيدة، ولأبي يعلى من حديث أنس، وإسنادُها حسنٌ، وللحاكم عن أبي هريرة نحوه(٢).

ولمّا اشتدّ الحصارُ توجه النبيُّ ﷺ إلى الله تعالى داعياً، ففي الحديث عن **عبد الله بن أبي أوفى** رضي الله عنه قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «اللهمَّ منزلَ الكتابِ، سريعَ الحسابِ، اهزمِ الحزابَ، اللهمَّ اهزمهُم وزلزِلْهُم»(٣).

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤١١١ ـ ٤١١٢.
(٢) فتح الباري: ٦/ ٨٣.
(٣) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤١١٥.

هزيمة الأحزاب:

واستجاب الله دعاء النبيِّ ﷺ فهزم الأحزاب شرّ هزيمة، وأخبر عن ذلك في قوله الكريم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٩].

وقوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾، أي أرسلنا على جنود الأحزاب ريحاً، وكانت ريحاً باردةً شديدةً، قوّضت خيامَهم، وأكفأت قدورَهم، وأطفأت نيرانَهم، وسفتِ الترابَ في وجوههم وعيونهم، وهي الريحُ التي قال عنها النبي ﷺ: «نُصِرْتُ بالصَّبَا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبور»[1].

وقوله: ﴿ وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ أي: وأرسلنا عليهم أيضاً جنوداً لم تروها، وهم الملائكة الذين بثوا الرعب في قلوب الأحزاب، فأسمعوهم قعقعة السلاح والتكبير، فاضطربت خيولُهم ونفرت، فتنادوا فيما بينهم: النجاةَ النجاةَ، وانهزموا من غير قتال.

ويؤكد ذلك ما ورد في الحديث عن **أبي هريرة** رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: «لا إلهَ إلا الله وحدَه، أعزَّ جندَه، ونصرَ عبدَه، وغلبَ الأحزابَ وحدَه، فلا شيءَ بعدَه»[2].

ووصف **حذيفة بن اليمان** رضي الله عنه هزيمتهم فقال: لقد رأيتُنا مع رسول الله ﷺ ليلةَ الأحزاب، وأخذتنا ريحٌ شديدةٌ وَقَرٌّ، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجلٌ يأتينا بخبرِ القوم جعلَه اللهُ معي يومَ القيامةِ؟» فسكتنا فلم يجبه مِنّا أحد، ثم قال: «ألا رجلٌ يأتينا بخبرِ القومِ جعلَه اللهُ معي يومَ القيامةِ؟» فسكتنا فلم يجبه منا أحد. فقال: «قم ياحذيفةُ، فائتنا بخبرِ القوم» فلم أجد بُدّاً إذ دعاني باسمي أن أقومَ، قال: «اذهب فائتني بخبر القوم، ولا تذعرهم علي» أي لا تحركهم عليك، فإنّهم إن أخذوك كان ذلك ضرراً عليّ، فلمّا وليتُ من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام، حتى أتيتهم، فرأيتُ أبا سفيان يُصْلِي ظهرَه بالنار، أي يدفئه، فوضعتُ

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤١٠٥.
(٢) المصدر السابق، رقم ٤١١٤.

سهماً في كبد القوس فأردتُ أن أرميه، فذكرتُ قولَ رسول الله ﷺ «ولا تذعرهم عليّ» ولو رميتُه لأصبتُه، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام، فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغتُ قرَرَتُ. فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءةٍ كانتْ عليه يصلّي فيها، فلم أزل نائماً حتى أصبحتُ، فلمّا أصبحتُ قال: «قم يانومان»[1].

ورجحت كفةُ النبيِّ ﷺ والمسلمين بعد هزيمة الأحزاب حتى قال النبيُّ ﷺ: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحنُ نسيرُ إليهم»[2].

قال ابن حجر رحمه الله: وفيه إشارة إلى أنهم رجعوا بغير اختيارهم، بل بصنع الله تعالى لرسوله ﷺ، وذكر الواقدي أنه ﷺ قال ذلك بعد أن انصرفوا، وذلك لسبع بقين من ذي القعدة، وفيه عَلَمٌ من أعلام النبوة، فإنه ﷺ اعتمر في السنة المقبلة فصدته قريش عن البيت، ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها، فكان ذلك سبب فتح مكة، فوقع الأمر كما قال ﷺ.

وأخرج البزار بإسناد حسن من حديث جابر شاهداً لهذا الحديث ولفظه: إنّ النبيَّ ﷺ قال يومَ الأحزاب وقد جمعوا له جموعاً كثيرة: «لا يغزونكم بعدَ هذا أبداً، ولكنْ أنتم تغزونهم»[3].

وبدأ يتحقق وعد الله تعالى الذي ذكره في قوله الكريم: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥]، وذكروا في سبب النزول أن النبيَّ ﷺ مكث عشر سنين خائفاً يدعو إلى الله سِرّاً وعلانية، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة، فمكث بها هو وأصحابه خائفون، يصبحون في السلاح، ويمسون فيه، فقال رجل: ما يأتي علينا يومٌ نأمنُ فيه ونضعُ عنّا السلاحَ؟ فقال النبيُّ ﷺ: «لا تغبرون إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليس

---

(١) صحيح مسلم، ص١٧٨٨.
(٢) صحيح البخاري، ص٤١١٠.
(٣) فتح الباري: ٧/ ٤٠٥.

فيه حديدة» فأنزل الله هذه الآية: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ [النور: ٥٥][1].

فالله سبحانه قد هزم الأحزاب، وجاء النصر بلا قتال، ببركة الأسوة الحسنة الطيبة لرسول الله ﷺ وثبات المؤمنين وصدقهم، كما قال الله تعالى: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

* * *

(١) تفسير الطبري: ١٨/ ١٢٢.

الفَصْلُ الخَامِسُ

غزوة بني قريظة

نقض بني قُرَيْظَة العهد:

نقض يهود بني قُريظة عهدهم مع النبيِّ ﷺ في أثناء الحصار، واتصلوا سِرّاً بقادة الأحزاب، واتفقوا معهم أن يمكّنوهم من دخول المدينة المنورة من جهة حصونهم. وتسامع المسلمون بهذا، وأراد ﷺ أن يتأكدَ من صحته، فأرسل الزبيرَ بن العوام رضي الله عنه ليأتيه بخبرهم. ففي الحديث عن عبد الله بن الزبير قال: كنتُ يوم الأحزاب جعلت أنا وعمر بن أبي سلمة في النساء، فنظرتُ، فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف إلى بني قريظة مرتين أو ثلاثاً، فلمّا رجعتُ قلت: يا أبتِ رأيتُك تختلِفُ، قال: أو هل رأيتني يابني؟، قلت: نعم. قال: كان رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يأتِ بني قريظةَ فيأتيني بخبرهم؟» فانطلقتُ، فلمّا رجعتُ جمع لي رسولُ الله ﷺ أبويه فقال: «فداك أبي وأمي»(١).

واشتدَّ الخوفُ، وعظمَ البلاءُ لتظاهر الأعداء عليهم من جميع الجهات، ومن لطفه سبحانه وتعالى بالمؤمنين أنّه هدى إلى الإيمان رجلاً من كفار غطفان اسمه نُعيم بن مسعود، فأتى رسول الله ﷺ سرّاً فقال: يارسول الله إني أسلمتُ، وإنّ قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئتَ، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنما أنتَ فينا رجلٌ واحدٌ، فخذِّلْ عنا إن استطعتَ، فإن الحرب خدعةٌ»(٢).

وفي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال النبيُّ ﷺ: «الحربُ خدعةٌ»(٣).

---

(١) صحيح البخاري في الفضائل، رقم ٣٧٢٠.

(٢) السيرة لابن هشام: ٢/ ١٣٧.

(٣) صحيح البخاري في الجهاد، رقم ٣٠٣٠.

وذكر الواقدي أنَّ أوّلَ ما قال النبيُّ ﷺ «الحرب خدعة» في غزوة الخندق[1].

وذكر ابنُ إسحاق في (السيرة) أنه كان لنُعيم دور كبير في إشاعة الفرقة، وعدم الثقة بين الأحزاب وبين بني قريظة.

الخروج إلى حصار بني قُريظة:

ولمّا رجع النبيُّ ﷺ من موضع الخندق الذي كان يواجه فيه الأحزاب إلى بيته، أمره الله تعالى أن يخرجَ إلى يهودِ بني قريظة، الذين نقضوا عهدهم معه ﷺ، وظاهروا الأحزابَ عليه. ففي الحديث عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: لمّا رجعَ النبيُّ ﷺ من الخندق ووضعَ السلاحَ واغتسل، أتاه جبريلُ عليه السلام، فقال: قد وضعتَ السلاحَ، واللهِ ما وضعناه، فاخرجْ إليهم، قال: «فإلى أين؟»، قال: ها هنا. وأشار إلى قريظة، فخرجَ النبيُّ ﷺ إليهم[2].

ويبدو أن مجيء جبريل ومن معه من الملائكة، كان بعد ظهر ذلك اليوم، وبادر النبيُّ ﷺ إلى تنفيذِ ما أمر به، فأمرَ أصحابه أن يتوجهوا فوراً إلى بني قريظة، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبيُّ ﷺ يوم الأحزاب: «لا يصلينَّ أحدٌ العصرَ إلا في بني قُريظـة» فأدرك بعضُهم العصرَ في الطريـق، فقال بعضهم: لا نصلّي حتى نأتيهم، وقال بعضهم: بل نصلّي، لم يرد منا ذلك. فُذِكرَ ذلك للنبيِّ ﷺ فلم يعنِّف واحداً منهم[3].

وها هو **أنس بن مالك** رضي الله عنه يستحضر القصة حتى كأنه ينظرُ إليها مشخصةً بعد مدة طويلة فيقول: كأنِّي أنظرُ إلى الغبار ساطعاً في زقاق بني غنم، موكب جبريل حين سار رسولُ الله ﷺ إلى بني قريظة[4].

حكم سعد بن معاذ فيهم:

حاصرهم النبيُّ ﷺ مع أصحابه بضعَ عشرةَ ليلةً حتى أجهدهم الحصارُ،

---

(١) فتح الباري: ٦/ ١٥٨.

(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤١١٧.

(٣) المصدر السابق، رقم ٤١١٩.

(٤) المصدر السابق، رقم ٤١١٨.

وقذف الله تعالى الرعبَ في قلوبهم، وأخبرَ عن ذلك في قوله الكريم: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦]، فنزلوا من حصونهم مستسلمين لحكمه ﷺ فيهم، فردَّ الحكمَ إلى سعد بن معاذ رضي الله عنه سيدِ الأوس، وكانوا ـ كما في (صحيح مسلم) ـ حلفاءَه، فعن **أبي سعيد الخدري** قال: نزل أهل قُريظة على حكم سعد بن معاذ، فأرسل رسولُ الله ﷺ إلى سعدٍ فأتاه على حمار، فلمّا دنا قريباً من المسجد، قال رسول الله ﷺ للأنصار: «قوموا إلى سيدكم» أو «خيركم» ثم قال: «إنَّ هؤلاء نزلوا على حُكمِكَ». قال: تقتلُ مقاتلتَهم، وتسبى ذريتَهم، قال: فقال النبيُّ ﷺ: «قضيتَ بحكم الله» وربما قال: «قضيتَ بحكمِ الملك» وفي رواية ثانية: فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمتَ فيهم بحكمِ اللهِ»[1].

وفي (صحيح البخاري) «فنزلوا على حكمه، فردَّ الحكمَ إلى سعد» كأنهم أذعنوا للنزول على حكمه ﷺ، فلّما سأله الأنصار فيهم ردَّ الحكمَ إلى سعد.

ووقع بيان ذلك عند ابن إسحاق قال: لمّا اشتدّ بهم الحصار، أذعنوا إلى أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فتوافدت الأوسُ، فقالوا: يارسول الله قد فعلتَ في موالي الخزرج ـ أي بني قَيْنُقاع ـ ماعلمتَ. فقال: «ألا ترضونَ أن يحكمَ فيهم رجلٌ منكم؟»، قالوا: بلى، قال: «فذلك إلى سعد بن معاذ».

وفي كثير من السير أنّهم نزلوا على حكم سعد.

ويجمع بأنهم نزلوا على حكمه قبل أن يحكم فيهم سعد، ونحوه في حديث **جابر** عند ابن عائذ، فحصل في سبب ردِّ الحكم إلى سعد بن معاذ أمران: أحدهما: **سؤال الأوس**، والآخر **إشارةُ أبي لبابة** ـ وكان أشارَ إليهم أنَّ الحكمَ سيكون الذبحُ ـ ويحتمل أن تكون الإشارة إثر توقفهم، ثُمَّ لما اشتدَّ الأمرُ بهم في الحصار، عرفوا سؤال الأوس، فأذعنوا إلى النزول على حكم النبيِّ ﷺ، وأيقنوا بأنّه يردُّ الحكمَ إلى سعد.

وفي رواية علي بن مسهر عن هشام بن عروة عند مسلم: فردَّ الحكمَ فيهم

---

(١) صحيح مسلم في الجهاد، رقم ١٧٦٨.

إلى سعد، وكانوا حلفاءه[1].

وفاةُ سعدِ بن معاذ رضي الله عنه:

وكان سعد بن معاذ سيد الأوس رضي الله عنه قد أصيبَ أثناءَ الحصار في غزوة الخندق بسهمٍ في أَكْحُلِه، وهو عِرْقٌ في وسطِ الذِّراع.

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: أصيبَ سعدٌ يوم الخندق، رماه رجلٌ من قريش يقال له حِبّان بن العَرَقة، رماه في الأكحل، فضربَ النبيُّ ﷺ خيمةً في المسجد ليعودَه من قريبٍ، فلمّا رجعَ رسول الله ﷺ من الخندق، وضع السلاحَ واغتسلَ، فأتاه جبريل عليه السلام وهو ينفضُ رأسَه من الغبار، فقال: قد وضعتَ السلاح، والله ما وضعتُه، أخرج إليهم. قال النبيُّ ﷺ: «فأين؟» فأشار إلى بني قريظة. فأتاهم رسولُ الله ﷺ فنزلوا على حكمه، فردَّ الحكم إلى سعد. قال: فإنِّي أحكمُ فيهم أن تقتلَ المقاتلةَ، وأن تسبي النساءَ والذريةَ، وأن تقسمَ أموالهم.

قال هشام فأخبرني أبي عن عائشة أنَّ سعداً قال: اللهمَّ إنك تعلمُ أنّه ليسَ أحبَّ إليَّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذّبوا رسولك وأخرجوه، اللهمَّ فإنِّي أظنُّ أنك قد وضعتَ الحربَ بيننا وبينهم، فإن كان بقيَ من حربِ قريشٍ فأبقني له حتى أجاهدهم فيك، وإن كنتَ وضعتَ الحربَ فافجرها، واجعل موتتي فيها، فانفجرت من لبته، فلم يرعهم ـ وفي المسجد خيمةٌ من بني غفار ـ إلا الدمُ يسيلُ إليهم، فقالوا: يا أهلَ الخيمةِ، ما هذا الذي يأتينا مِنْ قِبَلِكُم؟ فإذا سعد يغذو جرحُه دماً، فماتَ منها رضي الله عنه[2].

وقوله: «فانفجرت من لبته» أي انفجرت من جرحه، وكان موضع الجرح وَرِمَ حتى اتصلَ الورمُ إلى صدره، فانفجرَ مِنْ ثَمَّ، فما زال الدمُ يسيلُ حتى مات رضي الله عنه.

ودعاء سعد يدل على جواز تمنّي الشهادة، وهو مخصوصٌ من عموم النهي

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٤١٤.

(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤١٢٢.

عن تمني الموت، فقد روى أنسٌ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَتَمَنَّيَنَّ أحدُكم الموتَ لِضُرٍّ نزلَ بهِ، فإنْ كانَ لا بُدَّ متمنياً فليقل: اللهمَّ أحيني ما كانتِ الحياةُ خيراً لي، وتوفَّني إذا كانتِ الوفاةُ خيراً لي»[1].

وفي مسند السيدة عائشة عند الإمام أحمد قالت: خرجتُ يومَ الخندق أقفو الناسَ، فسمعتُ وئيدَ الأرضِ ورائي، فإذا أنا بسعد بن معاذ رضي الله عنه ومعه ابنُ أخيه الحارث بن أوس، يحمِلُ مجنَّه ـ ترسه ـ فجلستُ إلى الأرض، فمرَّ سعدٌ، وعليه دِرْعٌ من حديد قد خرجت منه أطرافه، فأنا أتخوَّفُ على أطرافِ سعد، وكان سعدٌ رضي الله عنه من أعظمِ الناسِ وأطولهم، فمرَّ وهو يرتجز:

لبِّثْ قليلاً يَشْهَدُ الهيجا جَمَلْ ما أحسنَ الموتَ إذا حانَ الأَجَلْ[2]

وله رضي الله عنه مناقبُ كثيرة، منها ما ورد في الحديث عن جابر رضي الله عنه قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «اهتزَّ العرشُ لموتِ سعد بن معاذ» وفي رواية «اهتزَّ عرشُ الرحمنِ لموتِ سعد بن معاذ»[3].

والمراد باهتزازِ العرشِ استبشارُه وسرورُه بقدوم روحه، يقال لكل من فَرِحَ بقدوم قادمٍ عليه: اهتزَّ له، ومنه اهتزت الأرض بالنبات، إذا اخضرت وحسنت، ووقع ذلكَ من حديث ابن عمر عند الحاكم بلفظ «اهتزَّ العرش فرحاً به»[4].

ولما أهدى أُكيدر دومة الجندل إلى النبيِّ ﷺ حلةً من حريرٍ، فجعلَ أصحابُه يمسونها ويعجبونَ من لينها، فقال ﷺ: «أتعجبونَ مِنْ لينِ هذه؟ لمناديلُ سعد بن معاذ خيرٌ منها أو ألين»[5].

---

(١) صحيح مسلم في الذكر والدعاء، رقم ٢٦٨٠.
(٢) انظر كتاب السيدة عائشة للمؤلف في سلسلة أعلام المسلمين رقم (١٢) ط. دار القلم بدمشق.
(٣) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٢٨٠٣.
(٤) فتح الباري: ٧/ ١٢٤.
(٥) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٨٠٢.

رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم من الشجر والثمر:

بين ذلك **أنس بن مالك** رضي الله عنه فقال: لمّا قدمَ المهاجرون من مكة المدينةَ، قدموا وليس بأيديهم شيء، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار[1]، فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام، ويكفونهم العمل والمؤونة، وكانت أُمُّ أنس بن مالك، وهي تدعى أم سُليم، وكانت أم عبد الله بن أبي طلحة، كان أخاً لأنس لأمه. وكانت أعطت أم أنس رسولَ الله ﷺ عذاقاً[2] لها، فأعطاها رسول الله ﷺ أم أيمن مولاته أم أسامة بن زيد.

قال ابن شهاب: فأخبرني **أنسُ بن مالك** أن رسول الله ﷺ لمّا فرغ من قتال أهل خيبر - وفي رواية لما فتحت عليه قريظةُ والنضيرُ - وانصرفَ إلى المدينة ردَّ المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم، قال: فردَّ رسولُ الله ﷺ إلى أُمي عذاقها، وأعطى رسولُ الله ﷺ أُمَّ أيمن مكانها من حائطه.

قال ابن شهاب: وكان من شأن أم أيمن أم أسامة بن زيد أنها كانت وصيفةً لعبد الله بن عبد المطلب، وكانت من الحبشة، فلمّا ولدت آمنةُ رسولَ الله ﷺ بعدما توفي أبوه، فكانت أم أيمن تحضنه حتى كبرَ رسولُ الله ﷺ، فأعتقها، ثم أنكحها زيدَ بن حارثة، ثم توفيت بعدما توفي رسول الله ﷺ بخمسة أشهر[3].

وقد أيد ذلك قوله تعالى في معرض الثناء على الأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

* * *

(١) أراد بالعقار هنا النخل، قال الزجاج: العقار كل ما له أصل. وقيل: إنّ النخل خاصةً يقال له العقار.

(٢) جمع عذق وهي النخلة.

(٣) صحيح مسلم في الجهاد، رقم ١٧٧١.

الفَصْل السَّادِس

الغزوات بين الخندق والحديبية

غزوة ذات الرقاع وتشريع صلاة الخوف:

وهي غزوةٌ غزاها النبيُّ ﷺ قِبَلَ نجدٍ بعد غزوة خيبر، وبيّن **أبو موسى الأشعري** رضي الله عنه سبب تسمية هذه الغزوة بهذا الاسم فقال: خرجنا مع النبيِّ ﷺ في غزاة ونحن في ستة نفر، بيننا بعيرٌ نعتقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماي، وسقطت أظفاري، فكنا نلفُّ على أرجلنا الخِرقَ، فسميت غزوة ذات الرقاع، لما كنا نَعْصِبُ من الخِرَقِ على أرجلنا.

وحدث **أبو موسى** بهذا الحديث ثم كره ذاك قال: ما كنتُ أصنعُ بأن أذكره. كأنّه كرهَ أن يكونَ شيءٌ من عمله قد أفشاه[1].

وعن **جابر** رضي الله عنه قال: خرج النبيُّ ﷺ إلى ذاتِ الرقاع من نخلٍ، فلقي جمعاً من غطفان، فلم يكن قتالٌ، وأخافَ الناسُ بعضهم بعضاً، فصلّى النبيُّ ﷺ ركعتي الخوف[2].

وصلاةُ الخوف شرعها الله تعالى في حال المواجهةِ، وتوقع الخطر، بقوله الكريم: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤١٢٨.

(٢) المصدر السابق، رقم ٤١٢٧.

وعن **ابن عمر** قال: صلى رسول الله ﷺ صلاةَ الخوف في بعض أيامه، فقام طائفة معه، وطائفة بإزاء العدو، فصلّى بالذين معه ركعةً، ثم ذهبوا، وجاء الآخرون فصلّى بهم ركعة، ثم قضت الطائفتان ركعةً ركعةً. وقال ابن عمر: فإن كان خوفٌ أكثرُ من ذلك فصلِّ راكباً أو قائماً تومئ إيماءً[1].

غزوة بني المصطلق وتشريع التيمم:

بنو المصطلق بطنٌ من بطون قبيلة خُزاعة، بلغ النبيَّ ﷺ أنهم يجمعون له، وأنَّ قائدهم الحارثُ بن أبي ضرار، فخرجَ إليهم، حتى لقيهم على ماءٍ من مياههم يقال له: المريسيع. قريباً من الساحل، فأغار عليهم على حين غفلةٍ فأوقعَ بهم. ففي الحديث أنّ ابن عون قال: كتبتُ إلى نافع ـ مولى ابن عمر ـ فكتبَ إليَّ: إنَّ النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون، وأنعامُهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم، وسبى ذراريهم، وأصابَ يومئذ جُويرية. حدثني به ابن عمر وكان في ذلك الجيش[2].

قوله: «وأصاب يومئذ جويرية» بنت الحارث بن أبي ضرار... وكان أبوها سيدَ قومه، وقد أسلمَ بعد ذلك[3].

وقد أخرج الطحاوي من طريق نافع عن **ابن عمر** في قصة جُويرية بنت الحارث أن النبيَّ ﷺ جعلَ عِتقَها صداقَها، ومرَّ معنا أنه ﷺ فعل ذلك أيضاً عندما تزوّج صفية بنت حُيي بن أخطب.

وفي هذه الغزوة شرع الله التيممَ، وأنزل الله فيه: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وفي الحديث عن **عائشة** زوج النبي ﷺ قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح مسلم في كتاب الصلاة، ص٨٣٩.
(٢) صحيح البخاري في العتق، رقم ٢٥٤١.
(٣) فتح الباري: ٥/ ١٧١.

في بعض أسفاره، حتى إذا كُنا بالبيداءِ ـ أو بذاتِ الجيش ـ انقطع عِقْدٌ لي، فأقام رسولُ الله ﷺ على التماسه، وأقامَ الناسُ معه، وليسوا على ماءٍ، فأتى الناسُ إلى أبي بكر الصديق فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشةُ؟ أقامت رسولَ الله ﷺ والناسَ وليسوا على ماء، وليس معهم ماءٌ. فجاءَ أبو بكر ورسولُ الله ﷺ واضعٌ رأسَه على فخذي قد نام، فقال: حبستِ رسول الله ﷺ والناسَ وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماء. فقالت عائشةُ: فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء أن يقول، وجعل يطعنني بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرّك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي. فقام رسولُ الله ﷺ حين أصبحَ على غيرِ ماءٍ، فأنزل الله آية التيمم، فتيمموا. قال أُسيد بن الحضير: ما هي بأول بركتكم ياآل أبي بكر. قالت: فبعثنا البعيرَ الذي كنتُ عليه فأصبنا العقدَ تحته[1].

غزوة ذي قَرَد:

ذو قَرَد ماءٌ على نحو يوم من المدينة المنورة مما يلي بلاد غطفان، أي من جهة نجد، ففي الحديث عن سلمة بن الأكوع قال: خرجتُ قبل أن يؤذّن بالأولى ـ صلاة الصبح ـ وكانت لقاحُ[2] رسولِ اللهِ ﷺ ترعى بذي قرد، فلقيني غلامُ عبد الرحمن بن عوف فقال: أُخِذَتْ لقاحُ رسولِ الله ﷺ. فقلتُ: من أخذها؟ قال: غطفان. قال: فصرختُ ثلاث صرخات: ياصباحاه فأسمعتُ ما بين لابتي المدينة[3]، ثم اندفعتُ على وجهي، حتى أدركتُهم بذي قرد، وقد أخذوا يسقون من الماء، فجعلتُ أرميهم بنبلي وكنتُ رامياً وأقول:

أنا ابنُ الأكوع واليومُ يومُ الرُّضَّع[4]

---

(١) صحيح البخاري في التيمم، رقم ٣٣٤٥.

(٢) واحدها لقحة وهي الناقة ذات اللبن قريبة العهد بالولادة.

(٣) يا صباحاه كلمة يقولها المستغيث، وأصلها إذا صاحوا للغارة، لأنّهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح، فكأنّ القائل يقول: يا صباحاه قد غشينا العدو، وقوله «ما بين لابتي المدينة» اللابة الحَرّة، وهي الأرض ذات الحجارة السود، والمدينة واقعة بين حرتين عظيمتين، يريد أنه أسمع بصرخاته جميع أهل المدينة.

(٤) معناه اليوم يوم هلاك اللئام، وهم الرضع من قولهم: لئيم راضع، أي رضع اللؤم.

فأرتجزُ حتى استنقذتُ اللقاحَ منهم، واستلبت منهم ثلاثين بُردةً. قال: وجاء النبيُّ ﷺ والناسُ. فقلت: يا نبيَّ الله إني قد حميت القومَ الماء، وهم عطاش، فابعث إليهم الساعة. فقال: «ياابن الأكوع ملكتَ فأسجح»[1] قال: ثم رجعنا، ويردفني رسول الله ﷺ على ناقتِه حتى دخلنا المدينة.

وفي رواية ثانية عنه رضي الله عنه تفصيلٌ لما حدثَ أكثر من الرواية السابقة قال فيها: بعثَ رسولُ الله ﷺ بظهره مع رباح غلام رسول الله ﷺ وأنا معه. وخرجتُ معه بفرس طلحة أنديه مع الظهر، أي أرعاه بعد أن أورده الماء، فلمّا أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزاري قد أغارَ على ظهرِ رسول الله ﷺ، فاستاقه أجمع، وقتلَ راعيه. فقلتُ يارباح: خذ هذا الفرس، فأبلغه طلحة بن عبيد الله، وأخبرْ رسول الله ﷺ أنَّ المشركين قد أغاروا على سرحه. ثم قمتُ على أكمة، فاستقبلتُ المدينة، فناديت ثلاثاً، ياصباحاه. ثم خرجتُ في آثارِ القومِ أرميهم بالنبل وأرتجز أقولُ:

أنا ابنُ الأكوع واليومُ يومُ الرُّضّع

فألحقُ رجلاً منهم فأصكّ سهماً في رحله، حتى خلصَ نصلُ السهم إلى كتفه... قال: فواللهِ ما زلتُ أرميهم وأعقر بهم، فإذا رجع إلي فارسٌ أتيتُ شجرةً، فجلستُ في أصلِها، ثم رميتُه، فعقرتُ به، حتى إذا تضايق الجبلُ، فدخلوا في تضايقه، علوتُ الجبلَ، فجعلتُ أرديهم الحجارة. قال: فما زلتُ كذلك أتبعهم حتى ما خلقَ الله من بعيرٍ من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفتُه وراءَ ظهري، وخلوا بيني وبينه.

ثم اتبعتُهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردةً وثلاثين رمحاً يستخفون، ولا يطرحون شيئاً إلا جعلت عليه آراماً من الحجارةِ يعرفُها رسولُ الله ﷺ وأصحابُه. حتى أتوا متضايقاً من ثنية ـ عقبة في الجبل ـ فإذا هم قد أتاهم فلان بن بدر الفزاري، فجلسوا يتضحون ـ يعني يتغدون ـ وجلستُ على رأسِ قرنٍ ـ جبل

---

(١) معناه فأحسن وارفق، والسجاحة السهولة، أي لا تأخذ بالشدة بل ارفق، فقد حصلت النكاية بالعدو ولله الحمد.

صغير ـ قال الفزاري: ما هذا الذي أرى؟ قالوا: لقينا من هذا البرحة ـ الشدة ـ واللهِ ما فارقنا منذ غلس يرمينا، حتى انتزعَ كلَّ شيءٍ في أيدينا. قال: فليقم إليه نفرٌ منكم أربعة. فصعد إلي منهم أربعةٌ في الجبل، فلمّا أمكنوني من الكلام قلت: هل تعرفوني؟، قالوا: لا ومن أنت، قلتُ: أنا سلمةُ بن الأكوع، والذي كرّمَ وجهَ محمّدٍ ﷺ لا أطلبُ رجلاً منكم إلا أدركتُـه، ولا يطلبني رجلاً منكم فيدركني. قـال أحدُهم: أنـا أظن. فرجعوا.

فما برحتُ مكاني حتى رأيتُ فوارسَ رسول الله ﷺ يتخلّلون الشجر، فإذا أولهم الأخرم الأسدي، على إثره أبو قتادة الأنصاري، وعلى أثره المقداد بن الأسود الكندي، فأخذتُ بعنان الأخرم، فولوا مدبرين. قلت: ياأخرم احذرهم لا يقتطعوك حتى يلحقَ رسولُ الله ﷺ وأصحابُه.

قال: يا سلمة إن كنتَ تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلمُ أنَّ الجنة حق والنار حق، فلا تحل بيني وبين الشهادة.

قال: فخليتُه فالتقى هو وعبد الرحمن، فعقر بعبد الرحمن فرسه، وطعنه عبد الرحمن فقتله، وتحوّل على فرسه، ولحق أبو قتادة فارسُ رسول الله ﷺ بعبدِ الرحمن فطعنه فقتله، فوالذي كَرمَ وجه محمد ﷺ لتبعتُهم أعدو على رجليَّ حتى ما أرى ورائي من أصحاب محمد ﷺ ولا غبارهم شيئاً حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء، يقال له ذا قرَد، ليشربوا منه وهم عِطاشٌ، قال: فنظروا إليَّ أعدو وراءَهم فخليتهم عنه ـ يعني أجليتهم عنه ـ فما ذاقوا منه قطرةً.

قال: ويخرجون فيشتدون في ثنية، فأعدو فألحق رجلاً منهم، فأصكه بسـهمٍ في نغض كتفه ـ عظم الكتف وهو الناغض لكثرة تحركه ـ قـال: قلتُ: خذها وأنا ابنُ الأكوع واليوم يوم الرضع، قال: ياثكلته أمه أكوعه بكرة أي ثكلته بكرة. قلت: نعم ياعدوَّ نفسِه أكوعك بكرة.

قال: وأردوا فرسين على ثنية أي تركوا، فجئتُ بهما أسوقُهما إلى رسول الله ﷺ، ولحقني عامر بسطيحة فيها مذقة من لبن أي لبن ممزوج بماء، وسطيحة فيها ماء، فتوضأتُ وشربتُ ثم أتيتُ رسولَ الله ﷺ وهو على الماءِ الذي حلأتهم عنه،

فإذا رسول الله ﷺ قد أخذ تلك الإبل، وكلَّ شيء استنقذته من المشركين، وكلَّ رمح وبُردة، وإذا بلال نحرَ ناقةً من الإبل الذي استنفذتُ من القوم، وإذا هو يشوي لرسول الله ﷺ من كبدها وسنامها. قلت: يارسول الله خلني فأنتخبُ من القوم مئة رجلٍ، فأتبع القوم، فلا يبقى منهم مخبر إلا قتلته. قال: فضحك رسولُ الله ﷺ حتى بدت نواجذُه ـ أنيابه في ضوء النار ـ فقال: «يا سلمةُ أتراك كنت فاعلاً»، قلتُ: نعم والذي أكرمك، فقال: «إنّهم الآن ليقرون ـ أي يضافون ـ في أرض غطفان».

قال: فجاءَ رجلٌ من غطفان فقال: نحر لهم فلان جزوراً، فلما كشفوا جلدها رأوا غباراً، فقالوا: أتاكم القوم، فخرجوا هاربين.

فلمّا أصبحنا قال رسول الله ﷺ: «كان خيرُ فرسائنا اليومَ أبو قتادة، وخيرُ رجالتنا سلمةُ» ثم أعطاني رسول الله ﷺ سهمين: سهم الفارس وسهم الراجل فجمعهما لي جميعاً، ثم أردفني رسول الله ﷺ وراءَه على العضباء راجعين إلى المدينة[١].

قصة عُكل وعُرينة:

في الحديث عن أنس قال: قدم أناس من عكل ـ أو عرينة ـ فاجتووا المدينة، فأمر لهم النبيُّ ﷺ بلقاح، وأن يشربوا من أبوالها وألبانها، فانطلقوا، فلمّا صحّوا قتلوا راعي النبي ﷺ، واستاقوا النعم، فجاءَ الخبرُ في أول النهار، فبعثَ في آثارهم، فلمّا ارتفعَ النهار جيء بهم، فأمر فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمرت أعينهم، وأُلقوا في الحَرّةِ يستسقون فلا يُسقون.

قال أبو قلابة راوي الحديث عن أنس: فهؤلاء سرقوا، وقتلوا، وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله[٢].

قوله: «فاجتووا المدينة» أي لم يوافقهم طعامُها، وقال ابن العربي: الجوى

---

(١) انظر الحديث كاملاً في صحيح مسلم، رقم ١٨٠٧.
(٢) صحيح البخاري في الوضوء، رقم ٢٣٣.

داءٌ يأخذُ من الوباء، وفي رواية أخرى (استوخموا) وهو بمعناه. وقال غيره: الجوى داءٌ يصيب الجوفَ.

وللمصنف ـ أي البخاري ـ من رواية سعيد عن قتادة في هذه القصة: فقالوا: «يانبيَّ اللهِ إنّا كنا أهلَ ضرعٍ، ولم نكن أهلَ ريفٍ» وله في الطب من رواية ثابت عن أنس: «إنّ ناساً بهم سقمٌ قالوا: يارسول الله آونا وأطعمنا، فلمّا صحُوا قالوا: إنَّ المدينةَ وخمة» والظاهر أنهم قدموا سقاماً، فلما صحُوا من السقم، كرهوا الإقامة بالمدينة لوخمها، فأما السقم الذي كان بهم فهو الهزالُ الشديد والجهد من الجوع... وأما الوخم الذي شكوا منه بعد أن صحّت أجسامهم فهو من حُمّى المدينة، كما عند أحمد من رواية حميد عن أنس[1].

وفيهم أنزل الله تبارك وتعالى قوله الكريم: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٣٣ ـ ٣٤].

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: قدم رهط من عُكل على النبيِّ ﷺ كانوا في الصُّفة، فاجتووا المدينة، فقالوا: يارسول الله أبلغنا رَسلاً ـ اللبن ـ فقال: «ما أجد لكم إلا أن تلحقوا بإبلِ رسول الله ﷺ» فأتوها فشربوا من ألبانها وأبوالها حتى صحوا وسمنوا، وقتلوا الراعي، واستاقوا الذود ـ الإبل ـ ... الحديث»[2]، وسمل النبيُّ ﷺ أعينهم لكونهم سملوا أعينَ الرعاة[3].

هجرة الأشعريين وأهل السفينة:

الأشعريون هم قوم الصحابيِّ الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، لهم فضائل كثيرة، منها ما روي عن أبي موسى قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنِّي

---

(١) فتح الباري: ١/ ٣٣٧.
(٢) صحيح البخاري في الحدود، ص٦٨٠٤.
(٣) انظر الفقه الحنفي في ثوبه الجديد: ٣/ ٣٠٤.

لأعرفُ أصواتَ رفقة الأشعريين بالقرآن، حين يدخلونَ بالليل، وأعرفُ منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنتُ لم أرَ منازلهم حين نزلوا بالنهار. ومنهم حكيم إذا لقي الخيل ـ أو قال العدو ـ قال لهم: إنَّ أصحابي يأمرونكم أن تنظروهم».

وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الأشعريين إذا أرملوا في الغزو ـ أي فني طعامُهم ـ أو قلَّ طعامُ عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوبٍ واحدٍ، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم»(١).

ويبدو أنهم آمنوا وحاولوا الهجرة إلى المدينة المنورة عندما سمعوا بهجرة النبيِّ ﷺ إليها فلم يتمكنوا، وألقى البحرُ سفينتَهم إلى ساحل الحبشة، فأقاموا بها مع المهاجرين إلى الحبشة حتى العام السادس من الهجرة، حيثُ تمكنوا من الهجرة إلى المدينة بعد صلح الحديبية.

ففي الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه قال: بلغنا مخرجُ رسول الله ﷺ ونحنُ باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه، أنا وأخوان لي، أنا أصغرهما، أحدُهما أبو بردة، والآخر أبو رهم، إما قال في بضع، وإما قال في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا سفينة، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشيِّ في الحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده، وقال جعفر: إنَّ رسول الله ﷺ بعثنا هاهنا، وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً. قال: فوافقنا رسولَ الله ﷺ حين افتتح خيبر، فأسهمَ لنا، أو قال: أعطانا منها، وما قسم لأحدٍ غابَ عن فتح خيبر منها شيئاً، إلا لمن شهدَ معه إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه، قسم لهم معهم. قال: فكان ناسٌ من الناس يقولون لنا ـ يعني لأهل السفينة: نحن سبقناكم بالهجرة.

قال: فدخلتْ أسماءُ بنت عُميس، وهي ممن قدمَ معنا على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر إليه. فدخل عمر على حفصة، وأسماء عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عُميس، قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ فقالت أسماء: نعم.

(١) صحيح مسلم في الفضائل، ص٢٤٩٩ـ٢٥٠٠.

فقال عمر: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحقُّ برسول الله ﷺ منكم. فغضبت وقالت كلمة: كذبتَ ياعمر، كلا واللهِ كنتم مع رسول الله ﷺ يُطْعِمُ جائعكم، ويعظُ جاهِلَكم، وكُنّا في دارٍ أو في أرضِ البعداءِ البغضاءِ في الحبشة[1] وذلك في الله وفي رسوله. وايُم اللهِ لا أطعمُ طعاماً ولا أشربُ شراباً حتى أذكرَ ماقلتَ لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نؤذى ونخاف. وسأذكر ذلك لرسول الله ﷺ وأسأله، ووالله لا أكذبُ ولا أزيغُ ولا أزيدُ على ذلك.

قال: فلمّا جاء النبيُّ ﷺ قالت: يانبيَّ الله إنَّ عمر قال كذا وكذا. فقال رسول الله ﷺ: «ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرةٌ واحدةٌ، ولكم أنتم أهلَ السفينة هجرتان».

قالت: فلقد رأيتُ أبا موسى وأصحابَ السفينة يأتوني أرسالاً ـ أي أفواجاً ـ يسألوني عن هذا الحديث ما من الدنيا شيءٍ هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم رسول الله ﷺ. قال أبو بردة ـ ابن أبي موسى ـ: فقالت أسماء: فلقد رأيتُ أبا موسى وإنَّه ليستعيدُ هذا الحديث مني[2].

* * *

(١) قال العلماء: البعداء في النسب، البغضاء في الدين، لأنهم كفار، إلا النجاشيّ وكان يستخفي بإسلامه عن قومه.

(٢) صحيح مسلم في الفضائل، ٢٥٠٢ـ٢٥٠٣.

الفَصْل السَابع

الفتح المبين أو صلح الحديبية

كـان صلح الحديبيـة في العام السادس من الهجرة، بين النبيّ ﷺ وبين المشركين من قريش فتحاً مبيناً، إذ كان مبدأ الفتح المبين على المسلمين، وأنزل الله تعالى فيه قوله الكريم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] أي مكناك ونصرناك نصراً بيناً ظاهراً مفرّقاً بين الحق والباطل بغير قتال، أو بقتال، أو إنّا قضينا وحكينا لك فتحاً مبيناً ظاهراً. والمراد به صلحُ الحديبية حين صدّه المشركون في شهر ذي القعدة سنة ست من الهجرة عن الوصول إلى المسجد الحرام، وحالوا بينه وبين العمرة، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة.

والذي فاوض النبيَّ ﷺ على الصلح من المشركين هو سُهيل بن عمرو، والذي كتب الصلح هو علـي بن أبي طالب رضي الله عنـه، ففي الحديث عـن **البراء بن عازب** رضي الله عنهما قال: لما صالح رسول الله ﷺ أهل الحديبية كتب علي بن أبي طالب رضوان الله عليه بينهم كتاباً، فكتب (محمد رسول الله) فقال المشركون: لا تكتب محمد رسول الله، لو كنت رسولاً لم نقاتلك. فقال لعلي: (أمحه) فقال علي: ما أنا بالذي أمحوه، فمحاه رسول الله ﷺ بيده، وصالحهم على أن يدخـلَ هو وأصحابُـه ثلاثـةَ أيام، ولا يدخلوها إلا بجلبـان السـلاح. فسألوه: ما جلبان السلاح؟ فقال: القرابُ بما فيه.

وعن **البراء** أيضاً رضي الله عنه قال: صالح النبيُّ ﷺ وسلم المشركين يوم الحديبية على ثلاثة أشياء: على أنّ من أتاه من المشركين ردّه إليهم، ومن أتاهم من المسلمين لم يردوه، وعلى أن يدخلَها من قابلٍ، ويقيمَ بها ثلاثة أيام، ولا يدخلَها إلا بجلبان السلاح: السيف والقوس ونحوهما، فجاء أبو جندل يحجُلُ

في قيوده، فرَّده إليهم[1].

أجابهم ﷺ إلى ذلك على كرهٍ من جماعة من الصحابة منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما نحرَ هديه حيثُ أحصرَ ورجع، أنزل الله عزَّ وجلّ سورة الفتح، وجعل ذلك الصلحَ فتحاً باعتبار ما آل إليه من المصلحة.

فعن البراء رضي الله عنه: تعدون أنتم الفتحَ فتح مكة، وقد كان فتحُ مكة فتحاً، ونحن نعدُّ الفتحَ بيعةَ الرضوان يوم الحديبية، كنا مع النبيِّ ﷺ أربع عشرة مئة، والحديبيةُ بئرٌ، فنزحناها، فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ، فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء، فتوضأ، ثم مضمض ودعا، ثم صَبَّه فيها، فتركناها غيرَ بعيدٍ، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا وركابنا[2].

قال ابن حجر: المراد بالفتح هنا الحديبية، لأنها كانت مبدأ الفتح المبين على المسلمين، لما ترتَّب على الصلح الذي وقع من الأمن ورفع الحرب، وتمكن من يخشى الدخول في الإسلام والوصول إلى المدينة من ذلك، كما وقع لخالد ابن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهم، ثم تبعت الأسبابُ بعضها بعضاً إلى أن كمل الفتحُ.

وقد ذكر ابنُ إسحاق في (المغازي) عن الزهري قال: لم يكن في الإسلام فتحٌ قبل فتح الحديبية أعظم منه، إنما كان الكفرُ حيث القتال، فلما أمن الناس كلُّهم كلَّم بعضُهم بعضاً، وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكن أحدٌ في الإسلام يعقِلُ شيئاً إلا بادر بالدخول فيه، فلقد دخل في تلك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر[3].

وذهب جماعةٌ إلى أنّه فتح مكة، وهو كما في (زاد المعاد) الفتح الأعظم الذي أعـزّ الله تعالى به دينـه، واستنقذ به بلده، وطهّر حرمه، واستبشر به أهل السماء، وضربت أطنابُ عزه على مناكب الجوزاء، ودخل الناسُ بعده في دين الله عز وجل أفواجاً، وأشرق وجهُ الدهر ضياء وابتهاجاً، وكان سنة ثمان.

---

(١) صحيح البخاري في الصلح: ٢٦٩٨/ ٢٧٠٠.

(٢) صحيح البخاري في المغازي، ص٤١٥٠.

(٣) فتح الباري: ٧/ ٤٤١.

وقال مجاهد والعوفي: هو فتح خيبر، والأول أكثر، وخيبرُ إنما كانت وعداً وعدوه. وقيل: هو فتح فارس والروم وسائر بلاد الإسلام التي يفتحها الله عزَّ وجلّ له(١).

البيعة على الموت:

حدثت هذه البيعةُ في الحديبية قبل توقيع صلح الحديبية، وأنزل الله فيها قوله الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]، أي: إن الذين يبايعونك يا محمد يوم الحديبية على الموت في نصرتك، أو على أن لا يفروا، إنما يبايعون الله، لأنهم يقصدون طاعته كما قال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

وكان السبب في البيعة أنّ النبيَّ ﷺ أراد أن يبعث رجلاً إلى قريش، ليبلّغهم ما جاء له، فدعا عمرَ بن الخطاب ليبعثه إلى مكة، فيبلِّغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال عمر: يا رسول الله إني أخافُ قريشاً على نفسي، وليس بمكة من عدي ابن كعب أحدٌ يمنعني، وقد عرفتْ قريشُ عداوتي إيّاها، وغلظتي عليها، ولكنّي أدلك على رجلٍ أعزُّ بها مني عثمان بن عفان. فدعا رسولُ الله ﷺ عثمان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأتِ لحربٍ، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت، ومعظماً لحرمته.

فخرج عثمان إلى مكة فبلّغ رسالة رسول الله ﷺ، فقالوا له: إن شئت أن تطوفَ بالبيت فطف، فقال: ما كنتُ لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، فاحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أنَّ عثمان بن عفان قد قتل، فقال ﷺ: «لا نبرحُ حتى نناجزَ القومَ». فدعا الناسَ إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة.

ومر معنا في الحديث الشريف أنَّ رجلاً من أهل مصر سأل ابنَ عمر قال: إنّي سائلك عن شيءٍ فحدّثني عنه: هل تعلمُ أنَّ عثمان فرَّ يومَ أُحد؟ قال: نعم؛

---

(١) انظر تفسير سورة الفتح للمؤلف.

فقال: هل تعلم أنّه تغيب عن بدر ولم يشهدها؟ قال: نعم؛ قال الرجل: هل تعلم أنّه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم، قال: الله أكبر؛ قال ابن عمر: تعال أبيّنُ لك: أمّا فراره يوم أُحد فأشهدُ أنَّ الله عفا عنه وغفرَ له، وأمّا تغيُّبه عن بدر، فإنه كانت تحته بنتُ رسول الله ﷺ وكانت مريضةً، فقال له رسول الله ﷺ: «إنَّ لك أجرَ رجلٍ ممّن شهدَ بدراً وسهمَه» وأمّا تغيُّبه عن بيعةِ الرضوان، فلو كان أحدٌ أعزَّ ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث رسولُ الله ﷺ عثمان، وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمانُ إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: «هذه يدُ عثمان»، فضربَ بها على يده، فقال: «هذه لعثمان» فقال له ابن عمر: اذهب بها الآن معك[1].

بيعة الرضوان:

وهي بيعة الحديبية، أثنى الله على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ فقال: ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[الفتح: ١٨ ـ ١٩]. وفي الحديث الشريف عن جابر رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: «أنتم خير أهلِ الأرض»، وكنا ألفاً وأربعمئة، ولو كنتُ أبصرُ اليومَ لأريتكم مكانَ الشجرةِ[2].

قال ابن حجر رحمه الله: هذا صريحٌ في فضل أصحاب الشجرة، فقد كان من المسلمين إذ ذاك جماعة بمكة وبالمدينة وبغيرهما.

وعند مسلم من حديث جابر مرفوعاً: «لا يدخلُ النارَ من شهدَ بدراً والحديبية».

وروى مسلمٌ أيضاً من حديث أم مبشر أنها سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «لا يدخلُ النارَ أحدٌ من أصحابِ الشجرةِ»[3].

---

(١) صحيح البخاري في الفضائل، ص٣٦٩٨.
(٢) المصدر السابق في المغازي، ص٤١٥٤.
(٣) فتح الباري: ٧/ ٤٤٣.

ويبدو أن الله تعالى قدَّر أن يخفي عليهم أمر تعيين مكانها، فعن **ابن عمر** رضي الله عنهما قال: رجعنا من العام المقبل فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها[1].

وعن **سعيد المسيب** قال: حدثني أبي أنّه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فلما خرجنا من العام المقبل، نسيناها فلم نقدر عليها[2].

قال ابن حجر: وجدتُ عند ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع أنَّ عمر بلغه أن قوماً يأتون الشجرة، فيصلون عندها، فتوعّدهم، ثم أمرَ بقطعها، فقُطِعَتْ[3]. ولعلّهم فعلوا ذلك بشجرة ظناً منهم أنها شجرة البيعة.

كيف تمَّ صلح الحديبية؟

عقد البخاريُّ رحمه الله في (صحيحه) باباً خاصاً بيّنَ فيه بنودَ صلح الحديبية، وما حدث قبلَ توقيع الصلح وبعده، فروى عن الزهري بسنده قال: أخبرني عروة بن الزبير عن **المِسْوَرِ بن مَخْرَمةَ ومروان** ـ يصَدِّقُ كلُّ واحد منهما حديثَ صاحبه ـ قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: «إنَّ خالدَ بن الوليد بالغميم ـ اسم موضع ـ في خيلٍ لقريشٍ طليعةٌ، فخذوا ذات اليمين» فواللهِ ما شعرَ بهم خالدٌ حتى إذا هم بقَتَرَةِ الجيش، فانطلق يركضُ نذيراً لقريش.

وسار النبيُّ ﷺ حتى إذا كان بالثَّنيّةِ التي يُهْبَطُ عليهم منها بركتْ به راحلتُه، فقال الناس: حَلْ حَلْ. فألَحّتْ، فقالوا: خلأتِ القصواءُ، فقال النبيُّ ﷺ: «ما خلأتِ القصواءُ وما ذلكَ لها بِخُلُقٍ، ولكن حبسَها حابِسُ الفيلِ». ثم قال: «والذي نفسي بيده لا يسألونني خِطَّةً يعظِّمونَ فيها حرماتِ الله إلا أعطيتُهم إياها»، ثم زجرها فوثبتْ، قال: فعدل عنهم حتى نزلَ بأقصى الحديبية على ثمدٍ[4] قليلِ

---

(١) صحيح البخاري في الجهاد، ص٢٩٥٨.

(٢) المرجع السابق في المغازي، ص ٤١٦٣.

(٣) فتح الباري: ٧/ ٤٤٨.

(٤) أي: حفيرة فها ماء مثمود أي قليل.

الماءِ، يتبَرَّضُه الناس تبرُّضاً، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشكي إلى رسول الله ﷺ العطشَ، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله مازالَ يجيشُ لهم بالري حتى صدروا عنه.

فبينما هم كذلك إذ جاء بُديلُ بن ورقاءَ الخُزاعيّ في نفرٍ من قومه خُزاعة ـ وكانوا عيبةَ[1] نُصح رسولِ الله ﷺ من أهل تهامة ـ فقال: إنّي تركتُ كعب بن لؤي وعامرَ بن لؤي[2] نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العُوذُ المطافيل[3]، وهم مقاتلوكَ وصادّوكَ عن البيت. فقال رسول الله ﷺ: «إنّا لم نجئ لقتالِ أحدٍ، ولكنّا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم[4] الحرب، وأضرَّت بهم، فإن شاؤوا ماددْتُهم مدةً، ويخلُّوا بيني وبين الناس، فإن أظهرْ، فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخلَ فيه الناسُ فعلوا، وإلا فقد جَمُّوا ـ أي استراحوا ـ، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنَّهم على أمري هذا حتى تنفردَ سالفتي[5]، ولينفذنَّ الله أمره»؛ فقال بديل: سأبلغهم ما تقول.

قال فانطلق حتى أتى قريشاً قال: إنّا جئناكم من هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجةَ لنا أن تخبرونا عنه بشيءٍ. وقال ذوو الرأي منهم: هاتِ ما سمعتَه يقول، قال: سمعتُه يقول كذا وكذا، فحدّثهم بما قال النبيُّ ﷺ.

فقام عروةُ بن مسعود فقال: أي قومِ ألستم بالوالدة؟ قالوا: بلى. قال: أولستم بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أنّي استنفرتُ أهل عكاظ، فلما بلّحوا علي ـ أي تثاقلوا عني ـ جئتكم بأهلي

---

(١) أي: موضع النصح له والأمانة على سره.

(٢) إنما اقتصر على ذكر هذين لكون قريش الذين كانوا بمكة أجمع، ترجع أنسابهم إليهما.

(٣) العوذ المطافيل: العوذ جمع عائذ، وهي الناقة ذالت اللبن، والمطافيل: الأمهات التي معها أطفالها، وأراد أنهم خرجوا معهم بذوات الألبان من الإبل ليتزودوا بألبانها ولا يرجعوا حتى يمنعوه.

(٤) أي: أضعفتهم.

(٥) السالفة صفحة العنق والمراد حتى أموت، ويحتمل أن يكون أراد أنه يقاتل حتى ينفرد وحده في مقاتلتهم.

وولدي ومَنْ أطاعني؟ قالوا: بلى. قال: فإنَّ هذا قد عرضَ عليكم خِطّةَ رُشْدٍ اقبلوها، ودعوني آته قالوا: ائته. فأتاه فجعل يكلِّمُ النبيَّ ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ نحواً من قوله لبُديل، فقال عروة عند ذلك: أيْ محمد أرأيتَ إنْ استأصلتَ أمرَ قومكَ، هل سمعتَ بأحدٍ من العرب اجتاحَ أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإنِّي والله لا أرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً ـ أخلاطاً ـ من الناس خليقاً أن يفرّوا ويدعوك. فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات ـ فرج اللات ـ أنحنُ نفرّ عنه وندعه؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده لولا يدٌ كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتُك.

قال: وجعل يكلِّمُ النبيَّ ﷺ، فكلما تكلَّم كلمةً أخذ بلحيته، والمغيرةُ بن شعبة قائمٌ على رأس النبيِّ ﷺ ومعه السيف، وعليه المِغْفَرُ، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبيِّ ﷺ ضربَ يده بنعلِ السيف، وقال له: أَخِّرْ يدَكَ عن لحية رسول الله ﷺ. فرفع عروةُ رأسه فقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أي غدر ـ يا غدار ـ ألستُ أسعى في غدرتك؟

وكان المغيرةُ صحبَ قوماً في الجاهلية؛ فقتلهم؛ وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبيُّ ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلستُ منه في شيء».

ثم إنّ عروة جعل يرمقُ أصحابَ النبيِّ ﷺ بعينيه. قال: فوالله ما تنخَّم رسول الله ﷺ نخامةً إلا وقعتْ في كَفِّ رجلٍ منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضَّأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلّموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدّون إليه النظرَ تعظيماً له.

فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قوم والله لقد وفدتُ على الملوك، ووفدتُ على قيصر وكسرى والنجاشيِّ، والله إن رأيتُ مليكاً قطُّ يعظِّمُه أصحابه ما يعظِّمُ أصحاب محمدٍ ﷺ محمداً، والله إن يتنخَّم نخامةً إلا وقعت في كفِّ رجلٍ منهم، فدلك بها وجهَه وجلدَه، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلّموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له، وإنَّه قد عرضَ عليكم خِطّة رشدٍ فاقبلوها، فقال رجل من بني كنانة:

دعوني آته، فقالوا: ائته، فلمَّا أشرف على النبيِّ ﷺ وأصحابه، قال رسول الله ﷺ: «هذا فلانٌ، وهو من قومٍ يعظِّمون البُدْنَ[1] فابعثوها له» فبُعِثَتْ له، واستقبله الناسُ ملبّون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيتُ البُدْنَ قد قُلِّدَتْ وأُشْعِرَتْ[2]، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت.

فقام رجلٌ منهم يقال له مِكْرَزُ بن حفصٍ فقال: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلمّا أشرفَ عليهم قال النبيُّ ﷺ: «هذا مكرز وهو رجل فاجر» فجعل يكلِّم النبيَّ ﷺ، فبينما هو يكَلّمه إذ جاء سُهيل بن عمرو قال معمر ـ من رجال السند ـ فأخبرني أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال النبيُّ ﷺ: «قد سَهُلَ لكم من أمركم»، قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً. فدعا النبيُّ ﷺ الكاتب، فقال النبيُّ ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هي، ولكن اكتب: باسمك اللهم كما كنتَ تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا (بسم الله الرحمن الرحيم)، فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم». ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبد الله» قال الزهري: وذلك لقوله: «لا يسألونني خطة يعظِّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتُهم إياها» فقال له النبي ﷺ: «على أن تخلّوا بيننا وبين البيت فنطوفَ به» فقال سهيل: والله لاتتحدثِ العرب أنّا أُخذنا ضُغطةً ـ أي قهراً ـ ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منّا رجلٌ ـ وإن كان على دينكَ ـ إلا رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان الله! كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟!

قضية أبي جندل بن سهيل:

وبينما هم كذلك إذ دخل أبو جَنْدل بن سُهيل بن عمرو يرسُفُ في

---

(١) البدن: جمع بدنة وهي الناقة التي تهدى إلى بيت الله الحرام.

(٢) أشعرت: أي وضعت عليها العلامات التي تدل على أنها هدي، فلا يتعرَّض لها أحد.

قيوده[1]، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين.

وقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيكَ عليه أن تردَّهُ إليَّ، فقال النبيُّ ﷺ: «إنّا لم نقضِ الكتابَ بعدُ». قال: فوالله إذاً لم أصالحْكَ على شيءٍ أبداً. قال النبيُّ ﷺ: «فأجزْهُ لي» قال: ما أنا بمجيزه لك. قال: «بلى فافعل» قال: ما أنا بفاعل. قال مِكْرَزٌ: بلى قد أجزناه لك، وأبى سهيل إلا ذلك، فكاتبه النبيُّ ﷺ.

وردَّ يومئذٍ أبا جندلٍ إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأته أحد من الرجال في تلك المدة إلا ردّه.

ولمسلم من حديث **أنس بن مالك** أنَّ قريشاً صالحت النبيَّ ﷺ على أنّه من جاء منكم لم نردَّه عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه إلينا، فقالوا: يا رسول الله أنكتب هذا؟ قال: «نعم إنّه مَنْ ذهبَ مِنَّا إليهم فأبعده الله، ومن جاءَ منهم إلينا فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً»

قال أبو جندل: أيْ معشرَ المسلمين أردُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترونَ ما قد لقيتُ؟ وكان قد عُذِّبَ عذاباً شديداً في الله، قال: فقال عمر بن الخطاب: فأتيتُ نبيَّ الله ﷺ، فقلت: ألستَ نبيَّ الله حقاً؟ قال: «بلى»، قلتُ: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى»، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟، قال: «إنِّي رسول الله ولستُ أعصيه، وهو ناصري»، قلت: أوليس كنتَ تحدِّثُنا أنّا سنأتي البيتَ فنطوفَ به؟، قال: «بلى فأخبرتك أنا نأتيه العام؟»، قال: قلتُ: لا، قال: «فإنّك آتيه ومطوفٌ به».

قال: فأتيتُ أبا بكر فقلتُ: يا أبا بكر أليس هذا نبيُّ الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنيةَ في ديننا إذاً؟ قال: أيُّها الرجلُ إنّه لرسولُ الله ﷺ، وليس يعصي ربّه، وهو ناصرُه، فاستمسك بغرزه، فوالله إنَّه على الحقِّ، قلت: أليسَ كان يحدِّثُنا أنّا سنأتي البيتَ ونطوفَ به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنّك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنّك آتيه ومطوّفٌ به.

---

(١) أي يمشي مشياً بطيئاً بسبب القيد، وكان قد أسلم، وحبسه أبوه مقيداً.

قال الزهري قال عمر: فعملتُ لذلك أعمالاً[١].

فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احْلِقوا». قال: فوالله ما قام منهم رجلٌ حتى قال ذلك ثلاثَ مراتٍ، فلما لم يقم منهم أحدٌ دخلَ على أُمِّ سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبيَّ الله أتحبُّ ذلك؟ اخرج ثم لا تكلِّمْ أحداً منهم كلمةً حتى تنحرَ بُدْنَكَ، وتدعو خالِقَك فيحلقَكَ.

فخرج فلم يكلّم أحداً منهم حتى فعلَ ذلك، نحر بُدْنَهُ، ودعا حالقه فحلقَه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلِقُ بعضاً، حتى كاد بعضُهم يقتلُ بعضاً غمّاً.

ثم رجع النبيُّ ﷺ إلى المدينة، فجاءَه أبو بصير رجلٌ من قريش وهو مسلم، فأرسلوا بطلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلتَ لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحُليفة، فنزلوا يأكلون من تمرٍ لهم، فقال أبو بصيرٍ لأحدِ الرجلين: والله إنِّي لأرى سيفَك هذا يا فلانُ جيداً. فاستلّه الآخر فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جربتُ به، ثم جربت به ثم جربت.

فقال أبو بصير: أرني أنظرُ إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد ـ مات ـ وفرَّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجدَ يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذُعراً» فلما انتهى إلى النبيِّ ﷺ قال: قُتِلَ والله صاحبي، وإنِّيَ لمقتول.

فجاء أبو بصير فقال: يا نبيَّ الله، قد والله أوفى الله ذمتَّك قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، قال النبي ﷺ: «ويلُ أمه مِسْعَرَ حربٍ[٢] لو كان له أحدٌ» فلما

---

(١) قال بعض الشراح: قول عمر (أعمالاً) أي من الذهاب والمجيء والسؤال والجواب، ولم يكن ذلك شكّاً من عمر، بل طلباً لكشف ما خفي عليه، وحثّاً على إذلال الكفار، لما عُرِفَ من قوته في نصرة الدين.
وقد ورد عن عمر التصريح بمراده بقوله (أعمالاً) ففي رواية ابن إسحاق، وكان عمر يقول: مازلتُ أتصدّق وأصوم وأصلّي وأعتقُ من الذي صنعت يومئذٍ، مخافة كلامي الذي تكلّمت به.

(٢) مِسْعَرُ حرب بكسر الميم وسكون السين وفتح العين وبالنصب على التمييز، وأصله من=

سمع ذلك عرف أنّه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيفَ البحر ـ ساحلَ البحر ـ قال: وينفلتُ منهم أبو جندل بن سهيلٍ فلحق بأبي بصير، فجعلَ لا يخرج من قريشٍ رجلٌ قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابةٌ، فوالله ما يسمعون بعيرٍ خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا ذلك، فقتلوهم، وأخذوا أموالهم.

فأرسلت قريشٌ إلى النبيِّ ﷺ تناشده الله والرحمَ لما أرسل فمن أتاه فهو آمن.

فأرسل النبيُّ ﷺ إليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ حتى بلغ ﴿ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٤ ـ ٢٦]. وكانت حميتُهم أنّهم لم يقروا أنّه نبيُّ الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت(١).

استثناء المؤمنات المهاجرات:

أنزل الله تبارك وتعالى قوله الكريم يستثني المؤمنات المهاجرات ممّا وقع عليه الصلحُ، ويمنعهم من ردهنّ إلى الكفار فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [الممتحنة: ١٠ ـ ١١].

وجاءت المؤمنات مهاجراتٍ، وكانت أمُّ كلثوم بنت عُقبة بن أبي مُعَيْطٍ ممّن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذٍ، فجاءَ أهلُها يسألون النبيَّ ﷺ أن يرجعها إليهم، فلم يرجعها إليهم لما أنزلَ الله فيهنّ.

= مسعرَ حرب أي يسعرها. قال الخطابي: كأنه يصفه بالإقدام في الحرب والتسعير لنارها. وقوله: (لو كان له أحد)، أي: ينصره ويعاضده ويناصره.

(١) انظر الحديث في صحيح البخاري بالشروط ٢٧٣١ ـ ٢٧٣٢.

وفي الحديث عن الزهري: قال عروة: فأخبرتني عائشةُ أنَّ رسول الله ﷺ كان يمتحنُهنَّ.

وبلغنا أنّه لما أنزل الله تعالى أن يردوا إلى المشركين ما أنفقوا على مَنْ هاجر من أزواجهم، وحكمَ على المسلمين ألا يُمسكوا بِعِصَمِ الكوافر، أنَّ عمر طلق امرأتين: قريبةَ بنت أبي أمية وابنةَ جرول الخزاعي، فتزوّج قريبة معاوية، وتزوّج الأخرى أبو جهمٍ.

ولما أبى الكفّار أن يقروا بأداء ما أنفق المسلمون على أزواجهم، أنزل الله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ﴾، والعقب ما يؤدي المسلمون إلى مَنْ هاجرت امرأتُه من الكفار، فأمر أن يعطي من ذهب له زوج من المسلمين ما أنفق من صداق نساء الكفار اللائي هاجرن، وما نعلم أحداً من المهاجرات ارتدت بعد إيمانها[1].

وورد في رواية كيفية هذا الامتحان، أخرجها ابن المنذر والطبرانيُّ في (الكبير) وجماعة بسند حسن عن ابن عباس أنه قال في كيفية امتحانهن: كانت المرأة إذا جاءت النبيَّ ﷺ حلّفها عمر رضي الله عنه بالله ما خرجت رغبةً بأرضٍ عن أرضٍ، وبالله ما خرجت ببغضِ زوجٍ، وبالله ما خرجت التماسَ دنيا، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله.

مَحَلُّ الهَدْي:

أنزل الله تعالى يصف بعض ما حدث في الحديبية، ويبيّن فضله سبحانه على المؤمنين، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤].

أي وهو الذي كفَّ أيدي أهل مكة عنكم، وأيديكم عنهم في داخل مكة، - فبعض الحديبية من مكة - مَنْ بعد أنْ مكنكم منهم.

وفي الحديث الشريف عن أنس بن مالك أنَّ ثمانين رجلاً من أهل مكة

---

(١) صحيح البخاري في الشروط، رقم ٢٧٣٣.

هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلّحين، يريدون غرة النبيّ ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلماً فاستحياهم - أي لم يقتلهم وأطلقهم - فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ (١).

ثم قال بعد ذلك: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح: ٢٥]، أي: هم الذين كفروا ومنعوكم أن تصلوا إلى المسجد الحرام، وتطوفوا به، ووصدّوا الهدي وهو محبوسٌ منْ أن يبلغَ مكانه الذي يحلُّ فيه نحره، وهي أرض الحرمِ أو محلّها المعهود الذي هو منى.

والهدي: ما يهدى إلى الكعبة من الأنعام، والمحلّ بالكسر غاية الشيء، وبالفتح الموضع الذي يحله الناس. أي ينزلون فيه.

وقد استدلَّ أبو حنيفة رحمه الله بالآية على أنّ المُحْصَرَ الذي يُمْنَعُ من الحجِّ أو العمرة بعد أن يحرم، محلُّ هديه الحرم.

وقال غيره: يذبح المُحْصَرُ الهديَ حيث يُحلُّ من إحرامِه.

حرمة المؤمنين والمؤمنات:

ودلَّ ما حصل في الحديبية على أنَّ للمؤمنين والمؤمنات حرمةً عظيمة عند الله تعالى، بين سبحانه وتعالى ذلك بقوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]. وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعرفوهم بأعيانهم، أن توقعوا بهم وتهلكوهم فتصيبكم من جهتهم مشقة ومكروه، وأنتم غيرُ عالمين بهم، وجواب (لولا) محذوفٌ بدلالة الكلام عليه، والمعنى: لولا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين الكافرين، غير عالمين بهم، فيصيبكم بذلك مكروهٌ لما كفَّ أيديكم عنهم.

---

(١) صحيح مسلم في الجهاد، رقم ١٨٠٨.

وكانوا (على ما أخرج أبو نعيم بسند جيد وغيرهم عن أبي جمعة بن جُنيد) تسعةَ نفر: سبعة رجال وهو منهم وامرأتين.

ودلَّ قولُه: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾ على فضل الصحابة، فقد أخبر سبحانه عن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية، والعصمة عن التعدي، حتى لو أنهم أصابوا أحداً من ذلك لكان عن غير قصد. ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي: لم يأذن لكم في قتال المشركين ليسلم منهم من قُدِّرَ له الإسلام. ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: لو تفرَّقوا وتميَّز بعضُهم من بعضٍ لعذّبنا الذين كفروا عذاباً أليماً بقتلهم وأسرهم، وهذه الآية دليل على مراعاة الكافر في حرمة المؤمن، إذ لا يمكن أذيةُ الكافر إلا بأذية المؤمن، قال أبو زيد: قلتُ لابن القاسم: أرأيت لو أنَّ قوماً من المشركين في حصن من حصونهم حصرهم أهل الإسلام وفيهم من المسلمين أسارى في أيديهم، أيحرق هذا الحصن أم لا؟

قال: سمعت مالكاً وسُئل عن قوم من المشركين في مراكبهم: أنرمي في مراكبهم النار ومعهم الأسارى في مراكبهم؟ فقال مالك: لا أرى ذلك، لقوله تعالى لأهل مكة: ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وكذلك لو تترَّس كافرٌ بمسلمٍ لم يجز رميه...

قلت: قد يجوز قتل الترس، ولا يكون فيه اختلاف إن شاء الله، وذلك إذا **كانت المصلحة ضروريةً كليةً قطعيةً**، فمعنى كونها ضرورية: أنها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس، ومعنى أنها كليةٌ: أنها قاطعة لكل الأمة حتى يحصل من قتل الترس مصلحةُ كلِّ المسلمين، فإن لم يفعل قتل الكفار الترس، واستولوا على كل الأمة، ومعنى كونها قطعيةً: أنَّ تلك المصلحة حاصلةٌ من قتل الترس قطعاً[1].

إلزام الصحابة كلمةَ التقوى، وإنزال السكينة عليهم:

لما جعل الله في قلوب المشركين حمية الجاهلية، وصدوا النبيَّ ﷺ وأصحابه عن البيت الحرام، ولم يُذعِنوا للحق، وجحدوا رسالة النبيِّ ﷺ

---

(١) تفسير القرطبي: ١٦/ ٢٨٦.

ونبوّته، ألزم سبحانه الصحابة كلمة التقوى، فالتزموا بها رضي الله عنهم، وأثنى عليهم لذلك فقال: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

وقوله سبحانه: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦]، أي فأنزل عليهم الثباتَ والوقار، فتوقروا وحلموا، فلم يدخلهم شيءٌ من حمية الجاهلية كما حدثَ للمشركين، وجعلهم يتمسّكون بكلمة التقوى، وهي ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ التي يُتقى بها الشركُ، فهي رأسُ كلِّ تقوى، ومنها طاعةُ رسول الله ﷺ. ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ أي: وكانوا أحقَّ بها من غيرهم، والمستأهلين لها، وهذا ثناءٌ آخر على الصحابة الذين شهدوا الحديبية من ربهم جلَّ جلاله إلى جانب الامتنان عليهم بما أنزلَ على قلوبهم من سكينة، وما جعل فيها من تقوى، وهو تكريمٌ بعد تكريم، صادرٌ عن علمٍ وتقديرٍ، ولهذا ختم الله الآية بقوله الكريم: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

جند النصر والفتح:

وتوّجَ اللهُ تعالى خاتمةَ سورة الفتح بشهادته الرفيعة بصدق رسوله ﷺ، وأنّه رسولُه حقاً وصدقاً، ثم ثنى بالثناء على الذين كانوا معه من أصحابه، وأنّهم رضي الله عنهم جندُ النصر والفتح، فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي ذلك الوصف العجيب الشأن الذي ذكر صفتهم في التوراة. ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أي وصفتهم في الإنجيل كزرع أخرج فراخه وأولاده فقوّاه وأعانه حتى قوي وغَلُظَ واشتدَّ، وقام على عوده الذي يحمله ويقوم عليه. وهو مثل ضربه الله لأصحاب محمد ﷺ مكتوبٌ في الإنجيل أنّهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون.

قال ابن كثير: هذه الأمةُ معظَّمةٌ في الكتب المتقدّمة، وأعظمُها وأفضلُها أصحابُ رسول الله ﷺ، وقد نوَّه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة، والأخبار المتداولة، ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ أي يعجب الزراع بكثافته وقوته، وحسن مظهره، وإنَّما قواهم وكثّرهم ليغيظَ بهم الكفار.

فالآيةُ تدلُّ على فضلِ الصحابة رضوان الله عنهم، وتردُّ على من يكرههم وينتقدهم، فلا يجوزُ الطعنُ عليهم، أو التعرّض لهم بسوء، كما لا يجوزُ أن يضمرَ في قلبه بغضاً لأحدٍ منهم، فمن انتقص واحداً منهم، أو طعن عليه في روايته فقد ردَّ على اللهِ ربِّ العالمين، وأبطلَ شرائعَ المسلمين. قال القرطبيُّ: **فالصحابة كلُّهم عدولٌ أولياءُ الله تعالى، وأصفياؤه، وخيرتُه من خلقه بعد أنبيائه ورسله، هذا مذهب أهل السنة، والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة**[1].

* * *

---

(١) انظر تفسير سورة الفتح للمؤلف.

الفَصْل الثامِن

تبليغ الدّعوة إلى الملوك والأمراء

كان لصلح الحديبية نتائجُ طيبة، وآثارٌ إيجابية رفيعة في مسار الدعوة في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته، وأهمُّها أنَّه ﷺ تمكَّن من نشرِ دعوته وتبليغها للناس بعد أن فرغ من قتال المشركين من قريش، وبدأ ﷺ بدعوة الملوك والأمراء.

ففي الحديث عن أنس أن نبيَّ الله ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كلِّ جبَّارٍ يدعوهم إلى الله تعالى. وليس بالنجاشيِّ الذي صلَّى عليه النبي ﷺ.

أبو سفيان في مجلس هرقل:

وصف أبو سفيان قبل أن يسلمَ كيف استقبلَ هرقلُ ملكُ الرومِ كتابَ النبيِّ ﷺ. فعن ابن عباس أنَّ أبا سفيان من فيه إلى فيه، قال: انطلقتُ في المدةِ التي كانتْ بيني وبين رسول الله ﷺ، فبينا أنا في الشام إذ جيءَ بكتابٍ مِنْ رسولِ الله ﷺ إلى هرقل، يعني عظيمَ الروم.

قال: وكان دحيةُ الكلبيُّ جاء به، فدفعه إلى عظيم بصرى، فدفعه عظيمُ بصرى إلى هرقل، فقال هرقل: هل هاهنا أحدٌ من قومِ هذا الرجلِ الذي يزعمُ أنَّه نبيٌّ؟، قالوا: نعم

قال: فدُعيتُ في نفرٍ من قريش، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه، فقال: أيُّكم أقربُ نسباً من هذا الرجل الذي يزعمُ أنَّه نبي؟، فقال أبو سفيان فقلتُ: أنا، فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي. ثم دعا بترجمانه فقال له: قل لهم إنِّي سائلٌ هذا عن الرجلِ الذي يزعمُ أنَّه نبيٌّ، فإن كَذَبَني فكذِّبوه، قال: فقال أبو سفيان: وايمُ الله لولا مخافة أن يؤثَرَ عليَّ الكذبَ لكذبتُ، ثم قال لترجمانه: سله كيف حسَبُه فيكم؟ قال قلت: هو فينا ذو حسب.

قال: فهل كان مِنْ آبائه ملكٌ؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذبِ قبل أن يقولَ ما قال؟ قلت: لا، قال: ومن يتبعه؟ أشرافُ الناسِ أم ضعفاؤهم؟ قال قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدونَ أم ينقصون؟ قال: قلتُ: لا بل يزيدون، قال: هل يرتدَّ أحدٌ منهم عن دينه بعد أنْ يدخلَ فيه سخطةً له؟ قال: قلتُ: لا، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قال: قلتُ: تكونُ الحربُ بيننا وبينه سجالاً، يصيبُ منا ونصيبُ منه، قال: فهل يغدِرُ؟ قلتُ: لا، ونحنُ منه في مُدَّةٍ، لا ندري ما هو صانعٌ فيها، قال: فواللهِ ما أمكنني من كلمةٍ أُدخلُ فيها شيئاً غيرَ هذه، قال: فهل قال هذا القولَ أحدٌ قبله؟ قال: قلتُ: لا.

قال لترجمانه: قل له: إني سألتُكَ عن حَسَبِه فزعمتَ أنّه فيكم ذو حسب، وكذلك الرسلُ تبعَثُ في أحسابِ قومها، وسألتُك: هل كان في آبائه ملكٌ؟ فزعمتَ أن لا، فقلتُ: لو كان من آبائه ملكٌ قلتُ رجلٌ يطلبُ ملكَ آبائه، وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم؟ فقلتَ: بل ضعفاؤهم، وهم أتباعُ الرسل، وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذبِ قبلَ أن يقولَ ما قال؟ فزعمتَ أنْ لا، فقد عرفتُ أنَّ لم يكنْ ليدعَ الكذبَ على الناسِ، ثم يذهبَ فيكذِبَ على اللهِ، وسألتُكَ: هل يرتدُّ أحدٌ منهم عن دينِه بعد أن يدخله سخطةً له؟ فزعمتَ أن لا، وكذلك الإيمانُ إذا خالط بشاشةَ القلوبِ، وسألتُكَ: هل يزيدون أو ينقصون؟ فزعمتَ أنهم يزيدون، وكذلك الإيمانُ حتى يتمَّ، وسألتُكَ: هل قاتلتموه؟ فزعمتَ أنكم قد قاتلتموه، فتكون الحربُ بينكم وبينه سجالاً، ينالُ منكم وتنالون منه، وكذلك الرسلُ تبتلى، ثم تكون لهم العاقبة، وسألتك: هل يغدرُ؟ فزعمتَ أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك: هل قال هذا القول أحدٌ قبله؟ فزعمتَ أن لا. فقلتُ: لو قال هذا القولَ أحدٌ قبلَه قلتُ رجلٌ ائتمَّ بقولٍ قيلَ قبلَه.

قال: ثم قال: بم يأمركم؟ قلتُ: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصِّلَةِ والعفاف.

قال: إنْ يكنْ ما تقولُ فيه حقاً فإنَّه نبيٌّ، وقد كنتُ أعلمُ أنَّه خارجٌ، ولم أكنْ أظنُّه منكم، ولو أنّي أعلمُ أنّي أخلصُ إليه لأحببتُ لقاءَه، ولو كنتُ عندَه لغسلتُ عن قدميه، وليبلغنَّ ملكُه ما تحتَ قدميَّ.

كتابه ﷺ إلى هرقل:

قال: ثم دعا بكتابِ رسولِ الله ﷺ فقرأه فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمّدٍ رسول الله إلى هرقلَ عظيم الروم: سلامٌ على مَنْ اتَّبعَ الهدى، أمّا بعدُ: فإنِّي أدعوكَ بدعايةِ الإسلام، أسلمْ تسلمْ، وأسلمْ يؤتِكَ اللهُ أجرَكَ مرّتين، وإن تولّيتَ فإنَّ عليك إثم الأريسيين(١) و﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]».

فلمَّا فرغ من قراءةِ الكتاب ارتفعت الأصواتُ، وكثـرَ اللَّغطُ، وأمر بنـا فأُخرجنا قال: فقلتُ لأصحابي حين خرجنا: لقد أمرَ أمرُ ابنِ أبي كبشةَ، إنَّه ليخافُه ملكُ بني الأصفرِ.

والمرادُ بأبي كبشة رجلٌ من خزاعة كان يعبد الشِّعْرى، ولم يوافقه أحدٌ من العرب على عبادتها، فشبهوا النبيَّ ﷺ به لمخالفته إياهم في دينهم، كما خالفهم أبو كبشة.

قـال: فما زلتُ موقنـاً بأمرِ رسولِ الله ﷺ أنَّه سيظهرُ حتى أدخلَ اللهُ عليَّ الإسلامَ.

وفي روايةٍ ثانيةٍ زاد في الحديث: وكان قيصرُ لما كشفَ اللهُ عنه جنودَ فارس مشى من حمص إلى إيلياء ـ بيت المقدس ـ شكراً لما أبلاه الله(٢).

وأخرجه البخاريُّ أيضاً بزيادةٍ قال فيها: وكان ابنُ الناطور ـ صاحبُ إيلياء وهرقل ـ أسقفاً على نصارى الشام، يحدِّثُ أنَّ هرقل حين قدم إيلياء، أصبحَ يوماً خبيثَ النفس، فقال بعضُ بطارقته: قد استنكرنا هيئتك. قال ابن الناطور: وكان هرقلُ حزاءً ـ كاهناً ـ ينظرُ في النجوم، فقال لهم حين سألوه: إنِّي رأيتُ الليلةَ حين نظرتُ في النجومِ مُلك الختانِ قد ظهرَ، فمن يختتنُ من هذه الأمة؟.

---

(١) اختلفوا في المراد بهم على أقوال: أصحها وأشهرها أنّهم الأكارون، أي الفلاحـون والزراعون، ومعناه إن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك.

(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم في الجهاد، رقم ١٧٧٣.

قالوا: ليس يختتنُ إلا اليهود، فلا يهمنّك شأنُهم، واكتبْ إلى مدائن ملكك، فيقتلوا مَنْ فيهم من اليهود. فبينما هم على أمرِهم أُتي هرقلُ برجلٍ أرسلَ به مَلِكُ غسّان يخبرُ عن خبرِ رسولِ الله ﷺ. فلما استخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا أمختتِنٌ هو أم لا؟ فنظروا إليه فحدّثوه أنه مختتن، فسأله عن العرب، فقال: هم يختتنون. فقال هرقل: هذا مُلك هذه الأمة قد ظهرَ.

ثم كتب هرقلُ إلى صاحبٍ له برومية، وكان نظيرَه في العلم، وسار هرقلُ إلى حمص، فلم يَرُمْ - يغادر - حمصَ حتى أتاهُ كتاب من صاحبه يوافِقُ رأي هرقل على خروجِ النبيِّ ﷺ وأنَّه نبيٌّ. فأذنَ هرقلُ لعظماء في دسكرة له بحمص[١]، ثم أمر بأبوابها فغلّقت، ثم اطّلع فقال: يامعشر الروم! هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبتَ ملككُم فتبايعوا هذا النبيَّ؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غُلّقت، فلما رأى هرقلُ نفرتَهم، وأيسَ من الإيمانِ قال: ردوهم عليّ، وقال: إنّي قلتُ مقالتي آنفاً أختبرُ بها شدّتكم على دينكم، فقد رأيتُ. فسجدوا له، ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأنِ هرقل[٢].

كتابه ﷺ إلى كسرى:

وأما كسرى فكان شأنه مختلفاً، ففي الحديث عن **ابن عباس** أنَّ رسولَ الله ﷺ بعثَ بكتابِهِ إلى كسرى، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، يدفعه عظيمُ البحرين إلى كسرى. فلمّا قرأه كسرى خرّقه، فحسبتُ أنَّ سعيد بن مسيب قال: فدعا عليه النبيُّ ﷺ أن يمزّقوا كلَّ ممزَّقٍ[٣]. وأخرجه في موضعٍ آخرَ أنه بعثَه مع عبد الله بن حُذافة.

وفي حديث **عبد الله بن حذافة**: فلما بلغَ ذلك رسولَ الله ﷺ قال: «اللهمَّ مزِّقْ مُلْكَه».

---

(١) الدسكرة: القصرُ الذي حوله بيوتٌ، فكأنه دخل القصر، ثم أغلقه، وفتح أبوابَ البيوت الذي حوله، وأذن للروم في دخولها، ثم أغلقها، ثم اطّلع عليهم فخاطبهم، وإنَّما فعل ذلك خشية أن يثبوا به ويعزلوه عن ملكه.

(٢) صحيح البخاري في بدء الوحي، رقم ٧.

(٣) صحيح البخاري في الجهاد: ٦/١٠٨.

وكتب كسرى إلى باذان عامِله على اليمن: ابعثْ مِنْ عِنْدِكَ رجلين إلى هذا الرجل الذي بالحجاز، ففعل باذانُ، فلمَّا قدما إلى النبيِّ ﷺ قال لهما: «أبلغا صاحبكما أنَّ الله َسلَّطَ عليه ابنه شيرويه فقتله».

وعن الزهري قال: بلغني أنَّ كسرى كتب إلى باذان: بلغني أنَّ رجلاً من قريش يزعم أنّه نبيّ، فسر إليه، فإن تابَ وإلاّ ابعث برأسِه، فذكر القصةَ قال: فلمَّا بلغَ باذانُ أسلمَ هو ومَنْ معه من الفُرْسِ[1].

* * *

(١) فتح الباري: ٨/ ١٢٧.

الفَصْل التَاسِع

بين الحديبية والفتح

عمرة القضاء:

خرج النبيُّ ﷺ في شهر ذي القعدة من العام السابع للهجرة معتمراً عمرةَ القضاء، بدل عمرته التي صدّوه عنها بالحديبية، وخرجَ معه كُلُّ من كان صُدَّ في تلك العمرة من أصحابه إلا من مات أو استُشهد.

واختلف العلماءُ في سبب تسميتها عمرة القضاء، فقيل: المرادُ ما وقع من المقاضاة بين المسلمين والمشركين من الكتاب الذي كُتب بينهم بالحديبية، فالمراد بالقضاء الفصل الذي وقعَ عليه الصلحُ، ولذلك يقال لهاعمرةُ القَضِيَّةِ..

قال أهل اللغة: قاضى فلانٌ فلاناً، عاهده، وقاضاه عاوضه، فيحتمل تمسيتها بذلك لأمرين، قاله عياض، ويرجح الثاني تسميتها قصاصاً، قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤]، قال السهيليُّ: تسميتُها عمرةَ القصاص أولى، لأن هذه الآية نزلتْ فيها.. وقال أيضاً: سُمِّيت عمرةَ القضاءِ لأنه قاضى فيها قريشاً، لا لأنها قضاءٌ عن العمرةِ التي صُدَّ عنها، لأنها لم تكن فسدتْ حتى يجب قضاؤها، بل كانت عمرةً تامة، ولهذا عدُّوا عُمَرَ النبيِّ ﷺ أربعاً.

وقال آخرون: بل كانت قضاءً عن العمرة الأولى(١).

وفي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ خرجَ معتمراً، فحال كفارُ قريشٍ بينه وبين البيت، فنحرَ هديه، وحلق رأسَه بالحديبية، وقاضاهم

---

(١) انظر فتح الباري: ٧/ ٥٠٠.

على أن يعتمـرَ العامَ المقبل، ولا يحملُ سلاحاً عليهم إلا سيوفاً، ولا يقيمُ بها إلا ما أحبُّوا، فاعتمرَ من العام المقبل، فدخلها كما كان صالحهم، فلمّا أنْ أقامَ بها ثلاثاً أمروه أن يخرجَ فخرجَ[1].

وذكر البراء في حديثه الذي سبقَ معنا بعضه: فلمّا دخلها ومضى الأجلُ، أتوا علياً، فقالوا: قل لصاحبك اخرجْ عنا فقد مضى الأجلُ. فخرجَ النبيُّ ﷺ، فتبعته ابنةُ حمزة، تنادي: ياعم ياعم. فتناولها عليٌّ فأخذَ بيدها، وقال لفاطمة عليها السلام: دونك ابنة عمك احمليها. فاختصم فيها عليٌّ وزيد وجعفر، قال علي: أنا أخذتُها وهي بنتُ عمِّي، وقال جعفر: ابنةُ عمي وخالتُها تحتي، وقال زيد: ابنةُ أخي.

فقضى بها النبيُّ ﷺ لخالتها وقـال: «الخالـةُ بمنزلةِ الأمِّ». وقال لعليٍّ: «أنت منّي وأنا منك»، وقال لجعفر: «أشبهتَ خَلْقي وخُلُقي»، وقال لزيد: «أنتَ أخونا ومولانا».

وقال عليٌّ: ألا تتزوج بنتَ حمزة؟ قال: «إنَّها ابنةُ أخي من الرّضاعةِ»[2].

* * *

وكان الصحابةُ رضي الله عنهم يحيطون في أثناء الطواف بالنبيِّ ﷺ خشيةَ أن يصيبه أذى من المشركين، ففي الحديث عن ابن أبي أوفى قال: لما اعتمر رسولُ الله ﷺ سترناه منْ غلمانِ المشركين ومنهم أن يؤذوا رسولَ الله ﷺ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدمَ رسولُ الله ﷺ وأصحابُه، فقال المشركون: إنَّه يقدمُ عليكم وقد وهنتهم حُمّى يثرب، فأمرهم النبيُّ ﷺ أن يَرْمَلوا الأشواطَ الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم.

وزاد ابن سلمة عن أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما قدم

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٢٥٢.
(٢) المرجع السابق، رقم ٤٢٥١.

النبيُّ ﷺ لعامه الذي استأمنَ قال: «ارملوا ليرى المشركون قوّتكم» والمشركون من قِبَلِ قعيقعان (اسم جبل).

الزواج من السيدة ميمونة رضي الله عنها:

وتزوَّج النبيُّ ﷺ في عُمْرةِ القضاءِ السيدة ميمونة رضي الله عنها، ففي الحديث عن **ابن عباس** قال: تزوَّج النبيُّ ﷺ ميمونةَ وهو مُحْرِم، وبنى بها وهو حلالٌ، وماتت بِسَرِفٍ[1]، وكان الذي زوّجها منه العباس بن عبد المطلب.

ولابن حِبّان والطبراني من طريق إبراهيم بن سعد عن ابن إسحاق بلفظ: تزوّج ميمونةَ بنت الحارث في سفره ذلك، يعني عمرة القضاء وهو حرام ـ محرم ـ وكان الذي زوّجه إياها العباس، ونحوه للنسائي من وجه آخر عن ابن عباس.

وفي مغازي أبي الأسود عن عروة: بعث النبيُّ ﷺ جعفرَ بن أبي طالب إلى ميمونة ليخطبَها له، فجعلت أمرَها إلى العباس، وكانت أختُها أُمُّ الفضل تحته، فزوّجه إياها، فبنى بها بِسَرِفٍ، وقدّر الله أنها ماتت بعدَ ذلك بِسَرف»[2]. وهي آخر مَنْ تزوَّج من النساء رضي الله عنها.

سرايا زيد بن حارثة:

زيد بن حارثة هو الصحابيُّ الكريم الذي خصَّه الحقُّ سبحانه بذكر اسمه في القرآن ـ كما سيأتي معنا ـ كان يقال له: زيد بن محمد حتى أنزل الله قوله الكريم: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤ ـ ٥].

وفي الحديث الشريف عن **ابن عمر** رضي الله عنهما، أنَّ زيدَ بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن: ﴿ ادْعُوهُمْ

---

(١) المرجع السابق، رقم ٤٢٥٨.

(٢) فتح الباري: ٧/ ٥١٠، وسَرِف: موضعٌ يبعدُ عن مكة ستةَ أميالٍ على طريق المدينة المنورة.

﴿لِآبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾[1].

بعثه النبيُّ ﷺ في سبع مغازٍ. قال ابن حجر: وقد تتبعتُ ما ذكره أهل المغازي من سرايا زيد بن حارثة فبلغت سبعاً كما قال سلمة، وإن كان بعضُهم ذكر ما لم يذكره بعض.

فأولها في جمادى الآخرة سنة خمسٍ قبلَ نجدٍ في مئة راكب، **والثانية**: في ربيع الآخر سنة سِتٍّ إلى بني سُليم، **والثالثة**: في جمادى الأولى منها في مئة وسبعين، فتلقى عيراً لقريش، وأسروا أبا العاص بن الربيع زوج السيدة زينب رضي الله عنها، **والرابعة**: في جمادى الآخرة منها إلى بني ثعلبة، **والخامسة**: إلى حُسمى ـ بضم المهملة وسكون المهملة مقصور ـ في خمسمئة إلى أُناسٍ من بني جُذام بطريقِ الشام، كانوا قطعوا الطريقَ على دحيةَ وهو راجعٌ من عندِ هرقل، **والسادسة**: إلى وادي القُرى، **والسابعة**: إلى ناسٍ من بني فَزارة[2].

وممَّا يدلُّ على أنَّ النبيَّ ﷺ كان يؤمّره ما ورد في الحديث عن **ابن عمر** رضي الله عنهما قال: أمّر رسول الله ﷺ أسامةَ على قومٍ، فطعنوا في إمارته، فقال: «إنْ تطعنوا في إمارته فقد طعنتُم في إمارةِ أبيه من قبلُ، وايمُ اللهِ لقد كان خَلِيقاً (جديراً) للإمارة، وإن كان من أحبِّ الناس إليّ، وإنَّ هذا لمنْ أحبِّ الناسِ إليَّ بعدَه»[3].

وقوله: «وقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل» يشير إلى إمارة زيد بن حارثة في غزوة مؤتة، وعند النسائيِّ عن عائشة قالت: ما بعثَ رسولُ الله ﷺ زيدَ ابن حارثة في جيشٍ قطّ إلا أمّره عليه[4].

إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص رضي الله عنهما:

هو خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي، يجتمعُ مع النبيِّ ﷺ ومع أبي بكر

---

(١) صحيح البخاري، رقم ٤٧٨٢.
(٢) فتح الباري: ٧/ ٤٩٨.
(٣) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٢٥٠.
(٤) فتح الباري: ٧/ ٨٧.

جميعاً في مُرة بن كعب، يكنّى أبا سُليمان، وكان من فرسانِ الصحابةِ، أسلمَ بين الحديبيـة والفتح، ويقال: قبل غزوة مؤتة بشهرين، وكانت في جمادى سـنة ثمان[1].

ولمّا دخلَ ﷺ مكة المكرمة في عمرة القضاء تغيّب خالدٌ عن مكة مع رجال قريش حتى لا يرى رسولَ الله ﷺ مع أصحابه وهم يطوفونَ حولَ الكعبة آمنين.

وكان أخوه الوليد بن الوليد قد أسلمَ قبله، فأرسلَ إليه رسالةً قال له فيها: بسـم الله الرحمن الرحيم أما بعدُ: فإنّي لم أرَ من ذهـابِ رأيك عن الإسـلام، وعقلـك عقلك، ومثلُ الإسلامِ جهلَه أحدٌ؟ وقد سألني رسولُ الله ﷺ عنك، وقال: «أين خالد؟» فقلتُ: يأتي اللهُ به، فقال: «مثله جهلَ الإسلام، ولو كان جعل نكايتـه وجَدّه مع المسلمين كان خيراً له، ولقدّمناه على غيره» فاسـتدرك يا أخي ما قد فاتك من مواطنَ صالحةٍ[2].

ووقعت هذه الرسالة موقعاً طيباً في قلب خالد، وشرحتْ صدرَه للإسلام، وعزم على ذلك، وخرجَ مع عمرو بن العاص، وتوجها إلى المدينة المنورة.

وقد وصف **عمرو بن العاص** كيفيّة إسـلامه عندما حضره المـوتُ، ففي الحديث عن ابن شماسة المهري قال: حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت[3]، فبكى طويلاً وحوّلَ وجهه إلى الجدار، فجعل ابنُه يقول: يا أبتاه أما بشّرك رسولُ الله ﷺ بكذا؟ أما بشّرك رسولُ الله ﷺ بكذا؟ قال: فأقبلَ بوجهه، فقال: إنَّ أفضلَ ما نعدُّ شهادة أن لا إلـه إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله. إنّي كنتُ على أطباق ثلاث[4]: لقد رأيتُني وما أحدٌ أشدُّ بغضاً لرسول الله ﷺ مني، ولا أحبّ إليَّ أن أكون قد استمكنتُ منه فقتلتُه، فلو مِتُّ على تلك الحال لكنتُ من أهل النار. فلما جعل الله الإسلامَ في قلبي أتيتُ النبيَّ ﷺ فقلتُ: ابسطْ يمينَك فلأبايعك، فبسطَ يمينَه، قال: فقبضتُ يدي، قال: «مالك يا عمرو؟»، قال:

---

(١) المرجع السابق: ٧/ ١٠١.
(٢) ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية كما في فرسان مخزوم للمؤلف.
(٣) أي حال حضور الموت.
(٤) أي على أحوال ثلاثة.

قلتُ: أردتُ أن أشترط، قال: «تشترطُ بماذا؟»، قلت: أنْ يُغْفَرَ لي، قال: «أما علمتَ أنَّ الإسلامَ يهدمُ ما كانَ قبله؟ وأنَّ الهجرةَ تهدِمُ ما كان قبلها؟ وأنَّ الحجَّ يهدمُ ما كان قبله؟».

وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ منْ رسولِ الله ﷺ ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنتُ أطيقُ أن أملأَ عيني منه إجلالاً له، ولو سُئِلتُ أن أصفَه ما أطقتُ، لأني لم أكن أملأُ عيني منه، ولو مِتُّ على تلك الحال لرجوتُ أن أكونَ من أهلِ الجنّة.

ثم ولينا أشياءَ ما أدري ما حالي فيها، فإذا أنا مِتُّ فلا تصحبني نائحةٌ ولا نار، فإذا دفنتموني فشنّوا عليَّ الترابَ شنّاً[1]، ثم أقيموا حول قبري قَدْرَ ما تُنْحَرُ الجزورُ[2]، ويُقسَمُ لحمُها، حتى أستأنسَ بكم، وأنظرَ ماذا أراجعُ به رسلَ ربّي[3].

غزوة مؤتة:

وهي سرية لم يحضرْها النبيُّ ﷺ، وسمِّيت غزوةً لأهميتها وخطورتها، فهي أول قتالٍ وقعَ بين المسلمين وبين الروم في بلاد الشام، وسببُها أنَّ شُرحبيل ابن عمرٍو الغسّاني، وهو من أمراء قيصر على الشام، قتل رسولاً أرسلَه النبيُّ ﷺ إلى صاحب بُصرى، واسمُ الرسول الحارثُ بن عُمير، فجهَّزَ إليهم النبيُّ ﷺ عسكراً في ثلاثةِ آلاف في شهر جمادى من سنة ثمانٍ، لا يختلفُ أهل المغازي في ذلك، إلا ما ذكرَ خليفةُ في (تاريخه) أنّها كانت سنةَ سبعٍ[4].

وفي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أَمَّرَ رسولُ الله ﷺ في غزوة مؤتة زيدَ بن حارثة، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنْ قُتِلَ زيدٌ فجعفرُ، وإنْ قُتِلَ جعفرُ فعبدُ الله بنُ رواحة».

قال عبد الله: كنتُ فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنةٍ ورميةٍ.

---

(١) أي صُبّوا التراب علي صباً.
(٢) الناقة التي تنحر.
(٣) صحيح مسلم في الإيمان، رقم ١٩٢.
(٤) فتح الباري: ٧/ ٥١١.

ورويَ عن ابن عمر أيضاً أنَّه وقف على جعفر يومئذٍ وهو قتيلٌ، فعددتُ به خمسينَ بين طعنةٍ وضربةٍ، ليسَ منها شيءٌ في دُبره، يعني في ظهره[1].

قـول عبد الله بن عمر: «كنت فيهم في تلـك الغزوة، فالتمسـنا جعفرَ بن أبي طالب» أي بعدَ أن قُتِلَ، كذا اختصره.

وفي حديث عبد الله بن جعفر المذكور: «فلقوا العدوَّ، فأخذَ الرايةَ زيدٌ فقاتل حتى قُتِلَ، ثم أخذها جعفر».

وذكر ابن إسحاق بإسنادٍ حسنٍ، وهو عند أبي داود من طريقِه عن رجلٍ من بني مُرّة قال: والله لكأنّي أنظرُ إلى جعفر بن أبي طالب حين اقتحمَ عن فرسٍ له شقراء فعقرها، ثم تقدّمَ فقاتلَ حتى قُتلَ.

ثم أخذ الرايةَ عبدُ الله بن رواحة، فالتوى بعضَ الالتواء، ثم تقدّم على فرسِه، ثم نزلَ فقاتلَ حتى قُتِلَ، ثم أخذ الرايةَ ثابتُ بن أقرم الأنصاريّ فقال: اصطلحوا على رجلٍ، فقالوا: أنتَ لها، قال: لا، فاصطلحوا على خالد بن الوليد.

وروى الطبرانيُّ من حديثِ **أبي اليُسْرِ الأنصاري** قال: أنا دفعتُ الرايةَ إلى ثابتِ بن أقرم لمّا أُصيبَ عبدُ الله بن رواحة، فدفعها إلى خالد بن الوليد، وقال له: أنت أعلمُ بالقتالِ منّي[2].

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابنَ رواحة للناسِ قبل أن يأتيهم خبرُهم فقال: «أخذَ الرايةَ زيدٌ فأصيبَ، ثم أخذَ الرايةَ جعفرٌ فأصيبَ، ثم أخذَ ابنُ رواحة فأصيب ـ وعيناه تَذْرُفان ـ حتى أخذ الرايـةَ سيفٌ من سيوفِ اللهِ حتى فتحَ اللهُ عليهم»[3].

وقد حزنَ رسولُ اللهِ ﷺ لِمَا أصابَ أصحابه في مؤتة، ففي الحديث عن

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٢٦٠ـ٤٢٦١.
(٢) فتح الباري: ٧/ ٥١٢.
(٣) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٢٦٢.

عائشة رضي الله عنها قالت: لمّا جاءَ قتلُ ابن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم، جلس رسولُ الله ﷺ يُعْرَفُ فيه الحزنُ، قالت عائشة: وأنا أطّلعُ من صائر الباب ـ شق الباب ـ فأتاه رجلٌ فقال: أي رسول الله إنَّ نساءَ جعفر ـ وذكر بكاءهن ـ فأمره أن ينهاهنّ، قال: فذهبَ الرجلُ، ثم أتى فقال: قد نهيتهنّ، وذكر أنّه لم يطعنه، قال: فأمر أيضاً، فذهبَ، ثم أتى فقال: والله لقد غَلبنَـا. فزعمتَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «فاحثُ في أفواههنّ مِنَ التراب».

قالت عائشة فقلتُ: أرغمَ الله أنفكَ، فوالله ما أنتَ تفعلُ، وما تركتَ رسولَ الله ﷺ من العناء(١).

وكان النبيّ ﷺ يحبُّ أبناءَ جعفر رضي الله عنهم، ويقرّبهم، ففي الحديث عن **عبد الله بن جعفر** قال: إنّ عبدَ الله بن جعفر قال لابن الزبير: أتذكرُ إذ تلقّينا رسول الله ﷺ أنا وأنت وابن عباس؟ قال: نعم. قال: فحملنا وتركك.

وعنه رضي الله عنه أيضاً قال: كان رسول الله ﷺ إذا قَدِمَ من سفرٍ لُقِّي بصبيان أهل بيته. قال: وإنَّه قدمَ من سفرٍ فسبق إليه، فحملني بين يديه، ثم جيءَ بأحد ابني فاطمة، فأردفه خلفه، قال: فأدخلَنا المدينة ثلاثة على دابة(٢).

وفي الحديث عن **عبد الله بن جعفر** قال: قال رسول الله ﷺ: «اصنعوا لآلِ جعفرَ طعامهم، فإنّهم قد جاءهم ما يشغلُهم»(٣).

ويبدو أنّه رضي الله عنه قد قطعت يديه أثناءَ القتال، فأكبَّ على الراية بعَضُدَيه يرفعها، فأبدله الله بالجنّة جناحين يطيرُ فيهما، ففي الحديث الشريف عن **ابن عمر** رضي الله عنهما كان إذا سلّم على ابن جعفر قال: السلامُ عليك يا ابنَ ذي الجناحين(٤).

وكان **أبو هريرة** يقول: كان أخيرَ الناس للناس المساكين جعفر بن

---

(١) المرجع السابق، رقم ٤٢٦٣.
(٢) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٤٢٧ ـ ٢٤٢٨.
(٣) أخرجه أبو داود والترمذي.
(٤) صحيح البخاري في الفضائل، رقم ٣٧٠٩.

أبي طالب، كان ينقلبُ بنا، فيطعمنا ما كان في بيته، حتى إنّه كان ليُخْرِجُ إلينا العُكَّةَ فيها شيءٌ، فيشقّها فنلعق ما فيها[1].

سيف الله:

وهو اللقبُ الذي أطلقه النبيُّ ﷺ على خالد بن الوليد رضي الله عنه بسبب بلائه وحنكته في غزوة مؤتة، ففي الحديث عن أنس رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابنَ رواحةَ للناس قبل أن يأتيهم خبرُهم فقال: «أخذ الرايةَ زيدٌ فأصيب، ثم أخذ جعفرُ فأصيب، ثم أخذ ابنُ رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذ الرايةَ سيفٌ من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»[2].

وفي حديث **أبي قتادة**: «ثم أخذ اللواءَ خالد بن الوليد، ولم يكن من الأمراء، وهو أمير نفسه» ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ إنَّه سيفٌ من سيوفِكَ فأنتَ تنصره» فمن يومئذٍ سُمِّيَ سيفَ الله.

وفي حديث **عبد الله بن جعفر** «ثم أخذها سيفٌ من سيوفِ الله خالد بن الوليد ففتحَ اللهُ عليهم».

وعن **أيوب**: «فأخذها خالدُ بن الوليد من غير إمرةٍ» والمراد نفي كونه كان منصوصاً عليه، وإلا فقد ثبتَ أنّهم اتفقوا عليه..

وفيه **جواز التأمّر** في الحرب بغير تأمير، وقال الطحاوي: هذا أصلٌ يؤخذُ منه أنَّ على المسلمين أن يقدّموا رجلاً إذا غاب الإمامُ يقومُ مقامه إلى أن يحضر.

وفيه **جواز الاجتهاد** في حياة النبي ﷺ.

وفيه علمٌ ظاهرٌ من أعلام النبوّة، وفضيلةٌ ظاهرةٌ لخالد بن الوليد ولمن ذُكِرَ من الصحابة.

واختلفَ أهل النقل في المرادِ بقوله: «حتى فتح الله عليه» هل كان هناك

---

(١) المرجع السابق، رقم ٣٧٠٨.

(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٢٦٢.

قتالٌ فيه هزيمة للمشركين، أو المراد بالفتح انحيازُه بالمسلمين حتى رجعوا سالمين؟

ففي رواية ابن إسحاق عن محمد بن جعفر عن عروة: فحاش خالد الناسَ ودافعَ، وانحازَ وانحيزَ عنه، ثم انصرفَ بالناس. فهذا يدلُّ على الأول، ويؤيده ما تقدّم من بلاغ سعيد بن أبي هلال في الحديث الأول.

وذكر ابن سعد عن أبي عامر أنّ المسلمين انهزموا لما قُتِلَ عبدُ اللهِ بن رواحة حتى لم أر اثنين جميعاً، ثم اجتمعوا على خالد.

وعند الواقدي من طريق عبد الله بن الحارث بن فُضيل عن أبيه قال: لمّا أصبحَ خالدُ بن الوليد جعلَ مقدمته ساقةً، وميمنتُه ميسرةً، فأنكرَ العدوُّ حالهم، وقالوا: جاءَهم مددٌ، فرعبوا وانكشفوا منهزمين[1].

سرية ذات السلاسل:

حدثت بعد غزوة مؤتة في جمادى الآخرة سنة ثمان من الهجرة، وسمّاها البخاريُّ في (صحيحه) غزوة لخم وجذام فقال: باب غزوة ذات السلاسل وهي غزوة لخم وجذام.

ولَخْم وجُذام قبيلتان عربيتان من قبائل عرب الشمال من أرضِ العربِ.

وذكرَ ابنُ سعد أنَّ جمعاً من قُضاعة تجمّعوا، وأرادوا أن يدنوا من أطراف المدينة، فدعا النبيُّ ﷺ عمرو بن العاص، فعقدَ له لواءً أبيضَ، وبعثَه في ثلاثمئة من سُراةِ المهاجرين والأنصار، ثم أمدّه بأبي عبيدة بن الجراح في مئتين، وأمره أن يلحقَ بعمرو، وأن لا يختلفا، فأراد أبو عبيدة أن يؤمَّ بهم فمنعه عمرو، وقال: إنّما قدمتَ عليَّ مدداً وأنا الأمير. فأطاعَ له أبو عبيدة، وصلّى بهم عمرو.

وروى ابن حِبّان من طريق قيس بن أبي حازم عن عمرو بن العاص أنَّ رسولَ الله ﷺ بعثه في ذات السلاسل، فسأله أصحابه أن يوقدوا ناراً فمنعهم، فكلّموا أبا بكر فكلّمه في ذلك فقال: لا يوقد أحدٌ منهم ناراً إلا قذفتُه فيها.

---

(١) انظر فتح الباري: ٧/ ٥١٣.

قال: فلقوا العدوّ فهزموهم، فأرادوا أن يتّبعوهم فمنعهم، فلمّا انصرفوا ذكروا ذلك للنبيِّ ﷺ فسأله فقال: كرهتُ أن آذنَ لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوّهم قِلّتهم، وكرهتُ أن يتبعوهم فيكون لهم مددٌ. فحمد أمره(١).

وفي الحديث عن أبي عثمان أنّ رسولَ الله ﷺ بعثَ عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل، قال: فأتيته فقلتُ: أيُّ الناس أحبُّ إليك؟ قال: «عائشة»، قلتُ: مِنَ الرجال؟ قال: «أبوها»، قلت: ثم مَنْ؟ قال: «عمر»، فعدَّ رجالاً، فسكتُّ مخافة أن يجعلني في آخرهم(٢).

قال ابنُ حجر رحمه الله: وفي الحديث جوازُ تأميرِ المفضولِ على الفاضل إذا امتازَ المفضولُ بصفة تتعلّق بتلك الولاية، ومزية أبي بكر على الرجال وبنته عائشة على النساء، ومنقبةٌ لعمرو بن العاص لتأميره على جيشٍ فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وإن كان ذلك لا يقتضي أفضليته عليهم، لكن يقتضي أنّ له فضلاً في الجملة(٣).

سرية أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه:

وهي سريةٌ أرسلَها النبيُّ ﷺ إلى جُهينة على ساحل البحر. ففي الحديث عن جابر قال: بعثنا رسولُ الله ﷺ وأَمَّرَ علينا أبا عبيدة نتلقّى عيراً لقريش، وزوّدنا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره. فكان أبو عبيدة يعطينا تمرةً تمرةً، قال: فقلت: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نمصّها كما يمصّ الصبيِ، ثم نشربُ عليها من الماءِ، فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنا نضرب بعصينا الخبَطَ ـ ورق السَّلَمِ ـ ثم نبلُّه بالماءِ فنأكله.

قال: وانطلقنا على ساحلِ البحرِ، فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيبِ الضخمِ، فأتيناهُ فإذا هي دابةٌ تدعى العنبر، قال: قال أبو عبيدة: ميتةٌ. ثم قال: لا بل نحنُ رسلُ رسولِ الله ﷺ وفي سبيل الله وقد اضطررتم فكلوا، قال: فأقمنا عليه

---

(١) انظر فتح الباري: ٨/ ٧٥.
(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٣٥٨.
(٣) انظر فتح الباري: ٨/ ٧٥.

شهراً، ونحن ثلاثمئةٍ حتى سَمِنّا، قال: ولقد رأيتنا نغترفُ من وَقْبِ عينه[1] بالقِلال[2] الدُّهْنَ، ونقتطعُ منه الفدر كالثورِ أو كقدر الثور[3]، فلقد أخذَ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً، فأقعدهم في وَقْبِ عينه، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها، ثم رحّل أعظمَ بعيرٍ معنا فمرَّ من تحتها، وتزوّدنا من لحمه وشائقَ[4]، فلما قدمنا المدينةَ أتينا رسولَ الله ﷺ فذكرنا ذلك له فقال: «هو رزقٌ أخرجَهُ الله لكم، فهل معكم من لحمِه شيءٌ فتطعمونا؟»، قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله[5].

والجدير بالذكر هنا أنَّه سبحانه أحلَّ صيدَ البحرِ، وكلَّ ما يلفظه إذا لم يُنْتِنْ، فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦].

تشريع الجهاد في البحر وفضله:

شرعه النبيُّ ﷺ وحثَّ عليه، ففي الحديث عن أنس بن مالك أنَّ رسول الله ﷺ كان يدخلُ على أمِّ حرام بنت مِلحان، فتطعمُه، وكانت أم حرام تحت عُبادة بن الصامت، فدخل عليها رسولُ الله ﷺ فأطعمته، ثم جلستْ تفلّي رأسَه، فنامَ رسولُ الله ﷺ ثم استيقظَ وهو يضحك، قالت: فقلتُ: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «ناسٌ من أمتي عُرِضوا عليَّ غزاةً في سبيل الله، يركبون ثبجَ[6] هذا البحر، ملوكاً على الأسرّة، أو مثلَ الملوك على الأسرّةِ»، قالت: فقلتُ: يا رسولَ الله ادعُ اللهَ أن يجعلني منهم، فدعا لها، ثم وضعَ رأسَه فنام، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: فقلتُ: ما يضحكك يارسولَ الله؟ قال: «ناسٌ من أمتي عُرِضوا عليّ غُزاةً في سبيلِ الله» كما قال في الأولى، قالت: فقلتُ: يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني

---

(١) هو داخل عينه ونقرتها.
(٢) القلال: جمع قُلة، وهي الجرّة الكبيرة التي يقلّها الرجل بين يديه، أي يحملها.
(٣) روي بوجهين مشهورين: أحدهما بقاف مفتوحة ودال ساكنة أي مثل الثور، والثاني كفدر جمع فدرة. والأول أصح.
(٤) وشائق: جمع وشيقة وهي القديد.
(٥) صحيح مسلم في الصيد، رقم ١٩٣٥.
(٦) هو ظهره ووسطه.

منهم. قال: «أنتِ من الأولين» فركبتْ أمُّ حرام بنت مِلحان البحرَ في زمنِ معاوية، فصُرِعَتْ عن دابتها حين خرجتْ من البحرِ فهلكت[1].

وقوله: «في زمن معاوية» قال القاضي: قال أكثرُ أهلِ السير والأخبار: إنَّ ذلك كان في خلافةِ عثمان بن عفان رضي الله عنه، وإنَّ فيها ركبتْ أمّ حرام وزوجها إلى قبرس، فصُرِعت عن دابّتها هناك، فتوفيت ودُفِنَتْ هناك. وعلى هذا يكون قوله: «في زمن معاوية» معناه في زمان غزوه في البحر، لا في أيام خلافته[2].

أسر ثمامة بن أثال وإسلامه:

وهو رجلٌ من بني حَنيفة، أسرته سريةٌ من سرايا النبيِّ ﷺ، ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعثَ النبيُّ ﷺ خَيْلاً قِبَلَ نجدٍ، فجاءت برجلٍ من بني حنيفة يقال له: ثُمامة بن أَثال، فربطوه بساريةٍ من سواري المسجد، فخرجَ إليه النبيُّ ﷺ فقال: «ما عندك ياثمامةُ؟»، قال: عندي خيرٌ يا محمد، إن تقتلني تقتلُ ذا دمٍ، وإنْ تُنْعِمْ تنعم على شاكر، وإن كنتَ تريدُ المالَ فسل ما شئتَ.

فترِكَ حتى كان الغدُ، ثم قال له: «ما عندك ياثمامة؟» فقال: ما قلتُ لك: إن تنعم تنعم على شاكرٍ.

فتركه حتى كان بعد الغد فقال: «ما عندك ياثمامة؟»، فقال: عندي ما قلتُ لك، فقال: «أطلقوا ثمامة» فانطلق إلى نخلٍ قريبٍ من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجدَ فقال: أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأشهدُ أن محمداً رسولُ الله. يا محمد! واللهِ ما كانَ على الأرضِ وجهٌ أبغضَ إليَّ من وجهك، فقد أصبحَ وجهُكَ أحبَّ الوجوهِ إليَّ.

واللهِ! ما كان من دينٍ أبغضُ إليَّ من دينك، فأصبحَ دينُكَ أحبَّ الدينِ إليَّ.

واللهِ! ما كانَ من بلدٍ أبغضُ إليَّ من بلدِك، فأصبَحَ بلدُك أحبَّ البلادِ إليَّ، وإنَّ خيلك أخذتني وأنا أريدُ العمرةَ، فماذا ترى؟ فبشّره رسولُ الله ﷺ، وأمره أن

---

(١) صحيح مسلم في الإمارة، رقم ١٩١٢.

(٢) هامش صحيح مسلم عن شرحه للإمام النووي رحمه الله.

يعتمرَ، فلمّا قدم مكة قال له قائل: صبوتَ؟

قال: لا، ولكنّي أسلمتُ مع محمد رسولِ الله ﷺ، ولا واللهِ لا يأتيكم من اليمامةِ حبةُ حنطةٍ حتى يأذنَ فيها النبيُّ ﷺ(١).

وفي قصة ثمامة من الفوائد: ربطُ الكافرِ في المسجد.

والمنّ على الأسير الكافر.

وتعظيمُ أمرِ العفو عن المسيءِ، لأنَّ ثمامة أقسم أن بغضه انقلب حبّاً في ساعة واحدة، لما أسداه النبيُّ ﷺ إليه من العفو والمنِّ بغير مقابل.

وفيه الاغتسال عند الإسلام، وأنَّ الإحسانَ يزيلُ البغضَ، ويثبتُ الحبَّ، وأنَّ الكافرَ إذا أرادَ عملَ خيرٍ ثم أسلمَ شُرِعَ له أن يستمرَّ في عمل ذلك الخير.

وفيه الملاطفةُ بمن يرجى إسلامُه من الأسارى إذا كان في ذلك مصلحةٌ للإسلام، ولا سيما من يتّبعه على إسلامه العددُ الكثيرُ من قومه.

وفيه بعثُ السرايا إلى بلادِ الكفارِ، وأسرِ من وُجدَ منهم، والتخيير بعدَ ذلك في قتلِه أو الإبقاءِ عليه(٢).

* * *

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٣٧٢.

(٢) فتح الباري: ٨/ ٨٨.

الفَصْل العَاشِر

فتح مكّة المكرمة

سببُ الفتحِ أنَّ قريشاً نقضوا العهدَ الذي عقد في الحديبية، فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فغزاهم، إذ كان في الصلح أنَّ مَنْ أحبَّ أن يدخلَ في عقدِ رسولِ الله ﷺ وعهده فليدخل، ومن أحبَّ أن يدخلَ في عقد قريش وعهدهم فليدخل، فدخلت بنو بكر في عهدِ قريشٍ، ودخلتْ خُزاعة في عهدِ رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: وكان بين بني بكر وخُزاعة حروبٌ وقتلى في الجاهلية، فتشاغلوا عن ذلك لمّا ظهر الإسلام، فلما كانت الهُدنةُ خرجَ نوفل بن معاوية الديلي من بني بكر في بني الديل حتى بَيّتَ خزاعةَ على ماءٍ لهم يقال له الوتير، فأصابَ منهم رجلاً يقال له منبه، واستيقظت لهم خُزاعةُ، فاقتتلوا إلى أن دخلوا الحرم، ولم يتركوا القتال، وأمدّت قريشٌ بني بكر بالسلاح، وقاتل بعضُهم معهم ليلاً في خفية، ولمّا انقضتِ الحربُ خرجَ عمرو بن سالم الخُزاعي حتى قَدِمَ على رسول الله ﷺ وهو جالسٌ في المسجد يستنصرُه، فقال له رسول الله ﷺ: «نُصِرْتَ ياعمرو بن سالم» فكان ذلك ما هاج فتح مكة.

وأخرج الطبرانيُّ من حديثِ ميمونة بنت الحارث أنَّها سمعتْ رسولَ الله ﷺ يقول ليلاً وهو في متوضأه: «نصرتَ نصرتَ» فسألته فقال: «هذا راجزُ بني كعب يستصرِخُني، وزعمَ أنَّ قُريشاً أعانت عليهم بني بكر» قالت: فأقمنا ثلاثاً، ثم صلَّى الصبحَ بالناس، ثم سمعتُ الراجزَ ينشده، فذكروا أنَّ مما أنشده:

يــا ربِّ إنِّــي نــاشــدٌ محمّــدا ... حِلْــفَ أبينــا وأبيــه الأتلــدا
فــانْصُــرْ هــداك اللهُ نصــراً أيــدا ... وادعُ عبــادَ الله يــأتــوا مــددا
إنَّ قــريشــاً أخلفــوكَ المــوْعِــدَا ... ونقضــوا ميثــاقَــك المُــؤكَّــدا
هــم بيّتــونا بــالــوتيــرِ هُجَّــدا ... وقتّلــونــا رُكَّعــاً وسُجَّــدا

وزعمـــوا أنْ لســـتُ أدعـــو أحـــدا وهـــــم أذلُّ وأقـــــلُّ عـــــددا[1]

كتاب حاطب إلى قريش:

وأرادَ النبيُّ ﷺ مفاجأة قريش قبل أن تتجهَّزَ للقتال، فتذعنَ للأمر الواقع، وتستسلمَ من دونِ قتال، وبذلك تُحْقَنُ الدماءُ، فسألَ الله تعالى أن لا تعلمَ قريشٌ بأمر خروجه إليهم. وفي رواية أبي سلمة عند أبي شيبة أنَّ النبيَّ ﷺ أمرَ بالطُّرُقِ فحُبِسَتْ، فغمَّ على أهل مكة الأمرَ.

وفي الحديث عن عبيد الله بن أبي رافع يقول: سمعتُ علياً رضي الله عنه يقول: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضةَ خاخ[2]، فإنَّ بها ظعينةً معها كتابٌ فخذوه منها».

قال: فانطلقنا تعادى بنا خيلُنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتخرجنَّ الكتابَ أو لنلقينَّ الثيابَ. قال: فأخرجته من عُقاصها، فأتينـا به رسـول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناسٍ بمكة من المشركين يخبرُهم ببعضِ أمرِ رسولِ الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ياحاطبُ ما هذا؟»، قال: يا رسول الله لا تعجلْ عليَّ، إنّي كنتُ امرءاً ملصقاً في قريش ـ يقول: كنتُ حليفاً ـ ولم أكن من أنفسها، وكان مَنْ معك من المهاجرين من لهم بها قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببتُ إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتّخذ عندهم يداً يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفرِ بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «ألا إنَّه قد صدقكم»، فقال عمر: يا رسول الله دعني أضربُ عنقَ هذا المنافق، فقال: «إنّه شهد بدراً، وما يدريك لعلَّ اللهَ اطَّلعَ على مَنْ شهدَ بدراً قال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم»، فأنزل اللهُ السورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ

(١) فتح الباري: ٧/ ٥٢٠.

(٢) روضة خاخ: اسم موضع قريب من المدينة على الطريق إلى مكة.

﴿أَعْلَنتُمْۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١][1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ خرجَ في رمضان من المدينة ومعه عشرة آلاف، وذلك على رأس ثمان سنين ونصف من مقدمه المدينة، فسار هو ومن معه من المسلمين إلى مكة يصوم ويصومون حتى بلغ الكُديد ـ وهو ماء بين عُسفان وقُديد ـ أفطر وأفطروا[2].

نيران الظهران في ليلة الفتح:

ولما سار رسول الله ﷺ بلغ ذلك قريشاً ـ أي بلغهم مسيره ـ خرج أبو سفيان بن حرب وحَكيم بن حِزام وبُديل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله ﷺ، فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مَرَّ الظَّهران، فإذا هم بنيرانٍ كأنّها نيرانُ عرفة، وكان النبيُّ ﷺ أمر أصحابه في تلك الليلة فأوقدوا عشرة آلاف نار. فقال أبو سفيان: ما هذه؟ لكأنّها نيرانُ عرفة، فقال بُديل بن ورقاء: نيران بني عمرو، فقال أبو سفيان: عمرو أقل من ذلك.

فرآهم ناس من حرس رسول الله ﷺ فأدركوهم فأخذوهم، فأتوا بهم رسول الله ﷺ، فأسلم أبو سفيان، فلمّا سار قال للعباس: «احبس أبا سفيان عند خَطْمِ الجبلِ حتى ينظرَ إلى المسلمين» فحبسه العباس، فجعلت القبائلُ تمرُّ مع النبيِّ ﷺ: تمرُّ كتيبةٌ كتيبةً على أبي سفيان، فمرّت كتيبةٌ فقال: ياعباس من هذه؟ فقال: هذه غفار، فقال: ما لي ولغفار.

ثم مرَّت جُهينةُ، فقال مثل ذلك. ثم مرّت سعد بن هذيم فقال مثل ذلك. ومرت سُليم، فقال مثل ذلك. حتى أقبلت كتيبةٌ لم يرَ مثلها، قال: من هذه؟ قال: هؤلاء الأنصار عليهم سعدُ بن عبادة معه الراية، فقال سعد بن عبادة: يا أبا سفيان اليوم يومُ الملحمةِ، اليوم تستحلُّ الكعبة، فقال أبو سفيان: يا عباس حبذا يوم الذِّمار[3].

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٢٧٤.
(٢) المرجع السابق، رقم ٤٢٧٦.
(٣) أي يوم الهلاك، قال الخطابي: تمنَّى أبو سفيان أن يكونَ له يدٌ فيحمي قومه ويدفع عنهم، وقيل: المراد هذا يوم الغضب للحريم والأهل والانتصار لهم لمن قدر عليهم، =

ثم جاءت كتيبةٌ ـ وهي أقلُّ الكتائب ـ فيهم رسول الله ﷺ وأصحابُه، ورايةُ النبيِّ ﷺ مع الزبير بن العوام، فلمَّا مرَّ رسولُ الله ﷺ بأبي سفيان قال: ألم تعلم ما قال سعدُ بن عبادة؟ قال: «وما قال؟»، قال: قال كذا وكذا، فقال: «كذب سعدٌ، ولكنْ هذا يوم يعظِّمُ فيه الله الكعبةَ، ويوم تكسى فيه الكعبة»، قال: وأمر رسول الله ﷺ أن تركز رايتُه بالحَجون.

قال عروة: وأخبرني نافع بن جبير بن مطعم قال: سمعتُ العبّاس يقول للزبير بن العوام: يا أبا عبد الله هاهنا أمرك رسول الله ﷺ أن تركزَ الرايةَ.

قال: وأمر رسولُ الله ﷺ يومئذٍ خالدَ بن الوليد أن يدخل من أعلى مكة من كَداء، ودخل النبيُّ ﷺ من كُدا، فقُتل من خيل خالد رضي الله عنه يومئذٍ رجلان: حُبيش بن الأشعر، وكرز بن جابر الفهري[١].

وعند موسى بن عقبة: واندفع خالد بن الوليد حتى دخل من أسفل مكة، وقد تجمَّع بها بنو بكر وبنو الحارث بن عبد مناة وناس من هُذيل ومن الأحابيش الذين استنصرت بهم قريش، فقاتلوا خالداً فقاتلهم فانهزموا، وقُتِلَ من بني بكر نحو عشرين رجلاً، ومن هذيل ثلاثة أو أربعة، حتى انتهى بهم القتل إلى الحَزْورة إلى باب المسجد حتى دخلوا في الدور، وارتفعت طائفةٌ منهم على الجبال، وصاح أبو سفيان: من أغلق بابه وكفّ يده فهو آمن.

قال: ونظر رسولُ الله ﷺ إلى البارقة فقال: «ما هذا وقد نهيتُ عن القتال؟» فقالوا: نظنُّ أنَّ خالداً قوتل وبدئ بالقتال، فلم يكن له بدٌّ من أن يقاتل. ثم قال: وقال رسول الله ﷺ بعد أن اطمأنَّ بخالد بن الوليد: «لِمَ قاتلتَ وقد نهيتُك عن القتالِ؟»، فقال: هم بدؤونا بالقتال ووضعوا فينا السلاح، وقد كففتُ يدي ما استطعتُ، فقال ﷺ: «قضاءُ اللهِ خيرٌ»[٢].

= وقيل: المرادُ هذا يوم يلزمك فيه حفظي وحمايتي من أن ينالني مكروه.

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٢٨٠.

(٢) فتح الباري: ٨/ ١١.

دخول النبي ﷺ مكة المكرمة:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفاً أسامةَ بن زيد، ومعه بلال، ومعه عثمان بن طلحة من الحجبة[1]، حتى أناخَ في المسجد، فأمره أن يأتي بمفتاح البيت، فدخل رسولُ الله ﷺ ومعه أسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة، فمكث فيه نهاراً طويلاً، ثم خرج فاستبق الناس، فكان عهد عبد الله بن عمر أول من دخل، فوجد بلالاً وراء الباب قائماً، فسأله: أين صلى رسول الله ﷺ؟ فأشار إلى المكان الذي صلى فيه، قال عبد الله: فنسيتُ أن أسأله كم صلّى سجدةً[2].

وعن معاوية بن قرة قال: سمعتُ **عبد الله بن مغفل** يقول: رأيتُ رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح يرجِّعُ[3]. وقال: لولا أن يجتمع الناس حولي لرجَّعتُ كما رجَّع.

وعن **أسامة بن زيد** أنه قال زمن الفتح: يارسول الله أين ننزل غداً؟ قال النبي ﷺ: «وهل ترك لنا عقيلٌ مِنْ منزلٍ؟»[4]

وقوله: «وهل تركَ لنا عقيلٌ من منزلٍ» وكان عقيلٌ ورثَ أبا طالب هو وطالب، ولم يرث جعفر ولا علي شيئاً، لأنهما كانا مسلمين. وكان عقيل وطالب كافرين. وهذا يدلُّ على تقدّم هذا الحكم في أوائل الإسلام، لأنَّ أبا طالب مات قبل الهجرة. ويحتمل أن تكون الهجرة لما وقعت استولى عقيل وطالب على ما خلّفه أبو طالب. وكان أبو طالب قد وضع يده على ما خلفه عبد الله والد النبي ﷺ لأنّه كان شقيقه، وكان النبيُّ ﷺ عند أبي طالب بعد موت جدّه عبد المطلب، ولما مات أبو طالب ثم وقعت الهجرة ولم يسلم طالب، وتأخّر إسلامُ عقيل، استوليا على ما خلّف أبو طالب.

---

(١) أي من الذين يتولون الحجابة في مكة المكرمة.

(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٢٨٩.

(٣) يرجع بتشديد الجيم، والترجيع ترديد القارئ الحرف في الحلق.

(٤) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٢٨١ ـ ٤٢٨٢.

ومات طالب قبل بدر، وتأخَّر عقيل، فلمَّا تقرر حكم الإسلام بترك توريث المسلم من الكافر استمرَّ ذلك بيد عقيل، فأشار النبي ﷺ إلى ذلك، وكان عقيلٌ قد باع تلك الدور كلها.

واختلف في تقرير النبيِّ ﷺ على ما يخصّه هو، فقيل: ترك له ذلك تفضُّلاً عليه، وقيل: استمالةً له وتأليفاً[(١)].

تقرير حرمة مكة وإحلالها للنبي ﷺ:

دخل النبيُّ ﷺ مكةَ يوم الفتح حلالاً غيرَ محرمٍ، وعلى رأسه الشريفِ المغفرُ، ففي الحديث عن **أنس بن مالك** رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ دخل مكةَ يوم الفتح وعلى رأسه المغفر، فلمَّا نزعه جاء رجلٌ فقال: ابن خطل متعلِّقٌ بأستار الكعبة. فقال: «اقتله». قال مالك ـ راوي الحديث عن ابن شهاب ـ ولم يكن النبيُّ ﷺ فيما نرى ـ والله أعلم ـ يومئذٍ مُحرماً[(٢)].

وكان ابن خطل يهجو رسولَ الله ﷺ بالشعر.

وعن **أبي شريح العدويِّ** أنَّه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعثُ البعوث إلى مكة: ائذن لي أيها الأمير أحدِّثْكَ قولاً قام به رسول الله ﷺ الغداة من يوم الفتح، سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلَّم به: إنَّه حَمِدَ الله، وأثنى عليه، ثم قال: «إنَّ مكَّةَ حرَّمَهَا اللهُ، ولم يحرِّمها الناسُ، لا يحلُّ لامرئٍ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخر أن يسفكَ بها دماً، ولا يعضدَ بها شجراً، فإنْ أحدٌ ترخَّصَ لقتالِ رسولِ الله ﷺ فيها فقولوا له: إنَّ الله أذنَ لرسوله، ولم يأذنْ لكم، وإنَّما أذنَ له فيه ساعةً من نهارٍ، وقد عادتْ حرمتُها اليومَ كحرمتِها بالأمسِ، وليبلِّغَ الشاهدُ الغائبَ»[(٣)].

ومرَّ معنا أنَّ الله سبحانه وتعالى عظَّمَ مكة، وشرَّفها فوق ما لها من شرف،

---

(١) فتح الباري: ٨/ ١٥.

(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٢٨٦.

(٣) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٢٩٥.

لأنَّ النبيّ ﷺ مقيمٌ فيها، وأنزلَ الله في أول سورة البلد: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [البلد: ١ ـ ٢].

تطهير الكعبة من الأصنام والصور:

وعظَّمَ اللهُ الكعبةَ المشرَّفةَ، وطهَّرها النبيُّ ﷺ من الأصنامِ التي كانت حولها في يوم الفتح، ففي الحديث عن عبد الله رضي الله عنه قال: دخل النبيُّ ﷺ مكة يوم الفتح، وحولَ البيتِ ستون وثلاثمئةِ نُصب، فجعل يطعنُها بعودٍ في يده، ويقول: «جاءَ الحقُّ وزهقَ الباطلُ، جاءَ الحقُّ وما يبدىءُ الباطلُ وما يعيدُ».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ لما قدم مكة أبى أن يدخلَ البيت وفيه الآلهة، فأمرَ بها فأُخرجتْ، وأُخرجَتْ صورةُ إبراهيم وإسماعيل في أيديهما من الأزلام[1]، فقال النبيُّ ﷺ: «قاتلهم الله لقد عَلِموا ما استقسما بها قطُّ» ثم دخلَ البيتَ فكبَّرَ في نواحي البيت وخرجَ ولم يصلِّ[2].

قولـه: «فجعل يطعنها بعود في يـده» في حديث أبي هريرة عند مسلم: «يطعنُ في عينيه بِسِيَةِ القوس» وفي حديث ابن عمر عند الفاكهي وصحّحه ابنُ حبان «فيسقطَ الصنمُ ولا يمسُّه».

وللفاكهي والطبراني من حديث ابن عباس: فلم يبقَ وثنٌ استقبلَه إلا سقطَ على قفـاه، مع أنَّها كانـت ثابتـةً في الأرض، وقد شـدَّ لهم إبليسُ أقـدامها بالرصاص، وفعل النبيُّ ﷺ ذلك لإذلال الأصنام وعابديها، ولإظهار أنَّها لا تنفعُ ولا تضرُّ، ولا تدفعُ عن نفسها شيئاً[3].

وأنزل الله تعالى عليه وهو في داخل الكعبة الشريفة قوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨].

وروى ابن جرير بسنده عن ابن جريج قال: نزلت في عثمان بن طلحة بن

---

(١) الأزلام هي السهام التي كانوا يستقسمون بها الخير والشر.
(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٢٨٧ ـ ٤٢٨٨.
(٣) فتح الباري: ٨/ ١٧.

أبي طلحة، قبض منه النبيُّ ﷺ مفاتيحَ الكعبةَ، ودخل بها البيتَ يوم الفتح، فخرج وهو يتلو هذه الآية، فدعا عثمان، فدفع إليه المفتاح.

وقال عمر بن الخطاب لما خرج رسول الله ﷺ وهو يتلو هذه الآية: فداؤه أبي وأمي ما سمعته يتلوها قبل ذلك.

ولم يُكْرِه النبيُّ ﷺ المشركين الذين لا زالوا على الشرك في مكة على الدخول في الإسلام بل عفا عنهم، وقال مخاطباً لهم: «ما تقولون أني فاعلٌ بكم؟»

قالوا: خيراً، أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريمٍ.

فقال: «أقولُ كما قال أخي يوسف ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] اذهبوا فأنتم الطُّلقاءُ»[١].

لا هجرةَ بعد الفتحِ وبيان فضل المهاجرين:

وانتهى بفتح مكة المكرمة وجوبُ الهجرة إلى المدينة، وفاز المهاجرون بفضل الهجرة إليها، وأعلنَ النبيُّ ﷺ أنَّه لا هجرةَ بعد الفتح، وأنَّ الهجرةَ مضت لأهلها، ففي الحديث عن **مجاشع بن مسعود** قال: انطلقتُ بأبي معبد إلى النبيِّ ﷺ لأبايعه على الهجرة، قال: «مضت الهجرةُ لأهلها» وفي رواية قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ بأخي بعد الفتح فقلتُ: يارسول الله جئتُكَ بأخي لتبايعه على الهجرة. قال: «ذهبَ أهلُ الهجرةِ بما فيها»، فقلتُ: على أي شيءٌ تبايعه؟ قال: «أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد»[٢].

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

وعن عطاء بن أبي رباح قال: زرتُ **عائشةَ** مع عُبيد بن عُمير، فسألها عن

---

(١) زاد المعاد: ٣/ ٣٠٨.

(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٣٠٥ ـ ٤٣٠٦.

الهجرة فقالت: لا هجرةَ اليومَ، كان المؤمنُ يفرُّ أحدُهم بدينه إلى اللهِ وإلى رسولِه ﷺ مخافةَ أن يُفْتَنَ عليه، فأمّا اليومَ فقد أظهرَ اللهُ الإسلامَ، فالمؤمنُ يعبدُ ربَّه حيثُ شاء، ولكنْ جهادٌ ونيّةٌ[1].

ومما يدلُّ على أهمية الهجرة إلى المدينة المنوّرة أنَّه ﷺ كان يدعو قائلاً: «اللهمَّ أمضِ لأصحابي هجرتَهم» ويرثي لحالِ من يحرم من فضلِها إذا عاد إلى موطنه الأصلي.

وكان يسمحُ للمهاجرِ أن يقيمَ بمكةَ المكرمةَ ثلاثةَ أيامٍ فقط بعدَ طوافِ الوداعِ، ففي الحديث عن الزهري قال: سمعتُ عمر بن عبد العزيز يسأل السائبَ ابن أخت النَّمِر: ما سمعتَ في سُكنى مكة؟ قال: سمعتُ **العلاءَ بن الحضرميّ** قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ للمهاجرِ بعدَ الصَّدْرِ»[2] أي بعد طوافِ الوداعِ.

قال ابنُ حجر: وفقه هذا الحديث أنَّ الإقامةَ بمكة كانت حراماً على مَنْ هاجرَ منها قبلَ الفتح، لكن أُبيحَ لمن قصدها منهم بحجٍّ أو عمرةٍ أن يقيمَ بها بعد قضاءِ نُسكِه ثلاثةَ أيامٍ لا يزيدُ عليها. ولهذا رثى النبيُّ ﷺ لسعدِ بن خولة أن ماتَ بمكة[3].

ولما مرض سعد بن أبي وقاص بمكة المكرمة وهو من المهاجرين عاده ﷺ، وخشيَ عليه أن يموتَ بمكة، ويحرمَ ثوابَ الهجرة إلى المدينة المنورة. فقد عقد الإمام البخاريّ في (صحيحه) باباً قال فيه: بابُ قولِ النبيِّ ﷺ: «اللهمَّ أمضِ لأصحابي هجرتَهم» ومَرْثِيَتِهُ لِمَنْ مات بمكة.

ثم أخرج بسنده عن عامر بن سعد بن مالك عن أبيه قال: عادني النبيُّ ﷺ عامَ حجةِ الوداعِ من مرضٍ أشفيتُ منه على الموت، فقلتُ: يا رسول الله بلغَ بي من الوجعِ ما ترى، وأنا ذو مالٍ ولا يرثني إلا ابنةٌ لي واحدةٌ، أفأتصدّقُ بثلثي

---

(١) المرجع السابق، رقم ٤٣١٢.
(٢) المرجع السابق، في المناقب، رقم ٣٩٣٣.
(٣) فتح الباري: ٧/ ٢٦٧.

مالي؟ قال: «لا»، قال: فأتصدّقُ بشطرِه، قال: «الثلثُ ياسعدُ، والثلثُ كثيرٌ، إنّك إنْ تذرْ ورثتَكَ أغنياءَ خيرٌ من أن تذرَهم عالةً يتكفّفون الناسَ، ولستَ بنافقٍ نفقةً تبتغي بها وجهَ اللهِ إلا آجركَ اللهُ بها، حتى اللقمةَ في في امرأة».

قلتُ: يا رسول الله أخلف بعد أصحابي؟ قال: «إنّك لن تخلفَ فتعملَ عملاً تبتغي به وجهَ اللهِ إلا ازددتَ به درجةً ورفعة، ولعلّك تخلف حتى ينتفعَ بك أقوامٌ ويُضَرُّ بك آخرون، اللهمَّ أمضِ لأصحابي هجرتَهم ولا تردّهم على أعقابهم، لكنِ البائسُ سعدُ بن خولة» يرثي له رسول الله ﷺ أن توفي بمكة[1].

ولقد حاز المهاجرون إلى المدينة فضيلةَ الهجرة، ونالوا الوسام الرفيع الذي تفضَّل اللهُ تعالى به عليهم في قوله الكريم: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

وشكَّل المهاجرون من مكة إلى المدينة المنورة مع إخوانهم الأنصار نواةَ الأمة المسلمة، فكان لهم فضلُ الهجرةِ التي نقلت الدعوة الإسلامية إلى مرحلة جديدة، مرحلة التمكين في الأرض، والانتشار في آفاقها البعيدة، فلابدَّ من التنويه بفضلهم، وبيانِ ما أعدَّ الله تعالى لهم من الكرامةِ يومَ القيامة، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: ٥٨ ـ ٥٩].

فضيلة السابقين إلى الإسلام:

وحاز المهاجرون رضي الله عنهم أيضاً فضيلة السبق إلى الإسلام، فهم روّادُ الإسلام الأولون، قال تعالى يثني عليهم وعلى السابقين من الأنصار أيضاً: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

---

(١) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٩٣٦.

وظهر بهذا فضلُ السيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، فهي سبَّاقةُ الخَلْقِ إلى تصديقِ الرسولِ ﷺ والدخولِ في الإسلام، فهي أول الناس إسلاماً باتفاقِ العلماء، وأول من صلّى مع رسولِ الله ﷺ.

كما ظهر فضلُ أبي بكر الصدّيق، وعلي بن أبي طالب، وزيدُ بن حارثة رضي الله عنهم، وفضلُ الذين سبقوا إلى الإسلام بعدهم من المهاجرين والأنصار.

قال ابن كثير رحمه الله: أخبر الله العظيم أنَّه قد رضيَ عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتّبعوهم بإحسان، فيا ويلَ من أبغضَهم أو سبَّهم أو سبَّ بعضَهم، ولا سيما سيدُ الصحابةِ بعدَ الرسول ﷺ وخيرُهم وأفضلُهم، أعني الصدّيق الأكبر، والخليفةَ الأعظمَ أبا بكر رضي الله عنه، فإنَّ الطائفة المخذولة من الرافضةِ يعادون أفضلَ الصحابة ويبغضونهم ويسبّونهم، عياذاً بالله من ذلك.

* * *

الفصل الحادي عشر

غزوة حنين

عزَّ على الوثنية العربية الجاهلية بعد فتح مكة المكرمة أن ترى رايةَ التوحيدِ تخفقُ في رحابها، وأنْ تتحطَّمَ الأصنامُ التي كانت فيها، فاجتمع رؤساء القبائل المشركة، ثَقِيفٌ والقبائل المجاورة لها في الطائف على مالك بن عوف النَّصري سيدِ هوازن، وحشدوا جموعهم بين مكة والطائف وراء عرفات إلى جهة الشمال في وادي حُنين.

ولمَّا علم ﷺ بجموعهم هذه، واستطلعَ أخبارهم، خرجَ بجيش الفتح، وكانوا عشرة آلاف، وانضمَّ إليهم من الطلقاء في مكة ألفان، ويبدو أن انتصارات المسلمين المتوالية، والتي توَّجها فتحُ مكة المكرمة، جعل بعضَهم يزهو ويعجَبُ بكثرة عددهم، حتى قالوا: لنْ نغلَبَ اليومَ من قلّةٍ.

وبدأ القتالُ قبلَ طلوعِ الشمسِ في غَلَسِ الصُّبح، روى ابن إسحاق بسندٍ صحيحٍ عن جابر بن عبد الله رَضي الله عنهما قال: انحدرنا في وادٍ من أوديةِ تِهامةَ أجوفَ حطوط - كثير الميل - إنما ننحدر فيه انحداراً في عماية الصبح، وكان القومُ قد سبقونا إلى الوادي، فكمنوا لنا في شعابِه وأحنائِه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيَّئوا وأعدُّوا، فواللهِ ما راعانا ونحنُ منحطّون، إلا الكتائب قد شدّوا علينا شدةَ رجلٍ واحدٍ، وانشمر الناس راجعين، لا يلوي أحدٌ على أحدٍ، وانحازَ رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: «أيُّها الناس! هلمّوا إليّ، أنا رسولُ الله، أنا محمّدُ بن عبدِ الله»

قال: فلا شيء، حملت الإبل بعضَها على بعض، وانطلقَ الناسُ إلا أنَّه قد بقي مع رسولِ الله ﷺ نفرٌ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، أبو بكر، وعمر،

وعلي، والعبّاس، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وأسامة بن زيد[1].

وثبت النبيّ ﷺ وثبتَ بجانبه العباس بن عبد المطلب، فتحدّث رضي الله عنه عن شجاعةِ النبيّ ﷺ، فقال: شهدتُ مع رسولِ الله ﷺ يومَ حنين، فلزمتُ أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسولَ الله ﷺ فلم نفارِقْه، ورسول الله ﷺ على بغلةٍ له بيضاءَ، أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، ولما التقوا: المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَلَ الكفار، وأنا آخذٌ بلجام بغلتِه أكفُّها إرادةَ أن لا تسرع، وأبو سفيان آخذٌ بركاب رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «ياعباسُ نادِ أصحابَ السَّمُرة[2]»، فقال عبّاسُ وكان رجلاً صيتاً، فقلتُ بأعلى صوتي: أيْ أصحابَ السمرة، فقال: واللهِ لكأنّي عطفتُهم حين سمعوا صوتي عطفةَ البقرِ على أولادِها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك، قال: فاقتتلوا والكفار، والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار يامعشر الأنصار! قال: ثم قصرتُ الدعوة على بني الحارث بن الخزرج. فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج، يا بني الحارث بن الخزرج. فنظر رسولُ الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال رسولُ الله ﷺ: «هذا حين حمي الوطيس».

قال: ثم أخذ رسولُ الله ﷺ حُصيّاتٍ فرمى بهنّ وجوهَ الكفار ثم قال: «انهزموا وربِّ محمّدٍ»، قال: فذهبتُ أنظرُ فإذا القتالُ على هيئته فيما أرى. قال: فواللهِ ما هو إلا أن رماهم بحُصيّاته فما زلتُ أرى حدَّهم كليلاً وأمرَهم مدبِراً[3].

وعن أبي إسحاق قال: قال رجل للبراء: يا أبا عمارة أفررتُم يوم حنين؟ قال: لا واللهِ ما ولّى رسول الله ﷺ، ولكنّه خرج شبّانُ أصحابه وأخفاؤهم حُسّراً ليس عليهم سلاحٌ أو كثيرُ سلاحٍ، فلقوا قوماً رماةً لا يكادُ يسقطُ لهم سهمٌ، جمع هوازن وبني نصر، فرشقوهم رشقاً ما يكادون يخطئون، فأقبلوا هناك إلى رسول الله ﷺ، ورسولُ الله ﷺ على بغلتِه البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ٦٦.
(٢) وهي الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان.
(٣) صحيح مسلم في الجهاد، رقم ١٧٧٥.

يقودُ به، فنزل فاستنصرَ، وقال:

أنـــا النبـــيُّ لا كَـــذِبْ أنـــا ابْـــنُ عَبْـــدِ المطَّلِـــبْ

وفي رواية ثانية: فنزل ودعا واستنصر وهو يقول: «اللهمَّ أنزل نصرك» قال البراء: كنا واللهِ إذا احمرّ البأسُ نتّقي به، وإنَّ الشجاعَ مِنّا للذي يحاذي به. يعني النبيَّ ﷺ[1].

وعن إياس بن سلمة: حدّثني أبي قال غزونا مع رسول الله ﷺ حنيناً، فلما واجهنا العدوَّ تقدمتُ فأعلوا ثنية، فاستقبلني رجلٌ من العدوِّ، فأرميه بسهم فتوارى عني، فما دريتُ ما صنع، ونظرتُ إلى القوم، فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخرى، فالتقوا هم وصحابة النبيِّ ﷺ، فولّى أصحابُ النبيِّ ﷺ، وأرجعُ منهزماً وعليّ بردتان: متّزراً بإحداهما، مرتدياً بالأخرى، فاستطلق إزاري، فجمعتُهما جميعاً، ومررتُ على رسول الله ﷺ منهزماً[2] وهو على بغلته الشهباء، فقال رسول الله ﷺ: «لقد رأى ابن الأكوع فزعاً» فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن بغلته، ثم قبضَ قبضةً من ترابٍ من الأرضِ، ثم استقبل به وجوههم ثم قال: «شاهتِ الوجوهُ» فما خلقَ اللهُ منهم إنساناً إلا ملأَ عينيه تراباً بتلك القبضة، فولّوا مدبرين، فهزمهم اللهُ عزَّ وجلّ، وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين[3].

وأنزل الله تبارك وتعالى قوله الكريم: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥ـ٢٦].

غزوة أوطاس:

الراجحُ أنَّ وادي أوطاس غير وادي حنين، وأنَّ هوازن لما انهزموا سارت

---

(١) صحيح مسلم في الجهاد، رقم ١٧٧٦.

(٢) أي وأنا منهزم فهو حال من ابن الأكوع.

(٣) صحيح مسلم في الجهاد، رقم ١٧٧٧.

طائفةٌ منهم إلى الطائف، وطائفةٌ إلى بَجيلة، وطائفةٌ إلى أوطاس، فأرسل النبيُّ ﷺ عسكراً مقدمهم أبو عامر الأشعري إلى مَنْ مضى إلى أوطاس، كما يدل عليه الحديثُ.

فعن **أبي موسى** رضي الله عنه قال: لمّا فرغ النبيُّ ﷺ من حنين بعث أبا عامر على جيشٍ إلى أوطاس، فلقي دريد بن الصِّمة، فقُتِلَ دريد، وهزمَ اللهُ أصحابَه. قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر، فرُميَ أبو عامر في ركبته، رماه جُشَمِيٌّ بسهم فأثبته في ركبته، فانتهيتُ إليه فقلتُ: يا عم مَنْ رماك؟ فأشار إلى أبي موسى فقال: ذاك قاتلي الذي رماني. فقصدتُ له فلحقته، فلمّا رآني ولّى، فاتبعتُه وجعلتُ أقول له: ألا تستحي؟ ألا تثبتُ؟ فكفَّ فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته. ثم قلت لأبي عامر: قتلَ اللهُ صاحبَك. قال: فانزع هذا السّهمَ، فنزعته فنزا منه الماء. قال: ياابن أخي أَقْرِئ النبيَّ ﷺ السلامَ وقل له: استغفر لي.

واستخلفني أبو عامر على الناس، فمكثَ يسيراً ثم مات، فرجعتُ فدخلتُ على النبيِّ ﷺ في بيته على سريرٍ مرمل[1]، وعليه فراشٌ قد أثر رمالُ السريرِ بظهره وجنبيه، فأخبرتُه بخبرنا وخبرِ أبي عامر وقال: قل له: استغفر لي، فدعا بماءٍ فتوضأ، ثم رفع يديه فقال: «اللهمَّ اغفر لعبيد أبي عامر» ورأيتُ بياضَ إبطيه، ثم قال: «اللهمَّ اجعله يومَ القيامةِ فوقَ كثيرٍ من خلقِك من الناس» فقلتُ: ولي فاستغفر، فقال: «اللهمَّ اغفر لعبدِ الله بن قيس ذَنْبَه، وأدخلْه يوم القيامةِ مدخلاً كريماً» قال أبو بردة: إحداهما لأبي عامر والأخرى لأبي موسى[2].

غزوة الطائف:

سار النبيُّ ﷺ إلى الطائف بعد منصرفه من حُنين، وحبس الغنائم بالجِعرّانة، وهي أول أرض الحرم من تلك الجهة، وكان مالك بن عوف النَّصْري قائد هوازن لما انهزم دخل الطائف، وكان له حِصْنٌ بلية (بكسر اللام وتخفيف التحتانية) على أميال من الطائف، فمرَّ به النبيُّ ﷺ وهو سائرٌ إلى الطائف فأمر بهدمه.

---

(١) أي معمول بالرمال، وهي حبال الحصر التي تضفرُ بها الأسرّة.

(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٣٢٣.

ففي الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: لما حاصر رسولُ الله ﷺ الطائف فلم ينل منهم شيئاً قال: «إنّا قافلون إن شاء الله» فثقلَ عليهم، وقالوا: نذهبُ ولا نفتحُه؟ فقال: اغدوا على القتال، فغدوا، فأصابهم جِراحٌ، فقال: «إنَّا قافلونَ غداً إن شاء الله» فأعجبهم، فضحكَ النبيُّ ﷺ[1].

وفي مرسل ابن الزبير عند ابن أبي شيبةَ قال: لمّا حاصر النبيُّ ﷺ الطائفَ قال أصحابُه: يارسولَ الله أحرقَتْنا نبالُ ثقيفٍ فادعُ الله عليهم. فقال: «اللهمَّ اهدِ ثقيفاً» فذكر أهل المغازي أنَّ النبيَّ ﷺ لما استعصى عليه الحصنُ، وكانوا قد أعدّوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة، ورموا على المسلمين سكك الحديد المحمّاة، ورموهم بالنبل فأصابوا قوماً، فاستشار نوفل بن معاوية الديليّ فقال: هم ثعلبٌ في جُحْرٍ إن أقمتَ عليه أخذته، وإن تركتَه لم يضرّك. فرحل عنهم.

وذكر أنس في حديثه عند (مسلم) أنَّ مدّة حصارهم كانت أربعين يوماً[2].

وفي أثناء الحصار نزل أبو بكرة نُفَيْعُ بنُ الحارث، وكان مولى الحارث بن كَلَدة الثقفيّ من حصن الطائف ببكرة، فكُنِّي بأبي بكرة.

وروى ابن أبي شيبة وأحمد من حديث ابن عباس قال: أعتقَ رسول الله ﷺ يومَ الطائف كلَّ من خرجَ إليه من رقيقِ المشركين، وهذا يدلُّ على أنَّ عدداً من الرقيق نزلوا إلى النبيِّ ﷺ مع أبي بكرة رضي الله عنه.

والجدير بالذكر أنّ ثقيفاً أسلموا بعد ذلك، وقدموا إلى النبيّ ﷺ.

توزيعُ غنائم حُنين وبيانُ فضل الأنصار:

كانت غنائمُ حُنين كثيرةً لم يغنم النبيُّ ﷺ مثلها في جميع غزواته، فبلغت الإبلُ أربعة وعشرين ألفاً، والغنم أربعين ألفَ شاةٍ، ولمّا قسم رسولُ الله ﷺ الغنائم، أعطى المؤلفة قلوبهم والمهاجرين، ولم يعطِ الأنصارَ شيئاً، فتأثَّرَ بعضُهم بهذا، وتحدّثوا فيما بينهم، فبلغَ النبيَّ ﷺ حديثُهم، فجمعهم في قُبّةٍ كبيرةٍ.

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٣٢٥.
(٢) فتح الباري: ٨/ ٤٥.

ففي الحديث عن **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال: قال ناسٌ من الأنصار ـ حين أفاء الله على رسوله ﷺ ما أفاءَ من أموالِ هوازن فطفقَ النبيُّ ﷺ يعطي رجالاً المئة من الإبل ـ فقالوا: يغفرُ الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطرُ من دمائهم. قال أنس: فحُدِّثَ رسولُ الله ﷺ بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصارِ فجمعهم في قبّةٍ من أَدَمٍ، ولم يدعُ معهم غيرَهم، فلمّا اجتمعوا قال النبيُّ ﷺ: «ما حديثٌ بلغني عنكم؟»

فقال فقهاء الأنصار: أما رؤساؤنا يارسول الله فلم يقولوا شيئاً، وأما ناسٌ مِنّا حديثةٌ أسنانُهم، فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ، يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفُنا تقطرُ من دمائهم، فقال النبيُّ ﷺ: «فإنّي أُعطي رجالاً حديثي عهدٍ بكفرٍ أتألّـفُهم، أما ترضونَ أن يذهبَ الناسُ بالأموالِ، وتذهبونَ بالنبيِّ ﷺ إلى رحالكم؟ فواللهِ لما تنقلبونَ به خيرٌ مما ينقلبونَ به»

قالوا: يارسول الله قد رضينا.

فقال لهم النبيُّ ﷺ: «ستجدونَ أثرةً شديدةً فاصبروا حتى تلقوا اللهَ ورسولَه ﷺ، فإنّي على الحوضِ» قال أنسٌ: فلم يصبروا[1].

وعن عبد الله بن زيد بن عاصم قال: لمّا أفاء الله على رسولِه ﷺ يومَ حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم، ولم يعطِ الأنصارَ شيئاً، فكأنّهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصابَ الناس، فخطبهم فقال: «يامعشر الأنصار ألم أجدكم ضُلاَّلاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرّقين فألّفكم الله بي، وعالةً فأغناكم الله بي؟» كلّما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمن.

قال: «لو شئتم قلتُم: جئتنا كذا وكذا، ألا ترضون أن يذهبَ الناسُ بالشاةِ والبعيرِ وتذهبونَ بالنبيِّ ﷺ إلى رحالِكم؟ لولا الهجرةُ لكنتُ امرءاً من الأنصار، ولو سلكَ الناسُ وادياً وشِعْباً لسلكتُ واديَ الأنصارِ وشعبها، الأنصارُ شعارٌ، والناسُ دثارٌ، وإنكم ستلقون بعدي أثَرَةً، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»[2].

---

(١) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٤٣٣١.
(٢) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٤٣٣٠.

وفي الحديث من الفوائد - غير ما تقدّم - إقامةُ الحُجَّةِ على الخصمِ، وإفحامُهم بالحقّ عند الحاجة إليه.

وحُسنُ أدبِ الأنصارِ في تركهم المماراة، والمبالغةُ في الحياء.

وبيانُ أنَّ الذي نُقِلَ عنهم إنّما كان عن شبّانهم لا عن شيوخهم وكهولهم.

وفيه مناقبُ عظيمةٌ لهم لما اشتمل من ثناء الرسول البالغ عليهم.

وأنَّ الكبير ينبّه الصغيرَ على ما يَغفلُ عنه، ويوضّح له وجه الشبهة ليرجع إلى الحق.

وقوله: «الأنصارُ شعارٌ والناسُ دثارٌ» الشعار: الثوبُ الذي يلي الجلدَ من الجسدِ، والدثار: الثوبُ الذي فوقَه، وهي استعارةٌ لطيفة لفرط قربهم منه، وأراد أنّهم بطانته وخاصته وأنّهم ألصق به، وأقرب إليه من غيرهم[1].

الدعاءُ للأنصار والوصيةُ بهم:

ظهر ممّا سبق فضلُ الأنصارِ رضي الله تعالى عنهم، وعرف النبيُّ ﷺ ذلك لهم، فكان كثير الدعاءِ لهم ولأبنائهم، ففي الحديث عن **زيد بن أرقم** قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ اغفر للأنصارِ، وأبناءِ الأنصار، وأبناءِ أبناءِ الأنصار»[2].

وعن **أنس بن مالك** أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ الأنصارَ كرشي وعَيبتي، وإنَّ الناسَ سيكثرون ويقلّون، فاقبلوا من مُحْسِنِهم، واعفوا عن مسيئهم»[3].

وقولُه: «كرشي وعيبتي» قال العلماء: معناه جماعتي وخاصتي الذين أثقُ بهم وأعتمدُهم في أموري.

وجعل ﷺ حُبَّ الأنصارِ من علاماتِ الإيمان، وبغضَهم من علاماتِ النفاق، ففي الحديث عن **أنس** قال: قال رسول الله ﷺ: «آيةُ المنافقِ بغضُ الأنصارِ، وآيةُ المؤمنِ حُبُّ الأنصار».

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٥٢.
(٢) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٥٠٧.
(٣) المرجع السابق، رقم ٢٥١٠.

وعن البراء قال: سمعت النبيَّ ﷺ يحدّث في الأنصار «لا يحبّهم إلاّ مؤمنٌ، ولا يبغضُهم إلاّ منافقٌ، مَنْ أحبَّهم أحبَّه اللهُ، ومن أبغضَهم أبغضَه الله»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يبغضُ الأنصارَ رجلٌ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ»[(٢)].

بدء ظهور الخوارج:

بدأ ظهورُ الخوارج في عهد النبيِّ ﷺ عندما اعترض أحدُهم على قسمته عليه الصلاة والسلام غنائمَ حنين. ففي الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما كان يوم حنين آثر النبيُّ ﷺ ناساً: أعطى الأقرعَ مئةً من الإبل، وأعطى عُيينةَ مثل ذلك، وأعطى ناساً. فقال رجلٌ: ما أريدَ بهذه القسمةِ وجهَ اللهِ. فقلتُ: لأخبرنَّ النبيَّ ﷺ قال: «رحمَ اللهُ موسى قد أُوذيَ بأكثرَ من هذا فصبر»[(٣)].

ويبدو أنَّ مثل هذا الأمر قد تكرَّرَ حدوثُه، ففي الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بعثَ عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ من اليمنِ بذُهَيْبَة في أديمٍ مقروظٍ لم تحصل من ترابها[(٤)]، فقسمها بين أربعةِ نفرٍ: بين عُيينة بن بدر، وأقرع بن حابس، وزيد الخيل، والرابع إما علقمة وإما عامر بن الطفيل. فقال رجل من أصحابه: كُنَّا نحنُ أحقُّ بهذا من هؤلاء. فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «ألا تأمنوني وأنا أمينُ مَنْ في السماءِ، يأتيني خبرُ السماءِ صباحاً ومساءً».

قال: فقام رجلٌ غائرُ العينين، مشرفُ الوجنتين، ناشزُ الجبهةِ، كثُّ اللحيةِ، محلوقُ الرأسِ، مشمرُ الإزارِ فقال: يارسولَ الله اتقِ اللهَ، قال: «ويلك

---

(١) صحيح مسلم في الإيمان، رقم ٧٤ـ٧٥.

(٢) المرجع السابق، رقم ٧٦.

(٣) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٣٣٦.

(٤) قوله: «بذهيبة» تصغير ذهبة، وكأنه أنّثها على معنى الطائفة أو الجملة، وقال الخطابي: على معنى القطعة وفي معظم النسخ من مسلم «بذهبة» بفتحتين بغير تصغير.
وقوله: «في أديم مقروظ» أي مدبوغ بالقرظ.
وقوله: «لم تحصل في ترابها» أي لم تخلص من تراب المعدن.

أولستُ أحقَّ أهلِ الأرضِ أن يتقي الله؟» قال: ثم ولّى الرجل. قال خالد بن الوليد: يارسول الله ألا أضربُ عنقَه؟ قال: «لا، لعلّه أن يكون يصلّي» فقال خالد: وكم مِنْ مصلٍّ يقولُ بلسانِه ما ليسَ في قلبه. قال رسول الله ﷺ: «إنّي لم أُؤمرْ أنْ أنقبَ قلوبَ الناسِ، ولا أشقَّ بطونَهم» قال: ثم نظر إليه وهو مقفٍ فقال: «إنَّه يخرجُ مِنْ ضئضىءِ هذا - أي من عقبه ونسله - قومٌ يتلونَ كتابَ اللهِ رطباً، لا يجاوِزُ حناجرَهم، يمرقونَ من الدينِ كما يمرقُ السهمُ من الرَّميّةِ». وأظنّه قال: «لئن أدركتُهم لأقتلنَّهم قتلَ ثمود»[1].

وعن أبي سلمة وعطاء بن يسار أنَّهما أتيا أبا سعيد الخدري فسألاه عن الحرورية؟ قال: لا أدري ما الحرورية سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «يخرجُ في هذه الأمة - ولم يقل منها - قومٌ تحقرون صلاتكم مع صلاتِهم، يقرؤون القرآنَ لا يجاوِزُ حلوقَهم، أو حناجرَهم، يمرقون من الدين مروقَ السّهمِ من الرميّةِ، فينظرُ الرامي إلى سهمِه إلى نصلِه إلى رصافِه فيتمارى في الفوقةِ هل علقَ بها من الدم شيءٌ»[2].

والحرورية هم الخوارج، نزلوا مكاناً يقال له (حروراء) في العراق فنُسبوا إليه.

وقوله: «يمرقون من الدين كما يمرقُ السهمُ من الرمية» يدل على سرعةِ خروجِهم من الدين من غيرِ أن يتأثروا فيه، والفوقةُ في السهمِ موضعُ الوترِ.

وقد بين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بعضَ أوصافهم، إذ هو أولُ من ابتُلي بهم عندما خرجوا عليه في أثناء خلافته، وقد تمكّنَ أحدُهم من قتلِه رضي الله عنه، قال رضي الله عنه: إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «سيخرجُ قومٌ في آخرِ الزمانِ أحداثُ الأسنانِ، سفهاءُ الأحلامِ، يقولون من خير قول البرية، لا يجاوِزُ إيمانُهم حناجرَهم، يمرقون من الدين كما يمرقُ السهمُ من الرميةِ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإنَّ في قتلهم أجراً لمن قتلَهم يومَ القيامةِ»[3].

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٣٥١.
(٢) صحيح البخاري في استتابة المرتدين، رقم ٦٩٣١.
(٣) صحيح البخاري في استتابة المرتدين، رقم ٦٩٣٠.

ويبدو أن المرادَ من قوله: «في آخر الزمان» زمان خلافة النبوة الراشدة.

بعث خالد بن الوليد إلى بني جذيمة:

ففي الحديث عن سالم عن أبيه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: بعث النبيُّ ﷺ خالدَ بن الوليد إلى بني جُذيمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا، صبأنا. فجعل خالدٌ يقتلُ منهم ويأسرُ، ودفع إلى كلِّ رجلٍ منّا أسيرَه، حتى إذا كان يومٌ أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره، فقلت: واللهِ لا أقتلُ أسيري، ولا يقتلُ رجلٌ من أصحابي أسيرَه، حتى قدمنا على النبيِّ ﷺ فذكرناه، فرفعَ النبيُّ ﷺ يديه فقال: «اللهمَّ إنّي أبرأُ إليك مما صنعَ خالد» مرتين(١).

هذا البعثُ كان عقب فتح مكة في شوال قبل الخروج إلى حُنين عند جميع أهل المغازي، وكانوا بأسفل مكة من ناحية يَلَمْلَمْ، قال ابن سعد: بعثَ النبيُّ ﷺ إليهم خالدَ بن الوليد في ثلاثمئةٍ وخمسين من المهاجرين والأنصار داعياً إلى الإسلام لا مقاتلاً.

قوله: (فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا) هذا من ابن عمر راوي الحديث يدلُّ على أنَّه فهم أنَّهم أرادوا الإسلام حقيقةً، ويؤيده فهمه أنَّ قريشاً كانوا يقولون لكلِّ من أسلم صبأ، حتى اشتُهرت هذه اللفظةُ، وصاروا يطلقونها في مقام الذمِّ، ومن ثَمَّ لما أسلمَ ثُمامة بن أثال، وقدم مكة معتمراً قالوا له: صبأتَ؟ قال: لا، بل أسلمتُ.

فلما اشتهرت هذه اللفظة بينهم في موضعِ أسلمتُ، استعملها هؤلاء، وأمّا خالد فحملَ هذه اللفظة على ظاهرها لأنَّ قولَهم صبأنا، أي خرجنا من دين إلى دين، ولم يكتفِ خالدٌ بذلك، حتى يصرّحوا بالإسلام.

قولـه: (فقلتُ: واللهِ لا أقتلُ أسيري ولا يقتلُ رجلٌ من أصحابي أسـيرَه) وعند ابن سـعد: فأما بنو سُليم فقتلوا مَنْ كانوا في أيديهم، وأمّا المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسراهم.

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٣٣٩.

قوله: «اللهمَّ إني أبرأُ إليك مما صنع خالد» قال الخطابي: أنكر عليه العجلة، وتركَ التثبُّت في أمرهم قبل أن يعلمَ المرادَ من قولهم (صبأنا).

وزاد محمد الباقر في روايته: ثم دعا رسول الله ﷺ علياً قال: «اخرج إلى هؤلاء القوم واجعل أمرَ الجاهليةِ تحت قدميك» فخرجَ حتى جاءَهم، ومعه مالٌ، فلم يبقَ لهم أحدٌ إلا وداه[1]. أي دفع ديّته.

سرية عبد الله بن حُذافة السهمي وعلقمة بن مُجَزِّز المدلجي:

عن عليٍّ رضي الله عنه قال: بعثَ النبيُّ ﷺ سريةً، فاستعملَ رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه. فغضبَ فقال: أليس أمركم النبيُّ ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: فاجمعوا لي حطباً. فجمعوا، فقال: أوقدوا ناراً، فأوقدوها، فقال: ادخلوها، فهمُّوا، وجعل بعضهم يمسكُ بعضاً، ويقولون: فررنا إلى النبيِّ ﷺ من النار، فمازالوا حتى خمدت النارُ فسكنَ غضبُه، فبلغَ النبيَّ ﷺ فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يومِ القيامةِ. والطاعةُ في المعروف»[2].

قال الحافظ: أشار بأصل الترجمة إلى ما رواه أحمد وابن ماجه وصحّحه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم من طريق عمر بن الحكم عن **أبي سعيد الخدري** قال: بعثَ رسولُ الله ﷺ علقمةَ بن مجزز على بعثٍ أنا فيهم، حتى انتهينا إلى رأس غزاتنا، أو كنا ببعض الطريق أذنَ لطائفةٍ من الجيش، وأمّر عليهم عبد الله بن حُذافة السهمي، وكان من أصحاب بدر، وكان فيه دُعابة. الحديث.

وذكر ابنُ سعد هذه القصة بنحو هذا السياق، وذكر أنَّ سببها أنَّه بلغَ النبيَّ ﷺ أن ناساً من الحبشة تراءاهم أهلُ جدة، فبعث إليهم علقمة بن مجزِّز في ربيع الآخر في سنة تسعٍ في ثلاثمئة، فانتهى إلى جزيرةٍ في البحر، فلمّا خاضَ البحرَ إليهم هربوا، فلمّا رجعَ تعجّلَ القومُ إلى أهلهم، فأمر عبد الله بن حُذافة على من تعجّل.

وفي الحديث من الفوائد أنَّ الحكمَ في حال الغضب ينفذُ منه ما لا يخالِفُ

---

(١) انظر فتح الباري: ٨/ ٥٨.

(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٣٤٠.

الشرعَ، وأنَّ الغضب يغطي على ذوي العقول.

وفيه أنَّ الإيمانَ ينجي من النار، لقولهم: إنّما فررنا إلى النبيّ ﷺ من النار. والفرارُ إلى النبيّ ﷺ فرارٌ إلى الله، والفرارُ إلى اللهِ يطلَقُ على الإيمان، قال الله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠].

وفيه أنَّ الأمرَ المطلق لا يعمُّ الأحوالَ، لأنَّه ﷺ أمرهم أن يطيعوا الأميرَ، فجعلوا ذلك في عمومِ الأحوالِ حتى في حالِ الغضبِ، وفي حالِ الأمرِ بالمعصية، فبيَّنَ لهم ﷺ أنَّ الأمرَ بطاعتِه مقصورٌ على ما كانَ منه في غير معصيةٍ[١].

* * *

(١) انظر فتح الباري: ٨/ ٦٠.

الفصل الثاني عشر

غزوة تبوك

وهي آخر الأعمال العسكرية الكبيرة في حياة النبيّ ﷺ، وهي التي وصفها الله تعالى بغزوة العُسرة ـ كما سيأتي معنا ـ أعلن فيها النبيُّ ﷺ النفيرَ العام بين المسلمين، وأنزل الله سبحانه الآيات الكريمة يستنهضُ هممَ المؤمنين للاستجابة لدعوة النبيّ ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة: ٣٨ـ٣٩].

وسبب هذه الغزوة أنَّ الرومَ في بلاد الشام أدركوا خطر الإسلام عليهم، فعزموا على القضاء عليه، وأخذوا يحشدون جيوشهم في المشارف الجنوبية للبلقاء من أرض بلاد الشام، واستنفروا القبائل العربية الموالية لهم غسّان ومن معها ليكونوا طليعة لجيوشهم.

وجاءت أخبار الحشود الرومية والقبائل المتنصّرة إلى المدينة المنوّرة، وتسامعَ بها الصحابةُ رضي الله عنهم، حتى قال عمر رضي الله عنه: كنّا نتحدَّثُ أنَّ غسانَ تنعِلُ الخيلَ لتغزونا[١]، والمراد أنها تضع صفائح الحديد في حوافر الخيل استعداداً للحرب.

النفير العام:

ورأى النبيُّ ﷺ أنَّ الهجومَ خيرُ وسيلةٍ للدفاع، وأنَّ الخروجَ إليهم أفضلُ من انتظار هجومهم على المدينة المنوّرة، فعزم على الخروج إليهم، والتوجه إلى

---

(١) انظر الحديث كاملاً في صحيح البخاري ومسند أحمد.

تبوك في الشمال من أرض العرب، وحشد النبيُّ ﷺ في جيش تبوك جنود الله من جميع القبائل العربية المسلمة، فسخَّرَ كل ما عنده وعند أصحابه من القوّة المادية لهذا الجيش، وأمرَ الناس بالاستعداد.

وعلى خلاف عادته عليه الصلاة والسلام جَلى للمسلمين أمرَهم ليتأهّبوا ويستعدّوا، فما غزا غزوةً إلا ورّى عنها، إلا في غزوة تبوك.

وبعد أن استنهضت الآيات الكريمة التي سبق ذكرها هممَ المؤمنين، وشدّت عزائمهم، وهيّأت قلوبهم لقبول الأمر بالنفير والاستجابة له، توجّهت إليهم بالأمر الموجب الملزم بقوله تعالى: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١].

قال ابنُ كثير رحمه الله في تفسير الآية: أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك، لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحتّم على المؤمنين بالخروج معه على كل حال، في المنشط والمكره، والعسر واليسر.

أي انفروا للجهاد سواء كان خفيفاً أم ثقيلاً، ركباناً ومشاةً، شباباً وشيوخاً، أقوياء وضعفاء. فالجهادُ في النفير العام واجبٌ بالنفس والمال على كلِّ قادر عليهما، ومن كان قوياً وذا مال عليه أن يقدِّم نفسَه ويبذلَ مالَه في سبيل الله تعالى.

ساعة العسرة:

وخرجَ النبيُّ ﷺ في وقت اشتداد الحرِّ بما استطاع حشده في جيشه حيث بلغوا ثلاثين ألفاً، دلَّ على ذلك قوله تعالى في المنافقين المتخلّفين عن الخروج: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨١].

كما أنزل الله سبحانه وتعالى يثني على الذين خرجوا مع النبيِّ ﷺ في وقت الشدة والعسرة فقال: ﴿ لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٧].

وقوله: ﴿فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ أي في وقت الشدة والضيق، ولهذا سُمِّيَت غزوةُ تبوكَ غزوةَ العسرة، وجيشُها جيشَ العسرة، لكثرة المعوقات والشدائد التي واجهتهم.

وعلى الرغم من العسرة وشدائدها خرج ﷺ ومعه أصحابه، فلم يتخلّف منهم إلا قليل ـ كما سيأتي معنا ـ فالمعوقات مهما اشتدّت وكثرت لا تمنع أصحابَ الهمم العالية من الوصول إلى غاياتهم النبيلة السامية.

إنَّ في الآية الكريمة وساماً ربانياً رفيعاً أكرم الله به جنود جيش العُسرة، تقديراً لجهادهم وصبرهم وتحمّلهم لمشقات العسرة رضي الله عنهم، لقد كانوا في قلّةٍ من الظهر، حتى كان العشرة يعتقبون ـ يتناوبون ـ البعيرَ الواحد، وكانوا في قلّةٍ من الزاد، حتى كان الواحد منهم يلوكُ التمرةَ، ثم يخرجها من فمه، ويعطيها صاحبَه ليشاركه فيها، وخرجوا في حَرٍّ شديد، وساروا في مفازة مهلكة، وعطشوا عطشاً كادت رقابُهم أن تتقطّعَ من شدّته.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظٍ شديدٍ، فنزلنا منزلاً، فأصابنا فيه عطش، حتى ظننا أنَّ رقابنا ستنقطع، وحتى إنْ كان الرجلُ ليذهبُ يلتمس الماء، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطعُ، وحتى إنَّ الرجلَ لينحرُ بعيرَه، فيعصر فرثه فيشربه، ويجعلُ ما بقيَ على كبدِه، فقال أبو بكر: يارسولَ الله إنَّ الله قد عوّدك في الدعاءِ خيراً فادعُ لنا، قال: «تحبُّ ذلك»، قال: نعم، فرفع يديه، فلم يرجعهما حتى سالتِ السماءُ، فأهطلت، ثم سكنت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظرُ فلم نجدْها جاوزتِ العسكر(١).

دموع خالدة:

وبيّن سبحانه الأعذار المشروعة للتخلّف عن الجهاد في حال النفير العام فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١]، وبيّن النبيُّ ﷺ فضلَهم، ففي الحديث عن جابر قال: كنا مع النبيّ ﷺ في

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره، وابن كثير في تفسيره أيضاً.

غزاته فقال: «إنَّ في المدينةِ لرجالاً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً، إلا كانوا معكم، حبسَهم المرض»، وفي رواية: «إلا شركوكم في الأجر»[1].

ومن هؤلاء الذين أثنى عليهم رسولُ الله ﷺ فريقُ البكائين، الذين بلغَ بهم حُبُّ الجهادِ والخروجِ مع رسولِ الله ﷺ حدّاً جعلهم يبكون، ويذرفون الدمع أسفاً، لأنَّهم لن ينالوا شرف الجهاد معه ﷺ، ولن يستطيعوا الخروج معه إلى تبوك، وقد خلَّدَ اللهُ تعالى دموعهم في التنزيل الحكيم فقال: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

ولهذا لمَّا رجع ﷺ من غزوة تبوك، ودنا من المدينة المنورة قال: «إنَّ بالمدينةِ لقوماً ما سِرْتُم من مسيرٍ، ولا قطعتُم وادياً، إلا كانوا معكم فيه»، قالوا: يا رسول الله! وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة حسبهم العذر»[2].

أكّد ذلك سبحانه في قوله الكريم: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠ ـ ١٢١].

النصرُ بالرعبِ:

أظهر اللهُ جلَّ جلالُه كثيراً من المعجزات على يدِ النبيِّ ﷺ في غزوة تبوك، فقد نصرَه الله تعالى بالرعبِ مسيرةَ شهر، وتحقَّقَ ما أخبرَ عنه النبيُّ ﷺ في الحديث الشريف، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «فُضِّلْتُ على الأنبياءِ بستٍّ: أُعطيتُ جوامعَ الكَلِم، ونُصِرْتُ بالرعبِ، وأُحلَّتْ ليَ الغنائمُ، وجُعِلَت الأرضُ طهوراً ومسجداً، وأُرسِلْتُ إلى الخَلْقِ كافّة، وخُتِم بي النبيون».

---

(١) صحيح مسلم في الإمارة، رقم ١٩١١.
(٢) رواه البخاري وأبو داود وابن ماجه.

وعن **جابر بن عبد الله الأنصاري** قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيتُ خمساً لم يعطَهنَّ أحدٌ قبلي: كان كلُّ نبيٍّ يُبعَثُ إلى قومِه خاصةً، وبعثتُ إلى كلِّ أحمرَ وأسودَ، وأُحلّتْ ليَ الغنائمُ، ولم تحلَّ لأحدٍ قبلي، وجُعلتْ ليَ الأرضُ طيبةً طهوراً ومسجداً، فأيما رجلٍ أدركتْهُ الصلاةُ صلّى حيث كان، ونُصِرْتُ بالرعبِ بين يدي مسيرةَ شهرٍ، وأُعطيتُ الشفاعةَ»[1].

فعندما سمع الروم بخروجه إليهم، أصابهم الرعب، وانسحبوا، فوصل ﷺ إلى تبوك فلم يلقَ حرباً.

وفي الحديث عن **معاذ بن جبل** رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك، فكان يجمعُ الصلاةَ، فصلّى الظهرَ والعصرَ جميعاً، والمغرب والعشاء جميعاً، حتى إذا كان يوماً أخّر الصلاة، ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعاً، ثم دخل ثم خرجَ بعد ذلك، فصلّى المغربَ والعشاءَ جميعاً، ثم قال: «إنّكم ستأتونَ غداً إن شاء الله عينَ تبوك، وإنّكم لن تأتوها حتى يضحي النهارُ، فمن جاءها منكم فلا يمسّ من مائها شيئاً حتى آتي» فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعينُ مثل الشراكِ تبضُّ بشيءٍ من ماء[2]، قال: فسألهما رسول الله ﷺ: «هل مسستما من مائها شيئاً؟»، قالا: نعم، فسبَّهما النبيُّ ﷺ، وقال لهما ما شاء الله له أن يقول. قال: ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمعَ فيه شيءٌ، قال: وغسلَ رسولُ الله ﷺ فيه يديه ووجهه ثم أعاده فيها، فجرتِ العينُ بماءٍ غزيرٍ منهمرٍ، أو قال: غزيرٍ، حتى استقى الناس، ثم قال: «يوشكُ يامعاذُ إن طالتْ بك حياةٌ أنْ ترى ماهاهنا قد مُلِىءَ جناناً»[3].

والجديرُ بالذكر أنَّه حدث ما أخبرَ عنه النبيُّ ﷺ، فقد مُلِئَتْ تبوك بالجنان والبساتين، وأصبحت بكثافة أشجارها وشدّة خضرتها تشبه بساتين الشام ومزارعها.

---

(١) صحيح مسلم في المساجد، رقم ٥٢٣ ـ ٥٢١.

(٢) الشرك هو سير النعل، ومعناه ماء قليل جداً، وتبض: تسيل.

(٣) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٢٨٢.

ولمّا وصل النبيُّ ﷺ إلى تبوك، ونصبَ فيها راياتِه متحدّياً أكبرَ دولة في الأرضِ حينئذٍ، بثَّ سراياه في البلاد المحيطة بها، حتى وصلت إلى أيلة (العقبة) ودومة الجندل، فأخضعهما لسلطانه، وأخذ من أهلهما الجزية، ثم عاد ﷺ إلى المدينة المنوّرة مظفراً منتصراً.

قصة الثلاثة المخلّفين:

استجابَ المؤمنون لدعوة النبيِّ ﷺ عندما استنفرَهم للخروج إلى تبوك، فلم يتخلّف عنه منهم إلا قليل، وكان من المتخلّفين ثلاثةٌ ندموا بعد ذلك وتابوا عن تخلّفهم، فقبِلَ اللهُ توبتَهم، وأخبرَ عن ذلك بقوله الكريم: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

وكان كعب بن مالك الشاعر المعروف أحدَ المخلّفين الثلاثة، والثاني مُرارة بن الربيع، والثالث هلال بن أمية.

قال كعب رضي الله عنه وهو يتحدّث عن تخلّفه:

لم أتخلّفْ عن رسولِ اللهِ ﷺ في غزوة غزاها إلا غزوة تبوك، غير أنّي كنتُ تخلّفتُ في غزوة بدر، ولم يعاتِبْ أحداً تخلّف عنها..

كان من خبري: أنّي لم أكن قطُّ أقوى ولا أيسرَ حين تخلّفتُ في تلك الغزاة، واللهِ ما اجتمعتْ عندي قبلَه راحلتان قط، حتى جمعتُهما في تلك الغزوة.

ولم يكن رسولُ الله ﷺ يريدُ غزوةً إلا ورَّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوةُ، غزاها رسولُ الله ﷺ في حَرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً وعدواً كثيراً، فجلّى للمسلمين أمرَهم، ليتأهّبوا أُهبةَ غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريدُ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثيرٌ، ولا يجمعهم كتابٌ حافظٌ، فما من رجلٍ يريدُ أن يتغيَّبَ إلا ظنَّ أن سيخفى له، ما لم ينزلْ فيه وحيُ الله.

وغزا رسولُ الله ﷺ تلك الغزوةَ حين طابت الثمارُ والظلالُ، وتجهَّزَ رسولُ الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقتُ أغدو لكي أتجهَّز معهم، فأرجعُ ولم

أقضِ شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادرٌ عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتدَّ بالناس الجِدُّ، فأصبح رسولُ الله ﷺ والمسلمون معه، ولم أقضِ من جهازي شيئاً. فقلتُ: أتجهَّزُ بعدَه بيوم أو يومين، ثم ألحقُهم، فغدوتُ بعدَ أن فصلوا، لأتجَّهزَ، فرجعتُ ولم أقضِ شيئاً، ثم غدوتُ ثم رجعتُ ولم أقضِ شيئاً، فلم يزلْ بي حتى أسرعوا وتفارطَ الغزو(١).

وهممتُ أن أرتحلَ فأدركهم ـ وليتني فعلتُ ـ فلم يقدّر لي ذلك، فكنتُ إذا خرجتُ في الناسِ بعد خروج رسولِ الله ﷺ، فطفتُ فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه بالنفاقِ(٢)، أو رجلاً ممن عذرَ اللهُ من الضعفاء.

ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغَ تبوك، فقال وهو جالسٌ في القوم بتبوك: «ما فعل كعب؟». فقال رجلٌ من بني سلمة: يارسولَ اللهِ حبسه بُرداه، ونظرُه في عِطفيه(٣)، فقال معاذ بن جبل: بئسَ ما قلتَ، واللهِ يارسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسولُ الله ﷺ.

قال كعب: فلما بلغني أنّه توجّه قافلاً حضرني هَمّي، وطفقتُ أتذكّرُ الكذبَ، وأقولُ: بماذا أخرجُ من سخطِه غداً؟ واستعنتُ على ذلك بكلِّ ذي رأيٍ من أهلي، فلمَّا قيلَ: إنَّ رسولَ الله ﷺ قد أظلَّ قادماً زاحَ عني الباطلُ، وعرفتُ أنّي لن أخرجَ منه أبداً بشيءٍ فيه كذبٌ، فأجمعتُ صدقَه.

وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدمَ من سفرٍ بدأ بالمسجد، فيركعُ فيه ركعتين، ثم جلسَ للناس، فلما فعل ذلك جاء المخلّفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً، فقبلَ منهم رسولُ الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفرَ لهم، ووكلَ سرائرهم إلى الله، فجئتُه، فلمّا سلَّمتُ عليه تبسَّمَ تبسُّم المغضَب. ثم قال: «تعال»، فجئتُ أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: «ما خلَّفَكَ؟ ألم تكنْ قد ابتعتَ ظهرَك؟»، فقلتُ: بلى إني واللهِ لو جلستُ عندَ

---

(١) أي فات وسبق.

(٢) أي متهماً بالنفاق.

(٣) أي منعه جمال ثوبه ونظره إلى نفسه نظرة التكبّر.

غيرِكَ من أهل الدنيا لرأيتُ أن سأخرجُ من سخطه بعذرٍ، ولقد أعطيتُ جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتُكَ اليومَ حديثَ كذبٍ ترضى به عنّي، ليوشكنَّ الله أن يسخطَكَ عليَّ، ولئن حدّثتُك حديثَ صدقٍ تجدُ عليَّ فيه، إني لأرجو عفو الله، لا واللهِ ما كان لي من عذرٍ، واللهِ ما كنتُ قطُّ أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلّفتُ عنك، قال رسول الله ﷺ: «أمّا هذا فقد صدقَ، فقم حتى يقضيَ اللهُ فيك».

فقمتُ، وثارَ رجالٌ من بني سَلمَة فاتّبعوني، فقالوا لي: واللهِ ما علمناكَ كنتَ أذنبتَ ذنباً قبلَ هذا، ولقد عجزتَ ألا تكون قد اعتذرتَ إلى رسولِ الله ﷺ بما اعتذرَ إليه المخلّفون، فقد كان كافيك ذنبك استغفارُ رسولُ الله ﷺ لك، فواللهِ مازالوا يؤنِّبونني حتى أردتُ أن أرجعَ فأكذِّبَ نفسي، ثم قلت لهم: هل لقيَ هذا معيَ أحدٌ؟ قالوا: نعم رجلان قالا مثل ما قلتَ، فقيل لهما مثل ما قيلَ لك، فقلتُ: مَن هما؟ قالوا: مَرارة بن الربيع العَمْرِيّ، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين، قد شهدا بدراً، فيهما أسوة، فمضيتُ حينَ ذكروهما لي.

ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين مَنْ تخلّفَ عنه، فاجتنبَنا الناسُ، وتغيّروا لنا، حتى تنكّرتْ في نفسي الأرضُ، فما هي التي أعرفُ.

فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأمّا أنا فكنتُ أشبَّ القومِ، وأجلدَهم، فكنتُ أخرجُ فأشهدُ الصلاةَ مع المسلمين، وأطوفُ في الأسواقِ، ولا يكلّمني أحد، وآتي رسولَ الله ﷺ فأسلّمَ عليه وهو في مجلسه بعدَ الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّك شفتيه بردِّ السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلّي قريباً منه فأسارقه النظرَ، فإذا أقبلتُ على صلاتي أقبلَ إليَّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرضَ عنّي، حتى إذا طالَ عليَّ ذلك من جفوة الناسِ، مشيتُ حتى تسوّرتُ جدارَ حائطِ أبي قتادة، وهو ابنُ عمِّي، وأحبُّ الناسِ إليَّ، فسلّمتُ عليه فواللهِ ما ردَّ السلام، فقلتُ: ياأبا قتادة! أنشدكَ باللهِ هل تعلَمُني أحبُّ اللهَ ورسولَه؟ فسكت، فعدت له فنشدته فسكتَ، فعدتُ له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عينايَ، وتولّيتُ حتى تسوّرتُ الجدارَ، فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطيٌّ من أنباطِ الشامِ، ممن قدمَ بالطّعامِ يبيعُه بالمدينة، يقول:

مَنْ يدلُّ على كعبِ بن مالك؟ فطفق الناسُ يشيرونَ له، حتى إذا جاءني دفعَ إليّ كتاباً من ملكِ غسان، فإذا فيه: أما بعد: فإنَّه قد بلغني أنَّ صاحبَكَ قد جفاكَ، ولم يجعلكَ اللهُ بدارِ هوانٍ ولا مضيعةٍ، فالحقْ بنا نواسِكَ، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، فتيممتُ بها التنّور، فسجرتُه بها.

حتى إذا مضت أربعون ليلةً من الخمسين إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني فقال: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يأمرُكَ أن تعتزلَ امرأتكَ، فقلتُ: أطلّقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلْها ولا تقربْها، وأرسل إلى صاحباي مثل ذلك، فقلتُ لامرأتي: الحقي بأهلك، فلتكوني عندهم حتى يقضيَ اللهُ في هذا الأمر.

فجاءتْ امرأةُ هلال بن أمية رسولَ الله ﷺ فقالت: يارسولَ الله! إنَّ هلالَ بن أميةَ شيخٌ ضائعٌ، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربك؟»، قالت: إنَّه واللهِ ما بـه حركةٌ إلى شيءٍ، والله مازال يبكي منذُ كان من أمرِه ما كان إلى يومه هذا، فقال لي بعضُ أهلي: لو استأذنتَ رسولَ الله ﷺ في امرأتكَ كما أذنَ لامرأةِ هلال بن أمية أن تخدمه، فقلتُ: واللهِ لا أستأذنُ فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقولُ رسول الله ﷺ إذا استأذنتُه وأنا رجلٌ شاب.

فلبثتُ بعدَ ذلك عشرَ ليالٍ حتى كملت لنا خمسـون ليلةً من حيث نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا.

قال كعب بن مالك: فلمّا صليتُ صلاةَ الفجرِ صبحَ خمسين ليلة، وأنا على ظهرِ بيتٍ من بيوتنا، فبينا أنا جالسٌ على الحالِ الذي ذكرَ اللهُ، قد ضاقتْ عليَّ نفسي، وضاقتْ عليَّ الأرضُ بما رَحُبَتْ، سمعتُ صوتَ صارخٍ أوفى على جبل سَلْع، بأعلى صوته: ياكعبَ بن مالك أبشِرْ، قال: فخررتُ ساجداً، وعرفتُ أنْ قد جاءَ فرجٌ، وآذنَ رسولُ الله ﷺ بتوبةِ اللهِ علينا حين صلّى صلاةَ الفجرِ.

فذهب الناس يبشّروننا، وذهبَ قبل صاحبيَّ مبشرون، وركضَ إليَّ رجلٌ فرَساً، وسعى ساعٍ مِنْ أسلم، فأوفى على الجبل، وكـان الصوتُ أسـرع من الفرسِ، فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يبشرني، نزعتُ له ثوبيَّ فكسوتُه إياهما ببشراه، واللهِ ما أملكُ غيرَهما يومئذٍ.

واستعرتُ ثوبين فلبستُهما، وانطلقتُ إلى رسول الله ﷺ، فيتلقاني الناسُ فوجاً يهنّئوني بالتوبة، يقولون: لِتَهْنِكَ توبةُ اللهِ عليك، حتى دخلتُ المسجدَ، فإذا رسولُ الله ﷺ جالسٌ حولَه الناسُ، فقام إليَّ طلحةُ بن عبيد الله يهرولُ حتى صافحني وهنّاني، واللهِ ما قامَ إليَّ رجلٌ من المهاجرين غيرُه، ولا أنساها لطلحة، فلمّا سلّمتُ على رسولِ الله ﷺ قال رسولُ الله ﷺ وهو يبرقُ وجهُه من السرور: «أبشرْ بخيرِ يومٍ مرَّ عليكَ منذُ ولدتْكَ أمُّك»، قلتُ: أمن عندك يارسول الله، أم من عند الله؟ قال: «لا بل من عندِ اللهِ».

وكان رسولُ الله ﷺ إذا سُرَّ استنارَ وجهُه حتى كأنَّه قطعةُ قمرٍ، وكُنَّا نعرفُ ذلك منه، فلما جلستُ بين يديه قلتُ: يارسول الله إنَّ مِنْ توبتي أن أنخلعَ من مالي صدقةً إلى اللهِ وإلى رسوله، قال رسول الله ﷺ: «أمسك عليكَ بعض مالكَ فهو خيرٌ لكَ» قلتُ: فإنّي أمسكُ سهمي الذي بخيبرَ. فقلتُ: يارسول الله إنَّ اللهَ إنَّما نجّاني بالصدقِ، وإنَّ مِنْ توبتي أن لا أحدِّثَ إلاَّ صدقاً ما بقيتُ، فواللهِ ما أعلمُ أحداً من المسلمين أبلاهُ الله[1] في صدق الحديث، منذ ذكرتُ ذلك في رسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني، وإنّي لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيتُ[2].

نزوله ﷺ الحِجْرَ بلاد ثمود:

ومرَّ النبيُّ ﷺ وهو في طريقه إلى تبوك، بالحِجرِ، وهي بلادُ ثمودَ.

ففي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لمّا مرَّ النبيُّ ﷺ بالحِجْرِ قال: «لا تدخلوا مساكنَ الذين ظلموا أنفسَهم أنْ يصيبَكم ما أصابَهم، إلا أنْ تكونوا باكينَ» ثم قنَّعَ رأسَه، وأسرعَ السيرَ حتى أجاز الوادي.

ودلَّ قولُه ﷺ وفعلُه على شدّةِ خوفِه من الله تعالى، وتعظيمه له، فهو ﷺ أعلمُ الناسِ بالله تعالى، وأشدُّهم له خشيةً وتعظيماً.

وأمرَ أصحابَه لما نزلوا الحِجْرَ ألا يشربوا من ماءِ بئرها، ففي الحديث عن

---

(١) أي أنعم الله عليه.
(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٤١٨.

عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ الناسَ نزلوا مع رسولِ الله ﷺ أرضَ ثمود الحِجْرَ، واستقوا من بئرِها، واعتجنوا به، فأمرهم رسولُ الله ﷺ أن يريقوا ما استقوا من بئرها، وأن يعلفوا الإبلَ العجينَ، وأمرهم أن يستقوا من البئرِ التي كانت تَرِدُها الناقةُ[1].

والذي يظهر أن النبيَّ ﷺ علمها بالوحي.

بعثُ أبي موسى ومعاذ إلى اليمن:

اهتمَّ النبيُّ ﷺ باليمن، فأرسل إليه صحابيين جليلين من خِيْرَةِ أصحابِه وعلمائهم، وأوصاهما بعدّةِ وصايا، ففي الحديث عن **أبي موسى الأشعريّ** رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ بعثه ومعاذاً إلى اليمن، فقال: «يسّرا ولا تعسّرا، وبشّرا ولا تنفّرا، وتطاوعا ولا تختلفا»[2].

وفصَّل ﷺ أسلوبَ التيسير في الدعوة إلى الله ونشر الإسلام، فقال لمعاذ: «إنَّكَ ستأتي قوماً أهلَ كتاب، فإذا جئتَهُم فادعُهم إلى أن يشهدوا أن لا إلـه إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله، فإنْ هم أطاعوا لكَ بذلك، فأخبرْهُم أنَّ اللهَ قد فرضَ عليهم خمسَ صلواتٍ في كلِّ يوم وليلةٍ، فإنْ هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أنَّ اللهَ قد فرضَ عليهم صدقةً تُؤْخَذُ من أغنيائهم، فتردُّ على فقرائهم، فإنْ هم أطاعوا لك بذلك فإيّاكَ وكرائمَ أموالهم، واتقِ دعوةَ المظلومِ فإنَّه ليس بينها وبين اللهِ حجابٌ»[3].

كما بعث ﷺ أيضاً **خالدَ بن الوليد** قبل حجة الوداع، ثم بعثَ عليَّ بن أبي طالب مكانه. ففي الحديث عن **البراء** رضي الله عنه قال: بعَثَنا رسولُ الله ﷺ مع خالد بن الوليد إلى اليمن، قال: ثم بعثَ علياً بعد ذلك مكانَه، فقال: «مُرْ أصحابَ خالد مَنْ شاءَ منهم أن يعقِّبَ معكَ فليعقِّبْ، ومن شاءَ فَلْيُقْبِلْ» فكنتُ فيمن عقب معه، قال: فغنمتُ أواقيَّ ذواتِ عددٍ.

---

(١) صحيح البخاري في الأنبياء، رقم ٣٣٧٩.

(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٣) متفق عليه، واللفظ للبخاري في المغازي، رقم ٤٣٤٧.

وقوله: «أن يعقب معك» أن يرجع معك إلى اليمن.

وقد أخرجَ البخاريُّ هذا الحديث من طريقه فزاد فيه: قال البراء: فكنتُ ممن عقب معه، فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا، وصلّى بنا عليٌّ فصفّنا صفّاً واحداً، ثم تقدَّمَ بين أيدينا، فقرأ عليهم كتابَ رسولِ الله ﷺ فأسلمتْ همدان جميعاً، فكتَبَ عليٌّ إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم، فلمّا قرأ الكتابَ خرَّ ساجداً، ثم رفع رأسه وقال: «السلامُ على همدان»[1].

سريةُ ذي الخَلَصة وتحطيمُ الصنم:

الخَلَصة في الأصل: نباتٌ له حبٌّ أحمر كخرز العقيق، وذو الخَلَصة صنمٌ كان في بيتٍ في اليمن، سُمِّيَ ذو الخَلَصة، وسمّوها أيضاً الكعبة اليمانية مضاهاةً بالكعبة الشريفة. كلَّف النبيُّ ﷺ جرير بن عبد الله البَجَليّ رضي الله عنه بهدمها، لأنَّها كانت في بلادِ قومه، وكان من أشرافهم، وفي الحديث عنه قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «ألا تُريحُني من ذي الخَلَصة» وكان بيتاً في خَثْعَمٍ يسمّى الكعبة اليمانية، فانطلقتُ في خمسين ومئة فارس من أحمسَ، وكانوا أصحابَ خيلٍ، وكنتُ لا أثبتُ على الخيلِ، فضربَ في صدري، حتى رأيتُ أثرَ أصابعه في صدري، وقال: «اللهمَّ ثبّته، واجعلْهُ هادياً مهدياً» فانطلق إليها فكسرَها وحرّقها، ثم بعثَ رسولاً إلى رسولِ الله ﷺ، فقال رسولُ جرير: والذي بعثكَ بالحق ما جئتُكَ حتى تركتُها كأنَّها جملٌ أجربُ. قال: فبرّكَ في خيل أحمسَ ورجالِها خمسَ مرّاتٍ.

وفي رواية ثانية عنه: وكنتُ لا أثبتُ على الخيل، فذكرتُ ذلك للنبيِّ ﷺ، فضربَ يده على صدري حتى رأيتُ أثر يدِه في صدري، وقال: «اللهمَّ ثبّتْهُ، واجعلْهُ هادياً مهدياً» قال: فما وقعتُ عن فرسٍ بعدُ.

قال: وكان ذو الخلصة بيتاً باليمن لخثعم وبَجيلة، فيه نُصُبٌ تُعبَدُ، يقال له الكعبة. فأتاها فحرَّقها بالنارِ وكسرها. قال: ولما قدم جريرٌ اليمنَ كان بها رجلٌ يستقسِمُ بالأزلام، فقيل له: إنَّ رسولَ رسولِ الله ﷺ هاهنا، فإن قدرَ عليك ضربَ

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٦٦.

عنقك. قال: فبينما هو يضربُ بها إذ وقفَ عليه جريرٌ، فقال: لتكسرنَّها ولتشهدنَّ أن لا إلـه إلا الله أو لأضربنَّ عنقكَ، قال: فكسرها ـ أي الأزلام ـ وشهد.

ثم بعث جريرٌ رجلاً من أحمسَ يكنّى أبا أرطأة إلى النبيِّ ﷺ يبشّره بذلك[1].

وقوله: «ألا تريحُني» المراد بالراحة راحة القلب، وما كان شيءٌ أتعبَ لقلبِ النبيِّ ﷺ من بقاءِ ما يشرَكُ به من دون الله تعالى.

وروى الحاكمُ في (الإكليل) من حديث **البراء بن عازب** قال: قدم على النبيِّ ﷺ مئةُ رجلٍ من بني بَجيلة وبني قُشَير مع جرير بن عبد الله، فسأله عن بني خثعم، فأخبره أنَّهم أبوا أن يجيبوا إلى الإسلام، فاستعمله على عامّةِ مَنْ كان معه، وندب معه ثلاثمئةٍ من الأنصار، وأمره أن يسيرَ إلى خثعم فيدعوهم ثلاثةَ أيام، فإن أجابوا للإسلام قبلَ منهم، وهدمَ صنمهم ذا الخلَصة، وإلا وضعَ السيفَ فيهم.

قال ابن حجر: وفي الحديث مشروعية إزالةِ ما يفتتنُ به الناسُ من بناءٍ وغيرِه، سواءٌ كان إنساناً أو حيواناً أو جماداً.

وفيه استمالةُ نفوسِ القوم بتأمير مَنْ هو منهم، والاستمالةُ بالدعاء والثناء والبشارة في الفتوح.

وفضلُ ركوبِ الخيلِ في الحرب، وقبولِ خبرِ الواحدِ، والمبالغةِ في نكايةِ العدو، ومناقب لجرير ولقومه، وبركة يدِ النبيّ ﷺ ودعائه[2].

وبقي جرير في اليمن يدعو إلى الله تعالى حتى توفي رسول الله ﷺ، ففي الحديث عنه قال: كنتُ باليمن فلقيتُ رجلين من أهل اليمن: ذا كَلاعٍ وذا عَمْرٍو، فجعلتُ أحدِّثُهم عن رسولِ الله ﷺ. فقال له ذو عمرو: لئن كان الذي تذكرُ مِنْ أمرِ صاحبِكَ فقد مرَّ على أجلِه منذ ثلاث. وأقبلا معي، حتى إذا كُنّا في بعضِ الطريقِ رُفِعَ لنا ركبٌ من قِبَلِ المدينة، فسألناهم فقالوا: قُبِضَ رسولُ الله ﷺ

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٣٥٦ ـ ٤٣٥٧.
(٢) فتح الباري: ٨/ ٧٣.

واستُخلِفَ أبو بكر، والناس صالحون. فقالا: أخبر صاحبك أنّا قد جئنا، فلعلّنا سنعودُ إن شاء الله. ورجعا إلى اليمن، فأخبرتُ أبا بكرٍ بحديثِهم، قال: أفلا جئتَ بهم؟ فلمّا كان بعدُ قال لي ذو عمرو: ياجريرُ إنَّ بكَ عليَّ كرامةً، وإنِّي مخبرُكَ خبراً، إنَّكم معشر العربِ لن تزالوا بخيرٍ ما كنتم إذا هلك أميرٌ تأمرتم في آخر، فإذا كانت في السيفِ كانوا ملوكاً يغضبون غضب الملوك، ويرضونَ رضا الملوك[1].

وقوله: «لئن كان الذي تذكرُ من أمرِ صاحبك» أي حقاً، وفي رواية الإسماعيلي «لئن كان كما تذكر».

وقوله: «لقد مرَّ على أجله» جواب لشرط مقدر أي إن أخبرتني بهذا أخبرْكَ بهذا. وهذا قاله ذو عمرو عن اطّلاع من الكتب القديمة، لأن اليمن كان أقام بها جماعةٌ من اليهود، فدخلَ كثيرٌ من أهل اليمن في دينهم، وتعلّموا منهم.

وقوله: «فإذا كانت بالسيف» أي بالقهر والغلبة وكانوا ـ أي الخلفاء ـ ملوكاً، وهذا دليلٌ على ما قرّرته أنَّ ذا عمرو كان له اطّلاع على الأخبار من الكتب القديمة، وإشارته بهذا الكلام تطابقُ الحديثَ الذي أخرجه أحمد وأصحاب السنن وصحّحه ابن حبان وغيره من حديث سفينةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «الخلافةُ بعدي ثلاثون سنةً، ثم تصيرُ ملكاً عضوضاً»[2].

فتنة الأسود العنسي:

وحدثت فتنةُ الأسودِ العنْسي حينما كان معاذُ بن جبل رضي الله عنه في اليمن.

والأسود رجلٌ مشعوذٌ كذّاب، كان يدّعي الكهانةَ ومعرفةَ الغيب، ويقيمُ في كهفِ جبلي قربَ بلدة خبان، اسمه (عبهلة بن كعب العنسي) نسبة إلى عَنس أحد بطون قبيلة مذحج اليمنية، وهي قبيلةٌ كانت تنزلُ بين اليمن ونجران، وكان يقال له: ذو الخمار، لأنَّه كان يخمِّرُ وجهَه بخمارِه، فلا يظهره للناس، وكان يمارسُ

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، ص٤٣٥٩.
(٢) فتح الباري: ٨/ ٧٧.

السحرَ والشعوذةَ، فيرى أتباعُه منه الأعاجيبَ، كما كان له فصاحة في لسانه، ومنطق في كلامه، فيسبي قلوبَ من يسمعه بمنطقه، ويسحرهم ببيانه، ويعتمد أيضاً على قرناء له من الشياطين يساعدونه في خداع الناس.

ولما انتشر الإسلامُ باليمن أعرضَ الناس عنه، لأنَّ الإسلام يحرّم الكهانة والسحر، وادّعاء معرفة الغيب، ففي (صحيح مسلم) أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ أتى عرّافاً فسأله عن شيءٍ لم تُقْبَلْ له صلاةٌ أربعينَ ليلةً».

وعندما رأى الأسود العنسي إعراض الناس عنه ادّعى لنفسِه صفةَ النبوّة، ليجمعَ الناسَ إليه، واستعان بسحره وشعوذته، وقرنائه من الشياطين، ليوهمَ السُّذجَ والبسطاءَ من عامةِ الناس بصدق دعوتِه، حتى تمكّن أن يجمعَ حوله عوامّ قبيلة مَذْحِج، فوثبَ بهم على نجران، فأخضعها لسلطانه، ثم انطلق إلى صنعاء، فتمكّن منها، وقتلَ عاملَ النبيِّ ﷺ عليها، وهو (شهر بن باذان) وتزوَّجَ امرأته، وافتتنَ الناسُ به، فتبعه العوام منهم، واستفحل أمره في اليمن كلها.

واضطرَّ معاذُ بن جبل رضي الله عنه إلى أن ينحازَ إلى جهةِ حضرموت، حتى يهدأَ إعصارُ الفتنةِ المدمّر، الذي اجتاحَ كلَّ اليمن، وفعلَ عمّالُ النبيِّ ﷺ الآخرون مثل ما فعل معاذ، ونزل معاذ رضي الله عنه على السَّكون، وكان قد تزوَّجَ امرأةً منهم يقال لها (رملة) فحدبوا عليه وعلى من معه، وأما أبو موسى الأشعري فقد لحق أيضاً بحضرموت، ولكنّه نزل في السّكاسِك.

وعلم النبيُّ ﷺ بما حدثَ في اليمنِ بواسطة الوحي قبل أن تصله الأخبار بواسطة الناس. وفي الحديث عن عبيد الله بن عبد الله: سألتُ **عبدَ الله بن عباس** عن رؤيا رسول الله ﷺ التي ذكر، فقال ابنُ عباس: ذكر لي أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «بينا أنا نائمٌ أُريتُ أنّه وُضِعَ في يديَّ سوارينِ من ذهبٍ، ففظعتهما وكرهتهما. فأذن لي فنفختهما فطارا، فأولتهما كذّابين يخرجان»، قال عبيد الله: أحدهما (العنسي) الذي قتلـه فيروز في اليمن، والآخر (مسيلمة الكذاب)[1].

وقضى رسول الله ﷺ على فتنةِ الأسود العنسي بواسطة الرسائل التي أرسلها

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٣٧٩.

إلى اليمن، إذ بعث ﷺ مع رجلٍ اسمه وبر بن يحنس الديلمي كتاباً يأمر المسلمين الذين في اليمن بمقاتلة الأسود العنسي ومصاولته، وقام معاذ بن جبل رضي الله عنه بهذا الكتاب أتمَّ قيام، وساعده تلاميذه وأنصاره من السكون، فبلّغوا كتاب النبيِّ ﷺ إلى عماله ومَن قدروا عليه من الناس، فنشط المسلمون لهذا، وعرفوا القوة، ووثقوا بالنصر، حتى وصل كتابُ النبيِّ ﷺ إلى بعضِ أمراءِ جندِ الأسود، مثل (فيروز الديلمي) و(قيس بن مكشوح) فاتفقوا مع المسلمين على الفتك بالأسود ونجحوا في ذلك[1].

* * *

(١) انظر كتاب معاذ بن جبل للمؤلف.

الباب الأوّل

من وفود الناس إلى الإسلام

إلى

وفود النبي ﷺ إلى الرحمن في دار الرضوان

الفصل الأول : عام الوفود

الفصل الثاني : حجة الوداع

الفصل الثالث : الخطب الجلل .. وفاة النبي ﷺ

الفصل الرابع : النبي ﷺ بعد وفاته

الفصل الخامس : خصائص أمة محمد ﷺ

الفصل السادس : أزواج النبي ﷺ وآل بيته

الفصل السابع : كرامة النبي ﷺ يوم القيامة

الفصل الأول

عام الوفود

هو العام التاسع من الهجرة، سُمِّيَ عام الوفود لكثرة من وفد فيه على النبيِّ ﷺ من قبائل العرب، معلنين إسلامهم وولاءهم للنبيِّ ﷺ.

وأنزل الله تعالى عليه سورة النصر، فعَلِمَ منْ هذه السورة قربَ أجله عليه الصلاة والسلام. ففي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عمر يدخلُني مع أشياخ بدر، فكأنَّ بعضَهم وجدَ في نفسه فقال: لِمَ تُدخل هذا معنا، ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنَّه مَنْ حيثُ علمتم، فدعاني ذاتَ يومٍ فأدخلني معهم، فما رأيتُ أنَّه دعاني يومئذٍ إلا ليريَهم. قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، فقال بعضهم: أمرنا نحمد الله ونستغفره إذا نصرَنا وفتح علينا. وسكت بعضُهم فلم يقل شيئاً، وقال لي: أكذلك تقول يابن عباس؟، فقلت لا، قال: فما تقول؟، قلتُ: هو أجلُ رسولِ الله ﷺ أعلمَه له، فقال عمر: ما أعلمُ منها إلا ما تقولُ[1].

وأهم الوفود التي وفدت على النبي ﷺ وقدمت إلى المدينة المنورة:

وفد بني تميم:

قدم على النبيِّ ﷺ وفدُ أشرافِ بني تميم، فلمَّا قدموا عليه بشّرهم فلم يقبلوا البشرى، بل سألوا النبيَّ ﷺ أن يعطيهم.

ففي الحديث عن عمران بن حُصين رضي الله عنهما قال: دخلتُ على النبيِّ ﷺ وعقلتُ ناقتي بالباب، فأتاه ناسٌ من بني تميمٍ فقال: «اقبلوا البشرى يابني تميم»، قالـوا: قد بشّـرتنا فأعطنا (مرتين)، ثم دخل عليه ناسٌ من أهل اليمن

(١) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٩٧٠.

فقال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن أن لم يقبلها بنو تميم»، قالوا: قد قبلنا يارسول الله. قالوا: جئنا نسألك عن هذا الأمر. قال: «كان الله ولم يكن شيءٌ غيره، وكان عرشُه على الماءِ، وكتبَ في الذكرِ كلَّ شيءٍ، وخلقَ السماواتِ والأرضَ» فنادى منادٍ: ذهبت ناقتكَ يا ابنَ الحصين، فانطلقتُ فإذا هي يقطع دونها السرابُ، فوالله لوددتُ أني كنتُ تركتُها[1].

وبنو تميم هم الذين نادوا رسول الله ﷺ لما قدموا من وراء حجراته، وأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٤ ـ ٥].

ولما أرادَ النبيُّ ﷺ أن يؤمِّرَ عليهم أحدَهم اختلف أبو بكر وعمر في ذلك. فعن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيران أن يهلكا، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبيِّ ﷺ حين قدمَ عليه ركبُ بني تميم، فأشار أحدُهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خلافي، قال: ما أردتُ خلافك. فارتفعت أصواتُهما في ذلك، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ [الحجرات: ٢][2].

وقد أخبر النبيُّ ﷺ أنَّ لبني تميم منقبةً عظيمةً في آخر الزمان عند حدوث فتنة الدجال، ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لا أزالُ أحبُّ بني تميم بعدَ ثلاثٍ سمعتهنَّ من رسول الله ﷺ يقولها فيهم: «هم أشدُّ أمتي على الدَّجَّال» وكانت فيهم سبية عند عائشة[3] فقال: «أعتقيها فإنها من ولدِ إسماعيل» فجاءت صدقاتهم فقال: «هذه صدقاتُ قومٍ أو قومي»[4].

وفد طيء:

وهي قبيلة عربية كبيرة، تسكن في وسط وشمال أرض العرب، منها (حاتم الطائي) الذي اشتهر بالكرم، لم يدرك النبيَّ ﷺ، وأدركه ابنُه عَدِيٌّ فأسلم.

---

(١) صحيح البخاري في بدء الخلق، رقم ٣١٩١.
(٢) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٨٥٤.
(٣) أي جارية مسبية.
(٤) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٣٦٦.

روى أحمد بسبب إسلام عدي أنّه قال: لما بُعِثَ النبيُّ ﷺ كرهتُه، فانطلقتُ إلى أقصى الأرض مما يلي الروم، ثم كرهتُ مكاني فقلتُ: لو أتيتُه، فإن كان كاذباً لم يخفَ عليَّ، فأتيتُه فقال: «أسلم تسلم» فقلتُ: إنَّ لي ديناً. وكان نصرانياً، فذكر إسلامه. وذكر ذلك ابنُ إسحاق مطوّلاً، وفيه أنَّ خيلَ النبيِّ ﷺ أصابتْ أختَ عديٍّ، وأنَّ النبيَّ ﷺ منَّ عليها فأطلقها بعد أن استعطفته بإشارةِ عليٍّ عليها، فقالتْ له: هلك الوالدُ، وغابَ الوافدُ، فامنن عليَّ مَنَّ اللهُ عليك، فقال: «ومن وافدكِ؟»، قالت: عدي بن حاتم، قال: «الفارُّ من اللهِ ورسولِه؟»

فلما قدمت بنت حاتم على عَديٍّ أشارتْ عليه بالقدوم على رسول الله ﷺ، فقدم وأسلمَ.

وروى الترمذيُّ من وجهٍ آخر عن **عدي بن حاتم** قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ في المسجد فقال: «هذا عديّ بن حاتم» وكان النبيُّ ﷺ قبل ذلك يقول: «إنّي لأرجو أن يجعلَ يده في يدي»[1].

ودخل عديُّ بن حاتم على النبيِّ ﷺ، وهو على نصرانيته والصليبُ في عنقه، والنبيُّ ﷺ يقرأ الآية الكريمة: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١] اعترضَ عديٌّ فقال: إنَّهم لم يعبدوهم. فقال ﷺ: «بلى إنَّهم حرّموا عليهم الحلال، وأحلّوا لهم الحرام، فاتّبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم»[2].

وسمعَ عديٌّ النبيَّ ﷺ يخبِرُ عن أمور ستحدثُ في المستقبل، شهدَ عدي حدوثَها، وحدَّثَ عن ذلك فقال: بينا أنا عند النبيِّ ﷺ إذ أتاه رجلٌ فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل. فقال: «ياعديُّ هل رأيتَ الحيرةَ؟»

قلتُ: لم أرها، وقد أنبئتُ عنها، قال: «فإن طالتْ بك حياةٌ لترينَّ

(١) فتح الباري: ٨/ ١٠٣.
(٢) رواه أحمد في المسند والترمذي في السنن.

الظعينةَ[1] ترْتَحِلُ من الحيرةِ حتى تطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ أحداً إلا الله»، قلت فيما بيني وبين نفسي فأين دُعَّارُ طيء الذين قد سعروا البلاد؟

«ولئن طالت بك حياةٌ لتفتحنَّ كنوز كسرى».

قلت: كسرى بن هرمز؟

قال: «كسرى بن هرمز. ولئن طالت بك حياةٌ لترينَّ الرجلَ يُخرِجُ ملءَ كفِّه من ذهبٍ أو فضةٍ يطلبُ من يقبله منه، فلا يجدُ أحداً يقبلُه منه، وليلقينَّ اللهَ أحدُكم يومَ يلقاه، وليسَ بينه وبينه ترجمان يترجمُ له، فيقولنَّ: ألم أبعثْ إليكَ رسولاً فيبلّغَك؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أعطِكَ مالاً وولداً وأفضِلْ عليك؟ فيقول: بلى، فينظرُ عن يمينِه فلا يرى إلا جهنّم، وينظرُ عن يسارِه فلا يرى إلا جهنم». قال عدي: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «اتقوا النارَ ولو بشقِّ تمرةٍ، فمَنْ لم يَجِدْ شِقَّ تمرةٍ فبكلمةٍ طيبة»

قال عدي: فرأيتُ الظعينةَ ترتحلُ من الحيرةِ حتى تطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ إلا الله، وكنتُ فيمن افتتح كنوزَ كسرى بن هرمز، ولئن طالتْ بكم حياةٌ لترونَّ ما قال النبيُّ أبو القاسم ﷺ، «يخرِجُ ملءَ كفِّه»[2].

قول عدي: «فأين دُعّار طيء الذين قد سعروا البلاد» الدعار جمع داعر وهو الشاطرُ الخبيثُ المفسِدُ، والمرادُ قطاع الطريق، وكانوا يقطعون الطريق على من مَرَّ عليهم، وقد ملؤوا الأرضَ شراً وفساداً، ولذلك تعجَّب عدي كيف تمرُّ المرأةُ عليهم وهي غير خائفة.

قوله: «فلا يجدُ أحداً يقبله منه» أي لعدم الفقراء في ذلك الزمان، ويحتمل أن يكون ذلك إشارةً إلى ما وقعَ في زمنِ عمر بن عبد العزيز، وبذلك جزمَ البيهقيُّ، وأخرجَ في (الدلائل) من طريق يعقوب بن سفيان بسنده إلى عمر بن أسيد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال: إنَّما ولي عمر بن عبد العزيز ثلاثين شهراً، ألا واللهِ ما ماتَ حتى جعلَ الرجلُ يأتينا بالمالِ العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيثُ

---

(١) المرأة المسافرة.

(٢) صحيح البخاري في المناقب، رقم ٣٥٩٥.

ترونَ في الفقراءِ، فما يبرحُ حتى يرجعَ بماله، يتذكر من يضعه فيه فلا يجد، قد أغنى عمرُ الناسَ. قال البيهقي: فيه تصديقُ ما روينا في حديثِ **عديٍّ بن حاتم**.

قال ابن حجر رحمه الله: ولا شك في رجحان هذا الاحتمال على الأول لقوله في الحديث: «ولئن طالت بك حياةٌ». وأضاف في موضعٍ آخر فقال: وسببه بسطُ عمر العدلَ، وإيصالُ الحقوقِ إلى أهلِها حتى استغنوا[1].

وفد عبد القيس:

وهم قبيلة عربية تسكن شرق الجزيرة العربية في البحرين، رحَّبَ النبيُّ ﷺ بهم عندما قدموا عليه، ففي الحديث عن **ابن عباس** قال: قدم وفدُ عبدِ القيس على رسول الله ﷺ فقال: «مرحباً بالقومِ غير خزايا ولا ندامى».

فقالوا: يارسول الله إنَّ بيننا وبينك المشركين من مُضرٍ، وإنَّا لا نصلُ إليك إلا في أشهر الحرم، حدِّثنا بِجُمَلٍ منَ الأمرِ إنْ عَمِلْنا بهِ دخلنا الجنّة، وندعو به مَنْ وراءَنا.

قال: «آمركم بأربعٍ، وأنهاكم عن أربع: الإيمان بالله، هل تدرونَ ما الإيمانُ بالله؟ شهادةُ أنْ لَا إلـه إلا الله، وإقامُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزكاةِ، وصومُ رمضانَ، وأن تعطوا من المغانمِ الخُمْسَ. وأنهاكم عن أربعٍ: ما انتبذ في الدِّباءِ، والنقيرِ، والحَنْتَمِ، والمُزَفَّتِ»[2].

وأخرجه في موضع آخر، وزاد عند قوله: «شهادة أن لا إلـه إلا الله وأنَّ محمَّداً رسولُ الله».

والدِّباء والنَّقِير والحَنْتَم والمُزفَّت أسماءُ أوعيةٍ كانوا يستعملونها في الأشربة، ويتسارعُ فيها التخمر، فنهاهم عن استعمالها ﷺ.

قال ابنُ حجر: والذي تبيَّنَ لنا أنَّه كان لعبد القيس وفادتان.

إحداهما قبلَ الفتحِ، ولهذا قالوا للنبيِّ ﷺ بيننا وبينك كفار مضر، وكان

---

(١) فتح الباري: ٦/ ٦١٢.

(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٣٦٨.

ذلك قديماً إما في سنة خمس أو قبلها، وكانت قريتُهم بالبحرين أول قريةٍ أُقيمت فيها الجمعة بعد المدينة، كما ثبت في آخر حديث الباب، وكان عددُ الوفدِ ثلاثة عشر رجلاً، وفيها سألوا عن الإيمانِ وعن الأشربةِ، وكان فيهم الأشجُّ، وقال له النبيُّ ﷺ: «إنَّ فيكَ خصلتين يحبُّهما اللهُ: الحلمُ والأناةُ» كما أخرج ذلك مسلم من حديث أبي سعيد.

وروى أبو داود بسنده عن طريق أم أبان بنت الوازع بن الزارع عن جدها زارع، وكان في وفد عبد القيس قال: فجعلنا نتبادرُ مِنْ رواحلنا ـ يعني لما قدموا المدينة ـ فنقبِّلُ يدَ النبيِّ ﷺ، وانتظرَ الأشجُّ، واسمه المنذر، حتى لبس ثوبيه، فأتى النبيَّ ﷺ فقال له: «إنَّ فيك لخصلتين» الحديث...

وثانيهما كانت في سنة الوفود، وكان عددهم حينئذٍ أربعين رجلاً ـ كما في حديث أبي حيوة الصنابحي الذي أخرجه ابن مندة ـ وكان فيهم الجارود العبدي، وقد ذكرَ ابنُ إسحاق قصته، وأنَّه كان نصرانياً فأسلمَ فحسنَ إسلامُه.

ويؤيّد التعدد ما أخرجه ابن حِبَّان من وجهٍ آخر أنَّ النبيَّ ﷺ قال لهم: «ما لي أرى ألوانكم تغيّرت» ففيه إشعارٌ بأنَّه كان رآهم قبل التغير(١).

وفد بني حنيفة:

وهم قوم مسيلمة الكذّاب، الذي ادّعى النبوّة، ففي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم مسيلمةُ الكذّاب على عهدِ رسول الله ﷺ فجعل يقول: إنْ جعلَ لي محمدٌ الأمرَ مِنْ بعدِه تبعتُه، وقدمها في بشرٍ كثيرٍ من قومه، فأقبل إليه رسولُ الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شمّاس، وفي يدِ رسولِ الله ﷺ قطعةُ جريدٍ، حتى وقفَ على مسيلمةَ في أصحابه فقال: «لو سألتني هذه القطعةَ ما أعطيتُكها، ولن تعدو أمرَ اللهِ فيك، ولئن أدبرتَ ليعقرنَّكَ اللهُ، وإنِّي لأراك الذي أريتُ فيه ما رأيتُ، وهذا ثابتٌ يجيبُك عنّي» ثم انصرفَ عنه(٢).

ومرَّ معنا في حديث العنسي أنَّ النبيَّ ﷺ رأى في المنامِ أنَّ في يديه سوارين

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٨٦.

(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٣٧٣.

من ذهب. . ومرَّ معنا أيضاً أنَّ وحشياً قاتِلَ حمزةَ رضي الله عنه هو الذي قتل مسيلمةَ الكذّاب في أثناء حروب الردّة.

نجران وقصة أصحاب الأخدود:

نجران وادٍ قريبٍ من حدود اليمن، وفيه وقعت قصَّةُ أصحاب الأخدود، الذين أشار سبحانه إليهم بقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ٤ ـ ١٠].

وقد فصل النبيُّ ﷺ خبرَهم، ففي الحديث عن صُهيب رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «كان مَلِكٌ فيمن كان قبلكم، وكان له ساحرٌ، فلمّا كبر قال للملك: إنّي قد كبرتُ، فابعث إليَّ غلاماً أعلّمه السحرَ. فبعثَ إليه غلاماً يعلّمه، فكان في طريقه إذا سلك راهبٌ، فقعد إليه، وسمع كلامه فأعجبه، وكان إذا أتى الساحرَ مَرَّ بالراهبِ وقعدَ إليه، فإذا أتى الساحرَ ضربَه، فشكى ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيتَ الساحرَ فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيتَ أهلك فقل: حبسني الساحرُ.

فبينما هو كذلك إذ أتى على دابةٍ عظيمةٍ قد حبست الناسَ، فقال: اليومَ أعلمُ آالساحر أفضلُ أم الراهبُ؟ فأخذَ حجراً، فقال: اللهمَّ إنْ كان أمرُ الراهبِ أحبَّ إليك من أمر الساحرِ فاقتل هذه الدابةَ حتى يمضيَ الناسُ. فرماها فقتلها ومضى الناس.

فأتى الراهبَ فأخبره، فقال له الراهبُ: أيْ بنيَّ أنتَ اليومَ أفضلُ مني، قد بلغَ من أمرِكَ ما أرى، وإنَّكَ ستُبْتَلَى، فإن ابتُلِيْتَ فلا تدلَّ عليَّ.

وكان الغلامُ يبرىءُ الأكمَهَ والأبرصَ، ويداوي الناسَ من سائرِ الأدواء، فسمعَ جليسٌ للملكِ كان قد عَمِيَ، فأتاهُ بهدايا كثيرة فقال: ما ههنا لك أجمعُ إن أنت شفيتَني.

فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله، فإن أنتَ آمنتَ باللهِ دعوتُ اللهَ فشفاك.

فآمَنَ بالله فشفاه الله، فأتى الملكَ فجلسَ إليه كما كان يجلسُ، فقال له الملك: مَنْ ردَّ عليك بصرُك؟

قال: ربّي.

قال: ولك ربٌّ غيري؟

قال: ربِّي وربُّك الله.

فأخذه، فلم يزل يعذّبه حتى دلَّ على الغلام، فجيءَ بالغلام، وقال له الملك: أيْ بني قد بلغَ مِنْ سحرِكَ ما تبرىءُ الأكمَه والأبرصَ وتفعلُ وتفعلُ؟

فقال: إنِّي لا أشفي أحداً إنما يشفي الله.

فأخذه، فلم يزل يعذّبه حتى دلَّ على الراهب، فجيءَ بالراهب، فقيلَ له: ارجع عن دينك. فأبى، فدعا بالمنشارِ، فوُضِعَ المنشارُ في مفرقِ رأسِه، فشقّه حتى وقع شِقّاه.

ثم جيء بجليسِ الملكِ، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقّه به حتى وقع شقاه، ثم جِيءَ بالغلام، فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته، فإنْ رجعَ عن دينِه وإلا فاطرحوه.

فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللهمَّ اكفنيهم بما شئتَ. فرجفَ بهم الجبلُ فسقطوا، وجاءَ يمشي إلى الملك.

فقال له الملك: ما فعلَ أصحابُك؟

قال: كفانيهم الله.

فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور ـ سفينة صغيرة ـ فتوسّطوا به البحرَ فإن رجعَ عن دينه وإلا فاقذفوه.

فذهبوا به فقال: اللهمَّ اكفنيهم بما شئتَ. فانكفأتْ بهم السفينةُ فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك.

فقال له الملك: ما فعلَ أصحابك؟

قال: كفانيهم الله.

فقال للملك: إنَّك لستَ بقاتلي حتى تفعلَ ما آمرُكَ به.

قال: وما هو؟

قال: تجمَعُ الناسَ في صعيدٍ واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهمَ في كبدِ القوس، ثم قل: بسم الله ربِّ الغلام. ثم ارمني، فإنَّك إذا فعلتَ ذلك قتلتني.

فجمعَ النـاسَ في صعيدٍ واحدٍ، وصلبَه على جذعٍ، ثم أخذ سـهماً من كنانتِه، ثم وضعَ السهمَ في كبدِ القوسِ، ثم قال: بسم اللهِ رب الغلام، ثم رماه فوقع السهمُ في صَدْغِه، فوضع يدَه على صدْغِه في موضعِ السهم فماتَ، فقال الناس: آمنا بربِّ الغلامِ، آمنا بربِّ الغلامِ، آمنّا بربِّ الغلامِ.

فأتي الملك فقيل له: أرأيتَ ما كنتَ تحذر؟ قد واللهِ نزلَ بك حذرُك، قد آمنَ الناسُ.

فأمر بالأخدودِ في أفواهِ السكك فخُدّت، وأضرمَ النيرانَ، وقال: من لم يرجع عن دينِه فاحموه فيها ـ أي أقحموه فيها ـ ففعلوا، حتى جاءت امرأةٌ ومعها صبيٌّ لها، فتقاعست أن تقعَ فيها، فقال لها الغلامُ: ياأماه اصبري، فإنَّكِ على الحق»[1].

وفد نجران:

وكان في وفد نجران الذين قدموا على النبيِّ ﷺ السيدُ والعاقبُ، وهما من زعمائهم، وقد أنزلهم النبيُّ ﷺ في المسجدِ، ودعاهم إلى الإسلام، وبيَّن لهم طبيعةَ عيسى عليه السلام، وأنزل الله سبحانه وتعالى بهذه المناسبة كثيراً من الآياتِ في سورة آل عمران، ثم لما تمسّكوا بعقائدهم دعاهم إلى المباهلة فأبوا أيضاً، ووافقوا على إعطاء الجزية.

---

(١) صحيح مسلم في الزهد، رقم ٣٠٠٥.

ففي الحديث عن حذيفة قال: جاء العاقِبُ والسيّدُ صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعلْ، فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلحُ نحنُ ولا عقبنا من بعدنا.

قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعثْ معنا إلا أميناً.

فقال: «لأبعثنَّ معكم رجلاً أميناً حق أمين» واستشرفَ له أصحابُ رسول الله ﷺ فقال: «قم ياأبا عُبيدة بن الجراح». فلما قامَ قال رسولُ الله ﷺ: «هذا أمينُ هذه الأمة».

وفي روايةٍ عن أنسٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «لكلِّ أمةٍ أمينٌ، وأمينُ هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[1].

وفي ذلك أنزل اللهُ قوله الكريم: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

أبو بكر رضي الله عنه أميرُ الحج:

فُرِضَ الحجُّ في العام التاسع من الهجرة، ولم يحجّ النبيُّ ﷺ في هذا العام حتى لا يتأذّى بمنظرِ بعضِ المشركين من العرب، الذين كانوا يحجّون ويطوفُ بعضهم عراةً. وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعثَه في الحجة التي أمَّره النبيُّ ﷺ عليها قبلَ حجّةِ الوداع يومَ النحرِ في رهطٍ يؤذِّنُ في الناس: «لا يحجُّ بعدَ العامِ مشركٌ، ولا يطوفُ بالبيتِ عريانٌ»[2].

وأنزل الله تعالى قوله الكريم في أول سورة التوبة [١ ـ ٣]: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٣٨٠ ـ ٤٣٨٢.

(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٣٦٣.

وقوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أي هذه براءةٌ من اللهِ ورسولِه واصلةٌ إلى الذين عاهدتم من المشركين. وأصلُ معنى البراءة في اللغة: انقطاعُ العصمةِ والرباطِ والعلاقةِ، ولهذا يقالُ عن رباطِ الزوجية عصمةُ النكاح.

وتأتي البراءةُ أيضاً في اللغةِ بمعنى الإعذار والإنذار، ولعلَّ هذا المعنى هو المرادُ في الآيـةِ، فهي إنذارٌ وإعذارٌ من اللهِ ورسولِه بانقطاع عصمته وصلته مع المشركين.

وشأن هذه البراءة خطيرٌ وكبيرٌ، فهي من اللهِ عزَّ وجلّ ومن رسولِه ﷺ، ومن شـأنها أن يرتفعَ الأمانُ عن المشركين، ولعلَّ ذلك سرُّ عدم افتتاح السـورة بالبسملة، لأنَّها أمانٌ، والسورة نزلتْ بالسيف ليس فيها أمان.

وقد ثبت أنَّ النبيَّ ﷺ أرسل أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج في العام التاسع، وأرسلَ معه صدرَ براءة ليقرأها على الناس، ثم أتبعه بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. ففي الحديث عن **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال: بعثَ النبيُّ ﷺ براءةَ مع أبي بكر، ثم جاء علياً فأعطاها إياه وقال: «لا ينبغي لأحدٍ أن يبلِّغَ هذا إلا رجلٌ من أهلي»[1].

وفاة إبراهيم بن رسول الله عليهما الصلاة والسلام:

وفي العام التاسـع توفي إبراهيمُ بن رسول الله ﷺ، وأُمُّه السيدةُ ماريـة القبطية، وهي جاريةٌ أهداها إليه المُقوقِسُ حاكمُ مصر عندما أرسلَ إليه النبيُّ ﷺ رسالةً يدعوه فيها إلى الإسلام.

وفي الحديث عن **أنس بن مالك** قال: قال رسول الله ﷺ: «وُلِدَ لي الليلةَ غلامٌ، فسميتُه باسم أبي إبراهيم».

ثم دفعه إلى أُمِّ سيفٍ امرأة قينٍ (حداد) يقال له أبو سيف، فانطلقَ يأتيه واتبعته، فانتهينا إلى أبي سيف وهو ينفخُ بكيرِه، قد امتلأَ البيتُ دخاناً، فأسرعتُ المشيَ بين يدي رسول الله ﷺ، فقلتُ: يا أبا سيف أمسك جاءَ رسولُ الله ﷺ،

---

(١) رواه أحمد في المسند، والترمذي في السنن وحسنه.

فأمسكَ، فدعا النبيُّ ﷺ بالصبيِّ فضمَّه إليه، وقال ماشاء الله أن يقول. قال أنس: لقد رأيتُه وهو يكيدُ بنفسِه[1] بين يدي رسولِ الله ﷺ، فدمعتْ عينا رسول الله ﷺ وقال: «تدمَعُ العينُ، ويحزنُ القلبُ، ولا نقولُ إلا ما يرضي ربَّنا، واللهِ يا إبراهيمُ إنَّا بك لمحزونون».

وفي روايةٍ ثانيةٍ عن **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال: ما رأيتُ أحداً أرحمَ بالعيالِ من رسولِ الله ﷺ. قال: كان إبراهيمُ مسترضعاً له في عوالي المدينة، فكان ينطلِقُ ونحنُ معه، فيدخل البيتَ، وإنَّه ليدخن، وكان ظئرُه قيناً، فيأخذه فيقبِّلُه، ثم يرجعُ. قال عمرو راوي الحديث عن **أنس**: فلما توفي إبراهيم قال رسول الله ﷺ: «إنَّ إبراهيمَ ابني، وإنَّه ماتَ في الثدي ـ أي في سنِّ الرضاع ـ وإن له لظئرين تكمِلانِ رضاعَهُ في الجَنَّةِ»[2].

وأخرجَ الحديثَ أيضاً البخاريُّ في (صحيحه) وزاد فيه: فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنتَ يارسولَ الله؟ فقال: «يا ابنَ عوف إنّها رحمة»، ثم أتبعها بأخرى، فقال ﷺ: «إنَّ العينَ تدمعُ، والقلبَ يحزنُ، ولا نقولُ إلاَّ مايرضي ربنا، وإنَّـا بفراقِكَ يـا إبراهيمُ لمحزونون»[3].

قال ابن بطّال وغيرُه: هذا الحديثُ يفسِّرُ البكاء المباح والحزن الجائز، وهو ما كان بدمعِ العين ورقّة القلب من غيرِ سخطٍ لأمرِ اللهِ، وهو أبينُ شيءٍ وقعَ في هذا المعنى. وفيه مشروعيةُ تقبيلِ الولدِ وشمّه، ومشروعية الرضاع، وعيادةُ الصغيرِ، والحضورُ عندَ المحتضر، ورحمةُ العيال، وجوازُ الإخبارِ عن الحزن[4].

ويبدو أنه لما توفي القاسم بن رسول الله ﷺ من السيدة خديجة رضي الله عنها أخبرها عليه الصلاة والسلام أيضاً أنه يستكمِلُ رضاعه في الجنّة. ففي الحديث عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها **الحسين بن علي** رضي الله عنه قال: لما

---

(١) أي يجودُ بها، ومعناه وهو في النزع.
(٢) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٣١٥ـ٢٣١٦.
(٣) صحيح البخاري في الجنائز، رقم ١٣٠٣.
(٤) فتح الباري: ٣/ ١٧٤.

توفي القاسم بن رسول الله ﷺ، قالت خديجةُ: يارسولَ الله درت لبينةُ القاسم، فلو كان الله أبقاه حتى يستكمل رضاعه، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ إتمامَ رضاعهِ في الجنّة»، قالت: لو أعلمُ ذلك يارسولَ الله لهوّنَ عليّ أمره، فقال رسولُ الله ﷺ: «إن شئتِ دعوتُ اللهَ تعالى فأسمعكِ صوته»، قالت: يارسول الله بل أصدّقُ اللهَ ورسولَه ﷺ[1].

فالأبوّة الرحيمة والأمومة الحانية من أنبلِ وأكرمِ العواطفِ الإنسانية، كلّما ازدادَ الإنسانُ إيماناً بالله سبحانه وتعالى كانت عواطف الأبوّة والأمومة أقوى في قلبه وأنصعَ في نفسه، فلا عجبَ ما مرَّ معنا من اتصافِ النبيِّ ﷺ بهذه الصفة الإنسانية الكريمة.

وقد تكرّر منه مثل هذا، ففي (صحيح مسلم) أنّه ﷺ لما رفعَ له صبيٌّ لإحدى بناتِه وهو يموتُ فاضت عيناه، فقال له سعد بن عبادة: ماهذا يارسول الله؟، قال: «هذه رحمةٌ جعلَها اللهُ في قلوبِ عبادِه، وإنَّما يرحمُ الله من عبادِه الرحماء».

ولما كانت أم إبراهيم من أهل مصر، وأمُّ نبيِّ الله إسماعيل منهم أيضاً أوصى النبيُّ ﷺ بهم. ففي الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّكم ستفتحونَ مصرَ، وهي أرضٌ يسمّى فيها القيراط[2]، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإنَّ لهم ذمّةً ورحماً، أو قال: ذمةً وصهراً. فإذا رأيتَ رجلين يختصمان بها في موضعِ لبنةٍ فاخرجْ منها»

قال: فرأيتُ عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة وأخاه ربيعة يختصمان في موضع لبنة فخرجتُ منها[3].

* * *

---

(١) سنن ابن ماجه في الجنائز، رقم ١٥٠١.

(٢) القيراط: جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما، وكان أهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به.

(٣) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٥٤٣.

الفصل الثاني

حجة الوداع

وحجَّ النبيّ ﷺ في العام العاشر، وسُمّيت حجتُه حجةَ الوداع، لأنَّه عليه الصلاة والسلام توفي بعدها.

ففي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما كُنّا نتحدّث بحجة الوداع والنبي ﷺ بين أظهرنا، ولا ندري ما حجة الوداع، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر المسيح الدجّال، فأطنبَ في ذكره وقال: «ما بعثَ اللهُ مِنْ نبيٍّ إلا أنذرَ أُمَّتَه، أنذره نوحٌ والنبيون مِنْ بعدِه، وإنَّه يخرجُ فيكم، فما خفيَ عليكم من شأنِه، فليس يخفى عليكم أنَّ ربّكم ليسَ على ما يخفي عليكم - ثلاثاً - إنَّ ربَّكم ليس بأعور، وإنَّه أعور عين اليمنى، كأنَّ عينه عنبةٌ طافيةٌ»[1].

وعن زيد بن أرقم أنَّ النبيَّ ﷺ غزا تسع عشرة غزوة، وأنَّه حجَّ بعدما هاجر حجةً واحدةً لم يحجَّ بعدها (حجة الوداع) قال أبو إسحاق راوي الحديث عن زيد: وبمكة أخرى[2].

وعلَّق ابنُ حجر على قول ابن إسحاق «وبمكة أخرى» فقال: هو ليس كذلك، بل حجَّ قبل أن يهاجرَ مراراً، بل الذي أرتابُ فيه أنَّه لم يترك الحجَّ وهو بمكةَ قطّ، لأنَّ قريشاً في الجاهلية لم يكونوا يتركون الحجّ[3].

وصفُ حجةِ النبيِّ ﷺ:

وخرجَ معه ﷺ ناسٌ كثير، منهم الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنهما الذي وصف خروجَه عليه الصلاة والسلام وحَجَّه فقال: إنَّ رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٤٠٢.

(٢) المرجع السابق، رقم ٤٤٠٤.

(٣) فتح الباري: ٨/ ١٠٧.

مكثَ تسعَ سنين لم يحجَّ، ثم أذَّنَ في الناسِ في العاشرة أنَّ رسولَ الله ﷺ حاجٌّ. فقدم المدينةَ بشرٌ كثيرٌ، كلُّهم يلتمِسُ أن يأتمَّ برسولِ الله ﷺ، ويعملَ مثلَ عملِه.

فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحُليفةَ، فولدت أسماءُ بنتُ عُميسٍ محمدَ بنَ أبي بكر، فأرسلتْ إلى رسول الله ﷺ: كيف أصنعُ؟ قال: «اغتسلي واستثْفِري بثوبٍ وأحْرِمي»(١).

فصلَّى رسولُ الله ﷺ في المسجد، ثم ركب القصواءَ حتى إذا استوتْ به ناقتُه على البيداء، نظرتُ إلى مدِّ نظري بين يديه من راكبٍ وماشٍ، وعن يمينهِ مثلَ ذلك، وعن يساره مثلَ ذلك، ومن خلفِه مثلَ ذلك. ورسولُ الله ﷺ بينَ أظهُرِنا، وعليه يَنْزِلُ القرآنُ، وهو يعرِفُ تأويلَه، وما عمِلَ به مِنْ شيءٍ عملنا به.

فأهلَّ بالتوحيد «لبّيكَ اللهمَّ لبيكَ، لبيكَ لا شريكَ لك لبيك، إنَّ الحمدَ والنعمةَ لكَ والمُلك، لا شريكَ لك» وأهلَّ بهذا الذي يهلّون به، فلم يَرُدَّ رسولُ الله ﷺ شيئاً منه، ولزم رسول الله ﷺ تلبيتَه.

قال جابرٌ رضي الله عنه: لسنا ننوي إلا الحجَّ، لسنا نعرفُ العمرةَ، حتى إذا أتينا البيتَ مَعَه استلمَ الركنَ (الحجر الأسودَ) فرملَ ثلاثاً، ومشى أربعاً، ثم نفذَ إلى مقامِ إبراهيم عليه السلام فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، فجعلَ المقامَ بينَه وبين البيت. فكان أبي يقول: (ولا أعلمه ذكرَه إلا عن النبيّ ﷺ): كان يقرأ في الركعتين: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

ثم رجع إلى الركنِ فاستلمَه، ثم خرجَ منَ البابِ إلى الصفا، فلمَّا دنا من الصَّفا قرأ: ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] «أبدأُ بما بدأَ اللهُ به» فبدأ بالصفا، فرقَى عليه، حتى رأى البيتَ فاستقبَلَ القِبْلَةَ، فوحَّدَ الله وكبَّره وقال: «لا إلـه إلا الله وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ، ولهُ الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير، لا إلـه إلا الله وحدَه، أنجزَ وعدَه، ونصرَ عبدَه، وهزمَ الأحزابَ وحدَه».

---

(١) الاستثفار هو أن تشدّ في وسطها شيئاً، وتأخذ خرقةً عريضةً تجلعها على محلّ الدم، وتشدَّ طرفيها من قدامها ومن ورائِها.

ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرات.

ثم نزلَ إلى المروةَ، حتى إذا انصبَّتْ قدماه في بطنِ الوادي سعى، حتى إذا صعدنا مشى، حتى أتى المروةَ، ففعل على المروةِ كما فعل على الصفا.

حتى إذا كان آخرُ طوافِه على المروةَ فقال: «لو أنِّي استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ لم أَسقِ الهديَ وجعلتُها عمرةً، فمن كان منكم ليسَ معه هديٌ فليحلَّ وليجعلْها عمرةً»، فقام سراقة بنُ مالك بن جُعْشُمٍ فقال: يارسولَ الله أَلِعَامِنا هذا أم لأبدٍ؟ فشبَّكَ رسولُ الله ﷺ أصابعه واحدةً في الأخرى، وقال: «دخلتِ العمرةُ في الحجِّ (مرتين) لا بل لأبدِ أبدٍ».

وقدم عليٌّ من اليمن بِبُدْنِ النبيِّ ﷺ، فوجدَ فاطمةَ رضي الله عنها مِمَّنْ حَلَّ، ولبستْ ثياباً صبيغاً واكتحلَتْ، فأنكرَ ذلك عليها، فقالتْ: إنَّ أبي أمرني بهذا. قال: فكان عليٌّ يقولُ بالعراق: فذهبتُ إلى رسولِ الله ﷺ محرِّشاً على فاطمة للذي صنعتْ، مستفتياً لرسولِ الله ﷺ فيما ذكرتْ عنه، فأخبرتُه أنِّي أنكرتُ ذلك عليها، فقال: «صدقَتْ صدقَتْ، ماذا قلتَ حينَ فرضتَ الحجَّ؟» قال: قلتُ اللهمَّ إنِّي أهلُّ بما أهلَّ بهِ رسولُك، قال: «فإنَّ معيَ الهديَ فلا تَحِلّ»، قال: فكان جماعةُ الهدي الذي قَدِمَ به عليٌّ من اليمن، والذي أتى به النبيُّ ﷺ مئة، قال: فحلَّ الناسُ كلّهم وقصَّروا إلا النبيّ ﷺ ومَنْ كان معه هديٌ.

فلمَّا كان يوم الترويةِ توجَّهوا إلى مِنًى، فأهلُّوا بالحجِّ، وركبَ رسولُ الله ﷺ، فصلَّى بهم الظهرَ والعصرَ والمغربَ والعشاءَ والفجر، ثم مكثَ قليلاً حتى طلعت الشمسُ، وأمر بقبَّةٍ من شعرٍ تضرَبُ له بنمرة، فسار رسول الله ﷺ ولا تشكُّ قريشٌ إلاَّ أنَّه واقفٌ عند المَشْعَرِ الحرامِ، كما كانت قريشٌ تصنعُ في الجاهلية، فأجازَ رسولُ الله ﷺ حتى أتى عرفة، فوجد القُبَّةَ قد ضُرِبَتْ له بنمرة، فنزل بها، حتى إذا زاغت الشمسُ أمرَ بالقصواءِ فرحِّلَتْ له، فأتى بطنَ الوادي، فخطبَ الناسَ، وقال: «إنَّ دماءَكم وأموالَكم حرامٌ عليكم كحرمةِ يومِكم هذا، في شهرِكم هذا، في بلدِكم هذا. ألا كلُّ شيءٍ مِنْ أمرِ الجاهليةِ تحت قدميَّ موضوعٌ، ودماءُ الجاهليةِ موضوعةٌ، وإنَّ أولَ دم أضعُ من دمائنا دمُ ابنِ ربيعةَ بنَ الحارث، كان مسترضَعاً في بني سعد، فقتلته هُذيلٌ. وربا الجاهليةِ موضوعٌ،

وأولُ ربا أضعُ ربانا ربا عبّاس بن عبد المطلب، فإنَّه موضوعٌ كلّه. فاتّقوا الله في النساء، فإنّكم أخذتموهنّ بأمانِ الله، واستحللتم فروجهنَّ بكلمةِ اللهِ، ولكم عليهنَّ أن لا يوطئنَ أحداً تكرهونه[1]، فإن فعلنَ ذلك فاضربوهنَّ ضرباً غيرَ مبرِّحٍ[2]، ولهنَّ عليكم رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف، وقد تركتُ فيكم ما لن تضلّوا بعدَه إن اعتصمتم بهِ كتاب اللهِ، وأنتم تسألونَ عني فما أنتم قائلون؟»

قالوا: نشهدُ أنّك قد بلّغتَ وأدّيتَ ونصحتَ، فقال ـ أشار ـ بإصبعه السبابة يرفعُها إلى السماءِ، وينكتُها إلى الناس ـ أي يشير بها إلى الناس ـ اللهمَّ اشهد، اللهمَّ اشهد» ثلاث مرات، ثم أقام فصلّى الظهرَ، ثم أقامَ فصلّى العصر، لم يصلِّ بينهما شيئاً.

ثم ركبَ رسولُ الله ﷺ حتى أتى الموقفَ، فجعلَ بطنَ ناقتِه القصواء إلى الصخرات ـ أسفل جبل الرحمة ـ وجعلَ حبلَ المشاةِ بين يديه ـ أي مجتمعهم ـ واستقبلَ القبلةَ، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمسُ، وذهبتْ الصفرةُ قليلاً حتى غابَ القُرْصُ، وأردفَ أسامةَ خلفَه، ودفعَ رسولُ الله ﷺ، وقد شنقَ للقصواء الزمام ـ أي ضمَّ وضيّقَ ـ حتى إنَّ رأسَها ليصيبُ مورك[3] رحله، ويقول بيده اليمنى: «أيّها الناسُ! السكينةَ السكينةَ» كلّما أتى حبلاً من الحبالِ ـ التلال ـ أرخى لها قليلاً حتى تصعدَ، حتى أتى المزدلفة، فصلّى بها المغربَ والعشاءَ بأذانٍ واحدٍ وإقامتين، ولم يسبّحْ بينهما شيئاً.

ثم اضطجعَ رسولُ الله ﷺ حتى طلعَ الفجرُ، وصلّى الفجرَ حين تبيَّنَ له الصبحُ بأذانٍ وإقامةٍ، ثم ركبَ القصواءَ، حتى أتى المشعرَ الحرامَ، فاستقبلَ القبلةَ، فدعاه وكبّره وهلّله ووحّده، فلم يزلْ واقفاً حتى أسفر جداً، فدفعَ قبلَ أن تطلعَ الشمسُ، وأردفَ الفضلَ بن عباسٍ، وكان رجلاً حسنَ الشَّعْرِ، أبيضَ وسيماً، فلمّا دفعَ رسولُ الله ﷺ مرّتْ به ظُعُنٌ[4] يجرينَ، فطفِقَ الفضلُ إلى الشقِّ

---

(١) أي أن لا يأذن لأحدٍ تكرهونه في دخولِ بيوتكم والجلوسِ في منازلكم.

(٢) أي ضرباً ليس بشديد ولا شاق.

(٣) أي الموضع الذي يثني الراكب رجله عليه قدام واسطة الرحل.

(٤) الظعن جمع ظعينة وهي المرأة على البعير.

الآخرِ ينظرُ، فحوّلَ رسولُ الله ﷺ من الشقِّ الآخر على وجهِ الفضلِ، يصرفُ وجهَه من الشقِّ الآخرِ ينظرُ، حتى أتى بطنَ محسّرٍ، فحرَّكَ قليلاً.

ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرجُ على الجمرةِ الكبرى، حتى أتى الجمرةَ التي عندَ الشجرة، فرماها بسبعِ حصياتٍ، يكبِّرُ مع كلِّ حصاةٍ منها، حصى الحَذْفِ[1] رَمَى مِنْ بطنِ الوادي.

ثم انصرفَ إلى المنحر، فنحرَ ثلاثاً وستينَ بيدِه، ثم أعطى علياً فنحرَ ما غَبَرَ - ما بقي - وأشركه في هديه، ثم أمرَ مِنْ كلِّ بدَنَةٍ ببضْعَةٍ، فجُعِلَتْ في قدرٍ فطُبِخَتْ، فأكلا من لحمها، وشربا من مرقها.

ثم ركبَ رسولُ الله ﷺ، فأفاضَ إلى البيتِ، فصلَّى بمكةَ الظهرَ، فأتى بني عبدِ المطّلبِ يسقونَ على زمزم فقال: «انزعوا بني عبدِ المطلب، فلولا أن يغلبَكُم الناسُ على سقايتِكُم لنزعتُ معكم» فناولوه دلواً فشربَ منه[2].

خطبة النبي ﷺ في منى:

خطبَ النبيُّ ﷺ في حَجَّةِ الوداع أكثر من خطبةٍ، خطبَ أولاً - كما مرَّ معنا في حديث جابر - في عرفات، ثم خطَبَ أيضاً يومَ النحرِ في منًى، ففي الحديث عن **ابن عباس** رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ خطبَ الناسَ يومَ النحرِ، فقال: «ياأيها الناسُ أيُّ يومٍ هذا؟» قالوا: يوم حرام، قال: «فأيُّ بلدٍ هذا؟» قالوا: بلد حرام، قال: «فأيُّ شهرٍ هذا؟» قالوا: شهر حرام، قال: «فإنَّ دماءَكم وأموالَكُم وأعراضَكُم عليكم حرامٌ كحرمةِ يومِكم هذا، في بلدكم هذا، في شهرِكم هذا» فأعادها مراراً. ثم رفع رأسه فقال: «اللهمَّ هل بلَّغتُ؟» مرتين.

قال **ابن عباس** رضي الله عنهما: فوالذي نفسي بيده إنها لوصيته إلى أمته: «فليبلِّغِ الشاهدُ الغائبَ، لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[3].

---

(١) أي حصى صغار يمكن أن يرمى بأصبعين.
(٢) صحيح مسلم في الحج، رقم ١٢١٨.
(٣) صحيح البخاري في الحج، رقم ١٧٣٩.

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: خطبَنا النبيُّ ﷺ يوم النحر... الحديث، وفي آخره، قال: «اللهمَّ اشهد، فليبلِّغ الشاهدُ الغائبَ، فرُبَّ مبلَّغٍ أوعى من سامعٍ، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: وقف النبيّ ﷺ يومَ النحرِ بين الجمراتِ في الحجةِ التي حجَّ بهذا[1] وقال: «هذا يومُ الحجِّ الأكبرِ» فطفقَ النبيُّ ﷺ يقول: «اللهمَّ اشهد» وودع الناس فقالوا: هذه حجة الوداع[2].

فتواه على الدابة عند الجمرة:

وازدحمَ الناسُ حول النبيِّ ﷺ عند الجمرةِ يسألونه عن حكمِ ما وقعَ لهم في يوم النحرِ، فكان ﷺ يفتيهم وهو على الدابة، لكي يتمكّنوا من رؤيته، ويسمعوا جوابَه، ففي الحديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ الله ﷺ وقفَ في حجةِ الوداعِ، فجعلوا يسألونه، فقال رجلٌ: لم أشعر فحلقتُ قبل أن أذبحَ. قال: «اذبح ولا حرج». فجاء آخر فقال: لم أشعر فنحرتُ قبلَ أن أرمي. قال: «ارمِ ولا حرجَ» فما سُئِلَ يومئذٍ عن شيءٍ قدِّم ولا أُخِّر إلا قال: «افعلْ ولا حرجَ».

وفي روايةٍ ثانيةٍ عنه رضي الله عنه قال: وقفَ رسولُ الله ﷺ على ناقتِه. فذكر الحديث[3].

إكمالُ الدينِ وإتمامُ النعمةِ:

أنزل اللهُ على النبيِّ ﷺ وهو في عرفات قوله الكريم: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

وفي الحديث عن طارق بن شهاب: قالت اليهودُ لعمرَ: إنّكم تقرؤون آيةً لو

---

(١) بهذا أي بالحديث الذي تقدّم.

(٢) صحيح البخاري، رقم ١٧٤١ ـ ١٧٤٢.

(٣) صحيح البخاري في الحج، رقم ١٧٣٦ ـ ١٧٣٨.

نزلتْ فينا لاتخذناها عيداً[1]، فقال عمر: إنّي لأعلمُ حيثُ أُنزِلَتْ وأينَ أُنزِلَتْ، وأينَ رسولُ الله ﷺ حين أُنزلتْ: يوم عرفة وإنَّا والله بعرفة.

قال سفيان راوي الحديث عن قيس: وأشك كان يوم الجمعةِ أم لا ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾[2].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره هذه الآية: هذه أكبر نعم الله تعالى على الأمة، حيث أكملَ تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دينٍ غيره، ولا إلى نبيٍّ غير نبيّهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله تعالى خاتمَ الأنبياءِ، وبعثَه إلى الإنسِ والجن، فلا حلالَ إلا ما أحلّه، ولا حرام إلا ما حرّمه، ولا دينَ إلاّ ما شرعه، وكلُّ شيءٍ أخبرَ به فهو حقٌّ وصدقٌ لا كذبٌ فيه ولا خُلْفٌ.

آخر سريةٍ جهّزها النبي ﷺ:

استمرَّ النبيُّ ﷺ يجاهدُ في سبيل الله منذ هاجر إلى المدينة المنورة، وشرع الجهادُ حتى توفّاه الله تبارك وتعالى، وجهَّزَ وهو في مرضِ وفاتِه لأسامة رضي الله عنه جيشاً فيه كبارُ الصحابةِ رضي الله عنهم ليجاهدوا في سبيل الله تعالى.

ففي الحديث الشريف عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ بعث بعثاً، وأمّرَ عليهم أسامةَ بنَ زيدٍ، فطعنَ الناسُ في إمارته، فقام رسولُ الله ﷺ فقال: «إنْ تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنونَ في إمارةِ أبيه مِنْ قبلُ، وأيمُ اللهِ إنْ كان لخليقاً بالإمارة، وإنْ كان لمن أحبِّ الناسِ إليَّ، وإنَّ هذا لمن أحبِّ الناس إليَّ بعدَه»[3].

قوله: «بعث النبيّ ﷺ أسامة» إنما أخَّر البخاري هذه الترجمة لما جاء أنه كان تجهيز أسامة يوم السبت قبل موت النبيّ ﷺ بيومين، وكان ابتداءُ ذلك قبل مرض النبيِّ ﷺ، فندبَ الناسَ لغزو الروم في آخر صفر، ودعا أسامة فقال: «سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيلَ، فقد وليتُكَ هذا الجيشَ، وأَغِرْ صباحاً

---

(١) أي لاتخذنا يوم نزولها عيداً.

(٢) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٦٠٦.

(٣) فتح الباري في المغازي، رقم ٤٤٦٩.

على أبنى ـ اسم موضع في بلاد الشام ـ وحرّق عليهم، وأسرع المسيرَ تسبقِ الخبرَ، فإن أظفركَ اللهُ بهم فأقل اللبثَ فيهم» فبدأ برسول الله ﷺ وجعه في اليوم الثالث، فعقد لأسامة لواءً بيده، فأخذه أسامة فدفعه إلى بُريدة، وعسكر بالجَرْف ـ اسم موضع قرب المدينة ـ وكان ممن انتدب مع أسامة كبار المهاجرين والأنصار، منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة[1].

الدرع المرهونة واللباس الغليظ:

توفّي ﷺ وما تركَ ديناراً ولا درهماً. ففي الحديث عن **عمرو بن الحارث** قال: ما تركَ رسولُ الله ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أَمَةً، إلا بغلتَه البيضاء التي كان يركبُها وسلاحه، وأرضاً جعلَها لابن السبيل صدقةً.

وعن **عائشة** رضي الله عنها قالت: توفّي النبيُّ ﷺ ودرعُه مرهونةٌ عند يهودي بثلاثين. يعني صاعاً من شعير[2].

وكان ﷺ عند وفاتِه يلبسُ ثياباً غليظةً، ففي الحديث عن **أبي بردة** قال: أخرجتْ إلينا عائشةُ كساءً وإزاراً غليظاً، فقالت: قُبِضَ روحُ النبيِّ ﷺ في هذين[3].

قال ابن حجر رحمه الله: تقدّم هذا الحديث في أوائل الخمس، وذكرنا له طريقاً أخرى تعليقاً زاد فيها وصف الإزار والكساء: إزاراً غليظاً مما يصنع باليمن، وكساء من هذه التي تدعونها بالملبدة. والملبدة اسم مفعول من التلبيد. وقال ثعلبُ: يقال للرقعة التي يرقّعُ بها القميص لبدة. وقال غيره: هي التي ضرب بعضها في بعض حتى تتراكب وتجتمع[4].

* * *

(١) فتح الباري: ٨/ ١٥٢.
(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٤٦١ ـ ٤٤٦٧.
(٣) صحيح البخاري في اللباس، رقم ٥٨١٨.
(٤) فتح الباري: ١٠/ ٢٧٨.

الفصل الثالث

الخطب الجلل.. وفاة النبي ﷺ

كانت وفاة النبيِّ ﷺ أعظم خَطْبٍ واجه الصحابة رضي الله عنهم، وأعظم مصاب أصيب به المسلمون، ولهذا دأبت الآيات الكريمة في عدد من المواضع على تهيئة الأمة لمواجهته واحتماله كقوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقوله أيضاً: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤ ـ ١٤٥].

وكذلك أخذ ﷺ يهيئ نفوس أهله وأصحابه لتحمّل هذا المصاب الأليم والخطب الجسيم. فقد عرفَ ﷺ دنوَّ أجلِه عندنا أنزلَ عليه سبحانه سورةَ النصرِ.

وكان يعلم أنَّ ابنتَه السيدة فاطمة رضي الله عنها ستكونُ أكثرَ الناس مصاباً بوفاته، فأخبرها باقترابِ أجله، وعزّاها بنفسِه عن نفسِه، فعزاها عن مصابها به في حياته، ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: دعا النبيُّ ﷺ فاطمةَ عليها السلام في شكواه الذي قُبِضَ فيه، فسارّها بشيءٍ فبكت، ثم دعاها فسارّها بشيءٍ فضحكت. فسألنا عن ذلك فقالت: سارّني النبيُّ ﷺ أنه يُقبَضُ في وجعِه الذي توفي فيه فبكيْتُ، ثم سارني فأخبرني أنّي أولُ أهلِ بيتِه يتبعُه فضحكتُ(١).

ولفظ الحديث في (صحيح مسلم) عن عائشة قالت: كنا أزواج النبيِّ ﷺ عنده، لم يغادر منهنَّ واحدة، فأقبلت فاطمةُ تمشي ما تخطئ مشيتها من مشية

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٤٣٣.

رسول الله ﷺ شيئاً، فلمّا رآها رحّبَ بها، فقال: «مرحباً ابنتي» ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم سارّها فبكت بكاءً شديداً، فلمّا رأى جزعها، سارّها ثانية فضحكتْ. فقلتُ لها: خَصَّكِ رسول الله ﷺ من بين نسائه بالسرار ثم أنت تبكين؟ فلمّا قام رسول الله ﷺ سألتُها ما قال لك رسول الله ﷺ؟، قالت: ما كنت أفشي على رسول الله ﷺ سِرَّه.

قالت: فلما توفي رسول الله ﷺ قلتُ: عزمتُ عليك بما لي عليك من الحق لما حدّثتني ما قال لك رسولُ الله ﷺ؟ فقالت: أمّا الآن فنعم، أمّا حينَ سارّني في المرة الأولى فأخبرني أنَّ جبريلَ كان يعارضه القرآن في كلِّ سنةٍ مرةً أو مرتين[1]، وإنّه عارضَه الآن مرتين «وإنِّي لا أرى الأجل إلا قد اقترب. فاتقي الله واصبري، فإنّه نِعْمَ السلفُ أنا لك» قالت: فبكيتُ بكائي الذي رأيتِ، فلمّا رأى جزعي سارّني الثانيةَ فقال: «يا فاطمةُ أما ترضينَ أن تكوني سيدةَ نساءِ المؤمنين، أو سيدةَ نساءِ هذه الأمة؟» قالت: فضحكتُ ضحكي الذي رأيتِ[2].

مكانة السيدة فاطمة عند النبي ﷺ:

والجدير بالذكر أنَّ بنات النبي ﷺ توفاهنَّ الله في حياته إلا السيدة فاطمة رضي الله عنها، فقد قدر سبحانه أن تعيشَ حتى تشهدَ موته ﷺ. ثم تكونَ أول أهله لحوقاً به، ولهذا كان لها في قلبِه الشريف ﷺ مكانةٌ خاصةٌ، حتى إنّه ما سمحَ لعلي بن أبي طالب أن يتزوج عليها عندما رغب في ذلك.

فعن **المِسْور بن مخرمة** أنَّه سمع رسول الله ﷺ على المنبر وهو يقول: «إن بني هشام بن المغيرة استأذنوا في أن ينكِحوا ابنتَهم عليَّ بن أبي طالب، فلا آذنُ لهم، ثم لا آذنُ لهم، ثم لا آذنُ لهم. إلا أن يريدَ ابنُ أبي طالبٍ أن يطلِّقَ ابنتي، وينكِحَ ابنتَهم، فإنَّ ابنتي بضعةٌ مني، يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها».

وعن علي بن الحسين أن **مسور بن مخرمة** أخبره أنَّ عليَّ بن أبي طالب

---

(١) هذا وقع في هذه الرواية، وذكر المرتين شك من بعض الرواة، والصواب حذفها كما في باقي الروايات.

(٢) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٤٥٠.

خطبَ بنتَ أبي جهلٍ، وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فلمّا سمعتْ بذلك فاطمةُ أتت النبيَّ ﷺ فقالت له: يزعمُ قومُكَ أنك لا تغضَبُ لبناتِك، وهذا عليٌّ ناكحٌ بنتَ أبي جهلٍ. قال المسور: فقام النبيُّ ﷺ فسمعتُه حين تشهّدَ ثم قال: «أما بعدُ، فإني أنكحتُ أبا العاص بن الربيع فحدّثني فصدَقَني، وإنَّ فاطمةَ بضعة مني، وإنما أكرهُ أن يسوءها، والله لا تجتمعُ بنتُ رسولِ الله ﷺ وبنتُ عدوِّ الله عندَ رجلٍ واحدٍ». قال: فترك عليٌّ الخطبة[1].

وهي رضي الله عنها سيدة نساء المؤمنين في الجنة، فقد بوب البخاري في (صحيحه) باباً خاصاً قال فيه: مناقبُ فاطمة عليها السلام، وقال النبي ﷺ: «فاطمةُ سيدةُ نساءِ أهل الجنة».

قال ابن حجر وقوله: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة» هو طرفٌ من حديثٍ وصلَه المؤلف في علامات النبوة، وعند الحاكم من حديث حذيفة بسند جيد: أتى النبيَّ ﷺ ملكٌ، وقال: إنَّ فاطمةَ سيدةُ أهلِ الجنةِ[2].

مواساة الصحابة:

وكذلك واسى النبيُّ ﷺ أصحابه قبل وفاته، فأخبرهم أنَّ الله إذا أراد رحمة أمته قبضَ نبيها قبلها، ففي الحديث عن **أبي موسى** عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله عزَّ وجل إذا أراد رحمةَ أمةٍ من عبادِه، قبضَ نبيَّها قبلَها، فجعلَه لها فرطاً وسلفاً بين يديها[3]، وإذا أرادَ هَلَكَة أمةٍ عذَّبها ونبيُّها حيٌّ، فأهلكها وهو ينظر، فأقرَّ عينَه بهلكتِها حين كذّبوه وعصوا أمره»[4].

وعن **عُقبة بن عامر** قال: صلى ﷺ على قتلى أحدٍ بعد ثمان سنين كالمودّع للأحياء والأموات، ثم طلع المنبرَ فقال: «إنِّي بينَ أيديكم فرط، وأنا عليكم

---

(١) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٤٤٩.
(٢) فتح الباري: ٧/ ١٠٥.
(٣) فرطاً بمعنى الفارط المتقدم إلى الماء ليهيئ السقي، يريد أنه شفيع يتقدم. وسلفاً: المقدم.
(٤) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٢٨٨.

شـهيدٌ، وإنَّ موعدكم الحوض، وإنِّي لأنظرُ إليه من مقامي هذا، وإنِّي لسـتُ أخشى عليكم أن تشركوا، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها» قال: فكان آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله ﷺ[1].

وأخذ ﷺ يشـير في بعض خطبـه إلى اقتـراب أجلـه، ففي الحديـث عن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه قال: خطبَ رسولُ الله ﷺ الناسَ وقال: «إنَّ الله خيّـرَ عبداً بين الدنيـا وبين ما عنده، فـاختار ذلك العبدُ ما عنـد الله» قال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائِه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبدٍ خُيّرَ، فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّرُ، ولو كنتُ متخذاً خليلاً غيرَ ربي لاتخذتُ أبا بكر، ولكن أخـوة الإسلام ومودته، لا يبقينَّ في المسجدِ بابٌ إلا سُدَّ، إلا باب أبي بكر»[2].

والجدير بالذكر أنَّه ﷺ كان أماناً لأصحابه، فوجوده ﷺ بركة على البلاد والعباد، وهو ما صرحت به الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وفي الحديث عن أبي بردة عن أبيه **أبي موسى الأشعري** قال: صلينا المغربَ مع رسول الله ﷺ ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي العشاء، قال: فجلسنا فخرج علينا فقال: «ما زلتم ها هنا».

قلنا: يا رسول الله صلينا معك المغرب ثم قلنا: نجلسُ حتى نصلِّي معك العشاء.

قال: «أحسنتم أو أصبتم».

قال: فرفع رأسه إلى السماء، وكان كثيراً مما يرفعُ رأسَه إلى السماء فقال: «النجومُ أمنةٌ للسماء، فإذا ذهبت أتى السماءَ ما توعدُ، وأنا أمنةٌ لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنةٌ لأمتي، فإذا ذهبَ أصحابي أتى أُمتي ما يوعدون»[3].

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٠٤٢.

(٢) صحيح البخاري في الفضائل، رقم ٣٦٥٤.

(٣) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٥٣١.

قوله: «أمنة للسماء» أي: النجوم ما دامت باقية فالسماء باقية، فإذا انكدرت النجومُ وتناثرت في القيامة وهنت السماءُ فانفطرتْ وانشقتْ وذهبتْ.

وقوله: «وأنا أمنة لأصحابي» أي: من الفتن والحروب وارتداد من ارتدّ من الأعراب، واختلاف القلوب، ونحو ذلك مما أنذر به صريحاً، وقد وقع كل ذلك.

وقوله: «فإذا ذهب أصحابي أتى أُمتي ما يوعدون» معناه من ظهور البدع والحوادث في الدين والفتن فيه، وطلوع قرن الشيطان، وظهور الروم وغيرِهم عليهم، وانتهاك المدينة ومكة، وغير ذلك. وهذه كلها من معجزاتِه ﷺ[1].

ابتداء مرضه ﷺ:

لما ابتدأ المرضُ برسول الله ﷺ كان في غير بيت السيدة عائشة، فقد روى عبد الرزاق بإسناد صحيح عن **أسماء بنت عُميس** قالت: إنَّ أول ما اشتكى كان في بيت ميمونة. فاستأذن ﷺ أزواجه أن يمرَّضَ في بيت السيدة عائشة، فأذِنَّ له.

ففي الحديث **عنها** قالت: لما ثقل رسولُ الله ﷺ واشتدَّ به وجعه استأذن أزواجه أن يمرَّض في بيتي فأذن له، فخرج وهو بين الرجلين تخطُّ رجلاه في الأرض، بين عباس بن عبد المطلب وبين رجل آخر. قال عبيد الله ـ راوي الحديث عن عائشة ـ: فأخبرتُ عبد الله بالذي قالت عائشة، فقال لي عبد الله بن عباس: هل تدري من الرجل الآخر الذي لم تسمِّ عائشة؟ قال: قلت: لا، قال ابن عباس: هو علي. وكانت عائشة زوج النبي ﷺ تحدِّثُ أنَّ رسول الله ﷺ لمّا دخلَ بيتي واشتدَّ به وجعه قال: «هريقوا ـ أي صبوا ـ عليَّ من سَبْعِ قُرَبٍ لم تحلل أوكيتهن (أفواههن) لعلي أعهدُ إلى الناس» فأجلسناه في مخضَب لحفصة زوج النبي ﷺ، ثم طفقنا نصبُّ عليه من تلك القرب، حتى طفقَ يشيرُ إلينا بيده أن قد فعلتن. قالت: ثم خرجَ إلى الناسِ، فصلّى بهم وخطبهم[2].

---

(١) هامش صحيح مسلم من شرح النووي عليه.
(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٤٤٢.

وفي رواية ابن أبي مليكة عن **عائشة** رضي الله عنها أنَّ دخوله بيتها كان يوم الإثنين، ومات يوم الإثنين الذي يليه[1].

اشتداد مرضه ﷺ ووصيته:

وازداد مرضه ﷺ شدةً يوم الخميس ففي الحديث عن ابن عباس قال: يوم الخميس وما يوم الخميس، اشتدَّ برسول الله ﷺ وجعُه فقال: «ائتوني أكتبُ لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً» فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبيٍّ نزاع، فقالوا: ما شأنه؟ أهجر، استفهموه. فذهبوا يردون عليه، فقال: «دعوني فالذي أنا فيه خيرٌ مما تدعونني إليه». وأوصاهم بثلاث قال: «أخرجوا المشركينَ من جزيرةِ العربِ، وأجيزوا الوفَد بنحو ما كنتُ أجيزَهم» وسكت عن الثالثة أو قال: فنسيتُها.

وعنه أيضاً قال: لما حضر رسول الله ﷺ، وفي البيت رجالٌ فقال النبيُّ ﷺ: «هلمّوا أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده».

فقال بعضهم: إنَّ رسول الله ﷺ قد غلبه الوجعُ، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله.

فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قرِّبوا يكتبُ لكم كتاباً لا تضلّوا بعده، ومنهم من يقول غيرَ ذلك. فلمّا أكثروا اللغط والاختلاف قال رسول الله ﷺ: «قوموا».

قال عبيد الله: فكان يقول **ابن عباس**: إنَّ الرزيةَ كلَّ الرزيةِ ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتبَ لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم.

وقوله: «فقالوا ما شأنه؟ أهجر» بهمزة لجميع رواة البخاري، وفي الرواية التي في الجهاد بلفظ فقالوا: «هجر» بغير همزة... قال عياض: معنى أهجر أفحش، قال هجر الرجل إذا هذى، وأهجر إذا أفحش. وتعقب بأنه يستلزم أن يكون بسكون الهاء، والروايات كلها إنما هي بفتحها. وقد تكلم عياضٌ وغيرُه على هذا الموضع فأطالوا، ولخّصه القرطبي تلخيصاً حسناً، ثم لخصته من كلامه.

---

(١) فتح الباري: ٨/ ١٤٢.

وحاصله أن قوله: «هجر» الراجح فيه إثباتُ همزة الاستفهام وبفتحات على أنه فعل ماض. قال: ولبعضهم: أهجراً بضم الهاء وسكون الجيم والتنوين على أنه مفعول لفعل مضمر أي قال هُجراً. و(الهجر) بالضم ثم السكون: الهذيان، والمراد به هنا ما يقع من كلام المريض الذي لا ينتظم ولا يعتد به لعدم فائدته.

ووقوع ذلك من النبي ﷺ مستحيل، لأنّه معصوم في صحته ومرضه لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣]، ولقوله ﷺ: «إنّي لا أقولُ في الغضبِ والرضا إلا حقاً» وإذا عرف ذلك فإنما قاله من قاله منكراً على من توقف في امتثال أمره بإحضار الكتف والدواة، فكأنه قال: كيف توقفك أتظنه كغيره يقول الهذيان في مرضه؟ امتثل أمره وأحضره ما طلب، فإنه لا يقولُ إلا الحقَّ. قال: هذا أحسن الأجوبة... ولما وقع منهم الاختلاف ارتفعت البركة كما جرت العادة بذلك عند وقوع التنازع والتشاجر، وقد مضى في الصيام أنه ﷺ خرج يخبرهم بليلة القدر فرأى رجلين يختصمان فرفعت[1].

استخلاف أبي بكر ليصلي بالناس:

وعندما لم يتمكن النبيُّ ﷺ من الخروج إلى المسجد والصلاة بالناس استخلفَ أبا بكر رضي الله عنه ليصلي بالناس، ففي الحديث عن **عائشة** قالت: لما ثقل رسول الله ﷺ جاء بلالٌ يؤذنه بالصلاة، فقال: «مروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالناس».

قال: فقلتُ: يا رسول الله إنَّ أبا بكر رجلٌ أسيفٌ[2] وإنه متى يقم مقامك لا يُسْمِعُ الناسَ، فلو أمرتَ عمر.

فقال: «مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس».

قالت: فقلت لحفصة: قولي له: إنَّ أبا بكر رجلٌ أسيفٌ، وإنَّه متى يقم مقامك لا يُسْمِعُ الناس، فلو أمرتَ عمر. فقالت له.

فقال رسول الله ﷺ: «إنكنّ لأنتنَّ صواحبَ يوسفَ، مروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالناس» قالت: فأمروا أبا بكر يصلي بالناس. قالت: فلمّا دخلَ في الصلاة وجد

---

(١) فتح الباري: ٨/ ١٣٣.

(٢) أي حزين، وقيل: سريع الحزن والبكاء.

رسولُ الله ﷺ من نفسه خفةً، فقام يهادي بين رجلين، ورجلاه تخطانِ في الأرض، قالت: فلمّا دخلَ المسجدَ سمع أبو بكر حِسَّه، ذهب يتأخر، فأومأ إليه رسولُ الله ﷺ: «قم مكانك» فجاء رسولُ اللهِ ﷺ حتى جلسَ على يسارِ أبي بكر. قالت: فكان رسولُ اللهِ ﷺ يصلِّي بالناس جالساً، وأبو بكر قائماً، يقتدي أبو بكر بصلاة النبيِّ ﷺ، ويقتدي الناس بصلاة أبي بكر(١).

سكرات الموت:

قدّر تعالى أن يكون للموت سكرات فقال: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ [سورة قَ: ١٩] أي وجاءت غمرةُ الموتِ وشدتُه التي تغشى الإنسـان عند الموت بحقيقـة الموت، أو بالحق من أمر الآخرة، فبينت للإنسان ما لم يكن بيناً من أمر الآخرة الذي كان يشك فيه.

وقد عانى النبيُّ ﷺ من سكرات الموت، ففي الحديث عن **السيدة عائشة** رضي الله عنها: إنَّ مِنْ نعم الله عليَّ أنَ رسول ﷺ توفي في بيتي، وفي يومي، وبين سَحَري ونحري، وأنَّ الله جمعَ بين ريقي وريقه عند موته: دخل عليَّ عبد الرحمن وبيده السواكُ، وأنا مسِنَدةٌ رسول الله ﷺ، فرأيتُه ينظرُ إليه، وعرفتُ أنه يحبُّ السواكَ فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أنْ نعم، فتناولتُه فاشتدَّ عليه، وقلتُ: أليِنُه لك؟ فأشار برأسه أنْ نعم، فلينته فأمَرَّه، وبين يديه ركوة ـ أو علبة ـ فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء، فيمسح بهما وجهَه، يقول: «لا إلـه إلا الله إنَّ للموتِ سكراتٍ» ثم نصبَ يده، فجعلَ يقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قُبِضَ ومالتْ يدُه(٢).

وقالت رضي الله عنها أيضاً: ما رأيتُ أحداً أشدَّ عليه الوجعُ من رسول الله ﷺ(٣).

وشـدةُ المرض على النبي ﷺ رفعاً لدرجاته عند ربه جل جلاله، ففي الحديث عن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه قال: دخلتُ على رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح مسلم في الصلاة، رقم ٤١١٨.
(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٤٤٩.
(٣) صحيح البخاري في المرضى، رقم ٥٦٤٦.

وهو يوعك، قلتُ: ذلك لأنَّ لك أجرين؟.

قال: «أجل ذلك كذلك، ما مِنْ مسلمٍ يصيبُه أذًى، شوكةٌ فما فوقها، إلا كفَّرَ الله بها سيئاتِه كما تحطُّ الشجرةُ ورقَها»[1].

فالأنبياء أشدُّ الناس بلاءً، وهو لفظ حديث أخرجه الدارمي والنسائي وابن ماجه وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم، كلُّهم من طريق عاصم بن بَهْدَلة عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: قلتُ يا رسول الله ﷺ أيُّ الناسِ أشدُّ بلاءً؟.

قال: «الأنبياءُ، ثم الأمثلُ فالأمثل، يُبتلى الرجلُ على حسَبِ دينه». الحديث، وفيه: «حتى يمشي على الأرضِ وما عليه خطيئةٌ»[2].

في الرفيق الأعلى:

الرفيقُ الأعلى هو المقام العالي الرفيع الذي يكرِّمُ الله تعالى به الأنبياءَ والشهداءَ والصالحين، فهو المكان الذي تحصلُ المرافقة فيه مع المذكورين بعد موتهم. قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [النساء: ٦٩]. أي: وما أحسن صحبة هؤلاء ومرافقتهم في الملأ الأعلى في الجنة، فالرفيق الصاحب مأخوذ من الرفق وهو لين الجانب واللطف في المعاشرة.

وكان النبيُّ ﷺ في موته يسألُ الله تعالى الرفيق الأعلى، ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ قبلَ أن يموتَ، وهو مسنِدٌ ظهره إلى صدرها وأصغتْ إليه وهو يقول: «اللهم اغفرْ لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى».

وعنها أيضاً قالت: كنتُ أسمعُ أنه لن يموتَ نبيٌّ حتى يخيَّرَ بين الدنيا والآخرة، قالت: فسمعتُ النبيَّ ﷺ في مرضه الذي مات فيه، وأخذته بحة، يقول: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ

---

(١) صحيح البخاري في المرضى، رقم ٥٦٤٨.

(٢) فتح الباري: ١٠/ ١١١.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ الآية [النساء: ٦٩] قالت: فظننتُه خُيِّر حينئذٍ[١].

تخييره ﷺ:

وقد خُيِّر ﷺ ـ كما مرَّ معنا في حديث السيدة عائشة ـ فاختار الرفيق الأعلى قالت: كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول: «إنّه لن يقبضَ نبيٌّ قط حتى يرى مقعدَه من الجنة ثم يُحييَا ـ أي يخير» فلما اشتكى، وحضره القبضُ، ورأسُه على فخذ عائشة غُشِيَ عليه، فلمّا أفاقَ شخصَ بصرُه نحو سقفِ البيتِ ثم قال: «اللهمَّ في الرفيقِ الأعلى» فقلتُ: إذن لا يختارنا، فعرفتُ أن حديثه الذي كان يحدِّثنا وهو صحيحٌ، قالت: فكانت آخر كلمةٍ تكلَّمَ بها: «اللهمَّ الرفيقَ الأعلى»[٢].

ولا يعني تخييره ﷺ أنه أعطي الخلد في الدنيا كما رأى أحد الكتاب المعاصرين، فإن هذا يصادم قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. وقوله تعالى أيضاً: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. فالتخيير منزلةٌ عاليةٌ خَصَّ الله بها الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، وهو سبحانه يعلم أنهم سيختارون الرفيق الأعلى.

كشف الستارة:

وكشف ﷺ في اليوم الذي توفي فيه ستارة باب حجرته، ونظر إلى أصحابه نظرةَ المودِّع. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ المسلمين بينما هم في صلاة الفجر من يوم الإثنين، وأبو بكر يصلي بهم، لم يفاجأهم إلا رسولُ الله ﷺ قد كشفَ سترَ حجرةِ عائشةَ، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسَّمَ يضحكُ، فنكصَ أبو بكر على عقبيه ليصل الصفَّ، فظنَّ أنَّ رسول الله ﷺ يريدُ أن يخرجَ إلى الصلاة، فقال أنس: وهمَّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ، فأشار إليهم رسول الله ﷺ بيده أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر[٣].

---

(١) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٤٤٤.

(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٤٣٧.

(٣) المصدر السابق، رقم ٤٤٤٨.

وزاد في رواية ثانية أخرجها البخاريُّ في الصلاة: وتوفيَّ من يومِه ذلك.

وفي رواية عن أنس أيضاً قال: آخرُ نظرةٍ نظرتُها إلى رسول الله ﷺ كشف الستارة يوم الإثنين، كشف رسول الله ﷺ ستر الحجرة فنظر إلينا وهو قائم، كأنَّ وجهه ورقة مصحف[1]، ثم تبسّمَ رسولُ الله ﷺ ضاحكاً. قال: فبُهتنا ونحنُ في الصلاة من فرحٍ بخروج رسول الله ﷺ، ونكصَ أبو بكر على عقبيه ليصلَ الصفَّ، وظنَّ أن رسولَ الله ﷺ خارجٌ للصلاة، فأشار إليهم رسول الله ﷺ بيده أن أتموا صلاتكم.

قال: ثم دخل رسولُ الله ﷺ فأرخى الستر قال: فتوفي رسول الله ﷺ من يومه ذلك[2].

السيدة فاطمة تنعاه ﷺ:

كان مصابُ السيدة فاطمة رضي الله عنها كما مرَّ معنا مصاباً شديداً، ففي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: لما ثقل النبيُّ ﷺ جعل يتغشّاه، فقالت فاطمةُ عليها السلام: واكربَ أباه، فقال لها: «ليس على أبيكِ كربٌ بعدَ اليوم».

فلمَّا مات قالت:

يا أبتاهُ! أجابَ ربّاً دعاهُ.

يا أبتاهُ! مَنْ جنةُ الفردوسِ مأواهُ.

يا أبتاهُ! إلى جبريلَ ننعاهُ.

فلما دُفِنَ قالت فاطمةُ عليها السلام: يا أنسُ! أطابتْ نفوسُكم أن تحثُّوا على رسول الله ﷺ الترابَ[3].

---

(١) (كأنَّ وجهه ورقة مصحف): عبارة عن الجمال البارع، وحسن البشرة، وصفاء الوجه واستنارته.

(٢) صحيح مسلم في الصلاة، رقم ٤١٩.

(٣) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٤٦٢.

وأشارت عليها السلام بذلك إلى عتابهم على إقدامهم على ذلك، لأنّه يدلُّ على خلافِ ما عرفته منهم من رقة قلوبهم عليه، لشدة محبتهم له، وسكت أنس عن جوابها رعاية لها، ولسانُ حاله يقول: لم تطب أنفُسنا بذلك، إلا أنّا قهرناها على فعلِه امتثالاً لأمره.

وقد قال أبو سعيد فيما أخرجه البزار بسند جيد: وما نفضنا أيدينا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا.

ومثله في حديث ثابت عن أنسٍ عند الترمذي وغيره، يريد أنّهم وجدوها تغيرت عن ما عهدوه في حياته من الألُفة والصفاء والرقة، لفقدان ما كان يمدهم به من التعليم والتأديب[1].

الصحابة يوم وفاته ﷺ:

يعدُّ موتُ النبيِّ ﷺ أعظمَ مصابٍ حلَّ بالمسلمين، وقدر للصحابة رضي الله عنهم مواجهة هذا المصاب الجلل، وهم أعظم الناس حباً للنبيِّ ﷺ وتعلقاً به، فدهشوا وتحيروا، حتى إنَّ عمر بن الخطاب نفى موته ﷺ، فأخذ يكلِّمُ الناسَ ويقول: ما ماتَ رسولُ الله ﷺ.

وربط الله تعالى على قلب أبي بكر الصديق وثبته في مواجهة المصاب الأليم، ففي الحديث عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: أقبل أبو بكر رضي الله عنه على فرسه من مسكنه بالسنح[2] حتى نزل فدخلَ المسجدَ، فلم يكلِّم الناس حتى دخلَ على عائشةَ رضي الله، عنها فتيمم النبيَّ ﷺ وهو مسجًّى ببرد حبرة، فكشفَ عن وجهه، ثم أكبَّ عليه فقبَّله، ثم بكى، فقال: بأبي أنتَ وأمي يا نبيَّ الله، لا يجمعُ الله عليك موتتين: أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها.

قال أبو سلمة: فأخبرني **ابن عباس** رضي الله عنهما أنَّ أبا بكر رضي الله عنه خرج وعمر رضي الله عنه يكلّمُ الناسَ، فقال: اجلس، فأبى فقال: اجلس،

---

(١) فتح الباري: ٨/ ١٤٩.
(٢) اسم موضع في عوالي المدينة المنورة.

فأبى. فتشهّدَ أبو بكر رضي الله عنه، فمال إليه الناسُ، وتركوا عمر، فقال: أما بعد فمَنْ كانَ منكم يعبُدُ محمداً فإنَّ محمداً قد ماتَ، ومنْ كانَ يعبدُ الله، فإنَّ الله حيٌّ لا يموت، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] فوالله لكأنَّ الناسَ لم يكونوا يعلمون أنَّ الله أنزلَ الآية حتى تلاها أبو بكر رضي الله عنه، فتلقاها منه الناس، فما يسمعُ بشرٌ إلا يتلوها(١).

وفي حديث ابن عمر عند ابن أبي شيبة: أنَّ أبا بكر مرَّ بعمر وهو يقول: ما ماتَ رسولُ الله ﷺ ولا يموتُ حتى يقتلَ الله المنافقينَ، وكانوا أظهروا الاستبشار، ورفعوا رؤوسهم، فقال: أيها الرجلُ إنَّ رسولَ الله ﷺ قد مات، ألم تسمع الله تعالي يقول: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾، ثم أتى المنبرَ، فصعَدَ، فحمد الله، وأثنى عليه، فذكر خطبته(٢).

ولما قرأ أبو بكر الآيةَ في خطبتِه قال ابن عباس: والله لكأنَّ الناسَ لم يعلموا أنَّ الله أنزلَ هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلُّهم، فماأسمعُ بشراً من الناس إلا يتلوها. فأخبرني سعيد بن المسيّبِ أنَّ عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعتُ أبَا بكر تلاها، فعُقِرْتُ، حتى ما تقلّني رجلاي، وحتى أهويتُ إلى الأرض حين سمعتُه تلاها، علمتُ أنَّ النبيَّ ﷺ قد مات(٣).

وقول أبي بكر: «لا يجمع الله عليك موتتين» قيل: هو على حقيقته، وأشار بذلك إلى الردِّ على من زعم أنه سيحيا فيقطعُ أيدي رجالٍ، لأنَّه لو صحَّ ذلك للزم أن يموت موتةً أخرى، فأخبر أنه أكرم على الله من أن يجمع عليه موتتين، كما جمعهما على غيره، كالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف، وكالذي مرَّ على

---

(١) صحيح البخاري في الجنائز، رقم ١٢٤١.
(٢) فتح الباري: ٨/ ١٤٦.
(٣) انظر الحديث كاملاً في صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٤٥٤.

قرية، وهذا أوضح الأجوبة وأسلمها[١].

قال ابن حجر: وفي الحديث قوةُ جأشِ أبي بكر، وكثرةُ علمه، وقد وافقه على ذلك العباس كما ذكرنا، والمغيرة كما رواه ابن سعد وابن أم مكتوم.. وكان أكثر الصحابة على خلاف ذلك[٢].

بيعة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة:

ظهر سر إصرار النبيِّ ﷺ على استخلاف أبي بكر رضي الله عنه ليؤمَّ الناسَ في الصلاة، في ما حدثَ في سقيفة بني ساعدة عندما اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة فقالوا: منّا أميرٌ ومنكم أمير، فذهب إليهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، فذهب عمر يتكلّم فأسكته أبو بكر، وكان عمر يقول: والله ما أردتُ بذلك إلا أني قد هيئت كلاماً قد أعجبني خشيتُ ألا يبلغه أبو بكر. ثم تكلّمَ أبو بكر فتكّلمَ أبلغَ الناس، فقال في كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء. فقال حباب بن المنذر: لا والله لا نفعل، منا أمير ومنكم أمير. فقال أبو بكر: لا ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء، هم أوسط العرب داراً وأعربهم أحساباً، فبايعوا عمر أو أبا عبيدة. فقال عمر: بل نبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ. فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس. فقال قائل: قتلتم سعد بن عبادة. فقال عمر: قتله الله[٣].

قوله: (فقال حباب: لا والله لا نفعل، منا أمير ومنكم أمير): زاد في رواية ابن عباس أنه قال: (أنا جديلها المحكّك، وعذيقها المرجّب) وشرح هاتين الكلمتين أنا العذيقة بالذال المعجمة تصغير عذق وهو النخلة، المرجب بالجيم والموحدة أي يدعم النخلة إذا كثر حملها، والجديل بالتصغير عود ينصب للإبل الجرباء لتحتك فيه.. ووقع عند ابن سعد من رواية يحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد، فقام حباب بن المنذر وكان بدرياً فقال: مِنّا أميرٌ ومنكم أمير فإنا والله

---

(١) فتح الباري: ٣/ ١١٤.
(٢) المرجع نفسه: ٨/ ١٤٦.
(٣) صحيح البخاري في الفضائل، رقم ٣٦٦٨.

ما ننفس عليكم هذا الأمر ولكنّا نخافُ أن يليه أقوامٌ قتلنا آباءَهم وإخوتَهم.

قال: فقال له عمر: إذا كان ذلك فمت إن استطعت.

قال فتكلّم أبو بكر فقال: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، وهذا الأمر بيننا وبينكم. قال فبايع الناسُ وأولَّهم بشير بن سعد والد النعمان[1].

تجهيزه ﷺ ودفنه:

وبعد أن تمت البيعةُ إلى أبي بكر رضي الله عنه انصرفوا إلى تجهيز النبي ﷺ.

ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما أرادوا غسل رسول الله ﷺ قالوا: واللهِ ما ندري أنجرّدُ رسولَ الله ﷺ من ثيابه كما نجرّدُ موتانا، أو نغسله وعليه ثيابه؟ فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم، حتى ما منهم رجل إلا وذقنه في صدره، فكلمهم مكلّم من ناحية البيت لا يدرون من هو: اغسلوا رسول الله ﷺ وعليه ثيابه. فقاموا فغسلوه وعليه قميصه، يصبّون الماء فوقَ القميص، ويدلكونه بالقميص دون أيديهم. وكانت عائشةُ تقول: لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما غسلَ رسولَ الله ﷺ إلا نساؤه.

وعن ابن عامر قال: كُفِّنَ رسولُ الله ﷺ في ثلاثة أثوابٍ: نجرانية، الحلة ثوبان، وقميصه الذي مات فيه.

زاد في رواية عن عامر الشعبي: وغسّله عليٌّ والفضلُ وأسامةُ رضي الله عنهم، وهم أدخلوه قبره[2].

وعن مالك قال: بلغني أنَّ رسول الله ﷺ توفي يوم الإثنين، ودفن يوم الثلاثاء، وصلى عليه الناس أفراداً لا يؤمهم أحد. فقال ناسٌ: يدفُنُ عندَ المنبر. وقال آخرون: بالبقيع. فجاء أبو بكر فقال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «ما دُفِنَ نبيٌّ إلا مكانه الذي توفي فيه»، فحفر له فيه. فلما أرادوا غسله أرادوا نزع قميصه

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٣١.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه.

فسمعوا صوتاً يقول: لا تنزعوا القميص. فغسل وهو عليه[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جعل تحت رسول الله ﷺ في قبره قطيفة حمراء[2].

وعن محمد بن علي بن الحسين قال: الذي ألحدَ قبرَ رسول الله ﷺ أبو طلحة، والذي ألقى القطيفةَ تحته شقران مولاه رضي الله عنه[3].

وعن القاسم بن محمد قال: دخلتُ على عائشة رضي الله عنها بيتَها، فقلتُ: يا أم، اكشفي لي عن قبر رسول الله ﷺ وصاحبيه، فكشفت لي عن ثلاثةِ قبورٍ: لا مشرفةٌ ولا لاطئةٌ، مبطوحةٌ ببطحاء العرصة الحمراء أي الفسحة الحمراء[4].

وأخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه رأى قبر النبي ﷺ مسنّماً[5]: أي على هيئة سنام البعير.

* * *

(١) تيسير الوصول: ٤/ ١٧٢.

(٢) أخرجه الترمذي والنسائي.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه.

(٤) أخرجه أبو داود.

(٥) تيسير الوصول: ٤/ ١٧٢.

الفصل الرابع

النبي ﷺ بعد وفاته

حياة الأنبياء في البرزخ:

البرزخُ هو الحائلُ والفاصلُ بين حياة الإنسان في الدنيا وحياته في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠]. أي ومِنْ أمامهم حاجزٌ بينهم وبين الرجعة إلى يوم يبعثون من قبورِهم. وهذا الحاجزُ هو البرزخُ الممتدُّ من موتهم إلى يوم بعثهم من قبورهم.

وللأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعد موتهم حياةٌ برزخيةٌ خاصة، لا شكَّ أنَّها أعلى من حياة الشهداء، التي أخبر الله تعالى عنها في قوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

ويؤكد ذلك أنه ﷺ أخبر أنه رأى ليلةَ أسريَ به موسى عليه السلام وهو يصلي في قبره، ففي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتيتُ - وفي رواية - مررتُ على موسى ليلةَ أسريَ بي عند الكثيبِ الأحمرِ، وهو قائمٌ يصلي في قبرِه»(١).

ورآه أيضاً محرماً ملبياً متوجهاً نحو بيت الله الحرام، ففي الحديث عن ابن عباس قال: سرنا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة فمررنا بوادٍ، فقال: «أيُّ وادٍ هذا؟»، فقالوا: وادي الأزرق، فقال: «كأنِّي أنظرُ إلى موسى ﷺ واضعاً إصبعيه في أذنيه له جُؤارٌ إلى الله بالتلبية، ماراً بهذا الوادي».

قال: ثم سِرْنا حتى أتينا على ثنيةٍ فقال: «أي ثنيةٍ هذه؟»، قالوا: هَرْشَى أو لفت، فقال: «كأنِّي أنظرُ إلى يونسَ على ناقةٍ حمراءَ، عليه جبةُ صوفٍ، خطامُ

---

(١) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٣٧٥.

ناقتِه ليف خلبة، ماراً بهذا الوادي ملبياً»[1].

كما يؤكده أيضاً ما مرَّ معنا في حديث الإسراء والمعراج أنّه التقى الأنبياء، وصلى بهم، وتكلَّم مع بعضهم، كما أخبر ﷺ أنَّه رأى بعضَ الأنبياء وهم يطوفون حول الكعبة المشرفة.

ففي الحديث عن **عبد الله بن عمر** رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أراني اليومَ عند الكعبة ورأيتُ رجلاً آدمَ كأحسن ما أنتَ راءٍ من أدمِ الرجالِ، له لمةٌ كأحسنِ ما أنتَ راءٍ من اللممِ قد رجَّلها، فهي تقطرُ ماءً، متكئاً على رجلين ـ أو على عواتقِ رجلين ـ يطوفُ بالبيتِ، فسألتُ من هذا؟ فقيل: المسيح بن مريم.

وإذا أنا برجلٍ جَعْدٍ قطط أعورَ العينِ اليُمنى كأنَّها عنبةٌ طافيةٌ، فسألتُ مَنْ هذا؟ فقيل: المسيحُ الدجَّالُ»[2].

النبيُّ ﷺ لا يورَثُ، وما تركَه صدقةٌ:

في الحديث عن **عائشة** رضي الله عنها أنَّ فاطمةَ عليها السلام بنتَ النبيِّ ﷺ أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثَها من رسول الله ﷺ مما أفاءَ الله عليه في المدينة وفدَك وما بقيَ من خُمْسِ خيبر. فقال أبو بكر: إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا نُورثُ ما تركنا صدقة» إنما يأكلُ آل محمد ﷺ مِنْ هذا المال، وإنِّي والله لا أغيّرُ شيئاً من صدقةِ رسولُ الله ﷺ عن حالها التي كانت عليها في عهدِ رسول الله ﷺ، ولأعملنَّ فيها بما عملَ به رسول الله ﷺ. فأبى أبو بكر أن يدفعَ إلى فاطمة منها شيئاً.

فوجدت فاطمةُ على أبي بكر في ذلك، فهجرتُه فلم تكلَّمه حتى توفيتْ، وعاشت بعد النبي ﷺ ستةَ أشهر. فلمّا توفيتْ دفنَها زوجُها علي ليلاً، ولم يُؤْذِن بها أبا بكر، وصلّى عليها.

وكان لعليٍّ مِنَ الناس وجهٌ حياةَ فاطمةَ، فلمّا توفيت استنكر عليٌ وجوهَ الناسِ، فالتمسَ مصالحةَ أبي بكر ومبايعتَه، ولم يكن يبايعُ تلك الأشهر، وأرسلَ إلى أَبي بكر: أنْ ائتنا ولا يأتنا أحد معكَ، كراهيةً لمحضر عمرَ، فقال عمر:

---

(١) صحيح مسلم في الإيمان، رقم ١٦٦.

(٢) صحيح البخاري في اللباس، رقم ٥٩٠٢.

لا والله لا تدخلُ عليهم وحدَك، فقال أبو بكر: وما عسيتَم أن يفعلوا بي؟ والله لآتينّهم، فدخل عليه أبو بكر، فتشهّدَ علي فقال: إنّا قد عرفنا فضلك، وما أعطاك الله، ولم ننفَسْ عليك خيراً ساقَه الله إليك، ولكنّك استبددتَ علينا بالأمرِ، وكُنّا نرى لقرابتِنا مِنْ رسول الله ﷺ نصيباً، حتى فاضتْ عينا أبي بكر.

فلمّا تكلّم أبو بكر قال: والذي نفسي بيده لقرابةُ رسول الله ﷺ أحبُّ إليَّ أنْ أصلَ من قرابتي، وأما الذي شجرَ بيني وبينكم من هذه الأموالِ فلم آلُ فيه عن الخيرِ، ولم أترك أمراً رأيتُ رسول الله ﷺ يصنعُه فيها إلا صنعتُه.

وقال علي لأبي بكر: موعدُك العشية للبيعة، فلمّا صلى أبو بكر الظهر رقى على المنبر فتشهّدَ وذكر شأنَ عليٍّ، وتخلُّفه عن البيعة، وعذرَه بالذي اعتذرَ إليه، ثم استغفر.

وتشهدَ عليٌّ، فعظّمَ حقَّ أبي بكر، وحدّثَ أنه لم يحمله على الذي صنعَ نفاسةً على أبي بكر، ولا إنكاراً للذي فضَّلّه الله به، ولكنّا نرى لنا في هذا الأمر نصيباً فاستبدّ علينا، فوجدنا في أنفسنا، فسُرَّ بذلك المسلمون، وقالوا: أصبتَ. وكان المسلمون إلى عليٍّ قريباً حين راجعَ الأمرَ المعروف[1].

وعن **عمرو بن الحارث** قال: ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمةً، إلا بغلتَه البيضاء التي كان يركبُها، وسلاحَه، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة[2].

وفي الحديث أيضاً عن **أبي هريرة** رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقتسمُ ورثتي ديناراً، ما تركتُ بعد نفقة نسائي ومؤونةِ عاملي، فهو صدقةٌ»[3].

بقاء رسالته وأمته بعده ﷺ:

ولم ينقطع فضلُه ﷺ بموته ولم يتوقف، فهو رسول الله تعالى إلى جميع الأجيال المكلّفين من الإنس والجن حتى يرثَ الله سبحانه الأرض ومن عليها.

---

(١) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٢٢٤٠.
(٢) صحيح البخاري في المغازي، رقم ٤٤٦١.
(٣) صحيح مسلم في الجهاد، رقم ١٧٦٠.

وقد مرَّ معنا أنَّه خاتم النبيين والمرسلين، ولهذا تكفَّلَ المولى سبحانه بحفظ رسالته، فحفظ القرآن الكريم المصدرَ الأولَ لرسالته، وأخبر عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وهيأ سبحانه أيضاً مَنْ حفظَ سنته ﷺ، فرسالةُ الإسلام باقيةٌ بعده، كما كانت في حياته، تتداولها الأجيالُ المسلمةُ، يؤديها السلفُ إلى الخلفِ، تنفيذاً لما أمرَ بـه أمتَه في خطبة حجة الوداع عندما قال: «ليبلِّغ الشاهدُ الغائبَ، فإنَّ الشاهدَ عسى أن يبلِّغَ مَنْ هو أوعى منه» ودعوتُه ﷺ مفتوحةٌ على كلِّ زمانٍ ومكانٍ مستمرةٌ إلى قيامِ الساعةِ، فلن تنتهيَ وتموتَ بموته.

التبركُ بآثاره ﷺ:

التبرك بآثـار الأنبياء عليهم الصلاة والسـلام أمرٌ مشروع، دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٣ـ٩٦].

وقد حرص الصحابةُ رضي الله عنهم حرصاً شديداً على التبرك بآثار النبيِّ ﷺ في حياته وبعد وفاته، ومرَّ معنا في صلح الحديبية أنَّ عروة بن مسعود عندما أرسلته قريشٌ إلى النبي ﷺ ليكلِّمه جعل يرمقُ أصحابَ النبي ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تنخَّمَ رسول الله ﷺ نخامةً إلا وقعت في كفِّ رجلٍ منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه(١). زاد ابن إسحاق: ولا يسقطُ من شعرِه شيءٌ إلا أخذوه.. وفيه طهارة النخامة والشعر المنفصل والتبرك بفضلات الصالحين الطاهرة(٢).

وهذا الحرصُ كان عند الصحابة جميعاً، سواء كانوا رجالاً أو نساءً، صغاراً أو كبـاراً، ففي الحديث عن **أنس بن مالك** قال: دخل علينـا النبي ﷺ

---

(١) صحيح البخاري في الشروط، رقم ٢٧٣١.
(٢) فتح الباري: ٥/ ٣٤١.

فقال عندنا[1]، فعرقَ، فجاءت أُمي بقارورة، فجعلتْ تسلتُ العرقَ فيها ـ أي تمسحُه ـ فاستيقظَ النبي ﷺ فقال: «يا أمَّ سُليم ما هذا الذي تصنعينَ» قالت: هذا عرقُك نجعلُه في طيبنا، وهو من أطيبِ الطيبِ.

وعن أنس رضي الله عنه أيضاً قال: كان النبيُّ ﷺ يدخُل بيتَ أمِّ سُليمٍ فينامُ على فراشِها، وليست فيه. قال: فجاء ذات يوم، فنام على فراشها، فأتتْ فقيل لها: هذا النبيُّ ﷺ نام في بيتك على فراشك، قال: فجاءت وقد عَرِقَ واستنقعَ عرقُه على قطعةِ أديمٍ على الفراش، ففتحت عَتِيْدَتَها[2]، فجعلت تنشّفُ ذلك العرق فتعصرُه في قواريرها، ففزعَ النبي ﷺ ـ أي استيقظ ـ فقال: «ما تصنعينَ يا أمَّ سُليم؟» فقالت: يا رسول الله ﷺ نرجو بركتَه لصبياننا. قال: «أصبتِ»[3].

ونظراً لحرص أمِّ سليم والدة أنس رضي الله عنهما على التبرك بآثاره الشريفة ﷺ، كان يخصُّها ببعضِ شعرِ رأسِه الشريفِ عندما كان يحلق، فقد روى الإمام أحمد في (مسنده) عن أنس قال: لما حلقَ رسولُ الله ﷺ بمنى أخذ شِقَّ رأسِه الأيمن بيدِه، فلمّا فرغَ ناولني فقال: «يا أنسُ انطلق بهذا إلى أمِّ سُليم» فلما رأى الناسُ ما خصَّها به من ذلك تنافسوا في الشق الآخر، هذا يأخذ الشيء، وهذا يأخذ الشيء. قال محمد بن سيرين أحدُ كبارِ علماء التابعين: فحدثْهُ عَبيدة السلماني فقال: لئن يكونَ عندي شعرةٌ أحبُّ إليَّ من كلِّ صفراء وبيضاءَ أصبحتْ على وجهِ الأرض وفي بطنِها.

وعن أنس قال: لقد رأيتُ رسول الله ﷺ والحلاق يحلقُه، وأطافَ به أصحابُه، فما يريدون أن تقع شعرةٌ إلا في يد رجل[4].

وفي (مسند أحمد) أيضاً عن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ دخلَ على أم سليم، وفي البيت قربة معلقة، فشرب من فيها وهو قائم، فقطعتْ أمُّ سُليم فمَ القربةِ، فهو عندنا[5].

---

(١) أي نام للقيلولة.
(٢) هي كالصندوق الصغير تجعلُ المرأةُ فيها ما يعزّ من متاعها.
(٣) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٣٣١.
(٤) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٣٢٥.
(٥) أنس بن مالك الخادم الأمين والمحب العظيم، للمؤلف ضمن سلسلة أعلام المسلمين=

وكان **أنس بن مالك** يحتفظ بإناءٍ شربَ منه النبي ﷺ تبركاً بالأثرِ الشريف.

قال حجاج بن حسان: كنا عند **أنس بن مالك** فدعا بإناءٍ وفيه ثلاثة ضباب حديد، وحلقة من حديد، فأُخرجَ من غلافٍ أسودَ، وهو دون الربع وفوق نصف الربع، فأمر أنس بن مالك فجعل لنا فيه ماء، فأتينا به فشربنا، وصببنا على رؤوسنا ووجوهنا، وصلينا على النبي ﷺ(١).

وكان أهل المدينة المنورة يتبرّكون بالماء الذي يمسه النبيُّ ﷺ، فما كانوا يشربون ماءً حتى يغمسَ النبيُّ ﷺ يده فيه، ففي الحديث عن **أنس بن مالك قال**: كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداةَ جاء خدمُ المدينةِ بآنيتهم فيها الماء، فما يُؤتى بإناءٍ إلا غمَسَ يدَه فيها، فربما جاؤوه في الغداةِ الباردةِ فيغمس يده فيها(٢).

وبوَّب الإمام البخاري في (صحيحه) باباً خاصاً قال فيه: باب شرب البركة، والماء المبارك. وروى بسنده عن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما قال: قد رأيتني مع النبيِّ ﷺ، وقد حضرتُ العصرَ، وليس معنا ماء غير فضلة، فجُعل في إناءٍ، فأتي النبيُّ ﷺ به فأدخلَ يدهُ فيه، وفرّجَ أصابعه، ثم قال: «حيَّ على أهلِ الوضوءِ، البركةُ من الله» فلقد رأيتُ الماءَ يتفجرُ مِنْ بينِ أصابعه، فتوضأ الناس وشربوا، فجعلتُ لا آلو ما جعلتُ في بطني منه، فعلمتُ أنّه بركة(٣).

ومع شدة قرب أمهات المؤمنين من النبي ﷺ وكثرة مخالطتهن له، كنّ يحرصنَ على التبرّكِ بآثاره، ففي الحديث عن **أبي موسى الأشعري قال**: كنتُ عند النبي ﷺ وهو نازلٌ بالجعرانة بين مكة والمدينة، ومعه بلالٌ، فأتى رسولَ الله ﷺ رجلٌ أعرابيٌّ فقال: ألا تنجز لي يا محمد ما وعدتني؟، فقال له رسول الله ﷺ: «أبشر» فقال له الأعرابي: أكثرتَ علي مِنْ «أبشر».

فأقبلَ رسول الله ﷺ على أبي موسى وبلال كهيئةِ الغضبانِ، وقال: «إنّ هذا

= التي تصدرها دار القلم بدمشق.

(١) المرجع السابق من مسند أحمد.

(٢) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٣٢٤.

(٣) صحيح البخاري في الأشربة، رقم ٥٦٣٩.

ردَّ البُشرى فاقبلا أنتما»، فقالا: قبلنا يا رسول الله، ثم دعا رسول الله ﷺ بقدحٍ فيه ماء، فغسل يديه ووجهه فيه، ومجَّ فيه ـ أي جعل ريقَه فيه ـ ثم قال: «اشربوا منه، وأفرغا على وجوهكما، ونحورِكما وأبشرا»، فأخذا القدحَ، ففعلا ما أمرهما به رسول الله ﷺ، فنادتهما أمُّ سلمة من وراء السِّتْرِ: أفضلا لأمِّكما مما في إنائكما. فأفضلا لها منه طائفة[1].

وكانوا رضي الله عنهم يستشفون بالماءِ الذي يتوضأ به النبي ﷺ، ففي الحديث عن جابر رضي الله عنه قال: مرضتُ مرضاً، فأتاني النبيُّ ﷺ يعودني وأبو بكر، وهما ماشيان، فوجدني أُغميَ عليَّ، فتوضأ النبي ﷺ، ثم صبَّ وضوءَه عليَّ، فأفقت فإذا النبي ﷺ، فقلتُ: يا رسول الله ﷺ كيف أصنعُ في مالي؟ كيف أقضي في مالي؟ فلم يجبني بشيء حتى نزلت آية الميراث[2].

وكان أهل المدينة يحملون أطفالهم حديثي الولادة قبل إرضاعهم إلى النبي ﷺ ليحنكهم، فيكونُ ريقُه الشريفُ أولَ شيء يدخل بطونهم، فعندما ولدت أمُّ سليم قالت: يا أنس لا يرضعه أحدٌ حتى تغدو به على رسول الله ﷺ. فلمّا أصبحَ احتملتُه، فانطلقتُ به إلى رسول الله ﷺ، قال فصادفته ومعه ميسم[3]، فلمّا رآني قال: «لعلَّ أمَّ سُليمٍ ولدتْ؟»، قلت: نعم، فوضع الميسم، قال: وجئتُ به فوضعتُه في حجره، ودعا رسول الله ﷺ بعجوةٍ من عجوةِ المدينة، فلاكها في فيه حتى ذابت، ثم قذفها في في الصبيِّ، وجعلَ الصبيُّ يتلمظها[4]، فقال رسول الله ﷺ: «أنظروا إلى حُبِّ الأنصارِ التمرَ» قال: فمسحَ وجهَه، وسمّاه عبد الله[5].

* * *

(١) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٤٩٧.

(٢) صحيح البخاري في المرضى، رقم ٥٦٥١.

(٣) هي الآلة التي يكوى به الحيوان من الوسم وهو العلامة.

(٤) أي يتتبع بلسانه بقيتها ويمسح به شفتيه.

(٥) انظر الحديث كاملاً في صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢١٤٤.

الفصل الخامس

خصائص أمة محمد ﷺ

أمته ﷺ خير الأمم:

وأمّةُ النبيِّ ﷺ خيرُ الأمم، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقد اختارها سبحانه وتعالى من بين الأمم ليشرّفها بحمل رسالة الإسلام فقال: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]. وقال أيضاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ﴾ [البقرة: ١٤٣]. والوسط الخيار والأجود، كما يقال: قريشٌ أوسط العرب داراً، أي خيرُها. وكان رسولُ الله ﷺ وسطاً في قومه أي أشرفهم نسباً.

ولمّا جعل الله هذه الأمة وسطاً، خصّها الله تعالى بأكمل الشرائع، وأقوم المناهج، وأوضحِ المذاهب[١].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: «خيرُ الناسِ للناسِ تأتونَ بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام»[٢].

وفي الحديث عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول في هذه الآية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: «أنتم متمون سبعين أمة أنتم خيرُها وأكرمُها على الله». وهو حديث حسن صحيح أخرجه الترمذيُّ

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٥٥٧.

وحسّنه، وابن ماجه، والحاكم وصححه، وله شاهِدٌ مرسل عن قتادة عند الطبري رجاله ثقات.

وفي حديث **علي** عند أحمد بإسنادٍ حسنٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «وجُعِلَتْ أُمتي خيرَ الأمم»[1].

ومهما ضعفت فقد قدر الله بقاءها مع بقاء الدنيا وامتداد عمرها، ويبقى فيها من يتمسكون بالحق، ويثبتون عليه، ففي الحديث عن **المغيرة بن شعبة** عن النبي ﷺ قال: «لا يزالُ ناسٌ من أُمتي ظاهرين، حتى يأتيهم أمرُ الله وهم ظاهرون»[2].

وعن **معاوية** رضي الله عنه قال سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «لا يزالُ مِنْ أُمتي أُمةٌ قائمةٌ بأمرِ الله، لا يضرُّهم من خذَلهم، ولا من خالَفهم، حتى يأتيهم أمرُ الله وهم على ذلك»[3].

أمته ﷺ أكثر الأمم:

وهي **أكثـر الأمم**، ففي الحديث عن **ابن عبـاس** قال: قال النبيُّ ﷺ: «عُرِضَتْ عليَّ الأمم، فأخذَ النبيُّ ﷺ يمرُّ معه الأمة، والنبيُّ يمرُّ معه النفرُ، والنبيُّ يمرُّ معهم العشرةُ، والنبيَّ يمرُّ معه الخمسةُ، والنبيُّ يمرُّ وحدَه. فنظرتُ فإذا سوادٌ كثيرٌ قلتُ: يا جبريلُ هؤلاء أمتي؟، قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرتُ فإذا سوادٌ كثير، قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفاً قدّامهم، لا حسابَ عليهم ولا عذاب، قلت: ولم؟، قال: كانوا لا يَكْتَوون، ولا يَسْتَرْقون، ولا يتطيَّرون، وعلى ربِّهم يتوكلون»، فقام إليه عكاشة بن محصن فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم، قال: «اللهم اجعلـه منهم»، ثم قـام إليه رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عُكاشة»[4].

وعن **أبي هريرة** أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما مِنْ الأنبياء نبيٌّ إلا قد أُعْطيَ مِنَ

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٢٢٥.

(٢) صحيح البخاري في الاعتصام، رقم ٧٣١١.

(٣) المرجع السابق في المناقب، رقم ٣٦٤١.

(٤) صحيح البخاري في الرقاق، رقم ٦٥٤١.

الآيات ما مثله آمنَ عليه البشرُ، وإنّما كان الذي أوتيتُ وحياً أوحى الله إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهم تابعاً يومَ القيامةِ»[1].

وعن **أنس بن مالك** قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أكثرُ الأنبياءِ تبعاً يومَ القيامةِ، وأنا أولُ مَنْ يقرعُ بابَ الجنةِ»[2].

وأمتُه ﷺ **نصفُ أهلِ الجنة**، ففي الحديث عن عبد الله بن مسعود قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «أما ترضونَ أن تكونوا ربعَ أهلِ الجنة؟» قال: فكبّرنا، ثم قال: «أما ترضون أن تكونوا ثُلُثَ أهل الجنة؟». قال: فكبرنا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا شطرَ أهلِ الجنة. وسأخبركم عن ذلك، ما المسلمونَ في الكفار إلا كشعرةٍ بيضاءَ في ثورٍ أسودَ أو كشعرةٍ سوداءَ في ثورٍ أبيضَ»[3].

الآخرون السابقون:

وأمتُه ﷺ هم الآخرون خلقاً وزماناً، والسابقون فضلاً وثواباً، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [النحل: ١٢٤]، أي جعل السبت على الذين اختلفوا في شأنه مع نبيهم موسى عليه السلام، إذ أمرهم بيوم الجمعة فخالفوه، واختاروا يوم السبت.

وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيدَ أنَّهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، وهذا يومُهم الذي فُرِضَ عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فهم لنا فيه تبعٌ، فاليهود غداً، والنصارى بعدَ غدٍ»[4].

لا يسلّط الله على أمتِه مَنْ يستأصلهم:

لا يسلِّطُ الله تعالى على الأمة الإسلامية عدواً من غيرهم يستأصلُهم

(١) صحيح مسلم في الإيمان، رقم ١٥٢.
(٢) المرجع السابق، رقم ١٩٦.
(٣) المرجع السابق في الإيمان، رقم ٢٢١.
(٤) صحيح مسلم في كتاب الجمعة، رقم ٨٥٥.

استئصالاً كاملاً، ففي الحديث عن **ثوبان** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله زوى لي الأرضَ فرأيتُ مشارقَها ومغاربَها، وإنَّ أمتي سيبلغُ ملكُها ما زُوِيَ لي مِنْها، وأعطيتُ الكنزينِ الأحمرَ والأبيضَ[1]، وإني سألتُ ربي لأمتي أن لا يهلكَها بسنةٍ عامةٍ، وألا يسلِّط عليها عدواً من سوى أنفسهم فيستبيحَ بيضتَهم، وإنَّ ربي قال: يا محمد! إني إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يردُّ، وإنِّي أعطيتُك لأمتكَ أن لا أهلكَهم بسنةٍ عامةٍ، وأن لا أسلِّطَ عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيحُ بيضتَهم، ولو اجتمعَ عليهم مَنْ بأقطارها ـ أو قال مِنْ بين أقطارِها ـ حتى يكونَ بعضُهم يهلك بعضاً فيسبي بعضهم بعضاً»[2].

ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤١] أي بتسليط الكافرين على المؤمنين تسليطاً كاملاً يؤدي إلى استئصالهم.

أمته ﷺ أعظم الأمم ثواباً:

في الحديث عن **ابن عمر** رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مثلكُم ومثلُ أهلِ الكتابين كمثلِ رجلٍ استأجرَ أُجراءَ، فقال: مَنْ يعملُ لي مِنْ غدوةٍ إلى نصفِ النهارِ على قيراطٍ؟ فعملتِ اليهودُ.

ثم قال: مَنْ يعملُ لي مِنْ نصفِ النهارِ إلى صلاةِ العَصْرِ على قيراطٍ؟ فعملتِ النصارى.

ثم قال: مَنْ يعملُ لي مِنَ العَصْرِ إلى أن تغيبَ الشمسُ على قيراطين؟ فأنتم هم.

فغضبت اليهود والنصارى فقالوا: ما لنا أكثر عملاً وأقل عطاء؟، قال: هل نقصتُكم من حقِّكم؟، قالوا: لا، قال: فذلك فضلي أُوتيه من أشاء»[3].

ويؤيد ذلك ما وردَ في سبب نزول سورة القَدْرِ، أخرجَ ابنُ المنذر وابنُ أبي

---

(١) المراد بالكنزين الذهب والفضة، وهما كنزا كسرى وقيصر ملكي العراق والشام.
(٢) صحيح مسلم في الفتن، رقم ٢٨٨٩.
(٣) صحيح البخاري في الإجارة، رقم ٢٢٦٩.

حاتم والبيهقي في (سننه) عن **مجاهد** أنَّ النبيَّ ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبسَ السلاحَ في سبيل الله تعالى ألفَ شهرٍ، فعجبَ المسلمونَ من ذلك، وتقاصرتْ إليهم أعمالُهم، فأنزل الله تعالى السورة.

وذكر الإمام مالك في (الموطأ) أنَّ النبيَّ ﷺ أري أعمار الأمم كافةً، فاستقصرَ أعمارَ أمته، وخاف ألا يبلغوا من العمل مثلَ ما بلغَ غيرُهم في طولِ العمرِ، فأعطاه الله تعالى ليلةَ القدرِ.

أمته ﷺ لا تجتمع على ضلالة:

دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء ١١٥] لقد دلت الآية على أنَّ الله تعالى حفظَ المؤمنين من الاجتماع على الخطأ والضلال، فلا تجتمعُ آراؤهم على ضلالة، وجاء في الأثر عن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه قال: ما رآه المسلمون حسناً فهو عندَ اللهِ حسنٌ[١].

وهذه الآية دليلٌ في رأي كثيرٍ من العلماء على **حُجيةِ الإجماعِ**، وهو اتفاقُ آراءِ العلماءِ على حكم قضيةٍ حادثةٍ لا نصَّ فيها.

قال ابن كثير: ﴿ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكونُ المخالفةُ لنص الشارع، وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما عُلِمَ اتفاقُهم عليه تحقيقاً، فإنّه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ، تشريفاً لهم، وتعظيماً لنبيهم.

وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذلك، ومن العلماء من ادعى تواتر معناها، والذي عوّلَ عليه الشافعيُّ في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفته، هذه الآية الكريمة، بعد التروي والفكر الطويل، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها.

وروى الإمام أحمد والطبراني في (الكبير) وابن أبي خيثمة في (تاريخه)

---

(١) رواه أحمد والبزار والطيالسي وأبو نعيم، وهو موقوف حسن.

عن **أبي نضرة الغفاري** في حديث: «سألتُ ربي ألا تجتمعَ أُمتي على ضلالـةٍ فأعطانيها».

وعن **ابن عباس** رفعه بلفظ: «لا يجمعُ الله هذه الأمة على ضلالةٍ، فيدُ اللهِ مع الجماعة».

وعند الترمذي وابن ماجه عن **أنس** رفعه: «إنَّ أمتي لا تجتمعُ على ضلالةٍ، فإذا رأيتم الاختلافَ فعليكم بالسوادِ الأعظمِ».

إمامها في الصلاة منها:

ففي الحديث عن **أبي هريرة**، أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنتم إذا نزلَ ابنُ مريم فيكم، وإمامُكم مِنْكم»[1].

وعن **جابر بن عبد الله** قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ: «لا تزالُ طائفةٌ من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى بن مريم فيقولُ أميرُهم: تعال صلِّ بنا، فيقول: ألا إنَّ بعضَكم على بعضٍ أمراء تكرمةُ الله هذه الأمة»[2].

* * *

(١) رواه البخاري، رقم ٣٤٤٩.

(٢) صحيح مسلم في الإيمان، رقم ١٥٥ ـ ١٥٦.

الفَصْلُ السَّادِسُ

أزواج النبي ﷺ وآل بيته

أزواجه ﷺ:

أزواج النبي ﷺ اللواتي شرَّفهن الله تعالى بزواج النبي ﷺ منهن: السيدة خديجة رضي الله عنها، لم يتزوج في حياتها غيرَها، والتي تُوفِّيت قبلَ الهجرة كما مرَّ معنا.

وتزوج بعدها خمساً من قريش، هنّ: عائشة، وحفصة، وأم حَبيبة، وسَوْدة، وأم سَلَمة رضي الله عنهن.

كما تزوج صَفِيّةَ بنت حُيي النضرية، ومَيْمونةَ بنتِ الحَارِث الهلالية، وزَينبَ بنتَ جحشٍ الأسديةِ، وجُويريةَ بنت الحارثِ المصطلقية.

فهن تسعٌ تشرفنَ بزواج النبيِّ ﷺ، واجتمعن عنده، وتوفين بعدَه. أما خديجة بنت خويلد وزينب بنت خزيمة رضي الله عنهما فقد توفيتا قبله ﷺ.

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه أنّه مشى إلى النبيِّ ﷺ بخبزِ شعير وإهالة سنخة[1].

ولقد رهن النبيُّ ﷺ درعاً له بالمدينة عند يهودي، وأخذ منه شعيراً لأهله، ولقد سمعتُه يقول: «ما أمسى عندَ آل محمّدٍ ﷺ صاعُ برٍ ولا صاعُ حَبٍّ، وإنَّ عندَه لتسعُ نسوةٍ»[2].

تكريمهنّ، وتحريمُ نكاحهنَّ بعدَه ﷺ:

كرَّم الله تعالى أزواجَ النبيِّ ﷺ، ورفعهنّ إلى مقام الأمومة لجميع المؤمنين

---

(١) سنخة: متغيرة.

(٢) صحيح البخاري في البيوع، رقم ٢٠٦٩.

والمؤمنات فقال: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾ [الأحزاب: ٦]، فلهنّ رضي الله عنهن عند جميع المؤمنين والمؤمنات منزلةُ الأمهات، في وجوب تعظيمهنّ، واحترامهنّ، وتحريم نكاحهنّ. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٣] أي ذنباً عظيماً، وهذا من أعلام تعظيم اللهِ رسولَه ﷺ، وإيجابِ حرمتِه حياً وميتاً.

كما أنّه تعظيمٌ لحرمة أمهات المؤمنين، وتأكيدٌ لمقام الأمومة الذي شرفهنّ الله تعالى به، فلهنَّ رضي الله تعالى عنهن هذا المقامُ الرفيعُ في حياته ﷺ وبعد وفاته.

زينب وزيد رضي الله عنهما:

وقصة زواج النبي ﷺ من السيدة زينب رضي الله عنها، تبين بعضَ حكمته تعالى في تخصيصِ النبي ﷺ بالزواج من تسع زوجاتٍ، وأنَّه تعالى سخّرَ حياةَ النبي ﷺ الخاصة لرفع صرحِ المجتمعِ الإسلاميِّ، وهدمِ العادات والأعرافِ الجاهلية السائدة في المجتمع العربي.

وقد سبقَ أن مَهَّدتِ الآياتُ في صدر سورة الأحزاب لهذا الموضوع عندما حرّمتْ أن ينتسبَ الإنسانُ إلى غيرِ أبيه.

خطب النبيُّ ﷺ السيدة زينب بنت جحش الأسدية، بنتَ عمته أُميمة بنت عبد المطلب، لمولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، فاستنكفت عنه وقالت: أنا خيرٌ منه حسباً، فأنزل الله قوله الكريم: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ولما نزلت هذه الآية رضيت زينبُ بزيدٍ، فتزوجته، وعاشت معه قرابةَ سنةٍ أو أكثر، إلا أنها كانت تُدِلُّ عليه بحسبها، وكان زيدٌ يشكوها للنبيِّ ﷺ فيقول له: «أمسك عليك زوجك واتق الله»، ويخفي ﷺ في نفسه ما أخبره الله تعالى به أنَّها ستكونُ زوجةً له: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ

عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: واذكر إذ تقول لزيد الذي أنعم الله عليه بالهداية للإسلام، وأنعمتَ عليه بحسن التربية والإعتاق: أمسك عليك زوجك، واتق الله في أمرها، ولا تطلقها.

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: وتخفي في نفسِكَ أنّها ستكونُ زوجتك، والله منجزٌ هذا الأمرَ ومظهره.

﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ أي: وتخاف لومَ الناسِ وتعييرَهم إياك أنك تزوجتَ زوجةَ ولدِك بالتبني، والله أحقُ أن تخشاه.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ أي: لما قضى زيد منها حاجته، ولم يبقَ له فيها رغبةً وطلقها، وانقضت عدتها، زوجناكها. فالله جل جلاله هو الذي زوجها من رسول الله ﷺ بدون ولي ولا شهود.

فعن أنس بن مالك قال: جاء زيدٌ بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: «اتق الله وأمسك عليك زوجك» قال أنس: فلو كان رسولُ الله كاتماً شيئاً لكتم هذه.

وكانت زينبُ تفخَرُ على أزواج رسول الله ﷺ تقول: زوجكنَّ أهاليكنّ، وزوجني الله من فوق سبع سماوات[1].

ثم بين تعالى الحكمة من ذلك فقال: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] أي: زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين إثمٌ وضيقٌ إذا تزوجوا أزواجَ أدعيائهم بالتبني بعد طلاقهن، وانقضاء عدتهن، بخلاف زوجةِ الولد الصلبي، فإنها لا تحلُّ لأبيه أبداً لقوله تعالى في آية المحرمات ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

وكان زواجه ﷺ من أمهات المؤمنين خيراً على الإسلام ودعوته في حياته وبعد وفاته، ففي حياته كان سبباً لنشر دين الله بين القبائل التي أكرمها الله بمصاهرة النبي ﷺ.

---

(١) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٥١٢٠.

انظر مثلاً إلى نتائج زواجه ﷺ من السيدة جويرية بنت الحارث سيد بني المُصْطَلِق. قالت السيدة عائشة: لما تسامع الناسُ أنَّ رسول الله ﷺ تزوّجَ جويرية، أرسلوا ما في أيديهم من السبي فأعتقوهم، وقالوا: أصهارُ رسول الله ﷺ، فما رأينا امرأةً كانتْ أعظمَ بركةً على قومها منها، أعتق في سببها مئة أهل بيت من بني المُصْطَلِق[1].

وظهر بعد وفاته ﷺ فضلُ أمهات المؤمنين في **حفظ السنة، وتعليمها ونشرها بين الناس**، وبخاصة سنته ﷺ في بيته، التي لم يطلع عليها في الأغلب أحدٌ سوى أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، فكانت حُجراتهنَّ مدارسَ أسسها ﷺ لأمتِه لنشرِ العلم والسنة، وهذا من حكمة الله ورحمته بهذه الأمة، إذ جعل من أزواج صاحب الرسالة من تعيد سيرتَه المطهرة خمسينَ سنةً، تنشُرُ تفاصيلها للناسِ كأنَّ الوحيَّ لم ينقطع، وكأنَّهم من أنوارِه في شمسٍ لا يلم بها أفول[2]

غيرة أزواجه ﷺ:

وما حدثَ بينهنَّ رضي الله عنهن من الغيرةِ والتنافس لكسب المزيد من محبةِ النبيِّ ﷺ لهنَّ، أمرٌ طبيعي وفطري عند جميع النساء، فقد كان ﷺ يحرصُ على المساواة بين نسائه فيسوي بينهنَّ في المعاملة قدر ما يستطيعُ، مع أنَّ التسوية غيرُ واجبةٍ عليه كما سيأتي معنا.

وقد أوجبَ الله تعالى التسويةَ وكلَّفَ بها المؤمنين، فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣] فقد أمر الله تعالى بالاقتصار على الواحدة عند خوف الجَوْرِ، فدلَّ على إيجابه.

والمراد منه التسوية بين الزوجات في النفقة والصحبة، أي المعاشرة الزوجية والمؤانسة، لا في المحبة والمجامعة، لأنَّ المحبةَ من أعمال القلب، ولا سلطان للإنسان على قلبه، قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ

---

(١) سنن أبي داود.

(٢) انظر كتاب السيدة عائشة للمؤلف.

وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤] وقال أيضاً: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقسمُ بين نسائه، فيعدل ويقول: «اللهمَّ هذا قَسْمي فيما أملكُ، فلا تلمني فيما تملِكُ ولا أمْلِكُ»[١].

ورغم المعاملة الطيبة التي حظيت بها أمهاتُ المؤمنين عند النبي ﷺ، ورغم لطفه بهنَّ، وحرصه الشديد على التسوية بينهنَّ في المعاملة فقد أدركهنَّ ما يدرك الضرائرَ من الغَيرة والمنافسة، ففي الحديث عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: أرسل أزواجُ النبي ﷺ فاطمة بنت رسول الله ﷺ فاستأذنتْ عليه وهو مضطجعٌ معي في مُرْطي، فأذنَ لها.

فقالت: يا رسول الله! إنَّ أزواجك أرسلنني إليك، يسألنك العدلَ في ابنةِ أبي قُحافة. وأنا ساكتةٌ، قالت: فقال لها رسول الله ﷺ: «أيْ بنية ألستِ تحبينَ ما أُحبُّ؟»، فقالت: بلى، قال: «فأحبِّي هذه».

قالت: فقامت فاطمة حين سمعتْ ذلك من رسول الله ﷺ فرجعتْ إلى أزواج النبي ﷺ فأخبرتهن بالذي قالتْ، وبالذي قال لها رسول الله ﷺ.

فقلن لها: ما نراكِ أغنيتِ عنّا مِنْ شيءٍ، فارجعي إلى رسول الله ﷺ فقولي له: إنَّ أزواجَكَ ينشدنكَ العدلَ في ابنة أبي قحافة، فقالت فاطمة: والله لا أكلمه فيها أبداً.

قالت عائشة: فأرسل أزواجُ النبي ﷺ زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ، وهي التي كانت تساميني منهنَّ في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أر امرأةً قط خيراً في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصلَ للرحم، وأعظم صدقةً، وأشدَّ ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدقُ به، وتقربُ به إلى الله تعالى،

---

(١) رواه أصحاب السنن الأربعة. وقال الترمذي: يعني به الحب والمودة. انظر الفقه الحنفي في ثوبه الجديد: ٢/ ١٤٢. ط دار القلم بدمشق

ما عدا سورة[1] من حَدٍّ كانت فيها، تسرعُ منها الفيئة ـ الرجوع ـ قالت فاستأذنتُ على رسول الله ﷺ ورسولُ الله ﷺ مع عائشة في مُرْطِها على الحالة التي دخلتْ فاطمة عليها وهو بها، فإذنَ لها رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إنَّ أزواجَك أرسلنني إليك، يسألنك العدلَ في ابنة أبي قحافة.

قالت: ثم وقعتْ بي فاستطالتْ عليَّ. وأنا أرقبُ رسول الله ﷺ وأرقبُ طرفَه هل يأذن لي فيها؟ قالتْ: فلم تبرحْ زينبُ حتى عرفتْ أن رسول الله ﷺ لا يكره أن أنتصرَ. قالت: فلما وقعتُ بها لم أنشبها حين أنحيتُ عليها[2]. قالت: فقال رسول الله ﷺ وتبسم: «إنها ابنة أبي بكر»[3].

المتظاهرتان عليه من أزواجه ﷺ:

ومن آثار غيرةِ أزواجِه ﷺ أنَّ سيدتين منهنّ، وهما عائشةُ وحفصةُ رضي الله عنهما، تظاهرتا عليه، حتى أنزل الله في ذلك قولَه الكريم: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤].

ولا يخفى ما في خطاب الله تعالى لهما من عتابٍ وتأديبٍ، فقوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ﴾. أي: إن تتوبا إلى الله فهو الواجبُ عليكما، فقد وجدَ منكما ما يوجِبُ التوبةَ، وهو ميل قلوبكما عن الحقّ، فقد سرّهما ما كره رسول الله ﷺ، وهو الامتناع عن شرب العسل عند السيدة زينب رضي الله عنها.

ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يشربُ عسلاً عند زينب بنت جحش ويمكثُ عندها، فواطأتُ أنا وحفصةُ عن أيتنا دخلَ عليها فلتقل له: أكلتَ مغافير؟ إنِّي أجدُ منك ريحَ مغافير.

قال: «لا ولكنّي كنتُ أشربُ عسلاً عند زينبَ بنت جحش، فلن أعودَ إليه، وقد حلفتُ لا تخبري بذلك أحداً»[4].

---

(١) السورة الثوران وعجلة الغضب.

(٢) أي لم أمهلها حتى قمعتها وقهرتها.

(٣) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٤٤٢.

(٤) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٩١٢.

والمغافير: نباتٌ رائحته كريهة، وكان ﷺ يحبُّ الحلواءَ والطِّيبَ، ويكرهُ الرائحةَ الكريهة.

وقد حرص ابن عباس رضي الله عنه على معرفة المتظاهرتين عليه فقال: مكثتُ سنةً أريدُ أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيعُ أن أسأله هيبةً له، حتى خرجَ حاجاً، فخرجتُ معه، فلما رجعتُ، وكنا ببعضِ الطريق عدل إلى الأراكِ لحاجةٍ له، فوقفتُ له حتى فرغَ، ثم سرتُ معه، فقلت له: يا أمير المومنين من اللتان تظاهرتا على النبيّ ﷺ من أزواجِه فقال: تلك حفصةُ وعائشةُ[1].

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ أي: وإن تعاونا على إيذاء النبي ﷺ بسبب الإفراط بالغيرة، فإنَّ الله وليُّه وناصره، وجبريلُ وليُّه أيضاً وناصره، وكل من صلح من المؤمنين.

فما أعظمَ النبي ﷺ، وما أكرمَه على الله تعالى، فمكانتُه عليه الصلاة والسلام رفيعةٌ عاليةٌ في الملأ الأعلى وبين المؤمنين في الأرض. وأفردت الآية جبريل بالذكر تعظيماً له، وتنبيهاً على علوِّ منزلته ومكانته.

وعن أنس: قال عمر رضي الله عنه اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلتُ لهنَّ: عسى ربه إن طلقكنّ أن يبدله أزواجاً خيراً منكن. فنزلت هذه الآية وهي ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٍ مُّؤۡمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبۡكَارًا﴾ [التحريم: ٥][2].

تشريع أحكام خاصة به مع أزواجه:

ومما أكرم الله تعالى به النبي ﷺ أنّه سبحانه شرع أحكاماً خاصة في تعامله مع أزواجه، خصّه تعالى بها فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن.

وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾ أي: وأحللنا لك أيضاً الجواري المملوكات مما فتح الله عليك.

---

(١) انظر الحديث كاملاً في صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٩١٣.

(٢) المرجع السابق، رقم ٤٩١٦.

وقوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أي: وأحللنا لك النساء القرشيات، اللاتي هاجرن إلى المدينة المنورة.

وقوله: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وأحللنا لك امرأة مؤمنة وهبت نفسها للنبي ﷺ ليتزوجها من غير مهر، فتنال بذلك شرف الزواج منه ﷺ، وهو حكم خاص به دون سائر المؤمنين، وهذا ما أرادت الآية إبرازه.

فللنبي ﷺ أن يتزوجَ من النساء المذكورات ما شاء بمهر أو بغير مهر، ولهذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٠] أي: قد علمنا ما أوجبنا على المؤمنين من حقوق لأزواجهم وإمائهم، فقد فرض الله تعالى على المؤمنين من شروط العقد وحقوقه ما لم يفرض عليه ﷺ تكرمةً له وتوسعةً عليه.

واللواتي وهبن أنفسهنَّ للنبي ﷺ كثيراتٌ، ومع ذلك ما تزوج ﷺ منهن. قال ابن عباس: لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له[1].

وكذلك أكرمه تعالى أيضاً في معاملته لأزواجه: فلم يوجب عليه أن يقسم بينهن كما أوجب على غيره، فقال سبحانه: ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [الأحزاب: ٥١] أي: تؤخّر من تشاء من أزواجك وتترك مضاجعتها، وتضم إليك من تشاء منهنّ من غير التفاتة إلى نوبة وقسم.

وقوله: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أي: وإذا أردت أن ترجع إلى مضاجعة من عزلتَ من أزواجك فلا حرجَ عليك في ذلك، والأمرُ مفوضٌ إلى مشيئتك.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي: ما ذكر من تفويض الأمر إلى مشيئتك أقرب إلى قرة عيونهن،

---

(١) أخرجه الطبري بإسناد حسن كما في فتح الباري: ٨/ ٥٢٦.

وقلة حزنهن، ورضاهن جميعاً، لأنه حكم من الله تعالى، فلتطمئن به نفوسهنَّ، ويذهب منها التنافس والغيرة.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥١] أي: والله يعلمُ ما في الضمائر والخواطر، فاجتهدوا في دفع الخواطر والأفكار السيئة.

ودلت الآية على أنَّ الله تعالى ما كلّفَ النبي ﷺ أن يقسم بين أزواجه، ومع ذلك كان يقسم بينهن تطوّعاً، حتى إنّه كان ـ كما قالت السيدة عائشة ـ يستأذن في يوم المرأة مِنّا، بعد أن أُنزلت عليه هذه الآية ﴿۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُۖ﴾[1]. ومرّ معنا أنَّ النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدلُ ويقول: «اللهمَّ هذا قسمي فيما أملكُ، فلا تلمني فيما تَمْلِكُ ولا أملك»[2].

التخيير والاختيار:

أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يخيّرَ نساءَه عندما سألنَه أن يوسّعَ عليهن في المعيشة، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩].

فقد كان أزواجُ النبيِّ ﷺ يشاركنه شِدّةَ العَيْشِ، وشظفَ الحياةِ، التي كان عليه الصلاة السلام يحياها، ولما أعزّ الله نبيّه عليه الصلاة والسلام، وأظهر دينه بعد فتح مكة، وكثرت الغنائم، ووسع الله على المسلمين، طلبَ أزواجُ النبيِّ ﷺ منه أن يوسّعَ عليهنَّ في العيش، ولكنّه عليه الصلاة والسلام اختار لنفسِه ولأزواجِه عيشةَ الكفاف، وبقي محافظاً عليها، منذ بدأ يدعو إلى الله سبحانه، فلمّا سألنه توسيعَ النفقة غضبَ عليه الصلاة والسلام منهنَّ، واعتزلهنَّ في مشربةٍ له[3]، وأقسَمَ ألا يدخلَ عليهنّ شهراً.

---

(١) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٩٨٩.

(٢) رواه أصحاب السنن.

(٣) مشربة: غرفة عالية.

وفي أثناء ذلك أنزل الله عليه آيتي التخيير، فمكث ﷺ تسعة وعشرين يوماً، ثم دخل على السيدة عائشة فقالت: أليسَ كنتَ قد آليتَ شهراً فعدة الأيام تسع وعشرون[1]، فقال رسول الله ﷺ: «الشهر تسع وعشرون» أي هذا الشهر.

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخيّر أزواجه، قالت: فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال: «إنيّ ذاكرٌ لك أمراً فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك» وقد علمَ أنَّ أبويَّ لم يكونا يأمراني بفراقه. قالت: ثم قال: «إنَّ الله تعالى قال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾ إلى تمام الآيتين، فقلتُ له: ففي أيِّ هذا أستأمرُ أبويَّ؟ فإنِّي أريدُ الله ورسولَه والدارَ الآخرة.

وفي روايةٍ زادت عائشة فقالت: وأسألك ألا تذكرَ لامرأةٍ مِنْ نسائِكَ ما اخترتُ.

فقال ﷺ: «إن الله لم يبعثني معنِّفاً، ولكن بعثني معلِّماً ميسِّراً، لا تسألني امرأةٌ منهنَّ عما اخترتِ إلا أخبرتُها»[2] ولقد اخترنَ كلهنَّ رضي الله عنهن اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرةَ، فكافأهنَّ سبحانه على اختيارهنَّ، فكرَّمهنَّ أحسنَ تكريمٍ، إذ وصلنَ بعد هذا الاختيار إلى مرتبة الإحسان بقوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٩].

الحجرات النبوية وحرمتها:

أثبتت الآياتُ الكريمةُ لبيوتِ النبيِّ ﷺ حرمةً مخصوصةً، وشرعت أحكاماً تنظم دخول الناس إليها وجلوسهم فيها، وقد كانت قبل هذه الآيات مثابةً للناس، وخاصةً أصحاب الحاجات والجائعين:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ أي: لا تدخلوا بيوت النبي ﷺ بغير إذن، وإن أذنَ لكم بالدخول إلى

(١) رواه مسلم في الصيام.
(٢) الزيادة عند مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده.

طعام، فلا تدخلوا قبل نضجِ الطعامِ، وتمكثوا فيها تنتظرون نضجَه.

﴿ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ ﴾ أي: إذا أكلتم فاخرجوا من البيت وتفرقوا.

﴿ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ﴾ أي: ولا تطيلوا الجلوس ليستأنس بعضُكم بحديثِ بعضٍ، فإنَّ جلوسَكم في بيتِ النبيِّ ﷺ يؤذيه، ويضيّق عليه وعلى أهله، وهو عليه الصلاة والسلام يستحيي من إخراجِكم، فلا يحملنّكم شدةُ حيائه على الإثقالِ عليه.

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ أي: إنّ إخراجكم حقٌّ لا ينبغي أن يستحيا منه، ولهذا أمركم الله بالخروج.

وقد روى **أنس بن مالك** رضي الله عنه سببَ نزول هذه الآية فقال: أولم رسولُ الله ﷺ حين بنى بزينب بنت جحش، فأشبعَ الناسَ خبزاً ولحماً، ثم خرجَ إلى حُجَرِ أُمهات المؤمنين، كما كان يصنعُ صبيحةَ بنائه، فيسلِّمُ عليهنَّ، ويدعو لهنَّ، ويسلمنَ عليه ويدعونَ له.

فلما رجع إلى بيته رأى رجلينِ جرى بهما الحديث، فلمّا رآهما رجعَ عن بيته، فلمّا رأى الرجلان رسول الله ﷺ رجعَ عن بيته، وثبا مسرعين، فما أدري أنا أخبرتُه بخروجهما أم أُخبرَ، فرجع حتى دخلَ البيتَ، وأرخى السترَ بيني وبينه، وأُنزلت آيةُ الحجابِ[1].

ثم أكدت الآياتُ حرمةَ أمهاتِ المؤمنين، فأوجبتْ على أصحاب الحاجاتِ أن يكلموهنَّ من وراء حجاب: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ أي: فلا يجوز لأحدٍ أن ينظرَ إلى إحدى أمهات المؤمنين متنقبةً كانت أو غير متنقبة. ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ أي: أطهر من الريب والخواطر الخبيثة. ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٣] أي: ذنباً عظيماً، وهذا من أعلام تعظيم الله لرسوله ﷺ وإيجاب حرمته حياً وميتاً.

---

(١) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٧٩٤.

وصف الحجرات النبوية:

كان الداخلُ إلى المسجد النبوي على عهده ﷺ يرى بيوتاً من جريدِ النخل مستورةً بمسوح الشعر، مصفوفةً تسعَ حجرات في شرقيِّ المسجدِ وشماليه وقبليه، ولمْ يُبْنَ منها شيءٌ جهة الغرب. وأبواب الحجرات شارعةً إلى المسجد. قال الحسن البصري رحمه الله: كنتُ أدخلُ بيوتَ أزواج النبيِّ ﷺ في خلافة عثمان، فأتناولُ سقفَها بيدي.

وحينما أمر الوليد بن عبد الملك بإدخالها في المسجدِ، قال سعيد بن المسيب: ليتها تُرِكتْ فلم تهدمْ، حتى يقصُرَ الناسُ عن البناءِ، ويروا ما رضي الله لنبيه ومفاتيح خزائن الدنيا بيده.

وضُمّتِ الحجراتُ إلى المسجد إلا حجرة السيدة عائشة، فقد بقيت معزولةً عن المسجد، لأنَّ فيها دفن النبيِّ ﷺ وصاحباه. ولا تزال إلى الآن في ظلالِ القُبةِ الخضراء، أنساً لأرواح المؤمنين، وسكناً لقلوب المشتاقين، يسعونَ إليها من مشارق الأرض ومغاربها[1].

أهل البيت:

نوّه الله تعالى بفضلهم في قوله الكريم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

ولا شك أنَّ البيت المراد في الآية الكريمة هو بيت رسول الله ﷺ، وجاء ذكره في الآية بدون وصف ولا إضافة، تكريماً وتشريفاً لرسول الله ﷺ، كأن بيته ﷺ هو البيت الوحيد في هذا العالم المستحق لهذه الصفة.

كما جاء ذكر أهل البيت أيضاً في سورة هود في قوله تعالى وهو يتحدث عن نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٢ ـ ٧٣].

---

(١) انظر كتاب السيدة عائشة للمؤلف من سلسلة أعلام المسلمين الصادرة عن دار القلم بدمشق.

وهذا يدلُّ على أنَّ المراد من أهـل البيت، أهل بيت النبـوة، الذي تمتد شجرته الكريمة في أعماق الزمان، من عهد والد الأنبياء إبراهيم عليه السلام إلى خاتمهم سيدنا محمد ﷺ.

ولقد شرّفَ الله سبحانه وتعالى أمهات المؤمنين رضي الله عنهن وأكرمهنَّ بالانتماء إلى هذا البيت الكريم، عندما تشرفنَ بالزواج من النبي ﷺ، **فالآيةُ نزلتْ بسببهنَّ، والخطابُ موجَّهٌ إليهنَّ، وهذا نصٌّ في دخولهنَّ في أهل البيتِ، لأنهنَّ سببُ نزول الآية، وسببُ النزولِ داخلٌ فيها قولاً واحداً**، كما قال ابن كثير رحمه الله.

وليس المراد أنهنَّ فقط دونَ غيرهنَّ أهلُ البيتِ، فقد روى ابن أبي حاتم عن العوام بن حوشب عن ابن عمٍّ له قال: دخلتُ مع أبي على **عائشة** رضي الله عنها، فسألتُها عن علي رضي الله عنه فقالت: تسألُني عن رجلٍ كان مِنْ أحبِّ الناسِ إلى رسول الله ﷺ، وكانت تحتَه ابنتُه وأحبُّ الناس إليه، لقد رأيت رسول الله ﷺ دعا علياً وفاطمةَ وحسناً وحُسيناً رضي الله عنهم، فألقى عليهم ثوباً فقال: «اللهمَّ هؤلاء أهل بيتي، فأذهبْ عنهم الرجسَ وطهرهم تطهيراً»، قالت: فدنوتُ منهم فقلتُ: يا رسول الله وأنا مِنْ أهلِ بيتك.

فقال ﷺ: «تنحي فإنك على خيرٍ»(١).

وعن صفية بنت شيبة قالت: قالت **عائشةُ**: خرج النبي ﷺ غداةً وعليه مِرْطٌ مرحلٌ(٢) من شعرٍ أسود، فجاء الحسنُ بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣](٣).

والمراد بأهل بيته الذي أوصى بهم، وحرموا الصدقة بعده، ففي الحديث عن يزيد بن حِبّان قال: انطلقتُ أنا وحُصين بن سَبُرَة وعمر بن مسلم إلى زيد بن

---

(١) رواه الترمذي في سننه.
(٢) المِرْط هو كساء، جمعه مروط، والمرحل هو الموشّى المنقوش عليه صور رحال الإبل.
(٣) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٤٢٤.

أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقيتَ يا زيدُ خيراً كثيراً، رأيتَ رسول الله ﷺ، وسمعتَ حديثه، وغزوتَ معه، وصليتَ خلفه، لقد لقيتَ يا زيد خيراً كثيراً، حدِّثنا يا زيدُ ما سمعت من رسول الله ﷺ؟.

فقال: يا ابن أخي والله لقد كبرتْ سني، وقدمَ عهدي، ونسيتُ بعضَ الذي أعي من رسول الله ﷺ، فما حدثتكم فاقبلوا، وما لا فلا تكلِّفونيه. ثم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماءٍ يدعى خُمّاً[1] بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى ووعظ وذكر، ثم قال: «أما بعد ألا أيها الناس فإنَّما أنا بشرٌ يوشِكُ أن يأتي رسولُ ربي فأجيبُ، وأنا تارك فيكم ثقلين[2]: أولهما كتابُ الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتابِ الله، واستمسكوا به» فحثَ على كتابِ الله ورغبَ فيه. ثم قال: «وأهل بيتي، أذكركُم الله في أهل بيتي، أذكِّركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»، فقال له حصين: ومَنْ أهلُ بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟، قال: نساؤه من أهل بيته. ولكنَّ أهل بيته مِنْ حُرِمَ الصدقةَ بعده؟، قال: ومن هم؟، قال: **هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس**، قال: كلُّ هؤلاءِ حُرِمَ الصدقة؟، قال: نعم[3].

ومرّ معنا أنَّ أبا بكر رضي الله عنه كان يوصي الناس بأهل البيت ويقول: أرقبوا محمداً في أهل بيته.

لا عصمة لأهلِ البيتِ:

إنّ لأهلِ البيتِ وأئمتهم مكانةً عالية في قلوب جميع المسلمين، فهم يحبونهم، ويعظمونهم بسبب قرابتهم للنبي ﷺ، لكنهم لا يرون لهم الخصائص والصفات التي ذكرها الشيعة الإمامية في كتبهم، والتي تتعارضُ مع كثيرٍ من المبادئ الإسلامية والأحاديث النبوية الشريفة. فأئمةُ آل البيت غيرُ معصومين، ومعرضون للمسؤولية والحساب عن أعمالهم، شأنهم في هذا شأن عامة الناس.

---

(١) خماً: اسم لغيضة على ثلاثة أميال من الجحفة يقال له غدير خم.

(٢) ثقلين: قال العلماء: سميا ثقلين لعظمهما وكبير شأنهما. وقيل: لثقل العمل بهما.

(٣) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٤٠٨.

ففي (صحيح البخاري) عن أبي هريرة رضي الله عنه: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عليه ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، قال: «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أُغني عنك شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئتِ من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً».

وقد عقد القاضي عياض في كتابه (الشفا) فصلاً خاصاً تحدَّثَ فيه عن مكانة أهل البيت عند المسلمين قال فيه: ومن توقيره ﷺ وبره بر آله وذريته وأمهاتِ المؤمنين أزواجه، كما حضَّ ﷺ، وسلكه السلفُ الصالح رضي الله تعالى عنهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٦].

ثم أورد رحمه الله ما سبق ذكره مما رواه مسلم في (صحيحه) في الفضائل بسنده إلى زيد بن أرقم.

ولأئمة آل البيت صورةٌ كريمة رفيعة غيرُ محاطة بالأساطير والافتراءات التي نُسِجَتْ حولهم في كتب الشيعة الإمامية، ففي (حلية الأولياء) عن سعيد ين المسيب قال: ما رأيتُ أحداً أورعَ من علي بن الحسين.

وقال الزهري: ما رأيتُ قرشياً أفضلَ منه. وكان إذا ذكر علي بن الحسين يبكي ويقول: زين العابدين.

وفيهما أيضاً أنَّه كان يحمل جراب الخبز على ظهره في الليل فيتصدق به.

وكانوا مقتصدين متورعين في انتسابهم إلى الرسول ﷺ، لا يحبون أن يغالى في ذلك مغالاة المتطرفين من أتباع الديانات الأخرى.

ففي (حلية الأولياء) عن يحيى بن سعيد قال: سمعتُ عليَّ بن الحسين يقول لناسٍ اجتمعوا عليه: أحبونا حُبَّ الإسلام لله عزَّ وجلّ، فإنّه ما برحَ بنا حبكم حتى صار علينا عاراً.

وكذلك روى عنه خلف بن حوشب أنه قال: يا معشرَ أهل الكوفة، أحبونا حُبَّ الإسلام، ولا ترفعونا فوق حقنا.

وكانوا دائماً يعرفون للخلفاء الراشدين الثلاثة فضلهم في الإسلام، وحقهم على المسلمين، ويعلنون ذلك على ملأ من الناس.

ففي (صفة الصفوة) عن يحيى بن سعيد قال: أتى علي بن الحسين نفرٌ من أهل العراق، فقالوا في أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فلما فرغوا قال: أشهد أنكم لستم من الذين قال الله تعالى عزَّ وجلَّ فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] أخرجوا فعل الله بكم.

* * *

الفَصل السَابع

كرامة النبي ﷺ يوم القيامة

هو أول من تنشق عنه الأرض:

أخبر بذلك النبيُّ ﷺ، ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيدُ ولدِ آدمَ يوم القيامةِ، وأولُ مِنْ ينشقُّ عنه القبرُ، وأولُ شافعٍ وأولُ مشفَّعٍ»[(١)].

وهو أول من يكسا بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

ففي الحديث عن ابن عباس قال: قام فينا النبي ﷺ يخطبُ فقال: «إنكم محشورون حُفاةً عُراةً غُرْلاً» ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. وإنَّ أول الخلائق يُكسا يومَ القيامـة إبراهيمُ الخليل، وإنّه سيجاءُ برجالٍ من أُمتي، فيؤخذ بهم ذاتَ الشمال، فأقول: يا ربِّ أُصيحابي.

فيقول: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك.

فأقول كما قال العبدُ الصالحُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٧ ـ ١١٨].

قال فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «تحشرونَ حفاةً عراةً غرلاً».

---

(١) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٢٧٨.

قالت عائشة رضي الله عنها: فقلتُ يا رسول الله ﷺ: الرجالُ والنساءُ ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ؟ فقال: «الأمرُ أشدُّ من أن يهمهم ذاك»[١].

ولا يعني هذا أنَّ إبراهيم أفضلُ من نبينا محمد ﷺ، لأن الخصوصيةَ لا تقتضي الأفضليةَ.

والحكمةُ في كونِ إبراهيم أول من يُكسا أنه جُرِّدَ حين أُلقي في النار، وقيل: لأنَّه أول من استنَّ التسترَ بالسروايل، وقيل: إنَّه لم يكن في الأرض أخوفُ لله منه، فعجلت له الكسوة أماناً له، ليطمئنَّ قلبه. وهذا اختيار الحَليمي، والأول اختيار القُرطبي.

قلت: وقد أخرج ابن مندة من حديث حيدة رفعه قال: «أول من يكسا إبراهيم، يقول الله: اكسوا خليلي ليعلم الناسُ اليومَ فضلَه عليهم».

ويحتمل أن نبينا ﷺ خرجَ من قبره في ثيابه الذي مات فيها.. وقد تكونُ أولية إبراهيم في الكسوة بالنسبة لبقية الخلق[٢].

بيده ﷺ لواء الحمد:

ويكرم الله تعالى النبي ﷺ يومَ القيامة أيضاً بلواء الحمد، لأنَّه سيدُ الحامدين الشاكرين، وقد كان ﷺ يقومُ من الليلِ حتى تتفطرَ قدماه، فإذا قيلَ له في ذلك قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيدُ ولدِ آدم يوم القيامةِ ولا فخرَ، وبيدي لواءُ الحَمْدِ ولا فخرَ، وما مِنْ نبيٍّ يومئذٍ: آدم فمَن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرضُ ولا فخر، وأنا أول شافعٍ وأول مشفعٍ ولا فخرَ»[٣].

---

(١) صحيح البخاري في الرقاق، رقم ٦٥٢٥ـ٦٥٢٧.

(٢) فتح الباري: ١١/ ٣٨٥.

(٣) رواه أحمد والترمذي وصححه وابن ماجة وابن خزيمة.

تخصيصُه ﷺ بالمقام المحمود:

أخبر تعالى عن ذلك بقوله الكريم: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨ ـ ٧٩].

وكلمة (عسى) في كلام الله تعالى تدلُّ على تحقق الوقوع.

والمقام المحمود من الخصائص الكبرى التي خَصَّ الله تعالى بها النبيَّ ﷺ يوم القيامة، وقد ورد فيه كثيرٌ من الأحاديث الشريفة الصحيحة التي تدلُّ على علوِّ منزلةِ النبي ﷺ، واختصاصه بهذه المنزلة دون سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

قال ابنُ كثير رحمه الله: لرسولِ الله ﷺ تشريفاتٌ يومَ القيامة لا يشركه فيها أحدٌ، وتشريفاتٌ لا يساويه فيها أحدٌ، فهو أول من تنشقُ عنه الأرضُ، ويبعثُ راكباً إلى المحشر، وله اللواءُ الذي آدم فَمَنْ دونه تحتَ لوائِه، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثر وارداً منه، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي بفصل القضاء بين الخلائق، وفي هذا المقام يحمده الخلائقُ كلُهم، كما يحمده خالقُهم تبارك وتعالى.

هو ﷺ أول شافع ومشفع:

وهو ﷺ أول شافعٍ يلجأُ إليه الخلقُ يومَ القيامة، لكي يرفعَ الله عنهم أهوالَ يوم المحشر عندما تدنو الشمسُ منهم.

ففي الحديث عن ابن عمر عن النبي ﷺ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] قال: «يقوم أحدُهم في رشحِه إلى أنصافِ أذنيه».

وعن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ العرقَ يومَ القيامةِ ليذهبُ في الأرضِ سبعينَ باعاً، وإنَّه ليبلغُ إلى أفواهِ الناسِ أو إلى آذانهم».

وعن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُدنى الشمسُ يومَ القيامةِ من الخَلْقِ، حتى تكونَ منهم كمقدارِ ميلٍ».

قال سُليمُ بن عامرٍ راوي الحديث عن المقداد: فوالله ما أدري ما يعني بالميل؟ أمسافةَ الأرضِ، أم الميلَ الذي تكتحلُ به العينُ.

قال: «ويكون الناسُ على قدر أعمالهم في العرقِ، فمنهم من يكونُ إلى كعبيه، ومنهم من يكون على رُكبتيه، ومنهم من يكون إلى حَقْوَيه[1]، ومنهم من يلجمُه العرقُ إلجاماً».

قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه[2].

كما أنه ﷺ أول مشفع يكرمُه الله تعالى بقبول شفاعته، ويأذنُ له فيها، ويرضى قولَه، فهو المرادُ منْ قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

وقال ابن بطّال: أنكرتِ المعتزلةُ والخوارجُ الشفاعةَ في إخراجِ مَنْ أُدخلَ النار من المذنبين، وتمسكوا في قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] وغير ذلك من الآيات.

وأجاب أهلُ السنةِ بأنَّها في الكفار.

وجاءت الأحاديث في إثباتِ الشفاعةِ المحمدية متواترةً، ودلَّ عليها تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، والجمهورُ على أنَّ المرادَ به الشفاعة.

وبالغَ الواحديُّ فنقل فيه الإجماع.

وقال الطبريُّ: قال أكثر أهل التأويل: المقام المحمود هو الذي يقومه النبي ﷺ ليريحهم من كَرْبِ الموقف[3].

فالأحاديث التي وردت في الشفاعة كثيرة بلغت مبلغَ التواترِ المعنويِّ، أكتفي بذكر واحدٍ منها.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أُتي رسول الله ﷺ بلحمٍ، فرفعَ إليه

---

(١) حقويه: خصره أو مربط الإزار من الإنسان.

(٢) صحيح مسلم في كتاب الجنة، رقم ٢٨٦٢ ـ ٢٨٦٣ ـ ٢٨٦٤.

(٣) فتح الباري: ١١/ ٤٢٦.

الذراعَ، وكانت تعجبُه، فنهسَ منها نهسةً[1]، فقال: «أنا سيدُ الناسِ يوم القيامة، وهل تدرون بم ذلك؟

يجمعُ الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي، وينفذهم البصر[2]، وتدنو الشمسُ، فيبلغُ من الناس الغمُّ والكربُ ما لا يطيقون وما لا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟.

فيقول بعضُ الناس لبعضٍ: ائتوا آدم. فيأتون آدم فيقولون: يا آدم! أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخَ فيك من روحِه، وأمرَ الملائكةَ فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟.

فيقول آدم: إنَّ ربي غضبَ اليومَ غضباً لم يغضب قبلَه مثله، ولن يغضبَ بعدَه مثله، وإنَّه نهاني عن الشجرة فعصيتُه، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، إذهبوا إلى نوح.

فيأتون **نوحاً** فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض، وسمّاك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟.

فيقول لهم: إنَّ ربي قد غضبَ اليوم غضباً لم يغضبْ قبلَه مثله، ولن يغضبَ بعده مثله، وإنَّه قد كانت لي دعوةٌ دعوتُ بها على قومي، نفسي نفسي، اذهبوا إلى إبراهيم ﷺ.

فيأتون **إبراهيم** فيقولون: أنت نبيُّ الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟.

فيقول لهم إبراهيم: إنَّ ربي قد غضبَ اليومَ غضباً لم يغضبْ قبلَه مثلَه، ولا يغضبُ بعده مثله. وذكر كذباته، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري.

---

(١) أي أخذ منها بأطرافْ أسنانه.

(٢) معناه أنه يحيط بهم الناظر فلا يخفى عليه منهم شيء لاستواء الأرض، فليس فيها ما يستتر به أحد عن الناظرين.

فيأتون موسى ﷺ فيقولون: يا موسى أنت رسول الله، فضلك الله برسالاته وبتكليمه على الناس، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟.

فيقول لهم موسى ﷺ: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلتُ نفساً لم أومر بقتلها، نفسي نفسي، اذهبوا إلى عيسى ﷺ.

فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلّمتَ الناس في المهد، وكلمةٌ منه ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟.

فيقول لهم عيسى ﷺ: إنَّ ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعدَه مثله ـ ولم يذكر له ذنباً ـ نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ.

فيأتوني فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحنُ فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟.

فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله علي، ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلي.

ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، وسل تعط، اشفع تُشفع.

فأرفع رأسي فأقول: يا ربِّ أمتي أمتي.

فيقال: يا محمد أدخل الجنةَ من أمتك مَنْ لا حسابَ عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب. والذي نفسُ محمدٍ بيده إنَّ ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى»[١].

---

(١) صحيح مسلم في الإيمان، رقم ١٩٤.

قال ابن حجر رحمه الله: قال الداودي: كأنَّ راوي هذا الحديث ركّبَ شيئاً على غير أصله، وذلك أنَّه في أولِ الحديث ذكرَ الشفاعةَ في الإراحة من كَرْبِ الموقف، وفي آخره ذكرَ الشفاعةَ في الإخراجِ من النار، وذلك إنما يكون بعد التحول من الموقف، والمرور على الصراط، وسقوط من يسقط في تلك الحالة في النار، ثم يتبع بعد ذلك الشفاعة في الإخراج.

وهو إشكال قوي، وقد أجاب عنه عياضٌ وتبعه النووي وغيرهُ، لأنَّه قد وقع في حديث حذيفة المقرون بحديث أبي هريرة: «فيأتون محمداً فيقوم ويؤذن له» أي في الشفاعة.

وترسلُ الأمانة والرحم فيقومان جنبي الصراط يميناً وشمالاً، فيمر أولهم كالبرق.. الحديث، قال عياض: فبهذا يتصل الكلام، لأنَّ الشفاعة التي لجأ الناس إليه فيها هي الإراحة من كرب الموقف، ثم تجيء الشفاعة في الإخراج.

قد وقع في حديث **أبي هريرة** رضي الله عنه، الأمر باتباع كل أمة ما كانت تعبد، ثم تمييز المنافقين من المؤمنين، ثم حلول الشفاعة بعد وضع الصراط والمرور عليه، وكان الأمرُ باتباع كل أمة ما كانت تعبد أول فصل القضاء والإراحة من كرب الموقف. قال: وبهذا تجتمعُ متونُ الأحاديثِ، وتترتب معانيها. قلتُ: فكأنَّ بعض الرواة حفظَ ما لم يحفظ الآخر[1].

شهادته ﷺ على أمته، وشهادة أمته على الأمم:

كما أكرمه الله تعالى بالشهادة على أمته يوم القيامة، أنه بلغهم الرسالة، وأقام عليهم بها الحجة قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤١ ـ ٤٢].

وقد بكى ﷺ عندما سمع هذه الآية.

فعن **عبد الله بن مسعود** قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ علي». قلتُ: أقرأُ عليك وعليك أُنزل؟.

---

(١) فتح الباري في الرقاق: ١١/٤٣٨.

قال: «إني أشتهي أن أسمعه من غيري».

فقرأتُ النساء حتى إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال لي: «كف أو أمسك». فرأيت عينيه تذرفان[1].

واختلفوا في سبب بكائه، فرأى بعضُهم أنه ﷺ بكى لأنه مثّلَ لنفسه أهوالَ يوم القيامة، وشدةَ الحالِ الداعية له إلى شهادته لأمته بالتصديق، وسؤاله الشفاعةَ لأهلِ الموقف، وهو أمرٌ يحقُّ له طول البكاء.

ورأى ابن حجر رحمه الله أنه بكى رحمة بأمته، لأنه علم أنّه لابد أن يشهد عليهم بعملهم، وعملهم قد لا يكون مستقيماً، فقد يفضي إلى تعذيبهم[2]. وسيأتي معنا ما يؤكد صحة كلام ابن حجر رحمه الله.

وقال أيضاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وأكد ذلك أيضاً في قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل ٨٩]، وأمرهم سبحانه بالإكثار من الطاعات شكراً لله على ما أولاهم فقال: ﴿وَجَٰهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

دعاؤه ﷺ لأمته وبكاؤه شفقة عليهم:

وكان ﷺ كثيرَ الدعاءِ لأمته، شفقةً عليهم، ورحمةً بهم.

ففي الحديث الشريف عن **عبد الله بن عمرو بن العاص** أنّ النبيَّ ﷺ تلا قول الله عزَّ وجلَّ في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ

---

(١) صحيح البخاري في فضائل القرآن، رقم ٥٠٥٥.
(٢) انظر فتح الباري: ٩/٩٩.

﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفع يديه وقال: «اللهمَّ أمتي أمتي، وبكى، فقال الله عزَّ وجلَّ: يا جبريلُ اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال. وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمّدٍ فقل: إنّا سنرضيك في أمتِك ولا نسوءك»[1].

وقوله «إنا سنرضيك» هذا موافقٌ لقول الله عزَّ وجلّ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥].

اختبأ ﷺ دعوته شفاعة لأمته يوم القيامة:

جعل الله تعالى لكلِّ نبيٍّ دعوةً مستجابةً في الدنيا، فتعجّلَ كلُّ نبيٍّ دعوتَه في الدنيا، إلا نبينا ﷺ، فإنّه أخّرَ دعوته لكي يشفعَ بها لأمته يوم القيامة.

ففي الحديث عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ، فتعجّلَ كلُّ نبيٍّ دعوتَه، وإنِّي اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة، فهي نائلةٌ إن شاء الله مَنْ ماتَ من أمتي لا يشركُ بالله شيئاً»[2].

ورواه البخاري عنه أيضاً ولفظه: «لكلِّ نبي دعوةٌ مستجابةٌ يدعو بها، وأريد أن أختبىءَ دعوتي شفاعةً لأمتي في الآخرة»[3].

وقد استشكل ظاهرُ الحديث بما وقع لكثيرٍ من الأنبياء من الدعوات المجابة، ولا سيّما نبينا ﷺ، وظاهرُه أنَّ لكلِّ نبي دعوة مستجابة فقط.

والجوابُ أنَّ المراد بالإجابة للدعوة المذكورة القطع بها، وما عدا ذلك من دعواتهم فهو على رجاء الإجابة.

وقيل معنى قوله: «لكل نبي دعوة» أي أفضل دعواته، ولهم دعواتٌ أخرى.

---

(١) صحيح مسلم في الإيمان، رقم ٢٠٢.
(٢) المرجع السابق في الإيمان، رقم ١٩٩.
(٣) صحيح البخاري في الدعوات، رقم ٦٣٠٤.

وقيل: لكلٍّ منهم دعوةٌ عامةٌ مستجابةٌ في أمته، إما بإهلاكهم، وإما بنجاتهم، وأما الدعوات الخاصة فمنها ما يستجابُ ومنها ما لا يستجابُ. . والجزمُ بأنَّ جميع أدعيتهم مستجابةٌ فيه غفلة عن الحديث الصحيح الذي مرَّ معنا «سألتُ الله ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة».

قال ابن بطال: في هذا الحديث بيانُ فضل نبينا ﷺ على سائر الأنبياء حيث آثر أمته على نفسه وأهل بيته بدعوته المجابة، ولم يجعلها أيضاً دعاءً عليهم بالهلاك، كما وقع لغيره ممن تقدم.

وقال ابن الجوزي: هذا من **حسن تصرفه** ﷺ، لأنه جعل الدعوة فيما ينبغي، ومن **كثرة كرمه**، لأنه آثر أمته على نفسِه، ومن **صحة نظره**، لأنه جعلها للمذنبين من أمته لكونهم أحوج إليها من الطائعين.

وقال النووي: فيه كمال شفقته ﷺ على أمته، ورأفته بهم، واعتناؤه بالنظر في مصالحهم، فجعلَ دعوته في أهم أوقات حاجتهم[١].

أسعد الناس بشفاعته ﷺ أهل الكبائر:

ولا شكَّ أن أصحاب الكبائر من أمته يكونون يوم القيامة أسعدَ الناس بشفاعته، وهو ما سأل عنه **أبو هريرة** رضي الله عنه، فعنه قال: قلتُ يا رسول الله ﷺ: مَنْ أسعدُ الناسِ بشفاعتك يوم القيامة؟.

قال: «لقد ظننتُ يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا أحدٌ أول منك، لما رأيتُ من حرصكَ على الحديث، أسعدُ الناسِ بشفاعتي يوم القيامة مَنْ قال: لا إلـه إلا الله خالصاً من قِبَلِ نفسه»[٢]. وروي في بعض طرقه بزيادة «وشفاعتي لأهل الكبائر من أُمتي».

إخراج الجهنميين من أمته بشفاعته ﷺ:

ويكرمـه ربُّه سبحانه وتعالى أيضاً بإخراج المعذبين من أمته في جهنم

---

(١) فتح الباري: ١١/ ٩٧.

(٢) صحيح البخاري في الرقاق، رقم ٦٥٧٠.

بشفاعته ﷺ، ففي الحديث عن عمران بن حصين رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «يخرجُ قومٌ من النار بشفاعةِ محمد ﷺ، فيدخلون الجنةَ يسمون الجهنميين»[1].

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن قوماً يُخْرجون من النار يحترقون فيها إلا دارات[2] وجوههم حتى يُدخَلون الجنة».

ورواه مسلم أيضاً بلفظ آخر عن محمد بن أبي أيوب قال: حدثني يزيد الفقير قال: كنتُ قد شغفني رأيٌ من رأي الخوارج[3] فخرجنا في عصابة ذوي عددٍ نريدُ أن نحجَّ، ثم نخرج على الناس[4]. قال فمررنا على المدينة، فإذا جابرُ بن عبد الله يحدثُ القومَ، جالسٌ إلى سارية، عن رسول الله ﷺ. قال: فإذا هو قد ذكر الجهنميين، قال: فقلتُ له: يا صاحبَ رسول الله ﷺ ما هذا الذي تحدّثون؟ والله يقول: ﴿ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، وقوله: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]، فما هذا الذي تقولون؟.

قال فقال: أتقرأ القرآن؟.

قلت: نعم.

قال: فهل سمعتَ بمقام محمد ﷺ - يعني الذي يبعثه الله فيه -.

قلت: نعم.

قال: فإنّه مقام محمد ﷺ المحمود الذي يخرجُ الله به من يخرج.

قال: ثم وضع الصراط ومرَّ الناس عليه. قال: وأخافُ أن لا أكون أحفظ ذاك.

---

(١) صحيح البخاري في الرقاق، رقم ٦٥١٦.

(٢) دارات جمع دارة، وهو ما يحيط بالوجه من جوانبه، ومعناه أن النار لا تأكل دارة الوجه لكونها محل السجود.

(٣) قوله: (رأي من رأي الخوارج) وهو أنهم يرون أصحاب الكبائر يخلدون في النار، ولا يخرج منها من دخلها.

(٤) أي لنظهر مذهب الخوارج وندعو إليه، ونحث عليه.

قال غير أنه قد زعم ـ بمعنى قال ـ إنَّ قوماً يخرجون من النار بعدَ أن يكونوا فيها، قال: يعني فيخرجون كأنهما عيدانُ السماسم ـ وهي عيدان سود ـ قال: فيدخلون نهراً من أنهار الجنة، فيغتسلون فيه، فيخرجون كأنهم القراطيس[1]. فرجعنا فقلنا: ويحكم أترون الشيخ يكذبُ على رسول الله ﷺ؟ فرجعنا فلا والله ما خرجَ منا غير رجلٍ واحدٍ[2].

شفاعات النبي ﷺ:

تبين مما تقدم أن شفاعاتِ النبي ﷺ يوم القيامة متعددةٌ. قال عياض: أثبت المعتزلةُ الشفاعةَ العامةَ في الإراحة من كرب الموقف، وهي الخاصة بنبينا، والشفاعة في رفع الدرجاتِ، وأنكرت ما عداهما.

وقال النووي تبعاً لعياض: الشفاعات خمسٌ:

- في الإراحة من هول الموقف.
- وفي إدخال قوم الجنة بغير حساب[3].
- وفي إدخال قوم حوسبوا فاستحقوا العذاب ألا يعذبوا[4].
- وفي إخراج من أدخل النار من العصاة[5].
- وفي رفع الدرجات[6].

إعطاؤه ﷺ الكوثر:

الكوثـر نهرٌ في الجنة، خصَّ الله تعالى به النبيَّ ﷺ، وأخبر عن ذلك في

---

(١) القراطيس جمع قرطاس وهو الصحيفة التي يكتب فيها، شبههم بالقراطيس لشدة بياضهم بعد اغتسالهم، وزوال ماكان عليهم من السواد.
(٢) صحيح مسلم في الإيمان، رقم ١٩١.
(٣) فتح الباري: ١١/٤٢٨.
(٤) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٩٦٦.
(٥) صحيح مسلم في الصلاة، رقم ٤٠٠.
(٦) صحيح البخاري في التفسير، رقم ٤٩٦٤ ـ ٤٩٦٥.

سورة مستقلة، بين سبحانه فيها فضل النبيِّ ﷺ ومكانته الرفيعة عند ربه جل جلاله، وواساه بها عن بغض أعدائه، ومكرهم وكيدهم فقال: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أي: إنا أعطيناك الخير الكثير من العلم وشرف الدنيا والآخرة.

فقد حدَّث أبو بشر عن سعيد بن جبير عن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه.

قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن الناس يقولون هو نهر في الجنة. فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه[1].

وأصل الكوثر (فوعل) من الكثرة، والعربُ تسمي كلَّ شيء كثير في العدد وكثير في القدر والخطر كوثراً، فهو الفضائل الكثيرة التي فضل بها عليه الصلاة والسلام على جميع الخلق.

وقد أُعطي: **النبوة، والكتاب، والحكمة، والعلم، والشفاعة، والحوض المورود، والمقام المحمود، وكثرة الأتباع، والإسلام، وإظهاره على الأديان كلها، والنصر على الأعداء، وكثرة الفتوح في زمنه وبعده.**

وأولى الأقوال في الكوثر الذي عليه جمهور العلماء أنَّه نهر في الجنة، كما جاء مبيناً في الحديث الشريف.

فعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا، إذ أغفى إغفاءةً، ثم رفعَ رأسَه مبتسِماً. فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله.

قال: «أنزلت علي آنفاً سورة» فقرأ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ ثم قال: «أتدرون ما الكوثر».

فقلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: «فإنَّه نهرٌ وعدنيه ربي عزّ وجلّ، عليه خيرٌ كثيرٌ، هو حوضٌ تردُ عليه

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٧٣٢.

أُمتي يومَ القيامة، آنيتُه عددُ النجومِ، فيختلجُ العبدُ منهم - ينتزع ويقتطع - فأقول: ربِّ إنّه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدثتْ بعدَك»[1].

وعن أنس أيضاً قال: لما عُرجَ بالنبيِّ ﷺ إلى السماء قال: «أتيتُ على نهرٍ حافتاه قبابُ اللؤلؤ المجّوفِ، فقلتُ: ما هذا يا جبريل؟.

قال: هذا الكوثر».

ولما سئلت السيدةُ عائشةُ رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ قالت: هو نهرٌ أُعطيَه نبيُّكم ﷺ، شاطئاه عليه درٌّ مجّوفٌ، آنيتُه كعدد النجوم[2].

قال ابن حجر رحمه الله: ثبتَ تخصيصُه بالنهر من لفظ النبيِّ ﷺ، فلا معدلَ عنه[3].

قال الشيخ محيي الدين النووي: قال القاضي عياض: أحاديثُ الحوضِ صحيحةٌ، والإيمانُ به فرضٌ، والتصديقُ به من الإيمان، وهو على ظاهرِه عند أهل السنةِ والجماعة، لا يُتأوّلُ، ولا يُختلَفُ فيه، وحديثُه متواترُ النقلِ[4].

والإعطاءُ إيتاءٌ على جهةِ التمليك، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المعطى وإن كان كثيراً في نفسِه، قليلٌ بالنسبة إلى شأنه ﷺ، بناءً على أنَّ الإيتاء لا يستعمَلُ إلا في الشيءِ العظيم، والإعطاءُ يستعمَل في القليل والكثير.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ أي: فاعبد ربك الذي أعزك بما أعطاك مراغماً للمشركين الذين يعبدون غير الله تعالى، وانحر له وباسمه، مخالفاً لِعَبَدَةِ الأوثان، وتصدّق على المحاويج، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٢]، ولهذا كان ﷺ يصلي

---

(١) تفسير سورة الكوثر للمؤلف.
(٢) تفسير سورة الكوثر للمؤلف.
(٣) فتح الباري: ١١/ ٤٦.
(٤) صحيح البخاري في الرقاق، رقم ٦٥٧٩.

صلاة العيد في يوم الأضحى، ثم يذبح أضحيته.

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ أي: إن عدوك ومبغضك هو المنقطع عن كلِّ خير، أو هو الذي لا عقب له، أو هو الضعيف الحقير، وأنت الأعزُّ الأشرفُ، تبقى ذريتُك وحسنُ صيتك وآثارُ فضلك إلى يوم القيامة.

وأصلُ البتر: القطع، وشاع في قطع الذنب، وقيل لمن لا عقب له (أبتر)، على الاستعارة. والأبترية معلَّلةٌ بالبغض، فتدور معه، والظاهر أنه انقطع نسلُ كلِّ من كان مبغضاً له ﷺ حقيقةً. والجملةُ كالتعليل بمفهوم الكلام، فكأنّه قال: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ﴾ ما لا يدخلُ تحتَ الحصرِ من النعم، فصلِّ وانحر خالصاً لوجه ربك، ولا تكترث لقولِ الشانئ الكريه، فإنَّه هو الأبتر لا أنتَ. فالله سبحانه يبتر شانئ رسول الله ﷺ من كلِّ خيرٍ، وهو يعم جميعَ من اتصف بذلك(١).

إعطاؤه ﷺ الحوض:

كما أنَّه سبحانه وتعالى تفضّلَ على النبي ﷺ يومَ القيامة بالحوض الذي يصبُّ فيه من الجنة ميزابان من نهر الكوثر.

قال القرطبيُّ تبعاً للقاضي عياض: مما يجبُ على كلِّ مكلفٍ أن يعلمه ويصدّقَ به أن الله سبحانه وتعالى قد خصّ نبيه محمداً ﷺ بالحوض المصرّحِ باسمه وصفته وشرابه في الأحاديث الصحيحة الشهيرة التي يحصلُ بمجموعها العلم القطعي، إذ روى ذلك عن النبي ﷺ من الصحابة ما ينيف على الثلاثين، منهم في الصحيحين ما ينيف على العشرين، وفي غيرهما بقية ذلك مما صح نقله واشتهرت رواته، وأجمع على إثباته السلفُ وأهلُ السنة من الخلف، وأنكرت ذلك طائفةٌ من المبتدعة، وأحالوه عن ظاهره، وغالوا في تأويله من غير استحالةٍ عقليةٍ ولا عاديةٍ تلزمُ من حمله على ظاهره وحقيقته، ولا حاجةَ تدعو إلى تأويله، فخرقَ من حرّفه إجماعَ السلف، وفارق مذهبَ أئمة الخلف. قلتُ: أنكره الخوارج وبعضُ المعتزلة(٢).

---

(١) فتح الباري: ١١/ ٤٧٣.
(٢) المرجع السابق: ١١/ ٤٦٧.

ومما ورد في وصفه ما رواه ابن أبي مُليكة عن **عبد الله بن عمرو** قال النبي ﷺ: «حوضي مسيرةُ شهرٍ، ماؤه أبيضُ من اللبنِ، وريحُه أطيبُ من المسكِ، وكيزانُه كنجومِ السماء، من شربَ منها فلا يظمأ أبداً»[١].

وقوله: «وكيزانُه كنجوم السماء» في حديث **أنس** الذي بعده «وفيه من الأباريقِ كعدة نجوم السماء».

ولأحمد من رواية الحسن عن **أنس** «أكثر من عدد نجوم السماء».

وفي حديث **المستورد** «وفيه الآنية مثل الكواكب».

ولمسلم من طريق موسى بن عقبة عن نافع عن **ابن عمر** «وفيه أباريق كنجوم السماء»[٢].

ومن أوصافه أنَّ مَنْ شربَ منه لم يظمأ أبداً ولو دخل النار.

ففي الحديث عن **أبي ذر** رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسول الله ما آنيةُ الحوض؟، قال: «والذي نفسُ محمدٍ بيده لآنيتُه أكثرُ من عدد نجوم السماء وكواكبها، ألا في الليلة المظلمة المصحية[٣]، آنيةُ الجنة مَنْ شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه، يشخب فيه ميزابان من الجنة، من شربَ منه لم يظمأ، عرضُه مثل طوله، ما بين عمان إلى أيلة، ماؤه أشدُّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل»[٤].

وفي الحديث عن **ثوبان** أيضاً أن النبي ﷺ سُئِلَ عن شرابه فقال: «أشدُّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، يغتّ فيه ميزابان[٥]، يمدانه من الجنة، أحدهما من ذهب، والآخر من وَرِقْ»[٦].

---

(١) أي مهما كان عليه من حساب وعذاب. والحديث في صحيح البخاري رقم ٦٥٧٩.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) قوله: (ألا في الليلة المظلمة) بتخفيف ألا التي هي للاستفتاح. وخصَّ الليلة المظلمة المصحية، لأنَّ النجوم تُرى فيها أكثر، وقوله بعد ذلك: (يغتّ فيه ميزابان) أي يدفقان الماء فيه.

(٤) صحيح مسلم في الفضائل، رقم ٢٣٠٠.

(٥) المرجع السابق في الفضائل، رقم ٢٩٩٤.

(٦) المرجع السابق، رقم ٢٢٩٠.

ويكرم الله سبحانه المؤمنين الواردين على الحوض بالشرب من يد النبيِّ ﷺ، فللمؤمنين موعدٌ مع النبيِّ ﷺ يومَ القيامة عند الحوض.

ففي الحديث عن **عائشة** تقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول وهو بين ظهراني أصحابه: «إنِّي على الحوضِ أنتظرُ مَنْ يرِدُ عليَّ منكم، فوالله ليقتطعن دوني رجالٌ، فلأقولنَّ: أيْ ربِّ مني ومن أمتي. فيقول: إنك لا تدري ما عملوا بعدك، ما زالوا يرجعون على أعقابهم»(١).

وعن **سهل** قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «أنا فرطُكم على الحوضِ، مَنْ وَردَ شَرِبَ، ومن شربَ لم يظمأ أبداً، وليردنَّ عليَّ أقوامٌ أعرفهم ويعرفوني، ثم يحالُ بيني وبينهم»(٢).

ويُبْعَدُ عنه ﷺ من ارتد بعده ولم يثبت عليه.

فعن ابن أبي مليكة عن **أسماء بنت أبي بكر** رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: «إني على الحوض حتى أنظرَ مَنْ يرِدُ عليَّ منكم، وسيؤخذُ ناسٌ دوني، فأقول: يا ربِّ مني ومن أمتي، فيقال: هل شعرتَ ما عملوا بعدك، والله ما برحوا يرجعونَ على أعقابهم» فكان ابنُ أبي مليكة يقول: اللهم إنّا نعوذُ بك أن نرجع على أعقابنا، أو نفتنَ على ديننا(٣).

ومنبرُه ﷺ يومَ القيامة يكون على حوضِه.

ففي الحديث عن **أبي هريرة** رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما بين بيتي ومِنْبري روضةٌ من رياض الجنة، ومنبري على حوضي»(٤).

والمرادُ بتسمية ذلك الموقع روضة أنَّ تلك البقعة تنقلُ إلى الجنة، فتكون روضةً من رياضها، أو أنه على المجاز، لكون العبادة فيه تؤول إلى دخول العابدِ

---

(١) صحيح البخاري في الرقاق، رقم ٦٥٩٣.
(٢) المرجع السابق، رقم ٦٥٨٨.
(٣) فتح الباري: ١١/ ٤٧٥.
(٤) صحيح مسلم في الطهارة، رقم ٢٤٧.

روضةَ الجنةِ. وهذا فيه نظر، إذ لا اختصاص لتلك البقعة، والخبرُ مسوقٌ لمزيد شرف تلك البقعة على غيرها. وقيل: فيه تشبيه محذوف الأداة، أي هو كروضة، لأن من يقعدُ فيها من الملائكة ومؤمني الإنس والجن يكثرونَ الذكرَ وسائر أنواع العبادة.

وقال الخطابيُّ: **المراد من هذا الحديث الترغيب في سُكنى المدينة، وأنَّ مَنْ لازم ذكر الله في مسجدها آل به إلى روضة الجنة وسقي يوم القيامة من الحوض**[1].

ويعرفُ النبي ﷺ أمته عند الحوض ببياض وجوههم، وأطرافهم من أثر الوضوء، وهو ما يسمى الغرة والتحجيل.

ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تردُ عليَّ أمتي الحوضَ، وأنا أذودُ الناسَ عنه، كما يذودُ الرجلُ إبلَ الرجلِ عن إبله» قالوا: يا نبيَّ الله أتعرفنا؟ قال: «نعم، لكم سيما ـ علامة ـ ليست لأحدٍ غيركم، تردون على غُرّاً محجَّلين من أثر الوضوءِ، وليصدنَّ عنّي طائفةٌ منكم فلا يصلون، فأقول: «يا ربِّ هؤلاء منْ أصحابي، فيجيبني ملكٌ فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك»[2].

وعنه أيضاً أنَّ رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: «السلامُ عليكم دارَ قومٍ مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون. وددتُ أنَّا قد رأينا إخواننا».

قالوا: أو لسنا إخوانَك يا رسول الله؟.

قال: «أنتم أصحابي، وإخوانُنا الذين لم يأتوا بعدُ».

فقالوا: كيف تعرفُ مَنْ لم يأتِ بعدُ من أمتِكَ يا رسول الله؟

فقال: «أرأيتَ لو أنَّ رجلاً له خيلٌ غرٌّ محجلةٌ بين ظهري خيلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ (سود لم يخالطها لون آخر)، ألا يعرفُ خيلَه؟».

---

(١) فتح الباري: ١١/ ٤٧٥.

(٢) صحيح مسلم في الطهارة، رقم ٢٤٩.

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: «فإنهم يأتونَ غُرّاً محجّلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض. ألا ليذادنَّ رجالٌ عن حوضي كما يذادُ البعيرُ الضالُّ، أناديهم: ألا هلمَّ، فيقالُ: إنهم قد بدلوا بعدك. فأقول: سُحقاً سُحقاً»(١).

وهو ﷺ أول من يجيز الصراط ويدخل الجنة:

النبيُّ ﷺ أول من يجيزُ الصراط مع أمته، وأول من يدخل الجنة، والصراط الجسر المنصوب على جهنم يمر عليه المسلمون إلى الجنة، فمن رحمته سبحانه بعباده المؤمنين يوم الدين أنه يزحزحهم عن العذاب، ويبعدُهم عن النار بعد الورودِ والاقترابِ، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٧١] أي: كان ورودهم على النار لازماً، ألزم الله به تعالى نفسه وقضى به، فهو قضاءٌ محتَّمٌ مبرمٌ، وقسَمٌ معظَّمٌ، أقسم الله تعالى عليه.

ويؤكد هذا المعنى ما جاء في (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله قال: «لا يموتُ لأحدٍ من المؤمنين ثلاثةٌ من الولدِ فتمسَّه النارُ إلا تَحِلَّةَ القسمِ» وفي رواية «فيلجَ النارَ إلا تحلَّةَ القسمِ» أي: إلا مقدار الوفاء بالقسم.

فمعنى الورود: الدخولُ، ليرى الداخل ما في النار من أنواع العذاب والنكال والأغلال، فقد قضى الله تعالى أن يدخلَ النارَ البرَّ والفاجرَ، والتقيَّ والشقيَّ، ويسلم الله سبحانه برحمته الأبرار الأتقياء من عذابها وحَرِّها، كما سلَّمَ إبراهيم عليه السلام من الاحتراق بنار الدنيا، فكانت عليه برداً وسلاماً.

فيعرفُ الوارد عليها مقدار رحمته سبحانه به، وفضله عليه إذ نجاه منها، ويكون أيضاً تلذذه بنعيم الجنة أعظمَ وأكملَ بعد رؤيته العذاب والنكال.

وفي الحديث عن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ويضرَبُ جسرُ جهنم، قال رسول الله ﷺ: فأكونُ أولَ من يجيزُ، ودعاءُ الرسلِ يومئذٍ: اللهمَّ سلِّمْ سلِّمْ، وبه كلاليبُ مثل شَوْكِ السَّعْدَانِ، أما رأيتم شوكَ السعدانِ؟» قالوا: بلى يا رسول

---

(١) انظر الحديث كاملاً في صحيح البخاري كتاب الرقاق، رقم ٦٥٧٣.

الله. قال: «فإنها مثلُ شوكِ السعدان، غير أنها لا يعلمُ قدر عظمَها إلا الله، فتخطفُ الناس بأعمالهم: منهم الموبَقُ بعمله، ومنهم المخردَلُ، ثم ينجو.

حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده، وأراد أن يخرج من النار مَنْ أراد أن يخرج ممن كان يشهدُ أن لا إله إلا الله، أمر الملائكةَ أن يخرجوهم، فيعرفونهم بعلامةِ آثار السجود، وحرَّم الله على النار أن تأكلَ من ابن آدمَ أثرَ السجود، فيخرجونَهم قد امتُحِشوا، فيُصَبُّ عليهم ماءٌ يقال له ماءُ الحياة، فَيَنْبُتُونَ نباتَ الحبَّةِ في حميلِ السيلِ»[1] أي: ما يحملُ في السيلُ من ترابٍ.

وبعدَ أن يجتازَ ﷺ الصراط يكرمه الله بدخول الجنة، ويكونُ أولَ من يقرعُ بابها.

ففي الحديث عن **أنس بن مالك** قال: قال رسول الله ﷺ: «آتي بابَ الجنة يومَ القيامة، فأستفتحُ، فيقولُ الخازنُ: من أنتَ؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرتُ لا أفتحُ لأحدٍ قبلكَ»[2].

خصَّه الله بالوسيلة والفضيلة في الجنة:

الوسيلةُ في الأصل هي ما يتقربُ به إلى الكبير، يقال: توسلتُ أي تقربتُ، وتطلقُ على المنزلة العالية. والفضيلة المرتبة الزائدة على سائر الخلائق، ويحتمل أن تكون منزلةً أخرى أو تفسيراً للوسيلة[3].

وفي الحديث الشريف عن **جابر بن عبد الله** أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ قالَ حينَ يسمعُ النداءَ: اللهمَّ ربَّ هذهِ الدعوةِ التامَّةِ، والصلاةِ القائمةِ، آتِ محمداً الوسيلةَ والفضيلةَ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدتَه حلَّتْ له شفاعتي يومَ القيامة»[4].

فالوسيلةُ أعلى منزلةٍ في الجَنَةِ، لا يتفضَّلُ الله تعالى بها إلا على عبدٍ من

---

(١) صحيح مسلم في الإيمان، رقم ١٩٧.
(٢) المرجع السابق نفسه.
(٣) فتح الباري: ٢/ ٩٥.
(٤) صحيح البخاري في الأذان، رقم ٦١٤.

عبادِه هو سيدنا رسول الله ﷺ.

ففي الحديث عن **عبد الله بن عمرو بن العاص أنّه** سمعَ النبيَّ ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذِّنَ فقولوا مثلَ ما يقولُ، ثم صلّوا عليَّ، فإنَّ مَن صلّى عليَّ صلاةً صلَّى الله عليه بها عَشْراً، ثم سلوا اللهَ لِيَ الوسيلةَ، فإنَّها منزلةٌ في الجنةِ لا تنبغي إلا لعبدٍ من عبادِ اللهِ، وأرجو أنْ أكونَ أنا هو، فمن سأل ليَ الوسيلةَ حَلَّت له الشفاعةُ»[1].

وقوله: «حلت له» أي: استحقت ووجبت أو نزلت عليه، يقال: حلَّ يحُلُّ بالضم إذا نزل، واللام بمعنى على، ويؤيده رواية مسلم «حلت عليه» ووقع في الطحاوي من حديث ابن مسعود «وجبت له»، ولا يجوز أن يكون «حلت» من الحِلِّ لأنها لم تكن قبلَ ذلك محرمةً.

قوله: «شفاعتي» استشكل بعضُهم جعل ذلك ثواباً لقائل ذلك مع ما ثبت من أنَّ الشفاعةَ للمذنبين.

وأجيبَ بأنَّ له ﷺ شفاعاتٍ أخرى ـ كما مرَّ معنا ـ كإدخال الجنة بغير حساب، وكرفع الدرجات، فيعطى لكل أحد ما يناسبه[2].

* * *

(١) صحيح مسلم في الصلاة، رقم ٣٨٤.

(٢) فتح الباري: ٢/ ٩٦.

الخاتمة

وفي الختام أسأل الله تعالى لي ولكل من قرأ الكتاب، وسعى في نشره، أن يجعلنا من أمة سيدنا محمد ﷺ، ويثبّتنا على مِلّته وسُنّتِه، ويحشرنا يوم القيامة تحتَ لوائِه، ويسقينا بيدِه الشريفةِ مِنْ حوضِه، ويمتعنا بشفاعته، ويملأ قلوبنا بأنوارِ محبّته، فالمرءُ يوم القيامة مع منْ أحب.

ففي الحديث عن أنس بن مالك أنَّ أعرابياً قال لرسول الله ﷺ: متى الساعة؟.

قال له رسول الله ﷺ: «ما أعددتَ لها».

قال: حُبُّ الله ورسوله.

قال: «أنتَ مع مِنْ أحببتَ».

وزاد في رواية قال أنس: فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشدَّ من قول النبي ﷺ: «فإنّك مع مَنْ أحببتَ». قال أنس: فأنا أحبُّ الله ورسوله، وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم[1].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيتَ الرجلَ يعملُ العملَ من الخير، ويحمده الناسُ عليه؟.

قال: «تلك عاجِلُ بُشرى المؤمِن».

وهذه البشرى المعجلة دليلٌ على رضى الله تعالى عنه، ومحبتِه له، فيحببه إلى الخلقِ.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم، وأن يعجِّلَ لنا هذه البشرى، اللهم آمين، وصلِّ اللهمَّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

---

(١) صحيح مسلم في البر، رقم ٢٦٣٩.

مصادر الكتاب

أولاً ـ كتب التفسير:

١ ـ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تحقيق إبراهيم اطفيش.

٢ ـ تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، ط ٤.

٣ ـ روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، للعلامة الآلوسي، ط المنيرية.

٤ ـ تفسير الخازن، المطبوع مع مجموعة التفاسير.

٥ ـ موضوعات السور، للمؤلف.

ثانياً ـ كتب السنة:

١ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري، الطبعة السلفية.

٢ ـ صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط. عيسى البابي الحلبي بمصر.

٣ ـ سنن الدارقطني مع التعليق المغني.

ثالثاً ـ كتب السيرة والتاريخ والتراجم:

١ ـ السيرة النبوية، لابن هشام، ط الكليات الأزهرية.

٢ ـ الشفا في التعريف بحقوق المصطفى، للقاضي عياض بن موسى اليحصبي.

٣ ـ البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير.

٤ ـ جمع الوسائل في شرح الشمائل، ط دار المعرفة.

٥ ـ حق اليقين في معجزات خاتم المرسلين، ط وقف البركة.

٦ ـ حياة الصحابة، للكاندهلوي، دار القلم.

٧ ـ السيدة خديجة سباقة الخَلْق إلى الإسلام، للمؤلف، ط دار القلم.

٨ ـ السيدة عائشة أم المؤمنين، للمؤلف، ط دار القلم.

٩ ـ أنس بن مالك، الخادم الأمين والمحب العظيم، ط دار القلم.

رابعاً ـ كتب الفقه:

ـ الفقه الحنفي في ثوبه الجديد (١ ـ ٥)، للمؤلف، ط دار القلم.

خامساً ـ معاجم:

ـ التعريفات، للجرجاني، ط دار الكتب العلمية.

* * *

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥

القسم الأول

من المولد إلى الهجرة

الباب الأول: من المولد إلى البعثة	١١
الفصل الأول: أسماؤه الكريمة ونسبه الشريف	١٣
ـ أسماؤه الكريمة	١٣
ـ كنيته ﷺ	١٥
ـ شرف نسبه ﷺ	١٧
ـ والدته ﷺ	١٩
ـ النبي ﷺ بركة دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام	٢٠
ـ صلة النبي بإبراهيم عليهما السلام	٢١
ـ بشرى عيسى عليه السلام	٢٢
ـ ميثاق النبيين	٢٣
ـ ميثاق الطور	٢٤
الفصل الثاني: معرفة أهل الكتاب به ﷺ	٢٧
ـ أهل الكتاب شهداء على صحة نبوته ﷺ	٢٨
ـ استفتاح أهل الكتاب به	٢٩
ـ الفترة ما بين عيسى والنبي عليهما الصلاة والسلام	٢٩
ـ إيمان بعض أهل الكتاب بالنبي ﷺ	٣٠
الفصل الثالث: مولده الشريف ونشأته	٣٥
ـ الإرهاص الكبير قبل مولده الشريف	٣٥
ـ العلامات التي ظهرت عند مولده الشريف ﷺ	٣٨

- تعظيم مكة المكرّمة ٤٠
- تعظيم عمره الشريف ﷺ ٤١
- تكريمه ﷺ بشرح صدره ٤٢
- حفظه ﷺ من ضلالات الجاهلية ومساوئها ٤٤
- رعايته ﷺ الغنم ٤٧
- بشريته ﷺ ٤٩
- كمال عبوديته لله عزَّ وجلّ ٥٢
- هو أول المسلمين ٥٤
- تقديمه ﷺ بالذكر على جميع الأنبياء والمرسلين ٥٥
- خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ٥٦
- كمال أخلاقه ﷺ ٥٩
- كمال خلقه وحليته ﷺ ٦١
- خاتم النبوة ٦٣
- زواجه ﷺ من السيدة خديجة رضي الله عنها ٦٤
- مناقب خديجة رضي الله عنها ٦٤
- بناء الكعبة المشرّفة ٦٥
- حلف الفضول ٦٧

الباب الثاني: من البعثة إلى الهجرة ٦٩

الفصل الأول: الوحي وأقسامه ٧١
- تعريف الوحي لغةً وشرعاً ٧١
- الملقي والمتلقّي في الوحي ٧٢
- حاله عليه الصلاة والسلام عند نزول الوحي عليه ٧٣
- أقسام الوحي ٧٦
- مجيء جبريل في هيئة إنسان إلى النبي ﷺ ٧٧

الفصل الثاني: نزول الوحي على النبي ﷺ ٧٩
- لم يكن ﷺ ينتظر نزول الوحي عليه ٧٩

- حديث زيد بن عمرو بن نفيل ٨١
- إرهاصات النبوة ٨٢
- الأربعون سن الأشد ٨٦
- الرؤيا الصادقة والمبشرات ٨٦
- نوم الأنبياء ٨٨
- رؤياه دخول المسجد الحرام ٩٠
- رؤيا النبي ﷺ في النوم ٩١

الفصل الثالث: تنزيل القرآن الكريم ٩٣
- نزول جبريل بالقرآن الكريم على قلبه ﷺ ٩٣
- حرصه ﷺ على تلقّي الوحي وتطمينه ٩٥
- تثبيت القرآن في قلبه ﷺ ٩٦
- تنجيم نزول القرآن الكريم ٩٦
- القرآن والسنّة ٩٨

الفصل الرابع: الرحمة العظمى ١٠١
- المنّة العظمى ببعثته ﷺ ١٠١
- تمام النعمة ١٠٣
- الذكر والشكر ١٠٤
- رسالته ﷺ إلى الإنس والجن ١٠٦
- حفظ القرآن الكريم عند إنزاله ١٠٧
- إسلام قرينه ١٠٨

الفصل الخامس: النبوّة والرسالة والدعوة ١١١
- التكليف بقيام الليل ١١١
- الدعوة والإنذار ١١٣
- مهمة النبي ﷺ وأثرها ١١٤
- الدعوة إلى الله سرّاً ١١٥
- السابقون إلى الإسلام ١١٩

- إعلان الدعوة ومواجهة المشركين ١٢٠
- معارضة أبي لهب وامرأته للنبي ﷺ ١٢١
- قيام عمه أبي طالب بحمايته ﷺ ١٢٤
- معارضة أبي جهل ١٢٦
- المعاند المكذّب الوليد بن المغيرة المخزومي ١٢٩
- ما لقي النبيّ ﷺ وأصحابه من أذى المشركين ١٣١
- عقبة وأُبيّ ١٣٤
- الإكراه على الكفر ١٣٥
- بذل أبي بكر ماله لتخليص المستضعفين ١٣٦
- ثبات النبي ﷺ ورفضه ما عرضه عليه رؤساء قريش ليترك الدعوة ١٣٧
- سؤال المشركين اليهود عنه ﷺ ١٤٠
- حرص المشركين على أذى النبي ﷺ ولو بأبصارهم ١٤١

الفصل السادس : الهجرة إلى الحبشة ١٤٣
- الهجرة الأولى إلى الحبشة ١٤٣
- سبب عودة المهاجرين من الحبشة ١٤٥
- الهجرة الثانية إلى الحبشة ١٤٧
- محاولة قريش رد المهاجرين إليها وفشلها في مسعاها ١٤٩

الفصل السابع : إسلام عمر، والحصار الظالم، وعام الحزن، والهجرة إلى الطائف ١٥١
- إسلام عمر رضي الله عنه ١٥١
- الحصار الظالم والصحيفة الجائرة ١٥٣
- عام الحزن ١٥٤
- الهجرة إلى الطائف ١٥٤

الفصل الثامن : حرص النبي ﷺ على هداية المشركين ومواساته عن إعراضهم ١٥٧
- حرص النبي ﷺ على هداية المشركين ١٥٧
- كثرة مواساته دليل على علوّ منزلته ﷺ ١٥٨

- نفي الحرج عن قلبه وشرح صدره ١٦٠
- تكليفه ﷺ بالاستغفار والتسبيح ١٦١
- أمره بالتقوى والتوكّل واتّباع الوحي ١٦٢

الفصل التاسع: معجزات النبي ﷺ ١٦٥
- المعجزة القرآنية ١٦٥
- بعض وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ١٦٦
- ردّ القرآن الكريم ما اتُّهِم به ﷺ ١٦٨
- شهادة الله وملائكته في القرآن على صدقه ١٦٩
- تنزّهه ﷺ عن المنافع الدنيوية ١٦٩
- معجزات النبي ﷺ الحسية ١٧١
- معجزة انشقاق القمر ١٧١
- نبع الماء من بين أصابعه ﷺ ١٧٢
- تكثير الطعام القليل وزيادته ١٧٣
- حنين الجذع ١٧٤
- قتال الروم والفرس ١٧٥
- معجزة الإسراء والمعراج ١٧٦
- المعجزة الأرضية والمعجزة السماوية ١٧٨
- معجزة المعراج ١٨٣
- فرض الصلوات الخمس في السماء ليلة الإسراء والمعراج ١٨٨
- هل رأى النبيُّ ﷺ ربّه؟ ١٨٩
- فضل المسجد الأقصى ١٩٢

الفصل العاشر: الهجرة إلى المدينة ١٩٥
- عرض الدعوة على القبائل في المواسم ١٩٥
- عرضه ﷺ الدعوة على بني عامر وبني محارب ١٩٧
- عرضه ﷺ الدعوة على بني عبس ١٩٧
- عرضه ﷺ الدعوة على كندة ١٩٨

- عرضه ﷺ الدعوة على بني عامر بن صعصعة ١٩٩
- عرضه ﷺ الدعوة على بني شيبان ٢٠١
- عرضه ﷺ الدعوة على الأوس والخزرج ٢٠٦
- بيعة العقبة الثانية ٢٠٨
- الهجرة خروج لا إخراج ٢١٢
- حديث الهجرة ٢١٣
- في غار ثور ٢١٨
- في طريق الهجرة ٢٢٠
- وصول النبي ﷺ إلى قباء ٢٢٣
- المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى ٢٢٥
- مقدم النبي ﷺ المدينةَ المنورة ٢٢٦
- النزول إلى بيت أبي أيوب الأنصاري ٢٢٨
- دور أبي بكر في الهجرة وثناء الله عليه ٢٢٩
- أول أيام التاريخ الإسلامي ٢٣٠
- أول المهاجرين إلى المدينة ٢٣١
- الحنين إلى مكة ٢٣٣
- مخاطر ومصاعب في طريق الهجرة ٢٣٥
- دموع في الأبطح ٢٣٧

القسم الثاني
من بعد الهجرة إلى لقاء الله تعالى

الباب الأول: الرسول ﷺ في المدينة ٢٤٣
الفصل الأول: أعماله ﷺ بعد الهجرة ٢٤٥
- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ٢٤٥
- بناء المسجد النبوي ٢٤٧
- تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام ٢٤٨
- تشريع الأذان ٢٥٠

الفصل الثاني : النبي ﷺ وأهل المدينة المنورة ٢٥٣
- النبي ﷺ والمسلمون ٢٥٣
- مكانة النبي ﷺ عند المؤمنين ٢٥٣
- عموم ولاية النبي ﷺ وشمولها ٢٥٥
- وجوب طاعته ﷺ ٢٥٧
- طاعته ﷺ مفتاح الوصول ٢٥٩
- وجوب محبته ﷺ ٢٦٠
- وجوب تعظيمه وتوقيره والتأدّب معه ﷺ ٢٦١
- التحذير من إيذاء النبي ﷺ ٢٦٦
- تشريع الصلاة والسلام عليه ﷺ ٢٦٦
- تواضعه ﷺ للمؤمنين ٢٧٠
- عتاب وتكريم ٢٧١

الفصل الثالث : النبي ﷺ واليهود ٢٧٣
- موادعته ﷺ يهود المدينة ٢٧٣
- كراهيتهم النبيَّ ﷺ ومكرهم به ٢٧٥
- سحرهم النبي ﷺ ٢٧٨
- محاولة قتله بالسم ٢٨١
- عصمة الله تعالى نبيه ﷺ من الناس ٢٨٣
- تحذير المؤمنين من كيد اليهود ومكرهم ٢٨٣
- اجتهاد النبي ﷺ وعصمة النبوة ٢٨٤
- إخراج بني قينقاع ٢٨٥
- إخراج بني النضير في الحشر الأول ٢٨٧
- قتل كعب بن الأشرف ٢٨٩
- قتل أبي رافع عبد الله بن أبي الحقيق ٢٩٢
- فتح خيبر ٢٩٤
- إخراج اليهود من شبه الجزيرة العربية ٢٩٨

الفصل الرابع : النبي ﷺ والمنافقون ٣٠٠
- تعريف المنافقين ٣٠٠
- صبره عليه الصلاة والسلام على أذاهم ٣٠٢
- حديث الإفك ٣٠٤
- المتقاعسون عن القتال ٣١٠
- مسجد الضرار ٣١٢
- تشكيك وخذلان ٣١٤
- اللمّازون ٣١٤
- إسقاط وحرمان ٣١٥

الباب الثاني: الجهاد والمغازي ٣١٧
الفصل الأول : تشريع الجهاد والتكليف بالقتال ٣١٩
- استمرار التكليف بالجهاد ٣٢٠
- الاستعداد للمعركة والأخذ بأسباب النصر ٣٢١
- الفروسية والرمي ٣٢٢
- مراقبة العدو ورصد تحركاته ٣٢٣
- الحرب الإعلامية ٣٢٤
- الصبر والثبات عند الضربة الأولى ٣٢٦
- الكفّ عن الإغارة إذا سمع الأذان ٣٢٧
- فضل المجاهدين معه ﷺ ٣٢٧
- جريمة المتخلّفين عن الجهاد معه ﷺ ٣٢٨
- أحكام في القتال والأسر ٣٢٩
- الأمر بالتثبّت في أثناء الجهاد ٣٢٩

الفصل الثاني : غزوة بدر الكبرى ٣٣٣
- أهميتها ٣٣٣
- العير أو النفير ٣٣٤
- الوصول إلى بدر ٣٣٥

- الاستشارة والدعاء والإمداد بالملائكة ٣٣٦
- المعركة ٣٣٨
- فضل من شَهِدَ بدراً ٣٤١
- قتل أبي جهل ٣٤٢
- قتل أمية بن خلف ٣٤٣
- إحلال الغنائم ٣٤٦
- قسمة الغنيمة والفيء ٣٤٧
- فداء ووفاء ٣٤٨
- الزواج الميمون ٣٥٠

الفصل الثالث: غزوة أحد ٣٥٣
- أسبابها ٣٥٣
- الطريق إلى أحد ٣٥٤
- شؤم المعصية ٣٥٥
- ثبات النبي ﷺ في أحد ٣٥٧
- ما أصاب النبي ﷺ في أحد ٣٦٠
- نعاس وأمن في الميدان ٣٦٢
- شهداء أحد ٣٦٤
- استشهاد حمزة رضي الله عنه ٣٦٥
- تمثيل المشركين بجثث الشهداء ٣٦٧
- العفو عن الصحابة الذين انهزموا في أُحد ٣٦٩
- الخروج في إثر العدو إلى حمراء الأسد ٣٧٠
- بدر الثانية ٣٧١
- خُلُق النبي ﷺ ٣٧٢
- الدعوة المستجابة ٣٧٣
- شهداء الرجيع ٣٧٤
- القرّاء الشهداء ٣٧٦

الفصل الرابع: غزوة الخندق (الأحزاب) ٣٧٩
- حفر الخندق ٣٧٩
- الأسوة الحسنة ٣٨١
- التبشير بالنصر ٣٨٣
- الحصار ٣٨٤
- هزيمة الأحزاب ٣٨٦

الفصل الخامس: غزوة بني قريظة ٣٨٩
- نقض بني قريظة العهد ٣٨٩
- الخروج إلى حصار بني قريظة ٣٩٠
- حكم سعد بن معاذ فيهم ٣٩٠
- وفاة سعد بن معاذ رضي الله عنه ٣٩٢
- رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم من الشجر والثمر ٣٩٤

الفصل السادس: الغزوات بين الخندق والحديبية ٣٩٥
- غزوة ذات الرقاع وتشريع صلاة الخوف ٣٩٥
- غزوة بني المصطلق وتشريع التيمم ٣٩٦
- غزوة ذي قرد ٣٩٧
- قصة عكل وعرينة ٤٠٠
- هجرة الأشعريين وأهل السفينة ٤٠١

الفصل السابع: الفتح المبين أو صلح الحديبية ٤٠٥
- البيعة الموت ٤٠٧
- بيعة الرضوان ٤٠٨
- كيف تم صلح الحديبية ٤٠٩
- قضية أبي جندل بن سهل ٤١٢
- استثناء المؤمنات المهاجرات ٤١٥
- محل الهدي ٤١٦
- حرمة المؤمنين والمؤمنات ٤١٧

- إلزام الصحابة كلمة التقوى وإنزال السكينة عليهم ٤١٨
- جند النصر والفتح ٤١٩

الفصل الثامن: تبليغ الدعوة إلى الملوك والأمراء ٤٢١
- أبو سفيان في مجلس هرقل ٤٢١
- كتابه ﷺ إلى هرقل ٤٢٣
- كتابه ﷺ إلى كسرى ٤٢٤
- كتابه ﷺ إلى باذان ٤٢٥

الفصل التاسع: بين الحديبية والفتح ٤٢٧
- عمرة القضاء ٤٢٧
- الزواج من السيدة ميمونة رضي الله عنها ٤٢٩
- سرايا زيد بن حارثة ٤٢٩
- إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص رضي الله عنهما ٤٣٠
- غزوة مؤتة ٤٣٢
- سيف الله ٤٣٥
- سرية ذات السلاسل ٤٣٦
- سرية أبي عبيدة ٤٣٧
- تشريع الجهاد في البحر وفضله ٤٣٨
- أسر ثمامة بن أثال وإسلامه ٤٣٩

الفصل العاشر: فتح مكة المكرّمة ٤٤١
- كتاب حاطب إلى قريش ٤٤٢
- نيران الظهران في ليلة الفتح ٤٤٣
- دخول النبي ﷺ مكة المكرّمة ٤٤٥
- تقرير حرمة مكة وإحلالها للنبي ﷺ ٤٤٦
- تطهير الكعبة من الأصنام والصور ٤٤٧
- لا هجرة بعد الفتح وبيان فضل المهاجرين ٤٤٨
- فضيلة السابقين إلى الإسلام ٤٥٠

الفصل الحادي عشر: غزوة حنين ٤٥٣
- غزوة أوطاس ٤٥٥
- غزوة الطائف ٤٥٦
- توزيع غنائم حنين وبيان فضل الأنصار ٤٥٧
- الدعاء للأنصار والوصية بهم ٤٥٩
- بدء ظهور الخوارج ٤٦٠
- بعث خالد بن الوليد إلى بني جذيمة ٤٦٢
- سرية عبد الله بن حذافة السهمي وعلقمة بن مجزز المدلجي ٤٦٣

الفصل الثاني عشر: غزوة تبوك ٤٦٥
- النفير العام ٤٦٥
- ساعة العسرة ٤٦٦
- دموع خالدة ٤٦٧
- النصر بالرعب ٤٦٨
- قصة الثلاثة المخلَّفين ٤٧٠
- نزوله ﷺ الحجر بلاد ثمود ٤٧٤
- بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن ٤٧٥
- سرية ذي الخلصة وتحطيم الصنم ٤٧٦
- فتنة الأسود العنسي ٤٧٨

الباب الثالث: من وفود الناس إلى الإسلام إلى وفود النبي ﷺ إلى الرحمن في دار الرضوان ٤٨١

الفصل الأول: عام الوفود ٤٨٣
- وفد بني تميم ٤٨٣
- وفد طيء ٤٨٤
- وفد عبد القيس ٤٨٧
- وفد بني حنيفة ٤٨٨
- نجران وقصة أصحاب الأخدود ٤٨٩

- وفد نجران ٤٩١
- أبو بكر رضي الله عنه أمير الحج ٤٩٢
- وفاة إبراهيم بن رسول الله عليهما الصلاة والسلام ٤٩٣

الفصل الثاني : حجة الوداع ٤٩٧
- وصف حجة النبي ﷺ ٤٩٧
- خطبة النبي ﷺ في منى ٥٠١
- فتواه على الدابة عند الجمرة ٥٠٢
- إكمال الدين وإتمام النعمة ٥٠٢
- آخر سرية جهَّزها النبي ﷺ ٥٠٣
- الدرع المرهونة واللباس الغليظ ٥٠٤

الفصل الثالث : الخطب الجلل . . وفاة النبي ﷺ ٥٠٥
- مكانة السيدة فاطمة رضي الله عنها عند النبي ﷺ ٥٠٦
- مواساة الصحابة ٥٠٧
- ابتداء مرضه ﷺ ٥٠٩
- اشتداد مرضه ﷺ ووصيته ٥١٠
- استخلاف أبي بكر ليصلّي بالناس ٥١١
- سكرات الموت ٥١٢
- في الرفيق الأعلى ٥١٣
- تخييره ﷺ ٥١٤
- كشف الستارة ٥١٤
- السيدة فاطمة تنعاه ﷺ ٥١٥
- الصحابة يوم وفاته ﷺ ٥١٦
- بيعة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة ٥١٨
- تجهيزه ﷺ ودفنه ٥١٩

الفصل الرابع : النبي ﷺ بعد وفاته ٥٢١
- حياة الأنبياء في البرزخ ٥٢١

- النبي ﷺ لا يورث وما تركه صدقة ٥٢٢
بقاء رسالته وأمته بعده ﷺ ٥٢٣
- التبرّك بآثاره ﷺ ٥٢٤

الفصل الخامس: خصائص أمّة محمد ﷺ ٥٢٩
- أمّته ﷺ خير الأمم ٥٢٩
- أمته ﷺ أكثر الأمم ٥٣٠
- الآخرون السابقون ٥٣١
- لا يسلّط الله على أمته من يستأصلهم ٥٣١
- أمّته ﷺ أعظم الأمم ثواباً ٥٣٢
- لا تجتمع أمته ﷺ على ضلالة ٥٣٣
- إمامها في الصلاة منها ٥٣٤

الفصل السادس: أزواج النبي ﷺ وآل بيته ٥٣٥
- أزواجه ﷺ ٥٣٥
- تكريمهنّ وتحريم نكاحهنّ بعده ﷺ ٥٣٥
- زينب وزيد رضي الله عنهما ٥٣٦
- غيرة أزواجه ﷺ ٥٣٨
- المتظاهرتان عليه من أزواجه ﷺ ٥٤٠
- تشريع أحكام خاصة به مع أزواجه ﷺ ٥٤١
- التخيير والاختيار ٥٤٣
- الحجرات النبوية وحرمتها ٥٤٤
- وصف الحجرات النبوية ٥٤٦
- أهل البيت ٥٤٦
- لا عصمة لأهل البيت ٥٤٨

الفصل السابع: كرامة النبي ﷺ يوم القيامة ٥٥١
- هو أول من تنشقّ عنه الأرض ٥٥١
- وهو أول مَنْ يُكسا بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام ٥٥١

- بيده ﷺ لواء الحمد ٥٥٢
- تخصيصه ﷺ بالمقام المحمود ٥٥٣
- هو ﷺ أول شافع ومشفع ٥٥٣
- شهادته ﷺ على أمته وشهادة أمته على الأمم ٥٥٧
- دعاؤه ﷺ لأمته وبكاؤه شفقة عليهم ٥٥٨
- اختبأ ﷺ دعوته شفاعة لأمته يوم القيامة ٥٥٩
- أسعد الناس بشفاعته ﷺ أهل الكبائر ٥٦٠
- إخراج الجهنميين من أمته بشفاعته ﷺ ٥٦٠
- شفاعات النبي ﷺ ٥٦٢
- إعطاؤه ﷺ الكوثر ٥٦٢
- إعطاؤه ﷺ الحوض ٥٦٥
- وهو ﷺ أول من يجيز الصراط ويدخل الجنة ٥٦٩
- خصه الله بالوسيلة والفضيلة في الجنة ٥٧٠
الخاتمة ٥٧٢
مصادر الكتاب ٥٧٣
الفهرس ٥٧٥

* * *

الشيخ عبد الحميد طهماز

ـ ولد في مدينة حماة في سورية عام ١٩٣٧م .

ـ تخرَّج من كلية الشريعة في جامعة دمشق عام ١٩٥٩م .

ـ مارس بعد ذلك التعليم الديني في مدارسها الثانوية والإعدادية إلى جانب التدريس العام وخطبة الجمعة في مسجد السلطان .

ـ انتقل إلى المملكة العربية السعودية في عام ١٩٨٠م للعمل مدرِّساً في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض .

ـ ثم انتقل إلى رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة .

ـ عمل محاضراً في المعهد العالي لإعداد الأئمة والدعاة . .

ـ أشرفَ في خلال عمله على رسائل الماجستير لبعض الطلاب المتخرّجين منه ، بعد تقاعده عن العمل الرسمي في المعهد تفرَّغ للبحث والتأليف .

* * *

مؤلفات الشيخ عبد الحميد طهماز

١ ـ التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم ١/ ٢٥ .

٢ ـ الفقه الحنفي في ثوبه الجديد ١/ ٥ .

٣ ـ الأنساب والأولاد في الإسلام .

٤ ـ ميزات الشريعة الإسلامية .

٥ ـ حياتنا والموعد المجهول .

٦ ـ الأربعون العلمية .

٧ ـ يا بني إسرائيل

٨ ـ السنن الإلـٰهية في الخلق .

٩ ـ من ذخائر القرآن والسنّة في التربية والتهذيب .

١٠ ـ أنس بن مالك .

١١ ـ الشيخ محمد الحامد .

١٢ ـ السيدة عائشة .

١٣ ـ معاذ بن جبل .

١٤ ـ السيدة خديجة .

١٥ ـ أبو موسى الأشعري .

١٦ ـ الإنسان في الإسلام .

* * *